دولة الإسلام في الأندلس

تأليف

محمد عبد الله عنان

العصر الثالث

عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس

القسم الأول

عصر المرابطين وبداية الدولة الموحدية

الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة

الطبعة الثانية

١٤١١ هـ = ١٩٩٠ م

مطبعة المدني
المؤسسة السعودية بمصر
٦٨ شارع العباسية - القاهرة - ت : ٨٢٧٨٥١

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمـــة

حينما عولت على كتابة تلك السيرة المشجية ، الحافلة بالعبر — تاريخ الأندلس — لم يكن يجول بخاطرى ، أن المهمة تقتضى حياة بأسرها ، وأن الأعوام سوف تمر تباعا ، دون أن تصل إلى غايتها . وقد مضى الآن مذ أصدرت القسم الأول من « دولة الإسلام فى الأندلس » فى سنة ١٩٤٢ ، عشرون عاما ، كرست خلالها ، معظم أوقاتى وجهودى ، لإتمام هذه المهمة . ومنذ اثنى عشر عاما ، ، وأنا دائب التردد على اسبانيا والمغرب ، أنقب باستمرار فى مكتباتهما ، ودور محفوظاتهما ، عن كل ما يتعلق بهذه السيرة من مصادر ، ووثائق مخطوطة ، وغير مخطوطة . عربية أو قشتالية ، حتى أضحت هذه المهمة ، مهمة حياتى ، لا أدخر فى تحقيقها وسيلة ولا جهداً .

وقد استطعت خلال هذه الحقبة الطويلة ، أن أكتب تاريخ الأندلس منذ الفتح إلى نهاية دول الطوائف ، فى ثلاثة مجلدات ، وأن أكتب فى نفس الوقت تاريخ المرحلة الأخيرة من دولة الإسلام فى الأندلس ، أعنى تاريخ مملكة غرناطة حتى سقوطها ، ثم تاريخ الأمة الأندلسية المغلوبة واستشهادها المؤسى ، ومحنتها الأخيرة ، بإخراج بقاياها المتنصرة من أوطانها القديمة ، وذلك فى مجلد كبير ، هو « نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين » . .

وكانت الثغرة التى بقيت بين نهاية عهد الطوائف ، وقيام مملكة غرناطة ، وهى عصر المرابطين والموحدين ، وهى ثغرة تستغرق من الزمن نحو مائة وخمسين عاما — كانت تروعنى دائماً بطول مداها ، وتشعب آفاقها ، وخصوصاً بالمغرب . ولكن ، كان لابد لإتمام المهمة التى كرست لها بقية حياتى ، وهى تسطير تاريخ الأندلس منذ الفتح إلى النهاية ، أن أقتحم هذا الميدان الوعر ، وأن أعكف على كتابة تاريخ هذا العصر ، بالرغم من كل ما يكتنفه من صعاب وغموض ، حتى تجبر

الثغرة ، وتتصل المراحل ، ويغدو تاريخ الأندلس ، والأمة الأندلسية ، كله ، وقد استكملت حلقاته ، منذ بدايته إلى نهايته .

وأنه ليملأ نفسى اليوم غبطة ، أننى قد استطعت بعون الله ، أن أتمم هذه المهمة ، وأن أكتب تاريخ عصر المرابطين والموحدين ، فى المغرب والأندلس ، بعد أعوام من العمل الشاق ، والجهد المتواصل ، والتنقيب المستمر ، فى مكاتب مدريد ، والإسكوريال ، والرباط ، وفاس ، والقاهرة ، ولندن ، وأكسفورد ، والڤاتيكان . وقد حرصت فضلا عن تقصى المصادر والوثائق ، على دراسة المواطن الجغرافية والإستراتيجية دراسة عملية ، فزرت بالمغرب سائر عواصمه التاريخية ، وزرت منطقة جبال الأطلس ومدينة تينملّل ، مكة المهدى ابن تومَرت ، ودرست طريق مسير الجيوش المرابطية والموحدية ، إلى شبه الجزيرة الإسبانية ، وزرت مواقع العبور إليها من جانبى المضيق . وأما بالأندلس فإنى لم أترك قاعدة أو مدينة أندلسية قديمة حتى زرتها ، ودرست معالمها القديمة ، وآثارها الأندلسية الباقية . وقد حرصت بنوع خاص على أن أدرس مواقع المعارك العظيمة ، التى نشبت بين الموحدين وبين اسبانيا النصرانية ، فى شنترين ، وفى شلب ، ثم الأرك ، وفى العقاب . وقد قضيت عدة أيام فى دراسة مواقع هاتين المعركتين العظيمتين الحاسمتين — الأرك والعقاب — وقمت لذلك برحلة خاصة ، طفت فيها بسهل الأرك ، ومواقع قلعة رباح القديمة . ثم قصدت إلى جبال سيرّاموزينا التى تفصل بين الأندلس وبين قشتالة ، وصعدت إلى آكامها ، وتجولت فى هضابها ، وطفت بسائر الأماكن التى وقعت فيها معركة العقاب ، من وعر ومن سهل ، وهى المعركة التى سحقت فيها الجيوش الموحِّدية ، وانتهت بانحلال سلطان الموحدين ، وانحلال الأندلس ، ثم سقوط سائر قواعدها العظيمة ، فيما لا يزيد عن ثلاثين عاما . وكانت هذه الدراسات الجغرافية ، والطبوغرافية ، تمدنى بكثير من أسباب الإيضاح والإدراك لظروف هذه المواقع ، والنتائج التى انتهت إليها ، وتعاون على الدقة فى وصف مراحلها وتطوراتها .

وثمة مسألة أخرى جديرة بالتنويه ، وهى أن كتابة تاريخ عصر المرابطين والموحدين ، تعتبر قبل كل شىء تسطيراً لتاريخ المغرب ، ولا يشغل فيه تاريخ الإندلس سوى حيز يسير ، فقد كانت الأندلس أو شبه الجزيرة الأندلسية ، فى هذا العصر الذى استطال زهاء قرن ونصف ، ولاية مغربية ، داخل الإمبراطورية

المغربية الكبرى ، المرابطية ، ثم الموحدية . بيد أن حكم المرابطين ، ثم الموحدين لولاية الأندلس ، والظروف العسكرية ، والإدارية ، والاجتماعية ، التى أحاطت بحكم كل من هاتين الدولتين العظيمتين للأمة الأندلسية ، لا يمكن أن تفهم إلا على ضوء التفاصيل الكاملة لحكم كل منهما للامبراطورية المغربية الكبرى . ومن ثم فقد كان لزاماً على أن أكتب تاريخ عصر المرابطين والموحدين بالمغرب كاملا ، بالرغم مما يحيق بهذه المهمة من صعاب لا نهاية لها ، سواء من الناحية الجغرافية أو القبلية ، أو ناحية الاستيعاب التاريخى . وإنى لأرجو أن أكون قد وفقت إلى بعض ما طمحت إليه ، من عرض تاريخ هذه الفترة الهامة من تاريخ الإمبراطورية المغربية الكبرى ، فى صورته الحقيقية الكاملة .

هذا مع العلم بأنى قد استعرضت فى كتابى « دول الطوائف » ، وهو الذى يتناول العصر الثانى من كتاب « دولة الإسلام فى الأندلس » » نشأة المرابطين ، وفتوحهم فى المغرب ، وقيام الدولة المرابطية الكبرى ، على يد عاهلها العظيم يوسف بن تاشفين ، ثم عبور المرابطين إلى الأندلس ، لإنجاد أمراء الطوائف فى موقة الزلاّقة ، وماتلا ذلك من فتح المرابطين لدول الطوائف ، واستيلائهم على شبه الجزيرة الأندلسية ، ومن ثم فإنى لم أجد موضعاً لتكرار ما سبق أن كتبت فى هذا الشأن . ولهذا فقد بدأت كتابى هذا ، بالتحدث عن خاتمة عهد يوسف بن تاشفين .

وقد رأيت أن أستعرض فى فصل خاص ، أهم المصادر المخطوطة وغير المخطوطة ، التى كانت قبل غيرها ، عمادى فى البحث والدرس . ومن المحقق أن هذه المصادر ، بالرغم مما تقدمه إلينا أحياناً من مواد أصيلة ومعاصرة ، لاشك فى أهميتها ونفاستها ، لا تقدم إلينا سوى القليل ، ولا تعالج إلا بعض نواحى المسائل الكبرى ، التى يعرضها لنا تاريخ الدولتين المرابطية والموحدية ، بيد أنها من جهة أخرى تلقى أضواء كثيرة على النواحى السياسية والإدارية لحكم المرابطين والموحدين ، ولاسيما لشبه جزيرة الأندلس ، فقد كانت لكل من الدولتين فى حكم الأندلس ، أوضاع ومبادىء خاصة .

وأود أن أشير هنا إلى أنى قد جريت فى كتابة تاريخ عصر المرابطين ، والموحدين ، وهو العصر الثالث من كتاب « دولة الإسلام فى الأندلس » — على نفس الأسلوب الذى جريت عليه فى كتابة العصرين الأول والثانى ، ثم الرابع

(نهاية الأندلس) ، وحرصت على أن أستعرض نظم الحكم والأوضاع السياسية والدينية ، لكل من الدولتين ، المرابطية والموحدية ، وسير الحركة الفكرية الأندلسية ، والأحوال الاجتماعية فى ظل كل منهما ، وذلك بقدر ما تمدنا به المصادر والوثائق التى بين أيدينا . كما خصصت لتاريخ اسبانيا النصرانية مكانها المعتاد ، وفقاً لما جريت عليه فى العصور الأخرى .

وكذلك عنيت عناية خاصة بتزويد الكتاب بالخرائط التاريخية ، والرسوم الطبوغرافية ، التى تبين مواقع المعارك الكبرى ، وقد زرتها بنفسى كما تقدم ، وأرجو أن يكون فى ذلك ما يسهل مهمة القارئ والباحث ، فى فهم أوضاع هذه المعارك وظروفها وتطوراتها .

وقد ألحقت بنهاية الكتاب طائفة من الوثائق الهامة المرابطية والموحدية ، والوثائق الأخرى التى رجعت إليها ، ومنها ما لايزال مخطوطاً لم ينشر بعد ، وذلك تسهيلا لمهمة الباحثين فى هذا الميدان ، فى التزود بمعلومات أوفى عن الموضوعات التى تتناولها .

وإنه لا يسعنى فى الختام ، إلا أن أقدم جزيل الشكر والعرفان لسائر الهيئات العلمية والمكتبية ، التى ساهمت فى تسهيل مهمتى ، فى البحث والمراجعة ، والتصوير والنقل ، وفى مقدمتها معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ، ومكتبة الإسكوريال ، ومكتبة مدريد الوطنية ، وخزانة الرباط ، وخزانة جامع القرويين بفاس ، وقسم المخطوطات بالمتحف البريطانى ، والمكتبة البودلية بأكسفورد ، ودار الكتب المصرية ، فقد كان لى من ذخائر هذه الهيئات ، والمكتبات الجليلة ، خير منهل ، وخير معين لى ، فى تأليف هذا الكتاب .

القاهرة فى رجب سنة ١٣٨٣
الموافق نوفمبر سنة ١٩٦٣

محمد عبد الله عنان

بيان عن المصادر

كان عصر المرابطين والموحدين ، من حيث المصادر والوثائق ، من أشق مراحل هذه السلسلة من تاريخ المغرب والأندلس ، التى نضطلع بكتابتها منذ أعوام طويلة ، وذلك نظراً لاستطالة مداه ، وتشعب نواحيه ، وكثرة ثغراته الغامضة . وقد بذلنا خلال الأعوام التى قضيناها فى كتابة تاريخ هذا العصر ، جهوداً مضنية ، فى استيعاب مصادره ، وتقصى الوثائق التى تكشف عن أحداثه وخواصه ، وقمنا فى هذا السبيل بعدة رحلات إلى اسبانيا والمغرب وانجلترا . وقد رأينا أن نستعرض فى هذا البيان الموجز ، أهم المصادر والوثائق المخطوطة والمنشورة ، التى كانت عمادنا فى كتابة هذا التاريخ ، وسوف نعود فى نهاية الكتاب ، فنخص المصادر بثبت عام شامل ، يضمها جميعاً من مخطوط ومنشور ، ومن عربية ، ولاتينية وقشتالية ، وغيرها .

كتاب « المن بالإمامة »

نستطيع أن نقول إن هذا الكتاب ، أو بالحرى القسم الذى وصلنا منه ، هو أهم مصادرنا المخطوطة عن المرحلة الأولى من تاريخ الدولة الموحدية . واسمه الكامل هو حسبما جاء فى الصفحة الأولى ، من المخطوط الوحيد الذى انتهى إلينا ، «كتاب تاريخ المن بالإمامة على المستضعفين ، بأن جعلهم الله أئمة ، وجعلهم الوارثين ، وظهور الإمام أمير الموحدين على الملثمين ، وفى مساق ذلك خلافة الإمام الخليفة أمير المؤمنين [وأحد] الخلفاء الراشدين » . وأما مؤلفه ، فقد ورد اسمه فى صفحة العنوان على النحو الآتى : « أنهى تأليفه ، وأبدع تحبيره وتصنيفه ، عبد الملك ابن محمد بن صاحب الصلاة الباجى رحمه الله » . ويحفظ هذا المخطوط بمكتبة جامعة أكسفورد المسماة « بالمكتبة البودلية » Bodleian Library ، وهو مسجل فى فهرس المخطوطات الشرقية بها ، المنشور باللاتينية فى سنة ١٧٨٧ فى صفحة ١٦٧ ، برقم DCCLVIII (١٧٥٨) ، فهو بذلك من أقدم مخطوطاتها الشرقية .

وهذا المخطوط عبارة عن مجلد ضخم ، يقع فى ١٩٤ لوحة مزدوجة ، أعنى

فى ٣٨٨ صفحة كبيرة الحجم (نحو ٣٠ فى ٢٠ سم) فى كل منها ١٩ سطراً ، وفى كل سطر نحو تسع كلمات ، ومكتوب بخط أندلسى كبير واضح ، وهو سليم جيد الحفظ ، ما عدا ورقة الأولى فهى قديمة باهتة ، ومجلد بجلد متين . وليس فى بداية المخطوط أونهايته ما يدل على تاريخ كتابته ، ولكن يبدو من كتابته وحالته ، أنه ربما يرجع إلى القرن الثامن أو التاسع الهجرى (الرابع عشر أوا لخامس عشر) . ولايضم هذا المخطوط من كتاب « المن بالإمامة » سوى « السفر الثانى » وذلك حسبما سجل فى صفحة العنوان ، وحسبما ورد فى ختام المخطوط على النحو الآتى : « كمل السفر الثانى من كتاب تاريخ المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين وصلى الله على محمد وآله ، يتلوه الثالث بحول الله سنة تسع وستين وخمساية ، خبر وصول العلج الطاغية » .

ويبدو من عنوان الكتاب الذى تقدم ذكره ، أن السفر الأول منه ، يتضمن تاريخ قيام الموحدين ، وظفرهم بالتغلب على المرابطين ، وتاريخ أول خلفاء الموحدين عبد المؤمن بن على ، وهذا السفر الأول من الكتاب لم يصل إلينا ، كما لم يصل إلينا سفره الثالث الذى أشير إليه فى ختام المخطوط . وأما السفر الثانى وهو الوحيد الذى انتهى إلينا ، فيبدأ بحوادث سنة ٥٥٤ هـ ، وينتهى بحوادث سنة ٥٦٨ هـ ، وهى فترة قصيرة من الناحية الزمنية ، ولكنها حافلة بالحوادث الهامة ، التى يعرضها لنا ابن صاحب الصلاة ، وقد كان شاهد عيان لكثير منها ، فى تفصيل شاف ؛ على أن الأحداث التاريخية ليست أهم ما يتضمنه كتاب «المن بالإمامة» . ذلك أن أهم وأنفس ما يتضمنه الكتاب ، هو تلك المجموعة من الرسائل والوثائق الموحدية الصادرة عن الخلفاء والأمراء الموحدين ، التى ينقلها إلينا ابن صاحب الصلاة ، وتلك التفاصيل الدقيقة التى يقدمها إلينا عن نظم الحكم الموحدية ، وعن الشئون الإدارية والمالية ، وهذه الوثائق والتفاصيل تلقى أكبر ضوء على خواص الحكم الموحدى ، والدولة الموحدية .

وبالرغم من أن السفر الثانى الذى انتهى إلينا من كتاب « المن بالإمامة » ينتهى كما تقدم بحوادث سنة ٥٦٨ هـ ، وبالرغم من أن البحث لم يظفر حتى يومنا ، بالحصول على نص السفر الثالث من الكتاب ، فإنا نستطيع مع ذلك أن نعثر بكثير من النبذ والشذور التى يتضمنها هذا السفر المفقود من الكتاب ، وقد نقلها إلينا مؤرخ متأخر هو ابن عذارى المراكشى فى كتابه الجامع « البيان المغرب»

الذى سوف نتحدث عنه فيما بعد ، وهذه الشذور تمتد حتى معركة الأرك فى سنة ٥٩١ هـ ، وحتى وفاة الخليفة يعقوب المنصور فى سنة ٥٩٥ هـ .

ولابن صاحب الصلاة فى عرض الحوادث والشئون أسلوب خاص ، جزل نوعا ، وإن كان يلجأ أحياناً إلى السجع الركيك ، والتنميق المتكلف ، وهو يبدو سواء بأسلوبه ، أوطريقة عرضه للحوادث ، وتقديمه للأشخاص ، مؤرخ بلاط أثير ، يحرص كل الحرص على الإشادة بسادته وبأعمالهم ، يغمرهم خلال حديثه بالألقاب الفخمة ، والدعوات الرنانة ، ولايفوته كلما ذكر اسم الموحدين أن يقرنه بقوله «أعزهم الله» ، ثم هو يلجأ أحياناً فى وصف الخلفاء والأمراء إلى عبارات من المديح المسجع والملق المغرق . بيد أنه مع ذلك لا يحجم فى بعض الأحيان ، عن النقد ، والتنديد بأعمال وتصرفات يراها جديرة بذلك[١] .

وقد كان مؤلف كتاب « المن بالإمامة » من أدباء عصره وكتّابه . وهو عبد الملك بن محمد بن أحمد بن محمد بن ابراهيم الباجى ، ويكنى أبا مروان وأبا محمد ، ويعرف بابن صاحب الصلاة وبصاحب التاريخ[٢] . وهو كما يبدو من اسمه أندلسى من أهل باجة . وفد على إشبيلية مذ نزل بها الموحدون ، واتخذوها عاصمة لولاية الأندلس ، واتصل بالبلاط الموحدى منذ البداية ، وخدم فيه كاتبا وشاعراً ، وكان ضمن الوفود التى لقيت الخليفة عبد المؤمن حين زيارته لجبل طارق فى سنة ٥٥٥ هـ (١١٦٠ م) . وقد عنى ، وهو من أهل باجة ، وهى المنطقة التى قامت بها ثورة ابن قسىّ وأنصاره المريدين ، بأن يؤلف كتابا عن « ثورة المريدين » ، وهو كتاب يشير إليه فى غير موضع من « المن بالإمامة » ولكنه لم يصل إلينا . وقد وصفه ابن عبد الملك فى « الذيل والتكملة » بقوله : « وكان أديباً محسناً ، عنى بحفظ التواريخ وتقييدها ، وصنف « تاريخ ثورة المريدين بالأندلس » و« دولة بنى عبد المؤمن ، ومن أدرك بحياته من بنيه »[٣] ، ومن الواضح أنه يعنى بذلك كتاب « المن بالإمامة » . ولم يقدم لنا أحد ممن تعرض

---

(١) مثال ذلك ما ورد فى حديثه عن غزوة وبذة التى قام بها الخليفة أبو يعقوب يوسف ، ثم عن غزوة شنترين التى انتهت بمصرع الخليفة المذكور (ص ٩٧ و ١٣٤ و ١٣٥ من القسم الثالث من البيان المغرب) .

(٢) كتاب التكلة لابن الأبار (المكتبة الأندلسية) رقم ١٧٢٦ .

(٣) كتاب « الذيل والتكلة » لا بن عبد الملك المراكشى ، الجزء الرابع من مخطوط المكتبة الوطنية بباريس .

لترجمة ابن صاحب الصلاة ، تاريخ مولده أو وفاته . وقد ذكر المستشرق الإسبانى پونس بويجس فى معجمه نقلا عن المستشرق أمارى أنه توفى سنة٥٧٨هـ (١١٨٢م)[١] ، وتابعه فى ذلك الأستاذ بروكلمان فى تاريخ الأدب العربى[٢]، وهو تاريخ خاطىء ، لايتفق مع سياق كتاب « المن بالإمامة . ذلك أن ابن صاحب الصلاة ، يذكر لنا فى مؤلفه حوادث شهدها ترجع إلى سنة ٥٩٤ هـ ، مثل الاحتفال بإتمام بناء صومعة جامع إشبيلية الأعظم ، ورفع التفافيح الذهبية إلى قمتها ، بحضرة الخليفة يعقوب المنصور ، وذلك فى شهر ربيع الآخر سنة ٥٩٤هـ ، عقب عوده ظافرا من معركة الأرك الشهيرة (Fol. 171. v.) ، بل يبدو مما ينقله ابن عذارى فى « البيان المغرب » من شذور عن وفاة المنصور فى سنة ٥٩٥ هـ ، ثم عن حوادث الأعوام الأولى من خلافة ابنه الناصر . ، وهى شذور يبدو فيها أسلوب ابن صاحب الصلاة واضحاً ، أن مؤلف كتاب « المن بالإمامة » قد عاش حتى أواخر القرن السادس ، بل والى أوائل القرن السابع ، وأنه قد توفى على الأرجح حوالى سنة ٦٠٥ هـ (١٢٠٨ م)[٣] . وأما مولده فيمكن أن نضعه بين سنتى ٥٢٠ و٥٣٠ هـ (١١٢٦ — ١١٣٥ م) .

كتاب نظم الجمان

ومن أهم مصادرنا المخطوطة عن أواخر عهد المرابطين ، وأوائل عهد الموحدين قطعة كبيرة مخطوطة من كتاب نظم الجمان لابن القطان ، تتضمن السفر الثالث عشر من هذا الكتاب . وعنوانه على النحو الآتى : « السفر الثالث عشر من كتاب نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان » . وفى داخل المخطوط ، توصف القطعة بأنها « الجزء السادس ، من هذا الكتاب . فى ذكر ما انتهى إلينا من أخبار القرن السادس ، وهو المائة السادسة من الهجرة الكريمة » . ويحتوى هذا المخطوط على ثمانية وستين لوحة مزدوجة كبيرة الحجم (١٣٦ صفحة) فى كل صفحة منها

---

(١) Pons Boigues : Ensayo Bio - Bibliografico sobre los Historiadores y Geograficos Arabigo - Espanoles, p. 246.

(٢) C. Brockelmann : Geschichte der Arabischen Litteratur, Supp. 1. p 554.

(٣) راجع بعض هذه الشذور التى ينقلها ابن عذارى فى البيان المغرب : القسم الثالث الذى يجرى نشره الآن بعناية الأستاذة : هويثى ميرانده ومحمد بن تاويت ومحمد ابراهيم الكتانى عن معهد مولاى الحسن بتطوان : ص ٢٠٧ — ٢١١ و٢١٣ ، و٢١٩ و٢٢٠ و٢٢٣ و٢٢٥ .

تسعة عشر سطراً بخط مغربى كبير ، والنص كله مشكول بالمداد الأحمر ، وأحياناً بخط مذهب ، والمخطوط قديم مبتور الآخر ، وليس هناك ما يدل على تاريخ كتابته . بيد أنه يمكن أن نرجعه إلى القرن الثامن الهجرى . ويبدو من خطه المنمق وعناوينه المذهبة ، أنه ربما كتب برسم أحد الأمراء أو الكبراء .

وأما عن مؤلف الكتاب ، ابن القطان ، فليس لدينا عنه تفاصيل شافية ، وقد ذكر اسم المؤلف فى صفحة العنوان بأنه « الإمام العالم أبو النجوم الباجى » وذكر فى رأس الصفحة الأولى أنه « ابن القطان »(1) . وقد ورد فى لوحة ٦٧ ا من المخطوط ما يدل على أن المؤلف كان حياً ، فى عهد الخليفة الموحدى المرتضى (٦٤٦ — ٦٦٥ هـ) وهو الذى حكم قبل آخر الخلفاء الموحدين .

ويتناول المخطوط أخبار المرحلة الأخيرة من حكم المرابطين منذ سنة ٥٠٨ هـ (١١١٤م) ، وأخبار بداية ظهور المهدى ابن تومرت ، وتقدم دعوته ، وتصنيف أصحابه ، ومرحلة الصراع الأولى بين الموحدين والمرابطين ، وأخبار الأندلس خلال هذه الفترة ، وذلك حتى أخبار سنة ٥٣٣ هـ (١١٣٨ م) . وأهم ما يتميز به هذا القسم من مؤلف ابن القطان أنه ينفرد بإيراد رسالتين هامتين لم تذكرا فى غيره وهما ، رسالة « الكافية فى براهين الإمام المهدى » ، وهى رسالة خاطب بها أبو عبد الرحمن بن طاهر عميد مرسية ، الخليفة عبد المؤمن بن على ، ورسالة وجهها عبد المؤمن إلى الطلبة والمشيخة والأعيان بالأندلس (سنة ٥٤٣هـ) ، يشرح فيها

---

(١) وردت فى التكملة لابن الأبار (المكتبة الأندلسية) رقم ١٩٢٠ ، ترجمة « لعلى بن محمد ابن عبد الملك بن يحيى بن ابراهيم الكتامى الحميرى الفاسى ، أبى الحسن بن القطان » جاء فيها أنه « كان من أبصر الناس بصناعة الحديث ، وأحفظهم لأسماء رجاله ، وأشدهم عناية بالرواية ، ورأس طلبة العلم بمراكش . ونال بخدمة السلطان دنيا عريضة . وله تواليف ، ودرس وحدث . وتوفى على قضاء سجلماسة فى ربيع الأول سنة ثمان وعشرين (أى وستمائة) » .

وعثرنا أيضاً فى « الذيل والتكملة » لابن عبد الملك المراكشى على ترجمة طويلة للمذكور ، جاء فيها انه « فاسى سكن مراكش ، وكان ذاكراً للحديث ، مبحرا فى علومه ، وكان معظما عند الخاصة والعامة من آل عبد المؤمن ، حظى كثيراً عند المنصور منهم ، فابنه الناصر ، فالمستنصر بن الناصر ، فأبى محمد عبد الواحد أخى المنصور ، ثم أبى زكريا المعتصم بن الناصر ، وكان المنصور يؤثره على غيره من أهل طبقته . وكان مرجوعاً إليه فى الفتاوى » (الجزء الخامس من مخطوط المتحف البريطانى لوحة ١٣) .

على أن ما ورد فى المخطوط ، مما يدل على أن ابن القطان كان حياً فى عهد الخليفة المرتضى ؛ يجعلنا نتردد فى الاعتقاد بأنه هو صاحب الترجمة التى أوردها ابن الأبار ، ثم ابن عبد الملك ، لما هنالك من الفارق الزمنى الملحوظ . وربما كان المترجم هو أبو المؤرخ .

قواعد السياسة الشرعية الموحدية ، ولا سيما فى مطاردة المنكر ، وفى شئون المكوس والمغارم .

ويبدى ابن القطان فيما يورده من أخبار الموحدين ، حماسة ظاهرة فى تأييد المذهب الموحدى ، والدولة الموحدية ، ويذكر الإمام المهدى ، وخلفاءه الموحدين بمنتهى الخشوع والإجلال[١] .

القسم الثالث

من كتاب البيان المغرب

كان كتاب « البيان المغرب » لابن عذارى المراكشى ، منذ البداية من أهم مصادرنا فى كتابة تاريخ الأندلس . ولقد انتفعنا خلال كتابة العصرين الأول والثانى من هذا التاريخ ، فى كتابينا « دولة الإسلام فى الأندلس » و« دول الطوائف » ، بجزئيه الأول والثانى ، اللذين نشرا منذ أكثر من قرن بعناية العلامة دوزى ، ثم بجزئه الثالث الذى نشر بعناية الأستاذ ليڤى بروڤنسال . وقد كان من المفروض أن ننتفع بجزئه الرابع الذى صدر بعد ذلك بمدينة تطوان فى سنة ١٩٥٦ ، وهو الذى يتناول بقية عهد المرابطين ، وعهد الموحدين . ولكن اكتشافا جديداً فى منتهى الأهمية غير هذا الاتجاه ، وهو العثور فى الخزانة الناصرية بتامجروت على مقربة من زاكوره بالمغرب ، على مخطوط جديد موسوم « بالجزء الثالث » من « البيان المغرب » ، وهو عبارة عن مجلد كبير يحتوى على ٤٦٣ صفحة كبيرة . فى كل منها واحد وعشرون سطراً . ويبدأ بحوادث سنة ٥٣٣ هـ فى أواخر عهد الدولة المرابطية ، بحملة تاشفين بن على بن يوسف لمقاتلة الموحدين بقيادة عبد المؤمن بن على . وينتهى بحوادث سنة ٦٦٥ هـ ، بخلافة إدريس أبى دبوس الواثق بالله آخر الخلفاء الموحدين ، وحملته إلى السوس ، ويزيد فى البداية ستين صفحة ، وفى النهاية ست وستين صفحة عن الجزء الرابع المطبوع ، هذا فضلا عما يمتاز به فى مواطن كثيرة ، من زيادات فى النص ، وفى الشعر ، ومن تصحيحات كثيرة أخرى .

ولقد اغتبطنا أيما غبطة باكتشاف هذا المرجع النفيس من مراجع عصر الدولة

---

(١) ان هذا الجزء المخطوط من كتاب « نظم الجمان » يوجد اليوم فى حوزة معهدنا المصرى للدراسات الإسلامية بمدريد ، وهو الذى سهل لى مشكوراً سبيل مراجعته ودراسته . وقد علمت أن هذا المخطوط قد أعد للنشر محققاً بعناية صديق الدكتور محمود على مكى وكيل المعهد المذكور .

الموحدية . ويجرى فيه ابن عذارى على طريقته أحياناً من تصنيف روايته إلى فصول ، وأحياناً إلى حوليات سنوية . ثم هو يجرى أيضاً فى أسلوبه على طريقته من إلتزام الحيدة فى إيراد الحوادث وتقديم الأشخاص ، وعدم التورط فى المديح أو الذم ، ويترك هذه المهمة فى الإشادة أو الانتقاص ، لمن ينقل عنهم من مؤرخى الدولة الموحدية . ومن أهم مميزات هذا القسم من « البيان المغرب » ماينقله إلينا ابن عذارى خلال روايته ،من شذور عديدة من المعاصرين من مؤرخى الدولة الموحدية ، ولاسيما ابن صاحب الصلاة ، حيث ينقل إلينا الكثير من « السفر الثالث » من كتاب « المن بالإمامة » . وهو الجزء المفقود من هذا المؤلف حسبما أشرنا إلى ذلك من قبل(١) .

هذا ، وفضلا عن ذلك ، فقد انتفعنا من تراث ابن عذارى بقطعة مخطوطة من أربع وخمسين لوحة ، عن أصل دولة المرابطين ، وولاية يوسف بن تاشفين وفتوحه فى المغرب ، ودخول المرابطين بلنسية ، وأخبار على بن يوسف ، وقصة إحراق كتاب الإحياء ، وولاية تاشفين بن على ، وغزوة ألفونسو المحارب ، وغير ذلك . وكان المرحوم الأستاذ ليڤى بروڤنسال قد عثر بهذه القطعة بين أضابير مكتبة جامعة القرويين بفاس ، ونشر منها بعض شذور ، عن بعض الوقائع الهامة التى وردت فيها ، ثم نشرها أخيراً بنصها الكامل الأستاذ هويثى ميرانده فى مجلة هسپيرس تمودا فى عدد سنة ١٩٦١ .

وكان من حسن الحظ أننا عثرنا خلال بحثنا فى « خروم » (دشت) مكتبة جامع القرويين بفاس ، بأربع صفحات كبيرة من كتاب « البيان المغرب » تتناول حوادث سنى ٥١١ هـ إلى ٥١٤ هـ ، وفيها تفاصيل هامة عن سقوط سرقسطة فى يد ألفونسو الأرجونى (٥١٢هـ)، وعن موقعة كتندة ، وعن ثورة قرطبة ضد المرابطين (٥١٤هـ) ، وتفاصيل أخرى . وكان اختفاء هذه الصفحات يكون ثغرة فى مجموعة الأوراق المخطوطة المتقدمة ، التى عثر بها الأستاذ بروڤنسال ، فجاء عثورنا عليها متمما لهذه المجموعة المتناثرة من كتاب البيان المغرب .

---

(١) سبق أن أشرنا إلى أنه يجرى الآن نشر هذا القسم الثالث من البيان المغرب برعاية معهد مولاى الحسن بتطوان ، وتحقيق الأساتذة أمبروسيو هويثى ميرانده ، ومحمد بن تاويت ، ومحمد ابراهيم الكتانى، وقد أنجز منه حتى اليوم معظمه .

وانتفعنا كذلك ببضعة أوراق مخطوطة من كتاب « صلة الصلة » لابن الزبير ؛ وهى أيضاً من محتويات « خروم » مكتبة القرويين .

أما عن حياة ابن عذارى ، وأصله ونشأته ، فلسنا نعرف الكثير ، وكل ما نعرفه أنه يسمى أبو عبد الله محمد المراكشى ، وأنه قد عاش فى أواخر القرن السابع الهجرى ، فى بداية دولة بنى مرين ، وفى بداية القرن الثامن ، وقد كان لهذا الظرف الزمنى بلا ريب تأثير كبير ، فيما يلتزمه فى روايته عن تاريخ الموحدين ، من الحيدة ، وضبط النفس ، وعدم التورط فى عبارات الملق ، التى يكثر منها مؤرخون مثل ابن صاحب الصلاة ، وابن القطان .

الرسائل المرابطية

إن مصادر العصر المرابطى التى بين أيدينا ، وفى مقدمتها البيان المغرب ، وروض القرطاس ، والحلل الموشية ، ينقصها الكثير مما يلقى ضياء حقيقياً على أحوال الدولة المرابطية ونظمها وخواصها ، وعلى اتجاهات السياسة المرابطية الدينية والسياسية ، سواء بالمغرب ، أو الأندلس . بيد أنه كان من حسن الطالع ، أننا وقفنا خلال بحوثنا بمكتبة الإسكوريال على طائفة عديدة من الرسائل والوثائق المرابطية ، التى تسد فراغاً كبيراً فى هذا الميدان ، وتلقى أضواء كثيرة على خواص الدولة المرابطية ونظمها وسياستها ، هذا فضلا عما تلقيه من أضواء على طائفة كبيرة من الأحداث العسكرية الأندلسية الهامة التى وقعت خلال العصر المرابطى .

وتجتمع هذه الرسائل أولا فى المخطوطين رقم ٤٨٨ ورقم ٥٣٨ ، من فهرس الغزيرى ، وثانيا فى المخطوط رقم ٥١٩ الغزيرى ، وثالثا فى مجموعة أخرى يضمها مخطوط معهد الدراسات الإسلامية بمدريد .

وأهم هذه الرسائل فيما يختص بالعصر المرابطى ، هو المجموعة التى يضمها المخطوط الأول ، وهو رقم ٤٨٨ ، وهو مخطوط قديم مبتور الآخر وليس له عنوان معين ، ولكن جاء فى الورقة الأولى منه ما يأتى : « جمع هذا الكتاب قصائد كثيرة لعلماء يطول تفسير أسمائهم ، للفتح بن خاقان ، ولابن عبد الصمد ، وللبستى ، ولابن عمار ، وابن اللبانة ، وابن زيدون ، وابن حبيب .. ورسائل شتى ورحلة ابن جبير ، ونسخة بيعة والسلام » . على أن أهم ما يحتويه المخطوط هو خمس رسائل ، كتبت عن أهم الأحداث العسكرية التى وقعت بالأندلس أيام

المرابطين ، الأولى رسالة يوسف بن تاشفين عن موقعة الزلاّقة ، والثانية رسالة ابن شرف عن فتح أقليش . والثالثة رسالة أهل سرقسطة حينما حاصرها النصارى إلى الأمير أبي الطاهر تميم بن يوسف ، والرابعة رسالة لعلى بن يوسف عن هزيمة القلعة . والخامسة رسالة أهل بلنسية إلى على بن يوسف عند نزول ألفونسو المحارب عليها ، وهذا عدا وثيقة موحدية هامة هي بيعة أهل قرطبة بولاية العهد ، لمحمد الناصر ولد الخليفة الموحدى يعقوب المنصور .

ويضم المخطوط الثانى ، وهو رقم ٥٣٨ ، عدة رسائل مرابطية ، أخرى ، عن أواخر العهد المرابطى بالأندلس ، أهمها رسالة وجهها تاشفين بن على بن يوسف إلى الفقهاء والوزراء والكافة ببلنسية يحثهم على التزام الجهاد والسنن الرفيعة ، وأداء الصلاة ، ومجانبة الخمر ، والرفق بالرعية ، والتزام مذهب مالك فى الأحكام ، ومطاردة كتب الغزالى . وتعتبر هذه الرسالة من أهم الوثائق المرابطية الدستورية ، هذا إلى عدة رسائل ثانوية أخرى تلقى أضواء مختلفة على جوانب من أواخر العصر المرابطى بالأندلس[١] .

ويضم المخطوط الثالث . وهو رقم ٥١٩ . وهو خاص « بترسيل الفقيه الكاتب أبى عبد الله بن أبى الخصال ومقاماته ومعارضته » ، عدة رسائل مرابطية وجهت إلى على ابن يوسف ، ورسائل أخرى أدبية ، متبادلة بين أكابر كتاب ذلك العصر ، وبين ابن أبى الخصال . تلقى ضوءاً على بعض جوانب أدبية واجتماعية من ذلك العصر .

أما المجموعة الثالثة ، فيضمها مخطوط حصل عليه معهد الدراسات الإسلامية من تركة المرحوم الأستاذ ليڤى پروڤنسال ، وهو نفس المخطوط الذى يضم مجموعة الرسائل الموحدية التى نشرها (سنة ١٩٤١) تحت عنوان « مجموع رسائل موحدية من إنشاء كتاب الدولة المؤمنية » . وقد نشرت هذه الرسائل أخيراً ، وعددها إحدى وعشرون رسالة بمجلة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد[٢] ، وهى تلقى أضواء كثيرة على نواح مختلفة من العصر المرابطى ، سياسية وعسكرية وإدارية .

---

(١) نشرت معظم الرسائل المشار إليها فى المخطوطين السابقين بعناية صديقى الدكتور حسين مؤنس مدير معهد الدراسات الإسلامية بمدريد خلال الأعوام الأخيرة فى فترات مختلفة ، وذلك بمجلة معهد الدراسات الإسلامية (سنة ١٩٥٤ و ١٩٥٥) .

(٢) قام على نشر هذه الرسائل وتحقيقها والتمهيد لها صديقى الدكتور محمود على مكى وكيل معهد الدراسات الإسلامية ، ونشرت بالمجلدين السابع والثامن من مجلة المعهد (سنة ١٩٥٩ — ١٩٦١) .

ويمكننا أن نشير فى هذا الموطن أيضاً . إلى وثيقة مرابطية هامة . أوردها لنا ابن الخطيب فى الإحاطة . وهى كتاب تولية العهد الصادر من يوسف بن تاشفين لولده على .

الرسائل الموحدية

حسبنا أن نشير فى هذا الموطن . أولا إلى مجموعة الرسائل الموحدية التى نشرت بعناية الأستاذ پروڤنسال والتى سبقت الإشارة إليها ، وهى من أهم الوثائق التى تلقى كثيراً من الضوء ، على معظم الأحداث الهامة ، التى وقعت فى عهد الخليفة عبد المؤمن بن على ، وولده الخليفة أبى يعقوب يوسف . فولده الخليفة يعقوب المنصور ، فولده الخليفة محمد الناصر .

وقد وقفنا إلى جانب ذلك على مجموعة من الرسائل المخطوطة . وردت فى مخطوط الإسكوريال رقم ٥١٨ الغزيرى (ديرنبور ٥٢٠) وهو كتاب « زواهر الفكر وجواهر الفكر » لمحمد بن على بن عبد الرحمن المرادى المكنى بابن المرابط ، وهو حسبما ورد فى آخره مكتوب فى سنة ٧٢١ هـ . وهو عبارة عن مجموعة كبيرة من الرسائل الأندلسية ، ومنها عدة رسائل بقلم القاضى الكاتب أبى المطرف بن عميرة عن حوادث بلنسية أيام الفتنة الأخيرة ، التى انتهت بسقوطها فى أيدى النصارى . ورسالة كتب بها عن أهل شاطبة إلى ابن هود ، وظهير موحدى صادر عن الخليفة الرشيد إلى المتوطنين من أهل شرقى الأندلس برباط الفتح ، ورسائل وقصائد لابن الأبار ، وغيرها . وهذه الرسائل تكشف عن كثير من الظروف والأحداث التى وقعت فى شرقى الأندلس ، فى أواخر عهد الموحدين . وأواخر عهد الإسلام به .

التراجم المخطوطة

كان من أهم مصادرنا المخطوطة طائفة كبيرة من التراجم وردت فى موسوعتين هامتين ، الأولى ، «كتاب الذيل والتكملة لكتابى الموصول والصلة » لقاضى الجماعة أبى عبد الله محمد بن عبد الملك بن محمد بن سعيد الأنصارى الأوسى المراكشى المتوفى فيما يرجح فى أواخر القرن السابع الهجرى ، والثانية كتاب « الإحاطة فى أخبار غرناطة » للوزير لسان الدين ابن الخطيب المتوفى سنة ٧٧٦ هـ (١٣٧٥ م) .

وكتاب التكملة موسوعة جليلة من التراجم ، وبها عدد كبير من تراجم أعلام العصرين المرابطى والموحدى ، من فقهاء وكتاب وأدباء وشعراء . وقد رجعنا

إلى أجزائها المخطوطة الموجودة فى دار الكتب المصرية (الجزء المخطوط الموسوم بالسفر الخامس ، والأجزاء المصورة ، وبها تراجم حرف الميم حتى الياء) ، وفى المتحف البريطانى (الرابع والخامس رقم ٧٩٤٠) وخزانة الرباط (الأول مصور مخطوط باريس) ، والإسكوريال (قطعة فقط رقم ١٦٨٢ الغزيرى وبها تراجم حرف السين حتى أوائل حرف ع) ، ونقلنا منها عدداً كبيراً من التراجم . وقد كان من أهم ما انتفعنا به من هذه التراجم ، هو الشذور والنبذ التاريخية العديدة ، التى وردت خلالها عن أحداث العصرين المرابطى والموحدى ، ومنها أحياناً روايات هامة وحيدة لم ترد فى أية مصادر أخرى ، هذا فضلا عن التعريف بكثير من الأعلام الذين تنفرد هذه الموسوعة النفيسة بإيراد تراجمهم .

وكذلك الشأن فى كتاب الإحاطة لابن الخطيب ، فقد وردت به تراجم عديدة لأمراء وزعماء من المرابطين والموحدين ، وكذلك لكثير من أعلام هذا العصر من فقهاء وكتاب وشعراء ، وكان انتفاعنا عظيما بهذه التراجم ، ولاسيما التى وردت منها بالقسم المخطوط من الإحاطة (الإسكوريال رقم ١٦٧٣ و١٦٧٤ الغزيرى) ، وقد ورد خلالها كثير من الشذور التاريخية الهامة ، منقولة عن مصادر ضاعت مثل كتاب « الأنوار الجلية فى أخبار الدولة المرابطية » وغيره .

أما عن كتب التراجم المطبوعة ، فحسبنا أن نشير هنا إلى وفيات الأعيان لابن خلكان ، والصلة لابن بشكوال ، وصلة الصلة لابن الزبير ، وبغية الملتمس للضبى ، والتكملة والحلة السيراء لابن الأبار ، والأخيران يضمان كثيراً من التراجم والنبذ التاريخية الهامة المتعلقة بعصرى المرابطين والموحدين .

وثائق ومصادر أخرى

وليس فى نيتنا أن نتحدث فى هذا البيان الموجز عن المصادر المخطوطة ، عن المصادر المطبوعة ، وهى كثيرة يتعذر حصرها . بيد أنه يجدر بنا أن نشير فقط إلى طائفة من هذه المصادر التى تعتبر إلى جانب المصادر المخطوطة ، من أهم المراجع الرئيسية عن عصر المرابطين والموحدين .

فمنها كتاب «المعجب» لعبدالواحد المراكشى ، و«الحلل الموشية» ، لمؤلف مجهول ، و« روض القرطاس » لابن أبى زرع الفاسى ، وهذه المراجع الثلاثة تتناول عصر المرابطين والموحدين معا ، وهى لمؤلفين عاشوا فى عصر الموحدين أو قريباً منه .

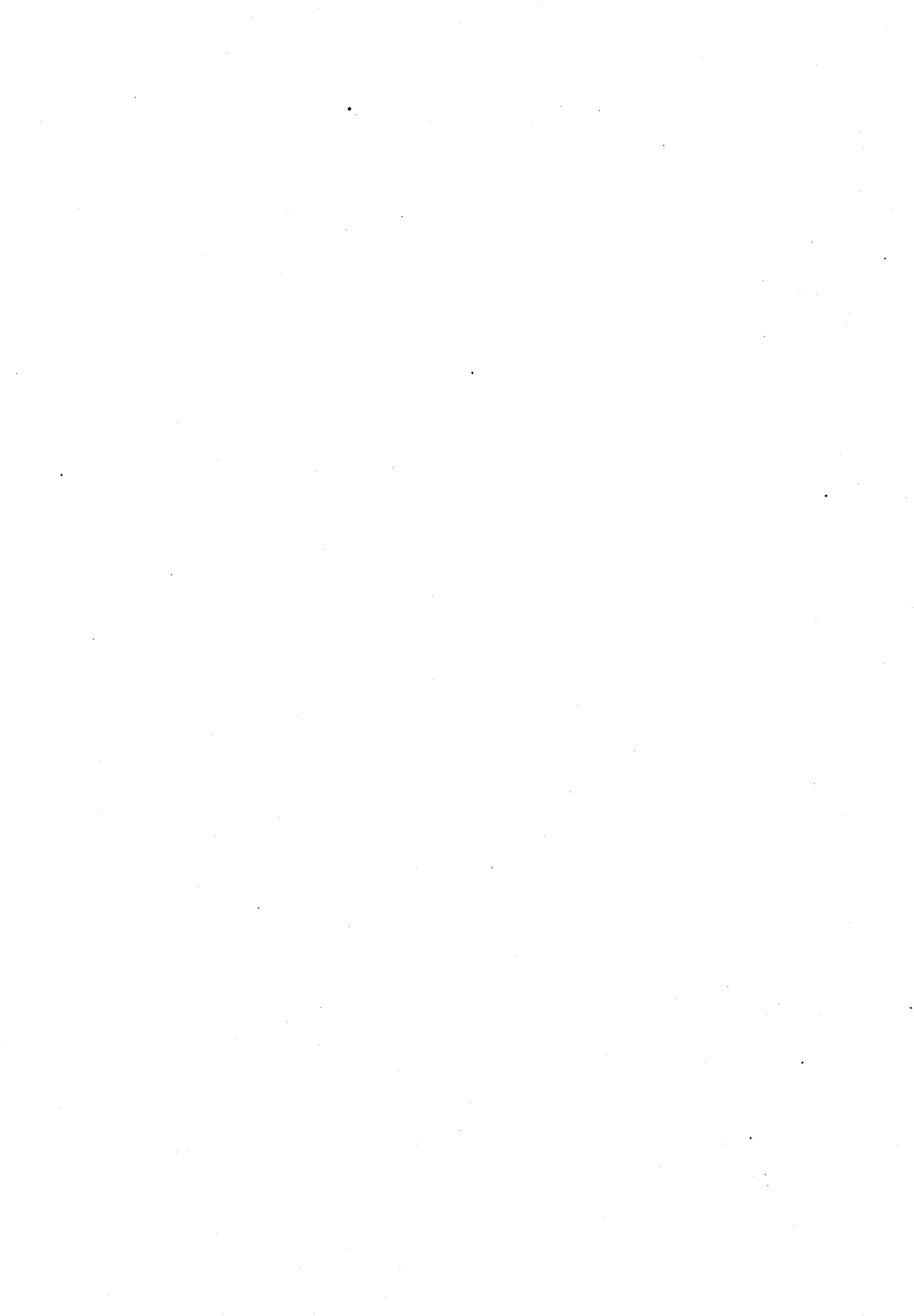
ومنها ما يختص بالموحدين وعصرهم ، وفى مقدمتها مؤلفا المهدى محمد بن تومرت ، وهما « أعز ما يطلب » و« الموطأ » ، وأولهما يضم خلاصة مذهبه وتعاليمه ، والثانى يضم شروحه لأحكام مذهب مالك . ويليهما كتاب « أخبار المهدى ابن تومرت وابتداء دولة الموحدين » وهو من تصنيف أبى بكر الصنهاجي المكنى بالبيذق أحد أصحاب المهدى ، وهو أهم وأقيم مصادرنا عن نشأة المهدى ونسبه وأصحابه ، وحركاته الأولى ، ثم غزوات خليفته عبد المؤمن .

وهناك مصدر هام آخر جدير بالذكر ، وهو « رحلة التجانى » وهى رحلة قصيرة قام بها أبو محمد عبد الله بن محمد التجانى بين سنتى ٧٠٦ و ٧٠٨ هـ ، فى أنحاء تونس وطرابلس ، وهى تتضمن طائفة كبيرة من النبذ والشذور التاريخية القيمة عن الأحداث والمعارك التى وقعت فى أنحاء إفريقية وبلاد الجريد ، بين بنى غانية والموحدين ، وهى من أدق وأوفى الروايات التى انتهت إلينا عن هذه الفترة .

وكذلك رحلة ابن جُبير الأندلسى ، ففيها إشارات ونبذ هامة ، تتعلق بالموحدين ؛ أما عن المصادر الجغرافية المتعلقة بالمغرب والأندلس ، فلدينا ثلاثة من أهمها وأقيمها ، هى كتاب «المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب» ، المستخرج من كتاب « المسالك والممالك » (لأبى عبيد البكرى) ، و« وصف المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس » المستخرج من كتاب « نزهة المشتاق » للإدريسى ، وكتاب « الإستبصار » (لمؤلف مجهول) وهو أحدثها من الناحية التاريخية .

وهذا كله إلى المصادر النصرانية من لاتينية وقشتالية وغيرها ، معاصرة أو محدثة ، وقد ذكرت تباعاً فى مواطنها ، ولا داعى للتحدث عنها هنا .

صفحة من الأوراق المخطوطة التى عثرنا عليها من كتاب « البيان المغرب » لابن عذارى بخزانة جامع القرويين بفاس ، وهى من أوراق الجزء الخاص بعصر المرابطين



صفحتان من المخطوط رقم ٥٣٨ الغزيرى المحفوظ بمكتبة الإسكوريال ، وهما من رسالة الأمير تاشفين بن على إلى الفقهاء والوزراء والصلحاء والكافة ببلنسية ، المؤرخة فى أوائل جمادى الأولى سنة ٥٣٨ هـ

صفحتان من مخطوط كتاب « نظم الجمان » لابن القطان المحفوظ بمعهد الدراسات الإسلامية بمدريد .



تمهيد

الأوضاع العامة لشبه الجزيرة الأندلسية
فى عصر المرابطين والموحدين

كانت موقعة الزلاّقة (٤٧٩ هـ – ١٠٨٦م) ، موقعة الحسم ، فى مصاير اسبانيا المسلمة ، سواء إزاء اسبانيا النصرانية ، أو إزاء المرابطين . فقد انقشع الخطر الداهم الذى كان يهددها بالفناء العاجل ، مذ سقطت طليطلة حصن الأندلس من الشمال فى أيدى النصارى ، وقد كتبت لها حياة جديدة . ولكن الزلاّقة ، كانت من جهة أخرى نذيرا بأعظم تحول وقع فى مصايرها منذ الفتح ، ذلك أن المرابطين الذين قدموا إليها إخواناً فى الدين ، وأصدقاء مجاهدين منجدين ، انقلبوا عقب الزلاّقة إلى أعداء فاتحين . وما كاد الموقف يتضح لعاهل المرابطين يوسف ابن تاشفين عقب النصر ، وتبدو له دول الطوائف الأندلسية على حقيقتها ، دويلات متخاذلة متنابذة ، يسودها الإنحلال ، ويقضم أسسها الترف والخور ، حتى قرر أمره تجاه أمراء الطوائف . وسواء أكان هذا القرار قد أملته شهوة الفتح ، ورغبة الاستيلاء على هذه البلاد الخضراء الغنية الساحرة ، أم كان بقصد حمايتها من النصارى ، والتحوط بذلك لسلامة المغرب ، بصون جناحه الدفاعى من الشمال – الأندلس – فقد نفذ عاهل المرابطين قراره ، واستولت جيوشه تباعاً على دول الطوائف ، فى فترة لاتتجاوز عشرين عاما ، فيما بين سنتى ٤٨٣ و٥٠٢ هـ (١٠٩٠ – ١١٠٩ م) ، وذلك حسبما فصلناه من قبل فى كتابنا « دول الطوائف » .

وأضحت الأندلس من ذلك الحين ولاية مغربية ، تخضع لحكومة مرّاكش ، وتحكمها القبائل البربرية المغربية ، بعد أن كان المغرب قبل ذلك بنحو قرن فقط ، ولاية أندلسية تخضع لخلافة قرطبة الأموية . ونحن نعرف أن البربر قد اضطلعوا فى فتح الأندلس بأعظم قسط ، ولكنهم لم ينالوا نصيبهم الحق ، فى حكم هذه البلاد الجديدة ، وغلب سلطان العرب سادة البربر عند الفتح . وعلى الرغم من أن البربر كانت لهم ما بين آونة وأخرى ، فى ظل الدولة الأموية ، بعض

الحظوة ، وكان لهم فى ظل الدولة العامرية قسط بارز من النفوذ والسلطان ، وعلى الرغم من أنهم نالوا قسطهم من أسلاب الخلافة ، وقامت لهم فى عهد الطوائف عدة من الدول القوية ، بلغت فى ظل بنى حمّود مرتبة الخلافة ، فإنهم فى ظل المرابطين ، يبسطون لأول مرة سلطانهم كاملا على الأندلس ، ويستأثرون فيها بالحكم والسيادة ، وتختفى خلال ذلك رياسة الأسر والزعامات الأندلسية . أجل إن عهد المرابطين بالأندلس لم يكن طويل الأمد . ذلك أنه لم يدم أكثر من زهاء نصف قرن . ولكن سلطان البربر على الأندلس يمتد بعد انتهاء الدولة المرابطية ، على يد وريثتها الدولة الموحدية ، أكثر من قرن آخر . وفى وسع المؤرخ أن يلاحظ ما بين هذين العهدين ، من أوجه التماثل التى تجمع بينهما ، وأن يلاحظ فى نفس الوقت أوجه الخلاف والتناقض التى تباعد بينهما ، وتسبغ على كل منهما خواصه ومميزاته .

إن المرابطين والموحدين ، ينتمى كلاهما إلى طائفة من تلك القبائل البربرية ، التى أخذت على كر العصور فى حكم المغرب وسيادته بأوفر نصيب ، فالمرابطون ينتمون بالأخص إلى لمتونة وكدالة ومسّوفة ، وينتمى الموحدون بالأخص إلى هرغة ومصمودة وهنتاتة وكومية . وقد نشأت كلتا الدولتين ، المرابطية والموحدية ، فى ظروف متشابهة ، كأنما رسمت لكل منهما على نسق واحد ، فكلتاهما قامت على أسس دينية ، وعلى يد فقيه وداعية متعصب ؛ فكان داعية الدولة المرابطية ، الفقيه عبدالله بن ياسين ، وكان داعية الدولة الموحدية ، المهدى محمد بن تومرت ، وتحولت كلتاهما إلى ملك سياسى على يد زعيم موهوب وقائد بارع ، فكان زعيم الدولة المرابطية الذى وطد دعائمها ، وشاد ملكها السياسى ، يوسف بن تاشفين ، وكان قرينه عبد المؤمن بن على ، هو الذى وضع أسس الدولة الموحدية ، ووطد دعائمها . واستطاعت الدولة الموحدية ، بعد أن قضت على الدولة المرابطية ، أن تسيطر على نفس الرقعة الإقليمية الشاسعة ، التى كانت تحتلها ، سواء فى المغرب أو الأندلس ، وإن كانت الأندلس لم تخلص للموحدين إلا بعد فترة من الصراع المحلى ، ولاسيما ضد الثورة فى شرقى الأندلس .

وفضلا عن ذلك ، فقد كانت تجمع بين الدولتين ، بالنسبة للأندلس ، إذا أغضينا عن العوامل الإقليمية والسياسية ، التى كانت تحرك هاتين الدولتين ، إلى بسط سيادتهما على هذا الإقليم الغنى الساحر — كانت تجمع بينهما فكرة الجهاد ،

وحماية الأندلس ، من عدوان الممالك الإسبانية النصرانية . وهنا تبدو وجوه الخلاف بين الدولتين . ذلك أنه بالرغم من وحدة الغاية ، فقد كان المرابطون يضطرمون بروح جهاد قوية خالصة ، وقد استطاعوا فى ظل هذا الروح الدافع أن يصدوا عن الأندلس عدوان اسبانيا النصرانية ، وأن يحرزوا بعد الزلاّقة النصر فى عدة مواقع مماثلة ، حاسمة فى صدع قوى اسبانيا النصرانية . وإذا استثنينا موقف المرابطين من سقوط سرقسطة ، وهو السقطة العسكرية المرابطية البارزة خلال هذا الكفاح ، فإن الصراع الذى اضطلع به المرابطون ضد الممالك الإسبانية النصرانية ، كان صراعاً قوياً وناجحاً ، وقد أحرز المرابطون خلاله ضد النصارى عدة من الانتصارات الباهرة ، ولاسيما فى أقليش (سنة ٥٠١ هـ — ١١٠٨م) ، وفى إفراغة (٥٢٨ هـ — ١١٣٤ م) . وقد استطاع المرابطون على وجه العموم حتى أواخر عهدهم ، الذى استطال بالأندلس زهاء خمسين عاما ، أن يحافظوا على رقعة الوطن الأندلسى ، ولم يصدع من كفاحهم ضد النصارى ، سوى قيام الثورة عليهم فى مختلف القواعد ، عند ظهور الموحدين وعبورهم إلى الأندلس .

أما الموحدون فبالرغم من أنه كانت تحدوهم مثل الروح ، التى كانت تحدو المرابطين ، فى محاربة اسبانيا النصرانية ، والذود عن الأندلس ، فإنهم لم يحرزوا مثلما أحرز المرابطون من التوفيق فى هذا الكفاح . وقد بذل الموحدون بالفعل جهوداً فادحة فى سبيل الاضطلاع بحركة الجهاد بالأندلس ، وصد عدوان اسبانيا النصرانية عنها ، وقد عبرت جيوشهم الجرارة مراراً إلى شبه الجزيرة ، مزودة بكميات هائلة من العتاد والسلاح ، ولكنهم وهم فى إبان قوتهم ، لم يحرزوا توفيقاً فى حملاتهم الغازية ضد النصارى ، فتحطمت حملة الخليفة أبى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ضد القشتاليين ، تحت أسوار وبذة (٥٦٧ هـ—١١٧٢م) ، وتحطمت حملته الثانية ضد البرتغاليين تحت أسوار شنترين (٥٨٠هـ — ١١٨٤ م) ، ومنيت الجيوش الموحدية بهزيمة فادحة ، وهلك الخليفة نفسه فى الموقعة . ويرجع هذا الفشل إلى عدة أسباب ، منها اختلال نظام الجيوش الموحدية ، وضعف قيادتها ، واختلال وسائل تموينها ، كما يرجع إلى اشتداد ساعد مملكة البرتغال ، واستغراقها معظم جهود الموحدين ، فى ولاية الغرب الأندلسية ؛ ولم تبرز الجيوش الموحدية فى جهادها ضد النصارى إلا فى معركة الأرك العظيمة ، التى أحرز فيها الخليفة يعقوب المنصور ، انتصاره الباهر على القشتاليين ، فى شهر رجب سنة ٥٩١ هـ

(يوليه سنة ١١٩٥م) . على أن هذا النصر العظيم ، لم يلبث أن محت آثاره موقعة العقاب المشئومة ، التي أحرز فيها القشتاليون نصرهم الساحق على الجيوش الموحدية بقيادة الخليفة محمد الناصر ولد المنصور ، وذلك في صفر سنة ٦٠٩ هـ (يونيه سنة ١٢١٢م)، والتي كانت ضربة قاضية ، لقوى الموحدين بالأندلس والمغرب ، ولم يمض على وقوعها سوى أعوام قلائل حتى انهار سلطان الموحدين بالأندلس ، وأخذت قواعد الأندلس الكبرى تسقط تباعاً في أيدى النصارى في وابل من المحن المؤلمة .

كانت قصة الجهاد فى سبيل الله ، وقصة حماية الأندلس من عدوان النصارى ، تجثم وراء هذه المعركة الطويلة المستمرة بين المرابطين والموحدين من ناحية ، وبين اسبانيا النصرانية من ناحية أخرى ، وكان المرابطون والموحدون ، تحملهم فى هذا الصراع المستمر ضد اسبانيا النصرانية ، فضلا عن غريزة الاحتفاظ بالنفس ، نزعة لا شك فيها من الجهاد الإسلامى ، والذود عن معاقل الإسلام وتراثه فى « جزيرة الأندلس » . وهم قد عبروا البحر أول ما عبروا إلى الأندلس ، تدفعهم تلك النزعة النبيلة ، ولم تخمد نزعة الجهاد فى صدورهم طوال الوقت الذى كانت تضطرم فيه المعارك باستمرار ، بينهم وبين اسبانيا النصرانية ، وكثيراً ما غزت الجيوش المرابطية والموحدية ، أراضى اسبانيا النصرانية من تلقاء نفسها ، طلباً للجهاد ليس غير ، وقد عبر الخلفاء الموحدون إلى الأندلس فى جيوشهم الجرارة مراراً ، لمتابعة هذا الجهاد ، الذى كان شعارهم دائماً فى محاربة النصارى فى شبه الجزيرة الإسبانية .

* * *

ولقد كان من الطبيعي أن تنشب بين المرابطين والموحدين ، وهم سادة الأندلس الجدد ، وبين زعماء الأندلس المحليين معركة السلطان والملك . ولقد كانت هذه المعركة التى تغذيها عوامل مختلفة ، هى محنة الأندلس الحقيقية ، وكانت تتجدد من خلالها صور المعارك الانتحارية ، التى أثخنت الأندلس أيام الطوائف بجراحها الدامية . على أنه مهما كانت بواعث الأسف والأسى ، التى تقترن بمثل هذه المعارك ، ومهما كان لنا أن نستنكرها وأن نحكم عليها ، فإنه يصعب على المؤرخ ، أولا أن يحدد المسئولية فى شأنها أو أن يلقى تبعتها على فريق بعينه ، وثانيا أن يتجاهل العوامل القومية والوطنية ، التى كانت من ورائها . وهى فى ذلك تفترق عن معارك

الطوائف ، التى لم تكن تحدوها سوى الأطماع والأهواء الشخصية الوضيعة .

ومما يلاحظ أن الثورة على سلطان المرابطين فى الأندلس ، لم تضطرم إلا فى أواخر عهدهم فى شبه الجزيرة ، فى نفس الوقت الذى اضطرم فيه المغرب بثورة الموحدين الجارفة ، وتضعضع سلطان المرابطين فى عقر دولتهم ، وتعذر عليهم إرسال الإمداد إلى ما وراء البحر . على أن هذه الثورة كانت فى الواقع أقدم عهداً وأعمق جذوراً ، إذ هى ترجع إلى عهد الفتح المرابطى ذاته . وكانت الأندلس ، حينما اشتدت عليها وطأة اسبانيا النصرانية ، وعجزت دول الطوائف الضعيفة المتنابذة ، عن رد عدوانها ، وجاء سقوط طليطلة نذيراً بالخطر الداهم ، قد استقبلت المرابطين إخوانا فى الدين منجدين منقذين ، وأكد نصر الزلاّقة الباهر ومن بعده جواز يوسف بن تاسفين الثانى لنصرة الطوائف فى حصار حصن لييط (أليدو) (٤٨١ هـ — ١٠٨٨ م) هذا الاعتبار وهذا المعنى . على أن فكرة الاستنصار بالمرابطين لم تكن دون توجس ، ودون تخوف من العواقب . وقد ذكرنا فيما تقدم من كتابنا « دول الطوائف » كيف عارض المعتمد بن عباد ولده الرشيد ، فى فكرة الاستنصار بالمرابطين ، وحذره من مقدمهم بقوله : « ياأبت أتدخل علينا فى أندلسنا من يسلبنا ملكنا ، ويبدد شملنا » وكيف أنه كان ثمة بين أمراء الطوائف ، ورجالات الأندلس ، من لم ترقه هذه الفكرة ، توجساً من عواقبها[1] .

وقد تحققت هذه المخاوف ، وانهار ذلك المعنى النبيل الذى بثه نصر الزلاّقة لأمد قصير ، وانقلب المنقذون إلى فاتحين ، واستولى المرابطون على دول الطوائف واحدة بعد أخرى ، واقترن هذا الفتح فى بعض الأحيان بكثير من العنف ، والقسوة ، وسقط عدد من أمراء الطوائف مدافعين عن أنفسهم وملكهم . وكان لهذا التحول بلاريب أعظم صدى فى جنبات الأندلس ، وأعمق أثر فى نفوس الأمة الأندلسية . ومن جهة أخرى فإن أساليب الحكام والقادة المرابطين ، فى حكم هذا القطر الجديد ، لم تكن لينة ولا رفيقة ، وذلك بالرغم مما كان يحدوها ويوجهها فى معظم الأحيان من جانب أمير المسلمين ، من النيات الطيبة والنصائح المثالية لعماله وقادته ، باتباع العدل ، والرفق بالرعية ، وكانت أساليب هؤلاء

---

(١) راجع كتاب دول الطوائف ، ص ٧٨ ، والحلل الموشية ص٢٧ و٢٨ ، وأعمال الأعلام لابن الخطيب (طبع بيروت) ص ٢٤٥ ، وكتاب التبيان للأمير عبد الله بن بلقين ص ١٠٣ و ١٠٤ .

الحكام والقادة ، ومعظمهم من أقارب أمير المسلمين وأصهاره ، تجافى بعنفها وخشونتها ما جبلت عليه الأمة الأندلسية المتحضرة المترفة ، من الأساليب المهذبة الرقيقة . ومن ثم فإنه لايدهشنا أنه لم يمض سوى خمسة عشر عاما فقط ، على وفاة عاهل المرابطين يوسف بن تاشفين ، حتى اضطرمت الثورة فى قرطبة حاضرة الأندلس يومئذ ، ضد المرابطين فى سنة ٥١٥ هـ (١١٢١ م) ، فى أوائل عهد على بن يوسف ، وذلك وفقاً لقول الثوار « ذبا عن الحُرَم والدماء والأموال »[١].

ولم تكن هذه الفورات وأمثالها ، فى البداية سوى محاولات للتنفس من حكم المرابطين المتزمت المرهق . ولم تقو الفكرة الوطنية الأندلسية وتتبلور إلا فيما بعد ، فى أواخر عهد المرابطين ، حينما اضطرمت الأندلس كلها ، من شرقها إلى غربها ، بالثورة ضدهم ، وقام أحمد بن قسيّ فى غرب الأندلس ، فى ميرتلة وشلب وباجة سنة ٥٣٩ هـ (١١٤٤ م) ، وقام فى نفس العام أبو جعفر ابن حمدين فى قرطبة ، وأبو الحسن على ابن أضحى فى غرناطة . وفى نفس الوقت انهار سلطان المرابطين تباعا فى شرقى الأندلس ، وقام القاضى ابن عبد العزيز أولا فى بلنسية ، ومرسية . ثم نهض ابن عياض فغلب عليهما بعد طائفة من الأحداث والانقلابات المتوالية ، ودعا بالرياسة لسيف الدولة ابن هود . وتقلد ابن هود الرياسة الإسمية ، وهو فى تقلده إياها ، يمثل الفكرة القومية الأندلسية ، ولما قتل ابن هود فى موقعة البسيط ، التى نشبت بين قوات بلنسية وابن هود ، وبين القشتاليين وذلك فى سنة ٥٤٠ هـ (١١٤٦ م) دعا ابن عياض لنفسه ، وغلب على شرقى الأندلس كله ، إلى أن لقى مصرعه فى معركة نشبت بينه وبين القشتاليين فى سنة ٥٤٢ هـ (١١٤٧ م) . وعندئذ خلفه فى الرياسة نائبه وصهره محمد بن سعد بن مردنيش ، وسرعان ما اشتد ساعده ، وبسط سلطانه القوى على سائر القواعد الشرقية من بلنسية حتى قرطاجنّة . وكان ابن مردنيش يمثل الفكرة القومية الأندلسية فى أعمق صورها ، وقد شهر علم النضال ضد الموحدين أعواما طويلة ، حتى تبددت قواه ، ثم خبت فورته بوفاته ، وذلك كله حسبما نفصل بعد فى مواضعه . وكان سلطان المرابطين قد انهار نهائياً فى شرقى الأندلس ، قبل ثورة ابن مردنيش بعدة أعوام ، وإن كان بفضل الجهود العنيفة التى بذلها قائد المرابطين القوى ابن غانية ، قد لبث فى بعض القواعد الوسطى والغربية لفترة قصيرة أخرى .

---

(١) الحلل الموشية ص ٦٣ .

كانت هذه الفورات المتعاقبة التى اضطرمت ضد المرابطين فى مختلف القواعد الأندلسية ، فى تلك الفترة العصيبة من أيامهم ، تتسم بالرغم من اتخاذها فى بعض نواحيها صورة الحرب الأهلية ، بالطابع الوطنى ، وتمثل بوضوح فكرة تحرير الأندلس من النير المرابطى . ولم يكن أولئك الزعماء الخوارج ، يحجمون فى سبيل تحقيق غايتهم ، أو فى سبيل التطاحن فيما بينهم ، عن الإستعانة بالنصارى ، وهى وسيلة شائنة ، خطرة فى نفس الوقت ، تتحطم لديها سائر الاعتبارات الوطنية والدينية . بيد أنه يجب أن نذكر أنها نفس الوسيلة اليائسة التى لجأ إليها أمراء الطوائف ، حينما استشفوا نية عاهل المرابطين فى القضاء عليهم ، فلم يحجموا عن الالتجاء إلى ملك قشتالة ، ألفونسو السادس ، أخطر أعدائهم ، والمنتزع لقواعدهم وأراضيهم ، والتحالف معه على رد الجيوش المرابطية . وكان الملوك النصارى يسارعون بتلبية أمثال هذه الدعوات ، ليس فقط انتهازاً لما تقدمه إليهم من فرص الضرب والتفريق بين الأمراء المسلمين ، واستنزاف قواهم ، وانتزاع ما يمكن انتزاعه منهم من الأموال والأراضى ، ولكن كذلك شعوراً منهم بالخطر المشترك ، الذى يهدد الوطن المشترك — شبه الجزيرة الإسبانية — من جراء تغلب القبائل البربرية المرابطية عليه ، واستقرارها فيه ، وقد تمثلت هذه الظاهرة فيما بعد أيام الموحدين ، أصدق تمثيل ، فى ثورة محمد بن سعد بن مردنيش ، وفى تحالفه المستمر الوثيق مع الملوك النصارى ، ضد الموحدين .

* * *

ونستطيع أن نقول إنه منذ انهارت ثورة ابن مردنيش فى شرقى الأندلس بوفاته فى سنة ٥٦٧ هـ (١١٧٢م) ، واستولى الموحدون على مملكة مرسية ، خلُصت الأندلس كلها لطاعة الموحدين ، وغاضت النزعة القومية الأندلسية ، واستسلمت الأندلس لحكم سادتها من وراء البحر ، واستطاع الموحدون أن يوطدوا سلطانهم فى الجزيرة مدى نصف قرن آخر ، وسطع البلاط الموحدى فى إشبيلية ، التى جعل الموحدون منها حاضرة الأندلس ، وخصوها بمنتهى الرعاية ، وعملوا على تحصينها ، وتجميلها بطائفة من الصروح الفخمة ، وقامت منشآتهم العمرانية العظيمة بإشبيلية ، وغيرها من قواعد الأندلس ، من قصور ومساجد وحصون وقناطر وأسوار ، تشيد بهمتهم وقوة سلطانهم ، وفخامة دولتهم . والتف حول البلاط الموحدى سواء بإشبيلية أو المغرب ، أعلام الأندلس من كل

ضرب ، من فقهاء وعلماء وكتاب وشعراء ، وحشد الخلفاء الموحدون إلى جانبهم أقطاب البيان والتفكير الأندلسيين ، واتخذوا منهم وزراء وكتابا وأطباء ، وخدم علماء وفلاسفة عظام ، مثل ابن طُفيل ، وابن زهر ، وابن رشد ، فى بلاط الخليفة الموحدى .

وهكذا استقام الأمر بالأندلس فى ظل الحكم الموحدى مدى نصف قرن آخر ، وشغل الموحدون داخل إمبراطوريتهم العظمية بالمغرب ، بتوطيد سلطانهم ، وقمع نزعات العصيان المحلية ، وشغلوا بالأخص بمكافحة بنى غانية ، والقضاء على ثورتهم وحركاتهم المخربة بإفريقية ، وهى ثورة اقتضت منهم أفدح الجهود ، وكادت فى بعض الأحيان أن تقضى على سلطانهم فى إفريقية . ثم كان عهد الخليفة الناصر ابن المنصور ، وكانت حملته المشئومة إلى الأندلس ، وكانت نكبة العقاب الساحقة (٦٠٩هـ) ، وماترتب عليها من انهيار سلطان الموحدين فى شبه الجزيرة ؛ عندئذ تغيرت الأمور ، وتجهمت الحوادث ، ولم يقتصر الأمر عندئذ على استطالة الممالك النصرانية ، وضغطها على مختلف نواحى الأندلس ، وتحفزها لافتتاح قواعدها الكبرى ، ولكن حدث فى نفس الوقت أن أخذت بوادر الثورة تتحرك داخل الأندلس ، تغذيها العوامل القومية القديمة ، ضد حكم وهنت دعائمه . وكان موطن هذه الثورة الجديدة ، شرقى الأندلس ، وكان على رأسها زعيمان ينتمى كلاهما إلى بيت من البيوت الثائرة القديمة ، أولهما زيان بن مردنيش ، والثانى أبوعبدالله محمد بن يوسف بن هود ؛ وبينما انحصرت حركة زيان ببلنسية ، إذا بدعوة ابن هود تجتاح مرسية وألمرية وغرناطة ومالقة ، وكانت حركة ابن هود تمثل فكرة الأندلس القومية أصدق تمثيل ، وترمى إلى تحرير الأندلس من نير الموحدين ، والنصارى معا ، ولكن موارده وقواته ، لم تكن تسمح له بأن يضطلع بمثل تلك المهمة الفادحة . ومن جهة أخرى ، فقد نهض النصارى لانتهاز الفرصة السانحة ، وانتزاع قواعد الأندلس الكبرى ، خلال تلك الغمار المضطرمة ، فقام ألفونسو التاسع ملك ليون بانتزاع قواعدها الغربية ، ماردة وبطليوس وغيرها (٦٢٧هـ) ثم قام فرناندو الثالث بانتزاع قرطبة عاصمة الخلافة القديمة (شوال سنة ٦٣٣هـ — يونيه ١٢٣٦ م) — وذلك فى الوقت الذى تخلى فيه ابن هود عن إنجادها ، وشغل بالعمل لتوطيد سلطانه فى جنوبى الأندلس . وكان لسقوط قرطبة أعمق وقع فى تلك الأندلس المفككة المنهوكة القوى ، ولكنه كان أمراً محتوماً لاسبيل إلى اتقائه .

ولم يمض قليل على ذلك ، حتى توفى ابن هود فى أوائل سنة ٦٣٥ هـ ، وهو فى إبان قوته وطموحه ، وانهارت بوفاته أمانى ومشاريع كثيرة ؛ وفى العام التالى استطاع خايمى الأول أو الفاتح ملك أراجون ، أن يستولى على بلنسية عاصمة الشرق (صفر سنة ٦٣٦هـ — سبتمبر ١٢٣٨م) وكان قد استولى قبل ذلك فى سنة ٦٢٨ هـ على الجزائر الشرقية . وفى الوقت الذى أخذ يتوالى فيه سقوط القواعد الشرقية والوسطى ، فى أيدى النصارى ، كان محمد بن الأحمر من جانبه ، يعمل بكل ما وسع لبسط سلطانه على القواعد الجنوبية . وهكذا أضحت الأندلس مرة أخرى مسرحاً لغمار متوالية من الحوادث والفتن التى تمزق أوصالها ، وتجعلها فريسة هينة لعدوها الخالد — إسبانيا النصرانية — ينتزع قواعدها وأراضيها تباعا ، ولا تجد وسيلة ناجعة لدفع هذا العدوان الجارف ، بعد أن انهار سلطان الموحدين وقواهم بالأندلس ، وبعد أن فقدت الأندلس منعتها ومواردها العسكرية القديمة ، فى ظل حكم الدولة الغالبة .

ولم تفق الأندلس من تلك المحنة الطاحنة ، إلا وقد فقدت قواعدها الكبرى شرقا وغرباً — قرطبة ، وبلنسية ، ومرسية ، وشاطبة ، ودانيه ، وجيان ، وإشبيلية وبطليوس ، وماردة ، وشلب ، وغيرها وغيرها — وأضحت أنقاضاً متناثرة ، تجتمع أشلاؤها الدامية فى الجنوب ، فيما وراء نهر الوادى الكبير ، ولاح من خلال ذلك كله ، أن ساعة الأندلس الأخيرة قد دنت ، وأنه لم يبق على اسبانيا النصرانية إلا أن تجتنى بقية تراثها الممزق ، وأن تختتم هذه السلسلة من معارك « الإسترداد » "La Reconquista" العظيمة بضربة أخيرة ، تكون هى القاضية على حياة اسبانيا المسلمة ، لولا أن شاء القدر أن تلتئم هذه الأنقاض المتناثرة من تراث الأندلس الكبرى ، وأن تبعث من بينها قوة فتية جديدة ، تتمثل فى قيام مملكة غرناطة ، آخر دول الإسلام فى الأندلس .

تلك هى الخطوط العريضة لصورة العصر ، الذى نحاول أن نضطلع باستعراض أحداثه ، وشرح ظروفه وخواصه ، — عصر المرابطين والموحدين .



الكتاب الأول

الدولة المرابطية
فى أوج سلطانها

الفصل الأول

يوسف بن تاشفين

خواص إمارته ولامع خلاله

يوسف بن تاشفين وبداية زعامته . أبو بكر بن عمر اللمتونى . المرابطون ينشرون الإسلام فى غانة ومالى . يوسف يتسمى بأمير المسلمين . ظروف تسميته بهذا اللقب . اعترافه بطاعة الخليفة العباسى . رواية ابن خلدون . مايؤيد هذه الرواية . رواية ابن العربى عن رحلته . فتوى الإمام الغزالى عن موقف أمراء الطوائف وعن حق يوسف فى استصدار المرسوم الخلافى . كتاب الإمام الغزالى ليوسف . كتاب أبى بكر الطرطوشى . اختيار يوسف لولده على لولاية العهد . المرسوم الصادر بذلك . كتاب البيعة والتولية . خلال يوسف ومناقبه . بساطته المؤثرة . براعته العسكرية . عدله وإيثاره للفقهاء . موقفه من الضرائب والمكوس . سيادة الأمن والرخاء فى عهده . وزيره عبد الرحمن بن أسباط . كاتبه ابن القصيرة . مرض يوسف ووفاته . تحقيقه لوحدة المغرب والأندلس . الدولة المرابطية الكبرى .

— ١ —

كان مما اقتضاه سياق الكلام عن تاريخ دول الطوائف ، أن نتحدث عن نشأة الدولة المرابطية وقيامها فى المغرب ، والتجاء أمراء الطوائف ، حينما لاح خطر اسبانيا النصرانية قوياً على الأراضى والقواعد الإسلامية فى شبه الجزيرة ، وحينما جاء سقوط طليطلة فى شهر صفر سنة ٤٧٨ هـ (مايو سنة ١٠٨٥م) نذيراً بتفاقم هذا الخطر ، — التجائهم إلى إخوانهم فيما وراء البحر ، إلى المرابطين ، يطلبون منهم الإنجاد والغوث ، ثم عن عبور بطل المرابطين يوسف بن تاشفين فى جيوشه الجرارة المتوثبة إلى الأندلس ، وخوض الجيوش الإسلامية المتحدة — المرابطية والأندلسية — لمعركة الزلاّقة ضد الجيوش النصرانية المتحدة ، فى رجب سنة ٤٧٩ هـ (أكتوبر سنة ١٠٨٦ م) ، وإحرازها لانتصارها الباهر الذى قمع عدوان اسبانيا النصرانية إلى حين ، وأخيراً عن انقلاب المرابطين من منقذين إلى فاتحين ، واستيلائهم على إمارات الطوائف تباعا ، وضم الأندلس إلى الدولة المرابطية الكبرى .

وقد تتبعنا خلال ذلك كله حياة زعيم المرابطين يوسف بن تاشفين ، منذ

نشأته ، حتى فوزه بإنشاء الدولة المرابطية فى المغرب ، وماتلا ذلك من عبوره إلى شبه الجزيرة غير مرة ، وفوزه بملك الأندلس ، ثم وفاته فى مستهل شهر المحرم سنة ٥٠٠ ﻫ (٢ سبتمبر سنة ١١٠٦ م) بعد حياة حافلة بعظائم الحوادث ، وجلائل الأعمال .

ولسنا نجد بعد أن استعرضنا ذلك كله ، بتفاصيله الشاملة فى كتابنا « دول الطوائف» ، مجالا لتكرار الكلام فى هذه الموضوعات. بيد أنه لايسعنا ،ونحن نزمع الكلام هنا عن عصر المرابطين فى المغرب والأندلس ، إلا أن نرتد بأبصارنا إلى بعض إلى ما تقدم من المواطن ، وأن نستزيدها فيما أوجزنا فيه منها ، حتى ينتظم السياق ، وتكمل وحدة الموضوع .

وأول ما يعرض لنا فى ذلك ، هو العود إلى بعض مواطن ، فى حياة البطل المغربى العظيم ، يوسف بن تاشفين زعيم المرابطين ، ونبدأ فى ذلك بصفته وألقابه الملوكية ، وهو ما تناولناه فيما تقدم بطريقة عابرة .

كانت رياسة المرابطين الزمنية ، حينما أنشأ الفقيه عبد الله بن ياسين الجزولى ، طائفة المرابطين فى أول أمرها ، لزميله وصديقه يحيى بن إبراهيم الكدالى ،ولما توفى هذا الرئيس ندب عبد الله بن ياسين مكانه للرياسة الأمير يحيى بن عمر بن تلاكاكين اللمتونى ليتولى شئون الحرب والجهاد . وكانت هذه أول مرحلة فى رياسة لمتونة الزمنية لطائفة المرابطين . ولما توفى الأمير يحيى فى سنة ٤٤٧ ﻫ ، عين مكانه للقيادة أخوه أبو بكر بن عمر . ولما وضع المرابطون خططهم لافتتاح بلاد السوس فى سنة ٤٤٨ﻫ ، ندب الأمير أبو بكر ابن عمه يوسف بن تاشفين ليكون قائداً لمقدمة الجيش المرابطى . وهذه هى أول مناسبة تاريخية ، يذكر فيها اسم البطل المرابطى ، ولم يكن له يومئذ من الرياسة ، سوى صفة القيادة لجناح من أجنحة الجيش المرابطى . وهنا ظهرت براعته العسكرية ، فيما اضطلع به المرابطون يومئذ من الفتوحات المتوالية فى أنحاء المغرب ، وهى التى فصلنا أطوارها فيما تقدم . ولما توفى عبد الله بن ياسين قتيلا فى بعض المعارك التى نشبت فى أراضى برغواطة فى سنة ٤٥١ﻫ (١٠٥٩ م) ، استأثر الأمير أبو بكر اللمتونى بزعامة المرابطين الروحية والزمنية معاً ، وتحققت بذلك رياسة لمتونة ، وبدأت الدولة المرابطية اللمتونية ، وقوام سلطانها ، ما تم يومئذ من فتوح المغرب .

ولما وقع الخلاف بين لمتونة ومسّوفة وغيرها من القبائل المرابطية ، فى بلاد القبلة قاعدتهم بالصحراء ، واعتزم أبو بكر أن يسير بنفسه لتلافى الأمر ، عهد بشئون المغرب إلى ابن عمه يوسف بن تاشفين (٤٥٣ هـ) ، وقسمت الجيوش المرابطية عندئذ إلى قسمين ، تولى يوسف إمرة أحدهما ليتم به إخضاع المغرب . وسار أبو بكر إلى الصحراء فى القسم الآخر . وقد أشرنا من قبل إلى خاتمة أبى بكر ، وكيف أنه حينما عاد بعد إتمام مهمته فى الصحراء إلى المغرب ولقى يوسف (سنة ٤٦٥ هـ) ، ورأى من عظمة سلطانه وقوته ، ما أدرك معه أن كل أمل قد غاض فى استرداد إمارته على المغرب ، قد ارتد ثانية إلى الصحراء ، وهنالك اخترق مشارف الصحراء الكبرى ، ودخل منطقة النيجر الوسطى ، ولبث حينا يقوم بغزوات متوالية فى قلب مملكة السودان ، وعاصمتها يومئذ مدينة غانة ، وفى مملكة مالى ، وهو يعمل على نشر الإسلام بين تلك القبائل السود ، التى كانت يومئذ تدين بالنصرانية ، والتى تضع الرواية تاريخ إسلامها فى سنة ٤٦٩ هـ (١٠٧٦ م)[1] . واستمر يتابع الجهاد والغزو حتى توفى قتيلا فى بعض المعارك فى سنة ٤٨٠ هـ (١٠٨٧ م) . أما يوسف فقد عنى من جانبه بإتمام فتوح المغرب واستطاع أن يخضع معظم نواحيه ، وأنشأ مدينة مرّاكُش (٤٦٢ هـ — ١٠٦٩م) لتكون قاعدة لملكه ، وعاصمة للأقطار المغربية المترامية التى تم له افتتاحها[2] .

وهنا يتشح يوسف بن تاشفين بثوب الملك السياسى والإمارة الفعلية . وقد كان مذ ندب لقيادة الجيش المرابطى ، وتوالت على يديه فتوح المغرب ، يتشح بثوب الرياسة والإمارة القَبَلِى . وهنا تختلف الرواية فى أصل ألقابه الملوكية ، وأوضاعها . والتاريخ يعرف يوسف بن تاشفين « بأمير المسلمين ، وناصر الدين » . فمتى كان اتخاذه لهذا اللقب ؟ وفى أى ظروف وقع ذلك ؟

---

(١) الحلل الموشية (طبع تونس) ص ٧

(٢) هذا هو التاريخ الذى يضعه ابن عذارى لإنشاء مراكش فى البيان المغرب (من أوراق مخطوطة وجدت بمكتبة جامع القرويين بفاس ، ونشرت أخيراً بعناية الأستاذ هويثى ميرانده فى مجلة **Hespéris** عدد سنة ١٩٦١ ص٥٥) . ويتابعه صاحب الحلل الموشية فيضع تأسيسها فى نفس التاريخ (الحلل الموشية ص ٦) . ويضع الشريف الإدريسى تاريخ إنشاء مراكش فى سنة ٤٧٠ هـ (راجع المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس المنشور بعناية دوزى ص٦٧) . ويضع صاحب كتاب « الاستبصار » تاريخ إنشائها فى سنة ٤٥٩هـ (ص٢٠٨) . ويضع صاحب روض القرطاس تاريخ إنشائها فى سنة ٤٥٤ هـ ، (طبعة تورنبرج ص ٨٩) ، ويتابعه فى ذلك ابن خلدون (كتاب العبر ج ٦ ص ١٨٤) .

هنالك روايتان فى ذلك . الأولى خلاصتها أن يوسف بن تاشفين لما كثرت فتوحه ، وترامت أطراف مملكته ، وكان يقتصر عندئذ على التسمى « بالأمير » اجتمعت إليه أشياخ لمتونة ، وأعيان دولته ، وقالوا له أنت خليفة الله فى أرضه ، وأن حقه يسمو على لقب الإمارة ، واقترحوا عليه أن يتسمى « بأمير المؤمنين » فأبى واعتذر بأن هذا اللقب إنما يتسمى به خلفاء بنى العباس ، سلالة النبى ، وأصحاب الحرمين ، وأنه يعتبر فى المغرب رجلهم والقائم بدعوتهم ، ولكنه استجاب إليهم فى التسمى « بأمير المسلمين » و« ناصر الدين » وكان ذلك فى سنة ٤٦٦ هـ ، وخُطب له بذلك فى المنابر ، وخوطب فى العُدوتين ، وخرج بذلك كتابه إلى النواحى ، وهذا نصه بعد الديباجة :

« أما بعد حمد الله ، أهل الحمد والشكر ، ميسر اليسر ، وواهب النصر ، والصلاة على محمد المبعوث بنور الفرقان والذكر ، وإنا كتبنا إليكم من حضرتنا بمراكش حرسها الله فى نصف محرم سنة ستة وستين وأربعمائة ، وأنه لما منّ الله علينا بالفتح الجسيم ، وأسبغ علينا من أنعمه الظاهرة والباطنة ، وهدانا وهداكم إلى شريعة نبينا محمد المصطفى الكريم ، صلى الله عليه أفضل السلام ، وأتم التسليم ، رأينا أن نخصص أنفسنا بهذا الاسم ، لنمتاز به على سائر أمراء القبائل ، وهو أمير المسلمين وناصر الدين ، فمن خطب الخطبة العلية السامية ، فليخطبها بهذا الاسم إن شاء الله تعالى ، والله ولى العدل ، بمنه وكرمه ، والسلام »[1]

ولكن هذه الرواية تعارضها رواية أخرى ربما كانت أكثر قبولا . ذلك أنه يوجد لدينا أكثر من نص يؤيد القول ، بأن تلقب يوسف بن تاشفين بهذا اللقب ، وقع عقب انتصاره فى موقعة الزلاّقة ، وهذا ما يوضحه لنا صاحب « روض القرطاس » إذ يقول ، إن يوسف كان يُدعى أولا بالأمير ، فلما فتح الأندلس وصنع غزاة الزلاّقة ، وأذل الله تعالى بها ملك الروم ، بايعه فى ذلك اليوم أى عقب النصر ، ملوك الأندلس وأمراؤها الذين شهدوا معه تلك الغزاة ، وكانوا ثلاثة عشر ملكاً ، وسلموا عليه « بأمير المسلمين » . وخرجت كتبه مصدرة عنه بذلك إلى

---

(١) هذه هى رواية صاحب الحلل الموشية ص ١٦ و١٧ ، وكذلك ابن عذارى فى البيان المغرب (الأوراق المخطوطة المشار إليها — هسبيرس ص ٦٠) . وفى بعض الروايات المتأخرة أن يوسف بن تاشفين تسمى بالفعل بأمير المؤمنين وخطب له بهذا الاسم ولبنيه من بعده (المؤنس فى أخبار إفريقية وتونس) لابن دينار ص ٩٩ ، وهى رواية ضعيفة .

العُدوة وبلاد الأندلس ، فقرئت على المنابر ، وفيها يخبرهم بما فتح الله عليه من النصر والظفر والفتح العظيم . ثم يزيد على ذلك بأن يوسف هو أول من تسمى بأمير المسلمين من ملوك المغرب[1] . وهذه الرواية يؤيدها ابن الخطيب فى الإحاطة إذ يقول لنا بإيجاز فى ترجمة يوسف : « تسمى بأمير المسلمين لما احتل الأندلس ، وأوقع بالروم وكان قبل يدعى الأمير يوسف »[2] . ونحن نرجح هذه الرواية الأخيرة لأنها أكثر اتفاقاً مع منطق الحوادث ودلالتها .

أما اعتراف يوسف بن تاشفين بطاعة الخليفة العباسى ، فمسألة تتفق عليها معظم الروايات . ويقول ابن الأثير ، وهو من أقدم مصادرنا فى ذلك ، إن يوسف بعد أن تم له افتتاح ممالك الطوائف ، والاستيلاء على الأندلس ، وعاد إلى حضرة ملكه مراكش ، جمع الفقهاء وأحسن إليهم ، فذكروا له أنه ينبغى أن تكون ولايته صادرة من الخليفة لتجب طاعته على الكافة ، وأنه يجب أن يأتيه منه تقليد بحكمه للبلاد ، ويُرجع ابن الأثير هذا النصح إلى علماء الأندلس خاصة ، ويقول لنا إن يوسف أرسل على أثر ذلك إلى الخليفة المقتدى بأمر الله ، فوافته الخلع والأعلام والتقليد ، ولُقب بأمير المسلمين وناصر الدين . ومعنى ذلك أن يوسف تسمى بهذه الألقاب الملوكية ، أو أنها خلعت عليه فقط حينما أتاه المرسوم أو التقليد العباسى بذلك . وفى ذلك تختلف رواية ابن الأثير عن باقى الروايات[3] . ومن جهة أخرى فإن ذلك لابد أن يكون قد وقع قبل سنة ٤٨٧ هـ (١٠٩٤م) وهى السنة التى توفى فيها الخليفة المقتدى بأمر الله . ويبدو من كلام صاحب « روض القرطاس » وابن الخطيب ما يؤيد ذلك ، وأن صدور هذا التقليد العباسى ليوسف قد وقع عقب انتصار الزلاّقة (٤٧٩هـ) ، وأن يوسف قد ضرب السكّة عقب ذلك ، وأصدر الدينار المرابطى الجديد وفى أحد وجهيه « لا إله إلا الله ، محمد رسول الله » وتحت ذلك « أمير المسلمين يوسف بن تاشفين » ، ونقش فى مداره : « ومن يتبع غير الإسلام دينا ، فلن يقبل منه ، وهو فى الآخرة من الخاسرين » وكتب فى الوجه الآخر « الإمام عبد الله أمير المؤمنين العباسى »[4] .

---

(١) روض القرطاس ص ٨٨ ، وراجع وفيات الأعيان لابن خلكان (بولاق) ج ٢ ص ٤٨٨ .

(٢) الإحاطة فى أخبار غرناطة ، مخطوط الإسكوريال (رقم ١٦٧٣ الغزيرى) لوحة ٣٩٣

(٣) تاريخ ابن الاثيرج ١٠ ص ٥٢ و ١٤٥ .

(٤) روض القرطاس ص ٨٨ ، وابن الخطيب فى مخطوط الإحاطة السالف الذكر لوحة ٣٩٣

على أن ابن خلدون يقول لنا بالعكس إن يوسف قد كتب فى شأن تقليده إلى الخليفة المستظهر بالله ، ولد المقتدى بالله وخلفه ، وأنه بعث إليه فى ذلك الغرض سفارة على رأسها عبد الله بن محمد بن العربى المعافرى الإشبيلى وولده القاضى أبو بكر وهو الحافظ الشهير فيما بعد « فتلطفا فى القول ، وأحسنا فى الإبلاغ ، وطلبا إلى الخليفة أن يعقد ليوسف على المغرب والأندلس » فصدر له عهده بذلك ، وعاد السفيران يحملان التقليد بولاية يوسف على ما تحت نظره من الأقطار والأقاليم ، وأذيعت محتويات هذا التقليد بين الناس . وكذلك كتب الإمام الغزالى ، والقاضى الطرطوشى إلى يوسف يحضانه على العدل والتمسك بالخير ، ويفتيانه فى شأن ملوك الطوائف(1).

ولقد وقفنا نحن على ما يؤيد هده الرواية الأخيرة — رواية ابن خلدون — تأييداً قاطعاً ، وحصلنا على نص الرواية التى سجلها ابن العربى عن مهمته ، وعن لقائه بالإمام الغزالى فى بغداد ، وما استصدره من الفتوى الخاصة بموقف يوسف من أمراء الطوائف ، ومن الخلافة ، كما حصلنا على النص الكامل للخطاب الذى كتبه الإمام الغزالى عن هذا الموضوع ، إلى يوسف بن تاشفين ، وحمله الفقيه ابن العربى معه عند عوده إلى الأندلس .

ونحن نعرف أولا أن الفقيه ابن العربى وولده أبا بكر ، قد رحلا إلى المشرق فى مهمتهما المذكورة فى مستهل ربيع الأول سنة ٤٨٥هـ ، وان كانت رحلتهما قد اتخذت يومئذ طابع السفر لطلب العلم(2). وكان يوسف قد اشترك بعد الزلاّقة ، مع أمراء الطوائف فى حصار حصن لييط **Alédo** فى سنة ٤٨١ هـ (١٠٨٨ م) وشهد عندئذ من تمردهم ، ونفاقهم ، وجنوحهم إلى ممالأة النصارى ، ما أحفظه عليهم . ثم جاز جوازه الثالث إلى الأندلس فى سنة ٤٨٣ هـ (١٠٩٠م) ، وكان عندئذ قد اعتزم أمره فى افتتاح ممالك الطوائف ، وأخذ يستولى عليها تباعا ، وكان يهمه إلى جانب الحصول على المرسوم الخلافى ، أن يحصل على سند شرعى يبرر تصرفه نحو أولئك الأمراء . فلما وصل الفقيه أبو محمد العربى وولده أبو بكر إلى بغداد ، لقى الإمام أبا حامد الغزالى ، قطب فقهاء المشرق يومئذ ، وشرح له

---

(١) ابن خلدون — كتاب العبر — ج ٦ ص ١٨٨ . وقد ورد فى هذا النص أن يوسف خاطب « المستنصر العباسى » . ونحن نعتقد أن ذلك تحريف من الناسخ ، وأن المقصود هو الخليفة المستظهر .

(٢) ابن بشكوال فى « الصلة » فى ترجمة ابن العربى رقم ١٢٩٧ .

أحوال الأندلس ، وخلال أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ، وما اضطلع به من أعمال الجهاد وإعزاز الدين ، وماكان عليه ملوك الطوائف من تفرق وتخاذل ، واستعداء للنصارى ، وكيف تخلف بعضهم عن مشاركته فى الجهاد مجاملة للمشركين. فلما قام بحصار النصارى ، عقب جوازه الثانى ، فى حصن لييط ، تخلف بعض رؤساء الشرق عن معاونته ، وقالوا إن طاعته ليست بواجبة لأنه ليس إماماً شرعياً من قريش . ووقف يوسف على رسالة وجهت من بعضهم إلى العدو ، يشجعه على المقاومة والصمود ، وكان جواب يوسف لأولئك الزعماء المتمردين ، أنه خادم أمير المؤمنين المستظهر ، وأن الخطبة تجرى باسمه على أكثر من ألفى منبر ، وتضرب السكة باسمه . وطلب الفقيه ابن العربى إلى الإمام الغزالى أن يزوده فيما تقدم بفتوى تبين حكم الشرع فيه ، وأن يزوده بكتاب إلى أمير المسلمين . فأما الفتوى فقد جاء فيها « أن يوسف كان على حق فى إظهار شعار الإمامة للخليفة المستظهر[1]، وان هذا هو الواجب على كل ملك ، استولى على قطر من أقطار المسلمين ، وإذا نادى الملك المشمول بشعار الخلافة العباسية ، وجبت طاعته على كل الرعايا والرؤساء ، ومخالفته مخالفة للإمام ، وكل من تمرد واستعصى ، فحكمه حكم الباغى ، ومن حق الأمير أن يرده بالسيف ، وأن يقاتل الفئة المتمردة على طاعته ، لاسيما وقد استنجدوا بالنصارى ، وهم أعداء الله ، فى مقاتلة المسلمين ، وهم أولياء الله ، وأن يستمر فى قتالهم حتى يعودوا إلى طاعة الأمير العادل ، المتمسك بطاعة الخلافة العباسية ، ومتى تركوا المخالفة ، وجب الكف عنهم ، وذلك عن المسلمين منهم دون النصارى . وأما مايظفر به من أموالهم فمردود عليهم وعلى ورثتهم ، وما يؤخذ من نسائهم وذراريهم فى القتال مهدورة لاضمان فيها ، وحكمهم بالجملة فى البغى على الأمير المتمسك بطاعة الخلافة ، المستولى على المنابر والبلاد بقوة الشوكة ، وحكم الباغى على نايب الإمام ، فإنه وإن تأخر عنه صريح التقليد لاعتراض العوايق المانعة ، من وصول المنشور بالتقليد ، فهو نايب بحكم قرينة الحال ، إذ يجب على إمام المصر أن يأذن لكل مسلم عادل ، استولى

---

(١) عثرنا على نص رواية ابن العربى ، وعلى نص فتوى الإمام الغزالى فى المخطوط رقم ١٢٧٥ ك (المكتبة الكتانية) المحفوظ بخزانة الرباط وعنوانه «مجموع أوله كتاب الأنساب» (لوحة ١٢٨ و ١٢٩) ، كما عثرنا فيه على نص كتاب الإمام الغزالى إلى يوسف بن تاشفين . ويبدو من ذكر الخليفة المستظهر فى رواية ابن العربى وفى فتوى الغزالى أنهما يرجعان إلى سنة ٤٨٧ هـ ، وقد تولى المستظهر الخلافة بعد وفاة أبيه المقتدى فى ١٦ المحرم سنة ٤٨٧ هـ .

على قطر من أقطار الأرض ، أن يخطب له ، وينادى بشعاره ، ويحمل الخلق على العدل والنصفة ، ولاينبغى أن يظن بالإمام توقف فى الرضا بذلك والإذن فيه ، وأن توقف فى كتبه المنشور ، فالكتب قد يعوق عن انشائها ، وإيصالها المعاذير . وأما الإذن والرضى بعد ما ظهر حال الأمير فى العدل والسياسة ، وابتغاء المصلحة للتفويض والتعيين ، فلارخصة فى تركه ، وقد ظهر حال هذا الأمير بالاستفاضة ظهوراً لا يشك فيه . وإن لم يكن عن إيصال الكتب وانشايه عايق ، وكانت هذه الفتنة لا تنطفى ، إلا بأن يصل إليهم صريح الإذن والتقليد بمنشور ، مقرون بما جرت العادة بمثله فى تقليد الأمراء ، فيجب على حضرة الخلافة بذل ذلك ، فإن الإمام الحق عاقلة الإسلام ، ولايحل له أن يترك فى أقطار الأرض فتنة ثايرة ، إلا ويسعى فى إطفائها بكل ممكن » .

هذا هو نص فتوى الإمام الغزالى لابن العربى عن حكم الشرع فى موقف ملوك الطوائف ، حسبما شرحه ابن العربى للإمام ، وعن حق يوسف فى الحصول على المرسوم الخلافى بولايته على ما فتحه من الأقطار بسيفه . وقد عاد الإمام الغزالى بعد ذلك ، فكتب إلى يوسف كتاباً يعرض فيه بالتفصيل إلى قصة ملوك الطوائف ، حسبما رواها له ابن العربى ، وإلى ماكانت عليه الأندلس فى ظل حكمهم من التخاذل والذل ، والصغار والهوان ، وإلى استطالة النصارى عليها ، لما كان يسودها من تفرق الكلمة واختلاف الرأى ، حتى انتهى النصارى بأن رتبوا الجزية على المسلمين . ثم يشير إلى صريخ الطوائف إلى يوسف ، وإلى جوازه البحر للجهاد ، وإلى ماوفقه الله من دحض شوكة النصارى ، وأنه حينما طلب يوسف إلى ملوك الطوائف أن يرفعوا المظالم عن المسلمين ، عادوا فجنحوا إلى ممالأة النصارى ، فسأله المسلمون عندئذ إنزالهم عن البلاد ، فاستجاب لرغبتهم ، ورفع المظالم وقطع الفساد ، وينوه بما أبداه يوسف من العمل بأحكام الله ، ومن إيثار العلماء والاستماع لرأيهم فيما يفتون إليه من الأحكام ، ثم يشير بعد ذلك إلى ما أصدره من فتوى فى شأن ملوك الطوائف ، وإلى ماكان ابن العربى بصدده من السعى إلى استصدار المرسوم الخلافى بولاية يوسف على جميع بلاد المغرب ، وتمكين طاعته ، وإلى ماكان يبثه ابن العربى من دعاية واسعة للإشادة بحكم يوسف وخلاله ، سواء فى العراق أو فى المشاهد الكريمة بأرض الحجاز . ولم يثبت الغزالى بخطابه تاريخاً معيناً ، ولكن يبدو من نصه أنه كتبه قبل « مسيره إلى سفر

الحجاز» . ونحن نعرف من حياة الغزالى أن ذلك كان فى سنة ٤٨٨ هـ[١] .

وكذلك حصل ابن العربى من العلامة أبى بكر الطرطوشى ، حين مروره على ثغر الإسكندرية ، وهو فى طريق العودة ، على خطاب آخر يرسم أمير المسلمين يوسف . ويسدى الطرطوشى فى كتابه النصح إلى يوسف بأن يحكم بالحق وفقاً لكتاب الله ، وأن يكون شفيقاً على رعينه شفقة الرجل على أهله ، وأن يعمل لإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . ويجرى الطرطوشى فى إسداء نصحه على طريقته فى إيراد الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، وأقاصيص الخلفاء والصحابة[٢] .

وتوفى الفقيه ابن العربى بثغر الإسكندرية فى فاتحة سنة ٤٩٣ هـ[٣] ، وعاد ابنه أبو بكر دونه إلى الأندلس فى نفس العام ، وهو يحمل الرسالتين — رسالة الغزالى ورسالة الطرطوشى — وكذلك مرسوم الخليفة المستظهر إلى عاهل المرابطين .

وهكذا يبدو أنه مما لامراء فيه ، أن مؤسس الدولة المرابطية الكبرى ، كان ينضوى من الناحية السياسية تحت لواء الخلافة العباسية وأنه كان يُدعى حتى قبل صدور هذا التقليد فى الخطبة ليوسف بعد الدعاء للخليفة العباسى ، فى سائر نواحى المغرب والأندلس . وسنرى فيما بعد كيف أن هذه الرعاية الأدبية العباسية للدولة المرابطية ، تمتد إلى ما بعد عهد يوسف ، وأن الخليفة العباسى يسبغ فى مراسلاته على عاهل المرابطين بعض الألقاب الخاصة .

— ٢ —

عرفنا فيما سبق كيف آلت إمارة المغرب إلى يوسف بن تاشفين ، مذ عهد إليه بشئونه ابن عمه الأمير أبو بكر اللمتونى فى سنة ٤٥٣ هـ (١٠٦١ م) ، وكيف ارتد هذا الأمير إلى الصحراء وهنالك توفى ، وخلصت إمارة المغرب نهائياً ليوسف ، وقامت الدولة المرابطية الكبرى ، بالمغرب والأندلس ، فى ظل عاهلها الكبير .

---

(١) ورد نص خطاب الغزالى فى مخطوط المكتبة الكتانية المشار إليه (لوحات ١٣٠ –١٣٣) وقد نشرناه كاملا فى باب الوثائق .

(٢) ورد نص خطاب الطرطوشى فى المخطوط المشار إليه (لوحة ١٣٣ و ١٣٤)

(٣) نفح الطيب ج ١ ص ٣٣٧ .

وأراد يوسف في أواخر حياته ، وبعد أن تم له افتتاح الأندلس ، أن يوثل ملكه ، وأن يطمئن لمصاير دولته العظيمة ، وذلك باختيار ولى عهده . وكان ليوسف من البنين خمسة هم ، أبو بكر سير ، وعلى ، وتميم ، والمعز ، وإبراهيم ، ومن البنات ثلاث هن كوتة ورقية وتميمة[1] . وكان أبو بكر أكبر بنيه وولى عهده فيما يظهر ، وقد استخلفه أبوه على المغرب حينما عبر البحر لأول مرة إلى الأندلس ، في شهر ربيع الأول سنة ٤٧٩ هـ ، اسجابة لصريخ الطوائف . ولما انتهت معركة الزلاّقة بظفر المسلمين الباهر ، وارتدت الجيوش المرابطية إلى إشبيلية في طريقها إلى العودة ، تلقى يوسف نبأ وفاة ولده أبى بكر ، وكان قد تركه مريضاً في سبتة ، ويقول لنا صاحب القرطاس ، إن هذا النبأ المحزن ، وصل إلى يوسف في يوم النصر ذاته[2] . وكان هذا الحادث سبباً في تعجيل يوسف بالعودة ، بل يقال لنا أيضاً إنه كان سبباً في إحباط خطط يوسف ، وتركه كل فكرة في مطاردة الجيوش النصرانية المنهزمة [3] .

وفي سنة ٤٩٥ هـ (١١٠١ م) ، قرر يوسف أمره في ولاية عهده ، ووقع اختياره في ذلك على ولده أبى الحسن على . ولم يكن على أكبر أولاده ، إذ كان أكبرهم عندئذ ، أبو الطاهر تميم ، ولكنه آثر عليا لما آنسه فيه من الورع والنباهة والحزم ، وأصدر مرسومه بولايته لعهده في نفس العام ، وإليك نص هذا المرسوم بعد الديباجة ، وهو من إنشاء الوزير الفقيه أبى محمد بن عبد الغفور ، وقد كان من أعلام البلاغة في هذا العصر :

« أما بعد فإن أمير المسلمين ، وناصر الدين ، أبا يعقوب يوسف بن تاشفين ، لما استرعاه الله على كثير من عباده المؤمنين ، خاف أن يسأله الله غدا عما استرعاه ، كيف تركه هملا لم يستنب فيه سواه . وقد أمر الله بالوصية فيما دون هذه العظيمة ، وجعلها من أوكد الأشياء الكريمة ، كيف في هذه الأمور العائدة بمصلحة الخاصة والجمهور . وأن أمير المسلمين بما لزمه من هذه الوظيفة ، وخصه الله بها من

---

(١) كانت الأميرة تميمة بنت يوسف بن تاشفين تشتهر بجمالها ، ورجاحة عقلها ، وأدبها ، وكانت تنظم الشعر الجيد . سكنت فاس مدة (ابن الأبار في التكملة ، وجذوة الاقتباس فيمن حل من الأعلام بمدينة فاس ، ص ١٠٥ و ١٠٦) .

(٢) روض القرطاس ص ٩٨ .

(٣) **F. Codera : Decadencia y Disparición de los Almoravides en Espana (Zaragoza 1899) p. 2**

النظر فى هذه الأمور الدينية الشريفة ، قد أعز الله رماحه وأحدّ سلاحه ، فوجد ابنه الأمير الأجل ، أبا الحسن أكثرها ارتياحاً إلى المعالى واهتزازا ، وأكرمها سجية وأنفسها اعتزازا ، فاستنابه فيما استرعى ، ودعاه لما كان إليه دعى ، بعد استشارة أهل الرأى على القرب والنأى ، فرضوه لما رضيه ، واصطفوه لما اصطفاه ، ورأوه أهلا أن يسترعى فيما استرعاه ، فأحضره مشترطاً عليه الشروط الجامعة بينها وبين المشروط ، فقبل ورضى ، وأجاب حين دعى ، بعد استخارة الله الذى بيده الخيرة ، والاستعانة بحول الله الذى من آمن به شكره . وبعد ذلك مواعظ ووصية ، بلغت من النصيحة مرامى قصية ، يقول فى خاتمة شروطها ، وتوثيق ربوطها ، كتب شهادته على النائب والمستنيب ، من رضى إمامتهما على البعيد والقريب ، وعلم علما يقينا بما وصاه فى هذا الترتيب ، وذلك فى عام خمسة وتسعين وأربعمائة» (1) .

وكان من الشروط التى اشترطها يوسف على ولده وولى عهده على ، فيما يختص بالدفاع عن الأندلس ، هو ألاّ يعين فى مناصب الحكام والقضاة فى الولايات والحصون والمدن إلا المرابطين من قبيلة لمتونة ، وأن ينشئ بها جيشاً مرابطيا ثابتا ، قوامه سبعة عشر ألف فارس ، توزع على مختلف القواعد ، فيرابط منها بإشبيلية سبعة آلاف ، وبقرطبة ألف ، وبغرناطة ألف ، وفى شرقى الأندلس أربعة آلاف ، وتوزع الأربعة آلاف الباقية على الثغور والحصون المتاخمة لأراضى العدو . هذا ويحسن أن يعهد إلى الأندلسيين بحراسة الحدود النصرانية ، فهم أكثر خبرة بأحوال النصارى ، وأكثر دربة على قتالهم من المرابطين . وفى سنة ٤٩٦ هـ ، (١١٠٢م)(2) جاز يوسف بن تاشفين إلى الأندلس جوازه الرابع والأخير ، ومعه ولداه أبو الحسن على وأبو الطاهر تميم(3) . وكان يوسف يقصد بهذا الجواز النظر فى شئون الأندلس ومصالحها ، وكان يقصد بالأخص أن ينظم البيعة لولده على الذى اختاره لولاية عهده . ويقول لنا صاحب روض القرطاس ، إن علياً لم يكن مع والده فى هذا الجواز ، وإنه بالعكس كان يقيم عندئذ فى سبتة التى ولد بها .

(1) أورد نص هذا المرسوم صاحب الحلل الموشية (ص ٥٦ و ٥٧) .

(2) وفى رواية أخرى أن هذا الجواز قد وقع فى سنة ٤٩٧ هـ (ابن خلدون — كتاب العبر ج ٦ ص ١٨٨) . ولكن التاريخ الذى يحمله كتاب التولية وهو ذو الحجة سنة ٤٩٦ هـ ، يؤكد صحة الرواية الأولى .

(3) الحلل الموشية ص ٥٥ .

ونشأ[١] . ونحن نرجع الرواية الأولى بحضور على مع والده إذ كان هو المقصود بتنظيم البيعة ، ومن المعقول أن يكون حاضراً فى حفل تنظيمها . وفى أواخر سنة ٤٩٦ هـ ، كان يوسف بقرطبة ، عاصمة الخلافة ، وكانت يومئذ قاعدة للحكم المرابطى فى الأندلس ، وجمع يوسف أعيان قبيلة لمتونة ، وأشياخ المرابطين والفقهاء ، وأخذ البيعة عليهم جميعاً لولده على ، وصدر كتاب التولية والبيعة عن يوسف لولده ، مدبّجاً بقلم وزيره وكاتبه أبى بكر بن القصيرة علم البلاغة ، وإمام النثر والترسل يومئذ ، وإليك نص الكتاب المذكور :

« هذا كتاب تولية عظيم جسيم ، . وتوصية حميم كريم ، صدرت على الرضا قواعده ، وأكدت بيد التقوى معاقده ، وسددت إلى الحسنى مقاصده ، وأبعدت عن الهوادة والهوى مصادره وموارده ، أنفذه أمير المسلمين ، وناصر الدين ، أبو يعقوب يوسف بن تاشفين أدام الله أمره ، وأعز نصره ، وأطال فيما يرضيه منه ، ويرضى به عنه عمره ، غير محاب ولا تارك فى النصحة لله ولرسوله والمسلمين ، موضع ارتياب لمرتاب ، للأمير الأجل أبى الحسن علىّ ابنه ، المتقبل هممه وشيمه ، المتأثل حلمه وتحلمه ، الناشئ فى حجر تقويمه وتأديبه ، المتصرف بين يدى تخريجه وتدريبه ، أدام الله عزه وتوفيقه ، ونهج إلى كل صالح من الأعمال طريقه ، وقد تهمم ، بمن تحت عصاه من المسلمين ، وهدى فى انتقاء من يخلفه هدو المتقين ، ولم ير أن يتركهم بعد سدى غير مدينين ، واعتام فى النصاب الرفيع ، واختار واستنصح أولى الرأى والدين ، واستشار فلم يوقع بعد طول تأمل وتراخى مدة ، وتمثل اختياره فى اختيار من فاوضه فى ذلك من أولى التقوى والحنكة ، واستشارة [الأعلية] ولاصار بدونهم الارتياد والاجتهاد إلا إليه ، ولا التقى رواد الرأى والتشاور إلا لديه ، فولاه عن استحكام بصيرة ، وبعد طول مشورة ، عهده ، وأفضى إليه الأمر والنهى والقبض والبسط بعده ، وجعله خليفته الساد فى رعاية مسده ، وأوطأ عقبه جماهير الرجال ، وناط به مهمات الأمور والأعمال ، وعهد إليه أن يتقى الله ما استطاع ، ولا يعدل عن سمت العدل وحكم الكتاب والسنة ، فى أحد عصا أو أطاع ، ولاينام عن حماة الحدب والحوف بالإضطجاع ، ولايتلين دون معلن بشكوى ، ولايتصام عن مستصرخ لدى بلوى ، وأن ينتظم أقصى البلاد وأدناها فى سلك تدبيره ، ولايكون بين

(١) روض القرطاس ص ١٠١ .

القريب والبعيد فى إحصائه وتقديره . ثم دعا أدام الله تأييده لمبايعته ، أدام الله عزه ، من خضر و . . من المسلمين ، فلبوا مسرعين وأتوا مهطعين ، وأعطوا صفقة إيمانهم متبرعين متطوعين ، وبايعوه على السمع والطاعة ، والتزام سنن الجماعة ، وبذل النصيحة جهد الاستطاعة ، ومناصفة من ناصفه ، ومحاربة من حاربه ، ومكايدة من كايده ، ومعاندة من عانده ، لايدخرون فى ذلك على حال المنشط مقدرة ، ولايحجون فى حالتى الرضا والسخط إلى معذرة ، ثم أمر بمخاطبة ساير أهل البلاد لتبايعه ، كل طائفة منهم فى بلدها ، وتعطيه كما أعطاه من حضر ، صفقة يدها ، حتى ينتظم فى التزام طاعته القريب والبعيد ، ويجتمع على الاعتصام بحبل دعوته الغايب والشهيد ، وتطمين من أعلام الناس وخيارهم نفوس قلقة ، وتنام عيون لم تزل مخافة أقذائها مورقة ، ويشمل الناس كافة السرور والاستبشار ، وتتمكن لديهم الدعة ، ويمهد القرار ، وتنشأ لهم فى الصلاح آمال ، ويستقبلهم جد صالح وإقبال ، والله يبارك بيعة رضوان ، وصفقة رجحان ، ودعوة يمن وإيمان ، إنه على ما يشاء قدير ، لا إله إلا هو نعم المولى ونعم النصير . شهد على إشهاد أمير المسلمين بكل ما ذكر عنهم فوق هذا من بيعته . . حمله عنه ممن التزم البيعة المنصوصة قبل ، وأعطى صفقته طائفاً متبرعا ، وبالله التوفيق ، وكتب بحضرة قرطبة فى ذى الحجة سنة ست وتسعين وأربعمائة »[1].

— ٣ —

وقد سبق أن عرضنا من قبل فى كتاب « دول الطوائف » إلى لمحة من خلال يوسف وصفاته[2] ، ونود هنا أن نبسط القول فى ذلك .

إن شخصية البطل المرابطى العظيم تنطوى على كثير من الصفات اللامعة ، التى جعلت من حياته المديدة الحافلة ، نموذجا مثالياً لهذا النوع من البطولة الساذجة الرائعة معاً . والواقع أن أروع ما فى صفاته ، تلك الهالة الوضاءة من البساطة المؤثرة ، التى لبثت شعار حياته كلها ، والتى لم تتأثر بتطورات الأحداث السياسية التى

---

(١) أورد لنا ابن الخطيب نص هذه الوثيقة فى « الإحاطة » فى ترجمته لأبى بكر بن القصيرة (مخطوط الإسكوريال السالف الذكر لوحة ٧١ و٧٢) . وفى بعض الروايات أن البيعة عقدت لعلى فى غرناطة (كتاب الاكتفاء فى أخبار الخلفاء ، لابن الكردبوس ، مخطوط أكاديمية التاريخ بمدريد لوحة ١٦٤ ا) وهذا ما ينقضه ختام الوثيقة .

(٢) كتاب دول الطوائف ص ٣٠٢ و٣٠٣ .

خاضها ، والفتوح العظيمة التى حققها ، والتى جعلت من الدولة المرابطية الكبرى ، فى ظله ، أعظم دولة قامت فى الغرب الإسلامى ، من حيث المدى الإقليمى ، ومن حيث القوى والموارد الزاخرة ، إذ كانت تمتد من تونس شرقاً إلى المحيط الأطلنطى غربا ، ومن ضفاف نهرى الإيبرو والتاجُه فى شبه الجزيرة الإسبانية شمالا ، إلى قلب الصحراء الإفريقية الكبرى جنوبا . فقد لبث البطل المرابطى ، عاهل هذه الدولة الشامخة ، على حالته الأولى ، مذ كان زعيما محلياً من زعماء الصحراء ، بدوياً متقشفاً يرتدى الصوف الخشن ، ولا يلبس غيره قط ، ويقتصر فى طعامه على الشعير ولحوم الإبل وألبانها ، لا يأكل سواها قط [١] ، ولم يتأثر طول حياته ، بأية نزعة من ترف القصور ، ولاعيشها الناعم ولا مغرياتها المفسدة ، بالرغم من هذا الملك الباذخ ، وهذه الدنيا العريضة التى كانت تحت أقدامه . ويكفى أن نتأمل مدى لحظة عابرة ، ماكانت عليه قصور الطوائف الأندلسية من الفخامة والبذخ الطائل ، وماكان يغرق فيه أمراؤ ها الأصاغر من العيش الرخو الوثير المترف ، تتألق ثيابهم الفخمة بالذهب والجوهر ، وتحيط بهم أكواب الشراب وأسراب الغلمان والجوارى والفتيات — يكفى أن نتأمل ذلك ، لنرتفع بحياة البطل المرابطى ، إلى ذرى الإكبار والإجلال والإعجاب .

وقد كانت هذه البساطة المؤثرة التى طبعت حياة يوسف بن تاشفين ، تقترن فى نفس الوقت بطائفة من الصفات المعنوية النبيلة ، التى تجعل من صاحبها عماداً حقيقياً للملك ، وتتوطد بها أسس الدولة العظيمة . فقد كان يوسف يتمتع بكثير من الذكاء والفطنة ، والعزم والشجاعة والحزم ، والكرم والجود ، وكان فضلا عن ذلك كثير التقى والورع . وإلى ذلك يشير ابن الصيرفى مؤرخ الدولة المرابطية بقوله : « كان رحمه الله خائفاً لربه ، كتوما لسره ، كثير الدعاء والاستخارة ، مقبلا على الصلاة ، مديما للاستغفار »[٢]. ويلحق بذلك شغف يوسف بالجهاد ، فقد كان بطلا مجاهداً حقاً ، وقد أنفق من عمره أعواماً طويلة فى الجهاد فى سبيل الله ، مذ ندبه ابن عمه الأمير أبو بكر اللمتونى لقيادة المرابطين . وقد تجلت هذه النزعة للجهاد فيما بعد بصورة رائعة ، فى استجابته لصريخ الطوائف ، وفى موقعة الزلاّقة العظيمة ، وفيما خاضته الجيوش المرابطية ، فى مختلف

---

(١) روض القرطاس ص ٨٧ .

(٢) ابن الخطيب عن ابن الصيرفى فى الإحاطة (مخطوط الإسكوريال السالف الذكر لوحة ٣٩٣).

أنحاء الأندلس ، ولاسيما فى الولايات الشرقية فى بلنسية وسرقسطة من معارك عديدة ، ضد الجيوش النصرانية ، ولم يكن غريباً فى مثل الظروف التى كانت تجوزها اسبانيا المسلمة يومئذ ، من تخاذل أمراء الطوائف وتنابذهم ، وترامیهم على أعتاب الملوك النصارى ، وإشفاق البطل المرابطى ، أن ينتهى الأمر باستيلاء النصارى على الأندلس ، أن ينفذ يوسف مشروعه فى القضاء على ممالك الطوائف ، ووضع الأندلس تحت حماية جيوشه القوية المظفرة ، ولم يكن فى ذلك ما يصدع من نزعة الجهاد ، التى كانت من أبرز صفات يوسف ، والتى لبثت الجيوش المرابطية تضطرم بها من بعده عصراً .

وكان يوسف بن تاشفين جندياً عظيما ، وقائداً من أعظم قواد العصور الوسطى ، وقد أبدى فى سائر فتوحه المتوالية لأقطار المغرب ، كفاية عسكرية واضحة ، ولم يكن ظفره المستمر راجعاً إلى كثرة جيوشه ومقدرتها ، بقدر رجوعه إلى براعته فى تنسيق الخطط ، وتنظيم القيادة ، وانتهاز الفرص السانحة . وأشد ما تبدو هذه البراعة فى حوادث موقعة الزلاّقة وتطوراتها ، فإن النصر الباهر الذى أحرزته الجيوش المرابطية والأندلسية ، فى هذه الموقعة ، يرجع بالأخص إلى شجاعة يوسف وثباته ، وبراعة خططه ، وقد كان من حسن طالع يوسف ، أنه استطاع أن يعتمد فى حروبه ومشاريعه العسكرية ، على معاونة طائفة من أقدر القواد وأشجعهم ، — مثل سير بن أبى بكر ، وداود بن عائشة ، والأمير مزدلى ، ومحمد بن الحاج ، وغيرهم ممن سبق ذكرهم فى مختلف المواطن والحوادث .

وإلى جانب براعته العسكرية ، كان يوسف يمتاز بمقدرة إدارية فائقة ، وكان هذا الزعيم الصحراوى الموهوب ، يحكم الإمبراطورية المرابطية الضخمة ، بحزم وكفاية تدعو إلى الإعجاب ، وكان إلى جانب ورعه وتقواه ، صارماً شديد الوطأة ، حريصاً على استتباب النظام والأمن ، دائباً على تفقد بلاده وشئون رعيته . ويلخص لنا ابن الصيرفى طريقة يوسف وصرامته فى قمع المعارضين والخوارج على القانون فى قوله : « أكثر عقابه لمن تجرأ أو تعرض لانتقامه الاعتقال الطويل ، والقيد الثقيل ، والضرب المبرح ، إلا من انتزى أو شق العصا ، فالسيف أحسم لانتشار الداء »[1] . ويبدو من ذلك أن يوسف لم يكن يلجأ إلى تطبيق عقوبة

---

(١) ابن الخطيب نقلا عن ابن الصيرفى فى الإحاطة (مخطوط الإسكوريال السالف الذكر لوحة ٣٩٣) . وكذلك الحلل الموشية ص ٥٩ ، وابن عذارى فى البيان المغرب (الأوراق المخطوطة السالفة الذكر ، هسبيرس ص ٦٥) .

الإعدام إلا فى حالة العصيان أو الثورة ، وأنه فيما عدا ذلك فإن أقصى عقوبة تطبق فى الجرائم العادية ، هى « الاعتقال الطويل ، والقيد الثقيل » ، وهو ماتعبر عنه القوانين الجنائية الحديثة ، بعقوبة الأشغال الشاقة المؤبدة أو المؤقتة .

وقد نوهت معظم الروايات بحب يوسف للعدل وإيثاره ، والعمل على توطيده ، كما نوهت باحترامه لأحكام الشرع ، والحرص على تطبيقها ، وتعظيمه للعلماء والفقهاء ، والرجوع إليهم والأخذ بآرائهم وفتاويهم . وهو ما يجمله ابن الصيرفى فى قوله : « يواصل الفقهاء ، ويعظم العلماء ، ويصرف الأمور إليهم ، ويأخذ فيها بآرائهم ، ويقضى على نفسه ، وغيره بفتياهم ، ويحض على العـــدل ، ويصدع بالحق ، ويعضد الشرع »[1] . وقد رأينا فيما تقدم فى غير موطن ، كيف كان يوسف يلجأ إلى رأى الفقهاء فى أخطر الأمور ، ومن ذلك استشارته إياهم ، أولا فى مسألة العبور إلى الأندلس ، واستجابة صريخ الطوائف ، وثانيا فى خلع ملوك الطوائف ، وانتزاع ممالكهم ، ولم يكتف يوسف فى ذلك بفتاوى فقهاء المغرب والأندلس ، بل لجأ فى نفس الوقت إلى فقهاء المشرق ، وحصل على آراء أعلام مثل أبى حامد الغزالى ، وأبى بكر الطرطوشى[2] . ومما يروى فى ذلك أن الإمام الغزالى كان يعجب بورع يوسف وجميل صفاته ، وميله إلى أهل العلم ، حتى أنه اعتزم الرحلة إلى المغرب وزيارة هذا الأمير الأمثل . ولكنه لما وصل إلى الإسكندرية وأخذ فى التأهب للسير إلى المغرب ، ورد إليه الخبر بوفاة أمير المسلمين ، فارتد عن عزمه وعاد من حيث أتى[3] . وكان من أبرز مظاهر تمسك يوسف بأحكام الشرع ، وآراء الفقهاء ، موقفه من الضرائب والمغارم التى يسوغ للأمير فرضها على رعيته ، فهو قد ألغى الضرائب والمكوس ، التى لم يجز الدين فرضها ، واكتفى بفرض ما يجيزه الشرع من ذلك ، مثل الزكاة والأعشار وأخماس الغنائم ، وجزية أهل الذمة . وقد كان لهذه السياسة الضريبية الرفيقة ، بالأخص فى الأندلس ، أطيب الأثر ، إذ كان ملوك الطوائف يرهقون رعيتهم بالفروض ،

---

(١) ابن الخطيب نقلا عن ابن الصيرفى فى الإحاطة (مخطوط الإسكوريال) . وراجع الحلل الموشية ص ٥٩ .

(٢) ابن خلدون ج ٦ ص ١٨٧ و ١٨٨ . ويلاحظ أن الطرطوشى كان فى الأصل من فقهاء الأندلس ولكنه نزح إلى المشرق (راجع كتاب دول الطوائف ص ٢٨٤) .

(٣) ابن خلكان فى وفيات الأعيان ج ٢ ص ٤٨٨ ، وكتاب المؤنس فى أخبار إفريقية وتونس لابن دينار ص ١٠٦ .

والمغارم الفادحة ، تغذية لقصورهم الفخمة ، وبذخهم الطائل ، وقد كان تماديهم في ذلك ، من الأسباب التي التُمست لخلعهم والقضاء على سلطانهم . بيد أن يوسف كان يلجأ في بعض الأحيان إلى فرض الإتاوات على رعاياه ، مساهمة منهم في نفقات الجهاد المستمر ، الذي كان يضطلع به ، وقد كان يلجأ في جواز ذلك أيضاً إلى فتاوى الفقهاء . ومن ذلك ما وقع له مع قاضي ألمرية ، أبي عبد الله محمد بن يحيى المعروف بابن الفراء ، فإنه قرر بعد موافقة الفقهاء ، أن يطالب أهل المغرب والأندلس بمعونة مالية للمساهمة في أعمال الجهاد . وكتب إلى قاضي ألمرية المذكور يأمره بتحصيل هذه الإتاوة وإرسالها ، فأبى القاضي ، وكتب إلى يوسف يطعن في شرعية هذه الإتاوة ، وفي رأي الفقهاء الذين أجازوها ، ويطالب يوسف ، إن كانت خزانته ناضبة حقاً ، بأن يمثل في المسجد الجامع بحضرة أهل العلم ، وأن يحلف علناً بأنه ليس لديه في بيت مال المسلمين درهم ينفقه عليهم ، أسوة بما فعل عمر بن الخطاب ، حين أراد فرض مثل هذه الإتاوة ، وعندئذ يجوز له تحصيلها[1] . ومن جهة أخرى فإن يوسف لم يكن يحجم في بعض الأحيان ، عن تحصيل الأموال بطرق استثنائية كفرض المغارم على اليهود والنصارى من آن لآخر ، لظروف وأسباب خاصة . وقد ذكر لنا صاحب الحلل الموشية طرفاً من ذلك[2] .

وكان المغرب يتمتع في ظل يوسف بكثير من الإستقرار والأمن والرخاء ، بعد الفتن والحروب المضطرمة ، التي لبثت قبل الفتح المرابطي ، زهاء نصف قرن ، تمزق أوصاله ، وتودى بأمنه وسلامه . ولما تم استيلاء المرابطين على الأندلس ، وشعرت الأمة الأندلسية أنها أصبحت في مأمن من عدوان اسبانيا النصرانية ، أتيح لها أيضاً أن تتمتع بشيء من الاستقرار والسكينة ، وذلك بالرغم مما كانت تشعر به من شدة وطاة الحكم المرابطي ، وجفاء أساليبه ، وخشونة حكامها الجدد من زعماء البربر ، وبعدهم عن تلك الكياسة التي كان يمتاز بها الأمراء والحكام من مواطنيهم . وعلى أي حال فقد عرفت الأندلس في الأعوام الأخيرة من حياة يوسف ، وقبل أن يشتد عليها ضغط النير المرابطي ، وتستيقظ مشاعرها الوطنية الدفينة ، فترة طيبة من الهدوء والاستقرار ، يصفها لنا المؤرخ فيما يلي : « أقامت بلاد الأندلس في مدته (أي مدة يوسف) سعيدة حميدة في رفاهة عيش ،

---

(١) وفيات الاعيان ج ٢ ص٤٨٥ ، والإستقصاء للسلاوى (طبعة القاهرة) ج ١ ص١٢٢ ، ١٢٣ .
(٢) الحلل الموشية ص ١٣ و٥٩ .

وعلى أحسن حال ، لم تزل موفورة محفوظة ، إلى حين وفاته »[١] .

وكان يوسف فضلا عن حسن اختياره لقادته ، يحسن اختيار معاونيه من الكتاب والوزراء . وكان كاتبه قبل أن يجوز جوازه الأول إلى الأندلس ، أديباً أندلسياً من أهل ألمرية هو عبد الرحمن بن أسباط ، أوأسبط . وكان قد نشأ أديباً مغموراً يشتغل في باب الديوان بألمرية أيام بنى صمادح . وفى سنة ٤٧٢ ه عبر البحر إلى العدوة ، ولحق بمراكش يبحث وراء طالعه ، واتصل بحاشية الأميرة الحرة زينب زوجة يوسف ، فأسند إليه منصب الكتابة . ولما توفيت الأميرة أقره يوسف لكتابته ، فظهر فى هذا المنصب ، ونال حظوة وجاها عريضاً ، « وكان رجلا حصيفاً سكوناً عاقلا » وكان يوسف يثق فى مقدرته وحصافته . وحسن معرفته بشئون الأندلس . وقد لعب عبد الرحمن بن أسباط دوراً هاما فى تدخل يوسف فى أحوال الأندلس ، واستجابته لصريخ الطوائف ، وهو الذى أشار عليه ، حينما قرر الجواز إلى شبه الجزيرة ، بأن يطالب ابن عباد بثغر الجزيرة ليكون مركزاً أميناً لجواز جيوشه وعودتها إلى العدوة[٢]. ومماهو جدير بالذكر أن يوسف بن تاشفين كان لا يعرف العربية ، وكان ابن أسباط يجيد اللغة البربرية التى يتحدث بها يوسف[٣] وكان هذا من أسباب حظوته . ولما توفى ابن أسباط فى سنة ٤٨٧ ه ، تولى الكتابة ليوسف من بعده ، كاتب من أعظم كتاب الأندلس يومئذ ، هو محمد بن سليمان بن القصيرة المعروف بأبى بكر بن القصيرة ، وهو الذى يصفه ابن الصيرفى بقوله : «الوزير الكاتب الناظم الناثر القائم بعمود الكتابة ، والحامل للواء البلاغة ، الذى لا يشق غباره ، ولاتخمد أنواره ، اجتمع له براعة النثر ، وجزالة النظم»[٤]، وهو الذى كتب عن يوسف حين مثوله بقرطبة فى سنة ٤٩٦ ه ، كتابه بتولية ولده على ولاية عهده حسبما تقدم . ولما توفى يوسف استمر أبوبكر فى الكتابة لولده على حتى وفاته فى سنة ٥٠٨ ه (١١١٤ م) ، وفى استخدام يوسف لهذين الكاتبين الأندلسيين البليغين ، بالرغم من عدم معرفته بالعربية ، ما يدل على حصافته ، وبعد نظره ، وإدراكه لأهمية الأساليب العالية فى الترسل ، وقد

---

(١) الحلل الموشية ص ٥٩ .

(٢) الحلل الموشية ص ٣٢ .

(٣) ابن خلكان ج ٢ ص ٤٨٢ .

(٤) ابن الخطيب عن ابن الصيرفى فى الإحاطة (مخطوطة الإسكوريال السالفة الذكر) .

كان ثمة بين يوسف وبين الخلافة العباسية ، وبينه وبين أكابر فقهاء المشرق مراسلات كثيرة . ومن جهة أخرى فقد كانت المراسيم المرابطية ، تصدر فى أحيان كثيرة باللغتين البربرية والعربية ، لتقف عليها الكثرة الغالبة من الرعايا ، وهى المتكلمة بالعربية ، ومما زاد فى أهمية منصب الكتابة فى الدولة المرابطية ، وشغله بأعلام الكتاب البلغاء ، فتح الأندلس . وخضوعها للحكم المرابطى ، ووجوب مخاطبتها بنفس الأساليب العربية العالية التى كانت سائدة فيها .

وأما عن شخص يوسف ، فإن الرواية تصفه بأن كان معتدل القامة ، أسمر اللون ، نحيف الجسم ، خفيف العارضين ، رقيق الصوت [١].

— ٤ —

فى سنة ٤٩٨ ﻫ ، مرض أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ، واستمر يعانى من مرضه حتى اشتدت به العلة فى العام التالى ، ومازالت حالته تسوء شيئاً فشيئاً ، حتى حم القضاء ، وتوفى فى يوم الإثنين مستهل شهر المحرم سنة ٥٠٠ ﻫ (٢سبتمبر سنة ١١٠٦م) ، بقصره بمراكش ، عن مائة عام كاملة ، وبعد أن وصلت الدولة المرابطية الكبرى على يديه إلى ذروة عظمتها وقوتها .

فكان لوفاته وقع عظيم فى المغرب والأندلس ، ورثاه جماعة من شعراء العصر ، منهم أبو بكر بن سوار ، وقد أنشد على قبره مرثية مؤثرة جاء فيها :

ملك الملوك وما تركت لعـــامل ... عملا من التقوى يشارك فيه
يا يوسف ما أنت إلا يوسف ... والكل يعقوب بما تطويه
اسمع أمير المؤمنين وناصر الـ ... ـدين الذى بنفوسنا نفـــديه
جوزيت خيراً عن رعيتك التى ... لم ترض فيها غير ما يرضيـه
وصل الجهاد إلى الجهاد موفقا ... حتم القضاء بكل ما تقضيه
ويجىء ما دبرته كمجيئـــــه ... فكأن كل مغيّب تدريـــه
متواضعاً لله مظهر دينـــه ... فى كل ما يبديه ويخفيــه[٢]

وقد ترك أمير المسلمين يوسف بن تاشفين عند وفاته إمبراطورية من أعظم الإمبراطوريات التى حكمها الإسلام ، تشتمل على قطرين من أعظم وأهم الأقطار

(١) وفيات الأعيان ج ٢ ص ٤٨٨ .

(٢) ابن عذارى فى البيان المغرب (الأوراق المخطوطة المشار إليها ، هسبيرس ص ٦٤ و ٦٥ و ٦٦ .

الإسلامية فى العصور الوسطى ، هما المغرب والأندلس ، وتمتد فيما بين تونس شرقاً ، والمحيط الأطلنطى غرباً ، وفيما بين نهر التاجُه فى قلب اسبانيا شمالا ، وبلاد السودان ونهر النيجر جنوبا . ويكفى لكى نقدر روعة المعجزة العسكرية والسياسية ، التى حققتها عبقرية يوسف ، أن نرتد نصف قرن فقط إلى ماقبل وفاته ، وأن نلقى نظرة عابرة على ماكان عليه المغرب والأندلس يومئذ . فقد كان المغرب عندئذ فريسة لأشنع ضروب التفرق والفوضى ، تتقاسم أقطاره وقواعده التالدة ، عدة كبيرة من الزعامات القَبَلية ، وتقوم فيه إمارات عديدة ، متخاصمة متنابذة ، وتجتاح الحروب الأهلية الصغيرة مروجه وبواديه ، ويسود الفقر والاختلال والفوضى سائر نواحيه . وقد كان قيام المرابطين فى جنوبى المغرب ، وانتظامهم إلى قوة مصلحة غازية ، فى هذه الآونة ، وسيرهم لافتتاح أقطار المغرب وقواعده ، وظفرهم بالتغلب على إماراته وقواعده المتفرقة ، وضمها تحت لوائهم فى وحدة متماسكة ودولة موحدة ، كان ذلك فى الواقع عمل إنقاذ قومى من أعظم ما وقع فى تاريخ المغرب . وقد اضطلع يوسف بن تاشفين فى ذلك كله حسبما رأينا بأوفر نصيب ، وكان له فى تحقيقه أعظم الفضل . ولما قامت الدولة المرابطية الكبرى ، تتوسطها عاصمتها العظيمة مراكش ، وتوطدت دعائم الحكم المرابطى ، ساد فى المغرب نوع من النظام والأمن ، لم يكن له به عهد منذ بعيد ، وعم الرخاء ، واستطاع الناس أن ينعموا بكثير من الاستقرار والهدوء . ووقعت نفس المعجزة فى الأندلس ، فبعد أن لبثت زهاء نصف قرن ، تعانى فى ظل أمراء الطوائف ، وفى ظل دولهم الضعيفة المتنابذة ، مصائب التفرق ، والحروب الأهلية المتوالية ، وبعد أن استطال عليها النصارى ومالوا على دول الطوائف ، فأذلوها واستباحوا حماها ، واستصفوا أموالها ، وبدأوا بانتزاع قواعدها ، وبعد أن لاح لأهل الأندلس أن الآخرة قد دنت ، وأنه لن يمضى سوى القليل ، حتى تقضى اسبانيا النصرانية على دول الطوائف كلها ، وتنتزع سائر قواعدها وأراضيها ، وتسقط الأندلس كلها فى يد العدو الخالد ، وينطفئ نور الإسلام من تلك الديار العزيزة ، بعد ذلك كله جاء جواز يوسف بن تاشفين وجيوشه المرابطية إلى الأندلس ، نذير الإنقاذ ، وانقشاع الخطر الداهم ، وكُتبت لإسبانيا المسلمة حياة جديدة . ثم كان افتتاح المرابطين لدول الطوائف ، وبسط سيادتهم على الأندلس ، فرُدت إليها وحدتها الإقليمية القديمة ، وبالرغم مما اقترن

بهذا الفتح المرابطى من مظاهر العنف والقسوة ، وبالرغم مما كان ينطوى عليه بالنسبة للأمة الأندلسية من معانى الافتئات والاغتصاب ، وسيطرة القبائل البربرية على حريات الأندلس ومصايرها ، فإنه كان أيضاً عمل إنقاذ لاشك فيه . وكانت سيطرة المرابطين على اسبانيا المسلمة فى تلك الفترة العصيبة من حياتها ، هى أوكد ضمان بصونها ، والذود عنها ، وحمايتها من عدوان اسبانيا النصرانية .

وهكذا استطاع يوسف فى مدى نصف قرن أن يحقق وحدة المغرب ، وأن يحقق وحدة الأندلس معاً ، وأخيراً أن يحقق الوحدة بين الدولتين الإسلاميتين العظيمتين فى ظل الدولة المرابطية الكبرى .

ولما توفى يوسف كانت هذه الدولة المرابطية الكبرى تمثل بشطريها — المغرب والأندلس — وفقاً لقول المؤرخ « مُلكا مؤسساً ، وجنداً مجنداً ، وسلطاناً قاهراً ومالا وافراً »[1] .

بيد أن هذه الدولة العظيمة بالرغم مما كان يبدو من توطدها وقوتها ورخائها ، كانت تحمل فى ثنيتها بعض عوامل الوهن الخفية ، التى تسترها المظاهر الخادعة ، وهى كانت تدين بوحدتها وقوتها قبل كل شىء إلى عبقرية مؤسسها العظيم . فلما اختفى يوسف من الميدان ، فقدت الدولة المرابطية أعظم قادتها وحماتها : فقدت تلك اليد الموجهة المرشدة ، التى كانت تقودها دائماً نحو التوطد والظفر ، وتلك العقلية الراجحة ، التى كانت تستشف الحوادث البعيدة من خلال الحجب ، وتعمل على تداركها ، وتوجيهها إلى الغاية المرغوبة .

---

(١) ابن الخطيب عن ابن عذارى فى الإحاطة فى ترجمة على بن يوسف (مخطوط الإسكوريال السالف الذكر لوحة ٢٩٢) .

الفصل الثانى

أمير المسلمين على بن يوسف

وأحداث عصره

على بن يوسف يخلف أباه . الثورة فى فاس وإخفاقها . على يعبر إلى الأندلس . أعماله وعوده . أمره إلى أخيه تميم باستئناف الغزو . خروج تميم فى قواته إلى قشتالة . مسيره إلى حصن أقليش واقتحامه إياه . أهبة ألفونسو السادس لرد الغزاة . مسير القشتاليين إلى أقليش . موقف الجيش المرابطى . عدد الجيشين المتحاربين . التحامهما فى معركة عنيفة . مصرع الإنفانت سانشو وهزيمة القشتاليين . خسائر النصارى والمسلمين . إتمام الاستيلاء على أقليش . الروايات النصرانية عن الموقعة . عبور على إلى الأندلس . غزوه لأراضى قشتالة ، استيلاؤه على طلبيرة . محاصرته لطليطلة . رفع الحصار وعوده إلى قرطبة ثم إلى مراكش . غزو الأمير سير اللمتونى لأراضى البرتغال . استيلاؤه على يابرة وأشبونة وشنترين . غزو مزدلى والى قرطبة لأراضى قشتالة . استيلاؤه على حصن أرجنة ومحاصرته لطليطلة . القتال بين القشتاليين والمرابطين . رفع الحصار وعود المرابطين . وفاة مزدلى وولاية ولده محمد لقرطبة . غزو القشتاليين لولاية قرطبة . خروج المرابطين لردهم . هزيمة المرابطين ومصرع محمد بن مزدلى وأكابر لمتونة . هزيمة مرابطية أخرى . وفاة الأمير سير والى إشبيلية . التعريف بسير ومزدلى . من أسباب نشاط الغزو المرابطى . أحوال سرقسطة . استيلاء المرابطين عليها . إنتهاء ملك بنى هود . ابن الحاج والى سرقسطة . الحرب بين المرابطين وبين عماد الدولة بن هود . غزو ابن الحاج وابن عائشة لإمارة برشلونة . هزيمة المرابطين ومصرع ابن الحاج . أحوال الجزائر الشرقية . افتتاح النصارى لها . أهبة على لإنقاذها . مسير الأسطول المرابطى إلى الجزائر . استيلاء المرابطين عليها . إحراق كتاب الإحياء فى قرطبة . نفوذ الفقهاء وأثرهم فى هذا الحادث . عبور على إلى الأندلس للمرة الثالثة . غزوه لأراضى البرتغال واقتحامه لمدينة قلمرية . عوده إلى المغرب . عبوره إلى الأندلس للمرة الرابعة . الثورة فى قرطبة . مختلف الروايات فى شأنها . مغزى هذه الثورة وأسبابها . موقف على منها . النقاش بينه وبين ابن رشد . تسوية الحادث وعودة على .

لما توفى أمير المسلمين ، يوسف بن تاشفين ، فى يوم الاثنين مستهل شهر المحرم سنة خمسمائة (٢ سبتمبر سنة ١١٠٦ م) ، بقصره بمراكش ، خلفه فى نفس يوم وفاته ولده أبو الحسن على ، وكان قد اختاره كما تقدم لولاية عهده ، منذ سنة ٤٩٥هـ ، وأصدر له عهد التولية بقرطبة فى شهر ذى الحجة سنة ٤٩٦هـ ، مؤثراً إياه بذلك على ولده الأكبر أبى الطاهر تميم . وعقدت البيعة لعلى فى نفس اليوم ، قبل أن يُوارى جثمان العاهل الراحل ، وكان أول من بايعه بمحضر من أشياخ لمتونة وباقى قبائل صنهاجة ، والأكابر والقادة ، أخوه تميم معلناً بذلك طاعته

لأخيه ، واحترامه لإرادة أبيه ، ثم بايعه من بعده سائر من حضر من الأشياخ والأكابر ، وكتب على فى نفس الوقت إلى سائر قواعد المغرب والأندلس وبلاد القبلة بالصحراء ، يعلمهم بموت أبيه ، واستخلافه إياه من بعده ، ويأمرهم بأخذ البيعة له[1] . وكان على وقت تبوئه الملك ، فتى فى نحو الثالثة والعشرين من عمره ، وكان مولده بثغر سبتة سنة ٤٧٧ هـ (١٠٨٤ م) ، عقب سقوطه فى أيدى المرابطين بأشهر قلائل ، وأمه أم ولد رومية اسمها قمر ، وتسمى أيضاً « فاض الحسن » . وقد أنفق على فيما يبدو حداثته فى سبتة[2] . ولما توفى الأمير أبوبكر أكبر أولاد يوسف وولى عهده بسبتة فى سنة ٤٧٩ هـ عقب نصر الزلاّقة ، وأخذ يوسف يبحث عن خلفه بين أولاده ، اتجهت نيته لاختيار ولده على، لما آنسه فيه منذ صغره من ذكاء ونجابة ، وكان يصطحبه فى كثير من المهام ، ولاسيما عند جوازه الأخير إلى الأندلس ، حينما عبر إليها ليتفقد أحوالها ، وليعقد بها بيعة العهد لعلى .

وكان يوسف قبيل وفاته بقليل ، قد أوصى ولده عليا بثلاثة أمور ، أولها ألاّ يفعل شيئاً لإثارة أهل جبل درَن ، ومن وراءه من المصامدة وأهل القبلة ، والثانى أن يهادن بنى هود أمراء سرقسطة ، وأن يتركهم حائلا بينه وبين النصارى ، والثالث أن يعطف على من أحسن من أهل قرطبة ، وأن يتجاوز عمن أساء منهم[3] ، هذا فضلا عما اشترطه عليه حين خصه بولاية عهده ، من الأمور المتعلقة بشئون الأندلس الدفاعية ، وهو ما سبق أن أشرنا إليه فيما تقدم .

وكان على بن يوسف أميراً وافر الهمة والذكاء والعزم ، وكانت تحدوه رغبة صادقة ، فى أن يسير على نهج أبيه فى الحكم ، وفى متابعة الجهاد ، وهو قد سار بالفعل وفق هذا المنهج ، وحقق فى ظله طائفة من جلائل الأعمال ، وهو ما يجمله المؤرخ فى قوله : « فاقتفى أثر أبيه ، وسلك سبيله فى عضد الحق ، وإنصاف المظلوم ، وأمن الخايف ، وقمع المظالم ، وسد الثغور ، ونكاية العدو ، فلم يعدم التوفيق فى أعماله ، والتسديد فى حسن أفعاله »[4] .

---

(١) روض القرطاس ص ١٠٢ .

(٢) روض القرطاس ص ١٠١ .

(٣) الحلل الموشية ص ٦٠ .

(٤) ابن عذارى البيان المغرب (الأوراق المخطوطة – هسبيرس ص ٦٧) ، ونقله ابن الخطيب فى الإحاطة فى ترجمة على بن يوسف (مخطوط الإسكوريال السالف الذكر لوحة ٢٩٢) .

ولأول ولايته وقعت ثورة محلية لم تكن على شيء من الخطورة، ولكنها كانت أول بادرة فى الانتقاض والخروج . وذلك أنه حينما كتب إلى القواعد والثغور بأخذ البيعة له ، أتته البيعة من سائر البلاد إلا من مدينة فاس ، عاصمة المغرب القديمة ، وقد كان واليها عند وفاة يوسف ، حفيده يحي بن الأمير أبى بكر أخى على المتوفى ، فرفض أداء البيعة لعمه على، وأعلن الخلاف ، ووافقه على ذلك جماعة من قواد لمتونة ، فبادر على بالسير فى بعض قواته إلى فاس، فخشى يحي البادرة على نفسه ، خصوصاً بعد أن تخلى عنه أنصاره ، وفر من المدينة ، ودخلها على بن يوسف ، وذلك فى الثانى من ربيع الآخر سنة ٥٠١ هـ ، وأخمدت هذه الثورة الصغيرة فى مهدها . وسار يحي صوب تلمسان ملتجئاً إلى واليها الأمير مزدلى ، فلقيه بالطريق ، وكان قادماً ليقدم بيعته إلى على ، فاستجار به ووعده مزدلى ، بأن يسعى لدى على فى العفو عنه . واختفى يحي فى أحواز فاس حتى لقى مزدلى الأمير ، وقدم إليه بيعته ، وشفع لديه فى ابن أخيه ، فعفى عنه على ، وخيره بين الإقامة فى ميورقة أو فى الصحراء ، فاختار يحي الصحراء ، ثم سار منها إلى الحجاز فقضى فريضة الحج ، وعاد إلى المغرب ، واستأذن عمه عليا فى سكنى مراكش ، فإذن له . ولكن بدت منه عندئذ بعض بوادر مريبة ، فخشى على من نياته ، وأمر بالقبض عليه ونفيه إلى الجزيرة الخضراء ، فاعتقل بها حتى توفى[١] .

ولم يكد على يفرغ من قمع الثورة فى فاس ، حتى أزمع الجواز إلى الأندلس لتفقد أحوالها ، وتنظيم شئونها ، فخرج من مراكش فى جيش من المرابطين ومصمودة ، وعبر البحر من سبتة إلى الجزيرة الخضراء فى منتصف سنة ٥٠٠ هـ (أوائل سنة ١١٠٧م) ، وهناك بادر إليه زعماء الأندلس ورؤساؤها ، وقضاتها ، وفقهاؤها وأدباؤها وشعراؤها ، فقدموا إليه بيعتهم وطاعتهم ، وأنشده الشعراء قصائدهم ، فعنى بالنظر فى مطالبهم ، وغمر الجميع بعطفه وصلاته[٢] .

وعمد على فى الوقت نفسه إلى إجراء طائفة من التغييرات الإدارية الهامة ، فعزل أخاه أبا الطاهر تميما عن ولاية المغرب ، وعينه لولاية غرناطة بالأندلس ، وجعله قائداً أعلى للجيوش المرابطية فيما وراء البحر . وعين لولاية قرطبة أبا عبدالله

---

(١) روض القرطاس ص ١٠٣ .

(٢) الحلل الموشية ص ٦٢ ، وابن عذارى فى البيان المغرب (الأوراق المخطوطة — هسبيرس ص ٦٧) .

محمداً بن أبى بكر اللمتونى ، وعين لولاية المغرب أبا عبد الله محمداً بن الحاج ؛ فلبث والياً على فاس وسائر أنحاء المغرب زهاء ستة أشهر . ثم عينه على لولاية بلنسية وشرقى الأندلس ، ومن بلنسية ، سار ابن الحاج فى القوات المرابطية إلى سرقسطة ودخلها فى سنة ٥٠٢ هـ (١١٠٩ م) حسبما نفصل بعد[١] .

ولما عاد على إلى المغرب ، كتب فى أوائل سنة ٥٠١ هـ إلى أخيه تميم والى غرناطة، وقائد الجيوش المرابطية بالأندلس، أن يستأنف الجهاد ، وأن يغزو أرض النصارى. وقد كانت غرناطة يومئذ قاعدة الحكم المرابطى فى الأندلس بعد قرطبة . والظاهر أن هذا الاختيار كان يرجع لأسباب استراتيجية تتعلق بموقع غرناطة ، وإنما كتب على لأخيه ولم يعبر إلى الأندلس ، حسبما يبدو من أقوال صاحبى الحلل الموشية وروض القرطاس . فإنه يبدو من الرواية الأولى [٢] ، أن علياً لم يعبر عبوره الثانى إلى الأندلس إلا فى سنة ٥٠٣ هـ (١١١٠م). وتمر الرواية الثانية على مسألة جواز على بالصمت . ويؤيد ذلك بنوع خاص رسالة كتب بها الأمير تميم إلى أخيه على عقب الموقعة التى نشبت بينه وبين النصارى ، وهى رسالة سوف نتحدث عنها فيما بعد .

ولم يصدر على أمره باستئناف الغزو والجهاد عفواً ، فقد كان ثمة ما يبرره ويستدعيه . ذلك أنه لما مرض أمير المسلمين يوسف بن تاشفين فى سنة ٤٩٨هـ ، وذاع أمر مرضه فى الأندلس ، ونقلت عن الأحوال فى المغرب والأندلس إلى قشتالة أقوال وصور زائفة ، اعتقد ألفونسو السادس ملك قشتالة الشيخ ، أن الفرصة قد سنحت ليستأنف غزواته فى أراضى المسلمين ، فبعث حملة من نحو ثلاثة آلاف وخمسمائة مقاتل ، سارت نحو أحواز إشبيلية ، وعاثت فيها ، واستولت على كثير من الغنائم والسبى ، فخرج الأمير سسر بن أبى بكر والى إشبيلية فى قواته لرد الغزاة ، ولحقت به عساكر غرناطة بقيادة أبى عبد الله بن الحاج واليها يومئذ ، وطارد المسلمون القشتاليين ، وردوهم على أعقابهم ، وقتلوا منهم نحو ألف وخمسمائة[٣] ، ولما تولى على بن يوسف الملك بعد ذلك بقليل ، لم ينس أمر هذا

---

(١) روض القرطاس ص ١٠٣ ، والبيان المغرب (الأوراق المخطوطة هسبيرس ص ٦٧ و٦٨) .

(٢) الحلل الموشية ص ٦٣ .

(٣) البيان المغرب (الأوراق المخطوطة المشار إليها — هسبيرس ص ٦٤ و٦٥) .

العدوان وما يدل عليه من تحفز النصارى ، فرأى أن يبادرهم بالغزو ، وأن يهاجمهم فى قلب أراضيهم .

وصدع تميم بأمر أخيه ، وجهز جيشاً حسن الأهبة ، وخرج من غرناطة فى العشر الأخيرة من شهر رمضان سنة ٥٠١ هـ (أوائل مايو سنة ١١٠٨م) وسار فى قواته شمالا صوب جيّان ، وكانت الجنود والإمداد تهرع إليه فى طريقه . ولبث فى جيان أياماً قلائل ، حتى وافته حشود قرطبة بقيادة واليها أبى عبد الله محمد بن أبى رنق ، ثم سار إلى بيّاسة شمال شرقى جيان ، واتجه منها شمالا صوب أراضى قشتالة ، وانضمت إليه فى الطريق حشود مرسية بقيادة واليها أبى عبد الله محمد بن عائشة ، وحشود بلنسية بقيادة واليها محمد بن فاطمة . واخترقت القوات المرابطية أراضى قشتالة وعاثت فيها . ثم اتجهت صوب بلدة أقليش الحصينة ، وهى التى وقع الاختيار على مهاجمتها ، فوصلت إلى ظاهرها فى يوم الأربعاء الرابع عشر من شوال (٢٧ مايو) .

وقد كانت أقليش فى ذلك العصر من أمنع معاقل كورة شنتبرية ، وهى محلة حصينة ، تقع فى شمالى جبال طليطلة ، وجنوب غربى وبذة ، أنشأها الفتح بن موسى بن ذى النون فى أواخر القرن الثالث الهجرى أيام الأمير عبد الله (١) واتخذها مستقراً ومعقلا ، وغدت دار بنى ذى النون ، حتى ظهروا أيام المنصور ابن أبى عامر ، وحكموها أيام اضطراب الخلافة ، ثم انتقلوا منها إلى حكم طليطلة على يد إسماعيل بن ذى النون فى أوائل المائة الخامسة . ولما سقطت طليطلة فى أيدى القشتاليين فى صفر سنة ٤٧٨ هـ (١٠٨٥ م) وانتهى سلطان بنى ذى النون فى تلك المنطقة ، كانت أقليش ضمن القواعد والحصون العديدة ، التى استولى عليها القشتاليون نتيجة لافتتاح مملكة طليطلة .

وما كادت القوات المرابطية تصل إلى أقليش حتى طوقتها ، وهاجمتها بعنف ، ولم يستطع النصارى المدافعون عنها ، أن يثبتوا طويلا أمام شدة المهاجمين ، فسقطت فى أيديهم فى اليوم التالى وهو يوم الخميس ١٥ شوال (٢٨ مايو) ، وفى الحال

---

(١) جاء فى الروض المعطار (صفة جزيرة الأندلس) ص٢٨ ، أن أقليش بناها الفتح بن موسى ذى النون وفيها كانت ثورته وظهوره فى سنة ١٦٠ هـ ، وفى ذلك تحريف واضح ، لأن ثورة الفتح ابن موسى ذى النون كانت فى مستهل عهد الناصر بعد سنة ٣٠٠ هـ ، وإذاً فإن الصحيح والمعول عليه هو أن إنشاء أقليش قد وقع فى أواخر القرن الثالث .

دخلتها القوات المرابطية ، وقوضت صروحها ، وهدمت كنائسها ، ودكت هياكلها ، وهرع المسلمون الذين كانوا بها — وكان ما يزال منهم بقية كبيرة فضلت التدجّن والبقاء تحت حكم النصارى — والتجأوا إلى معسكر الجيش المرابطى ، لائذين بحمايته ، وشرحوا لإخوانهم فى الدين أحوال المدينة ، وظروف المدافعين عنها[1] .

والتجأ المدافعون من النصارى إلى قصبة أقليش الحصينة ، وامتنعوا بها فى انتظار الغوث والإنجاد من مواطنيهم . والواقع أنه مذ تحركت الجيوش المرابطية ، ونفذت إلى أراضى قشتالة ، كان الملك الشيخ ألفونسو السادس ملك قشتالة وقادته ، يبذلون أقصى جهودهم فى إعداد العدة لرد الغزاة . وكان ألفونسو السادس قد هدمه الإعياء والمرض ، ولم يستطع لضعفه أن يسير بنفسه لملاقاة الغزاة وإنقاذ القلعة ، فجهز حملة قوية بقيادة كبير قواده ألبرهانس — وهو أشهر قواد قشتالة فى ذلك العصر ، وقد خاض من قبل وقائع كثيرة ضد المسلمين ، ولاسيما فى منطقة بلنسية — وزميله غرسيه أردونيث مؤدب ولى العهد سانشو ، وهو أيضاً من أكابر القادة ، ومعهما عدة أخرى من قادة منطقة طليطلة من قلعة النسور ، وقلعة النهر أو قلعة عبد السلام (Alcala de Henares) وغيرهما . بيد أن أهم شخصية مثلت فى تلك الحملة كانت شخصية الأمير الصبى (الإنفانت) سانشو ولد ألفونسو السادس وولى عهده ، وهوالذى رزق به من « زائدة » حظيته أوزوجته المسلمة المتنصرة ، التى كانت زوجة للفتح بن المعتمد بن عباد ، والتى فصلنا قصتها فى موضعها من كتاب « دول الطوائف »[2] ، وكان يومئذ صبياً فى الحادية عشرة من عمره . وكان مستشارو الملك — أو زوجته زائدة — قد نصحوا بإرساله على رأس الجيش لكى يثير منظره الفتى حماسة الجند ، فنزل عند رأيهم ، وبعثه مع مؤدبه غرسيه أردونيث كونت دى قبره . ويشير صاحب روض القرطاس إلى تلك الواقعة ، ويفسرها بتفسير طريف يقول فيه « فأشارت عليه زوجته (أى ألفونسو) أن يوجه ولده عوضاً عنه فيكون مقابلا لتميم ، لأن تميم ابن ملك المسلمين ، وشانجه

---

(١) استقينا هذه المعلومات من رسالة الأمير تميم التى سبقت الإشارة إليها والتى سوف ننشر نصها فى باب الوثائق .

(٢) كتاب دول الطوائف ص ٣٣٣ — ٣٣٧ .

(سانشو) ابن ملك الروم ، فسمع منها ، فبعث ولده شانجه فى جيوش كثيرة من زعماء الروم وأنجادهم »[1] .

وزحف الجيش القشتالى بسرعة لإنجاد قلعة أقليش . وفى تلك الأثناء ، فى عصر يوم الخميس ١٥ شوال (٢٨ مايو) كانت الأنباء قد ترامت عن قرب مقدمه إلى العسكر المرابطى . وهنا تختلف الرواية فى تصوير موقف الجيش المرابطى ، وموقف قائده الأعلى الأمير أبى الطاهر تميم . ذلك أن صاحب روض القرطاس يقول لنا إن تميما حين علم باقتراب القشتاليين ، أراد الارتداد والإحجام عن لقائهم ، فنصحه محمد بن عائشة ومحمد بن فاطمة وغيرهما من قواد لمتونة بالبقاء وملاقاة العدو ، وهونوا عليه الأمر ، خصوصاً وأن القادمين لا يزيد عددهم عن ثلاثة آلاف فارس . فنزل تميم عند هذا النصح ، فلما وافى القشتاليون عند مغيب الشمس ، ورأى تميم وفرة حشودهم ، أراد الفرار والإحجام عن لقائهم ، ولكنه لم يجد سبيلا إلى ذلك ، وصمم قواد لمتونة على لقاء العدو ومناجزته[2]. بيد أن تميما يصور لنا الموقف فى رسالته التى يصف فيها الموقعة والتى سبقت الإشارة إليها تصويراً آخر . فيقول لنا إنه حين مقدم القشتاليين ، استدنى إليه « القائدين المحربين ، ذوى النصيحة والآراء الصحيحة ، أبا عبد الله محمد بن عائشة ، وأبا عبد الله محمد بن فاطمة وأنهم بعد المشاورة ، اجتمعوا على كلمة الله متعاقدين ، وخضعوا إلى حكمه مستسلمين » ثم يقول : « ونهضنا بجملتنا ، من محلتنا والصبر يفرغ علينا لامه ، والنصر يبلغ إلينا سلامه ، وتوجهنا إلى الله نقتفى سبيله ، ونبتغى دليله » فكان اللقاء ، وكانت الموقعة .

ولم تقدم إلينا الرواية بيانات كافية عن عدد الجيشين المتحاربين . بيد أنه يستفاد من أقوالها عن الجيش المرابطى ، الذى كان يتكون من حشود غرناطة وقرطبة وشرقى الأندلس ومن انضم إليه من المتطوعة المجاهدين خلال مسيره ، أنه كان يضم عدة آلاف من الفرسان ، إذ كانت حامية غرناطة تتكون من ألف فارس ، ومثلها حامية قرطبة ، وكانت الحامية المرابطية بشرقى الأندلس تتكون من أربعة آلاف فارس . أما الجيش القشتالى القادم للنجدة ، فمن المرجح أنه كان متفوقاً على المرابطين فى الكثرة ، يدل على ذلك إحجام تميم فى البداية عن لقائه ، وتوجسه

(١) روض القرطاس ص ١٠٤ .

(٢) روض القرطاس ص ١٠٤ .

من تفوقه العددى . هذا عدا من كان من القشتاليين بالقصبة وهم حسبما تصفهم الرواية « جمع عظيم من الروم »[1]. ومن جهة أخرى ، فإنه لدينا عن عدد الجيش القشتالى روايتان إسلاميتان ، الأولى تقدره بعشرة آلاف فارس، وهذه هى رواية ابن القطان وقد كتب بعد الموقعة بقرن ونصف ، فى أواخر عهد الموحدين[2]، والثانية تقدر بسبعة آلاف فارس ، وهى رواية ابن عذارى ، وهو يقول لنا مشيراً إلى مقدم القشتاليين لإنجاد قلعة أقليش ، « وفى خلال ذلك وصل إليه (حصن إقليش) ، ولد ألفونسو شانجُه من زوج المأمون بن (عباد) التى كانت تنصرت بنحو سبعة آلاف فارس »[3] .

وفى فجر يوم الجمعة ١٦ شوال سنة ٥٠١ هـ ، الموافق ٢٩ مايو سنة ١١٠٨ م ، بدت طلائع المعركة ، وتقدم المرابطون قليلا فى اتجاه أقليش للقاء القشتاليين . وأقبل القشتاليون يقودهم ألبرهانس وغرسيه أردوينت كونت دى قبره وكونتات طليطلة ، وبينهم الأمير الفتى الإنفانت سانشو فوق فرسه ، وقد ارتدى حلة الفرسان . وبدأ الهجوم ووقعت الصدمة الأولى حسبما ينبئنا تميم فى رسالته ضد قوات قرطبة ، وقائدها ابن أبى رنق ، فارتد إلى الوراء . وعندئذ تقدمت قوات مرسية وبلنسية ، وتقدم تميم فى قواته إلى قلب المعركة ، ونشب بين الفريقين قتال بالغ العنف ، يصفه لنا تميم فى رسالته عن الموقعة فى عبارات حماسية مضطرمة . ومما جاء فيها : « فعند ذلك اختلطت الخيل ، بل سال السيل ، وأظلم الليل ، وأعتقت الفرسان ، واندقت الخرصان ، ودحا ليل القتام ، وضاق مجال الجيش اللهام ، واختلط الحسام بالأجسام ، والأرماح بالأشباح ، ودارت رحى الحرب تغر بنكالها . وثارت ثائرة الطعن والضرب تفتك بأبطالها » . وتجمع الروايات الإسلامية والنصرانية معاً ، على أن الموقعة كانت مضطرمة رائعة ، وأن الفريقين المتحاربين ، قاتل كلاهما بمنتهى العنف والشدة . وبينما القتال على أشده إذ وقع

---

(١) روض القرطاس ص ١٠٣ .

(٢) أوردها فى كتابه « نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان » . وتوجد منه قطعة مخطوطة هى « السفر الثالث عشر » ضمن نسخة محفوظة بالمعهد المصرى للدراسات الإسلامية بمدريد (وقد وصفناها فى بيان المصادر) لوحة ٧ ا . وقد نقل إلينا رواية ابن القطان هذه عن الموقعة الأستاذ هويثى فى كتابه : **Las Grandes Batallas de la Reconquista, p. 118 & 119**

(٣) البيان المغرب (الأوراق المخطوطة السالفة الذكر — هسبيرس ص ٦٨) . وراجع كتابى « دول الطوائف » ص ٣٣٦ .

حادث كان حاسما فى مصير المعركة . ذلك أن الأمير الصبى سانشو ابن ملك قشتالة ، ازدلف إلى قلب المعمعة إلى جانب مؤدبه غرسية أردونيث أو الكونت دى قبره ، فلم يلبث أن أحاطت بهما ثلة من الفرسان المسلمين ، وتوالت عليهما الطعان ، فسقط الفتى من فوق جواده ، وقد أصابته طعنة قاتلة ، وسقط فوقه الكونت دى قبره مدافعاً عنه[1] ، فدب الهرج إلى صفوف القشتاليين وكثر القتل بينهم ، ولجأ الكثيرون منهم إلى الفرار ، وسقط معظم القادة والكونتات قتلى ، وارتد ألبارهانيس فى فلول القشتاليين صوب طليطلة ، وحاول الكونتات السبعة الذين كانوا يؤلفون حاشية الأمير القتيل ، الفرار إلى حصن بلنشون القريب ، فلحقت بهم جماعة من المسلمين المدجنين وقتلتهم عن آخرهم ، وعرف مكان مصرعهم فيما بعد « بالكونتات السبعة » . وهكذا تمت الهزيمة الساحقة على الجيش القشتالى ، وأحرز المسلمون نصرهم الباهر ، فى ذلك اليوم المشهود .

هكذا كانت أدوار موقعة أقليش الشهيرة ، التى أعادت بروعتها ، وانتصار المرابطين الساحق فيها ، ذكريات موقعة الزلاّقة . وتعرف الموقعة فى الرواية النصرانية « بموقعة الكونتات السبعة » نسبة إلى الكونتات السبعة الذين كانوا حاشية لولى عهد قشتالة . وتقدر بعض الروايات الإسلامية خسائر القشتاليين فيها بنيف وثلاثة وعشرين ألفاً[2] . وتجاريها فى ذلك بعض الروايات النصرانية ، فتقدر خسائر القشتاليين بعشرين ألفاً[3] . بيد أنه يبدو مما سبق أن ذكرناه عن عدد الجيشين المتحاربين ، ومما ذكره الأمير تميم فى رسالته عن الموقعة ، أن خسائر النصارى لم تكن بهذه النسبة المغرقة ، وإن كان مما لاريب فيه أنها كانت فادحة . ويقول لنا الأمير تميم فى رسالته إنه أمر عقب الموقعة بجمع رؤوس القتلى من النصارى ، فجمعت الدانية منها ، وتركت النائية ، فبلغ ما جمع منها أكثر من ثلاثة آلاف رأس ، ميزت منها رؤوس غرسية أردونيث (أردونش) أو الكونت دى قبره ، وقواد طليطلة ، وكدست ، وأذن من فوقها المؤذنون وفقاً للتقليد المأثور . واستولى

(١) ويقدم إلينا ابن القطان رواية أخرى عن مصرع « الإنفانت » سانشو ، فيقول إنه أفلت من قلب المعركة فى ثمانية من النصارى ولجأ معهم إلى حصن بلشون (بلنشون) ، وكان فيه رعية لهم من المسلمين ، فاختبأ عندهم رجاء أن يسلموا من القتل ، فلحق بهم المسلمون وقتلوهم وقتل معهم ولد أذفونش (المخطوط السالف الذكر لوحة ٧ ب) .

(٢) روض القرطاس ص ١٠٤ .

(٣) M. Lafuente : Historia General de Espna (Barcelona 1899) V. III. p. 202

المرابطون فى نفس الوقت على مقادير هائلة من الأسلاب والغنائم ، من المال والخيل والبغال والسلاح والدروع وغيرها .

وأما عن خسائر المسلمين فى الموقعة ، فإنه يبدو أنها كانت أيضاً ذات شأن ، وإن لم يكن لدينا من أقوال الرواية الإسلامية أرقام معينة . وكل ماذكر عن ذلك عبارة أوردها صاحب روض القرطاس فى ختام كلامه عن المعركة يقول فيها : « واستشهد جماعة من المسلمين رحمهم الله » وقول ابن القطان : « واستشهد فى هذه الوقيعة الإمام الجزولى وكان رجل صدق ، وجماعة من الأعيان والعربان »[1]. على أننا نستنتج ذلك من إحجام المرابطين ، عن مطاردة فلول الجيش القشتالى مطاردة شاملة والتوغل فى أرض النصارى .

وغادر الأمير تميم فى قواته ميدان المعركة عائداً إلى غرناطة ، مكللا بغار الظفر ، وكتب إلى أخيه أمير المسلمين على بالفتح ، رسالته التى سبق ذكرها . وترك قوات مرسية وبلنسية تحت إمرة قائدها لحصار قلعة أقليش ، فلبثا على حصارها فترة ، ولما رأيا مناعتها تظاهرا بالانسحاب ، وارتدا فى قواتهما قليلا ورتبا الكمائن ، فخرج النصارى من القلعة ، فانقض عليهم المسلمون ، وأمعنوا فيهم قتلا وأسراً ، واحتلوا القصبة ، وبذلك تم استيلاؤهم على أقليش ، وترتب على ظفر المسلمين باحتلال هذه القلعة المنيعة ، أن سقطت فى أيديهم عدة من البلاد والحصون المجاورة ، مثل وبذة وقونقة وأقونية وكونسويجرا ، وغيرها[2].

وتعنى الروايات النصرانية بذكر معركة أقليش عناية خاصة ، وهى لاتخرج فى مجملها عما تقدمه إلينا الروايات الإسلامية من التفاصيل ، ولاسيما ما أورده الأمير تميم فى خطابه الرسمى عن الموقعة . بيد أن الروايات النصرانية تفيض بنوع

---

(١) روض القرطاس ص ١٠٤ . وابن القطان فى المخطوط السالف الذكر (لوحة ٧ ب) .

(٢) راجع فى حوادث موقعة أقليش، روض القرطاس ص١٠٣ و١٠٤ ، وابن عذارى فى البيان المغرب (الأوراق المخطوطة — هسبيرس ص ٦٨) ، وابن القطان فى نظم الجمان (المخطوط المشار إليه ، لوحه ٦ و ٧) ، ورسالة الأمير تميم الرسمية عن المعركة وهى التى أنشأها الكاتب ابن شرف ، وقد نشرناها فى باب الوثائق منقولة عن مخطوط الإسكوريال رقم ٤٨٨ الغزيرى لوحات ٥٤ — ٥٨ ، ونشرها الأستاذ هويثى فى كتابه **Las grandes Batallas de la Reconquista** ص ١٢٠— ١٢٦ . ويشير ابن خلدون إلى المعركة إشارة عابرة (ج ٦ ص ١٨٨) . وأورد عنها ابن الكردبوس خلاصة موجزة (كتاب الإكتفا — مخطوط أكاديمية التاريخ السالف الذكر) ، ولم يذكرها صاحب الحلل الموشية . ومن المراجع القشتالية **F. Codera : Decadencia y Desparición de los Almoravides p. 8—10 ; La Fuente: Hist. General de Espana, Vol. II. p. 201 & 202**

خاص فى تفاصيل مصرع الإنفانت سانشو ، ومصرع مؤدبه غرسية أردونيث ، فتذكر لنا كيف سقط الأمير عن جواده الجريح ، وكيف حجبه الكونت غرسية بدرعه وجسمه ، وأخذ يدافع عنه وهو مسجى ، حتى قتل بدوره ، وتشيد بفروسية الكونت ، وروائع صفاته . ثم تصف لنا كيف وقع النبأ المحزن على الملك الشيخ ألفونسو السادس وقع الصاعقة ، وكيف استسلم إلى التأوه والنواح بمحضر من سادته . والواقع أن الملك الشيخ لم يستطع احتمال تلك الصدمة الأليمة طويلا ، إذ توفى بعد ذلك بنحو عام فى ٣٠ يونيه سنة ١١٠٩ م .

ثم تنحرف الرواية النصرانية بعد ذلك إلى منحدر الأسطورة ، فتزعم أن الملك ألفونسو أراد أن ينتقم لمصرع ولده ، فسار إلى قرطبة وحاصرها ، وفيها على بن يوسف « أمير المؤمنين » ، وأن النصارى أسروا ذات ليلة جماعة من المسلمين حاولوا مهاجمتهم ، وتبين أن رئيسهم عبد الله ، وهو من أشراف قرطبة ، هو الذى قتل ابن عبّاد حمو الملك ألفونسو ، ووالد زوجته ماريا ، التى كانت تسمى زائدة ، وأنه أمر بتقطيع أشلاء عبد الله هذا وحرقها ، وأحرق معه عدداً من الأشراف المسلمين ، وأنه أخيراً استطاع أن يرغم عليا أمير المؤمنين على طلب الصلح ، وأداء ضريبة فادحة لقشتالة[1] .

وكانت موقعة أقليش ، بعد الزلاّقة (٤٧٩ هـ) ، واستيلاء المرابطين على بلنسية ، (٤٩٥ هـ) ، أعظم نصر أحرزه المرابطون على قوات قشتالة ، وهو نصر كان من أثره توطيد سلطان المرابطين فى المناطق الوسطى والشرقية فى شبه الجزيرة ، وفى إعلاء سمعتهم العسكرية والدفاعية .

— ٢ —

ونستطيع أن نقول أيضاً إن حملة أقليش كانت فاتحة لبرنامج منظم من الغزوات المرابطية لأراضى النصارى . ذلك أنه لم يمض سوى عام وشهرين على موقعة أقليش ، حتى عبر أمير المسلمين على بن يوسف البحر إلى الأندلس للمرة الثانية فى جيوشه الجرارة . وكان عبوره من سبتة ، فى الخامس عشر من محرم سنة ٥٠٣ هـ (أغسطس ١١٠٩ م) . وكان عبوره فى تلك المرة بقصد الجهاد خاصة ، أو حسبما يقول لنا صاحب الحلل الموشية « برسم الجهاد ، ونصر الملة ، وإعزاز الكلمة » .

---

(١) يراجع فى ذلك بالأخص : Primera Crónica General de Espana (Ed. M. Pidal), Parte II. p. 554 - 556

وسار إلى غرناطة ، وأقام بها مدى حين « ريثما تلاحقت حشوده وتأهبت متطوعته وجنوده » . وتقدر الرواية الجيوش المرابطية الغازية هذه المرة ، بنيف ومائة ألف فارس وثلاثمائة ألف راجل . وهو تقدير يحمل طابع المبالغة . ولما تكاملت الحشود ، سار على فى قوات ضخمة ، صوب قرطبة ، فأقام بها شهراً يضع خططه ، ويستكمل أهباته . ثم غادر قرطبة على رأس قواته ، وعبر جبال الشارات (سيرا مورينا) ثم جبل طليطلة ، وانقض المرابطون كالسيل على أراضى ولاية طليطلة ، فعاثوا فيها وانتسفوا زروعها ، وخربوا ديارها ، وسبوا كثيراً من السكان ، واستولوا على كثير من القلاع والحصون ، وهبت ريح من الرعب والروع على النصارى فى تلك الأنحاء . وتقول لنا الرواية الإسلامية إن المرابطين ساروا أولا إلى مدينة طلبيرة الواقعة على نهر التاجُه غربى طليطلة ، واقتحموها عنوة ، وقتلوا معظم سكانها النصارى ، واستنقذوا من كان بها من أسرى المسلمين ، ولجأت جماعة من النصارى الذين بها إلى القصبة ، ثم تسربوا منها ليلا إلى النهر ناجين بأنفسهم ، فاستولى المرابطون على القصبة ، وانتهبوا سائر ما فى المدينة من السلاح والمتاع ، وردوا كنيستها كما كانت جامعاً ، وندب لها أمير المسلمين والياً من قبله ، ورتب بها حامية قوية . ويضع ابن القطان تاريخ اقتحام المرابطين لطلبيرة فى منتصف شهر المحرم سنة ٥٠٣ هـ ، ولكن المرجح أنه وقع بعد ذلك بنحو شهر أو شهرين ، إذ كان عبور أمير المسلمين إلى شبه الجزيرة حسبما تقدم فى منتصف المحرم[١] . وافتتح المرابطون من حصون أحواز طليطلة سبعة وعشرين ، ثم استولوا على مجريط ووادى الحجارة ، وقصدوا بعد ذلك إلى طليطلة فضربوا حولها الحصار . ولكن الرواية النصرانية تقدم إلينا تفصيلا آخر للغزوة المرابطية ، فتقول لنا إن المرابطين بعد أن عاثوا فى أراضى قشتالة الجنوبية ، ساروا أولا إلى طليطلة ، واقتحموا منيتها (ضاحيتها) الخضراء الواقعة على نهر التاجُه ، وهى التى كانت من قبل جنة لبنى ذى النون ، ثم ضربوا الحصار حول عاصمة قشتالة ، وكان يدافع عنها قائد قشتالة الأول ألبارهانيس فى حامية قوية ، ولم يلبث المرابطون على حصار طليطلة وفقاً للرواية الإسلامية سوى ثلاثة أيام . ثم غادروها بعد أن

---

(١) ابن عذارى فى البيان المغرب (الأوراق المخطوطة المشار إليها – هسبيرس ص ٧٠) . وابن القطان فى « نظم الجمان » (المخطوط السالف الذكر لوحة ١٣ و ١٥) .

قطعوا ثمارها ، وانتسفوا زروعها[1]. ولكن الرواية القشتالية تقول لنا بالعكس إن الحصار قد دام سبعة أيام . بذل المرابطون فيها جهوداً فادحة ، وضربوا أسوارها بالمجانيق ضربا شديداً . وحاولوا حرق بعض أبراجها ، ولكن جهودهم ذهبت كلها سدى ، واستطاع القشتاليون . اعتماداً على حصانة مدينتهم ، وأسوارها المنيعة العالية ، أن يردوا كل محاولات المرابطين . وفى اليوم السابع ، خرج ألبارهانيس فى قواته ، واشتبك مع المرابطين فى معركة شديدة ، واضطر المرابطون على أثرها إلى رفع الحصار ، ومغادرة المدينة بعد أن أحرقوا آلات الحصار (سنة ١١١٠م) . ثم تقول الرواية القشتالية إن المرابطين ساروا بعد ذلك إلى طلبيرة ، فاقتحموها وقتلوا حاميتها ، ثم ساروا من بعدها شمالا ، واستولوا على مجريط ووادى الحجارة وقناليش وغيرها من قواعد هذه المنطقة . وهنا دب الوباء فى الجيش المرابطى ، فاضطر على بن يوسف أن يغادر أراضى العدو ، وأن يعود أدراجه إلى قرطبة . وعلى أى حال فإن الروايات المختلفة العربية والقشتالية تتفق على أن هذه الغزوة المرابطية لأراضى قشتالة ، كانت من حيث ضخامة حشودها وأهباتها ، واتساع نطاقها ، بالغة الأثر فى ردع القشتاليين ونذيرهم[2] .

وعاد على بن يوسف على أثر ذلك إلى مراكش ، ولكن الغزوات المرابطية استمرت على نشاطها وشدتها ، فى أنحاء شبه الجزيرة . ففى نفس الوقت الذى كانت فيه الجيوش المرابطية تحت أسوار طليطلة ، سار جيش مرابطى زاخر بقيادة الأمير سير بن أبى بكر والى إشبيلية صوب الغرب إلى أراضى البرتغال . وكانت هذه المملكة النصرانية الجديدة الناشئة فى كنف قشتالة ، قد بدأت فى ظل أميرها هنرى البرجونى ، صهر ملك قشتالة ألفونسو السادس وزوج ابنته غير الشرعية ، تريسا ، تنمو ويشتد ساعدها بسرعة ، وكانت قاعدتها يومئذ

---

(١) هذه رواية ابن عذارى فى البيان المغرب ، فى الأوراق المخطوطة السالفة الذكر . ولكن صاحب روض القرطاس يقول لنا إن المرابطين لبثوا على حصار طليطلة مدى شهر (روض القرطاس ص ١٠٥) .

(٢) تراجع تفاصيل هذه الغزوة فى البيان المغرب (الأوراق المخطوطة المشار إليها — هسبيرس ص ٧٠) وروض القرطاس ص ١٠٥ ، والحلل الموشية ص٦٢ ، وابن خلدون ج٦ ص١٨٨ . وكتاب الاكتفاء لابن الكرديوس (مخطوط أكاديمية التاريخ السالف الذكر لوحة ١٦٤) . وراجع أيضاً :
F. Codera : Dec. y Dis. de los Almoravides p 232 & 234 وكذلك **M. Lafuente, Hist. General de Espana Vol. III. p. 229**

قُلُمرية ، ومن ثم فإن الرواية الإسلامية تعرف أميرها « بصاحب قُلُمرية » . وكانت يومئذ تضم عدة من القواعد الإسلامية القديمة من قواعد ولاية الغرب. فسار الأمير سير فى قواته صوب بطليوس ، ثم زحف على يابُرة وافتتحها على الفور ، ثم قصد إلى أشبونة فاستولى عليها هى وضاحيتها شنترة ، وسار بعد ذلك شمالا ، واستولى على مدينة شنترين ، الواقعة على نهر التاجُه ، ويستفاد من الرسالة التى وجهها سير بفتح هذه المدينة إلى أمير المسلمين ، وهو من إنشاء كاتبه الوزير أبى محمد عبد المجيد بن عبدون ، أن المرابطين هاجموها أولا فاستعصت عليهم ، فضربوا حولها الحصار حتى سلمت ، وكان قد قتل من حاميتها عدد كبير ، فسلم الباقون ، وأسروا سائر من بها . وقد كانت شنترين ، حسبما ورد فى هذه الرسالة من أعظم قلاع الغرب وأكثرها موارد لوقوعها فى بسيط وافر الخصب[1] ، ووصل سير فى زحفه نحو الشمال إلى مقربة من مدينة قلمرية عاصمة الإمارة . ولم تستطع القوات البرتغالية بقيادة الكونت هنرى ، دفعاً للقوات المرابطية الغازية . وكان افتتاح المرابطين لهذه القواعد الغربية فى سنة ٥٠٤ هـ (١١١١م) وتقول الرواية الإسلامية إن الأمير سير ، افتتح فى هذه الغزوة أيضاً مدينة بطليوس وبرتقال[2] . ولكن بطليوس كانت فى أيدى المرابطين منذ انتزعوها من بنى الأفطس فى سنة ٤٨٨ هـ (١٠٩٤ م) . وأما برتقال ، وهى تعنى فى الجغرافية الأندلسية ثغر بورتو ، فهى تقع فى أقصى شمالى البرتغال ، وفى شمال قُلُمرية ، ومن ثم فإن المرابطين لم يصلوا فى زحفهم إليها ولم يفتتحوها .

ومما هو جدير بالذكر أنه على أثر هذه الغزوة ، وفد على مدينة إشبيلية المنصور بن عمر المتوكل بن الأفطس قادماً من أراضى قشتالة ، وكان قد سار إليها فى أمواله وذخائره ، والتجأ إلى ملك قشتالة ألفونسو السادس ، حينما غزا المرابطون مملكة بطليوس سنة ٤٨٨ هـ ، وقتلوا أباه عمر المتوكل وأخويه . وقيل إنه اعتنق النصرانية يومئذ . ولما وصل إلى إشبيلية ، أخذ إلى حضرة أمير المسلمين بمراكش فكانت له لديه منزلة ملحوظة .

ولم يمض قليل على ذلك حتى سارت حملة مرابطية جديدة صوب قشتالة ،

---

(١) راجع الرسالة المذكورة فى المعجب للمراكشى ص ٩٠ — ٩٣ .

(٢) روض القرطاس ص ١٠٥ .

بقيادة الأمير أبي محمد مزدلى والى قرطبة[١]، وكان أمير المسلمين على بن يوسف قد أسند إليه ولاية قرطبة وغرناطة منذ سنة ٥٠٥ هـ . وولى أخاه أبا الطاهر تميما والى غرناطة ولاية تلمسان بالمغرب . وعاث المرابطون فى أراضى قشتالة ، وخربوا ربوعها بالنار والسيف ، واستولوا على حصن أرجنة أو أرلية Oreja وقتلوا حاميته ، وسبوا كثيراً من النساء والأطفال ، ثم قصدوا إلى مدينة طليطلة عاصمة قشتالة ، وضربوا حولها الحصار مرة أخرى (٥٠٧ هـ — ١١١٤ م) . وكان ألبارهانيس قائد قشتالة الأكبر ، عندئذ فى منطقة قونقة ، وكان قد استطاع انتزاع قونقة ، من المرابطين (١١١١م) ، ولكنها لم تلبث فى يد القشتاليين سوى فترة يسيرة . فلما ترامت إليه أنباء الغزوة المرابطية ، وحصار المرابطين لطليطلة ، هرع لمدافعتهم فى جيش قوامه عشرة آلاف فارس . ونشبت بين القشتاليين والمرابطين تحت أسوار المدينة المحصورة ، معارك عديدة ، منى فيها كل من الفريقين بخسائر ، وفقد القشتاليون وفقاً لأقوال الروايتين العربية والنصرانية سبعمائة قتيل ، ولكنهم استطاعوا أن يحملوا المرابطين على رفع الحصار ، بعد أن نجحوا فى إحراق آلاتهم الثقيلة[٢] . وتقول الرواية العربية إن ألبارهانيس حينما أقبل لنصرة مواطنيه ، وسار مزدلى للقائه ، فر أمامه ليلا ولم يجرأ على مقاتلته ، وعاد مزدلى على أثر ذلك إلى قرطبة ظافراً ، ثم تقص علينا خبر غزوة أخرى قام بها مزدلى فى منطقة وادى الحجارة ، وأن صاحبها « الزند غرسيس » حينما سار مزدلى لقتاله ، لجأ إلى الفرار واحتوى مزدلى على محلته وسائر أثقاله وأمتعته[٣] وهى غزوة لم تشر إليها الرواية النصرانية . وتزيد الرواية العربية على ذلك أن الأمير مزدلى توفى فى شوال سنة ٥٠٨ هـ (١١١٥م) أعنى فى العام التالى لحصار طليطلة ، وذلك أثناء غزوة قام ضد القشتاليين على مقربة من حصن مسطانية[٤] الواقع فى طريق قرطبة . وكتب بنبأ وفاته إلى أمير المسلمين على بن تاشفين ، فأمر بتولية ولده محمد بن مزدلى مكانه على قرطبة ، وبتولية ولده عبد الله على غرناطة . ولم يمكث محمد فى ولاية

---

(١) ويقول ابن الكرديوس فى كتاب « الاكتفاء » إن الحملة كانت بقيادة الأميرين مزدلى ، وسير ابن أبى بكر (مخطوط أكاديمية التاريخ السالف الذكر لوحة ١٦٥ ا) .

(٢) M. Lafuente: ibid; Vol. III. p. 230.

(٣) روض القرطاس ص ١٠٥ .

(٤) ابن الخطيب عن ابن الصيرفى فى الإحاطة (مخطوط الإسكوريال السالف الذكر لوحة ١٨٠) ؛ والبيان المغرب (الأوراق المخطوطة هسبيرس ص ٧٧) .

قرطبة سوى أشهر قلائل ، ثم خرج فى عسكره ليرد القوات القشتالية التى اقتربت من أراضى ولاية قرطبة ، ونشب بين الفريقين قتال عنيف سقط فيه محمد بن مزدلى وعدد كبير من زعماء لمتونة منهم الأمير محمد بن الحاج ، والأمير أبو إسحق ابن دانية ، والأمير أبو بكر بن واسينو ، وجملة وافرة من الحشم وأهل الأندلس ، وذلك فى مستهل صفر سنة ٥٠٩ هـ (٢٧ يونيه ١١١٥ م) . ولما وصل خبر هذه النكبة إلى أمير المسلمين على بن يوسف ، بادر فندب لولاية قرطبة ابن عمه الأمير أبا بكر يحيى بن تاشفين ، فقدم إليها على عجل ، وما كاد يستقر بها حتى حشد قواته ، وسار فى أثر القشتاليين صوب بياسة ، ولحق به عبد الله بن مزدلى صاحب غرناطة فى قواته ونشبت بين المرابطين والنصارى معركة جديدة ، هزم فيها المرابطون مرة أخرى ، وقتل منهم عدد جم ، وذلك فى اليوم الثامن والعشرين من جمادى الثانية سنة ٥٠٩ هـ (أواخر أكتوبر ١١١٥ م)[١] .

وكان الأمير سير بن أبى بكر اللمتونى والى إشبيلية ، والقائد العام للجيوش المرابطية فى اسبانيا قد توفى قبيل وفاة الأمير مزدلى بقليل فى جمادى الأول فى سنة ٥٠٧ هـ (١١١٤ م) ، فعين مكانه لولاية إشبيلية محمد بن فاطمة فلبث على ولايتها حتى توفى سنة ٥١٥ هـ (١١٢١ م) . وهكذا فقد المرابطون فى شبه الجزيرة بوفاة مزدلى ، وسير بن أبى بكر ، قائدين من أعظم قواد لمتونة وألمعهم .

وقد كان مزدلى ، وهو مزدلى بن تيولتكان بن الحسن بن محمد بن ترقوت (تُرجوت) ، من أركان الدولة اللمتونية والعصبة الصنهاجية ، وكان من أقارب يوسف بن تاشفين لالتقائهما فى ترقوت. ويصفه ابن الخطيب بأنه كان «بطلا ثبتا ، بهمة من البهم ، بعيد الصيت ، عظيم الجلد ، أصيل الرأى ، مستحكم الحنكة ، طال عمره ، وحمدت مواقفه ، وبعدت غاراته ، وعظمت فى العدو وقائعه »[٢] وقد كان من أعظم أعمال مزدلى استرجاعه لمدينة بلنسية من أيدى جنود السيّد الكمبيادور بعد وفاته وجنود قشتالة ، وذلك فى سنة ٤٩٥ هـ (١١٠٢ م) . وكان

---

(١) البيان المغرب (الأوراق المخطوطة السالفة الذكر — هسبيرس ص ٧٧) . وروض مقرطاس ص ١٠٥ . ومما يلفت النظر أن صاحب البيان يذكر هنا الأمير محمد بن الحاج ، وهو والى سرقسطة بين قتلى موقعة قرطبة . بيد أننا سنرى ، فيما بعد أن هناك رواية أخرى تضع مقتله فى العام السابق وفى غزوة أخرى بالثغر الأعلى .

(٢) ابن الخطيب فى الإحاطة (مخطوط الإسكوريال السالف الذكر لوحة ١٨٠) .

قد وُلّى بلنسية ثم قرطبة ، وغرناطة أيام يوسف ، ثم وُلّى قرطبة قبيل وفاته ببضعة أعوام من قبل على بن يوسف .

وأما سير بن أبى بكر ، فقد كان أيضاً من أعظم زعماء لمتونة وقادتها ، وقد ظهر بنوع خاص بشجاعته وبراعته العسكرية الفائقة فى موقعة الزلاّقة(٤٧٩هـ) . ولما جاز أمير المسلمين يوسف بن تاشفين جوازه الثالث إلى شبه الجزيرة فى سنة ٤٨٣ هـ ، وبدأ افتتاح دول الطوائف بالاستيلاء على غرناطة ، فوض عند عودته إلى المغرب شئون الأندلس إلى الأمير سير ، وعهد إليه بافتتاح ممالك الغرب الأندلسية ، فافتتح سير مملكة إشبيلية من أيدى بنى عباد (٤٨٤ هـ)، ثم افتتح مملكة بطليوس من أيدى بنى الأفطس (٤٨٨ هـ) ، فى الظروف والمناظر العنيفة المروعة ، التى فصلناها فى كتابنا « دول الطوائف» . وكانت آخر الغزوات العظيمة التى قام بها سير ، هى افتتاحه لقواعد الغرب من يابرة حتى أشبونة سنة ٥٠٤ هـ (١١١١ م) حسبما تقدم من قبل .

ويجب أن نلاحظ أنه كان من أسباب نشاط الغزوات المرابطية فى تلك الفترة ، وإقدامها على مهاجمة طليطلة عاصمة قشتالة ومحاصرتها غير مرة ، ما وقع فى اسبانيا النصرانية عقب وفاة ألفونسو السادس دون وارث (١١٠٩ م) ، وقيام ابنته أورّاكا فى العرش ، من حروب أهلية حول السلطان بين أوراكا وزوجها ألفونسو الأول ملك أراجون من جهة ، وبينها وبين أشراف جلّيقية أنصار ولدها ألفونسو ريمونديس من جهة أخرى ، وضعف الجبهة الدفاعية النصرانية بذلك ، وعجزها عن القيام بغزوات كبيرة فى أراضى المسلمين ، وخصوصاً بعد مصرع ألبارهانيس قائد قشتالة الكبير فى إحدى هذه المعارك الأهلية ، وقد كان هذا القائدالشهير زميل السيد الكمبيادور ومعاونه ، من أعظم قادة اسبانيا النصرانية فى هذا العصر .

— ٣ —

وشملت موجة الغزو المرابطى شرقى الأندلس كذلك . ونحن نعرف أن المرابطين بقيادة أبىعبدالله محمد بن الحاج والى بلنسية ، قد استولوا علىسرقسطة من أيدى بنى هود فى أواخر سنة ٥٠٣ هـ (١١١٠ م) حسبما سبق أن فصلناه من قبل فى تاريخ مملكة سرقسطة . وكان يوسف بن تاشفين قد أوصى ولده علياً

فيما أوصاه ، بأن يهادن بنى هود ملوك سرقسطة ، وأن يتركهم فى ملكهم حائلا بينه وبين النصارى . وكانت هذه سياسة فطنة ، تتفق مع ظروف سرقسطة وموقعها فى الثغر الأعلى بين الممالك النصرانية . ولكن الحوادث سارت فى طريق آخر ، واختلف أهل سرقسطة مع ملكهم عبد الملك بن المستعين بن هود الملقب بعماد الدولة ، لارتمائه فى أحضان النصارى ، وتغليبهم فى مصالح الدولة . وكتبوا إلى أمير المسلمين على بن يوسف يدعونه لامتلاك بلادهم . وكان على بعد أن تلقى فتوى الفقهاء بوجوب خلع عماد الدولة ، وفقاً لرغبات أهل سرقسطة ، وبعد أن زحفت الجنود المرابطية بالفعل من بلنسية نحو الشمال — قد أراد أن يبقى على رياسة بنى هود استجابة لضراعة عماد الدولة ، ولكن الحوادث سبقته ، وانتهى المرابطون بالاستيلاء على سرقسطة ، وذلك فى اليوم العاشر من ذى القعدة سنة ٥٠٣ هـ (يونيه ١١١٠ م) ودخل ابن الحاج قصر « الجعفرية » الشهير واستقر فيه . وكان عماد الدولة حينما شعر بمقدم المرابطين ، قد غادر سرقسطة فى أهله وأمواله إلى حصن روطة المنيع ، الواقع على نهر خالون (شلون) . وهكذا انتهت مملكة سرقسطة ، وانتهى ملك بنى هود ، وامتد سلطان المرابطين بذلك ، إلى قلب الثغر الأعلى .

ولبث ابن الحاج واليا على سرقسطة بضعة أعوام ، وهو يحوطها بحمايته ويرد عنها أطماع النصارى ، المحيطين بها من الشرق والغرب والشمال ، ويقوم بغزو أراضيهم والعيث فيها من آن لآخر . وفى سنة ٥٠٤ هـ (١١١١ م) زحف ألفونسو الأول ملك أراجون (المحارب)[1] ، نحو سرقسطة ومعه عماد الدولة عبد الملك ابن المستعين حتى أصبح قريباً منها ، وخرج محمد بن الحاج فى قواته لمدافعته ، وقدمت الجند المرابطية من مرسية على عجل يقودها واليها محمد بن عائشة ، فلما رأى ألفونسو تفوق المرابطين ، ارتد أدراجه ، وطاردته العساكر المرابطية حيناً ، واستمر المرابطون على غزواتهم المخربة فى أراضيه . وسارت قوة منهم بقيادة على ابن كنفاط اللمتونى صوب قلعة أيوب ، وحاصرت بعض حصون عبد الملك بن هود ، فاستغاث عبد الملك بحليفه وحاميه ألفونسو ، وقدمت لمعاونته نجدة من النصارى ، فانهزم المرابطون وأسر قائدهم ابن كنفاط ، وبقى فى أسر عبد الملك مدة ثم أخلى سبيله[2] .

---

(١) تسمى الرواية الإسلامية ألفونسو المحارب « ابن ردمير » نسبة إلى اسم ابيه «سانشو راميرز »

(٢) البيان المغرب (الأوراق المخطوطة السالفة الذكر — هسبيرس ص ٧٣) .

ولما اشتدت موجة الغزو المرابطى لأراضى قشتالة ، خرج ابن الحاج فى قواته من سرقسطة فى شهر صفر سنة ٥٠٨ هـ (يوليه ١١١٤ م) ، وانضم إليه فى لاردة محمد بن عائشة فى قواته . وسارت القوات المرابطية المتحدة شرقا ، واخترقت أراضى إمارة برشلونة ، وهى تثخن فيها ، وتستولى على مقادير عظيمة من السبى والغنائم ، واستمرت كذلك حتى وصلت إلى ظاهر مدينة برشلونة العظيمة . وعندئذ بعث ابن الحاج الغنائم والسبى مع بعض قواته لتعود من الطريق الكبير ، واتجه هو بباقى قواته غرباً ليسير من طريق البرية ، وهو أقصر وأقرب إلى سرقسطة ، ولكنه فوجئ خلال الطريق بقوات كثيفة من النصارى متأهبة فى فى كمائنها ، فنشب القتال بين الفريقين ، وقاتل ابن الحاج وقواته قتالا عنيفاً ، حتى سقط معظمهم ، وفى مقدمتهم — وفقاً لهذه الرواية — قائدهم الباسل ، ونجا ابن عائشة وقليل من صحبه . بيد أن ابن الحاج ، وفقاً لرواية ابن عذارى المتقدمة لم يقتل فى هذه الموقعة ، وإنما قتل فى العام التالى فى موقعة قرطبة التى سبق ذكرها . ولما علم أمير المسلمين على بهذه النكبة ، وما أصاب محمداً بن عائشة على أثرها من الذهول ، عين صهره زوج أخته الأمير أبا بكر بن ابراهيم بن تافلوت والى مرسية ، أيضاً والياً على بلنسية وطرطوشة وسرقسطة ، وأمره بالسير لغزو النصارى . فجمع ابن تافلوت سائر قواته ، وسار شمالا إلى برشلونة ، وهو يثخن فى أراضيها بالنار والسيف ثم حاصرها . وأقام على حصارها عشرين يوما ، حتى خرج إلى لقائه أميرها رامون برنجير فى قوات برشلونة وأربونة ، ونشبت بين الفريقين معارك عنيفة قتل فيها كثير من النصارى ، وخسر المسلمون نحو سبعمائة قتيل ، وارتد المرابطون بعد ذلك صوب أراضيهم[1] .

وكان أبو عبد الله محمد بن الحاج من أكابر زعماء لمتونة وقوادها ، وكان يتصل بصلة القرابة المتينة ليوسف بن تاشفين ، إذ يرجع نسبه إلى ترقوت أو ترجوت جد العاهل المرابطى ، وعرف بابن الحاج ، إذ قام أبوه بأداء الفريضة وقد ظهر منذ البداية ، مذ عبر إلى شبه الجزيرة مع يوسف بن تاشفين فى سنة ٤٨٤ هـ ، بمقدرته وأعماله العسكرية البارزة ، أولا حين افتتاحه لقرطبة من يد

---

(١) روض القرطاس ص١٠٤ و١٠٥ ، وراجع أيضاً : F. Codera: ibid; p. 20 - 22. هذا وقد سبق أن أتينا على رواية ابن عذارى التى تقول بمقتل ابن الحاج ضمن من قتلوا من أمراء لمتونة فى موقعة قرطبة فى سنة ٥٠٩ هـ .

ابن عباد، ثم فى محاربته للقشتاليين ، فى غير موقعة . ولما تولى على بن يوسف ، عينه أولا والياً للمغرب ، ولكنه لم يمكث فى هذا المنصب سوى أشهر قلائل ، ثم ندبه لولاية بلنسية وشرقى الأندلس ، فى سنة ٥٠١ هـ . ومن بلنسية سار ابن الحاج إلى سرقسطة ، استجابة لدعوة أهلها ، وانتزعها من يد بنى هود ، واستقر والياً لها حسبما نقدم ..

وكان من أعظم الأعمال التى حققها أمير المسلمين على بن يوسف يومئذ ، استرداده للجزائر الشرقية واستنقاذها من أيدى الغزاة النصارى . وقد سبق أن تحدثنا ، عند كلامنا عن مملكة دانية ، عن أخبار الجزائر الشرقية وأحوالها ، وكيف أنه حينما سقطت مملكة دانية فى يد المقتدر بن هود فى سنة ٤٦٨ هـ ، (١٠٧٦م) ، وانتهت بذلك رياسة على بن مجاهد موفق الدولة ، كان على حكمها ، (أى الجزائر) ، عبد الله المرتضى ، وكيف أن المرتضى أعلن استقلاله عندئذ ، واستبد بحكمها . ولما توفى المرتضى فى سنة ٤٨٦ هـ ، خلفه فى حكم الجزائر فتى من أخص فتيانه هو مبشر بن سليمان ، فضبط شئونها بحزم وكفاية ، وتلقب بناصر الدولة ، واستمر على حكمها فترة طويلة ، وهو بمعزل عن حوادث شبه الجزيرة . وكانت الجيوش المرابطية خلال ذلك ، تستولى تباعا على قواعد الأندلس الشرقية ، فاستولت على بلنسية فى سنة ٤٩٥ هـ ، ثم استولت بعد ذلك على سرقسطة وقواعد الثغر الأعلى (٥٠٢ هـ) . بيد أن مبشراً لم يفكر بالرغم من وجود الجيوش المرابطية على مقربة منه فى ثغور اسبانيا الشرقية ، أن ينضوى تحت لواء المرابطين ، أو يعقد الحلف معهم ، واستمر على استقلاله بحكم الجزائر ، حتى دهمتها الغزوة النصرانية الكبرى .

وقد سبق أن فصلنا فى أخبار مملكة دانية ، من كتابنا « دول الطوائف » قصة الغزو النصرانى للجزائر الشرقية ، وكيف أنه لما كثرت غارات البحارة المسلمين على الشواطئ الإيطالية الشمالية والشرقية ، وشواطئ قطلونية الإسبانية ، عقدت جمهوريتا بيزة (بيشه) وچنوة ، وإمارة برشلونة حلفا لافتتاح الجزائر ، وفى أوائل سنة ٥٠٨ هـ (١١١٤م) خرج من مياه چنوة أسطول الغزو ، وقوامه نحو ثلاثمائة سفينة ، ومعه وحدات بحرية أخرى من برشلونة وفرنسا ، وفرض الغزاة على مدينة ميورقة عاصمة الجزائر حصاراً محكماً صارماً ، وقاسى المسلمون أهوالا من الحصار الذى استمر زهاء عام ، وفى أواخر سنة ٥٠٨ (أوائل

سنة ١١١٥م) اقتحم الغزاة أسوار ميورقة ودخلوها ، واحتلوا قصر المُدَينة ، وعاثوا فى أنحائها ، قتلا ونهباً وسبياً ، وقتلوا من سكانها جملة عظيمة ، وكانت محنة مروعة .

وفى خلال ذلك ، كان المرابطون يرقبون تطور الحوادث فى الجزائر . ولم يكن أمير المسلمين بغافل عن أهمية الجزائر ، وأهمية موقعها بالنسبة لحماية شواطئ الأندلس الشرقية . ولما حاصر النصارى ميورقة ، بعث مبشرٌ بصريخه إلى أمير المسلمين ، ولكنه توفى خلال الحصار ، وحاول خلفه القائد أبو الربيع سليمان ، أن يغادر الجزيرة ليسعى فى طلب النجدة ، فأسره النصارى . ولكن صريخ مبشر وصل إلى أمير المسلمين على يد بحار جرىء هو القائد أبو عبد الله بن ميمون ، استطاع أن يخترق الحصار بسفينته تحت جنح الظلام ، ولم يستطع النصارى لحاقا به .

وكان أمير المسلمين ، قد أتم عندئذ أهباته البحرية الضخمة ، فبعث لإنجاد الجزائر واستنقاذها أسطولا ضخماً قوامه نحو ثلاثمائة سفينة . وأقلعت السفن المرابطية بسرعة صوب الجزائر ، بقيادة أمير البحر المرابطى ابن تفرتاش أو (تافرطاش) . ولما علم البيزيون وحلفاؤهم بمقدم هذا الأسطول الإسلامى الضخم ، وأدركوا أن لا أمل لهم فى مدافعته ، غادروا ميورقة مثقلين بالغنائم والسبى ، بعد أن استصفوا ثرواتها وخربوا ربوعها ، وأحرقوها وقتلوا معظم أهلها ، ووصلت السفن المرابطية فى أثرهم إلى الجزيرة فى أواخر سنة ٥٠٩ هـ (١١١٦م) واحتلها المرابطون وشرعوا فى تعميرها ، وعاد إليها الفاورن من سكانها . وتزيد الرواية الإسلامية على ذلك أنه لما انصرفت السفن النصرانية ناجية إلى أوطانها ، دهمتها العواصف والأمواج العالية ، فحملت منها أربع سفن صوب ثغر دانية ، فطاردها القائد أبو السداد ، حتى غرقت منها واحدة ، وتمكن من أسر الثلاث الأخرى[١] .

وعين أمير المسلمين والياً للجزائر هو وانور بن أبى بكر اللمتونى ، وبذلك أضحت الجزائر الشرقية جزءاً من الإمبراطورية المرابطية الكبرى . ودخلت فى عهد جديد من تاريخها . وسنرى فيما بعد ، أى دور خطير تلعبه الجزائر الشرقية ، كمركز للثورة « المرابطية » المريرة ، التى حمل لواءها بنوغانية حكام

---

(١) ابن الكردبوس فى كتاب الاكتفاء (مخطوط أكاديمية التاريخ السالف الذكر لوحة ١٦٥ ب).

الجزائر ، ضد الدولة الموحدية قاهرة الدولة المرابطية ، ووريثة ملكها فى المغرب والأندلس[١] .

— ٤ —

فى بداية سنة ٥٠٣ هـ (١١٠٩ م) وقع فى قرطبة حادث كبير الدلالة ، عميق الأثر ، بالرغم من عدم أهميته الظاهرة ، هو إحراق كتاب « إحياء علوم الدين » للإمام أبى حامد الغزالى ، ويقول ابن القطان إن هذا الحادث وقع « فى أول عام ثلاثة وخمسمائة » ، ومعنى ذلك أنه وقع قبيل عبور على بن يوسف إلى شبه الجزيرة بأسابيع قلائل . وكان أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ، فى أواخر عهده على صلة طيبة بالإمام الغزالى ، وكان يستفتيه باعتباره عميد فقهاء المشرق ، فى عظائم الأمور ، ومن ذلك أنه استفتاه فى مسألة خلع ملوك الطوائف[٢] ، وكان الغزالى من جانبه يقدر يوسف ونصرته للإسلام ، حتى قيل إنه اعتزم أن يسير إلى المغرب لرؤياه ، ولكنه حينما وصل إلى الإسكندرية ، علم بوفاة يوسف (سنة ٥٠٠ هـ) ، فعدل عن رحلته[٣] . ولكن الأمور تغيرت فى عهد ولده على . وكان علىّ يتسم بنوع من الورع والزهد ، ويميل إلى إيثار الفقهاء ومشاورتهم ، فاشتد نفوذ الفقهاء بالمغرب والأندلس فى عهده ، حتى أصبح لا يقطع فى أمر من الأمور ، صغيراً كان أو كبيراً إلا برأيهم ، وهكذا علت مكانتهم ، واشتد نفوذهم ، حتى سيطروا فيما بعد على الدولة . وكان من أشدهم نفوذاً لدى أمير المسلمين ، قاضى قرطبة أبو عبد الله محمد بن حَمْدين . وكان الفقهاء عندئذ يؤثرن علم الفروع بعنايتهم ، وهو علم العبادات ، والمعاملات ، ويهملون علم الأصول ، أو أصول الدين . وكان لا يحظى لدى أمير المسلمين إلا من برع فى علم الفروع[٤] . فلما وصلت كتب

(١) يراجع فى أخبار غزو النصارى للجزائر الشرقية واستنقاذها على يد المرابطين ، ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٥ ، وروض القرطاس ص ١٠٥ ، والروض المعطار (صفة جزيرة الأندلس) ص ١٨٨ ، وراجع كتابى « دول الطوائف » ص ٢٠١ – ٢٠٤ ومن المراجع القشتالية :
A. Campaner y Fuertes : Bosquejo Historico de la Dominación Islamita en las Islas Baleares (Palma 1888) p 105 - 135
وكذلك : P. y Vives : Los Reyes Taifas, p. 41

(٢) ابن خلدون فى العبر ج ٦ ص ١٨٧ و ١٨٨ ، وأعمال الأعلام لابن الخطيب ص ٢٤٧ . وراجع كتابى دول الطوائف ص ٣٢٧ .

(٣) ابن خلكان ج ٢ ص ٤٨٨ ، والمؤنس فى أخبار إفريقية وتونس لابن دينار ص ١٠٦ .

(٤) المراكشى فى المعجب ص ٩٥ و ٩٦ .

الإمام الغزالى إلى المغرب والأندلس ، وفى مقدمتها كتاب « الإحياء » ، وقرئت وذاع ما فيها ، سخط الفقهاء المرابطون ، وأنكروا كثيراً من المسائل التى وردت فى كتاب « الإحياء » ، وزعموا أنها مخالفة للدين ؛ وكان أبو القاسم ابن حَمْدين[1] من أشد الفقهاء مبالغة فى ذلك حتى أنه قال « بتكفير » من قرأ كتاب « الإحياء » . ورفع ابن حمدين ومعه فقهاء قرطبة ، الأمر إلى على بن يوسف ، وأجمعوا على وجوب مطاردة كتاب « الإحياء » وإحراقه ؛ فأخذ على برأيهم ، وجمعت نسخ الكتاب واحتفل بإحراقها فى رحبة المسجد الجامع بقرطبة أمام الباب الغربى بعد أن أشبعت جلودها بالزيت ، ونفذت كتب أمير المسلمين ، إلى سائر أنحاء الأندلس والمغرب بإحراقه حيثما وجد ، وانتزعت نسخه من أصحابها ، وتوالى إحراق الكتاب فى سائر أنحاء المغرب ، وشدد أمير المسلمين فى ذلك حتى إنه أنذر بعقوبة الإعدام ومصادرة المال لكل من وجد عنده[2] ، واستمرت هذه المطاردة لكتاب الإحياء وباقى كتب الغزالى طوال أيام المرابطين ، وجدد المرسوم بذلك فى أواخر عهد تاشفين بن على بن يوسف (سنة ٥٣٨ هـ) حسبما نذكر بعد .

والحقيقة أن حملة الفقهاء المرابطين على كتاب الإحياء ، لم تكن راجعة لأمور تتعلق بالعقيدة أو لأنه يخالف الدين فى شىء ، بل كانت ترجع قبل كل شىء إلى ما ورد فيه من حملة لاذعة على علماء الفروع ، والتنويه بجهلهم ، وسخف مجادلاتهم السطحية ، ووصف الغزالى لهم بأنهم « مجانين » ، وكونهم يجهلون علم الأصول ، الذى ينوه الغزالى بأهميته وعظيم قدره[3] .

ويحمل ابن القطان على هؤلاء الجهلة الذين قاموا بإحراق هذا « الكتاب العظيم » ، ويقول لنا إن إحراقه كان سبباً لزوال ملكهم ، واستئصال شأفتهم ، ثم ينقل إلينا قصة وجود المهدى ابن تومرت فى حلقة الإمام الغزالى بالمشرق ، ووقوف الغزالى

---

(١) هو أخو القاضى أبو جعفر أحمد بن حمدين الثائر فيما بعد بمدينة قرطبة .

(٢) ابن القطان فى « نظم الجمان » (المخطوط السالف الذكر لوحة ١٦ ا) ، ونقله ابن عذارى فى البيان المغرب (الأوراق المخطوطة — هسبيرس ص ٧٦) ، والحلل الموشية ص ٧٦ ، والمعجب ص ٩٦ .

(٣) المؤنس فى أخبار إفريقية وتونس ص ١٠٦ و ١٠٧ ، وراجع مقدمة العلامة جولدسيهر الفرنسية لكتاب « محمد بن تومرت » : Mohamed ibn Toumert et la Théologie de l'Islam dans le Maghreb au XI eme Siècle p. 35 & 36

منه على ما تم من إحراق كتابه بقرطبة ، ودعائه « أن يمزق الله ملكهم كما مزقوه ، وأن يذهب دعوتهم كما أحرقوه » . بيد أننا سوف نرى فيما بعد ، عند الكلام على نشأة ابن تومرت وظهوره ، بطلان هذه القصة ، وما يحيط بها من المتناقضات المنطقية والزمنية .

— ٥ —

ولم يمض قليل على استرداد المرابطين للجزائر الشرقية حتى عبر أمير المسلمين على بن يوسف البحر إلى الأندلس للمرة الثالثة منذ جلوسه ، وذلك فى أواخر المحرم سنة ٥١١ هـ الموافق لشهر مايو سنة ١١١٧ م[١] ، أعنى فى بداية الصيف ، وهو الفصل المفضل للعبور والجهاد ، على نحو ما وقع فى الجواز الثانى . وفى روض القرطاس أن هذا العبور قد وقع سنة ٥١٣ هـ ، بعد سقوط سرقسطة وقواعد الثغر الأعلى ، وأنه هو الجواز الثانى لأمير المسلمين ، وهو تحريف واضح فى التاريخ والوصف . ولاتقدم إلينا الرواية الإسلامية عن هذا الجواز ، وما اقترن به من الحوادث تفاصيل شافية ، ويكتفى صاحب الحلل الموشية وابن الخطيب كلاهما ، بالإشارة إليه فى كلمات عابرة . ولكن صاحب روض القرطاس وابن عذارى يقدمان لنا عنه بعض التفاصل . وفى الرواية الأولى ، أن عليا جاز إلى الأندلس برسم الجهاد وإصلاح شئونها ، وجازت معه جموع غفيرة من المرابطين والمتطوعة من العرب وزناتة والمصامدة وسائر قبائل البربر ، وأنه سار فى قواته صوب قرطبة وعسكر فى خارجها ، فأتته الوفود للسلام عليه ، ووقف منها على أحوال البلاد ، وكان من تصرفاته عندئذ ، أن عزل القاضى أبا الوليد بن رشد (الجد) عن قضاء قرطبة ، وولى مكانه أبا القاسم ابن حمدين[٢] . ولكن سوف نرى أن هذا التصرف قد وقع فى مناسبة لاحقة . أما ابن عذارى فإنه يقول لنا ، إن علياً قصد عند عبوره إلى مدينة إشبيلية ، وهناك لحقت به العساكر العدوية والأندلسية ، وقصدت إليه وفود العلماء والفقهاء والمجاهدين من قرطبة ، وكذلك جموع المتطوعة من غرناطة . وأما ما يتعلق بغزوات على فى هذا الجواز فيتخلص فى أنه سار فى قواته نحو أراضى البرتغال ، وغزا قُلُمرية (ويسمهما روض القرطاس سنبرية ،

(١) الحلل الموشية ص ٦٢ ، وابن الخطيب فى أعمال الأعلام ص ١٤٧ ، والبيان المغرب (الأوراق المخطوطة السالفة الذكر – هسبيرس ص ٧٩) .

(٢) روض القرطاس ص ١٠٦ .

وابن عذارى قلمورية) ، وأثخن فى تلك الأنحاء تخريباً وقتلا وسبياً ، ولم تستطع قوات الملكة تيريسا ملكة البرتغال يومئذ ، أن تقوم بأية أعمال دفاعية ذات شأن ، وفر أمامه النصارى فى كل مكان ، واعتصموا بالمعاقل المنيعة ، وأنه على العموم « دوخ بلاد الشرك بجيوش لا تحصى »[١] . ويستفاد من أقوال الرواية النصرانية أن علياً وصل بقواته إلى أحواز قلمرية ، وبعد أن حاصرها ، دخلها عنوة ، وذلك فى يوم ٢٢ يونيه سنة ١١١٧م ، وهو يوافق يوم ١٨ صفر سنة ٥١١ هـ[٢] . ويقول لنا ابن عذارى إن حصار قلمرية استمر عشرين يوما ، ومعنى ذلك أنه بدأ فى ٢ يونيه الموافق ٢٨ من المحرم ، فإذا ذكرنا أن علياً قد عبر إلى الأندلس فى أواخر المحرم ، وفقاً لرواية ابن عذارى ، فإنه تبدو ثمة فى التواريخ ثغرة واضحة . وإذن فلابد أن يكون عبور على قد وقع فى أوائل المحرم ، أو أن تكون قلمرية قد سقطت فى أيدى المرابطين ، بعد التاريخ الذى تحدده الرواية النصرانية ، بشهر أونحوه ، وهو ما يفسح لمسير على وغزوته بضعة أسابيع ، وهى أقل ما يمكن أن تستغرقه مثل هذه الغزوة .

والظاهر أن علياً لم يحتفظ بقُلُمرية لأية مدة ، فقد انصرف عنها عقب افتتاحها إلى إشبيلية حسبما يقول ابن عذارى . ويفسر ذلك موقع قلمرية النائى ، وصعوبة الاحتفاظ بها فى منطقة يحيط بها النصارى من كل صوب .

وتذكر لنا الرواية الإسلامية نبأ غزوة قام بها فى نفس الوقت القائد عبد الله ابن فاطمة ، ومنصور بن الأفطس — وهو الذى سبق أن ذكرنا خبر عوده من أراضى النصارى إلى إشبيلية والتجائه إلى حماية أمير المسلمين — فى أرض النصارى ، وهى غزوة عادا منها إلى إشبيلية مثقلين بالسبى والغنائم الكثيرة[٣] .

— ٦ —

وقضى أمير المسلمين على بن يوسف ، عقب عوده من الأندلس ، بحاضرته مراكش ، زهاء أربعة أعوام ، وفى أوائل سنة ٥١٥ هـ (ربيع سنة ١١٢١م) ، عبر إلى شبه الجزيرة مرة أخرى فى جيش عظيم من صنهاجة وزناتة ومصمودة وغيرها من قبائل البربر ، وقيل أن حشوده لم تبلغ فى أية عبور سابق ما بلغته هذه

(١) الحلل الموشية ص ٦٣ .

(٢) F. Codera : Dec. y Dis. de los Almoravides, p. 256

(٣) البيان المغرب (الأوراق المخطوطة هسبيرس ص ٧٩) .

المرة من الضخامة والأهبة . وكان هذا هو الجواز الرابع لأمير المسلمين . وقد اختلفت الرواية فى بواعثه ، فقيل إن علياً اهتز لما بلغه من توالى المحن على جيوشه فى شبه الجزيرة ، وبخاصة لما أصابها فى كتندة من هزيمة ساحقة ، فعبر إلى الأندلس ، لتدارك الموقف ، وإصلاح الأمور ، والعمل على توطيد سمعة الجيوش المرابطية[1] ، بيد أنه كان ثمة باعث أهم وأخطر ، وهو الذى تردده أكثر من رواية ، وهو قيام الثورة ضد المرابطين فى قرطبة . ويلخص لنا صاحب الحلل الموشية الحادث فى أن أمير المسلمين كان قد ولّى على قرطبة الأمير أبا يحيى بن روادة ، فحدث بينه وبين أهلها نفور وسوء تفاهم فثاروا عليه ، وحدثت بينهم وبين من كان بها من المرابطين فتنة كبيرة ، ونهب العامة قصر الوالى ، ودور المرابطين ، واشتدت الحال[2] . ولكن ابن عذارى يقدم إلينا رواية أخرى يقول فيها : إنه فى سنة ٥١٤هـ ، « نفذ أمر أمير المسلمين إلى البلاد الأندلسية ، بإحياء المجانيق والآلات الحربية ، فلما كمل منه المختص بأغرناطة ، خرج لمشاهدة التجربة لها والرمى بها أجداى بن سير اللمتونى صاحب الأعنة . فتزاحم هناك الجم الغفير ، فرام الفسحة ، وأشار برسيخ كان فى يده فأصاب صبياً فى مقتله فقضى لوقته ، وانفض اللفيف ، وتهرجت البلدة . فاسترضى ولى الدم بدفع الدية ، فسكنت الثورة ، وأمهل الله القاتل ثم أخذه . ولما كمل ما أنشئ منها بقرطبة ، وقد جاء عيد النحر ، فخرج ثانية عامل البلدة لمشاهدة التجربة ، وقد أقبل السواد الأعظم الذى لا يطاق ، بمجمع حضور العيد ، وحضور كل ذاعر وناعق ، من كل حدب وشاهق ، فكثر التدافع والتزاحم ، ودهم الحشم ، فكثر بينهم التزاحم ، وأقبل لفيف الربض الغربى ، فالتقى بأسهم على القصر ، ورام صاحبه المدافعة بحشمه وخدمه فغلبوا ، واقتحم القصر عليه و[انتهب] جميع ما فيه ، وخرج هو فاراً بنفسه ، وركب القاضى أبو الوليد بن رشد فى أعلام الفقهاء ، فردع العامة ، وقمع السفلة »[3] .

وأخيراً يقدم إلينا ابن الأثير عن هذه الثورة تفاصيل أوفى ، ومن نوع خاص ، فيقول إنه لما كان يوم الأضحى (من سنة ٥١٤هـ) ، خرج الناس متفرجين ، فمد عبد من عبيد أبى بكر يده إلى امرأة وأمسكها . فاستغاثت فأغاثها الناس ،

---

(١) روض القرطاس ص ١٠٦ .

(٢) الحلل الموشية ص ٦٣ .

(٣) ابن عذارى فى البيان المغرب (الأوراق المخطوطة التى عثر بها المؤلف فى مكتبة القرويين) .

فوقع بين العبيد وأهل قرطبة فتنة عظيمة ، ونشب القتال بينهم حتى دخل الليل ، ووصل الخبر إلى الوالى الأمير أبى بكر ، واجتمع إليه الفقهاء والأعيان ، واقترحوا عليه تهدئةً للحال أن يقتل واحداً من العبيد الذين أثاروا الفتنة ، فأنكر ذلك وغضب ، وفى اليوم التالى استعد للقتال وأظهر السلاح ، والعدد ، فاجتمع لقتاله أهل قرطبة بزعامة الأعيان والفقهاء ، وهزموه ، فتحصن بالقصر فحاصروه ، وفر منهم بعد مشقة ، فنهبوا القصر وأحرقوا دور المرابطين ، ونهبوا أموالهم ، وأخرجوهم من قرطبة على أقبح صورة[1] .

تلك هى تفاصيل الفتنة القرطبية التى أهمت أمير المسلمين ، وحملته على المبادرة إلى العبور إلى الأندلس . بيد أن هـذه الحوادث الظاهرة ، كانت تحمل فى ثنيتها عوامل أخطر وأبعد مدى ، فلم يكن الأمر فى الواقع متعلقاً بحادث شغب عابر ، ولكنه كان أعمق جذوراً ، وكان أول فورة علنية ضد الحكم المرابطى . وقد سبق أن أشرنا إلى أن أساليب المرابطين فى الحكم لم تكن تتسم بكثير من الرفق والكياسة ، وأنها كانت بالعكس تتسم بالضغط والخشونة . ولم ينجح المرابطون مذ غلبوا على الأندلس ، منذ نحو ربع قرن ، أن ينشئوا فى البلاد المفتوحة نظاماً مدنياً للحكم ، فبقيت الأندلس فى أيامهم ، تعانى ضغط الحكم العسكرى المرهق ، وكانت تزمت المرابطين الدينى ، وحجرهم على الأفكار والعقائد ، سبباً آخر من أسباب التذمر لدى العقلاء والمفكرين . وكانت الحاميات المرابطية المكونة من أخلاط البربر ، تعامل جموع الشعب بصلف وتعال وجفاء ، وكانت جموع الشعب من جانبها تحقد عليها ، وتنظر إليها بعين المقت والحفيظة . وهذا إلى ما كان يشعر به الشعب الأندلسى بصفة عامة من ألم نفسى عميق لفقد استقلاله وحرياته ، فى ظل أولئك السادة الجدد ، الذين عبروا إلى الأندلس باسم إنقاذها ، ثم انتهوا بأن فرضوا عليها نيرهم الحديدى .

ولم تك ثورة قرطبة سوى أولى البوادر المادية لهذه الثورة النفسية . ومن ثم فقد قدر أمير المسلمين خطورتها ، وبادر بالقدوم إلى الأندلس لمعالجة الموقف ، وكان فى استعداداته العسكرية الضخمة ما ينم عن توجسه من عواقب هذه الفورة التى ربما وجدت صداها فى بعض القواعد الأخرى .

---

(١) ابن الأثير ج ١٠ ص ١٩٧ .

ووصل على بن يوسف بحشوده إلى ظاهر قرطبة فى شهر ربيع الآخر سنة ٥١٥ هـ (يوليه سنة ١١٢١ م) ، وهو ينوى أن يخمد الهياج بشدة ، فأغلقت قرطبة دونه أبوابها ، واستعد أهلها للدفاع عن أنفسهم ، واستفتوا فقهاءهم ، فأفتوا بأنه متى عرضت الحقائق فيما حدث على أمير المسلمين ، وتبين منها أن الأمر لم يكن عدواناً من أهل قرطبة ، وإنما كان بالعكس دفاعاً عن الحرم والدماء والأموال ، فإن أصر أمير المسلمين على موقفه ، واستمع لنصح المفسدين ، وجب القتال دفاعاً عن النفس والحرم[1] . ويقول لنا ابن الأثير من جهة أخرى ، إن أمير المسلمين ، بادر عند مقدمه بحصار قرطبة ، فقاتله أهلها قتال من يريد أن يحمى دمه وحريمه وماله ، وأنه لما رأى شدة قتالهم ، دخل السفراء بينه وبينهم ، وسعوا فى الصلح[2] . على أنه يبدو أنه لم يكن ثمة قتال ، وإنما تذرع أمير المسلمين بالهدوء والصبر ، وأقام أمام المدينة فترة ، حتى تردد إليه وجوه قرطبة وأعيانها . ويقول لنا ابن عذارى إن أمير المسلمين استدعى القاضى أبا الوليد بن رشد (الجد) قاضى قرطبة وفقهاء المدينة ، وجرت بينهم أحاديث طويلة فى أمر الثورة والانتزاء على الرياسة ، واقتحام قصر الوالى وانتهابه ، وذكّر أعيان قرطبة أمير المسلمين بوصية أبيه ، فى أن يقبل من أحسن من أهل قرطبة ، وأن يتجاوز عمن أساء منهم . وكان محمد بن داود قاضى إشبيلية فى ركاب أمير المسلمين ، فجعل يعظم الأمر ، ويبالغ فى تصوير شناعته ، ويقول إنه اجتراء وعصيان وضلال . ودافع القاضى ابن رشد من جهة أخرى عن موقف أهل المدينة ، وبين أنهم لم يشقوا عصا ولا نبذوا طاعة ، وأنه كان من واجب الوالى أن يعاقب المذنب من عبيده ، فقال أمير المسلمين فتمكنوا منهم ، فقال ابن رشد ليس لنا قدرة على حصرهم ، وإنما يحصرهم صاحب الأمر ، ثم بعد ذلك يأمر الصفح عنهم . وانتهت المفاوضات بالاتفاق على أن يقوم أهل قرطبة بالتعويض عما نهب من المرابطين ، وارتضى أمير المسلمين هذا الاتفاق ، ولكنه غضب لموقف ابن رشد وإيضاحاته ، فصرفه عن القضاء ، وولى مكانه أبا القاسم بن حَمْدين ، وأمر كذلك بصرف الأمير عبدالله ابن تينغمر عن غرناطة ، وأسند نظر غرناطة إلى أخيه الأمير أبى الطاهر تميم ، وكان يومئذ بفاس ، فاستحثه إلى الحضور ، ولبث تميم والياً على غرناطة مدى

---

(١) الحلل الموشية ص ٦٣ .

(٢) ابن الأثير ج ١٠ ص ١٩٧ .

عامين ، ثم عين بعد ذلك والياً لإشبيلية مكان الأمير أبى بكر بن على بن يوسف ، فلبث واليها حتى وفاته فى سنة ٥٢٠ هـ[١] .

ولم يمكث على بن يوسف هذه المرة طويلا بالأندلس ، إذ وافته أنباء مزعجة من مراكش ، عن قيام محمد بن تومرت المهدى ببلاد السوس الأقصى ، واستفحال أمره[٢] .

(١) ابن عذارى فى البيان المغرب (من الأوراق المخطوطة ، التى عثر بها المؤلف والتى سبقت الإشارة إليها) ، وروض القرطاس ص ١٠٦ وكذلك : F. Codera: ibid; p. 237 & 238

(٢) الحلل الموشية ص ٦٤ ، ٧٤ .

الفصل الثالث

سقوط سرقسطة

سرقسطة وخواص موقعها . موقف أمرائها من الملوك النصارى . إستيلاء المرابطين عليها . أطماع قشتالة وأراجون نحوها . تربص ألفونسو ملك أراجون بها . ولاية الأمير أبى بكر بن ابراهيم لسرقسطة . حكمه اللامع ووفاته . ندب عبد الله بن مزدلى لولاية سرقسطة . أهبة أراجون وحلفاؤها من النصارى الصليبيين لافتتاحها . محاصرة النصارى لسرقسطة . اختلاف الروايات الإسلامية حول حوادث الحصار . رواية ابن عذارى عن القتال بين أهل سرقسطة والنصارى . عبد الله بن مزدلى ومدافعته للنصارى . صمود المدينة واستمرار الحصار . نضوب الموارد ووفاة ابن مزدلى . مقدم المرابطين بقيادة الأمير تميم . استغاثة أهل سرقسطة بالأمير وإحجامه . الرسالة التى وجهها قاضى سرقسطة إلى الأمير بالاستغاثة واللوم . ما تدلى به هذه الرسالة . بواعث إحجام المرابطين وعدم الاعتداد بها . اضطرار أهل سرقسطة إلى طلب الهدنة. الإتفاق على تسليم المدينة ، وشروط هذا التسليم . تسليم سرقسطة ، وتحويلها إلى مدينة نصرانية . هجرة أهلها المسلمين . الآثار المترتبة على سقوط سرقسطة . استيلاء ألفونسو المحارب على طرسونة وقلعة أيوب . اهتمام على بن يوسف بهذه الحوادث . سير الجيوش المرابطية لمقاتلة الأرجونيين . موقعة كتندة وهزيمة المسلمين . سقوط قلعة دروقة .

— ١ —

مضت ثلاثة وثلاثون عاما ، مذ سقطت طليطلة فى يد ألفونسو السادس ملك قشتالة ، وجاشت الأندلس بهزتها العنيفة ، التى تمخضت عن مقدم المرابطين إلى شبه الجزيرة نصرة لإخوانهم فى الدين ، وإحرازهم لنصرهم الباهر فى الزلاّقة (٤٧٩ هـ) . ثم استقرارهم بعد ذلك سادة فى الأندلس . ثم شاء القدر ، بعد أن لمعت الجيوش المرابطية فى غير موقعة وغزوة فى أراضى اسبانيا النصرنية ، أن تفجع الأمة الأندلسية مرة أخرى ، بفقد قاعدة جديدة من قواعدها العظيمة ، هى سرقسطة قاعدة الثغر الأعلى .

كانت سرقسطة — وقد اشتق اسمها العربى من اسمها الرومانى **Caesar Augusta** — تمثل منذ عهد الإمارة ، زعامة الأسر العربية ، والرياسة المحلية ، فى الثغر الأعلى ، واستمرت هذه الزعامة قائمة خلال القرن الخامس الهجرى ، أولا فى بنى هاشم التجيبيين ، ثم فى خلفائهم بنى هود ، حتى وضع مقدم المرابطين حداً

لحياة دول الطوائف ، وكانت سرقسطة حسبما تقدم من قبل ، آخر القواعد التى سقطت فى أيديهم . وذلك فى أواخر سنة ٥٠٣ هـ (١١١٠ م) .

وقد أشرنا من قبل إلى ما تمتاز به موقع سرقسطة الخاص من الناحيتين الإستراتيجية والقومية . فأما من الناحية الإستراتيجية ، فقد كان بُعد سرقسطة عن موسّطة الأندلس ، ومركز الحكومة الرئيسية ، وموقعها الحصين على الضفة اليسرى لنهر إيبرو (إبرة) ، ومناعة أسوارها العالية ، تعاون المتزين بها على تحدى الحكومة المركزية ، وتوطيد استقلالهم المحلى . وكانت من جهة أخرى تجعلها حاجزاً طبيعياً بين أراضى المسلمين ، وأراضى النصارى . وأما من الناحية القومية ، فإن وقوع مملكة سرقسطة المسلمة بين الممالك النصرانية — بين إمارة برشلونة من الشرق ومملكتى أراجون وناڤار (نبرّة) من الشمال ، ومملكة قشتالة من الغرب — كان يحتم عليها أن تتبع نحو جيرانها النصارى ، سياسة خاصة ، يغلب عليها طابع السلم والتهادن ، والملق والخضوع أحياناً فى صورة أداء للجزية ، وذلك حتى تأمن شر أولئك الجيران الطامعين الأقوياء ، وكان ملوك سرقسطة فوق ذلك يستخدمون فى جيوشهم كثيراً من النصارى المرتزقة ، ومن هؤلاء أحياناً قادة مبرزون مثل السيِّد الكمبيادور ، وأحياناً كانوا يعتمدون على التحالف مع الملوك النصارى . وهكذا كانت مملكة سرقسطة تُحمل بموقعها وظروفها الخاصة ، على اتباع سياسة ، تجعلها فى شبه عزلة عن باقى الإمارات المسلمة . وقد كان هذا شأنها ، حينما قدم المرابطون إلى شبه الجزيرة الإسبانية ، وحينما بدأت جيوشهم تستولى تباعاً على قواعد الأندلس الوسطى ، ثم الشرقية . ودخل المرابطون مدينة سرقسطة حسبما قدمنا ، فى أواخر سنة ٥٠٣ هـ ، (١١١٠ م) ، استجابة لصريخ أهلها ، وكانت آخر القواعد الأندلسية التى استولوا عليها .

وشعر المرابطون منذ الساعة الأولى بهذا المركز الدقيق ، الذى تحتله سرقسطة فى قلب هذا المعترك من الإمارات النصرانية المتوثبة ، وشعروا بفداحة مهمتهم فى حمايتها والاحتفاظ بها . وكانت مملكة أراجون القوية جارة مملكة سرقسطة من الشمال قد استطاعت أن تنتزع منها بعض قواعدها الشمالية الهامة مثل مونتشون ، والمنارة ، ووشقة ، وبربشتر ، ولم يبق لسرقسطة من قواعدها ، سوى تطيلة ولاردة وإفراغة ، وثغرها على البحر المتوسط طرطوشة .

وكانت مدينة سرقسطة هدفاً لأطماع قشتالة وأراجون معاً . فنى صيف سنة ١٠٨٥ م (٤٧٨ ﻫ) حاصرها ألفونسو السادس ملك قشتالة على أثر استيلائه على طليطلة ، محاولا الاستيلاء عليها ، ولم يرفع الحصار عنها إلا حينما وافته الأنباء بمقدم المرابطين إلى شبه الجزيرة ، فغادرها على عجل ليجمع سائر قواته ، وليلقى هزيمته فى الزلاّقة فى شهر رجب ٤٧٩ (أكتوبر ١٠٨٦ م) . ولما رأى المستعين ابن هود ملك سرقسطة يومئذ ، اشتداد ضغط النصارى على مملكته ، ورأى من جهة أخرى انسياب الجيوش المرابطية إلى شرقى الأندلس ، واقترابها من الثغر الأعلى ، اعتزم أن يتقرب من المرابطين ، وأن ينضوى تحت لوائهم ، فبعث إلى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين سفارتين متواليتين ، وكان يوسف يرى أن تترك سرقسطة ، حاجزاً بين المرابطين والنصارى ، وبهذا أوصى ولده علياً قبيل وفاته ، ولكن الحوادث تطورت فيما بعد ، وانتهت باستيلاء المرابطين على سرقسطة وباقى قواعد الثغر الأعلى .

— ٢ —

لما استقر المرابطون فى سرقسطة تحت إمرة قائدهم محمد بن الحاج أول ولاتها من اللمتونيين ، كانت حوادث الثغر الأعلى ، تنذر باقتراب الخطر الداهم . وكان النصارى قد أنشأوا منذ سنة ١٠٩١م (٤٨٤ﻫ) على ضفة نهر إيبرو اليسرى شمالى سرقسطة حصناً قوياً ، يقع على قيد أربعة فراسخ فقط منها ، واتخذوه قاعدة للضغط عليها ، وإرهاقها من آن لآخر ، وكان ألفونسو الأول ملك أراجون الملقب بالمحارب **El Batallator** ، والمسمى « ابن رذمير » فى الرواية العربية ، يترقب الفرص **لمهاجمة سرقسطة** ، وسبر غور المدافعين عنها ، وكانت قواته قد وصلت شرقاً حتى ظاهر لاردة ، واحتلت قلعة تاماريت القريبة منها وذلك فى سنة ١١٠٧ م .

ولما احتل المرابطون سرقسطة ، سار إليها ألفونسو فى العام التالى (٥٠٤ ﻫ — ١١١١ م) وحاول مهاجمتها ، فردته عنها القوات المرابطية بقيادة ابن الحاج ومحمد ابن عائشة والى مرسية . ثم شغل ألفونسو بعد ذلك حيناً بالحرب التى نشبت بينه وبين زوجته أورّاكا ملكة قشتالة ، وانتهز المرابطون ، من جهة أخرى ، تلك الفرصة ، فقاموا ببعض الغزوات المخربة فى أراضى إمارة برشلونة ، وحاصروا الثغر العظيم ذاته حسبما فصلنا ذلك من قبل . ولما قتل ابن الحاج حين عودته من

تلك الغزوة (٥٠٨ - ١١١٤ م) ، خلفه فى ولاية سرقسطة الأمير أبو بكر بن ابراهيم بن تافلوت المسّوفى والى مرسية ، وهو ابن عم أمير المسلمين على بن يوسف وصهره - زوج أخته - فلبث فى ولايتها زهاء عامين . وقد كان هذا الأمير من خيرة أمراء الدولة المرابطية ، كرماً وجوداً وشجاعة ، وظهوراً فى ميدان الفضائل ، وقد أقام خلال عهده القصير بسرقسطة بلاطاً فخما كبلاط الملوك ، واستوزر الفيلسوف الشهير أبا بكر بن الصائغ المعروف بابن باجّة ، وخاض حياة باذخة فخمة ، ومن حوله الأدباء والندماء ، وانهمك فى اللذات والشراب ، وذلك كله بالرغم مما كانت تجوزه سرقسطة يومئذ من ظروف حرجة واحتمالات خطرة. بيد أنه يبدو من إشارة لابن عذارى ، أنه سار فى سنة ٥١٠ هـ ، إلى حصن روطة وغزاه ، وأنه غزا كذلك برجة وبها عماد الدولة بن هود ؛ ويبدو من إشارة أخرى لابن الخطيب ، أنه قد خاض خلال تلك الفترة مع النصارى ، بعض معارك دفاعية ، كان لهم فيها التفوق على القوات المرابطية . ويبدو من جهة أخرى أن ألفونسو ملك أراجون ، هو الذى كان يضطلع بهذه الغزوات المرهقة[١]. ثم توفى الأمير أبو بكر سنة ٥١٠ هـ أو فى سنة ٥١١ هـ ، على قول آخر[٢] . ولما اتصل نبأ وفاته بالأمير أبى إسحاق إبراهيم بن يوسف ، أخى أمير المسلمين على بن يوسف ، وهو يومئذ والى مرسية ، بادر بالسير إلى سرقسطة فنظر فى شئونها ، وضبط أحوالها ، ولما اطمأن إلى توطيد أمورها عاد إلى مرسية مقر ولايته[٣] .

وإنه لما يلفت النظر أنه لم يعين فى تلك الآونة العصيبة ، التى لاح فيها الخطر داهماً على سرقسطة ، وال جديد يخلف على الفور واليها المتوفى ، خصوصاً وقد كان أمير المسلمين على بن يوسف موجوداً فى تلك الفترة بالذات (٥١١ - ١١١٧م) فى شبه الجزيرة ، عقب جوازه الثالث إليها . وأعجب من ذلك هو أن على بن يوسف ، بدلا من أن يتجه بجيوشه الجرارة العابرة معه ، إلى مواطن الخطر فى الثغر الأعلى ، يؤثر أن يضطلع بغزوات عقيمة فى أراضى البرتغال ، يستولى

---

(١) البيان المغرب (الأوراق المخطوطة ، هسبيرس ص٧٨) ، والإحاطة لابن الخطيب (القاهرة ١٩٥٦) ج ١ص ٤١٦ ، حيث يقول فى ترجمة الأمير أبى بكر «توفى بسرقسطة فى سنة عشر وخمسمائة ، بعد أن ضاق ذرعا بطاغية الروم ، الذى أناخ عليه بكلكله » .

(٢) يقول بالرواية الأولى ابن الخطيب (الهامش السابق) . ويقول بالثانية ابن عذارى فى البيان المغرب (الأوراق المخطوطة التى عثر بها المؤلف فى مكتبة جامع القرويين بفاس) .

(٣) البيان المغرب (الأوراق المخطوطة السالفة الذكر) .

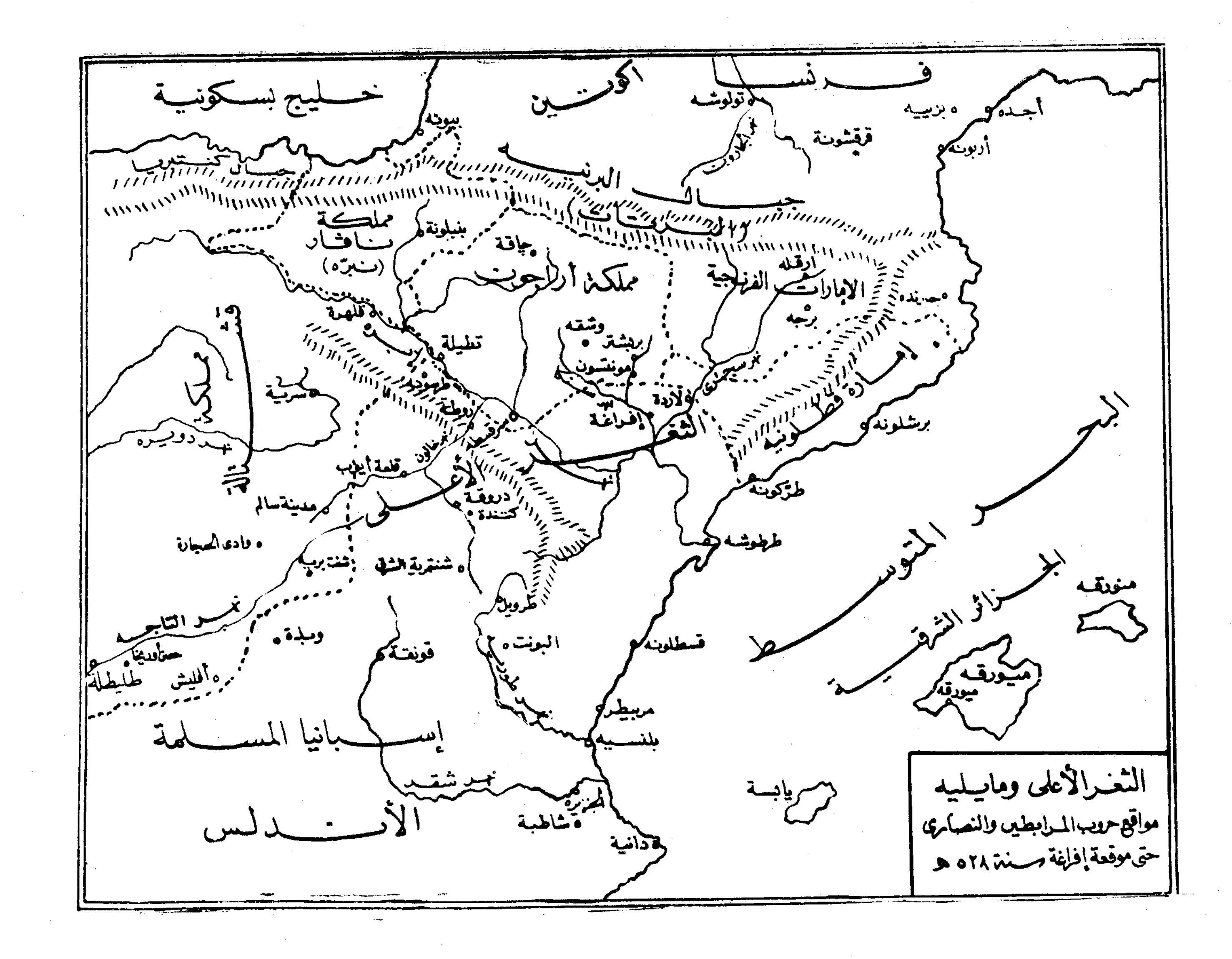
خلالها على مدينة قُلُمرية ، ثم يتركها عقب افتتاحها . وعلى أى حال ، فإنه بعد أن لبثت سرقسطة حيناً دون وال ، نُدب عبد الله بن مزدلى والى غرناطة ليكون والياً لبلنسية وسرقسطة ، وذلك فيما يبدو فى أواخر سنة ٥١١ هـ (أواخر ١١١٧م)[١].

وهنا يحيق الغموض بحركات النصارى وحركات والى سرقسطة الجديد . ذلك أنه من المسلم به ، ومن المتفق عليه فى الروايتين العربية والإفرنجية ، أن حصار النصارى لسرقسطة بدأ فى شهر صفر سنة ٥١٢ هـ ، الموافق لشهر مايو سنة ١١١٨م . ونقول هنا حصار النصارى بصفة عامة ، لأن الجيش المحاصر لم يكن مكوناً فقط من الأرجونيين ، أعداء سرقسطة الأصليين ، بل كان يضم طوائف عديدة أخرى من الفرنج . والواقع أننا نجد أنفسنا فى هذا الموطن أمام حملة صليبية حقيقية . ذلك أنه فى الوقت الذى كان فيه ملك أراجون ألفونسو المحارب ، يوالى الضغط على سرقسطة ، ويُجدّ فى انتزاع حصونها الأمامية حتى أنه استولى على تطيلة فى سنة ١١١٧م ، ووصل فى أوائل سنة ١١١٨ إلى موريلا القريبة منها ، كان صدى دعواته وحركاته ضد المسلمين يعمل عمله فى الناحية الأخرى من جبال البرنيه ، وكانت الحرب الصليبية الأولى ، قد انتهت قبل ذلك بعشرين عاما فى الشرق باستيلاء الصليبيين على بيت المقدس (١٠٩٩ م) وازدادت الروح الصليبية اضطراما ، فى فرنسا وفى اسبانيا . ففى سنة ١١١٧م ، عبرت حملة قوية من الفرنج أهل بيارن بقيادة جاستون دى بيارن وأخيه سانتولو — وكانا قد اشتركا بالمشرق فى الحرب الصليبية الأولى — ، إلى اسبانيا ، لتشترك مع الأرجونيين فى افتتاح سرقسطة . وفى العام التالى (١١١٨م) عقد بمدينة تولوز (تولوشة) مؤتمر من أساقفة آرل ، وأوش ، ولاسكار ، وبنبلونة ، وببشتر ، وتقرر فيه أن ترسل حملة صليبية أخرى إلى اسبانيا يقودها الكونت دى تولوز ، وحشدت فوق ذلك قوات كبيرة من البشكنس ، ومن قطلونية ، ومن أورقلة تحت إمرة سادة هذه المناطق ، وكان بين المقاتلين كثير من الأساقفة ورجال الدين[٢]. وتنوه الرواية الإسلامية بضخامة هذه الحملات الفرنجية التى اشتركت فى حصار سرقسطة وافتتاحها ، وتصفها إحدى الروايات بأنها كانت أمما كالنمل والجراد ، أو أنها أقبلت فى عدد لا يحصى أكثره من

---

(١) روض القرطاس ص ١٠٥ .

(٢) يراجع فى ذلك مقال عن افتتاح سرقسطة بقلم الأستاذ J. Mar'a Lacarra نشر بمجلة الأندلس Al-Andalus (1947) Fas. I. p 78-80



الثغر الأعلى وما يليه
مواقع حروب المرابطين والنصارى
حتى موقعة إفراغة سنة ٥٢٨ هـ

من الجند والرماة[١]. وفى رواية أخرى أن الفرنج بلغوا خمسين ألف فارس[٢].

— ٢ —

وهكذا اجتمعت الجيوش النصرانية المتحدة من الأرجونيين والفرنج ، وسارت لافتتاح سرقسطة ، وفى بعض الروايات أن الذى بدأ بالحصار هو الجيش الفرنجى الذى يقوده جاستون دى بيارن ، وأن ألفونسو المحارب قدم بعد ذلك فى قواته من قشتالة[٣] . وبدأ حصار سرقسطة وفقا للرواية الإسلامية ، فى مستهل شهر صفر سنة ٥١٢ هـ[٤]، ويوافق ذلك يوم ٢٢ مايو سنة ١١١٨، وهو التاريخ الذى تضعه الرواية الفرنجية . وهنا يبدأ الغموض فى تعقب حوادث الحصار ، ونجد أنفسنا أمام طائفة من الروايات المتناقضة ، فهناك أولا القول بأن سرقسطة انتهت بعد حصار دام أشهراً ، أودام بالتحديد تسعة أشهر ، بالتسليم صلحاً . وهذه رواية ابن الكردبوس فى « الإكتفا » وابن عبد المنعم الحميرى فى الروض المعطار[٥]. بيد أن هذه رواية ضعيفة أوبعبارة أخرى رواية ناقصة . وأما الروايات الأخرى وهى عديدة ، عربية وإفرنجية ، فإنها تتفق فى أنه وقعت خلال الحصار معارك عديدة بين المسلمين والنصارى ، وأن سرقسطة لم تسلم صلحاً ، وإنما أرغمت على التسليم إرغاماً ، بعد أن برّحت بأهلها أهوال الحصار ، وبعد أن هزم أهلها فى غير معركة ، وهزم المرابطون الذين تصدوا للدفاع عنها .

وتقدم إلينا الرواية الإسلامية تفاصيل مختلفة عن حوادث الحصار ، والمعارك التى سبقته أواقترنت به ، فيقول لنا صاحب روض القرطاس ، إن عبد الله بن مزدلى لما ولى سرقسطة فى سنة ٥١١هـ ، سار إليها من غرناطة ، فوجد ابن رذمير قد أذاق أهلها شراً ، فاشتبك معه عبد الله فى عدة معارك شديدة حتى هزمه ، وأخرجه عن البلدة ، ولبث عبد الله بعد ذلك عاما آخر فى سرقسطة ثم توفى ، فبقيت دون أمير « فأتاها ابن رذمير فنزلها ، وأتى ألفنش أيضاً فى أمم لا تحصى من قبائل الروم ، فنزل لاردة من بلاد الجوف ، فاتصل الخبر بأمير المسلمين على

---

(١) روض القرطاس ١٠٦ ، والبيان المغرب (من الأوراق المخطوطة السالفة الذكر) .

(٢) الروض المعطار (صفة جزيرة الأندلس) ص ٩٨ .

(٣) مقال الأستاذ لاكارا السالف الذكر ص ٨٠ .

(٤) ابن عذارى فى البيان المغرب (الأوراق المخطوطة السالفة الذكر) .

(٥) ابن الكردبوس (مخطوط أكاديمية التاريخ السالف الذكر لوحة ١٦٤ ب) والروض المعطار ص ٩٧ و٩٨ .

ابن يوسف ، ، فكتب إلى أمراء الأندلس بالمسير إلى أخيه تميم ، وكان والياً على شرق الأندلس ، ليسيروا معه لاستنقاذ سرقسطة ولاردة ، فقدم على تميم . عبد الله بن مزدلى ، وأبو يحيى بن تاشفين صاحب قرطبة ، بعساكرهما ، فخرج تميم بن يوسف من بلنسية مع أمراء لمتونة ، فقصد نحو لاردة ، وكان بينه وبين ألفنش قتال عظيم ، أقلعه عن لاردة خاسئاً حاسراً بعد أن بذل جهده فى قتالها ، وفقد عليها من جيوشه مايزيد على العشرة آلاف رجل ، ورجع تميم إلى بلنسية »[1].

وربما كانت رواية ابن عذارى أكثر وضوحاً واتساقا . فهو يقول لنا إنه فى سنة اثنتى عشرة وخمسمائة ولّى أمير المسلمين على بن يوسف أخاه الأمير أبا الطاهر تميماً إمرة بلاد شرقى الأندلس لما ضيق العدو عليها ، وأعمل عزمه وحزمه إليها ، وذلك أنه لما رأى « أذفونش » ضعف سرقسطة ، وتفرق الجيش عنها ، بعد موت الأمير أبى بكر بن إبراهيم ، جد فى الحشد إليها واستجاش الإفرنجة : فأقبلت فى عدد لاتحصى ، أكثرهم جند ورماة ، فاحتل سرقسطة مستهل صفر من هذه السنة (٥١٢ هـ) فخرج المسلمون إليهم ، وشبت الحرب بينهم ، فحمل الروم عليهم ، فانهزم الناس ، وهم فى أثرهم إلى ربض الدباغين ، إلى القنطرة ، فازدحموا بها ، وقد حصل الروم معهم فيها . فبادر المسلمون بإلقاء النار عليها ، فاحترقت القنطرة إلى أقصاها ، ولولا المناجزة بين الربض والمدينة لكانت الحالقة ، وبات الناس على الأسلحة ، وخمسوا أبواب المدينة ، واتصل الحصار وتواترت الحرب . وكان أذفونش قد تخلف عن .. فلحق بعد نصف شهر ، فتعاضد العدو ، وقد أمد ، وزاد كلبه واشتد ، ولنحو الشهر تغلبوا على قصر . . . بالجعفرية ، وهو قبيل ميل من سرقسطة ، وكان عبد الله بن مزدلى أوان نزول الروم على سرقسطة بالعسكر ، على جيان لحماية ذلك الثغر عن عدو طليطلة » .

ويزيد ابن عذارى على ذلك ، أنه لما توالى تضييق العدو على سرقسطة وحصارها وهزيمة أهلها ، وتحريق قنطرتها ، ونزول العدو على قصرها المعروف بالجعفرية ، اتصل الخبر بعبد الله بن مزدلى ، فسار الجيش إليها ولحق به مدد من جيش قرطبة ، فقويت نفوس أهل سرقسطة ، ولحق الجيش بطرسونة ،

---

(١) روض القرطاس ص ١٠٥ و ١٠٦ ، ويلاحظ ما فى هذه الرواية من تناقض أولا فى القول بموت عبد الله مزدلى ثم مثوله ثانية للقتال مع الأمير تميم ، وثانياً فى التفرقة بين ابن رذمير وألفنش وابن رذمير هو ألفونسو المحارب ، وهما شخص واحد .

وقد شد العدو غارته عليها . فجد فى اتباعه وأدركه غير بعيد . فهزم الله العدو ، وأظهر على يد عبد الله بن مزدلى عجائب فى هذه الغزوة لم يعهد مثلها ، منذ مدة بعيدة قبلها . ثم احتل بتطيلة ، وتلوم بها ، وأقلع الفرنج عن سرقسطة ، فرأى الأمير عبد الله بعد تلومه أن ينهض إليها ، فترك الحمولة ومدد قرطبة ، وانتخب أنجاد العسكر ، وصمم إلى سرقسطة . فدخلها فى أوائل جمادى الآخرة ، وقد استنشق أهلها ريح الحرب . وفى خلال ذلك اعتل الأمير عبد الله المذكور ، فتوفى فى رجب . فكتم وفاته أياما . ثم انبث الخبر وعلم به رذمير ، ففغر على البلد فمه ، وألقى عليه زوره . وقد نفدت الأقوات ، وبلغ الميقات . فدخله بالمعاهدة والأمنة فى يوم الأربعاء الثالث من شهر رمضان المعظم من السنة المؤرخة (أعنى ٥١٢ هـ) »[1] .

وعلى أى حال . فإنه بالرغم مما يوجد بين الروايتين من اختلاف فى الوقائع والتفاصيل ، يمكننا أن نستخلص منهما حقيقتين هامتين : الأولى أنه وقعت قبل حصار سرقسطة ، أو خلال الحصار ، معارك شديدة بين المسلمين والنصارى ، والثانية هو أن عبد الله بن مزدلى ، آخر ولاة سرقسطة المسلمين ، قد اشترك بقواته فى هذه المعارك وأبلى فيها . وثمة مسألة أخرى ، ينفرد بها صاحب روض القرطاس ، وهى أن القوات المرابطية المشتركة ، سارت لاستنقاد سرقسطة بقيادة الأمير أبى الطاهر تميم ، واشتبكت عند لاردة فى موقعة شديدة مع ألفونسو المحارب ، وأنزلت به هزيمة ساحقة ، وأن تميما عاد على أثر ذلك إلى مقر ولايته فى بلنسية ، وهذه مسألة سوف نعود إلى مناقشتها .

— ٣ —

بدأ حصار سرقسطة حسبما قدمنا ، فى مستهل شهر صفر سنة ٥١٢هـ (٢٢ مايو سنة ١١١٨ م) ، وطوقتها قوات كثيفة من الفرنج والأرجونيين ، والبشكنس والقطلان وغيرهم . وكانت سرقسطة ، فضلاعن حصانتها الطبيعية بموقعها جنوبى نهر إيبرو على ضفته اليسرى ، تعتمد فى الدفاع على أسوارها العالية القوية . وهى ترجع إلى أصل رومانى . وعلى قلعتها المنيعة ، وكان قصرها الشهير المسمى بالجعفرية ، نسبة إلى مؤسسة أبى جعفر المقتدر بن هود ، يقع خارج الأسوار ، غربى سرقسطة على قيد نحو ميل منها ، وعلى مقربة من النهر ، ومن ثم فقد احتله

(١) البيان المغرب من الأوراق المخطوطة التى عثر بها المؤلف فى مكتبة جامع القرويين بفاس .

النصارى لأول مقدمهم . وجاء المحاصرون معهم بأبراج خشبية عالية تجرى على بكرات لكى يستطيع المهاجمون بها محاذاة الأسوار العالية ، لينصبوا فوقها الرعدات ، وجاءوا كذلك بعشرين منجنيقاً ضخمة لدك الأسوار[1] ، وكان الذى يشرف على آلات الحصار واستعمالها ، طائفة من أهل بيارن ممن اشتركوا فى حصار بيت المقدس ، وتمرسوا فى استعمال هذه الآلات .

واستمر حصار سرقسطة سبعة أشهر . والظاهر أنه استطال أكثر مما قدر ألفونسو المحارب وحلفاؤه . ذلك أنه فى الوقت الذى كان فيه أهل سرقسطة ، يعانون ويلات الحصار داخل الأسوار ، كان المعسكر النصرانى منذ مقدم الخريف ، يعانى من نقص المؤن . ويهدده الجوع بشبحه المروع ، حتى لقد فكر قادة الجيش النصرانى فى رفع الحصار ، لولا أن شجعهم أسقف وشقة وزملاؤه ، ووضعوا تحت تصرفهم ذخائر عدة من الكنائس يجلبون بثمنها الأقوات[2] . أما فى داخل سرقسطة ، فقد كانت الأقوات تنضب يوماً بعد يوم ، خصوصاً وأن أهل المدينة المحصورة لم يتمكنوا من جنى محاصيلهم لتبكير النصارى فى فرض الحصار ، وكان من العسير عليهم أن يتلقوا أية مؤن من الخارج ، لإحكام الحصار حول المدينة ، من ناحية النهر وناحية البر . ومضت الأشهر تباعاً والحال تشتد شيئاً فشيئاً ، حتى « فنيت الأقوات ، وفنى أكثر الناس جوعا »[3]. ووقع خلال ذلك حادث زاد فى وجوم أهل المدينة ، وارتباك تدابير الدفاع ، هو وفاة واليها عبد الله بن مزدلى ، فى أوائل جمادى الآخرة (سبتمبر ١١١٨م) . والظاهر أنه لم يخلفه فى الرياسة أحد من أهل المدينة ، فترك الأمر فوضى وأخذت الخاتمة المروعة تدنو شيئاً فشيئاً .

وهنا وقبل أن نتحدث عن خاتمة سرقسطة الإسلامية ، يحق لنا أن نتساءل أولا ، ما الذى حدث خلال الحصار من الحوادث والوقائع ؟ وهل نشبت بين المسلمين والنصارى عندئذ بعض المعارك ؟ ثم ماذا كان موقف المرابطين ، وهل حاولوا إنقاذ المدينة المحصورة ؟ وفى أى الظروف ؟

فأما ما وقع خلال هذه المرحلة الأخيرة من الحصار من الحوادث والوقائع ، فإن معظم الروايات الإسلامية تلتزم الصمت إزاء ذلك . بيد أنها فى موطن واحد

---

(١) روض القرطاس ص ١٠٦ .

(٢) الأستاذ Lacarra فى مقاله السالف الذكر بمجلة الأندلس والمراجع .

(٣) روض القرطاس ص ١٠٦ .

تذكر لنا ما يؤيد هذه الحقيقة الهامة ، وهى أن جيشاً مرابطياً بقيادة الأمير أبى الطاهر تميم — وقد كان عندئذ حسبما تقدم والياً لشرقى الأندلس — وصل فى أواخر أيام الحصار (نحو منتصف شهر شعبان الموافق شهر ديسمبر) إلى مقربة من سرقسطة ، وذلك فيما يرجح بقصد محاولة إنقاذها . فخرج إلى الأمير تميم زعيمان من زعماء المدينة . هما الفقيه على بن مسعود بن إسحق بن إبراهيم بن عصام الخولانى وهو من أكابر علماء سرقسطة وحفاظها وأدبائها . وكان متولياً قضاء ميورقة ، والخطيب أبو زيد بن منتيال . وحدثاه باسم أهلها بمحضر أبى الغمر الشايب بن غرون . عن أهبات النصارى . ووجوب مناجزة العدو . ولكن الأمير تميما « جبن عن ذلك » وكان انتقاله بالجيوش عن سرقسطة . حسبما يقول ابن الأبار صاحب هذه الرواية . سبباً فى نجاح النصارى فى الاستيلاء على المدينة[١].

بيد أن إحدى الروايات النصرانية ، تقول لنا بالعكس إنه قد وقعت فى يوم ٦ ديسمبر سنة ١١١٨ معركة عنيفة بين قوات ألفونسو المحارب . وجيش قوى من المرابطين انتهت بظفر النصارى ، ولم تمض على ذلك أيام قلائل حتى سلمت المدينة . وذلك بعد أن انتهت المهلة الممنوحة للمحصورين[٢] .

على أنه توجد وثيقة مخطوطة هامة تؤيد ما جاء فى الرواية الأولى وتؤكده ، وهذه الوثيقة هى عبارة عن رسالة مؤثرة ، بل مبكية ، كتبها قاضى سرقسطة ثابت ابن عبد الله ، وجماعة من أهلها إلى الأمير تميم يتضرعون إليه ، فى عبارات مؤثرة ، ولكن أبيه حازمة باسم الدين والوطن ، أن يتقدم لإنجاد سرقسطة وإنقاذ أهلها ، وألا ينكص على عقبيه أمام النصارى ، وقد استهلت هذه الرسالة بالتاريخ الذى كتبت فيه ، وهو يوم الثلاثاء السابع عشر من شعبان (٥١٢ هـ) . أعنى لستة أشهر ونصف من بدء الحصار ، وقبل تسليم المدينة بثمانية عشر يوماً فقط ، وفيها يصف الكاتب ما عاناه أهل سرقسطة من أهوال الحصار والجوع . ثم يشير إلى مقدم الأمير تميم بعساكره ، ويلومه على إحجامه عن لقاء النصارى فى قوله :

(١) وردت هذه الرواية خلال ترجمة ابن الأبار للفقيه على بن مسعود الخولانى ، وقد نشرت مع تراجم أخرى ملحقاً لتراجم « التكملة » وذلك فى كتاب المشتشرقين الإسبانيين **G. Palencia**, و **M. Alarcón**, تحت عنوان **Miscalanea de Estudios y Textos Arabes (Madrid 1916) p.205** وعثرنا على نفس هذه الترجمة أيضاً فى كتاب الذيل والتكملة لابن عبد الملك المراكشى (المخطوط المصور المحفوظ بالخزانة العامة بالرباط) الجزء الأول .

(٢) أوردها الأستاذ **Lacarra** فى مقاله السالف الذكر .

« وماكان إلا أن وصلت ، وصل الله برك بتقواه ، على مقربة من هذه الحضرة ، ونحن نأمل منك بحول الله أسباب النصرة ، بتلك العساكر التى أقر العيون بهاؤها ، وسر النفوس زهاؤها ، فسرعان ما انثنيت وما انتهيت ، وارعويت وما أدنيت ، خاباً عن اللقاء ، ناكصاً على عقبيك عن الأعداء ، فما أوليتنا غنَاء ، بل زدتنا بلاء ، وعلى الداء داء ، بل أدواء ، وتناهت بنا الحال جهداً والتواءً ، بل أذللت الإسلام والمسلمين ، واجترأت فضيحة الدنيا والدين . فيالله ويا للإسلام ، لقد اهتضم حومه وحماه أشد الاهتضام ، إذ أحجمت أنصاره عن إعزازه أقبح الإحجام ، ونكصت عن لقاء عدوه ، وهو فى فئة قليلة ، ولمة رذيلة ، وطايفة قليلة » .

ثم يشير الكاتب بعد ذلك إلى أهمية سرقسطة الدفاعية وعواقب سقوطها الوخيمة على مركز المرابطين فى شبه الجزيرة فى قوله :

« فما هذا الجبن والفزع ، وما هذا الهلع والجزع ، بل ما هذا العار والضيع ، أتحسبون يا معشر المرابطين وإخواننا فى ذات الله المؤمنين ، إن سبق على سرقسطة القدر ، بما يتوقع من المكروه والحذر ، أنكم تبلغون بعدها ريقاً ، وتجدون فى ساير بلاد الأندلس عصمها الله مسلكاً من النجاة أوطريقاً — كلا والله ليسومنّكم الكفار عنها جلاء وفراراً ، وليخرجنكم منها داراً فداراً ، فسرقسطة حرسها الله هى السد الذى إن فتق ، فتقت بعده أسداد ، والبلد الذى إن استبيح لأعداء الله ، استبيحت له أقطار وبلاد ، فالآن أيها الأمير الأجل ، هذه أبواب الجنة قد فتحت ، وأعلام الفتح قد طلعت ، فالمنية ولا الدنية ، والنار ولا العار ، فأين النفوس الأبية ، وأين الأنفة والحمية ، وأين الهمم المرابطية ، فلتقدح عن زنادها ، بانتضاء حدها ، وامتضاء جدها ، واجتهادها ، وملاقاة أعداء الله وجهادها ، فإن حزب الله هم الغالبون » .

ويتوجه الكاتب فى ختام رسالته ، بالضراعة إلى الأمير أن يقبل على سرقسطة ، وألا يتأخر قبل وقوع الكارثة فيقول :

" ولن يسعك عند الله ، ولا عند مؤمن ، عذر فى التأخر والارعواء من مناجزة الكفار والأعداء . وكتابنا هذا أيها الأمير الأجل ، اعتذار تقوم لنا به الحجة فى جميع البلاد ، وعند ساير العباد ، فى إسلامكم إيانا إلى أهل الكفر والإلحاد ، ونحن مؤمنون ، بل موقنون أجابتك إلى نصرتنا ، وإعدادك إلى الدفاع عن

حضرتنا ، وأنك لا تتأخر عن تلبية ندائنا ، ودعائنا إلى استنقاذنا من أيدى أعدائنا . . فأقبل بعسكرك على مقربة من سرقسطة ، عصمها الله ، ليخرج الجميع عنها ، ويبرأ إلى العدو وقمه الله منها ، ولا تتأخر كيفما كان طرفة عين ، فالأمر أضيق، والحال أزهق ، فعدّبنا عن المطل والتسويف قبل وقوع المكروه والمخوف ، وإلا فأنتم المطالبون عند الله بدمائنا وأموالنا ، والمسئولون عن صبيتنا وأطفالنا ، لإحجامكم عن أعدائنا وتثبطكم عن إجابة ندائنا ، وهذه حال نعيذك أيها الأمير الأجل عنها ، فإنها تحملك من العار ما لم تحمله أحداً ، وتورثك وجميع المرابطين الخزى أبدا . . ومهمى تأخرتم عن نصرتنا ، فالله ولى الثأر لنا منكم ، ورب الانتقام ، وقد بريتم بإسلامنا للأعداء من نصر الإسلام ، وعند الله لنا لطف خفى ، ومن رحمته ينزل الصنع الخفى ، ويغنينا الله عنكم وهو الحميد المغنى "[1]

كتبت هذه الرسالة المؤثرة قبيل سقوط سرقسطة بفترة يسيرة ، وإنه لتبدو من تلك الفقرات التى نقلناها منها ، حقيقة لاشك فيها ، وهى أن جيشاً مرابطياً بقياد الأمير أبى الطاهو تميم ، قدم إلى سرقسطة قبيل سقوطها لاستنقاذها من أيدى النصارى ، وعسكر على مقربة منها ، وتقول إحدى الروايات النصرانية ، إن هذا الجيش قد وصل إلى حصن سانتا ماريا الواقع على بعد ثمانية عشر كيلومتراً من سرقسطة[2] ولكن ما الذى فعل هذا الجيش بالضبط ؟ وهل بذل أية محاولة جدية لاستنقاذ سرقسطة والدخول مع النصارى فى معركة حاسمة ؟ إنه مع استثناء الرواية النصرانية التى أشرنا إليها من قبل ، والتى تقول بأن معركة عنيفة وقعت بين

---

(١) نشرنا هذه الرسالة بأكلها فى باب الوثائق . وقد نقلناها عن مخطوط الإسكوريال رقم ٤٨٨ الغزيرى ، لوحة ٥٩ ا إلى ٦١ ب . هذا وقد نشر هذه الرسالة وانتفع بها من قبل صديق الدكتور حسين مؤنس فى بحث عنوانه « الثغر الأعلى الأندلسى فى عصر المرابطين » (مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة — المجلد الحادى عشر الجزء الثانى ديسمبر سنة ١٩٤٩) . بيد أنه ذهب فى التمهيد إليها (ص ١٣٣) إلى نتيجة نحسب أنها لا يمكن أن تدلى بها ، فذكر أنها بالمقارنة بالوثيقتين الأخريين المنشورتين بعدها ، قد كتبت فى سنة ٥٢٣ هـ أعنى بعد سقوط سرقسطة بإحدى عشر عاماً . هذا فى حين أن نص الرسالة وفقراتها المتوالية تدلى قطعاً بأنها كتبت وقت حصار سرقسطة وقبيل سقوطها بقليل ، فى شهر شعبان سنة ٥١٢ هـ ، ومن الواضح أنها دعوة يائسة موجهة إلى قائد المرابطين يومئذ الأمير أبى الطاهر تميم ، بأن يتقدم بجنده ، وقد كان على مقربة من سرقسطة ، لإنجاد المدينة المحصورة وإنقاذها قبل فوات الوقت وأقطع دليل على صحة هذا الرأى فضلا عن نص الرسالة ذاته ، هو أن الأمير أبا الطاهر تميم قد توفى بقرطبة فى سنة ٥٢٠ هـ (روض القرطاس ص ١٠٦) .

(٢) مقال الأستاذ **Lacarra** السالف الذكر ، نقلا عن المؤرخ **Zurita**

المرابطين والنصارى ، هزم فيها المرابطون ، ثم سلمت المدينة على أثر ذلك ، يبدو مما جاء فى هذه الرسالة ، أن الجيش المرابطى التزم الجمود والإحجام ، ولم يبذل أية محاولة لإنقاذ المدينة ، ثم ارتد بعد ذلك على أعقابه ، وهذا ما يؤيده رواية ابن الأبار التى سبقت الإشارة إليها . ثم يؤيده أيضاً مع اختلاف فى تصوير الوقائع ، ما ورد فى روض القرطاس ، من أنه بعد سقوط سرقسطة ، وصل من العدوة جيش من عشرة آلاف فارس ، بعثة أمير المسلمين على لاستنقاذها ، فوجدها قد فرغ منها وملكها العدو ، ونفذ حكم الله فيها[1] .

— ٤ —

وإنه ليحق لنا أن نتساءل بعد ذلك عن البواعث التى حملت قائد الجيش المرابطى الأمير أبا الطاهر تميما ، على اتخاذ هذا الموقف السلبى ، فى مثل هذه الآونة العصيبة من حياة المدينة المسلمة العظيمة ، وحملت الجيش المرابطى على الإحجام عن لقاء العدو فى محاولة يائسة لإنقاذها . فأما من الناحية العسكرية ، فإنه يمكن أن يقال إن ذلك قد يرجع إلى تفوق النصارى فى الكثرة على الجيش المرابطى ، تفوقاً خشى معه الأمير تميم أن يدخل فى معركة غير مأمونة العواقب . وتميم لم يكن من أكابر القادة المرابطين ، وإنما كان يقود الجيش بصفته الأميرية ، ولم يكن انتصاره ، فى موقعة أقليش راجعاً إلى مقدرته وصفاته الخاصة ، وإنما كان راجعاً بالأخص إلى شجاعة قائديه المحربين محمد بن عائشة ، ومحمد بن فاطمة ، ولولاهما لما اشتبك فى المعركة ولآثر الارتداد . وكان الجيش المرابطى قد فقد إلى ذلك الحين معظم قادته العظام ، أمثال سير بن أبى بكر ، ومزدلى ، وعبد الله بن فاطمة ، ومحمد بن الحاج ، ويمكن أن يقال أيضاً إن موقع سرقسطة بعيداً عن مراكز تموين الجيش المرابطى وإمداده فى بلنسية ومرسية وقرطبة ، لم يكن مما يشجع على القيام بأية محاولة عسكرية خطيرة .

على أن هذه الأعذار العسكرية وأمثالها ، لم تكن تكفى لتبرير موقف الجيش المرابطى ، وإحجامه عن القيام بعمل إنقاذ مشرف ، واتقائه بذلك صدع هيبته فى أنحاء شبه الجزيرة ، ولوم التاريخ والأجيال . وإنما قد ترجع البواعث الحقيقية لتقاعس المرابطين عن المغامرة بإنقاذ سرقسطة ، إلى أنهم كانوا يشعرون بأن الاحتفاظ بهذه المنطقة النائية من شبه الجزيرة — منطقة الثغر الأعلى — كان يلقى

(١) روض القرطاس ص ١٠٦ .

عليهم مسئوليات عظيمة ، لوقوعها بين أعداء أقوياء يتربصون بها باستمرار ، وأن سرقسطة لم تكن بظروفها وروح شعبها كثيرة الولاء لحكمهم ، ومن ثم فإن المرابطين لم يعنوا فيما يبدو ، بأن يتجشموا فى سبيل إنقاذها تضحيات عسكرية عظيمة .

وهكذا تركت سرقسطة لمصيرها ، واضطرت بعد أن عانت من أهوال الحصار ، وعصف الجوع والحرمان والمرض ، أشنع الخطوب والمحن ، وبعد أن يئس أهلها من إجابة صريخهم ، وتلقى الإنجاد من أى مكان ، أن تخاطب ألفونسو (ابن رذمير) أن يمنح أهلها هدنة موقتة (لم تعين لنا الرواية مدتها) ، فإذا لم يأتهم الإنجاد المنشود ، سلمت إليه المدينة ، وتعاهد الفريقان على ذلك ، ثم مضى هذا الأجل دون أن يتلقّ المحصورون أية معونة ، فاضطرت المدينة إلى التسليم[1].

وتلحص الرواية العربية الوحيدة — وهى رواية ابن الكردبوس — شروط هذا التسليم فيما يلى :

أن تسلم سرقسطة إلى ملك أراجون (ابن رذمير) ، ومن أحب المقام بها من أهلها فاه ذلك ، على أن يؤدى جزية خاصة ، ومن أحب أن يرحل إلى حيث شاء من بلاد المسلمين ، رحل وله الأمان التام ، وعلى أن يسكن الروم (الأرجونيون والفرنج) المدينة ، والمسلمون ربض الدباغين ، وعلى أن كل أسير يفلت للروم من المدينة ويحصل عند الإسلام ، فلا سبيل لمالكه إليه ولا اعتراض له عليه .

وقد كان ربض الدباغين من أحياء سرقسطة المتطرفة ، ويقع على ضفة النهر اليمنى ، حسبما يبدو ذلك من أقوال ابن عذارى التى تقدم ذكرها . وكانت سياسة الملوك النصارى ، فيما يتعلق بمن يبقى من السكان المسلمين فى المدن المفتوحة ، هو أن يسمح لهم بالبقاء فى منازلهم داخل المدينة لمدة سنة أو نحوها ، ثم يلزمون بعد ذلك بالانتقال إلى الأرباض ، وهى الأحياء المتطرفة أو الضواحى ، وقد منح سكان سرقسطة وفقاً للرواية النصرانية هذا الامتياز بالبقاء فى أحيائهم داخل المدينة مدى عام ، ينتقلون بعده إلى ربض الدباغين ، وغيره من الأرباض الخارجية ، وهذا هو ما اتبع فيما بعد فى عهود تطيلة وطرطوشة وغيرهما من قواعد الثغر المفتوحة .

ويضيف ابن الكردبوس إلى ما تقدم ، أنه ما كاد ملك النصارى يستقر بالمدينة ، حتى غادرتها كثرة أهلها المسلمين ، وأنه لما شهد جموعهم الزاخرة ركب بنفسه إليهم ، وأمرهم أن يبرزوا جميع ما لديهم ، فأبرز الفارون أموالا لا تحصى ، ولكنه

(١) روض القرطاس ص ١٠٦ .

بعد أن رآها سمح لهم بالاحتفاظ بها ، وتركهم يسيرون إلى حيث شاءوا فى أمان ، ووجه معهم من رجاله من يشيعهم إلى داخل أعماله ، ولم يأخذ منهم سوى مثقال واحد عن كل أحد من الرجال والنساء والأطفال[١] .

وتضع الرواية الإسلامية تاريخ تسليم سرقسطة فى يوم الأربعاء الثالث من شهر رمضان سنة ٥١٢ هـ : وهو يوافق ١٨ ديسمبر سنة ١١١٨ م[٢] ، وتضع الرواية النصرانية هذا التاريخ فى يوم ١١ ديسمبر ، أوفى ١٨ ديسمبر[٣] . ودخل ألفونسو الأرجونى وحلفاؤه المدينة ، بعد أن قطع لأهلها المسلمين العهود المذكورة ، وسمح لهم مدى فترة قصيرة باستبقاء قاضيهم ابن حفصيل ، وبالإحتكام إلى شريعتهم . ولكن مسجد سرقسطة الجامع ، حول منذ السادس من يناير سنة ١١١٩ م إلى كنيسة سلمها ألفونسو المحارب إلى الرهبان البرناردين ، وسميت كنيسة لاسيو La Seo أى الكنيسة العظمى . وفى رواية أخرى أن مسجد سرقسطة الجامع لم يحول إلى كنيسة إلا بعد ذلك بثلاثة أعوام فى أكتوبر سنة ١١٢١ م ، وأنه حول عندئذ إلى كنيسة سميت باسم « سان سالبادور » San Salvador[٤] ، وجعلت سرقسطة عاصمة مملكة أراجون ، وجعل منها مركز لأسقفية ، ومنح سكانها النصارى امتيازات الأشراف ، وعين الكونت جاستون دى بيارن « سيدا » للمدينة المفتوحة فى ظل ألفونسو ، وأقطع الحى الذى كان يقطنه النصارى المعاهدون ، وعهد إليه بالإشراف على توزيع الغنائم على الجند الفاتحين ، وكوفئ سائر الفرسان الذين عاونوا فى الفتح[٥] .

وهكذا سقطت سرقسطة ، بعد أن حكمها المسلمون منذ الفتح أكثر من أربعة قرون ، وبعد أن لعبت فى تاريخ الثغر الأعلى الأندلسى ، أعظم دور ، سواء من الناحية العسكرية أو السياسية أو الحضارية .

ولما سقطت الحاضرة الإسلامية ، ودخلها النصارى ، غادرها معظم أعيانها

---

(١) ابن الكردبوس فى كتاب « الاكتفاء » (مخطوط أكاديمية التاريخ لوحة ١٦٤ ا) .

(٢) ابن الأبار فى الحلة السيراء ص ٢٢٥ ، والبيان المغرب (الأوراق المخطوطة السابقة الذكر) . وذكر المقرى أنه كان فى يوم الأربعاء الرابع من رمضان (نفح الطيب ج ٢ ص ٥٨٥) .

(٣) راجع مقال الأستاذ **Lacarra** السالف الذكر حيث يشير إلى الروايات النصرانية .

(٤) مقال الأستاذ **Lacarra** السالف الذكر .

(٥) **M. Lafuente: ibid; V. III. p. 238** . وكذلك « تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين » ترجمة محمد عبد الله عنان ، الطبعة الثانية ، ص ١٤٥ .

وأكابرها المسلمين ، من الحكام والعلماء والقضاة وغيرهم ، على نحو ما وقع عند سقوط طليطلة . ويقول لنا ابن الكردبوس، إن من غادرها من أهلها عند دخول النصارى بلغ خمسين ألفاً ، بيد أنه يبدو هذا العدد مبالغ فيه . ولما رأى ملك أراجون كثرة المهاجرين من المسلمين فيما بعد ، وخشى أن ينهار عمران المدينة ، أصدر أمره بمنع هجرة المسلمين إلا بإذن خاص ، وكان المهاجرون يقصدون بالأخص بلنسية ، وقواعد شرق الأندلس .

وكان سقوط سرقسطة ، بعد سقوط طليطلة ، ضربة جديدة قاصمة للأندلس ، وكان نذيراً بسقوط باقى قواعد الثغر الأعلى فى يد مملكة أرجوان ، التى لم تكن منذ ربع قرن تشغل سوى رقعة صغيرة فى شمالى مملكة سرقسطة ، ثم أخذت تنمو بسرعة على حساب المملكة الإسلامية ، ثم كان نذيراً فى نفس الوقت بتصدع الجبهة الدفاعية فى شمالى شرق الأندلس ، وهى التى كانت سرقسطة معقدها المنيع ، ومن ذلك الحين تواجه منطقة بلنسية ، خطر العدوان النصرانى المباشر من الشمال ، كما كانت تواجهه من الغرب . وأخطر من ذلك كله ما أصاب هيبة المرابطين العسكرية بسبب هذه الضربة من تصدع وانهيار ، وقد كانت هذه الهيبة ، منذ الزلاقة ثم أقليش فى أوج قوتها ، ثم أخذت منذ أقليش تخبو شيئاً فشيئاً ، حتى جاء سقوط سرقسطة فأصابها بأول ضربة حقيقية ، هزت من أركانها فى أنحاء شبه الجزيرة . ومن ذلك الحين تضطرم اسبانيا النصرانية ضد المرابطين بروح مضاعف من التحدى والعدوان والثقة بالنفس .

— ٥ —

وما كاد ألفونسو المحارب يستقر فى سرقسطة وينظم شئونها ، حتى اعتزم أن يتابع ظفره بافتتاح ما بقى من قواعد الثغر الأعلى ومعاقله ، وكانت تطيلة قد سقطت فى يده قبيل سقوط سرقسطة بنحو عامين فى سنة ١١١٧م (٥١١ هـ) ، فسار فى قواته نحو طرسونة الواقعة جنوب غربى تطيلة واستولى عليها ، وأعاد بها مركز الأسقفية القديمة ، ثم سار منها إلى برجة[1] الواقعة فى جنوب تطيلة ، واستولى عليها ، وافتتح عدة أخرى منه الحصون والبلاد الواقعة فى تلك المنطقة ، ومنها ألاجون ، ومالن ، ومجايون وأبيلا وغيرها ، وتمت هذه الفتوح كلها فى سنة ١١٢٠م

---

(١) طرسونة من بالاسبانية **Tarazona** وبرجه هى **Borja**

(٥١٣ هـ)[1]. ثم عبر ألفونسو جبال سيرا مولينا التى تفصل بين أراجون وقشتالة ، وزحف على قلعة أيوب وكانت من أمنع ما بقى من معاقل الثغر الأعلى ، فاستولى عليها كذلك . وكانت أنباء هذه المحن المتوالية ، التى نزلت بمسلمى الثغر الأعلى ، وتوالى سقوط قواعده فى أيدى النصارى ، قد وصلت إلى أمير المسلمين على بن يوسف ، فاهتم لها ، وكتب إلى أخيه الأمير أبى إسحق ابراهيم بن يوسف ، والى إشبيلية منذ وفاة واليها السابق القائد محمد بن فاطمة فى سنة ٥١١ هـ ، بتجهيز الجيوش ، والمبادرة إلى السير لقتال ملك أراجون (ابن ردمير) ، ووضع حد لعدوانه ، وكتب فى نفس الوقت إلى القادة والرؤساء بالأندلس أن ينهضوا بقواتهم مع أخيه ، وأن يكونوا تحت إمرته . فحشد إبراهيم قواته ، ووافته قوات قرطبة بقيادة واليها ابن زيادة ، وقوات غرناطة بقيادة واليها الأمير محمد بن تينغمر اللمتونى ، وقوات مرسية بقيادة أبى يعقوب ينتان بن على ، وجماعة أخر من الرؤساء والقادة ، وعدد كبير من المتطوعة . وسار الأمير إبراهيم فى هذه القوات الحرارة صوب الشمال . وكان ألفونسو قد انتهى وفقاً لبعض الروايات من افتتاح قلعة أيوب ، وصار منها لافتتاح دروقة قرينتها فى المنعة والأهمية ، والواقعة فى جنوبها . وفى رواية أخرى أنه لم يكن قد انتهى بعد من افتتاح قلعة أيوب ، حينما اقتربت منه الجيوش المرابطية . وكان ألفونسو حينما علم بتحرك المرابطين وسيرهم إلى قشتالة قد استقدم سائر قواته ، واجتمع له وفقاً لأقوال الرواية الإسلامية زهاء اثنى عشر ألف فارس ، غير المشاه والرماة وهم جموع غفيرة لا تحصى . ووقع اللقاء بين المسلمين والنصارى فى ظاهر بلدة صغيرة تسمى كَتَنْدة أو قَتُنْدة على مقربة من دورقة ، وذلك فى الرابع والعشرين من شهر ربيع الأول — وعلى قول آخر ربيع الثانى — سنة ٥١٤ هـ (يونيه أو يوليه سنة ١١٢٠ م) . ونشبت بين الفريقين معركة عنيفة ، كانت الدائرة فيها على المسلمين ، فهزموا هزيمة شديدة ، أو « هزيمة منكرة » على قول ابن الأثير وكثر القتل فيهم ، وسقط منهم فى ميدان القتال ، وفقاً لأقوال الرواية الإسلامية نحو عشرين ألفاً من المتطوعة ، وتنوه الرواية الإسلامية بنوع خاص بمن استشهد فى الموقعة من العلماء والفقهاء ، وفى

---

(١) روض القرطاس ص ١٠٦ ، وكذلك **M. Lafuente : ibid; V. III. p. 238** . ونقل المقرى عن ابن اليسع أن تطيله وطرسونة قد سقطتا فى أيدى النصارى فى سنة ٥٢٤ (١١٢٠ م) وهذا مناقض لما يذكره روض القرطاس وتؤيده الرواية النصرانية من أن سقوط طرسونة وغيرها من معاقل الثغر الأعلى كان فى سنة ٥١٣ هـ (١١٢٠ م) .

مقدمتهم العلامة أبو على الصدفى ، وأبو عبد الله بن الفراء قاضى ألمرية ، وارتد الأمير إبراهيم بن يوسف فى فلول الجيش المرابطى إلى بلنسية[١] . وكانت نكبة جديدة ساحقة لاسبانيا المسلمة ، ولهيبة المرابطين العسكرية . ومما هو جدير بالذكر أن الأمير إبراهيم هذا الذى قاد المرابطين فى تلك الموقعة ، هو الذى ألـّف الفتح بن خاقان باسمه كتابه « قلائد العقيان » وأهداه إليه فى مقدمته ، فى عبارات فخمة رنانة[٢] .

وعلى أثر الموقعة استولى ألفونسو على قلعة دروقة ، وأنشأ على مقربة منها ، عند منابع نهر « خلوكا » محلّة جديدة محصنة ، سميت قلعة « مونريال » ، لتكون حاجزاً لصد الجيوش الإسلامية ، التى تنساب من طرق مرسية وبلنسية ، ولتكون فى نفس الوقت منزلا لجمعية دينية جديدة من الفرسان ، أسست لحماية الدين .

---

(١) تراجع فى حوادث موقعة كتندة ، ابن الأثير ج ١٠ ص ٢٠٨ ، وابن عذارى فى البيان المغرب (الأوراق المخطوطة السالفة الذكر) والمقرى فى نفح الطيب ج ٢ ص ٥٨٠ . وكذلك ابن الأبار فى كتابه « المعجم فى أصحاب الإمام القاضى أبى على الصدفى » (المكتبة الأندلسية — المجلد الرابع ص ٧) . ومن المراجع القشتالية : **F. Codera; ibid; p. 262-267, M. Lafuente: ibid; Vol. III. p. 239**

(٢) كتاب قلائد العقيان — المقدمة — ص ٣ و ٤ .

الفصل الرابع

الصراع بين ألفونسو المحارب وبين المرابطين

النصارى المعاهدون. موقفهم من الحكومة الإسلامية . تحفزهم للإيقاع بالمسلمين. نصارى غرناطة . هدم كنيستهم فى قولجر . اتصالهم بألفونسو المحارب وتحريضه على غزو الأندلس . خروج ألفونسو إلى الغزو . اختراقه أراضى الثغر إلى بلنسية . مسيره إلى جزيرة شقرفدانية فشاطبة . اختراقه لأراضى مرسية حتى بسطة ثم وادى آش . تأهب المرابطين لرد النصارى وإحاطتهم بغرناطة . وصف ابن الصيرفى لأحوال المدينة . انضمام المعاهدين للجيش الأرجونى . مسير ألفونسو نحو الشمال . ملاحقة الجيوش المرابطية له . نشوب المعركة فى فحص الرنيسول بين المسلمين والنصارى . مسير ألفونسو إلى الجنوب حتى شلوبانية . عوده صوب غرناطة فوادى آش . المناوشات المستمرة بينه وبين المسلمين . اتجاهه نحو مرسية فبلنسية . انحلال قواته وعوده إلى بلاده . ما تدل عليه غزوة ألفونسو المحارب . ضعف الدفاع عن الأندلس . خطر النصارى المعاهدين . معاقبتهم بالتغريب وفقاً لفتوى ابن رشد . التعتيب والأسوار بالأندلس . نشاط الغزو النصرانى بالثغر الأعلى . عودة ألفونسو المحارب إلى غزو أراضى بلنسية . موقعة القلاعة . رواية ابن القطان . الوثائق الرسمية المرابطية عن الموقعة . كتاب أمير المسلمين لأهل بلنسية . ألفونسو يشغل بالحرب فى قشتالة وفرنسا . نشاط المرابطين فى غزو أراضى الثغر . تحفز ألفونسو لافتتاح قواعد الثغر الباقية . زحفه على مكناسة واستيلاؤه عليها . زحفه على مدينة إفراغة . مبادرة المرابطين إلى مدانعتة . محاصرته لإفراغه وتصميمه على أخذها . وصول الجيوش المرابطية بقيادة ابن غانية . نشوب المعركة الحاسمة بين الفريقين تحت أسوار إفراغة . الهزيمة الساحقة على النصارى . موت ألفونسو المحارب وما يقال حوله . أهمية النصر المرابطى وآثاره . ألفونسو المحارب وخلاله . تأملات حول موقف المرابطين بعد نصر إفراغة . بنوهود يستقرون فى روطة . عماد الدولة بن هود . ولده سيف الدولة . انضواؤه تحت حماية ملك قشتالة . نزوله له عن قاعدة روطة . بعض الروايات الخاصة بذلك . نهاية رياسة بنى هود .

١ — غزوة ألفونسو الكبرى للأندلس

لم تمض بضعة أعوام على سقوط سرقسطة ، حتى وقعت بالأندلس حادثة عدوان لم يسبق لها مثيل فى تاريخ الغزوات النصرانية ، من حيث اتساع نطاقها ، وخطورة العوامل الموجهة لها ، ونعنى بذلك الغزوة الكبرى التى قام بها ألفونسو المحارب ملك أراجون فى قلب الأندلس ، بناء على تحريض النصارى المعاهدين .

ولقد تحدثنا من قبل ، فى كتابنا « دول الطوائف» عن أحوال النصارى المعاهدين ، وظروف حياتهم فى ظل الحكومات الإسلامية المتعاقبة ، منذ عصر الإمارة والخلافة ، ثم فى ظل دول الطوائف ، وأشرنا إلى ماكانت تتمتع به

طوائف المعاهدين ، فى ظل هذه الحكومات الإسلامية ، من ضروب الرعاية والتسامح ، والتمتع بمزاولة شعائرهم ، وتقاليدهم ، والاحتكام إلى قوانينهم وقضاتهم ، والتحدث بلغتهم الخاصة ، دون حيف أو ضغط متعمد يلحق بهم ، ودون مطاردات دينية من أى نوع تعصف بأمنهم وسلامهم ، وأنهم كانوا يؤلفون فى مختلف القواعد الإسلامية ، مجتمعات متقدمة مزدهرة ، ويشغلون فى أحيان كثيرة فى القصر وفى الحكومة ، مناصب النفوذ والثقة ، وإن كانت التواريخ النصرانية تؤثر مع ذلك كله ، أن تقدم إلينا مجتمع المعاهدين فى صور قاتمة ، وتزعم بأنهم كانوا ضحية الجور والإرهاق ، يعانون من ضغط الحكومة الإسلامية المادى والأدبى ، فى صور وأوضاع شتى .

وقد أشرنا فى نفس الوقت إلى ما كان يتسم به أولئك النصارى المعاهدون من نكران الصنيعة ، وعدم الولاء للحكومات الإسلامية ، بالرغم مما كانت تحيطهم به من ضروب الرعاية والتسامح ، وكيف أنهم لم يدخروا دائماً وسعاً فى الكيد لها ، والتآمر على سلامتها ، ومداخلة أعدائها النصارى الإسبان ، وتحريضهم عليها ، ومعاونتهم على الإيقاع بها فى كل فرصة سانحة ، وضربنا لذلك عديد الأمثلة التاريخية ، التى تسجل على النصارى المعاهدين أعمال الخيانة والغدر ، والتآمر مع أعداء الأندلس المسلمة على القضاء عليها[1] .

ولما سقطت سرقسطة فى أيدى النصارى ، وتوالت انتصارات ألفونسو المحارب ، وتوالت محن المسلمين فى الثغر الأعلى ، وظهر التخاذل على الجيوش المرابطية ، أخذت طوائف المعاهدين فى التحفز ، ولاح لها أنها تستطيع أن تعمل عملا مثمراً لضرب الأندلس ، بالتفاهم مع عاهل الثغر الأعلى ، وإمداده بما وسعوا من ضروب الإمداد والعون .

وكان أشد طوائف المعاهدين نشاطاً فى تدبير هذه المؤامرة الكبرى ، نصارى ولاية غرناطة ، وكانوا من أكبر طوائف المعاهدين عدداً ، وأغناهم مالا ، وأكثرهم ازدهاراً ومقدرة ونفوذاً ، وكانت لهم خارج غرناطة ، تجاه باب إلبيرة ، فى طريق قرية قولجر ، كنيسة عظيمة شامخة ، فريدة فى العمارة والطراز ، فلما استولى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين على غرناطة ، خاطبه الفقهاء فى

(١) يراجع الفصل الخاص بذلك من كتاب « دول الطوائف » ص ٣٩٥ — ٤٠١ .

هدمها لما يدلى به صرحها الشامخ من تطاول المعاهدين ، فأمر بتحقيق رغبتهم ، وخرج أهل غرناطة لهدم الكنيسة المذكورة ، فى آخر جمادى الآخرة سنة ٤٩٢ هـ ، فصيرت فى الحال ركاما ، وغدت قاعا صفصفا[١] .

ويحاول دوزى أن يصور هذا الحادث — هدم الكنيسة — فى صورة اضطهاد عام أنزله المرابطون بالنصارى المعاهدين ، ويقول لنا إن هذا الاضطهاد شمل هدم الكنائس بصفة عامة ، وشمل أيضاً أشياء أخرى لا يستطيع أن يتكهن بها ، لأن الرواية الإسلامية تلتزم الصمت إزاء ذلك ، ومن ثم فإنه يحاول أن يصور لنا استدعاء النصارى المعاهدين لألفونسو المحارب فى صورة الإستغاثة والانتقام لما نزل بهم من صنوف الاضطهاد المضنى[٢]. ويتابعه فى هذا المعنى المستشرق الإسبانى سيمونيت ، فيقول لنا إن نصارى مملكة غرناطة ، كان قد وقع عليهم اضطهاد شديد من جراء تعصب المرابطين ، فهدمت كنائسهم ، وطورد قساوسهم وانتهكت رسومهم ، وبعد أن صبروا على هذا الاضطهاد أعواماً ، اعتزموا أن يطلبوا عون الملك ألفونسو المحارب ، وكان قد اشتهر فى أنحاء شبه الجزيرة بقوته وفتوحاته وانتصاراته ضد الكافرين (يريد المسلمين)[٣] . ولكن سنرى أن هذا الاستدعاء لملك أراجون ، وما اقترن به من صنوف الاستعداد والتحفز الخطر ، لم يكن كما قدمنا ، سوى مؤامرة كبرى دبرها النصارى المعاهدون لضرب الأندلس المسلمة فى الصميم .

ذلك أنه لما ترددت أصداء انتصارات ألفونسو المحارب ، فى جنبات الأندلس ، وشعر المعاهدون بأن فرصة العمل قد سنحت ، بعثوا إليه بكتبهم ورسلهم المتوالية ، يلحون عليه فى غزو الأندلس وافتتاح غرناطة . وقد كانت غرناطة حسبما تقدم قاعدة الحكم المرابطى فى الأندلس ، وكان لهذه الصفة فيما يبدو أثرها فى قيام المعاهدين بها ، بالدور الرئيسى فى هذه المؤامرة . وبعث أولئك المعاهدون إلى ألفونسو زماما يشتمل على أسماء اثنى عشر ألفاً من أنجاد مقاتليهم ، على أهبة لمعاونته ، وأنه يوجد غيرهم جموع غفيرة مستترة على قدم الأهبة ، وبعثوا إليه فى نفس الوقت بأوصاف غرناطة ، وما تشتمل عليه من الثروات والمحاصيل الجمة ،

---

(١) الإحاطة فى أخبار غرناطة لابن الخطيب (القاهرة ١٩٥٦) ج ١ ص ١١٤ .

(٢) Dozy : Recherches. V. I. p. 348 & 349

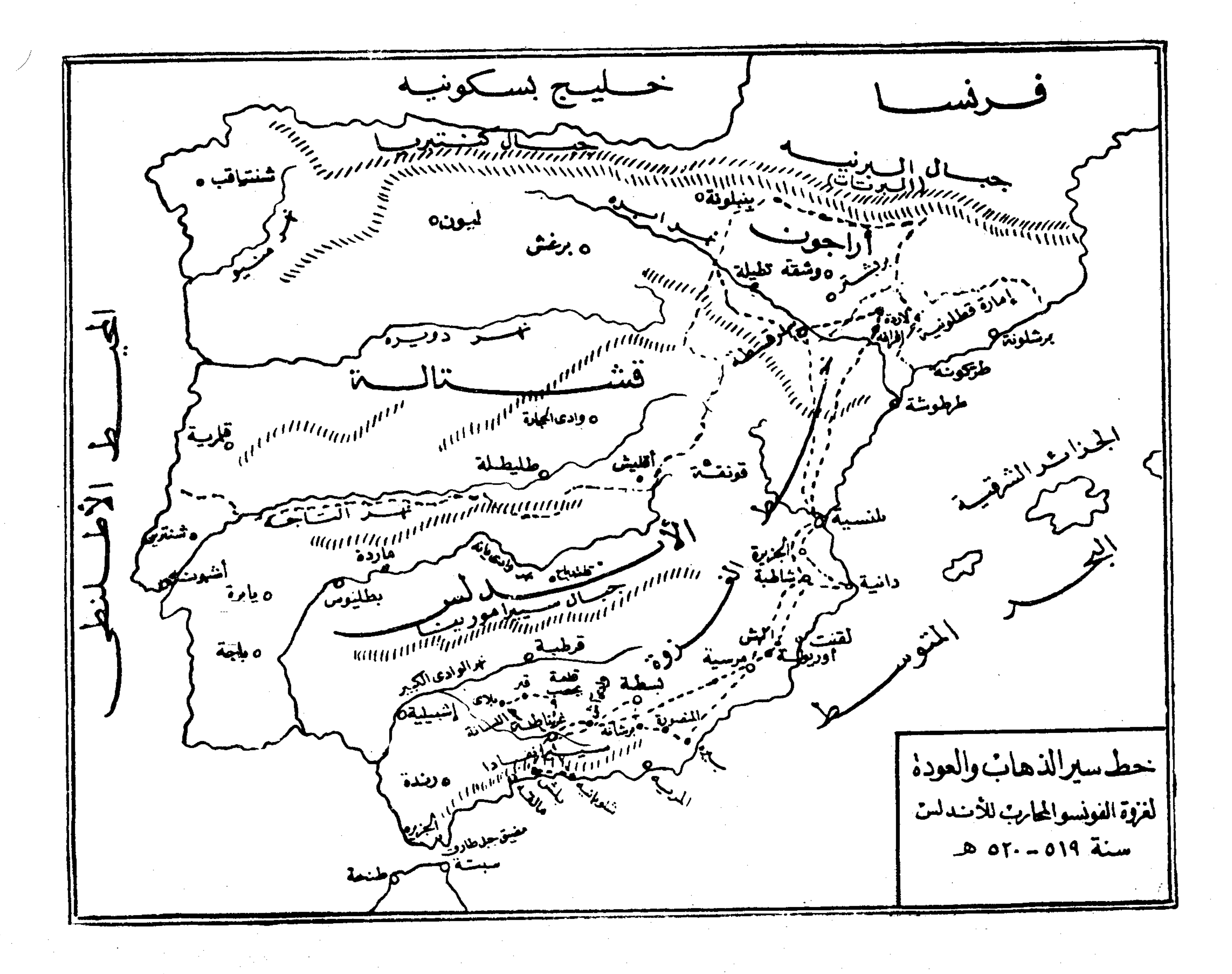
(٣) F. J. Simonet : Historia de los Mozárabes de Espana, p. 745

والعيون والأنهار الغزيرة ، وما تمتاز به من حسن الموقع ، وروعة العمارة ، وازدهار العمران ، وكونها عاصمة الأندلس . وكان لهذه الدعوة المقرونة بالعون والإنجاد ، وهذا الإغراء بصفات الحاضرة الإسلامية التالدة ، أثرها فى نفس ألفونسو المحارب ، وفى شحذ همته ، وإذكاء أطماعه ، وكان يشعر عندئذ أن الظروف ممهدة ، وأن تضعضع قوى المرابطين منذ موقعة كتُندة ، مما يسهل له السبيل إلى اختراق الأندلس ، وتحقيق الغاية المنشودة .

فخرج من سرقسطة فى أول شعبان سنة ٥١٩ هـ (سبتمبر سنة ١١٢٥ م) فى قوة مختارة من أربعة آلاف ، وقيل فى خمسة آلاف فارس مع أتباعهم من الرجّالة والرماة ، وقد بلغوا خمسة عشر ألفاً ، وكان معه الكونت جاستون دى بيارن الذى اشترك فى حملة سرقسطة ، وفى ركبه عدد من رجال الدين فى مقدمتهم أسقفا سرقسطة ووشقة ، وقد تعاهدوا جميعاً وتحالفوا بالإنجيل على ألا يفر أحد منهم[١] ، وهكذا كان للحملة طابعها الصليبى ، الذى طبع سائر الغزوات والحملات النصرانية ، منذ حصار سرقسطة . وسار ألفونسو بحملته شرقاً ، واخترق أراضى لاردة وإفراغه الإسلامية ، وهو يعيث فيها ، ثم انحرف جنوبا ودخل أراضى مملكة بلنسية ، وهو ينسف الزروع ويحرق القرى ، وقاومته فى بلنسية قوة مرابطية ، بقيادة أبى محمد يدّر بن ورقاء (أواخر شهر رمضان) ، وكان من الصعب أن تجتمع القوات المرابطية للوقوف فى وجهه ، لأنه حرص على إخفاء وجهته الحقيقية ، ولبث طول الوقت متحركاً فى قواته . وفى أثناء ذلك كانت جموع المعاهدين تهرع إلى الانضمام إليه حيثما وجد ، حتى اجتمعت له إعداد وفيرة ، وكانوا يدلونه على الطرق والمسالك ، ويكشفون له مواطن الضعف لدى المسلمين ، فى المدن والحصون التى يمر بها . ولما غادر بلنسية سار منها إلى جزيرة شُقْر فقاتلها أياماً ، ثم رحل منها إلى دانية ، فعاث فى واديها ، وقاتلها ليلة عيد الفطر من هذه السنة ، واستمر فى مسيره مخترقاً شرقى الأندلس مرحلة مرحلة ، ومنازلا سائر قواعده وحصونه ، ماراً بشاطبة ، وألش وأوريولة ، حتى وصل إلى مرسية ، ثم اجتاز منها إلى بيرة ، فالمنصورة ، فبرشانة ، حيث توقف أياما . ثم سار إلى مدينة بسطة ، وحاول منازلتها وافتتاحها ، لسهولة موقعها ، وضعف

---

(١) الحلل الموشية ص ٦٧ . وهو الذى يأخذ بالتقدير الأول . ويأخذ ابن عذارى فى البيان المغرب بالتقدير الثانى (الأوراق المخطوطة السالفة الذكر – هسبيرس ص ٨٣) .



خط سير الذهاب والعودة
لغزوة الفونسو المحارب للأندلس
سنة ٥١٩ - ٥٢٠ هـ

تحصيناتها ، ولكنه لم ينجع ، فغادرها إلى وادى آش ، ونزل بقرية القصر القريبة منها ، وأخذ ينازل منها وادى آش ، ويقاتلها أياماً ، وذلك فى أوائل شهر ذى القعدة من السنة المذكورة ، واستمر فى محاولته زهاء شهر ، ولكنه لم ينل منها مأرباً .

وهنا نجد وصفاً دقيقاً لبقية هذه الغزوة الحربية فى أقوال مؤرخ غرناطى معاصر تقريباً ، هو أبو بكر ابن الصيرفى كاتب الدولة المرابطية ومؤرخها فى كتابه « الأنوار الجلية فى أخبار الدولة المرابطية » ، وهو مؤلف لم يصـــل مع الأسف إلينا ، ولم نتلق منه سوى شذور يسيرة ، على يد بعض المؤرخين اللاحقين ، مثل ابن عذارى ، وابن الخطيب ، وصاحب الحلل الموشية[1] .

يقول لنا ابن الصيرفى ، إنه لما اقترب ألفونسو المحارب بقواته من غرناطة ، تناجى النصارى المعاهدون بغرناطة باستدعائه ، فافتضح تدبيرهم ، وهمَّ أميرها باعتقالهم ، فأعياه ذلك ، وتسلل المعاهدون من كل صوب إلى محلة الغزاة ، وكان المشرف على شئون الأندلس يومئذ الأمير أبو الطاهر تميم ، وقاعدته كما هو معروف بغرناطة ، فحشد سائر قواته ، وأمده أخوه أمير المسلمين على بجيش وفير ، وكان حينما سمع بعدوان ابن رذمير ، قد أمر بإعداده فى العدوة ، وعبوره إلى الأندلس على وجه السرعة ، وانضمت إليه قوات مرسية وإشبيلية ، وأحاطت الجيوش المرابطية الحرارة بغرناطة ، حتى صارت كالدائرة ، وصارت المدينة فى وسطها كالنقطة . وتحرك ألفونسو من وادى آش ، ونزل بقرية دجمة غربى وادى آش ، فى منتصف المسافة بينها وبين غرناطة ، فاشتد القلق بغرناطة ، وصلى الناس صلاة الخوف يوم عيد النحر ، واستعدوا بالسلاح . ويصف ابن عذارى حال غرناطة فى قوله : « وجاءت الطلائع منبئة . . وانقطعت السابلة والواردة ،

---

(١) ترجم لنا ابن الخطيب لابن الصيرفى فى الإحاطة ، فقال هو « يحيى بن محمد بن يوسف الأنصارى يكنى أبا بكر ويعرف بابن الصيرفى ، من أهل غرناطة ، كان نسيج وحده فى البلاغة والجزالة والتبريز فى أسلوب التاريخ والتملى من الأدب والمعرفة باللغة والخبر . قال أبو القاسم (الملاحى) ، من أهل المعرفة بالأدب والعربية واللغة والتاريخ ، ومن الكتاب المجيدين والشعراء المطبوعين المكثرين . كتب بغرناطة عن الأمير أبى محمد تاشفين ، وله فيه نظم حسن . وألف فى تاريخ الأندلس كتاباً سماه « الأنوار الجلية فى أخبار الدولة المرابطية » ضمنه العجائب إلى سنة ثلاثين وخمسمائة ، ثم وصله إلى قرب وفاته . وكتابا آخر فى ذلك سما « قصص الأنبياء ، وسياسة الرؤساء » . توفى بغرناطة فى حدود السبعين وخمسمائة (مخطوط الإحاطة بمكتبة الإسكوريال رقم ١٦٧٣ الغزيرى لوحة ٤١٥) .

وقلت المرافق ، وتزاحم الناس فى المدينة [وسكنت] المساجد والمصاطب ، والرحاب ، وكثر الجزع والإرجاف والموجان .. والأسوار معمورة بأهل البلدة ، وليس فى الدور غير الصبية والنسوة »[١]. وفى ظهر اليوم التالى وصل النصارى إلى مقربة من شرق المدينة ، وكان عددهم قد بلغ عندئذ زهاء خمسين ألفاً ، ونشب القتال بينهم وبين المسلمين . قال ابن الصيرفى : « وتوالى الحرب على فرسخين منها ، وقد أجلى السواد ، وتزاحم الناس بالمدينة ، وتوالى الجليد ،وأظلت الأمطار» . ولبث ألفونسو بحملته بضع عشرة ليلة ، وهو ملتزم السكون بسبب الجليد والأمطار ، والمعاهدون يمدونه بالأقوات والمؤن . ثم أقلع عن غرناطة ، وقد ارتفع طمعه عنها ، لما لمسه من وفرة الجيوش المدافعة عنها ، وذلك فى يوم ٢٦ ذى الحجة سنة ٥٢٠ هـ (٢١ يناير سنة ١١٢٧م) ، وأنحى ألفونسو باللائمة على المعاهدين ، وزعيمهم ابن القلاّس ، لتقاعسهم ، وعدم وفائهم بما التزموه، فردوا اللوم إليه، واحتجوا ببطئه وتلومه حتى تلاحقت الجيوش، وأنهم قد أضحوا بذلك عرضة للهلاك على يد المسلمين . وسار ألفونسو إلى قرية مرسانة ، ثم إلى بيش[٢] ثم اتجه شمالا إلى قلعة يحصب ، ثم انحدر غرباً نحو قبرة واللسانة[٣] والجيوش الإسلامية تلاحقه ، وتناوشه فى معارك صغيرة ، وكانت قوات إشبيلية قد تحركت عندئذ بقيادة واليها الأمير أبى بكر ابن أمير المسلمين ، وانضمت إلى باقى الجيوش المرابطية فى مطاردة العدو . ثم أقام ألفونسو بقبرة أياماً ، وسار منها إلى بلاى[٤] فاللسانة ثم انحدر جنوبا ، والمسلمون فى أثره حتى قرية شيجة[٥] القريبة من غرناطة ، وهنالك فى فحص الرينسول[٦] وقعت بينه وبين المسلمين معركة ، كان فيها الظهور فى البداية للمسلمين . ولما جن الليل وقع فى المعسكر الإسلامى حادث أثار فيه الاضطراب . وذلك أن الأمير تميما أمر بنقل خبائه ، من وهدة

---

(١) البيان المغرب (الأوراق المخطوطة السالفة الذكر — هسبيرس ص ٨٤) .

(٢) مرسانة وبالإسبانية **Maracena** وبيش وبالإسبانية **Beas** قريتان من أعمال غرناطة تقع الأولى فى شمالها الشرق والأخرى فى شمالها الغربى .

(٣) قلعة يحصب هى اليوم بالإسبانية **Alcalà la Real** ، وقبرة هى **Cabra** ، واللسانة هى **Lucena** .

(٤) هى قرية **Poley** القديمة ، وتسمى اليوم **Aguilar**

(٥) شيجة هى قرية **Espejo** الإسبانية .

(٦) فحص الرينسول أو أرنسول يقع جنوبى غرناطة وبالإسبانية **Arinsol** .

كان فيها إلى نجدة ، فظن الناس أنه ينوى الانسحاب ، فاختل الأمر ، وكثر الفرار ، وفى الغد هجم النصارى على محلة المسلمين ، واستولوا عليها ، ووقعت الهزيمة على المسلمين (مارس سنة ١١٢٧ م) .

وسار ألفونسو بعد ذلك فى قواته نحو الجنوب الشرقى ، واخترق جبال سييرّا نفادا (جبل الثلج) ، وانحدر إلى الشاطئ نحو وادى شلوبانية العميق المتحصن المجاز ، ويروى أنه قال عند رؤيته : « أى قبر هذا لو ألفينا من يرد علينا التراب » . ثم سار غرباً نحو مدينة بلِّش مالقة ، وأنشأ بها مركباً صغيراً يصيد له حوتاً ، أكل منه « كأنه نذر كان عليه وفى به ، أو حديث أراد أن يخلد عنه » . ثم عبر جبال سييرّا نفادا مرة أخرى ، عائداً إلى غرناطة ، وعسكر بقرية دلر على مقربة منها ، ثم انتقل منها إلى قرية هَمْدان الواقعة فى جنوبها ، وهنالك وقعت بينه وبين المسلمين معركة شديدة ثم انتقل بعد يومين إلى « المرج » La Vega ، وفرسان المسلمين فى أثره تضيق عليه ، ثم نزل بعين أطسة ، وهى على أتم الأهبة والحذر ، وسار بعد ذلك إلى وادى آش ، وقد أصيب كثير من عسكره ، خلال المناوشات العديدة التى وقعت بينه وبين المسلمين ، ولما رأى أنه لم يحقق بغزوته الطويلة المدى ، أى هدف يذكر ، عول على العود إلى بلاده ، فاتجه شرقاً نحو مرسية ، فشاطبة فبلنسية ، وقد لحق بعسكره خلال السير نحو عشرة آلاف من النصارى المعاهدين ، الذين فروا من مواطنهم خيفة الانتقام والهلكة ، هذا والعساكر الإسلامية تلاحقه فى كل موطن ، والوباء يعصف بعسكره ، حتى وصل إلى بلاده مفلولا ، قد حطمه وجنده الإعياء والوهن ، وذلك بعد أن أنفق فى غزوته خمسة عشر شهراً ، وهو مع ذلك ، « يفخر بما ناله فى سفره من هزيمة المسلمين ، وفتكه فى بلادهم وكثرة ما أسر وغنم »[1] .

تلك تفاصيل غزوة ألفونسو المحارب الشاملة ، لأقطار الأندلس الشرقية والجنوبية ، وهى قد انتهت بعد المعارك والمناوشات العديدة ، التى خاضها مع المسلمين ، إلى فشل مطبق ، ولم يحقق ملك أراجون من ورائها أية نتيجة عملية .

---

(١) راجع فى تفاصيل غزوة ألفونسو المحارب للأندلس : الحلل الموشية ص ٦٦ — ٧٠ ، وابن الخطيب فى الإحاطة (القاهرة ١٩٥٦) ج ١ ص ١١٦ — ١١٩ ، وكلاهما ينقل رواية ابن الصيرفى مفصلة . وابن عذارى فى البيان المغرب ، وهو يقدم لنا نفس الرواية ، ولكن مزيدة بمعلومات وتفاصيل أخرى (الأوراق المخطوطة السالفة الذكر — هسبيرس ص ٨٤ و ٨٥) . وراجع ابن الأثير ج ١٠ ص ٢٢٤ .

ولكنها مع ذلك قد كشف عن حقيقة هامة ، وهى أن نظم الدفاع عن الأندلس ، لم تكن يومئذ وفق ما يجب من المتانة والإحكام ، وأن خطط القيادة المرابطية ، منذ نكبة سرقسطة لم تكن كفيلة ، بردع عدوان الممالك النصرانية . ولم يكن أدل على هذه الحقيقة من أن ملكاً من ملوك اسبانيا النصرانية ، استطاع أن يخترق الأندلس من الثغر الأعلى ، حتى شاطئ البحر المتوسط ، دون أن تستطيع قوة إسلامية ، مرابطية أوغيرها ، أن تقف فى سبيله .

وثمة حقيقة أخرى كانت جديرة بالاعتبار ، وهى أن النصارى المعاهدين الذين يعيشون فى ظل الحكومة الإسلامية ، ويتمتعون برعايتها ، لم يكونوا يشعرون نحوها بذرة من الولاء ، بل كانوا يمثلون خطراً داخلياً على الأندلس ، ولا يدخرون وسعاً فى الكيد لها ، وممالأة أعدائها ، وتحريضهم على التنكيل بها ، وقد سبق أن أشرنا من قبل فى كتابنا « دول الطوائف » إلى هذه الحقيقة ، وبينا كيف كانت الأحقاد والشكوك ، تحيط بمجتمع المعاهدين ، وبالأخص منذ سقوط طليطلة ، وكيف أن بعيدى النظر من الوزراء والفقهاء ، كانوا ينصحون بالحذر منهم ، ويدعون إلى ردعهم والتضييق عليهم ، كما فعل الوزير الكاتب عبد المجيد بن عبدون فى رسالته عن الحسبة[1] . ولقد كانت دعوة المعاهدين لألفونسو المحارب ، ومعاونتهم له فى غزو الأندلس ، على هذه الصورة البعيدة المدى ، تمثل بالنسبة لهم ذروة الجحود والاجتراء والخيانة ، ومن ثم فقد كان لابد من أن يحدث موقفهم أسوأ الأثر فى الأمة الأندلسية والحكومة الإسلامية ، وكان لابد أن تتخذ فى حقهم إجراءات رادعة ، تكفل قمع دسائسهم وعدوانهم بصورة حاسمة . وهذا ما حدث بالفعل عقب انتهاء غزوة ألفونسو المحارب ، فإن ما حدث على أثرها من بوادر السخط على المعاهدين ، والتوجس من مكائدهم ، حمل كبير الجماعة فى قرطبة القاضى أبا الوليد بن رشد ، على أن يعبر البحر إلى المغرب ، ثم قصد إلى أمير المسلمين على بن يوسف بمراكش ، وشرح له أحوال الأندلس ، وما منيت به على يد المعاهدين ، وما جنوه عليها من استدعاء النصارى ، وما يترتب على ذلك من « نقض العهد والخروج على الذمة » ، وأفتى بتغريبهم ووجوب إجلائهم عن أوطانهم ، وهو أخف ما يؤخذ به فى عقابهم . فأخذ أمير المسلمين بهذه الفتوى ، وصدر عهده إلى جميع بلاد الأندلس ، بتغريب المعاهدين إلى العُدوة

---

(١) كتاب « دول الطوائف » ص ٣٩٩ و ٤٠٠ .

(المغرب) ، فنفيت منهم جموع غفيرة ، وسيق الكثير منهم إلى مكناسة ، وسلا وغيرهما من بلاد العدوة ، وهلك منهم خلال العبور والسفر عدد جم ، وتفرقوا شذر مذر ، وضم أمير المسلمين منهم عدداً إلى حرسه الخاص ، امتازوا فيما بعد بالإخلاص والبراعة . على أن هذا التغريب لم يكن شاملا ، فقد بقيت فى غرناطة وفى قرطبة وفى غيرهما من القواعد ، جماعات من النصارى المعاهدين ، لأسباب مختلفة ، لتنمو وتزدهر مرة أخرى . وقد وقع تغريب المعاهدين فى شهر رمضان سنة ٥٢١ هـ (أواخر سنة ١١٢٧ م) وكانت نكبة بالغة لم يصب المعاهدين مثلها منذ بعيد[١] .

وينوه المستشرق سيمونيت بما أصاب المعاهدين من جراء هذا النفى من الآلام والمحن ، ويقول إن العناية الإلهية شاءت أن ترد هذه القسوة ، بما أنزل بعد ذلك بقرون بالموريسكيين أو العرب المتنصرين عند نفيهم من اسبانيا من قسوة مماثلة . وهذه مقارنة غير موفقة ، لأن ما أنزلته اسبانيا بالموريسكيين قبل النفى وخلاله ، من ضروب القسوة المروعة ، يندر أن نجد له مثيلا فى صحف الاستشهاد القومى .

٢ — التعتيب والأسوار

وقد كانت سنة ٥٢٠ هـ ، هذه وهى التى وقعت فيها غزوة ألفونسو المحارب والنصارى المعاهدين للأندلس ، واشتدت فى نفس الوقت حركة محمد بن تومرت المهدى بالمغرب ، سنة التحصينات ، والمنشآت الدفاعية سواء ، فى المغرب أو الأندلس . فأما فى المغرب ، فقد شرع أمير المسلمين على بن يوسف فى تسوير حاضرته مراكش ، وكانت حين إنشائها فى سنة ٤٦٢ هـ ، قد أقيم السور فقط حول المسجد والقصبة اللتين ابتناهما يوسف بن تاشفين . وبقيت المدينة ذاتها دون أسوار تحميها . وكان الذى أشار على أمير المسلمين بتسويرها ، القاضى أبا الوليد ابن رشد ، حينما اشتدت حركة المهدى ، واستفتى أمير المسلمين فقهاء المغرب ، والأندلس فى أمره ، فأفتى ابن رشد بوجوب إنشاء أسوار للمدينة ، تقوم بحمايته وحماية الساكنين معه . وشرع أمير المسلمين فى بناء أسوار مراكش فى جمادى الأولى

---

(١) يراجع فى ذلك الحلل الموشية ص ٦٦ و ٧٠ ، وابن الخطيب فى الإحاطة ج ١ ص ١١٩ و ١٢٠ ، والبيان المغرب (الأوراق المخطوطة — هسبيرس ص ٨٦) . وأشباخ فى « تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين » (الطبعة الثانية) ص ١٤٧ — ١٥٠ . وراجع : « F.J. Simonet : Historia de los Mozárabes (Madrid 1896) p. 746 - 751

سنة ٥٢٠هـ (١١٢٦م) وهذه هي رواية صاحب الحلل الموشية وابن عذارى[١]. ويضع ابن القطان رحلة ابن رشد إلى مراكش وبناء سورها وفقاً لنصحه فى سنة ٥٢٢هـ . ويقول لنا صاحب روض القرطاس، ويتابعه ابن خلدون إن بناء أسوار مراكش كان فى سنة ٥٢٦هـ[٢]. والرواية الأولى أرجح فيما يبدو ، لأن القاضى ابن رشد توفى فى أواخر سنة ٥٢٠هـ (أواخر سنة ١١٢٦م) . وحشد أمير المسلمين جموعاً غفيرة من الفعلة والصناع فتم بناء السور فى نحو ثمانية أشهر . كما تم بناء الجامع ومناره . وبلغت النفقة على السور وحده سبعين ألف دينار من الذهب العين، ثم أصلح هذا السور ، وأنشئت به أبراج جديدة وزيد فيه حتى شمل مقابر المدينة ، وذلك فى سنة ٥٣٠ هـ . وبعث أمير المسلمين على بن يوسف فى الوقت نفسه ، كتابه إلى الأندلس ، بوجوب إنشاء الأسوار ، فأرجئ النظر فى ذلك حتى صرف الأمير تميم عن ولاية الأندلس وجاز إلى مراكش وهنالك توفى ، وقُدِّم أبو عمر ينالة اللمتونى على غرناطة ، وقدِّم أبو حفص عمر بن أمير المسلمين على قرطبة . وعمد ينالة إلى تعتيب غرناطة وفرض « المعتب » (إتاوة الدار) على سائر أهلها ، واشتد فى تحصيل المال ، وأصلحت الأسوار وأكملت فى أقرب وقت . ثم جاء سيل شديد فصدم الأسوار ، وسقطت منها أجزاء كبيرة مما يلى باب الرملة وباب إلبيرة ، وهلك كثير من الناس . وتولى أهل قرطبة إصلاح أسوارهم ورمِّها على سالف عادتهم ، دون تعتيب ودون ضغط . وكذلك فعل أهل إشبيلية نحو أسوارهم ، فجمعت النفقة بأيسر أمر ، ودون إجحاف ، وأقيمت الأسوار وأصلحت . وتولى النظر فى إصلاح أسوار المرية رجل من أهلها يعرف بابن العجمى ، فاستعمل الحزم والرفق معاً ، وأبدى الناس إقبالا على أداء الإتاوة المطلوبة ، وأصلحت الأسوار وأكملت دون ضغط ولا إرهاق .

واستمر ينالة اللمتونى ، والياً على غرناطة حتى ، عزل عنها فى جمادى الأولى سنة ٥٢٢ هـ ، أى بعد سنة وتسعة أشهر . وكان ظلوماً جائراً ، وكان من أعمال ظلمه أن استدعى فقهاء جيّان وعلماءها إلى غرناطة ، ثم قبض عليهم ، وأودعهم السجن دون جريرة ، وسار إلى الغزو فى شرقى الأندلس ، وتركهم فى المطبق ،

---

(١) الحلل الموشية ص ٧٠ و ٧١ ، وابن عذارى فى البيان المغرب (الأوراق المخطوطة السالفة الذكر هسبيرس ص ٨٦) ، ونظم الجمان (المخطوط لوحة ٣٣ ب) .

(٢) روض القرطاس ٨٩ ، وابن خلدون ج ٦ ص ١٨٤ ، وفى كتاب « الإستبصار فى عجائب الأمصار » أن سور مراكش قد أنشئ فى سنة ٥١٤ هـ وهى رواية ضعيفة (ص ٢٠٩) .

فلما نمى ذلك إلى أمير المسلمين على بن يوسف ، أمر بعزله ، وعين ولده أباحفص عمر والى قرطبة والياً لغرناطة . فلما وصل إلى غرناطة بادر بالإفراج عن الفقهاء والعلماء المعتقلين ، وردهم إلى بلدهم مكرمين ، واستراح الناس من ظلم ينالة وجوره[1] .

٣ — موقعة القلاعة

لما عاد ألفونسو المحارب من حملته الأندلسية الفاشلة ، عاد إلى استئناف نشاطه فى أراضى الثغر ضد المرابطين . وكان المسلمون ما يزالون يحتلون من الثغر الأعلى ، المنطقة الواقعة شرقى سرقسطة ، فيما بين نهرى سنكا وسجرى فرعى إبرة ، وأهم قواعدها لاردة وإفراغة ومكناسة الواقعة عند ملتقى إبرة وسجرى ، وكذلك المنطقة الممتدة بعد ذلك على طول نهر إبرة ، حتى مصبه عبر ثغر طرطوشة ، وكان ألفونسو يرمى إلى إجلاء المسلمين عن هذه المنطقة ، حتى يكفل اتصال مملكته بالبحر المتوسط عن طريق ثغر طرطوشة الهام . وكان ثغر طرّكونة الواقع شمال طرطوشة ، قد سقط فى أيدى النصارى قبل ذلك بنحو أربعين عاما . ونحن نذكر أن هذا الثغر كان من أعمال مملكة سرقسطة أيام بنى هود ، وأنه لما توفى المقتدر بن هود فى سنة ٤٧٤ هـ (١٠٨١م) قسمت مملكته بين ولديه يوسف المؤتمن وأخيه المنذر ، وأن المنذر بن هود اختص بالجانب الشرقى من مملكة سرقسطة وفيه ثغرا طرّكونة وطرطوشة . ثم توفى المنذر بن هود فى سنة ٤٨٣ هـ (١٠٩٠م) وخلفه ولده الطفل سليمان الملقب بسعد الدولة ، وكان الكونت رامون برنجير الثانى أمير برشلونة ، ومن ورائه أحبار قطلونية ، يتوقون إلى انتزاع ثغر طرّكونة من المسلمين وإعادته كما كان مركزاً رئيسياً للكنيسة القطلونية ، فكتبوا بذلك إلى البابا أوربان الثانى ، وهو محرك الحرب الصليبية الأولى فى المشرق ، فشجع مشروعهم وباركه ، وأسبغ عليه الصفة الصليبية ، وأصدر طائفة من المنح والمزايا الدينية لمن يشتركون فى هذه الحملة . وكتب إلى سائر الأمراء والبارونات والفرسان ورجال الدين ، فى البلاد المجاورة ، يحثهم على الاشتراك فى هذه الحرب المقدسة ، وهكذا جهزت حملة صليبية قوية لافتتاح طرّكونة ، على رأسها رامون برنجير ، وجاءت وفاة المنذر بن هود فى تلك الآونة بالذات مشجعة للغزاة . وسارت الحملة إلى طرّكونة واستطاعت انتزاعها من المسلمين بسهولة (١٠١٠م) لضعف وسائلها الدفاعية ، وتخلى المستعين بن هود صاحب سرقسطة عن إنجادها ،

---

(١) البيان المغرب (الأوراق المخطوطة السالفة الذكر — هسبيرس ص ٨٦ ، و٨٧) .

ولأن الجيوش المرابطية ، لم تكن قد وصلت يومئذ فى زحفها نحو الشمال ، إلى الثغر الأعلى .

وبسقوط طرّكونه فى يد أمير برشلونة ، وضمها إلى مملكة قطلونية ، لم يبق من ثغور مملكة سرقسطة القديمة سوى طرطوشة ، وكان ألفونسو المحارب يتوق إلى انتزاع هذا الثغر ، ولكنه كان مضطراً إلى أن يخوض قبل ذلك معارك عديدة مع المرابطين ، الذين يسيطرون على منطقتى لاردة وإفراغة ، وما وراءهما من الأراضى حتى مصب نهر إبرة . ومن ثم فإنه ما كاد يعود من حملته الأندلسية ، حتى أخذ يعد العدة لتنفيذ مشروعه . ولم يمض سوى عامين حتى خرج فى قواته من سرقسطة ، وزحف شرقاً نحو نهر سِنكا فى اتجاه إفراغة ولاردة . وكانت هذه المنطقة قد غدت منذ سقوط سرقسطة ، مسرحاً للصراع المستمر بين المسلمين والنصارى ، وكانت للمرابطين فيما يبدو حاميات قوية فى تلك القواعد ، وكانت لهم فوق ذلك قوات متحركة ، تنساب بسرعة من شرقى الأندلس ، من منطقة بلنسية ، كلما همّ النصارى بالعدوان .

على أنه يبدو أن ألفونسو المحارب ، لم يرد أن يشتبك فى هذه المنطقة من الثغر الأعلى مع المرابطين فى صراع حاسم ، قبل أن يقضى على قواتهم فى جنوبى الثغر ، وقد كانت تلاحقه نحو الشمال باستمرار . ومن ثم فقد سار فى قواته جنوباً نحو أراضى بلنسية ، وكان على بن يوسف قد علم من عماله فى بلنسية وما والاها أن ألفونسو المحارب يتأهب لغزو أراضى المسلمين ، فخشى علىّ أن تكون حركة شاملة كالتى قام بها المحارب فى قلب الأندلس ، وأمر بحشد قوات من السود تتكفل بنفقاتها مختلف المدن ، كل وفق طاقتها ، ثم أرسلت هذه الحشود إلى مرسية — وواليها يدّر بن ورقا — تعزيزاً للجيوش المرابطية فى شرقى الأندلس . وهنا يحيق شىء من الغموض حول تفاصيل الموقعة التى نشبت على أثر ذلك بين الأرجونيين والمرابطين ، وحول موقعها . وتذكر لنا الرواية الإسلامية الوحيدة التى لدينا عن الموقعة — وهى رواية ابن القطان — أن الموقعة نشبت فى مكان يعرف بالقليعة أو القلاعة ، وأن القليعة هذه تقع على مقربة من جزيرة شقر جنوبى بلنسية ، وكان ابن زدمير (ألفونسو الأرجونى) يرابط بقواته بها . وهكذا نشبت فى القليعة معركة عنيفة بين المرابطين والأرجونيين ، ويضع ابن القطان تاريخها فى سنة ٥٢٣ هـ (١١٢٩ م) ، ويقول لنا إن قوات المسلمين كلها كانت بقيادة

ابن محور ، وأن المسلمين أصيبوا فيها بهزيمة فادحة ، وفنى معظمهم قتلا وأسراً ، واحتوى العدو على سائر أسلابهم ومتاعهم ودوابهم ، وبلغت خسارتهم نحو اثنى عشر ألفاً بين قتيل وأسير [١] .

أما الغموض الذى يحيق بأمر هـذه الموقعة ، فيأتى مما تذكره لنا الرواية النصرانية وهو أن القلعة أو القلاعة هذه Alcolea ، إنما هى بلدة صغيرة محصنة تقع على الضفة اليسرى لنهر سنكا أحد أفرع نهر إبرة ، على مقربة من إفراغة ، ولها قصبة منيعة ؛ ومعنى ذلك أن الموقعة نشبت بين المرابطين والموحدين فى الثغر الأعلى ، لا فى أراضى بلنسية . وتضيف الرواية النصرانية إلى ذلك أن ألفونسو المحارب استولى على أثر الموقعة على بلدة القلاعة ، وحصنها ثم أقطعها لأحد أكابر رجاله ممن أبلوا فى خدمته [٢] .

ثم إنه يوجد من جهة أخرى فى الرواية النصرانية ما يفيد أن ألفونسو المحارب قد حاصر بلنسية فى أوائل سنة ١١٢٩ م ، وهو مما يعزز قول الرواية الإسلامية فى أن المعركة قد نشبت بين الأرجونيين والمسلمين فى أراضى بلنسية .

هذا ، والى جانب رواية ابن القطان المتقدمة عن الموقعة ، توجد لدينا عنها وثيقتان مرابطيتان ، تلقيان عليها ، وعلى تاريخ وقوعها ، . مزيداً من الضياء ، ويستخلص منهما ما يأتى :

أولا — أن الموقعة وقعت فى « القلعة » أو « القلاعة » . ونحن نرجح قول الرواية الإسلامية فى تحديد موقع القلاعة ، بأنه على مقربة من جزيرة شقر .

وثانيا — أن وقوعها كان فى النصف الأول من سنة ٥٢٣ هـ (النصف الأول من سنة ١١٢٩ م) .

وثالثا — أن المرابطين ، أصيبوا فى تلك الموقعة بهزيمة شديدة ، وقد كانوا بقيادة الأمير أبى محمد بن أبى بكر بن سير اللمتونى ، وهو ابن أخت على بن يوسف ، المعروف بابن قنونه ، باسم أمه أخت الأمير .

والوثيقة الأولى هى عبارة عن رسالة كتب بها أمير المسلمين على بن يوسف إلى الأمير أبى محمد بن أبى بكر من حضرة مراكش ، ومؤرخه فى السابع من شهر شعبان سنة ٥٢٣ هـ ، وذلك رداً على كتابه الذى أرسله إلى أمير المسلمين ينبئه

---

(١) ابن القطان فى « نظم الجمان » (المخطوط السابق ذكره لوحة ٣٤ ب) .

(٢) M. Lafuente : ibid ; Vol. III. p 240

فيه بخبر الموقعة . والرسالة من إنشاء كاتب الأندلس وإمام النثر بها يومئذ ، أبى مروان بن أبى الخِصَال ، وقد كان يتولى الكتابة فى بلاط مراكش ، وفيها ينحى أمير المسلمين باللوم القارص على قائده أبى محمد بن أبى بكر ،وبنوه بتقصيره وخذلانه فى عبارات لاذعة يقول فيها :

« وإن لبيان العذر بتلك الحال لقصير ، وإن الله على ذلك المشهد المضيع لمطلع بصير ، توافقتم مع عدوكم ، وأنتم أوفر منه عدة وأكثر جمعاً ، وأحرى أن تكونوا أشد عن حريمكم منعاً ، وأقوى دونه دفعاً ، فتبت وزللتم ، وجد ونكلتم ، وشد عقدة عزيمته وحللتم ، وكنتم فى تلك الوقعة قرة عين الحاسد ، وشماتة العدو والراصد ، وقد كانت نصبة توليكم بين يديه بشيعة هائلة ، ودعامتكم لولا انثناؤه عنكم مائلة ، فشغله عنكم من غررتموه من الرّجل الذى أسلمتوه للقتل ، وفررتم ، ونصبتموهم دريئة للرماح ثم طرتم ، ولولا مكان من أوردتموه من المسلمين ولم تصدروه ، وخذلتموه من المجاهدين ولم تنصروه ، لانكشف دون ذلك الرماح جنتكم ووقاؤكم ، وأصيبت بها ظهوركم وأقفاؤكم ، عاقبكم الله بما أنتم أهله»[1] .

والوثيقة الثانية عبارة عن رسالة كتب بها أيضاً أمير المسلمين على بن يوسف إلى قادة الجيش المرابطى الذين هزموا فى موقعة « القلاعة » ، مؤرخة فى الحادى عشر من شعبان سنة ٥٢٣ هـ من حضرة مراكش ، رداً على كتابهم فى وصف المعركة ، وفيها يقول إنه لا محيص عن القدر ، وإنه لم يأل جهداً فى العمل لإعلاء كلمة الإسلام ، وبذل الأموال وحشد الرجال ، وإنه لو استطاع أن يكون حاضراً بنفسه لديهم لفعل ، ثم يطمئنهم ويؤكد لهم أنه لا هم له إلا الذياد والدفاع عنهم والتوفر عليه بأقصى جهد[2] .

وإنه ليبدو لنا من رسالة ثالثة كتبها أمير المسلمين على بن يوسف إلى قاضى بلنسية وساير الفقهاء والوزراء والأعيان والعامة ، عند نزول ابن رذمير عليها ، أن ألفونسو الأرجونى ، بعد أن أحرز نصره فى موقعة القلاعة المتقدمة الذكر ، قد سار بقواته شمالا مخترقا أراضى ولاية بلنسية ، وأنه اقترب من ثغر

---

(١) يراجع نص هذه الوثيقة بأكله فى باب الوثائق . وقد نقلناها عن مخطوط الإسكوريال رقم ٤٨٨ الغزيرى (لوحة ٧١ ب — ٧٢ ا) وسبق أن نشر هذه الوثيقة وعلق عيها الدكتور حسين مؤنس فى بحثه الذى سبقت الإشارة إليه (مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة سنة ١٩٤٩) .

(٢) يراجع نص هذه الرسالة فى باب الوثائق . وقد نقلناها عن نفس المخطوط (لوحة ٧٢ب و٧٣ ا) وسبق أن نشر هذه الوثيقة أيضاً الدكتور حسين مؤنس فى بحثه السالف الذكر .

بلنسية ، ورابط أمامه حيناً . والواقع أن ابن القطان يذكر لنا بعد حديثه عن موقعة القلاعة ، أن قوة من النصارى أغارت على غليرة Cullera الواقعة على البحر على مقربة من جنوبى بلنسية ، واكتسحت ماوجدت[١] ، وعندئذ وجه قاضى بلنسية الخطيب أبو الحسن إلى أمير المسلمين رسالة استغاثة ، هى التى يرد عليها فى رسالته . وقد صدرت رسالة أمير المسلمين من حضرة مراكش مؤرخه فى السابع من شعبان سنة ٥٢٣ هـ ، فى نفس اليوم الذى أرخت فيه الرسالة الأولى ، الموجهة إلى الأمير محمد بن أبى بكر بلومه ، وتقريعه على تخاذله فى « القلاعة » . وفى هذه الرسالة يشير أمير المسلمين برفق إلى هزيمة جنده فى القلاعة ، وأن ذلك لم يكن إلا بسبب تخاذلهم ، وعدم اعتبارهم بمواعظه ، ثم يطمئن أهل بلنسية ، ويؤكد لهم أنه لن يتركهم إلى الضياع ، ولن يألو جهداً للذب عنهم ، وأنه قد كتب إلى سائر ولاته ، بإرسال الأقوات ، والتعجيل بإنفاذها فى أقرب وقت ، وأنه يضعهم من باله فى أعز مكان ، ويختتمها بالدعاء لأهل بلنسية « بأن يشد الله أزرهم ، ويصح أمرهم ، ويسد ثغرهم ، ويحفظ الألفة عليهم »[٢] . والظاهر أن ألفونسو المحارب ، قد اكتفى فى زحفه بأعمال العيث والتخريب ، ولم يحاول مهاجمة بلنسية ذاتها[٣] .

٤ — موقعة إفراغة

شغل ألفونسو المحارب ، عقب غزوته الكبرى خلال الأندلس ، بضعة أعوام ، بالحرب مع منافسه ملك قشتالة الفتى ألفونسو ريموند يس ولد زوجه أورّاكا ، ولما انتهت هذه الحرب بعقد الهدنة بين قشتالة وأراجون فى سنة ١١٣٠م ، حول ألفونسو المحارب نشاطه إلى وجهة أخرى ، غير العدوان على الأندلس . فعبر جبال البرنيه فى بعض قواته إلى فرنسا ، وحاصر مدينة بيونة الواقعة شمال نافار ، ولم توضح لنا الرواية النصرانية بواعث هذه الحركة ، من جانب ملك أراجون ، ولكن الظاهر ، أنه قام بها إنجاداً لبعض أتباعه من السادة الفرنج ، الذين تجاور أراضيهم نافار ، وانتهى الحصار باستيلاء ألفونسو على بيونة (سنة ١١٣١ م) ، ثم عاد إلى أراجون ، ليستأنف تدبير مشاريعه ضد الأندلس .

---

(١) نظم الجمان (المخطوط السابق ذكره لوحة ٣٤ ب) .

(٢) نشرنا هذه الوثيقة فى باب الوثائق ، منقولة عن مخطوط الإسكوريال السالف الذكر (لوحة ٧٢ ب — ٧٣ ا) .

(٣) **M. Lafuente: ibid ; Vol. III. p. 240**

وكانت الجيوش المرابطية فى الثغر الأعلى وشرق الأندلس ، خلال هذه الفترة ، التى شغل فيها ألفونسو المحارب بحروبه فى قشتالة وجنوبى فرنسا ، تقوم بالإغارة على الأراضى النصرانية المجاورة والعيث فيها ، وكانت تخرج بالأخص من طرطوشة ولاردة ، وهما أهم القواعد التى بقيت بأيدى المسلمين فى الثغر الأعلى ، لتجتاح أراضى النصارى المجاورة فى أراجون وإمارة برشلونة . ووقعت بين المسلمين والنصارى فى تلك الفترة ، عدة معارك ، وشغل الكونت رامون برنجير الثالث أمير برشلونة ، بمعاونة حلفائه الأرجونيين لرد غارات المسلمين .

فلما عاد ألفونسو المحارب إلى استئناف نشاطه ضد المسلمين ، كان أهم مايشغله هو الاستيلاء على ما بقى من قواعد الثغر الأعلى ، وإجلاء المسلمين عنها . وكانت هذه القواعد ، تنحصر أولا فى لاردة وإفراغة ومكناسة الواقعة ، فى المثلث الواقع بين نهرى سنكا وسجرى فرعى نهر إبرة (الإيبرو) ، وثانيا فى ثغر طرطوشة الواقع على البحر المتوسط عند مصب إبرة . وكان ثغر طرطوشة كما قدمنا بالأخص هدف ملك أراجون ، إذ كان الاستيلاء عليه ، يحقق له الاستيلاء على ما بقى من مجرى نهر إبرة ، ويضمن له سلامة الملاحة فى هذا النهر العظيم ، ويصل ما بين مملكته وبين البحر . ومن ثم فقد وضع ألفونسو مشروعه الكبير من شقين ، يتضمن الأول الاستيلاء على القواعد الإسلامية ، الواقعة فى مثلث نهرى سنكا وسجرى ، ثم يتبعها بالشق الثانى وهو الاستيلاء على طرطوشة . وأعد ألفونسو حملة جديدة قوية للبدء فى تنفيذ مشروعه ، واشترك فى هذه الحملة كثير من الأشراف والفرسان الفرنسيين ، على غرار ما حدث فى حملة سرقسطة ، وبدأ ألفونسو بالزحف على مدينة (مكننسة) مكناسة الواقعة عند ملتقى نهرى سجرى وإبرة ، وهى قاعدة حصينة ، ولكن الدفاع عنها لم يكن ميسوراً لوقوعها فى السهل المكشوف ، فهاجمها النصارى بشدة ، واضطرت إلى التسليم بعد مقاومة عنيفة ، وذلك فى يونيه سنة ١١٣٣ م (أواخر سنة ٥٢٧ هـ) .

واتجه ألفونسو بعد ذلك إلى الاستيلاء على مدينتى إفراغة ولاردة ، وبدأ الزحف على إفراغة وهى تقع على الضفة اليمنى لنهر سنكا على مسافة قريبة من شمال مكناسة . ولم يكن الاستيلاء على إفراغة بالأمر الهين ، لموقعها الحصين فوق الربى العالية فى نهاية منحدر وعر ضيق ، تصعب مهاجمته ، ويسهل الدفاع عنه . ومن جهة أخرى ، فقد شعر المرابطون ، من أهبة ألفونسو وعنف تحركاته ، أن

المعركة الحاسمة بينهم وبين النصارى فى الثغر الأعلى ، أضحت على وشك الوقوع . وكانوا مذ وقفوا على حركات ألفونسو وأهباته ، لافتتاح قواعد الثغر الباقية ، قد رأوا من باب التحوط والاستعداد ، أن يعقدوا التفاهم والسلم مع أمير برشلونة رامون برنجير الثالث ، وذلك خشية أن ينتهز الفرصة فيهاجمهم من جانبه ، ويضطر المرابطون إلى القتال فى جهتين ، فاتفقوا على أن يؤدوا له جزية سنوية قدرها اثنا عشر ألف دينار ، وذلك عن أمر على بن يوسف وتوجيهه . فغضب لذلك ألفونسو ، وأقسم بأنه سوف ينتزع تلك البلاد التى تؤدى عنها الجزية ، ويقطع بذلك منفعتها عن الطرفين الخصيمين(١).

ومن ثم فإنه ماكادت مكناسة تسقط فى يد العدو ، حتى بادر المرابطون فى الثغر ، وفى وسط شرقى الأندلس ، إلى التأهب للدفاع عن إفراغة ولاردة ، وهرع الزبير بن عمرو اللمتونى من قرطبة إلى الثغر الأعلى ، فى ألفى فارس ، ومعه مقادير وفيرة من المؤن . وهرع إليه الأمير أبو زكريا يحيى بن غانية والى بلنسية ومرسية ، فى قوة تقدرها الرواية بخمسمائة فارس ، وكان من أعظم وأشجع القادة المرابطين . وكذلك حشد عبد الله بن عياض والى لاردة قواته . وكان أهل إفراغة حينما ضيق عليهم ألفونسو الحصار ، وأخذت مواردهم فى النضوب ، قد كتبوا إلى يحيى بن غانية باعتباره عميد القادة المرابطين ، بطلب الإنجاد والأقوات ، وأنذروه فى كتابهم ، بأنه إن لم يفعل خضعوا لألفونسو ، وسلموه المدينة . ولكن ابن غانية لم يكن فى حاجة إلى مثل هذا النذير ، وكانت مهمة إنجاد إفراغة وإنقاذها تلقى لديه ، ولدى سائر القادة المرابطين منذ البداية منتهى الغيرة والاهتمام(٢) .

وفى تلك الأثناء كان ألفونسو قد وصل بقواته إلى إفراغة ، وضرب حولها الحصار ، فقاومته حاميتها وأهلها بقيادة واليها سعد بن محمد بن مردنيش أشد مقاومة ، واضطر أن يرفع الحصار غير مرة ، ثم يعود إليه ، وحملته هذه المقاومة ذاتها ، على مضاعفة جهوده فى التضييق على المدينة المحصورة ، والتصميم على أخذها . وأقسم ألفونسو تحت أسوار إفراغة ، كما أقسم أبوه سانشو راميرز قبل ذلك بأربعين عاما ، تحت أسوار وشقة ، أن يفتتح إفراغة أو يموت دونها ، وأقسم معه عشرون من سادته ، وأمر ألفونسو كذلك أن يؤتى برفات القديسين إلى المعسكر

(١) ابن القطان فى نظم الجمان (المخطوط السالف الذكر) .
(٢) ابن القطان فى نظم الجمان (المخطوط السالف الذكر) .

إذكاء حماسة الجند ، وأن يتولى الأساقفة والرهبان قيادة الصفوف أسوة بالقوامس (الكونتات) . وهنا تختلف الروايتان الإسلامية والنصرانية فى تصوير الوقائع ، وبينما تقول الرواية الإسلامية إنه ماكادت الجيوش المرابطية تصل إلى إفراغة ، حتى نشبت الموقعة الحاسمة بين المسلمين والنصارى ، إذا بالرواية النصرانية تقدم إلينا تفصيلا آخر ، وهو أنه ماكادت القوات المرابطية تصل إلى ظاهر إفراغة ، وتتقدم إلى إنجادها ، حتى وقعت بينها وبين النصارى معركتين متواليتين ، وهزم المرابطون فى الموقعتين ، ولجأوا إلى الفرار ، وعندئذ دب اليأس إلى أهل المدينة وعرضوا التسليم ببعض الشروط ، فرفض ألفونسو كل عرض للتسليم ، وصمم على اقتحام المدينة بالسيف ، فانقلب المحصورون إلى مقاومة اليأس ، ونظم المرابطون قواتهم ، وعادوا إلى محاولة إنقاذ المدينة ، ودبروا كميناً جذبوا إليه الأرجونيين ، على يد قافلة من المؤن . وهنا نشب القتال واضطرمت الموقعة .

وعلى أى حال ، فقد نشبت بين المرابطين وبين النصارى تحت أسوار إفراغة ، موقعة من أشد وأعنف ، مما عرف فى تاريخ المعارك الحاسمة فى الثغر الأعلى . وتقدر الرواية الإسلامية قوات المرابطين بنحو ثلاثة آلاف فارس [١] ، وهو تقدير لا يتفق فى نظرنا مع ضخامة المعركة ونتائجها ، وتقدرهم الرواية النصرانية بعشرة آلاف فارس [٢] . وأما الجيش النصرانى ، فتقدره الرواية الإسلامية باثنى عشر ألف فارس [٣] . ومن المرجح على أى حال ، أن القوات النصرانية كانت تتفوق فى الكثرة على المسلمين . ووقع بين الفريقين قتال شديد مروع ، وأبدى المسلمون بقيادة ابن غانية ضروباً رائعة من البراعة والبسالة ، وقاتل الأرجونيون كذلك بفيض من الشجاعة ، وكان ملكهم يقود المعركة بنفسه ، وخرج أهل إفراغة ، فانقضوا على النصارى من الخلف ، فاشتد الأمر على النصارى ، وكثر القتل فيهم ، وهلكت منهم عدة كبيرة من القادة والأكابر ، ومزقت صفوفهم تمزيقاً ، وأصيبوا بهزيمة ساحقة ، لم يصبهم مثلها منذ موقعتى الزلاّقة وأقليش [٤] ، واستولى

---

(١) ابن الأثير ج ١١ ص ١٣ ، وهو يحدد القوات المرابطية على النحو الآتى : قوات قرطبة ألف فارس ، وقوات مرسية وبلنسية خمسمائة فارس ، وقوات لاردة مائتا فارس .

(٢) M.Lafuente: ibid; Vol. III. p. 248. وكذلك أشباخ فى تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين (الترجمة العربية) ص ١٦٤ .

(٣) ابن الأثير ج ١١ ص ١٣ .

(٤) راجع فى تحديد معالم الموقعة خريطة الثغر الأعلى (ص ٩١ من هذا الكتاب) .

المسلمون على محلتهم وعتادهم وسلاحهم ، وكان ذلك فى اليوم السابع عشر من يوليه سنة ١١٣٤ م (٢٣ رمضان سنة ٥٢٨ هـ)[١] .

وتختلف الرواية اختلافاً بيناً فى مصير ألفونسو المحارب . ومعظم الروايات النصرانية على أنه سقط خلال الموقعة . ويؤيد هذه الرواية صاحب « الأخبار الطليطلية » وردريك الطليطلى . وثوريتا وغيرهم . ولكن الذى يثير ريباً حولها ، هو أن جثة ألفونسو المحارب لم توجد قط بين ضحايا الموقعة[٢] . وأما الرواية الأخرى ، فهى أن ألفونسو توفى بعد الموقعة بأيام قلائل ، ويروى مؤرخ قطلونى معاصر فى وصفه للمعركة ، أنه حين تمت الهزيمة الساحقة على النصارى ، عمد ألفونسو إلى الفرار بصحبة فارسين فقط ، ولجأ إلى دير القديس « خوان دى لابنيا » فى سرقسطة ، وهنالك توفى غماً ويأساً ، لثمانية أيام فقط من الموقعة ، وذلك فى ٢٥ يوليه سنة ١١٣٤ . وهذا ما تؤيده الرواية الإسلامية مع خلاف يسير . فإن ابن الأثير يقول لنا فى حديثه عن الموقعة ، أن ابن رذمير (ألفونسو) لحق عقب هزيمته بمدينة سرقسطة ، « فلما رأى ما قتل من أصحابه ، مات مفجوعاً بعد عشرين يوماً من الهزيمة »[٣] ويقول ابن القطان أن ابن رذمير فر فى شرذمة قليلة جداً ، ولحق بمدينة سرقسطة ، واله العقل ، مخبول الذهن ، ثم خرج منها إلى وشقة فأقام بها مختلا أشهراً قليلة ثم حان أجله[٤] . ويقول لنا صاحب الروض المعطار ، إن ألفونسو فر عقب هزيمة ، وأوى إلى حصن خرب فى رأس جبل شاهق ، مع الفل الذى بقى معه ، ثم غادره متسللا بالليل حينما أحدق به المسلمون[٥] .

---

(١) تختلف الرواية العربية فى تاريخ الموقعة فيضعه ابن عذارى فى سنة ٥٢٨ هـ (الأوراق المخطوطة السالفة الذكر — هسبيرس ص ١٠٠) . ويقول لنا ابن القطان إنها وقعت فى سنة ٥٢٩ هـ ويقول فى موضع آخر إنها وقعت سنة ٥٢٨ هـ (المخطوط السابق ذكره) ويضعها ابن الأثير فى سنة ٥٢٩ هـ (ج ١١ ص ١٣) . ويقول لنا صاحب الروض المعطار إنها وقعت فى رمضان سنة ٥٢٥ هـ (صفة جزيرة الأندلس ص ٢٤) . ولكن الرواية النصرانية تحدد لنا تاريخها تحديداً دقيقاً واضحاً ، وهو يوليه سنة ١١٣٤ ، الموافق لرمضان سنة ٥٢٨ هـ .

(٢) يراجع فى ذلك **M. Lafuente : ibid; Vol. III. p. 243.** ، والهامش حيث يعدد الروايات النصرانية المؤيدة لسقوط ألفونسو فى الموقعة . وراجع أيضاً : **F. Codera : Decadencia y Disparición de los Almoravides p. 269 - 272**

(٣) ابن الأثير ج ١١ ص ١٣ .

(٤) فى نظم الجمان (المخطوط السابق ذكره) .

(٥) الروض المعطار ص ٢٥ .

وقد كان لنصر المرابطين فى إفراغة ، صدى عميق فى سائر أرجاء الأندلس ، وفى اسبانيا النصرانية بنوع خاص ، وعادت سمعة المرابطين العسكرية ، إلى سابق مكانتها فى شبه الجزيرة ، وذاع صيت يحيى بن غانية ، قائد المرابطين فى ذلك اليوم المشهود ، وسنرى فيما بعد كيف يضطلع ابن غانية فى قيادة المرابطين فى شبه الجزيرة بأعظم دور . وقد نظم الشاعر أبو جعفر بن وضاح المرسى ، فى واقعة إفراغة ، ومديح ابن غانية قصيدة يقول فيها :

شمرت برديك لما أسبل الوانى	وشب منك الأعادى نار غيان
دلفت فى غاية الخَطِّىّ نحوهم	كالعين يهفو عليها وطف أجفان
عقرتهم بسيوف الهند مصلتة	كأنما شربوا منها بغدوان
هون عليك سوى نفس قتلتهم	من يكسر النبع لم يعجز عن البان
وقفت والجيش عقدٌ منك منتثرا	إلا فرائد أشياخ وشبان
والخيل تنحط من وقع الرماح بها	كأن نصالها ترجيع ألحان

وكان من أثر موقعة إفراغة ، وهلاك ألفونسو المحارب ، أن انقشع الخطر مدى حين ، عما بقى بأيدى المسلمين من أراضى الثغر الأعلى ، وعن شرق الأندلس ، واختفت من ميدان الصراع بين المسلمين والنصارى ، شخصية خطرة كانت تهدد بمشاريعها البعيدة المدى وتصميمها المستميت ، سلام المسلمين ، وسلامة الوطن الأندلسى . وقد كان ألفونسو المحارب فى الواقع ، مثل فرناندو الأول ، وألفونسو السادس ، من أعظم ملوك اسبانيا النصرانية ، فى العصور الوسطى . وكان افتتاحه لسرقسطة ، فاتحة عصر جديد لمملكة أراجون ، كما كان افتتاح ألفونسو السادس لطليطلة فاتحة عصر جديد لمملكة قشتالة ، وقد غدت مملكة أراجون فى ظله ، باتحاد مملكة ناڤار معها ، منذ عهد أبيه سانشو ، قرينة مملكة قشتالة من حيث ترامى الرقعة ، وضخامة الموارد ، وقوة المراس فى مناجزة الأندلس ، وقد استطاع هو أن يوطد حدود مملكته ، وأن يوسع رقعتها ، بافتتاحه سرقسطة وتطيلة وطرسونة وقلعة أيوب ودورقة وغيرها ، من القواعد الإسلامية ، وكانت أمامه ، بزواجه من أوّراكا ملكة قشتالة ، فرصة لأن يغدو قيصراً لإسبانيا الكبرى ، ولكن ما نشب بين الزوجين من خلاف حول السلطان ، وما أبداه أشراف قشتالة من بغض لنير أراجون — كان كفيلا بتحطيم مثل هذا المشروع ، وكانت الحرب

الأهلية التى نشبت من جراء ذلك بين قشتالة وأراجون ، تتيح للمسلمين أوقاتاً للتهادن ، كما تتيح لهم فرص الغزو فى الأراضى النصرانية . والرواية الإسلامية نفسها تشيد بعظمة ألفونسو المحارب . ويصفه ابن الأثير فى قوله « وكان من أشد ملوك الفرنج بأساً ، وأكثرهم تجرداً لحرب المسلمين وأعظمهم صبرا »[1] . هذا وسوف نعنى عند الكلام عن تاريخ اسبانيا النصرانية فى عهد المرابطين ، بالتحدث عن أحوال أراجون وقشتالة فى عهد ألفونسو المحارب .

ومما هو جدير بالملاحظة ، أن المرابطين ، بالرغم من نصرهم الساحق فى موقعة إفراغة ، وتمزيقهم للجيش الأرجونى شر ممزق ، لم يفكروا فى الاستفادة من نصرهم بالزحف توأ على سرقسطة ، ومحاولة استردادها ، وقد كانت على مقربة من ساحة نصرهم ، وكان سحق الجيش الأرجونى ، وهلاك عاهله ، مما يشجع على الاضطلاع بمثل هذه المحاولة ، ولكن المرابطين قنعوا فى ذلك الموطن بالنصر ، وانصرفوا إلى قواعدهم ، على غرار ما حدث عقب نصر الزلاّقة ، حيث أحجم عاهل المرابطين يوسف بن تاشفين عن مطاردة القشتاليين ، وانتهاز فرصة انهيار الجيش القشتالى لمحاولة استرداد طليطلة ؛ ومن الغريب أن المرابطين كانوا فى نفس الوقت الذى اضطرمت فيه معركة إفراغة سنة ٥٢٨ هـ يقومون بغزوات مخربة عقيمة فى أراضى قشتالة ، بقيادة الأمير تاشفين ، ولد أمير المسلمين على بن يوسف ، ولو أنهم حشدوا مزيداً من قوّاتهم فى الثغر الأعلى ، على أثر انتصارهم فى إفراغة بقيادة قائدهم البطل يحيى بن غانية ، لكانت لديهم بلاريب فرصة مرجحة ، لاسترداد الثغر الإسلامى العظيم — سرقسطة — وفى رأينا أن المرابطين ، بإحجامهم عن استغلال ظفرهم فى الزلاّقة وإفراغة ، وإحجامهم فى الحالة الأولى عن محاولة استرداد طليطلة ، وفى الثانية عن محاولة استرداد سرقسطة ، قد ارتكبوا فى الحالتين خطأ عسكرياً لاشك فى خطورته ، وكانت له فى الحالتين نتائج بعيدة المدى .

٥ — خاتمة ملك بنى هود بالثغر الأعلى

لما دخل المرابطون سرقسطة بدعوة أهلها ، فى أواخر سنة ٥٠٣ هـ (١١١٠م) كان قد غادرها آخر ملوكها من بنى هود ، عبد الملك بن أحمد المستعين بن هود الملقب بعماد الدولة . ولم يكن عبد الملك قد حكم سوى فترة يسيرة ، دب الخلاف

---

(١) ابن الأثير ج ١١ ص ١٣ .

خلالها بينه وبين أهل سرقسطة لمحالفته النصارى وانضوائه تحت لوائهم ، حسبما فصلناه من قبل فى كتاب « دول الطوائف» . وسار عبد الملك فى أهله وأمواله إلى قاعدة روطة المنيعة ، الواقعة على الضفة اليسرى لنهر خالون أحد أفرع نهر إبرة الجنوبية ، على قيد خمسة وثلاثين كيلومتراً من سرقسطة . وكان بنو هود قد أنشأوا هذه القاعدة ، وحصنوها وزودوها بالأبنية الضخمة ، وأعدوها لتكون لهم عند الضرورة ملجأ ومثوى . وفى بعض الروايات أن الذى أنشأ حصن روطة ، وأسبغ عليه مناعته الفائقة ، هو المستعين والد عبد الملك ، وأنه حفر فيه إلى إلى الوادى سرباً أتقن أدراجه ، تنيف على أربعمائة درج فلا ينقطع فيه الماء[١] .

واستقر عبد الملك فى هذه القاعدة ، وأنشأ بها إمارة صغيرة . والظاهر أن إمارة روطة كانت تشمل يومئذ ، رقعة من الأراضى ، تمتد شمالا حتى برجة الواقعة شمال غربى سرقسطة ، على مقربة من تطيلة ، يدل على ذلك ما يذكره صاحب البيان المغرب فى أخبارسنة عشر وخمسمائة من أن الأمير أبا بكر صاحب سرقسطة ، خرج إلى الغزو ، وهاجم حصن روطة ، وأثخن فى أنحائه ، ثم تحرك إلى برجة ، وبها عماد الدولة بن المستعين بن هود ، فضيق عليها ، وبالغ فى إرهاقها ، حتى صالحه أهلها ، فرجع عنها إلى سرقسطة[٢] . وعلى أى حال فإنه يبدو أن العداء كان مستحكماً ، بين عماد الدولة وبين المرابطين ، ومن ثم فقد وضع عماد الدولة نفسه تحت حماية ملك أراجون القوى ، ألفونسو المحارب ، خشية من نقمة المرابطين سادة سرقسطة ، واستمر عبد الملك عماد الدولة ، فى حكم إمارته الصغيرة نحو عشرين عاماً ، حتى توفى بحصن روطة فى شعبان سنة ٥٢٤هـ (١١٣٠م) . وكانت سرقسطة قد سقطت فى تلك الأثناء فى أيدى النصارى ، وأصبح ألفونسو المحارب سيد هذه الأنحاء بلا منازع . وتوجد ثمة رواية مفادها أن عماد الدولة بن هود ، لبث أميراً بسرقسطة ، تحت حماية المرابطين ، حتى سقطت المدينة فى أيدى النصارى ، وعندئذ فر منها إلى روطة[٣] . بيد أن هذه الرواية ضعيفة لاتؤيدها أية رواية أخرى . وينقضها بالعكس ، ماسبق أن ذكرناه من توالى الولاة المرابطين على سرقسطة ، مذ دخلها ابن الحاج حتى سقوطها فى أيدى النصارى فى سنة ٥١٢ هـ (١١١٨ م) .

---

(١) ابن الكردبوس فى كتاب « الإكتفاء » (مخطوط الأكاديمية السالف الذكر لوحة ١٦٥ب) .

(٢) ابن عذارى فى البيان المغرب (الأوراق المخطوطة — هسبيرس ص ٧٨) .

(٣) ابن الكردبوس فى كتابه السالف الذكر (المخطوط لوحة ١٦٥ب) .

ولما توفى عماد الدولة خلفه فى إمارة روطة وأعمالها ، ولده أبو جعفر أحمد ابن عبد الملك ، وتلقب بسيف الدولة المستنصر بالله . وكذلك المستعين بالله ، واستمر فى حكم روطة وما حولها من الحصون والأراضى ، وحذا حذو أبيه فى محالفة النصارى ، والانضواء تحت حماية ألفونسو المحارب ملك أراجون . بيد أنه ما لبث أن شعر بوطأة هذا النير . ورأى أن يتجه إلى الناحية الأخرى من اسبانيا النصرانية ، إلى ناحية قشتالة . وكان ملك قشتالة الفتى ألفونسو ريموندیس ، الذى تسميه الرواية العربية أدفنش بن رمند باسم أبيه ريموند البورجونى ، وبالسُّليطين أى الملك الصغير — لانه تولى الملك وهو حدث . وأضحى بعد وفاة أمه أورّاكا فى سنة ١١٢٦م ، ملكاً على ليون وقشتالة ولمّا يجاوز الحادية والعشرين. وكان ألفونسو ريموندیس ، بعد أن انتهى النضال بينه وبين خصمه ومنافسه ألفونسو المحارب ، زوج أمه القديم بظفره ، وأضحى سيد قشتالة القوى ، يبدو لسيف الدولة حليفاً أفضل . وتعرف الرواية اللاتينية « سيف الدولة » معرفة جيدة ، وتسميه « سفادولا » Zafadola ، وتقول لنا إن سيف الدولة عرض على أولاده ووزرائه ، فكرة التحالف مع ملك قشتالة والانضواء تحت لوائه ، فوافقوا عليها ، وأنه بعث إلى ملك قشتالة برغبته فى زيارته ، وبأن يرسل إليه بعض فرسانه لحمايته ، خوفاً من المرابطين ، فبعث إليه الملك ببعض أكابر فرسانه ، وصحبوه إلى بلاط طليطلة ، فاستقباه الملك بترحاب وعطف ، وعامله معاملة ملك ، وقدم إليه طائفة من الهدايا النفيسة ، وتأثر سيف الدولة بما رآه من فخامة بلاط قشتالة ، وكريم معاملته ، فأعلن أنه ينضوى تحت لوائه وحمايته ، ويضع نفسه هو وأولاده تحت تصرفه ، ثم نزل له عن حصن روطة ، مقابل حصون وبلاد فى منطقة طليطلة وإسترامادورة ، أعطاه إياها ملك قشتالة ، فانتقل إليها ووضع نفسه فى خدمته[1] .

وتقدم إلينا بعض الروايات النصرانية الأخرى ، قصة سيف الدولة فى صيغة أخرى ، فتقول إن سيف الدولة لما برم بحماية ملك أراجون المرهقة ، وخشى من انقلاب رعيته عليه لمحالفته للملوك النصارى ، قرر أن يعترف بحماية ملك قشتالة ، ونزل له عن روطة اليهود ، وغيرها من المواقع المنيعة ، الباقية من مملكته الصغيرة ،

---

(١) تراجع هذه الرواية فى A. P. Ibars : Valencia Arabe (Valencia 1901) T.I. p. 466-467 وكذلك فى F. Codera : Dec. y Disp. de los Almoravides, p. 24-26

فاستقبله ملك قشتالة بترحاب ، وأعطاه فى مقابل ذلك ، عدة أمكنة فى قشتالة وليون (سنة ١١٣٢ م)[١].

وتحدثنا الرواية العربية عن سيف الدولة المستنصر بن هود ، وعن تنازله عن حصن روطة لملك النصارى ، ولكنها تختلف فى تفاصيل ذلك . ويضع ابن الاثير هذا التنازل فى حوادث سنة ٥٢٩ هـ (١١٣٤ م) ، ويقول لنا إن المستنصر ابن هود ، عقد فى هذه السنة الصلح مع « السليطين » (ألفونسو ريمونديس) . وكان « السليطين » قد أكثر من غزو بلاد المستنصر وقتالها حتى ضعف عن مقاومته ، فرأى أن يريح نفسه وجنده مدة ، فاستقر بينهما الصلح لمدة عشر سنين ، على أن يسلم المستنصر حصن روطة ، وهو من أمنع الحصون وأحصنها ، وتسلم النصارى الحصن « وفعل المستنصر فعلة لم يفعلها قبله أحد »[٢] .

ويقدم إلينا ابن الكردبوس عن هذه الواقعة رواية ضافية ، ينفرد فيها بتفاصيل خاصة ، خلاصتها أن طاغية الروم الإنبرطر الملقب بالسُّلطين ، هو الذى راسل المستنصر ، وعرض عليه أن يتخلى له عن روطة ويعوضه عنها بقشتالة ماهو أحسن وأفيد ، بحيث يغدو وأقرب إلى بلاد غربى الأندلس ، وأنه سوف يخرج معه بنفسه إلى طائفة من البلاد المتاخمة لقشتالة يدعو أهلها لطاعته ، وأنه على يقين من أن أهل هذه البلاد سوف يستجيبون إلى دعوته ، لأن المرابطين قد أذاقوهم العذاب ، وهم يكرهونهم ، ويتمنون زوال دولتهم ، وأخيراً أنه لم يبق من أبناء الملوك المسلمين سواه ، أى المستنصر ، وهكذا تخلى المستنصر لملك قشتالة عن روطة وهى « معقل ما أبصر مثله من يعقل » . وعوضه عنها ملك قشتاله بقرى ومزارع مغلة فى بلاده . ثم خرج معه إلى غربى الأندلس ، فى قوات كثيفة ، فما قصد موضعاً إلا ألفاه ممتنعاً ، ولم تستجب إلى دعوته أية قرية ، أو أى موضع ، وخشى أهل هذه البلاد جميعاً ، إن أطاعوه وانضموا تحت لوائه ، فإن العدو يغلبهم ويملكهم ، وهكذا رجع المستنصر من مشروعه بأخسر صفقة[٣] . ويستفاد من رواية ابن الكردبوس هذه ، أن ملك قشتالة ، كان يرمى إلى استخدام المستنصر

---

(١) M. Lafuente: ibid ; Vol. III p. 247.

(٢) ابن الأثير ج ١١ ص ١٣ .

(٣) وردت رواية ابن الكردبوس فى كتاب « الإكتفاء » (مخطوط أكاديمية التاريخ السابق الذكر لوحة ١٦٥ ب) .

فى إنشاء إمارة متاخمة لقشتالة من ناحية الجنوب الغربى ، تتكون من بعض البلاد والقرى الإسلامية النائية المجاورة لحدود قشتالة ، وذلك لكى يجعل منها قاعدة أمامية لعدوانه على أراضى الأندلس ، ووسيلة للضرب والتفريق بين المسلمين فى تلك المنطقة ، بيد أنه فشل فى مشروعه واقتصر سيف الدولة المستنصر ، فى مقامه بقشتالة ، على الأماكن والأراضى التى منحت له ليعيش فيها . ويقول لنا ابن الأبار إن ملك قشتالة عوضه عن روطة بنصف مدينة طليطلة[1]. وهذه رواية تدعو إلى التأمل ، لأن طليطلة كانت فى ذلك الوقت عاصمة مملكة قشتالة ، وتقول لنا الرواية اللاتينية السالفة الذكر إن ملك قشتالة منح المستنصر حصوناً وبلاداً فى منطقة طليطلة وإسترامادورة ، وهو أقرب إلى المعقول ، وربما شملت هذه الأماكن حيَّاً أو دوراً فى طليطلة ذاتها . ويضع ابن الأبار تاريخ تنازل المستنصر عن روطة فى شهر ذى القعدة سنة ٥٣٤ هـ (١١٣٩ م) .

وهناك رواية أخرى يقدمها إلينا ابن الخطيب ، وهى تختلف فى مضمونها عما تقدم ، وخلاصتها أن المستنصر بن هود لجأ إلى حماية ابن ردمير ، أعنى ألفونسو المحارب ملك أراجون ، وليس إلى حماية ملك قشتالة ، وأن ابن ردمير عاوضه عن روطة بأماكن من أعمال مدينة تُطيلة فى شمالى الثغر فانتقل إليها بأهله وأمواله[2].

وهكذا انتهت بتخلى المستنصر عن قاعدة روطة وأعمالها ، رياسة بنى هود فيما تبقى من أنقاض مملكة سرقسطة القديمة . وأقام المستنصر فى مقره الجديد فى كنف ملك قشتالة بضعة أعوام أخرى ، إلى أن سنحت له فرصة للتدخل فى حوادث الأندلس ، وشق طريقه إلى الرياسة من جديد ، وهو ما سنعنى به فى موضعه المناسب .

(١) ابن الأبار فى الحلة السيراء ص ٢٢٥ .

(٢) ابن الخطيب فى أعمال الأعلام ص ١٧٦ .

الفصل الخامس

الأمير تاشفين بن على

وغزواته وأعماله فى شبه الجزيرة

قاعدة التولية لدى المرابطين . على بن يوسف يولى ولده تاشفين شئون الأندلس . الخلاف حول تاريخ هذه التولية . خروج تاشفين إلى غزو قشتالة . غزوة لوالى إشبيلية . القشتاليون يغزون أراضى قرطبة . غزوة ينتان بن على لأراضى أراجون . تاشفين يفتتح حصن السكة . عود القشتاليين إلى غزو أراضى قرطبة . مسير تاشفين إلى لقائهم وهزيمتهم . غزو القشتاليين لأراضى إشبيلية وردهم . عودهم إلى الغزو بقيادة ملكهم ألفونسو ريموندس . التقاء تاشفين وقواته بالنصارى قرب بطليوس . هزيمة القشتاليين وفرارهم . خروج تاشفين إلى الغزو . اللقاء فى موقعة البكار . هزيمة المرابطين فى البداية ثم ثباتهم وانتصارهم . قصيدة أبى بكر الصيرفى فى مديح تاشفين ونصحه . إيضاح عن مكان الموقعة . حوادث أندلسية مختلفة . غزوة قشتالية لأراضى الأندلس . توغل القشتاليين وعيثهم حتى أراضى شريش . غزوات جديدة لتاشفين فى أراضى قشتالة . غزوة قشتالية أخرى لأراضى قرطبة . نقل قاعدة الحكم المرابطى من غرناطة إلى قرطبة . التنويه بتاشفين وحسن إدارته . عود تاشفين إلى المغرب . اختياره لولاية العهد مكان أخيه سير . ظروف هذه التولية وبواعثها .

— ١ —

وضح مما تقدم ، مما ذكرناه فى أخبار ولاة الأندلس وأقاليمها ، أن الدولة المرابطية ، كانت تعتمد فى حكم الأندلس على عصبية القبيل والأسرة ، فيتولى الحكم بها الأمراء من أبناء أمير المسلمين وقرابته وأصهاره ، ويتولى هؤلاء كذلك قيادة الجيوش المرابطية ، ويضطلع بالقيادة العامة ولد الأمير . وقد طبقت هذه القاعدة منذ البداية ، فكان الأمير سير ابن أبى بكر اللمتونى قائد الجيوش المرابطية ، ومتولى شئون الأندلس فى عهد يوسف بن تاشفين ، ثم كان أبو الطاهر تميم ولد يوسف متولى القيادة العامة ، منذ وفاة والده ، وولاية أخيه على بن يوسف ، وكذلك متولى شئون الأندلس ، وقاعدته الإدارية غرناطة . ولبث تميم فى منصبه عدة أعوام ، قاد فيها الجيوش المرابطية منذ موقعة أقليش فى سنة ٥٠١ هـ (١١٠٨م)، حتى سقوط سرقسطة فى سنة ٥١٢هـ (١١١٨م) ، وموقعة كتُندة فى سنة ٥١٤ هـ (١١٢٠ م) . وفى سنة ٥١٦ هـ (١١٢٢م) ، ولّى الأمير تميم ولاية إشبيلية إلى جانب ولاية غرناطة ثم صرف عن إشبيلية فى العام التالى ، ووُلى

إشبيلية الأمير أبو بكر بن على بن يوسف . واستمر الأمير تميم بعد ذلك والياً على غرناطة . ومتولياً لسائر شئون الأندلس . حتى توفى سنة ٥٢٠هـ (١١٢٦م) .
ومما هو جدير بالذكر أن القاضى أبا الوليد بن رشد ، حينما عبر إلى العدوة فى هذا العام نفسه ، على أثر غزوة ألفونسو المحارب . بممالأة النصارى المعاهدين ، كان يقصد — إلى جانب سعيه لدى أمير المسلمين على بن يوسف فى تغريب المعاهدين — أن يسعى كذلك فى عزل أخيه تميم عن ولاية الأندلس ، وتعيين غيره[1]. ولكن القدر عجل بوفاة تميم . فعندئذ عهد أمير المسلمين على بن يوسف بشئون الأندلس ، إلى ولده تاشفين بن على ، فعبر إليها فى جيش مرابطى جديد من خمسة آلاف فارس ، ولم يلبث أن بدأ سلسلة جديدة من الغزوات فى أراضى قشتالة .

وتختلف الرواية فى تاريخ تولية تاشفين لشئون الأندلس . فهناك قول بأن توليته كانت فى سنة ٥٢٠ هـ عقب عزل عمه تميم[2] . وهناك قول آخر بأن هذا التعيين كان فى سنة ٥٢٢ أو ٥٢٣ هـ[3] ، ثم هناك قول ثالث بأنه كان فى سنة ٥٢٦ هـ[4]. بيد أنه يبدو من أقوال صاحب البيان المغرب عن غزوات تاشفين بالأندلس ، وهى أقوال تؤيدها الرواية النصرانية . أن تاشفين كان موجوداً بالأندلس منذ سنة ٥٢٢ هـ ، وأنه قد التقى فى هذا العام ذاته بالقشتاليين على مقربة من قلعة رباح[5]. وهذه الرواية يؤيدها أيضاً ما يذكره لنا ابن القطان فى حوادث سنة ٥٢٢ هـ ، وهو أن علياً بن يوسف . عزل ولده الأمير أبا بكر عن ولاية إشبيلية ، وغربه مكبولا إلى الصحراء ، لأنه لم يرض عن بيعة أخيه . وتوليه شئون الأندلس ، وعين مكانه لولاية إشبيلية أجداى والى قرطبة[6] . ويؤيد ابن عذارى واقعة عزل الأمير أبى بكر ولكنه لا يذكر لنا شيئاً عن تغريبه ، ويقول لنا إن الذى خلفه فى ولاية إشبيلية هو عمر بن سير . وذلك فى شعبان سنة ٥٢٢هـ[7].
وفضلا عن ذلك ، فإن صاحب البيان المغرب . ينقل إلينا عن ابن الوراق رواية

---

(١) الحلل الموشية ص ١٠٧ .
(٢) روض القرطاس ص ١٠٦ .
(٣) ابن الخطيب فى الإحاطة (القاهرة ١٩٥٦) ج ١ ص ٤٥٤ و ٤٥٧ .
(٤) ابن خلدون ج ٦ ص ١٨٦ .
(٥) البيان المغرب (الأوراق المخطوطة — هسبيرس ص ٩٠) .
(٦) ابن القطان فى نظم الجمان (المخطوط السالف ذكره) .
(٧) البيان المغرب (الأوراق المخطوطة — هسبيرس ص ١١٠) .

أخرى مفادها أن ولاية تاشفين للأندلس كانت فى سنة ثلاث وعشرين وخمسمائة ، وأنه قدم إلى غرناطة فى السابع والعشرين لذى حجة من هذا العام[١] .

وعلى أى حال فإن حديث غزوات تاشفين فى شبه الجزيرة يبدأ بالفعل قبل هذا التاريخ . ويستفاد من رواية صاحب روض القرطاس أن تاشفين قد عبر إلى شبه الجزيرة منذ سنة ٥٢٠ هـ ، وأنه خرج فى أواخر هذا العام أو أوائل العام التالى فى جيشه ، وفى أجناد الولايات ، غازياً إلى أراضى طليطلة ، فعاث فى أحوازها ، واقتحم اثنين من حصونها ، ثم سار نحو الغرب ، والتقى بالنصارى فى موضع يعرف « بفحص الضباب » فهزمهم هزيمة شديدة ، وافتتح ثلاثين حصناً من حصون هذه المنطقة وكتب إلى أبيه بالفتح[٢] .

وقام الأمير تاشفين بعد ذلك بعدة غزوات فى أراضى قشتالة ، وخاض مع القشتاليين معارك عديدة . وبالرغم من أن الرواية العربية تحدثنا عن غزوات تاشفين ووقائعه فى عبارات حماسية ، فإنها لا تقدم إلينا تفاصيل شافية عن هذه الوقائع . وكذلك فإن الرواية النصرانية ليست دقيقة ولا واضحة فى هذا الموطن .

وفى وسعنا أن نتتبع غزوات الأمير تاشفين وحروبه مع النصارى منذ سنة ٥٢٢ هـ (١١٢٨ م) ، ففى تلك السنة غزا القشتاليون أراضى الأندلس بجيش ضخم ، ووصلوا فى زحفهم إلى جبال الكرس ، على مقربة من قلعة رباح ، فخرج الأمير تاشفين إلى لقائهم ، فارتدوا عائدين إلى بلادهم .

وفى العام التالى ، أعنى فى سنة ٥٢٣ هـ (١١٢٩ م) ، سير الأمير تاشفين جيش إشبيلية بقيادة واليها عمر بن سير اللمتونى ، فأغار على أطراف قشتالة ، فخرج إليه زهاء ثلاثمائة فارس للعدو وقاتلوه بشدة ، فانهزم المرابطون ، وقتل وأسر الكثير منهم . وكانت هذه الهزيمة ترجع بالأخص إلى تهاون عمر بن سير وعدم تحوطه ، فرفع أمره إلى أمير المسلمين على بن يوسف ، فألزمه بدية من أسر ، وعزله عن ولاية إشبيلية ، وولى مكانه الأمير أبا زكريا يحيى بن على الحاج .

وفى سنة ٥٢٤هـ (١١٣٠ م) انحدرت القوات القشتالية جنوباً حتى أصبحت على مقربة من قرطبة ، فاستغاث واليها عبد الله بن تينغمر بالأمير تاشفين ، فبادر إليها فى قواته ، فارتد القشتاليون أدراجهم ، ولم يشاءوا الاشتباك مع المرابطين ،

---

(١) البيان المغرب (الأوراق المخطوطة – هسبيرس ص ٩١) .

(٢) روض القرطاس ص ١٠٧ .

وتحول الأمير تاشفين بقواته إلى جيان . فلبث بها قليلا يرقب الحوادث ، ثم سار منها إلى غرناطة[١] .

وتوفى فى أوائل هذا العام محمد بن يوسف بن يدّر والى بلنسية ، فعين مكانه ينتان بن على وهو الابن الأصغر لعلى بن يوسف . وخرج ينتان بقواته غازياً فى أراضى أراجون . فلقيه النصارى بقيادة الكونت جاستون دى بيارن (وتسميه الرواية العربية غشتون) فهزم النصارى ، وقتل الكونت وسيق رأسه إلى غرناطة وطيف بها على رمح ؛ ثم حملت إلى أمير المسلمين بمراكش ، فطيف بها هنالك أيضاً .

وفى رمضان من نفس هذا العام . خرج الأمير تاشفين بجيش غرناطة ومتطوعتها . واتصل به جيش قرطبة إلى حصن السكة Aceea من عمل طليطلة . وكان ملك قشتالة ، قد شحنه بالمقاتلة للإغارة على أراضى المسلمين . فحاصره تاشفين . وافتتحه عنوة . وقتل من كان به ، وأسر قائده تليو فرنانديث — وكان من مشاهير فرسان قشتالة — وكذلك ضباطه ، وتزيد الرواية النصرانية على ذلك ، أن القتلى من حامية الحصن بلغوا مائة وثمانين ، وأن تاشفين سار بعد ذلك إلى حصن بارجاس فقتل من رجاله خمسين . واستمر فى تقدمه حتى وصل إلى « سان سرڤاندو » من ضواحى طليطلة ، ثم ارتد بعد ذلك بقواته جنوباً وعاد إلى غرناطة ، فاستقبله الناس أفخم استقبال[٢] .

وفى صفر سنة ٥٢٥ هـ (يناير ١١٣١م) ، هزم المرابطون قوة من القشاليين كانت تغير على الحدود وتضيق على المسلمين .

وفى هذا العام أسندت ولاية قرطبة إلى ابن أخت على بن يوسف ، عبد الله ابن أبى بكر المعروف بابن قنونة . وفيه شبت النار بسوق الكتانين بقرطبة ، واتصلت بسوق البز . فأتت عليه وأسفرت عن خسائر فادحة ؛ ورجم الناس ابن المناصف صاحب السوق لتقصيره فى المعونة[٣] .

وفى ربيع الأول سنة ٥٢٦ هـ (يناير ١١٣٢ م) ، نمى إلى الأمير تاشفين أن

---

(١) نقلنا أخبار هاتين الغزوتين ، عن البيان المغرب (الأوراق المخطوطة السالفة الذكر — هسبيرس ص ٩١) .

(٢) البيان المغرب (الأوراق المخطوطة — هسبيرس ص ٩١) . وابن القطان فى نظم الجمان (المخطوط السابق الذكر لوحة ٦٧ ا) .

(٣) نظم الجمان (المخطوط السالف الذكر لوحة ٦٨ ب) .

القشتاليين خرجوا من طليطلة متجهين صوب قرطبة، فبادر بالسير إلى قرطبة ، ثم اتجه إلى لقاء العدو فى قواته الخفيفة ، وترك الثقل بحصن أرجونة ، وفى تلك الأثناء كان القشتاليون قد وصلوا حصن شنت إشتيبن على مقربة من جيان ، واستولوا عليه ثم ساروا إلى قرية براشة . وهناك التقى الفريقان ، ووقعت بينهما معركة عنيفة ، هزم فيها القشتاليون وقتل منهم عدد جم ، وأسر قائد القشتاليين وعدة من أكابر ضباطه ، واستولى المرابطون على مقادير وافرة من الأسلحة والدواب والثياب ، وسار الأمير تاشفين بالأسرى والغنائم إلى قلعة رباح القريبة من ميدان المعركة ، فأصلح أحوالها وحصن أسوارها ، وترك الأسرى لدى أهلها ، ليفتدوا بهم من يستطيعون من أسراهم ، ثم عاد فى قواته ظافراً إلى غرناطة[١] .

وقد سجل لنا ابن القطان من أحداث هذا العام بعض صور أخرى غير أخبار الحرب والغزوات ، فذكر لنا أن المجاعة اشتدت فيه بقرطبة ، وانتشر الوباء بين الناس، وكثر الموت ، وبلغ سعر المد من القمح خمسة عشر دينارا ، وذاعت الفوضى وكثر أهل الشر ، فجد الوالى ابن قنونة فى مطاردة أهله ، وقتل الكثير منهم .

وفى أواخر هذا العام ، أعنى ٥٢٦ هـ ، خرج جيش من القشتاليين بقيادة الكونت ردريجو كونثالث إلى ناحية إشبيلية وأغاروا على أراضيها من جهة حصن القليعة ، وعاثوا فيها قتلا وسبياً، ثم انحدروا فجأة إلى الشَّرْف[٢] على مقربة من المدينة وقتلوا من أهله جموعاً غفيرة ، وأخذ والى المدينة عمر بن الحاج اللمتونى على غرة ، فبادر فى قواته إلى لقاء القشتاليين بالوادى على ضفة النهر ، وبعث سرية من فرسانه إلى الضفة الأخرى ، فأسرت بعض القشتاليين وجاءت بهم فأمر الوالى بضرب أعناقهم أمام أعين إخوانهم فى الضفة الأخرى ، فاضطرم القشتاليون سخطاً وحماسة، واقتحموا النهر كالسيل المنهمر ، وأطبقوا على المرابطين ، ووقعت بينهما معركة عنيفة ، قتل فيها عمر بن الحاج ومعظم جنده ، فأغلقت المدينة

---

(١) ابن الخطيب فى الإحاطة ج ١ ص ٤٥٩ . والبيان المغرب (الأوراق المخطوطة المشار إليها . هسبيرس ص ٩٤ و ٩٥) .

(٢) إقليم « الشرف » فى الجغرافية الأندلسية ، هو السهل الممتد غرباً من إشبيلية حتى لبلة ، وجنوباً حتى شاطىء المحيط ، ويشمل حصن القصر ، ولبلة ، وولبة ، وجزيرة شلطيش ، وجبل العيون . وقد سمى بهذا الاسم لأنه «مشرف من ناحية اشبيلية» (الإدريسى فى نزهة المشتاق . الجزء الخاص بوصف المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس طبعة دوزى ص ١٧٤ و ١٧٨) .

أبوابها دون الغزاة . واشتد الخوف بالناس . وكان ذلك فى منتصف رجب من السنة المذكورة[1] .

وزحف القشتاليون على إشبيلية حتى صاروا على قيد فرسخين منها . وهم يثخنون فى أحوازها قتلا وسبيا وتخريباً . وكان الأمير تاشفين . حينما نمى إليه عدوان القشتاليين قد نهض فى قواته إلى إشبيلية . فطارد العدو وطهر منه الوادى. وارتد النصارى إلى بلادهم مثقلين بالغنائم والسبى .

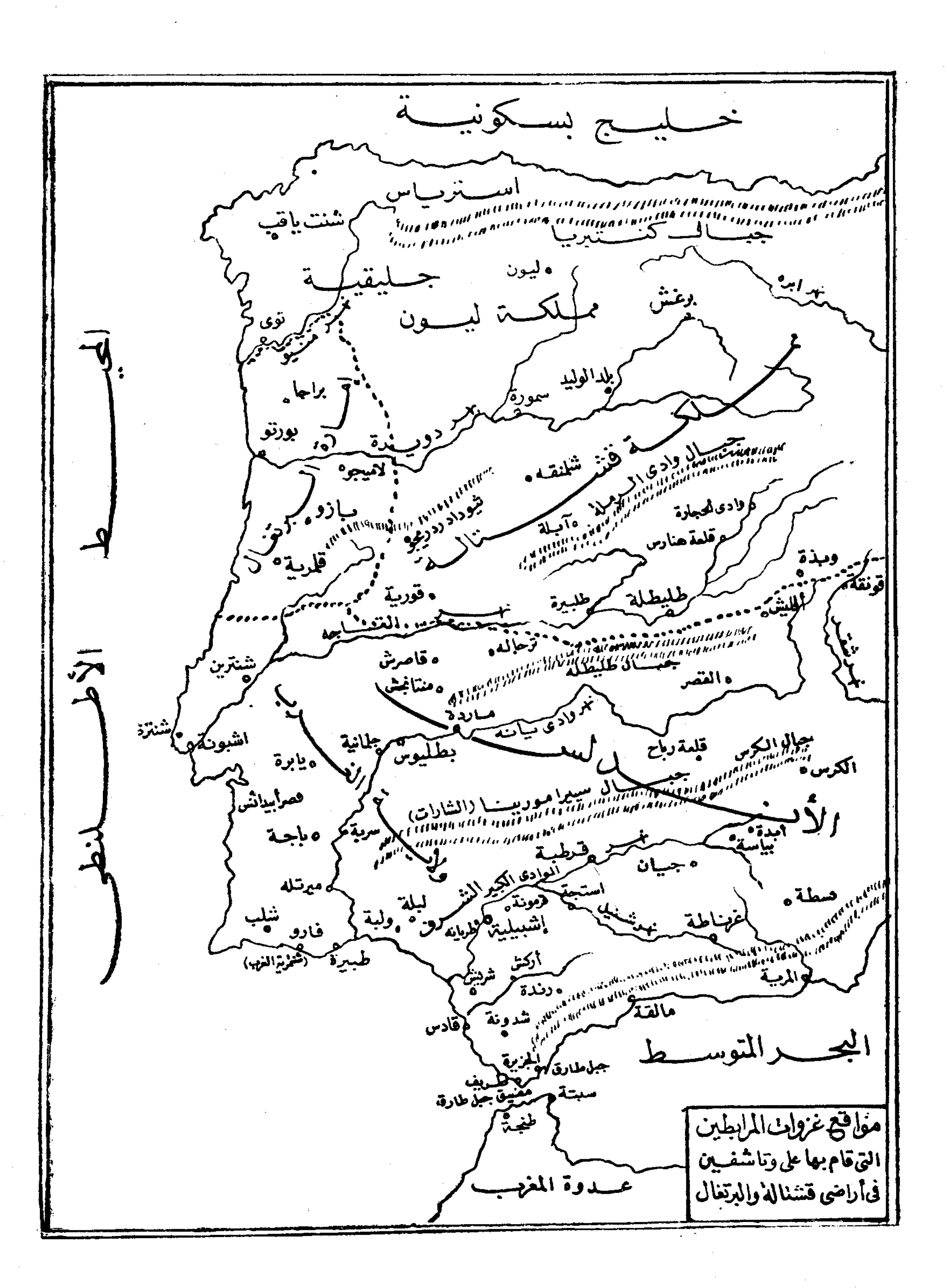
وتزيد الرواية الإسلامية على ما تقدم . أن الأمير تاشفين سار فى قواته نحو الغرب ومعه ابن قنونة والى قرطبة . والتقى بقوة من النصارى ، كانت قد أغارت على أحواز يابرة ، فهزمها المرابطون ، وقتلوا معظم رجالها ، وأنقذوا منها الغنائم والأسرى[2] .

بيد أنه لم يمض قليل عن ذلك . حتى بدت نيات القشتاليين واضحة فى استئناف العدوان على نطاق واسع . ففى أوائل سنة ٥٢٨ هـ (١١٣٤ م) حشد ألفونسو ريموندیس (ألفونسو السابع) أو ألفنش بن رمند كما تسميه الرواية العربية ، جيشاً ضخما من آلاف عدة ، وبه كثير من أبطال قشتالة وأنجادها المشهورين ، وقصد إلى ناحية بطليوس ، وعاث فى أحوازها ، وخرب أراضيها . فنهض إليه الأمير تاشفين من إشبيلية فى قوات ضخمة ، ووقف من أدلائه وطلائعه على خط سير العدو ، ورابط للقائه فى مكان يقع شرقى بطليوس على مقربة من سهل الزلاّقة . الذي اشتهر بانتصار جده العظيم يوسف بن تاشفين فيه ، على ألفونسو السادس (٤٧٩ هـ) ، وما كادت طلائع العدو تبدو ، وقد ملأت جموعه وغنائمه السهل . حتى تأهب المرابطون للقائه بحماسة وتوثب . ونظم الجيش الإسلامى مثلما نظم يوم الزلاّقة فى وحدات متناسقة ، فاحتل المرابطون ، وعلى رأسهم الأمير تاشفين القلب ، تتقدمهم البنود البيض مكتوبة بالآيات ، واصطفت إلى جانبيه القوات الأندلسية تتقدمها الرايات الحمراء بالصور الهائلة ، واحتل الجناحين أهل الثغور وذوو الجلاد ، وعليهم الرايات المرقعات ، واحتل المقدمة أنجاد زناتة ، ولفيف الحشم ذوو العمائم ، وأمامهم الأعلام المصبغات ، ونشبت بين الفريقين

---

(١) البيان المغرب (الأوراق المخطوطة — هسبيرس ص ٩٧) ونظم الجمان (المخطوط السالف الذكر لوحة ٧١ ب) ، وابن الخطيب فى الإحاطة ج ١ ص ٤٦٠ .

(٢) ابن القطان فى نظم الجمان (المخطوط السابق ذكره لوحة ٧٢ ا) .



مواقع غزوات المرابطين التي قام بها على وتاشفين في أراضى قشتالة والبرتغال

معركة عنيفة ، دارت فيها الدائرة على القشتاليين ، فهزموا شر هزيمة ، ولجأوا إلى الفرار ، وقد قتلت وأسرت منهم جموع غفيرة ، واستنقذ المسلمون الأسرى والغنائم من أيدى القشتاليين ، وكان ذلك فى جمادى الأولى من سنة ٥٢٨ هـ (مارس سنة ١١٣٤) وقفل الأمير تاشفين فى قواته ظافراً إلى قرطبة . ثم سار منها إلى غرناطة فاستقبل استقبالا فخماً ، وأنشده الشعراء مهنئين ، فمن ذلك قصيدة طويلة جاء فيها :

أما وبيض الهند عنك خصوم   فالروم تبذل ما ظباك تروم
تمضى سيوفك فى العدا ويردها   عن نفسه حيث الكلام وخيم
دار هجمت بيوتها بظباك فأبدأ   على قمم الملوك هجوم[1]

وفى شهر ذى الحجة من نفس العام (٥٢٨ هـ) خرج الأمير تاشفين أثر عيد النحر ، بقوات غرناطة وقرطبة وقوات المجاهدين من الخيل والرجل ، إلى الغزو ، فسار نحو الغرب ، وقد انضم إليه جيش إشبيلية « بفحص الريحانة » ثم سار إلى موضع تسميه الرواية « بالبكار » وهو طريق للعدو لا محيص منها . ولما رأى القشتاليون القوات المرابطية ، وضعوا خطة لاجتذابها إلى هذا الموضع ، وأقبل المرابطون بالفعل إليه ، وندب القشتاليون نخبة من أنجادهم تبلغ نحو ألفين ، فانقضت على المرابطين فجأة عند دخول الظلام ، فى هذا الموضع الحرج ، واستطاعت أن تخترق صفوفهم فى عدة مواضع ، فدب الخلل بالجيش المرابطى ، ونفرت الخيل وشردت واقتحمت الأخبية ، وعلا الصياح بين المسلمين ، وفروا من كل جانب ، ووصلت سرية من النصارى إلى خيمة الأمير تاشفين ، فأشار إليه بعض خاصته بأن يبادر بالفرار ، فأبى ، فأحدق به فرسان الأندلس وأنجاد المرابطين ، وحالوا بينه وبين العدو ، ووقعت بين الفريقين معركة عنيفة ، والأمير تاشفين ثابت فوق فرسه ، متشح بسيفه ودرعه ، يشدد الضرب والطعان ، قال المؤرخ « فلم ير أربط منه جأشاً ولا أشهم نفساً ، فى مطلع ذلك الهول » ، واستطاع أحد الجند العبيد أن يقضى على قائد القشتاليين المهاجمين بطعنة نافذة ، ثم انجلت الظلمة عن هزيمة النصارى ، وقد اجتمعت من القتلى من الجانبين أكداس ضخمة . وفى صباح الغد سار الأمير تاشفين فى قواته إلى حصن قشرش ، وهو من

---

(١) البيان المغرب (الأوراق المخطوطة هسبيرس — ص ٩٧) ، وابن الخطيب فى الإحاطة ج ١ ص ٤٦٠ و٤٦١ . ولم يذكر لنا ناظم هذه القصيدة .

حصون المسلمين ثم غادره عائداً إلى قرطبة[1] . وقد وجه إليه كاتبه أبو بكر يحيي ابن الصيرفي بهذه المناسبة قصيدة ضافية ، يهنئه فيها بالسلامة ، ويحذره من خدع الحرب ، ويسدى إليه بعض النصائح فيما يجب أن يكون عليه القتال . وهي طويلة في نحو ستين بيتاً . نقتطف منها الأبيات الآتية :

يا أيها الملأ الذى يتقنع ... من منكم البطل الهمام الأورع

ومن الذى غدر العدو به دجى ... فانفض كل وهو لا يتزعزع

تمضى الفوارس والطعان يصدها ... عنه ويدمرها الوفاء فترجع

والليل مرضج الترايك بينهم ... صبح على هام الكماة ملمع

عن أربعين ثنت أعنتها دجى ... ألفان ألف حاسر ومقنع

لولا رجال كالجبال تعرضت ... ماكان هذا السيل مما يودع

فثبتّ والأقدام تزلق والردى ... حول السرادق فى الأسنة تقرع

لا يعظمن على الأمير فإنها ... خدع الحروب وكل حرب تخدع

ولكل يوم حنكة وتمرس ... وتجارب فى مثل نفسك تنجع

يا شجع الأبطال ليلة أمسه ... اليوم أنت مع التجارب أشجع

ومنها فى نصائح الحرب :

واحذر كمين الروم عند لقائها ... واخفض كمينك خلفها إذ تدفع

لا تبقين النهر خلفك عند ما ... تلقى العدو فنشره متوقع

أجعل مناجزة العدو عشية ... ووراءك الصدف الذى هو أمنع

وصدمه أول وهلة لا ترتدع ... بعد التقدم فالنكوص يضعضع

وجاء فى ختامها فى مخاطبة تاشفين وتهنئته :

يا تاشفين أقم لجيشك عذره ... بالليل والقدر الذى لا ينفع

هجم العدو دجى فروّع مقبلا ... ومضى يهيم وهو منك مروع

كم وقعة لك فى ديارهم انثنت ... عنها أعزتها تذل وتخضع

النعمة العظمى سلامتك التى ... فيها من الظفر الرضى والمَقْنع

كادت تكون ولو إذاً لتزلزلت ... عنها البسيطة والجبال الخُشَّع

وهوت بأندلس عقاب لم تدع ... فيها لذكر الله صوت يرفع

---

(١) نظم الجمان (المخطوط السابق ذكره لوحة ٧٥) . والبيان المغرب (الأوراق المخطوطة السالفة الذكر — هسبيرس ص ٩٨ و ٩٩) .

لأضَيّع الرحمن سعيك إنه سعى به الإسلام ليس يُضيّع
نستودع الرحمن منك وديعة فهو الحفيظ لكل ما يستودع[1]

وتشير الرواية القشتالية إلى هذه الموقعة[2] ، ولكنها كالرواية العربية ، لاتوضح لنا مكان وقوعها توضيحاً، كافياً، والظاهر مما تشير إليه أقوال صاحب البيان المغرب ، من أن الأمير تاشفين ، سار غداة المعركة فى قواته إلى حصن « قشرش » أنها وقعت على مقربة من هذا المكان . وتقع قشرش أو قاصرش Cáceres ، جنوبى نهر التاجه وشمال شرقى بطليوس وغربى ترجالُه . أما تاريخ الموقعة ، فتضعه الرواية العربية حسبما تقدم ، فى أواخر شهر ذى الحجة من سنة ٥٢٨ هـ (أوائل أكتوبر سنة ١١٣٤م) . ومما تجدر ملاحظته أن وقوعها جاء لنحو ثلاثة أشهر فقط من موقعة إفراغة ، التى هزم فيها ألفونسو المحارب وفقد حياته ، هذا فى حين أنه يبدو من أقوال الرواية النصرانية ، أنها وقعت قبل موقعة إفراغة .

ومما يلفت النظر ، ما يذكره لنا ابن القطان غير مرة من هجوم أسراب الجراد على بسائط الأندلس وإتلافها فى هذين العامين الأخيرين . وقد ذكر لنا أنه فى العام الذى وقعت فيه الغزوة السابقة — وهو يضع تاريخها فى سنة ٢٢٩ هـ — « محت الجراد ما على الأرض من زرع وكلأ ، وأمر الناس بالخروج إليها فساقوا منها خمسة آلاف عدل ، وثلاثمائة وثلاثين عدلا ، وما غاب عن العيون أكثر تركت فى الموضع الذى قتلت فيه ولم تحمل » .

ومما يذكر من أحداث هذه الفترة أيضاً ، أنه فى سنة ٥٢٩ هـ ، وقع بقرطبة هياج شديد ، وثارت العامة ضد اليهود على أثر ظهور قتيل مسلم فى بعض أحيائهم ، واقتحموا منازل اليهود ، ونهبوها ، وقتل خلال ذلك عدد منهم . ووقعت فى نفس الوقت بعض اضطرابات بمدينة إشبيلية ، من جراء ثورة العامة ضد قاضيها أبى بكر بن العربى ، وكان يشتد فى زجرهم ، ومعاقبتهم بمختلف العقوبات الأليمة المبتكرة[3] .

---

(١) راجع الحلل الموشية حيث يشير إلى هذه الموقعة بإيجاز (ص ٩٢) ، ثم يورد قصيدة ابن الصيرفى كلها (ص ٩٣ — ٩٦) .

(٢) M. Lafuente : ibid; Vol. III. p. 248

(٣) البيان المغرب (فى الأوراق المخطوطة السالفة الذكر —هسبيرس ص ١٠١) .

وفى نفس هذا العام ، وقع حادث مروع بجامع قرطبة ، هو مصرع قاضى قرطبة أحمد بن خلف التجيبى (أو أبو عبد الله بن الحاج وفقاً لابن القطان) . وثب به أحدهم فطعنه بخنجره ، وهو راكع حين صلاة الجمعة ، فسقط مضرجاً بدمه ، ووقع بالجامع هرج عظيم ، وأخرج المرابطون منه أميرهم تاشفين فى حراسة قوية ، وقبض على القاتل وقتل لحينه فى صحن الجامع ، وتوفى القاضى فى مساء نفس اليوم ، وهو الخامس والعشرون من صفر سنة ٥٢٩ هـ[١] .

وتقص علينا الرواية النصرانية قصة غزوة قام بها القشتاليون فى سنة ١١٣٣ م ومعهم سيف الدولة المستنصر بن هود ، فى أراضى الأندلس ، على غرار غزوة ألفونسو المحارب ، وتقول لنا إن ألفونسو ريموندیس ملك قشتالة قسم جيشه لهذا الغرض إلى قسمين ، بقصد تسهيل التموين والحركة ، سار هو على رأس أحدهما ، وقاد الآخر سيف الدولة ، والدون ردريجو كونثالث دى لارا زعيم ليون ، وعبر الجيشان جبال سيرًّا مورينا ، (جبل الشارات) ، واجتمعا على مقربة من قرطبة ، وكان الفصل فصل الحصاد فأمر ملك قشتالة بانتساف حقول القمح والكروم والزيتون وغيرها ، فساد الرعب بين المسلمين وهجروا السهول والقرى ، إلى الحصون ومغائر الجبال ، ووصل الجيش النصرانى فى زحفه إلى أحواز إشبيلية ، وهو يحرق المزارع والقرى والقلاع المهجورة ، ويدمر المساجد ويحرق المصاحف ، ويقبض على الفقهاء ويعذبهم ، وشمل هذا العيث المروع الذى كانت تقوم به سريات خفيفة من الفرسان النصارى ، سائر المنطقة الواقعة ما بين قرطبة وإشبيلية ، وامتلأت صفوف القشتاليين من الغنائم والأسرى والأقوات ، ومن ثم سار ملك قشتالة إلى شريش ، فخربها وهدمها ، ثم سار إلى قادس ، ولما رأى ذلك أمراء الأندلس ، بعثوا إلى سيف الدولة يطلبون إليه أن يعمل ملك النصارى ، على تحريرهم من نير المرابطين ، فبعث إليهم بعد التفاهم مع ملك قشتالة يحثهم على انتزاع الحصون ومقاتلة المرابطين ، وعندئذ يأتى هو وملك قشتالة لإنجادهم . بيد أن الملك اعتزم أن يعود أدراجه على الأثر ، وألا يغامر بالبقاء فى أرض لا يأمن مغبتها ، وارتد إلى منطقة طليطلة[٢] .

---

(١) البيان المغرب (الأوراق المخطوطة — هسبيرس ص ١٠ و ١٠١) ؛ وابن القطان فى نظم الجمان (المخطوط السابق ذكره) .

(٢) M Lafuente: ibid; (cit. Crónica Alfonso VII); Vol. III. p. 249

وتقدم إلينا الروايات الإسلامية أنباء هذه الغزوة فى عبارات موجزة . ويضع ابن القطان حدوثها فى سنة ٥٢٦ هـ (١١٣٢ م) ، ويقول لنا إنه فى هذه السنة خرج السليطين (ألفونسو ريموندبس) وابن هود إلى بلد المسلمين ، فهبطوا إلى إشبيلية ، وانبسطت خيلهم ، واقتحمت ما وجدت ، ثم هبطوا إلى شريش ، فدخلوها وقتلوا كل من فيها ، وبالغوا فى النكاية بالمسلمين ، ثم رجعوا إلى بلادهم. ويقول لنا ابن عذارى نقلا عن ابن حمادة ، إن العدو وصل إلى حومة شريش والبحيرة ، ولم يلقه أحد من المسلمين . ويضع تاريخ هذه الغزوة فى سنة ٥٢٧هـ (١١٣٣ م) متفقاً بذلك مع الرواية النصرانية[١] .

ولكن الرواية العربية من جهة أخرى تشير إلى غزوات ثلاث أخيرة قام بها الأمير تاشفين . وبالرغم من أنها تذكر لنا التاريخ والمكان فى كل غزوة ، فإنها لا تقدم لنا عنها تفاصيل شافية . وقد وقعت الأولى فى سنة ٥٣٠ هـ (١١٣٥ م) ، وفيها التقى الأمير تاشفين بالقشتاليين فى مكان يعرف « بفحص عطية » فهزمهم ، وقتل منهم جموعاً غفيرة . وفى العام التالى أعنى سنة ٥٣١ هـ (١١٣٦م) ، غزا الأمير تاشفين أرض قشتالة ، واقتحم مدينة كَرَكى على مقربة من قلعة رباح فلم يجد بها أحداً .

وقد أورد لنا ابن الخطيب بهذه المناسبة أبياتا نظمها الكاتب الكبير أبو عبد الله ابن أبى الخصال يمتدح فيها الأمير تاشفين ، ويشير إلى موقعة كركى ، وفيها يقول:

الله أعطاك فتحاً غير مشترك	ورد عزمك عن فوت إلى درك
أرسل عنان جواد أنت راكبه	واضمم يديك ودعه فى يد الملك
قد كان بعدك للأعداء مملكة	حتى استدرت عليهم كورة الفلك
فما تركت كميا غير منفغر	ولا تركت نجيعاً غير منسفك
فصحبتهم جنود الله باطشة	والصبح من عبرات الفجر فى مُسُك[٢]

ووقعت الغزوة الثالثة فى سنة ٥٣٢ هـ (١١٣٧ م) ، وكانت لمدينة « أشكونية » (أو أشكلونة Escalona وفقاً لصاحب نظم الجمان) وقد كانت حسبما يقول لنا صاحب الروض المعطار من أعمال كورة تدمير أى مرسية[٣]. وهذا

---

(١) نظم الجمان (المخطوط السابق الذكر لوحة ١٧٢ ا) ،والبيان المغرب (الأوراق المخطوطة هسبيرس ص ٩٦) .

(٢) ابن الخطيب فى الإحاطة – مخطوط الإسكوريال السالف الذكر (لوحة ٢٩) .

(٣) الروض المعطار (صفة جزيرة الأندلس) ص ٢٢ و ١٧٢ .

ما لا يمكن قبوله لأن ولاية تدمير كانت كلها من الأراضى الإسلامية . بيد أن الرواية النصرانية تلقى بعض الضوء على أخبار هذه الغزوة ومكانها . فتقول لنا أن الأمير تاشفين ، قام قبيل عبوره إلى العدوة باجتياح أراضى بلدتى وبذة ، وألاركون . وهما من أعمال مقاطعة قونقة الواقعة على الحدود ، ثم دخل قونقة وأخضعها . وكان أهلها قد أعلنوا الخروج والثورة وذلك فى سنة ١١٣٧م[١] ، وتقول الرواية الإسلامية إن تاشفين دخل أشكلونة (ألاركون ؟) عنوة ، وقتل كل من كان بها وسبى نساءها ، واحتوى على أسلابها . ومنها عدة من النواقيس العظيمة . ودخل قرطبة وبين يديه الأسلاب والغنائم ، فكان يوما مشهوداً . ثم تضيف الرواية إلى ذلك قولها إن الأمير تاشفين حمل من سبى هذه الغزوة عند عبوره إلى العدوة فى نفس العام ستة آلاف سبية[٢] .

وأخيراً . فإن تاشفين قبيل مغادرته للأندلس وحين خروجه من قرطبة قاصداً إلى العدوة . بلغه قيام النصارى بغزو منطقة جيان ، فاستعد للسير إلى لقائهم . وكان القشتاليون قد خرجوا فى حشود عظيمة . وساروا نحو الوادى الكبير ، واقتربوا من بيّاسة وأبّدة ، وعاثوا فى تلك المنطقة ، واستعدوا لعبور النهر ، ولكن الأمطار هطلت بشدة ، واستمرت على هطلها عشرين يوماً حتى فاض النهر ، وعجزت الخيل المغيرة عن عبوره . ووضع القشتاليون بعض المعادى فوق الماء ، وحاولوا عبور النهر . فانكسر بعضها وغرق من كان فيها ، وتبعهم قائد جيان فأوقع بجماعة منهم . وانصرف النصارى بعد أن هاجموا حصن شبيوطة من عمل أبدة وعجزوا عن اقتحامه . أما تاشفين فإنه لبث يترقب السير إلى الشمال ، مدى أسابيع ، والأمطار تهطل والسيول تغمر الطرق والبسائط وتعوقه عن السير . فلما بلغه انصراف النصارى ، ارتد من فوره صوب طريق العدوة ، وجاز البحر عائداً إلى حضرة مراكش ، وكان ذلك فى سنة ٥٣٢ هـ[٣] .

— ٢ —

ومما هو جدير بالذكر أن الأمير تاشفين ، كان حينما ولاه أبوه شئون الأندلس عقب وفاة عمه أبى الطاهر تميم ، قد اتخذ مقره فى غرناطة ، التى جعلتها الدولة

---

(١) A. P. Ibars : Valencia Arabe; P. 476

(٢) نظم الجمان (المخطوط السابق ذكره لوحة ٧٩) . وروض القرطاس ص ١٠٧ .

(٣) ابن القطان فى نظم الجمان (المخطوط السابق الذكر) .

المرابطية مركز الإدارة العامة لشئون الأندلس ، وكان الحاكم العام المرابطى يعتبر أحياناً فى نفس الوقت والياً لغرناطة ، وكان من بين معاونيه يومئذ الكاتب والشاعر والمؤرخ البارع ، أبو بكر يحى بن محمد بن يوسف الأنصارى ، المشهور بابن الصيرفى صاحب كتاب « الأنوار الجلية فى تاريخ الدولة المرابطية » . تولى له منصب الكتابة ، فحظى لديه وكانت له فيه مدائح جمة[١]. بيد أنه لم تمض بضعة أعوام على تولى تاشفين لمنصبه ، حتى صدر إليه مرسوم أبيه أمير المسلمين من مراكش فى العشرين من رجب سنة ٥٢٦هـ[٢]، بتعيينه والياً لقرطبة وبأن يجعل قرطبة « دار سكناه ومقر مثواه » ، وأن يستخلف على غرناطة عند مغادرتها ، أبا محمد الزبير بن عمر ، ليقوم بالولاية على شئونها . وقد كان الزبير هذا من زعماء لمتونة المرموقين ، ويشيد ابن الخطيب بذكره ويصفه « بندرة الزمان كرماً وبسالة ، وحزماً وأصالة »[٣] . ويوصى أمير المسلمين ولده فى هذا المرسوم الذى دبجه قلم الوزير الكاتب أبى عبد الله بن أبى الخصال بقوله : « وعلى مقرر ما درك من العمل ، فازدد من التيقظ باتساع ذرعك ، وامتداد مسعاك ، واستعن بالله فى إعلانك وأسرارك ، وخذ من أوقات ليلك الأوقات المباركة ، واجعل لنظرك حظا من سهرك ، ولفكرك مستمنحا من يديك ، على مستظهر عن المشورة فى مواطن الاشتباه ، فإن الله سبحانه يقول لرسوله : « وشاورهم فى الأمر»[٤] . ويستفاد مما تقدم أن على بن يوسف قرر أن ينقل مركز حكم الأندلس ، من غرناطة إلى قرطبة لأسباب رآها ، وهى أسباب ربما كانت سياسية وعسكرية فى نفس الوقت .

ودخل تاشفين قرطبة والياً فى شعبان من هذه السنة (٥٢٦هـ) ، وعزل واليها السابق عبد الله بن قنونة ، وسير إلى إشبيلية فاعتقل بها لأسباب لم توضحها الرواية ، وذلك بالرغم من قرابته لأمير المسلمين[٥] .

---

(١) ابن الخطيب فى الإحاطة (مخطوط الإسكوريال ١٦٧٣ الغزيرى لوحة ٤١٥)

(٢) والظاهر أن ابن خلدون قد اعتبر أن هذا المرسوم ، هو مرسوم تولية تاشفين ولاية الأندلس ، ولذلك فإنه يضع تاريخ توليته لهذا المنصب فى سنة ٥٢٦ هـ (كتاب العبر ج ٦ ص١٨٦) .

(٣) ابن الخطيب فى الإحاطة ج ١ ص ٤٥٨ .

(٤) نقل إلينا صاحب البيان المغرب بعض محتويات هذا المرسوم (وقد وردت فى الأوراق المخطوطة السابقة الذكر — هسبيرس ص ٩٥ و٩٦) . وقد نشرنا فى باب الوثائق بعض فقراته .

(٥) ابن القطان فى نظم الجمان (المخطوط السابق ذكره لوحة ٧٢ أ) .

وقد استوفينا فيما تقدم ، ما وقفنا عليه من تفاصيل الغزوات والحروب التى قام بها الأمير تاشفين خلال وجوده فى شبه الجزيرة . أما عن أعماله الإدارية وأسلوبه فى الحكم ، فلم نتلق الكثير . وقد لخص لنا ابن الصيرفى مؤرخ الدولة المرابطية ، سيرته فى ذلك فى عبارات موجزة خلاصتها ، أن الأمير تاشفين عنى منذ ولايته لشئون الأندلس بإصلاح الحصون ، وسد الثغور ، وإذكاء العيون على العدو ، وتنظيم الجيش ، واقتناء الخيل والسلاح ، وتكوين فرق الرماة ، وتوسيع الأرزاق على الجند ، واستنهاض هممهم ، كما عنى بالغزو ومباشرة الحرب ، فقام بعدة غزوات توجت بالظفر على العدو ، وافتتح فيها عديد الحصون . وأما عن أسلوبه فى الحكم ، فإنه سار فى حكم الأندلس وتمهيد أحوالها بالحزم ، والتزم العدل فى معاملة الرعية ، وكذلك فى معاملة الجند ، فملك قلوب الجميع بعدله ورفقه ، « ولم يكن منه إلا الجد ، ولم تُنل عنده الحظوة إلا بالغناء والنجدة »[١] .

وهذه أقوال يؤيدها صاحب البيان المغرب ، ويجملها فى قوله : « وساس (أى تاشفين) أهل الأندلس سياسة طار بها ذكره ، من الاستقامة ، واتباع ناموس الشريعة »[٢] .

وتنوه الرواية فى نفس الوقت بصفات تاشفين الشخصية ، فتقول لنا إنه « كان بطلا شجاعاً حسن الركبة والهيئة لولا بخل أخل به ، وأنه كان يسلك طريق ناموس الشريعة ، ويميل إلى طريقة المستقيمين ، وقراءة كتب المريدين . وقيل إنه لم يشرب قط مسكراً ، ولا استمع إلى قينة ، ولا اشتغل بلذة صيد ، ولا غير ذلك مما يلهو به الملوك من ساير اللهو »[٣] . وينوه ابن الصيرفى بورعه وتقواه ، وصيامه وقيامه[٤] .

— ٣ —

لبث الأمير تاشفين والياً على الأندلس ، وقائداً عاما للجيوش المرابطية بها

---

(١) ابن الخطيب عن ابن الصيرفى ، فى الإحاطة ج ١ ص ٤٥٦ ، وراجع أيضاً الحلل الموشية ص ٩٠ .

(٢) البيان المغرب فى الأوراق المخطوطة المتقدمة الذكر .

(٣) البيان المغرب (الأوراق المخطوطة السالفة الذكر — هسبيرس ص ٩٠) ، والإحاطة ج ١ ص ٤٥٦ .

(٤) الإحاطة ج ١ ص ٤٥٧ .

حتى سنة ٥٣٢ هـ (١١٣٧ م) وقيل بل حتى سنة ٥٣١[١]. وهو إلى جانب مهامه الإدارية يضطلع بالغزوات المستمرة فى أراضى النصارى حسبما فصلناه من قبل . ثم وصلته أوامر أبيه أمير المسلمين بالعودة إلى المغرب ، فعبر البحر إلى العدوة فى أوائل جمادى الأولى من هذا العام (٥٣٢هـ) ، ودخل مراكش فى أول رجب ، وفى ركبه عدد كبير من سبى غزوة أشكونية حسبما تقدم ، فاستقبله أبوه أعظم استقبال ، وسعد بلقائه أو « فرح به » على قول المؤرخ . وكان مما يتصل بذلك ما يرويه لنا ابن عذارى ، من أن أمير المسلمين عليا ، كان قد مرض فى العام السابق (٥٣٠هـ) ، واشتد به المرض ، حتى كثرت الإشاعات ، وساءت الظنون ، وسرى القلق إلى بلاد الأندلس ، فلما تلقى تاشفين خطاب والده بالعود ، أسرع بالاستجابة والقفول[٢]. وفى العام التالى ، أعنى فى سنة ٥٣٣ هـ (١١٣٨م) أصدر أمير المسلمين على بن يوسف مرسوم ولاية عهده لولده الأمير تاشفين ، عقب وفاة ولده الأكبر وولى عهده سير ، وأخذ له البيعة بذلك وفقاً للقاعدة التى وضعها مؤسس الدولة المرابطية يوسف بن تاشفين ، باختيار أمير المسلمين لولى عهده فى حياته من بين أبنائه ، وعقد البيعة له .

ولاختيار تاشفين لولاية العهد قصة فصلتها الرواية ، وهى أنه فى سنة٥٢٢هـ اختار أمير المسلمين على بن يوسف ولده الأمير سيراً لولاية عهده من بعده[٣] ، وجعل له الأمر فى بقية حياته ، واختار فى نفس الوقت ولده الأمير تاشفين لولاية الأندلس ، وولاه مدينة غرناطة وألمرية ، ثم قرطبة بالإضافة إلى ما فى يده . وأبدى تاشفين فى أداء مهام منصبه مقدرة وهمة مشكورة ، وظهر بالأخص فى ميدان الجهاد ضد النصارى ، وذاع صيته فى شبه الجزيرة وفى العدوة ، فكبر ذلك على أخيه سير ولى العهد ، وخاطب سير أباه فى ذلك ، وأعرب له عن قلقه وامتعاضه لما ناله أخوه من بعد الصيت وحسن الذكر ، وأنه قد غطى بذلك على اسمه ، ونال إعجاب أهل المملكة ، وأنه لم يبق له معه اسم ولا ذكر ، فحاول أمير المسلمين أن يرضى ولده وولى عهده سير ، باستدعاء أخيه تاشفين من الأندلس ، ولما وصل تاشفين إلى مراكش ، نظمه أبوه فى حاشية أخيه « وصار من جملة من يتصرف بأمر أخيه ، ويقف ببابه كأحد حجابه » . وكان على بن يوسف متأثراً

---

(١) « روض القرطاس » ص ١٠٧ . والإحاطة ج ١ ص ٤٥٤ و ٤٦١ .

(٢) البيان المغرب (الأوراق المخطوطة — هسبيرس ص ١٠٣) .

(٣) ابن القطان فى نظم الجمان (المخطوط السابق ذكره لوحة ٣٤ ا) .

فى هذا التصرف بنفوذ حظيته قمرأم ولده سير ، وكان عظيم الإيثار والإرضاء لها ، وهى التى حملته على عزل تاشفين وإخماله إرضاء لأخيه .

ولكن شاء القدر أن يتوفى سير فجأة وفى حادث مروع مشين معاً وذلك فى أوائل سنة ٥٣٣ هـ . وتلتزم الرواية الإيجاز والتحفظ فى شأن هذا الحادث ،ويقول لنا ابن عذارى ، إن سيراً كان يركن إلى الراحةوالبطالة ، ويصطحب أهل الفكاهة والمجون ، وأنه اقتحم ليلا على أخيه تاشفين فى داره ، فضربه حتى مات ، وقيل غير ذلك . والظاهر ، وهو ما تصرح به بعض الروايات ، أن الأمر يتعلق بمحاولة مشينة ، فإن ابن القطان يقول لنا ، إن على بن يوسف كان قد فتن بولده سير ، وقدمه ولى عهده ، ولم يكن أهلا لشىء ، فعكف على البطالة ، ودخل متسوراً على أخيه عمر يريد زوجته ، فجرح جراحة عجلت منيته ، فجزع عليه أبواه . وكان مصرع سير على هذا النحو فى آخر صفر سنة ٥٣٣ هـ[١] . وعندئذ تدخلت قمر مرة أخرى لتحمل علىّ بن يوسف على تقديم ولده الأصغر إسحاق لولاية العهد ، وكانت قد تبنته وعنيت بتربيته عند موت أمه . ولكن علياً اعتذر بصغر سنه وبأنه لم يبلغ الحلم ، وأنه سوف يستدعى الناس إلى الجامع لأخذ رأيهم فى ذلك . واستدعى على الناس وأكابر المرابطين ، وعرض عليهم الأمر ، فهتفوا جميعاً باسم تاشفين ، فنزل على عند هذه الرغبة ، وعقد البيعة بولاية العهد لولده تاشفين وذلك فى الثامن من شهر ربيع الآخر ، ونقش اسمه فى السكة ، وقلده النظر فى الأمور الساطانية ، وكتب إلى سائر بلاد العدوة والأندلس ببيعته ، فوصلت البيعات من كل جهة مؤيدة للبيعة ، ومؤرخة بشهر رجب سنة ٥٣٣ هـ (١١٣٨ م)[٢] .

على أن استدعاء الأمير تاشفين من الأندلس إلى العدوة ، ثم أخذ البيعة له على هذا النحو ، لم يكن يرجع فقط إلى ما تقدم من العوامل والظروف ، وإنما كان راجعاً بالأخص إلى ما وقع فى تلك الأثناء بالمغرب ، من تطورات وأحداث عظيمة ، ترتبت على ظهور المهدى محمد بن تومرت ، ودعوته الدينية الجديدة ، وما تلاها من قيام دولة الموحدين فى تينملّل ، واضطرام الصراع المرير بينها وبين المرابطين .وهو ما سنعنى بذكره وتفصيله فى موضع آخر .

---

(١) البيان المغرب (الأوراق المخطوطة – هسبيرس ص ١٠٤) ، وابن القطان فى نظم الجمان (المخطوط السالف الذكر لوحة ٨٢ ب) .

(٢) البيان المغرب (الأوراق المخطوطة – هسبيرس ص ١٠٤) . وابن الخطيب عن ابن الوراق فى الإحاطة ج ١ ص ٤٥٤ ، ٤٥٥ .

الفصل السادس

شرق الأندلس

ولاية بلنسية ومرسية . يحيى بن غانية . ندبه به لحماية الشرق . أصله ونشأته . ولايته لشرق الأندلس . مسيره فى القوات المرابطية لإنجاد حصن أرنية . تقدمه نحو طليطلة . ما تقوله الرواية النصرانية عن انصراف المرابطين . الغزوات فى غربى الأندلس . أخبار الجزائر الشرقية ، ولاتها بعد الفتح المرابطى . وانور بن أبى بكر . محمد بن على بن غانية . استقلاله بحكم الجزائر ، وقيام دولة بنى غانية بها .

— ١ —

كان شرقى الأندلس فى عهد المرابطين ، يشتمل بعد سقوط سرقسطة ، على ولايتى بلنسية ومرسية ، وكان يتبع بلنسية سائر الأراضى والقواعد الممتدة شمالا من شاطبة حتى الثغر الأعلى ، ومن البحر غرباً حتى قونقة ، ويتبع مرسية سائر الأراضى والقواعد الواقعة على ضفتى نهر شقورة ، والممتدة جنوباً حتى ولاية ألمرية .

وقد سبق أن أتينا على ذكر ولاة بلنسية ومرسية ، منذ الفتح المرابطى حتى سقوط سرقسطة . وكان والى مرسية قبيل سقوط سرقسطة ، الأمير أبو إسحق إبراهيم ابن يوسف بن تاشفين ، أخو أمير المسلمين على بن يوسف ، وكان والى بلنسية أخوه الآخر الأمير أبو الطاهر تميم . وقد فصلنا فى حديثنا عن سقوط سرقسطة ، الدور الذى قام به الأمير تميم فى حوادث الحصار ، والدور الذى قام به أخوه إبراهيم فى موقعة كتُندة المشئومة (٥١٤ هـ) وهو يومئذ والى إشبيلية .

وخلف الأمير إبراهيم فى ولاية مرسية ، أبو محمد يدّر بن ورقا ، أوحسبما يسميه صاحب البيان المغرب محمد بن يوسف يدّر ، والظاهر أنه تولى فى نفس الوقت ولاية بلنسية . ولما شعر يدّر باشتداد وطأة الغزوات النصرانية ، فى شرقى الأندلس ، طلب إلى أمير المسلمين على بن يوسف ، أن يوجه إليه يحيى بن غانية لمعاونته ، فاستجاب أمير المسلمين إلى طلبه ، وبعث إليه بابن غانية ، وكان ذلك فى سنة ٥١٥ هـ (١١٢١ م) . ويقول لنا صاحب البيان المغرب إن ابن غانية ،

وفد عندئذ إلى شرقى الأندلس والياً لمرسية[1] . ولكن الظاهر أنه قدم إليه بصفة قائداً للجيوش المرابطية ، وأنه لم يتشح بثوب الولاية إلا فيما بعد ، حينما توفى يدّر فى سنة ٥٣٤ هـ[2].

وهو الأمير أبو زكريا يحيى بن على بن غانية الصحراوى ، الذى لعب فيما بعد فى حوادث الأندلس فى أواخر العهد المرابطى ، أعظم دور ، واضطلعت أسرته — بنو غانية — فيما بعد ، فى الجزائر الشرقية ، وفى إفريقية ، ضد الموحدين ، بأخطر صراع . وقد سُمى بنو غانية ، باسم أمهم غانية ، وهى لمتونية من قرابة يوسف بن تاشفين ، وربما كانت تسميتها بهذا الإسم دلالة على أصلها الإقليمى ، أو بعبارة أخرى نسبة إلى بلاد غانة ، وهى التى افتتحها المرابطون عند مطلع نهضتهم فى مشارف الصحراء الكبرى . وتلقيب الولد باسم الأم دون الأب ، من الأمور الذائعة فى أسر لمتونة ، خصوصاً متى كانت الأم تمتاز بصفاتها وخلالها العالية . ولدينا من ذلك أمثلة أخرى ، مثل الأمير محمد بن عائشة ، ولد يوسف ابن تاشفين ، والقائد محمد بن فاطمة . وكان والد يحيى ، على بن يوسف ، من زعماء قبيلة مسُّوفة أحد بطون صنهاجة . وربى يحيى وأخوه محمد ، الذى ولى حكم الجزائر الشرقية فيما بعد ، فى بلاط مراكش ، فى عهد يوسف وولده على ، ثم عبر يحيى إلى الأندلس وهو فتى ، وعاش فى كنف الأمير أبى عبد الله محمد بن الحاج اللمتونى ، والى قرطبة فى أواخر عهد يوسف ، وتزوج أمه غانية بعد وفاة أبيه على ، فندبه لحكم مدينة إستجّة ، فكانت أول ولاية أسندت إليه . ولما تولى على بن يوسف الأمر بعد أبيه ، عزل ابن الحاج عن ولاية قرطبة ، لانضمامه إلى الخوارج عليه ، المناصرين لابن أخيه يحيى بن أبى بكر والى فاس ، وقد ذكرنا خبر خروجه فى بداية حكم على وفشل ثورته ، فانفصل عندئذ يحيى بن غانية عن ابن الحاج وجماعته . ثم عفا علىٌّ عن ابن الحاج وغيره من القادة الموالين ليحيى ، وعيَّن ابن الحاج لولاية المغرب مكان أخيه أبى الطاهر تميم بن يوسف ، الذى وُلّى حكم الأندلس ، ثم نُدب ابن الحاج بعد ذلك لولاية بلنسية ، ومنها سار إلى سرقسطة ، وقد فصلنا أخباره وغزواته فيما تقدم .

ولسنا نجد فى الأعوام التالية ، أثراً لأخبار يحيى بن غانية ، بين مختلف

---

(١) ابن عذارى فى البيان المغرب (الأوراق المخطوطة هسبيرس ص ٨١) .

(٢) ابن الخطيب فى الإحاطة (مخطوط الإسكوريال رقم ١٦٧٣ الغزيرى) لوحة ٣٩١ .

الولاة . والظاهر أنه كان عندئذ ينتظم فى قيادة الجيش ، لما ظهر من فائق شجاعته وبراعته . ثم كان ندبه لولاية مرسية ، أو لمعاونة واليها يدّر فى سنة ٥١٥ هـ (١١٢١ م) حسبما تقدم . ومن ذلك الحين يلمع اسم يحيى فى حوادث شبه الجزيرة لمعانا شديداً ، فهو يقوم بقيادة الجيوش المرابطية فى شرقى الأندلس بكفاية وبراعة ، وهو يكرر الغزو لأراضى النصارى فى أراجون وقطاونية ، وقد كان له فيما يبدو دور ملحوظ فى مقاومة قوات ألفونسو المحارب حينما اخترق شرقى الأندلس ، فى غزوته التى قام بها استجابة للنصارى المعاهدين (سنة ٥١٩ هـ) ومر فيها بأراضى بلنسية ، واجتاز إلى جزيرة شُقْر ، وقاتل أهلها أياماً ، ثم تحول إلى دانية ، واتجه بعد ذلك صوب شاطبة ومرسية . وقاومه المسلمون أينما حل . ولما توفى يدّر والى بلنسية ومرسية فى سنة ٥٢٤ هـ ، كما تقدم ، ولّى يحيى على شرقى الأندلس[1] ، بيد أنه كان أكثر انشغالا بشئون الحرب والقيادة ، وكان ينيب عنه فى حكم بلنسية ومرسية أخاه لأمه ، المنصور بن محمد بن الحاج . ولما حاصر ألفونسو المحارب إفراغة ، هرع يحيى فى قواته لإنجادها ، مع من هرع إليها من ولاة الأندلس الآخرين . وقاد يحيى قوات الإنجاد فى المعركة التى نشبت تحت أسوار إفراغة بشجاعته وبراعته المأثورتين ، فكانت الهزيمة الساحقة على النصارى فى رمضان سنة ٥٢٨ هـ (يوليه سنة ١١٣٤ م) حسبما فصلنا ذلك فى موضعه[2] .

ولبث يحيى بن غانية ، بعد موقعة إفراغة ، والياً على شرقى الأندلس بضعة أعوام أخرى . وتقص علينا الرواية الإسلامية قصة غزوة أخرى ، فى الأراضى النصرانية ، اشترك فيها ابن غانية . وخلاصتها أن القشتاليين ضربوا الحصار بقوات كثيفة ، حول حصن « أرنبة » أو أرلبة[3] الواقع شرقى طليطلة ، على الحدود بين ولاية قونقة وقشتالة ، وكان من أمنع الحصون الإسلامية فى تلك المنطقة ، وضيق النصارى على حامية الحصن ، وقطعوا عنها الأقوات ، فنهض والى قرطبة الأمير عبد الله بن أبى بكر ، واستمد الأمير تاشفين ، واستمد فى نفس الوقت يحيى بن غانية والى مرسية وبلنسية ، وهرعت القوات المرابطية ، من قرطبة ومرسية ومن

---

(١) ولكن ابن عذارى يقول لنا إن الذى ولى على شرق الأندلس بعد وفاة يدر ، هو ينتان بن على اللمتونى (الأوراق المخطوطة السالفة الذكر – هسبيرس ص ٩١) .

(٢) ابن الخطيب فى الإحاطة (مخطوط الإسكوريال السالف الذكر لوحة ٣٩١) . وراجع **Gaspar Remiro : Murcia Musulmana (Zaragoza 1905) p. 152—154.**

(٣) وهو الحصن الذى يسمى بالإسبانية حصن **Oreja** ، أو حصن أوروليا **Aurelia** .

إشبيلية ، واجتمعت تحت قيادة ابن غانية ، وسارت مسرعة لإنجاد الحصن وإمداده بالمؤن . واستعد القشتاليون للقاء المسلمين بقوات جديدة . ويضع صاحب البيان المغرب تاريخ هذا الحصار فى سنة ٥٢٥ هـ (١١٣٠ م)[١]. ولكن الرواية النصرانية ، تضعه بعد ذلك بعدة أعوام فى سنة ١١٣٧ م . وليس هنالك فى الرواية الإسلامية ، ما يدل على أن موقعة حدثت فى هذا الموطن بين المسلمين والنصارى . وكذلك فإن الرواية النصرانية ، تقول لنا إن هذا اللقاء بين المسلمين والنصارى فى أراضى طليطلة ، انتهى إلى خاتمة تتسم بالفروسة . وذلك أن الجيش المرابطى ، وقد كان وفقاً لأقوال هذه الرواية ، يتكون من ثلاثين ألف فارس ، سار من طريق طليطلة . وكان ملك قشتالة ألفونسو السابع (ألفونسو ريمونديس) قد عهد بحماية طليطلة إلى حامية قوية تشرف عليها زوجه الملكة برنجيلا ، فلما وصل الجيش المرابطى إلى ظاهر أسوار طليطلة ، خرجت الملكة برنجيلا إلى شرفة « القصر » العالى المطل على نهر التاجُه ، وبدت للقادة المسلمين مع وصائفها ، وقد ازدانت بأفخر الثياب والحلى ، وبعثت إلى ابن غانية رسولها ، يؤنبه بلسانها لأنه قدم لمهاجمة بلد تدافع عنه امرأة ، فى حين أن الإمبراطور ينتظرهم فى جيشه عند حصن أرنبة (أوريخا)، فدهش ابن غانية وزملاؤه القواد المسلمون ،وأخذوا بذلك المنظر ، ولم يسعهم إلا أن ينحنوا قبالة الملكة المطلة عليهم ، تكريماً لها وتعظيما ، ثم استأنفوا سيرهم ، دون أن يقوموا بأية محاولة . أما حامية حصن « أرنبة» فقد اضطرت فى النهاية إلى التسليم (أكتوبر سنة ١١٣٧ م) ولكن سمح لها أن تخرج بالأمان وأن تسير إلى قلعة رباح[٢] .

وهكذا يبدو مما تقدم ، أنه لم تقع فى شرقى الأندلس ، فى الفترة التى تلت سقوط سرقسطة ، وموقعة كتُندة ، حوادث خاصة بهذه المنطقة ، سوى الغزوات المحلية العارضة ، والتى لم تقدم إلينا الرواية عنها تفاصيل شافية ، وقد كان شرقى الأندلس ، يردد صدى الحوادث العامة فى شبه الجزيرة ويشترك فيها ، كما تشترك باقى الولايات الأندلسية ، وقد كانت الجيوش المرابطية كلها ، سواء فى شرقى الأندلس أوغربه ، تعمل دائماً فى حركات موحدة شاملة .

أما عن أخبار الغزوات فى الناحية الأخرى من الأندلس ، فإن الرواية

---

(١) البيان المغرب (الأوراق المخطوطة المشار إليها – هسبيرس ص ٩٤) .

(٢) راجع : A. P. Ibras : Valencia Arabe (cit. Crónica Adefonsi Imperatoris) p. 481

الإسلامية تقدم إلينا بعض التفاصيل الموجزة ، عن بعض الأحداث التى وقعت عقب مغادرة تاشفين بن على لشبه الجزيرة . ومن ذلك أن الزبير بن عمر والى قرطبة ، خرج فى قواته غازياً لأرض النصارى ، وافتتح حصن مورة (سنة ٥٣٣ هـ) . وفى نفس العام ردت قوات شنترين ويابرة عسكراً من النصارى (البرتغاليين) حاول غزو الأراضى الإسلامية ، وقتلت وأسرت منه جملة وافرة ، واحتوت على أسلابه . وفى أواخر هذا العام غزا ألفونسو ريموند يس ملك قشتالة أرض الأندلس ، وحاصر حصن إربلية ، فسارت قوات الأندلس من مختلف الأنحاء لرده وإنجاد الحصن ، ولكنها تخلفت فى الطريق ، ثم عادت من حيث أتت ، واضطر الحصن ، بعد أن أرهق الحصار أهله إلى التسليم[١] .

— ٢ —

تحدثنا فيما تقدم من أخبار أمير المسلمين على بن يوسف ، عما وقع فى أوائل عهده من استرداده للجزائر الشرقية (جزائر البليار) من البيزيين والجنويين فى أواخر سنة ٥٠٩ هـ (١١١٦ م) . ولما كانت الجزائر الشرقية ، تلحق دائماً بشرقى الأندلس ، فإنه يجدر بنا أن نتناول هنا ، طرفاً من أخبارها فى تلك الفترة .

وقد ذكرنا عندئذ ، أن أمير المسلمين عين لولاية الجزائر عقب استردادها ، وانور بن أبى بكر اللمتونى[٢] بيد أنه يبدو من بعض الرسائل السلطانية المرابطية التى بين أيدينا ، أنه قد سبقت ولاية وانور ولاية قصيرة الأمد للقائد أبى السداد والى دانية . ففى رسالة صادرة عن على بن يوسف من حضرة مراكش ، فى الحادى والعشرين من ربيع الأول سنة ٥١٠ هـ ، أعنى عقب استرداد الجزائر ببضعة أشهر ، يشير أمير المسلمين إلى موت القائد أبى السداد والى ميورقة ، ويسند ما كان تحت نظره إلى واليها الجديد ، ويسدى إليه النصح بأن يحسن السيرة فى أهل الجزيرة ، وأن يسلك طريق الرفق والعدل والحق ، وأن يستعمل الحزم فى ضبط أحوالها ، وأن يسعى فى استرجاع من خرج من أهلها ، وأن يستنيب من يرضاه فى النظر على الأسطول والاستخلص بثغر دانية ، وأن يبذل جهده فى

---

(١) ابن القطان فى نظم الجمان (المخطوط السالف الذكره لوحة ٨٢ ب) .

(٢) هذه رواية ابن خلدون فى كتاب العبر ج ٤ ص ١٦٥ .

استمالة الناس . وتهدئة روعهم ولاسيما بعد الذى « أحدثه السفيه المعتوه ابن أبى السداد من إيحاشهم وترويعهم »[١] .

ويستفاد من هذه الرسالة أن القائد ابن أبى السداد ، وقد كان والياً لثغر دانية ، حسبما تقدم ذكره ، قد وُلى على ميورقة عقب استردادها فى أواخر سنة ٥٠٩هـ ، وأنه توفى بعد قليل من ولايته ، وأنه لم يحسن السيرة مع أهل الجزائر خلال ولايته القصيرة . وعلى أثر وفاته ، قام أمير المسلمين على بن يوسف باختيار خلف له . وبالرغم من أن اسم الوالى الجديد لم يرد فى الرسالة ، ولا فى ديباجتها ، فإنه يبدو من المرجح أنه لم يكن سوى وانور بن أبى بكر ، وهو أول وال حقيقى ، وليها عقب الاسترداد . أما إغفال أبى السداد فى رواية ابن خلدون وغيره ، فالظاهر أنه يرجع إلى قصر ولايته ، التى لم تتجاوز بضعة أشهر .

ولبث وانور بن أبى بكر والياً على الجزائر زهاء عشرة أعوام . وكان ظلوماً صارماً ، فعصف بأهل الجزائر واشتد فى إرهاقهم . وكان من أهم أسباب سخطهم عليه ، أنه أراد أن يرغمهم على ترك ثغر ميورقة ، وإنشاء مدينة أخرى داخل الجزيرة ، تكون بعيدة عن البحر . وأخيراً اضطرمت الجزيرة بالثورة وغلب الثوار على وانور ، وقبضوا عليه ووضعوه فى الأصفاد ، وبعثوا إلى أمير المسلمين يشرحون أحوالهم وظلاماتهم ، فاستجاب على إلى صريخهم ، وعين والياً جديداً للجزائر ، هو محمد بن على بن غانية المسوفى ، أخو يحيى بن غانية الأصغر ، وكان عندئذ يتولى النظر على بعض أعمال قرطبة . فقدم إلى الجزائر فى سنة ٥٢٠ هـ (١١٢٦م) ، وأقر أهلها على ما فعلوه بواليهم السابق وانور ، وبعثه مصفدا إلى مراكش لينظر هنالك فى أمره[٢] .

وقد شاء القدر أن يكون تعيين محمد بن غانية لولاية الجزائر الشرقية ، ممهداً لتطور أحوالها ، ودخولها فى عهد جديد من تاريخها ، وقيام دولة جديدة مستقلة بها ، هى دولة بنى غانية . ذلك أن محمد بن غانية ضبط الجزائر ، وحكمها بقوة وحزم ، وطالت أيامه بها ، حتى توفى أمير المسلمين على بن يوسف

---

(١) وردت هذه الرسالة ضمن مجموعة من الرسائل المرابطية نشرت بمجلة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد بعناية الدكتور محمود مكى (العدد السادس) سنة ١٩٦١ ، ص ١٨٥ — ١٨٦ .

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٥ ، والمعجب للمراكشى ص ١٥١ ، ١٥٢ . وراجع أيضاً :
A. Campaner y Fuertes : Bosquejo Hist. de la Dominación Islamita en las Islas Baleares; p.137 وكذلك : **Alfred Bel : Les Benou Ghania (Paris 1903) p. 5&18**

(٥٣٧ هـ) ، واضطربت أحوال الدولة المرابطية فى المغرب ، وقامت الثورة فى أنحاء الأندلس على المرابطين ، وولى أخوه يحيى بن غانية قرطبة وما إليها من قبل تاشفين بن على بن يوسف فى سنة ٥٣٨ هـ ، وأخذ يخوض من ذلك التاريخ مع الثوار ومع النصارى ، حروباً ووقائع مستمرة ، إلى أن توفى بغرناطة فى سنة ٥٤٣ هـ . وفى خلال ذلك كان محمد بن غانية ، يعمل فى مركزه النائى على توطيد سلطانه بالجزائر والاستقلال بها لنفسه ولعقبه . ومع ذلك فقد لبث على ولائه للدولة المرابطية وزعامة لمتونة ، واستمر يدعو فى الخطبة لأمير المسلمين ، ولبنى العباس . وكان خلال اضطرام الفتنة بالأندلس يستقبل اللاجئين من فلول المرابطين بالجزائر ، ويشملهم بحمايته ورعايته .

وليست لدينا تفاصيل شافية عن حوادث الجزائر فى تلك الفترة . ويبدو أنها كانت تجوز عندئذ فترة استقرار وسلام ، بعيدة عما تجيش به شبه الجزيرة من الحوادث والخطوب . وكان محمد بن غانية حينما شعر بتوطيد سلطانه ، وتمكن استقلاله بحكم الجزائر ، قد اختار لولاية عهده ولده الأكبر عبد الله . وهنا تختلف الرواية ، فقيل إن عبد الله خلف أباه بعد وفاته على حكم الجزائر ، ثم خلفه بعد وفاته أخوه الأصغر إسحاق . وقيل إن إسحاق حقد على أخيه عبد الله حينما عين لولاية العهد ، ودبر مؤامرة قتل فيها أخوه وأبوه ، وتولى هو على أثرها حكم الجزائر ، وذلك فى سنة ٥٥٠ هـ (١١٥٥ م)[1] .

ونحن نقف فى تتبع أحداث الجزائر الشرقية عند هذا الحد ، لنستأنفه فى فرصة أخرى فى موضعه المناسب .

---

(١) المراكشى فى المعجب ص ١٥٢ ، وابن خلدون ج ٦ ص ١٩٠ ، وكذلك : A. Bel : Les Benou Ghania, p. 19

الكتاب الثاني

المهدي محمّد بن تومَرت
والصّراع بين المُرابطين والموحّدين
وقيام الدّولة الموحّدية بالمغرب

الفصل الأول

محمد بن تومرت

نشأته وظهوره

حركة ابن تومرت وخصائصها المحلية . أول ظهور لابن تومرت فى مراكش . أصله ومولده . معنى كلمة « تومرت » . نسبته البربرية . انتسابه إلى آل البيت . ما يحيط بهذه النسبة من الريب . نشأته . رحلته فى طلب العلم إلى الأندلس ، ثم المشرق . قصة لقائه بالإمام الغزالى . سقم هذه القصة وبطلانها . ما ينقضها من الناحية الزمنية . ما يطبعها من ألوان الأسطورة . نفى البحث الحديث لصحتها. تأثر ابن تومرت بتعاليم الأشعرية وبآراء الغزالى . عوده بعد إتمام دراسته إلى المغرب . دعوته إلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . نزوله بالمهدية . سفره إلى بجاية . ماوقع بها من هرج من جراء دعايته لإزالة المنكر . المناظرة بينه وبين طلبتها . مغادرته لبجاية ، ونزوله بملالة . لقاؤه بعبد المؤمن بن على وما يقال فى ذلك من روايات وأساطير . مسيره إلى وانشريش ثم إلى فاس ومكناسة . نظرية الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . تفسيرها وفقا لابن حزم . تعليق العلامة جولدسيهر على النظرية . نزول ابن تومرت بمراكش . استمراره فى حملته دون هوادة . مظاهر الخلل والفساد فى العاصمة المرابطية . تعرضه لأخت الأمير وما وقع بسبب ذلك من الهرج . أمير المسلمين يأمر بمناظرته . قبول ابن تومرت . ما وقع فى هذه المناظرة . الأصول والفروع . تحريض الفقهاء للأمير على قتل ابن تومرت . اقتصاره على اعتقاله ثم نفيه من مراكش . مسيره إلى إغمات ثم إلى السوس . تجوله فى بلاد المصامدة . نزوله بجبل إيجليز فى هرغة . عكوفه على بث دعوته والتبشير بنظرية المهدى . إعلانه لإمامته وأنه هو المهدى . مبايعة أصحابه له بهذه الصفة . أصحاب المهدى ومراتبهم . تلقيبه بالمهدى والإمام المعصوم . ملخص شريعته . وضعه لكتب الدعوة لأصحابه . ما يدل على أن ابن تومرت كان يضمر مشروعه ويعمل له .

ننتقل الآن إلى ناحية أخرى من تاريخ الدولة المرابطية ، وهى ناحية طارئة عليها ، وقد شاء القدر بأن تحول وجهة سيرها من التقدم والتوطد ، إلى الإدبار والانحلال المفاجئ ، فبينما هى فى أوج قوتها ورسوخها ، إذا بها تجد نفسها فجأة أمام فورة دينية صغيرة ، يضطلع بها فقيه متواضع ، وتضطرم بسرعة مدهشة ، حتى تغمر كل شىء فيها ، وتستغرق كل قواها ومواردها ، ثم تنتهى بعد صراع قصير الأمد ، بالقضاء عليها : تلك هى ثورة المهدى ابن تومرت .

إن التاريخ الإسلامى ، قلما يقدم إلينا حركة أكثر تواضعاً فى بدايتها ، وأبعد مدى فى نتائجها ، من تلك الحركة التى قام بها محمد بن تومرت السوسى ، المتشح بثوب المهدى ، والتى أسفرت عن قيام دولة من أعظم الدول الإسلامية ،

وأضخمها رقعة ، وأعظمها قوة وسلطانا ، هى الدولة الموحدية الكبرى .

ولقد كانت حركة ابن تومَرت هى الثانية من نوعها فى الغرب الإسلامى . وكانت الأولى هى حركة الشيعة ، التى أسفرت عن قيام الدولة الفاطمية فى إفريقية (تونس) ، والتى كان زعيمها الروحى وأول خلفائها عبدالله يتشح كذلك بثوب المهدى المنتظر . وبالرغم من أن الدولة الفاطمية قد انتقلت بعد ذلك إلى مصر ، فإن نشاطها وفتوحاتها ، وسلطانها الروحى والسياسى ، قد استمرت بالمغرب ردحاً من الزمن ، على يد ولاتها من القبائل البربرية ، التى كانت هى المادة الآدمية التى استندت إليها فى قيامها وتوطدها بالمغرب .

بيد أن حركة المهدى ابن تومرت هى حركة مغربية مستقلة ، لم تنبعث كما هو الشأن فى قيام الدولة الفاطمية ، من الدعوة الشيعية المشرقية . وإن كانت مع ذلك تستند إلى نظرية المهدى المنتظر ، وهى بذلك تمتاز بتخصصها القوى وصبغتها المحلية البربرية العميقة ، كما تمتاز بأساسها الدينى الواضح ، الذى انبعثت منه ، قبل أن تتطور بسرعة إلى حركة سياسية ، يتزعمها الإمام المعصوم والمهدى المنتظر ، وهى تتجه فى خصومتها المذهبية إلى الصراع المحلى المحض . وتستمد لمقوماتها العوامل الدينية المحلية ، التى اختص بها المغرب منذ عصور .

ثم هى فوق ذلك تمثل معركة قومية داخلية ، تضطرم بين فريقين من القبائل البربرية ، تستظل كل منهما بشعارها الدينى الخاص . فقد رأينا كيف قام المرابطون فى البداية للجهاد فى سبيل الله ، وإحياء السنة ومحاربة البدع والضلالات ، والانحراف عن أحكام الإسلام ، وقد كان يومئذ يسود كثيراً من القبائل البربرية ، ثم رأينا كيف استقرت رياسة الدولة المرابطية فى قبيلة لمتونة ، وحليفاتها كدالة ومسُّوفه وغيرها من بطون صنهاجة . وكذلك فإن حركة ابن تومرت ، قامت فى البداية على شعار الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وبدأت رياسته السياسية فى وطنه بالسوس الأقصى ، وفى قبيلته هَرْغة ، وغيرها من بطون مَصْمودة ، وإذن فقد كانت المعركة بين المرابطين والموحدين ، تصطبغ فى نفس الوقت بالصبغتين الدينية والقومية .

— ١ —

فى أواخر سنة ٥١٤ هـ (١١٢٠ م) وقعت بمدينة مراكش أول بادرة مؤذنة ببداية الثورة الدينية التى اضطلع بها محمد بن تومرت ضد الدولة المرابطية.

ففى ذات يوم جمعة ، من هذه السنة ، دخل إلى المسجد الجامع رجل صغير القد ، متواضع الهيئة ، وجلس على مقربة من المحراب بإزاء الموضع المخصص لجلوس أمير المسلمين ، فلما اعترض على ذلك بعض سدنة الجامع ، تلا الآية « إن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا » . ولما حضر أمير المسلمين على بن يوسف ، نهض سائر الحضور ، إلا ذلك الرجل ، فلما انتهت الصلاة بادر الرجل بالسلام على علىّ ، وقال له فيما قال « غير المنكر فى بلدك ، فأنت المسئول عن رعيتك » وبكى . فلم يجبه أمير المسلمين بشىء . ولما عاد إلى القصر سأل عنه ، فقيل له إنه قريب العهد بالوصول ، وهو يؤلف الناس ويقول لهم إن السنة قد ذهبت ، فأمر على بن يوسف ، وزيره عمر بن ينتان أن يكشف عن أمره ومقصده ، فإن كانت له حاجة ينظر فى قضائها ، فقال الرجل ليس لى حاجة ، وما قصدى إلا تغيير المنكرات[١] .

كان هذا الرجل هو محمد بن تومرت ، وكان قد آب من رحلته إلى المشرق . ونزل بمراكش ، بعد أن طاف ببعض مدن المغرب الشمالية ، وهو يدعو للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . وأصل هذا الرجل من قبيلة هَرْغة إحدى بطون مصمودة الكبرى ، من قوم بها يعرفون « بايسرغينن » وهم الشرفاء فى لغة المصامدة . وقد ولد بضيعة ، تقع فى جنوبى السوس الأقصى ، تسمى « بإيجلى ان وارغن »[٢] . وقد اختلف فى تاريخ مولده . وتضعه الرواية فيما بين سنتى ٤٧١ ، و٤٩١ هـ ، ويقول لنا ابن الأثير إنه توفى فى سنة ٥٢٤ هـ عن إحدى وخمسين عاما أو خمسة وخمسين عاما ، مما يجعل تاريخ مولده فى سنة ٤٦٩ هـ ، أو ٤٧٣ هـ ، ويضع ابن خلكان تاريخ مولده فى العاشر من محرم سنة ٤٨٥ هـ ، وابن الخطيب فى سنة ٤٨٦ هـ ، وابن سعيد فى سنة ٤٩١ هـ ، ويضعه الغرناطى فى سنة ٤٧١ ، وهو أقدم تاريخ ينسب إليه مولد ابن تومرت[٣] . واما عن نسبته فإن الرواية أشد تباينا واختلافاً . ومن المتفق عليه أنه أبو عبد الله محمد بن عبد الله ، ووالداه من أهل السوس ، وكان أبوه رجلا فقيراً ، وأمه من قوم يعرفون ببنى يوسف من مسكالة من عمل السوس ، وبنو يوسف هم أخواله ، ومولده

---

(١) البيان المغرب (فى الأوراق المخطوطة التى عثرنا بها) .

(٢) المعجب ص ٩٩ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٢٤ و٢٢٥ .

(٣) يراجع فى مولد ابن تومرت ، الزركشى فى تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية (تونس ١٢٨٩) ص ١ ، وابن الأثير ج ١٠ ص ٢٠٥ ، وابن خلكان ج ٢ ص ٥٢ .

بموضع يسمى « نومكران » ، وهو موضع لا ماء فيه ، وإنما يشرب أهله من ماء المطر . وهنالك كانت دار أسرته[١] . وكان يقال لوالده تومَرت وأمغار ، ومعناه في لغة المصامدة ، الضياء الذى يوقد فى المسجد ، ومن ثم فقد عرفه التاريخ باسمه الذائع ، وهو محمد بن تومرت ، كما عرفه بلقبه الديني وهو المهدى . ويفسر لنا مؤرخه « البيذق » معنى كلمة « تومرت » التى لصقت بأبيه ، فيقول لنا ، إن اسم أبيه عبد الله ، شهر فى صغره إلى كبره « بتومرت بن وجلّيد » . وذلك أنه لما ولد فرحت به أمه وسرت ، فقالت باللسان الغربى « آ تومَرت آينُو أيسّك آييوى » ، ومعناه : يا فرحتى بك يا بنى . وكانت إذا سئلت عن ابنها وهو صغير ، تقول باللسان الغربى « يك تومرت » ، معناه صار فرحاً وسرورا ، فلب عليه اسم تومرت . وترك دعاؤه باسم عبد الله الذى سمى به أولا[٢] .

ومن المحقق الذى لا يقبل ذرة من الجدل ، أن ابن تومرت بربرى الجنس ينتسب إلى هَرْغة ومصمودة ، ومع ذلك فإنه نظراً لانتحاله صفة المهدى والإمام المعصوم ، لم يعدم رواية تنسبه لآل البيت ، إذ لابد ، وفقاً لأسطورة المهدى المنتظر ، أن يكون المهدى منهم . ومن ثم فإننا نجد إلى جانب نسبة ابن تومرت البربرية المحضة ، نسبة أخرى ترجعه إلى آل البيت . أما نسبته البربرية فهى أنه محمد بن تومرت بن نيطاوس بن ساولا بن سفيون بن أنكليدس بن خالد . أو أنه محمد بن عبد الله بن وجلّيد بن يامصال بن حمزة بن عيسى . وهذه النسبةالثانية تمد بعد ذلك على يد بعض الرواة إلى آل البيت على النحو الآتى : ابن عبيد الله ابن إدريس بن إدريس بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن فاطمة بنت رسول الله[٣] . وأما نسبته العربية العلوية فهى أنه محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن هود بن خالد ابن تمام بن عدنان بن صفوان بن سفيان بن جابر بن يحي بن عطاه بن رباح بن ياسر ابن العباس بن محمد بن الحسن بن على بن أبى طالب . ويؤيد هذه النسبة ابن رشيق فى شجرة أنساب الخلفاء والأمراء ، وابن القطان ، وابن صاحب الصلاة ، مؤرخا

---

(١) ابن القطان فى « نظم الجمان » (المخطوط السابق ذكره لوحة ١٤ ب) .

(٢) كتاب « أخبار المهدى ابن تومرت وابتداء دولة الموحدين » لابى بكر الصنهاجى المكنى بالبيذق ، المنشور بعناية الأستاذ ليڤى بروڤنسال (باريس سنة ١٩٢٨) ص ٣٠ ، وقد قرنت به ترجمة فرنسية .

(٣) أخبار المهدى بن تومرت ص ٢١ .

الدولة الموحدية[١]، ويقول لنا المراكشي ، إنه رأى بخط المهدى نسبته المتصلة بالحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب[٢] .

بيد أنه يوجد إلى جانب ذلك من المؤرخين ، من ينكر هذه النسبة على ابن تومرت ويعتبره دعياً فيها . ومن هؤلاء ابن مطروح القيسى ، وهو يصف ابن تومرت بأنه « رجل من هرغة من قبائل المصامدة يعرف بمحمد بن تومرت الهرغى » . وقال بعضهم إنه من قبيلة جنميسة[٣] .

ونحن لا نرى فى هذه النسبة العربية النبوية التى يدعيها ابن تومرت لنفسه ، والتى يؤيدها بعض المؤرخين من أولياء الموحدين وكتاب دولتهم ، إلا نحلة باطلة ، وثوباً مستعاراً ، أراد به ابن تومرت أن يدعم به صفة المهدى التى انتحلها شعاراً لإمامته ورياسته الدينية والسياسية ، ومما يلفت النظر أن كثيراً من القبائل والأسر البربرية التى تشق طريقها إلى السلطان ، تحاول دائماً أن تنتحل الأنساب العربية ، كما هو الشأن فى بنى حمود الذين يرجعون نسبتهم إلى آل البيت ، وفى قبيلة صنهاجة وهى الأم الكبرى للمتونة ، صاحبة الرياسة فى الدولة المرابطية ، فإنها تزعم أنها تنتمى فى الأصل إلى العرب اليمانيه[٤] .

وليست لدينا أية تفاصيل شافية عن نشأة ابن تومرت وحداثته . وكل ما يقال لنا من ذلك أنه نشأ فى بيت نسك وعبادة ، وشب قارئاً محباً للعلم ، وكان يسمى فى حداثته « أسافور » ، ومعناه الضياء لكثرة ما كان يسرج القناديل بالمساجد التى يلازمها[٥]. ولكن الرواية تتبع سيرة حياته منذ سنة ٥٠٠هـ (١١٠٦م) ، ففى تلك السنة ، أو السنة التالية (٥٠١ هـ) حسبما ينقل إلينا ابن القطان ، عن الشيخ يحيى ابن وسنا من أهل خمسين أصحاب المهدى — غادر ابن تومرت وطنه بالسوس فى طلب العلم ، وعبر البحر إلى الأندلس ، ودرس فى قرطبة حيناً ، ثم جاز من ثغر ألمرية إلى المشرق[٦] ، ومر فى طريقه على المهدية ، وأخذ بها على الإمام المازرى ، ثم قصد إلى الإسكندرية ودرس بها على الإمام أبى بكر الطرطوشى ، وقضى

---

(١) الحلل الموشية ص ٧٥ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٢٥ و٢٢٦ ، والزركشى ص ١ .

(٢) المعجب ص ٩٩ .

(٣) روض القرطاس ص ١١٠

(٤) روض القرطاس ص ٧٥ .

(٥) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٢٦ .

(٦) ابن القطان فى « نظم الجمان » (المخطوط السابق ذكره لوحة ١٢) .

بعد ذلك فريضة الحج ، ثم سافر إلى بغداد ، وهنالك درس الفقه والأصول على أبي بكر الشاشي الملقب بفخر الإسلام ، ودرس الحديث على المبارك بن عبدالجبار وغيره[1]. وفى بعض الروايات أن ابن تومرت لقى الإمام أبا حامد الغزالى ودرس عليه فى بغداد ، وقيل بل لقيه بالشأم أيام تزهده[2]. ونحن نقف قليلا عند هذه الرواية ، التى يرددها كثير من مؤرخى المشرق والمغرب ، إذ متى وأين كان هذا اللقاء ، وفى أى الظروف ؟ لقد خرج ابن تومرت من وطنه فى طلب العلم فى سنة ٥٠٠ أو ٥٠١ ه ، وقضى فترة فى الأندلس ، وفى المهدية ، وفى الإسكندرية ، ثم سافر لقضاء فريضة الحج ، وقصد على أثر ذلك إلى بغداد ، وإذن فيكون من المرجح أنه لم يصل إليها قبل سنة ٥٠٤ أو ٥٠٥ ه . وقد كان الإمام الغزالى ببغداد يضطلع بالتدريس فى المدرسة النظامية بين سنتى ٤٨٤ و٤٨٨ ه (١٠٩١ — ١٠٩٥ م) . وفى سنة ٤٨٨ ه غادر العاصمة العباسية ، فى رحلته التأملية الشهيرة التى استطالت حتى سنة ٤٩٩ ه ، والتى زار فيها دمشق وبيت المقدس والإسكندرية ومكة والمدينة . وإذن فيكون من المستحيل ماديا ، أن يكون ابن تومرت الذى غادر وطنه لأول مرة فى سنة ٥٠٠ ه ، قد استطاع أن يلتقى بالغزالى فى بغداد أو غيرها من المدن التى زارها فى خلال رحلته ، ثم إنه ليس من المحتمل أن يكون هذا اللقاء قد وقع عند عودة الغزالى إلى بغداد . ذلك أنه لم يمكث بها سوى فترة يسيرة ، ثم رحل منها إلى نيسابور حيث قام بالتدريس فيها استجابة لدعوة السلطان ملك شاه ، ثم غادرها بعد قليل إلى مسقط رأسه طوس ، وانقطع بها للعبادة والتأليف حتى توفى فى جمادى الثانية سنة ٥٠٥ ه (ديسمبر سنة ١١١٢ م) .

ويتضح من ذلك جلياً بطلان قصة اللقاء بين ابن تومرت والإمام الغزالى من الناحية التاريخية . وفضلا عن ذلك فإنه يوجد دليل مادى آخر على بطلان هذه القصة أو الأسطورة . ذلك أنها تقترن بواقعة أخرى خلاصتها ان ابن تومرت حينما لقى الإمام الغزالى ، وأخبره بما وقع من إحراق المرابطين لكتابه « إحياء علوم الدين » بالمغرب والأندلس ، تغير وجهه ، ورفع يده إلى الدعاء ، والطلبة يؤمنون ، فقال « اللهم مزق ملكهم كما مزقوه ، وأذهب دولتهم كما أحرقوه » ،

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٢٦ ، والحلل الموشية ص ٧٥ ، والزركشى ص ١ ، والمعجب ص ٩٩ .

(٢) الحلل الموشية عن ابن القطان ص ٧٥ ، والمعجب ص ٩٩ ، وروض القرطاس ص ١١٠ وابن خلكان ج ٢ ص ٤٨ ، والزركشى ص ١ .

وان ابن تومرت ، رجا الإمام عندئذ أن يدعو الله أن يكون ذلك على يده ، فاستجاب الإمام ، ودعا الله بذلك[١] .

وينقض هذه الواقعة من أساسها ، أن قرار المرابطين بحرق كتاب « الإحياء » قد صدر لأول مرة فى سنة ٥٠٣ هـ فى أوائل عهد على بن يوسف ، وذلك حسبما يخبرنا ابن القطان ، أعنى بعد أن غادر الغزالى بغداد إلى نيسابور لآخر مرة ، وقبيل وفاته بنحو عام . فأين إذن ومتى كان لقاء ابن تومرت به ؟ وكيف نستطيع إزاء هذه المفارقات الزمنية ، أن نصدق تلك القصة التى نسجت حول حرق كتاب الإحياء ؟

هى أسطورة إذن ، نسجت كما نسجت نسبة ابن تومرت إلى آل البيت ، لتغدو هالة تحيط بشخصه وسيرته ، وتذكى عناصر الخفاء والقدسية ، حول شخصه وإمامته . وقد اختير الإمام الغزالى لبطولتها بالذات لتبوئه يومئذ أسمى مكانة من العلم والدين والورع فى العالم الإسلامى ، ولشهرته الذائعة فى المغرب ، وصلاته المعروفة بعاهل المرابطين يوسف بن تاشفين ، وتأثيره الشرعى لديه ، وتأييده لدولته . ويبدو لون الأسطورة فى هذه القصة التاريخية بنوع خاص ، فيما تزعمه الرواية من أن الإمام الغزالى ، حين رؤيته لابن تومرت ، شهد من صفاته وشمائله ، وتبين فيه من العلامات والآثار ، ما يدل على أمره ومستقبله ، وأنه كان يقول لجلسائه « لابد لهذا البربرى من دولة ، أما إنه يثور بالمغرب الأقصى ، ويظهر أمره ، ويعلو سلطانه ، ويتسع ملكه ، فإن ذلك ظاهر عليه فى صفاته ، وبان عنه فى شمائله » . ثم تزيد الرواية على ذلك ، أن بعض الصحب نقل ذلك إلى ابن تومرت ، وأخبره أن ذلك عند الشيخ فى كتاب ، فلم يزل ابن تومرت يجتهد فى خدمة الشيخ ويتقرب إليه ، حتى اطلع على الأخبار التى كانت فيه ، فلما تحقق من ذلك اعتزم الرحيل إلى المغرب ليتابع قدره ، ويبحث عن مصيره[٢] .

ولم يقف أمر هذه الأسطورة التى تجمع بين الغزالى وابن تومرت عند هذا الحد ، بل لقد كان من آثارها أنه يوجد كتاب منسوب للغزالى عنوانه « سر العالمين ، وكشف ما فى الدارين » أو بعنوان أقصر « السر المكنون » وقد جاء فى

---

(١) الحلل الموشية ص ٧٦ و٣٧٧ والبيان المغرب (الأوراق المخطوطة السابق ذكرها — هسبيرس ص ٧٦) .

(٢) روض القرطاس ص ١١٠ و١١١ .

أوله ما يأتى : « أول من استنسخه ، وقرأه على بالمدرسة النظامية سراً من الناس فى النوبة الثانية بعد رجوعى من السفر ، رجل من أرض المغرب يقال له محمد ابن تومرت من أهل سلمية ، وتوسمت فيه الملك »[١].

وليس أشد إمعاناً من ذلك كله فى عالم الأسطورة . ومن ثم فإنا نجد كثيراً من المؤرخين والمفكرين يرفضون هذه الأسطورة والأخذ بها ، فأبن الأثير ينفيها بصراحة ويقول لنا « والصحيح أن ابن تومرت لم يجتمع به (أى الغزالى) »[٢]. ويبدى ابن خلدون ريبه فيها ، ويحملها على محمل الزعم ، وكذلك يعاملها ابن الخطيب[٣]. وكذلك فإن البحث الحديث ينكرها وينفيها . ومن أصحاب هذا الرأى المستشرق الألمانى ميللر[٤] ؛ والعلامة المستشرق إجناس جولدسيهر . ويستعرض جولدسيهر بنوع خاص ما فى هذه القصة من مفارقات ومتناقضات تاريخية ثم يقول : « ويبدو من ذلك كله أنه يحق لنا أن نلغى من ترجمة ابن تومرت قصة الغزالى ، فهى غير مقبولة إطلاقاً ، سواء من حيث ترتيب الحوادث الزمنية ، أو من حيث منطق الحوادث نفسها . وكل ما هنالك أننا نرى فيها تحقيقاً لحاجة الناس ، بأن يجدوا سبباً موجباً ، غير الصفات الشخصية ، لارتفاع رجل ، وصل فى لمعة نور خارقة إلى السلطان ، وإلى سحق الدولة القائمة »[٥] .

على أن ذلك كله لا يعنى أن ابن تومرت لم يتأثر فى تعاليمه الدينية بآراء الغزالى ونظرياته . ومن المسلم به أن ابن تومرت ، قد تأثر خلال دراسته بالمشرق بالنظريات المشرقية فى علوم الكلام والأصول والسنة . ويقول لنا ابن خلدون ، إنه تأثر بتعاليم الأشعرية ، وأخذ عنهم ، واستحسن طريقتهم فى الانتصار للعقائد السلفية والدفاع عنها ، وفى تأويل المتشابه من القرآن والحديث[٦] ، وهى

---

(١) هذا ما ورد فى مقدمة العلامة جولدسيهر الفرنسية لكتاب «أعز ما يطلب» الآتى ذكره (ص ١٩) ولكنا لم نجد هذه العبارة فى مخطوطى دار الكتب المصرية من هذا الكتاب (رقم ١٨٠ و ٢٠٤ مجاميع) .

(٢) ابن الأثير ج ١٠ ص ١٠١ .

(٣) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٢٦ ، وابن الخطيب فى الإحاطة فى (القاهرة ١٩٥٦) فى ترجمة إدريس بن يعقوب بن عبد المؤمن ج ١ ص ٤١٧ و ٤١٨ .

(٤) **A. Müller: Der Islam in Morgen und Abendland (Berlin 1885) B. II. p. 641)**

(٥) مقدمة العلامة جولدسيهر **(I. Goldziher)** لكتاب محمد بن تومرت (أعز ما يطلب) **Le Livre de Mohamad ibn Toumert (Alger 1903) Introduction, p. 12**

(٦) ابن خلدون ٦ ص ٢٢٦ .

مسائل سوف نعود إليها حينما نتحدث عن تعاليم المهدى الدينية . وأما فيما يتعلق بتأثير الغزالى ، فإن هذا التأثير يظهر فى آراء ابن تومرت ومشاريعه الدينية ، وخصوصاً فيما أبداه ابن تومرت من المعارضة للتقاليد الدينية الكائنة بالمغرب ، فإن هذه المعارضة كانت تعكس فى صور كثيرة ، ما كان قائماً من نظرية الغزالى الكلامية ، وبعض النظريات الأخرى فى المشرق . على أن هذا التأثير بتعاليم الغزالى ، لم يصل فى رأى جولدسيهر إلى الأعماق ، ولم يكن كبيراً ، ويلاحظ جولدسيهر بالأخص أن المهدى ، بالرغم مما يوصف به فى تراجمه من الورع والزهد ، لم يبد قط ميلا إلى المعارف الصوفية ، وإلى ذلك الجهد النفسى الذى يسمح للإنسان بالحياة فى ضمير الحقائق الدينية ، وهو الغرض الأساسى فى بحوث الغزالى الدينية . هذا إلى ما كان بينهما من خلاف فى المناهج ، وفى علم الشريعة ، وفى بعض النقط الكلامية الأخرى[(١)] .

— ٢ —

ولما أتم محمد بن تومرت بغيته من الدراسة بالمشرق ، اعتزم العودة إلى المغرب ، وكان قد قطع فى دراسته وبحوثه مرحلة بعيدة المدى ، حتى غدا على قول ابن خلدون : « بحراً متفجراً من العلم ، وشهابا واريا من الدين » . وركب ابن تومرت البحر من الإسكندرية فى أواخر سنة ٥١١ هـ (١١١٧م) ، ويقال إنه أخرج منفياً من الإسكندرية ، لما ترتب من شغب على نشاطه فى مطاردة المنكر . بيد أنه استمر فى دعوته إلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وهو على ظهر السفينة التى أقلته ، فألزم ركابها بإقامة الصلاة وقراءة القرآن ، واشتد فى ذلك حتى قيل إن ركاب السفينة ألقوه إلى البحر ، فلبث أكثر من نصف يوم يسبح إلى جانبها دون أن يصيبه شىء ، فلما رأوا ذلك أنزلوا إليه من رفعه من الماء ، وقد عظم فى نفوسهم ، وبالغوا فى إكرامه[(٢)] . ولما وصل إلى المهدية ، نزل بمسجد من مساجدها ، وليس معه سوى ركوة ماء وعصا ، فتسامع به الناس ، وأقبل الطلاب يقرأون عليه مختلف العلوم ، وكان إذا شاهد منكراً من آلات الملاهى ، أو أوانى الخمر ، بادر إلى إزالته وكسرها ، وأصابه

(١) مقدمة جولدسيهر الفرنسية لكتاب محمد بن تومرت السابقة الذكر ص ٢٠ .

(٢) ابن القطان فى نظم الجمان (المخطوط السابق ذكره لوحة ١٥ ب) ، والمعجب ص ٩٩ و ١٠٠ .

بسبب ذلك بعض الأذى . ووصل خبره إلى الأمير يحيى بن تميم بن المعز بن باديس ملك إفريقية ، فاستدعاه مع جماعة من الفقهاء ، فلما رأى سمته ، واستمع إلى مناقشاته أعجب به وأكرمه وسأله الدعاء[١]. ثم غادر المهدية إلى بجاية ، وجرى فيها على نفس أسلوبه من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وكان يقوم بدعوته بلا كلال ، حتى وقعت ذات يوم بسبب تشدده فى إزالة المنكر ، ضجة وشغب ، وكان والى البلدة العزيز بن المنصور بن حماد الصنهاجى ، رجلا فظاً قاسياً ، فسخط عليه هو وخاصته ، وأراد البطش به . ويفصل لنا ابن القطان بعض ما فعله ابن تومرت لإزالة المنكر ببجاية ، وبعض ما كان بها من المناكر والبدع ، فيقول ، إن ابن تومرت لما دخل بجاية لقى بها الصبيان فى زى النساء بالضفائر والأخراس والزينة ، وشواشى الخز ، وألفى الأرذال قد فتنوا بذلك ، وانهمكوا فيه ، فشدد فى مطاردته ، وفى إزالة هذا الزى المنكر . ثم إنه حضر عيداً فرأى فيه من اختلاط الرجال بالنساء والصبيان المتزينين المتكحلين صوراً مثيرة ، فزجرهم ، ونغص عليهم اجتماعهم ، فوقع الهرج ، وسرى الشر ، وسُلب النساء حليهن . وسأل العزيز عن ذلك ، فعرف بأنه لا سبب لهذا الهرج سوى الفقيه السوسى ، وذلك حسبما كان يعرف ابن تومرت مذ كان بالمشرق . فأمر بجمع الطلبة لمناظرته ، فاجتمعوا فى دار أحدهم على طعام وشراب ، واستدعى ابن تومرت للحضور ، فأبى ، فقصد إليه الكاتب عمر بن فلفول ، فلاطفه وتضرع إليه حتى قبل المناظرة ، واجتمع بالطلبة ، وسألوه فأجابهم عن كل ما سألوا ؛ وسألهم فما استطاعوا الإجابة عن شىء . وتضرع إليه ابن فلفول عندئذ بأن يترك ما هو بسبيله من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر[٢] . وخشى ابن تومرت العاقبة ، فغادر بجاية إلى ناحية قريبة منها تسمى ملالة ، ونزل فى كنف أصحابها وهم من أعيان صنهاجة ، فآووه وأكرموه ، وطلب إليهم والى بجاية تسليمه إليه ، فأبوا ، ولبث بينهم حيناً يدرس العلم ، وكان إذا فرغ يجلس على صخرة بقارعة الطريق قريباً من ملالة . فنى ذات يوم وفد إليه كهل وفتى حسن التكوين ، رائع الجمال ، ولم يكن هذا الفتى الوسيم سوى عبد المؤمن بن على بن علوى ، الذى شاء القدر أن يغدو فيما بعد أعظم أصحاب المهدى ، وأعظم قادته ، وخليفة

---

(١) ابن الأثير ج ١٠ ص ٢٠٢ ، وابن خلكان ج ٢ ص ٤٩ .

(٢) ابن القطان فى « نظم الجمان » (المخطوط ذكره لوحة ١٦ ب و١٧ ا) .

تراثه ودولته . وكان قد قدم مع عمه من بلده القريب من تلمسان ، فى طريقه إلى المشرق ، ليطلب العلم ، ويقضى فريضة الحج ، فسأله ابن تومرت عن شخصه وعن أحواله ، ولما وقف على مقصده ، قال له إن العلم والشرف والذكر التى يطلبها موجودة ، وإنها تنال بصحبته ، ودعاه إلى معاونته فيما هو قائم به ، من إماتة المنكر ، وإحياء العلم ، وإخماد البدع . ويقدم إلينا ابن القطان عن لقاء عبد المؤمن بابن تومرت رواية أخرى ، خلاصتها أن ابن تومرت حينما خرج من بجاية ، واتخذ مقره فى رابطة ملالة ، وأقبل عليه طلبة العلم ، كان ممن وفد عليه منهم الفقيه عبد الواحد بن عمر التونسى ، وتعلق به ولازمه حيناً ، وكان التونسى من فقهاء رباط تلمسان ، فلما توفى ، اتفق أصحابه وتلاميذه على استدعاء ابن تومرت ليقوم بالتدريس مكانه ، فوجهوا إليه عبد المؤمن ، وكان من تلاميذ التونسى المذكور[١]. وأعجب عبد المؤمن كذلك بشخصية ابن تومرت وغزير علمه ، وعول على البقاء إلى جانبه . وهنا تدخل الأسطورة مرة أخرى ، فيقال إن ابن تومرت قد اطلع على كتاب فى الجفر من علوم آل البيت ، ورأى فيه صفة رجل يظهر بالمغرب الأقصى ، من ذرية الرسول ، وان استقامة أمره ، وتوطد مركزه ، يكون على يد رجل من أصحابه ، هجاء اسمه كاسم عبد المؤمن ، ويجاوز وقته المائة الخامسة ، وأنه ، أى ابن تومرت ، كان يبحث عن هذا الرجل أينما حل ، فلما رأى عبد المؤمن وسمع اسمه « أدرك أنه هو الشخص المبتغى »[٢] . وقيل إن ابن تومرت التقى بعبد المؤمن بموضع يعرف بفنزارة من بلاد متيجة ، وان عبد المؤمن كان عندئذ يشتغل بتعليم صبيان القرية المذكورة[٣] . وبقى عبد المؤمن إلى جانب ابن تومرت ، وانقطع إليه واختص به ، ودرس عليه حيناً بملالة ، ثم غادرا ملالة معا ، وذهبا إلى وانشريش ، وهنالك انضم إليهما رجل من قبيلة هرغة ، أى قبيلة ابن تومرت ، هو أبو محمد البشير . وقصد ابن تومرت وصحبه بعد ذلك إلى تلمسان ، وقد تسامع الناس بخبره ، وذاع صيته ، فاستدعاه قاضيها ، وهو ابن صاحب الصلاة ، وأنبه على مسلكه ، ومخالفته لعقائد أهل قطره ، وطلب إليه العدول عن دعوته ، فأعرض

---

(١) ابن القطان فى نظم الجمان (المخطوط السالف الذكر لوحة ٣ ب) .

(٢) ابن خلكان ج ٢ ص ٤٩ ، والمعجب ص ١٠٠ .

(٣) المعجب ص ١٠٠ .

عنه ابن تومرت ، وسار مع صحبه إلى فاس ، ثم إلى مكناسة . وهنالك اشتد فى مطاردة المنكر ، فاعتدى عليه الغوغاء بالضرب والأذى ، فغادرها إلى مركش[١] .

ونظرية الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر التى اتخذها ابن تومرت شعاراً له ، هى فكرة يختص بها الإسلام ، وهى مشتقة مما ورد فى القرآن من قوله : « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر » ، وقوله : « كنتم خير أمة أخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف ، وتنهون عن المنكر » ، ومما ورد فى الحديث مما شُهد بصحته قوله : « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده إن استطاع ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان » ، وقوله : « لا طاعة فى معصية ، إنما الطاعة فى الطاعة ، وعلى أحدكم السمع والطاعة مالم يؤمر بمعصية ، فإن أمر بمعصية ، فلا سمع ولاطاعة » . وأساس هذه الفكرة الإسلامية ، هو التضامن الاجتماعى ، والمسئولية العامة عن حماية المجتمع من المنكر والرذائل التى ينهى عنها الدين . وقد تناول الإمام الفيلسوف ابن حزم القرطبى هذه النظرية فى كتابه الجامع «الفصل» وشرح لنا أصولها ومغزاها ، وذكر لنا فيما يتعلق بتطبيق هذا الشعار فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، بأنه قد ذهبت طوائف من أهل السنة والمعتزلة والخوارج والزيدية ، إلى أن سل السيوف فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر واجب ، إذا لم يمكن دفع المنكر إلا بذلك . فإذا كان أهل الحق فى عصابة يمكنهم الدفع ، ولاييئسون من الظفر ، ففرض عليهم ذلك ، وإن كانوا فى عدد لايرجون لقلتهم وضعفهم بظفر ، كانوا فى سعة من ترك التغيير باليد . ويزيد ابن حزم على ذلك ، أنه يجب إن وقع شىء من الجور وإن قل ، أن يكلم الإمام فى ذلك ويمنع منه ، فإن امتنع وراجع الحق وأذعن للقود من البشرة أو من الأعضاء ، ولإقامة حد الزنا والقذف والخمر ، فلا سبيل إلى خلعه ، وهو إمام كما كان لا يحل خلعه ، فان امتنع من إنفاذ شىء من هذه الواجبات عليه ولم يراجع ، وجب خلعه وإقامة غيره ممن يقوم بالحق لقوله تعالى : « وتعاونوا على البر والتقوى ، ولاتعاونوا على الإثم والعدوان »[٢] .

ويعلق الإمام الغزالى أهمية كبيرة على تلك الفكرة ، ويصف الأمر بالمعروف

---

(٣) راجع الحلل الموشية ص ٧٧ و٧٨ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٢٧ .

(١) ابن حزم فى « الفصل فى الملل والأهواء والنحل » (القاهرة ١٣٢١ هـ) ج ٤ ص ١٧١ و١٧٣ ، و١٧٦ .

بأنه « هو القطب الأعظم فى الدين » . ومن الطبيعى أن يكون الحاكم أو رئيس الدولة (الإمام) ، هو المسئول الأول عن تنفيذ هذا المبدأ الأخلاقى ، وأن يبذل ما فى وسعه فى قمع ما يخالف الشرع من الأعمال والذنوب ، بيده ، أى بواسطة مأموريه ، ثم بلسانه أى بالوعظ والحث على التزام أحكام الشرع . وقد كان منصب الحسبة فى مختلف الدول الإسلامية فى العصور الوسطى ، مظهراً من مظاهر العمل على محاربة بعض أنواع المنكر ، بيد أن هذه المطاردة للمنكر لم تكن وقفاً على الدولة ، أو ممثليها الرسميين ، وإنما كان حق الحسبة يمتد إلى كل مسلم ، فلكل مسلم أن يعمل أو أن ينبه على الأقل لإزالة كل منكر يراه ، أو مخالفة لأحكام الشرع . وهذا المبدأ ما يزال مسلماً به فى عصرنا فى سائر المجتمعات الإسلامية ، وإن كان الشرع يقصر استعماله على التنبيه أو تبليغ السلطات المختصة .

يقول العلامة جولدسيهر معلقاً على هذا المبدأ : « كان أولئك الذين يحاولون تغيير المنكر ، وتغيير وجه الأمور ، رجال متحمسون مخلصون ، ولكنه كان أيضاً ذريعة لمغامرين أذكياء يحاولون الوصول إلى السلطان بطريقه سهلة ، فيسبغون الصبغة الدينية على حركة ثورية ، وقد كان مبدأ الأمر بالمعروف ، شعار الحركات لقلب أسر حاكمة ، ورفع آخرين إلى مكانها ، وهو يبدأ بنقد الأسرة الحاكمة ، ثم يتلو ذلك شهر السيف ، وإثارة الجموع . فإذا نجح ذلك ، تم الوصول إلى الغاية المنشودة .

« وقد كان هذا الشعار كلمة تجمُّع لثورات أسر فى المشرق ، وكذلك فى إفريقية الشمالية ، التى كانت دائما مهادا خصبة لأولئك الذين يريدون إقامة صرح سياسى فوق أسس دينية . ولم تكن بين هذه ثمة حركة ، لا فى أوائلها ، ولا فى تقدمها ، تضارع فى اتساع نطاقها ، تلك الثورة التى أدت فى أعوام قلائل ، إلى طرد المرابطين ، وتأسيس الإمبراطورية الموحدية القوية فى اسبانيا وشمال إفريقية » .

وبالرغم من أن جولدسيهر يرى بصفة عامة أن ابن تومرت لم يتأثر بتعاليم الغزالى ، فإنه فى هذا الموطن يقول لنا إن ابن تومرت ربما تأثر فى نظرية الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بنفوذ الغزالى ، لأنه يعلق على هذه النظرية أهمية قصوى ، ويصفها كما تقدم « بالقطب الأعظم للدين »[1] .

---

(١) مقدمة جولدسيهر الفرنسية لكتاب «محمد ابن تومرت » أو أعز ما يطلب : Mohamed Ibn Toumert et la Théologie de l'Islam dans le Magreb au XI Siècle, p. 85-87 &95 - 96

ونزل ابن تومرت بالحاضرة المرابطية ، وكان ذلك فى سنة ٥١٤ هـ (١١٢٠م) وعكف على طريقته فى مطاردة المنكر وإزالته ، كلما استطاع إلى ذلك سبيلا ، والتقى فى المسجد الجامع بأمير المسلمين على بن يوسف ، وجرى بينهما ما سبقت الإشارة إليه من الأحاديث . واستمر ابن تومرت فى حملته الدينية الأخلاقية دون هوادة . وقد كانت مراكش وغيرها من المدن المغربية ، تبدى أيام المرابطين كثيراً من مظاهر التسامح الدينى ، أو بعبارة أخرى كثيراً من مظاهر الاستهتار والفساد ، فقد كانت الخمر تباع علناً فى الأسواق ، وكان النبيذ يشرب دون تحفظ ، وكانت الخنازير تمرح فى أحياء المسلمين ، وكان القصف ذائعاً بسائر صنوفه ، ومظاهر التدين ضعيفة باهتة ، هذا إلى ما كان يسود الإدارة من تفكك ، والقضاء من انحلال واغتصاب لأموال اليتامى ، وغير ذلك من ضروب الفساد[1] ، وهو ما يلخصه المراكشى فى قوله مشيراً إلى عهد على بن تاشفين « واختلت حال أمير المسلمين بعد الخمسمائة ، اختلالا شديداً ، فظهرت فى بلاده مناكر كثيرة ، وذلك لاستيلاء أكابر المرابطين على البلاد ، ودعواهم الاستبداد . . واستولى النساء على الأحوال ، وأسندت إليهن الأمور ، وصارت كل امرأة من لمتونة ومسوفة ، مشتملة على كل مفسد وشرير وقاطع سبيل ، وصاحب خمر وماخور ، وأمير المسلمين فى ذلك كله يتزايد تغافله ، ويقوى ضعفه »[2] .

ووقع ذات يوم حادث زاد فى لفت الأنظار لابن تومرت ولدعوته . وذلك أن الصورة أخت أمير المسلمين خرجت فى موكبها ، ومعها عدد من الجوارى الحسان ، وهن جميعاً سافرات على عادة المرابطين ، من سفور النساء ، واتخاذ الرجال اللثام . ورأى ابن تومرت هذا الموكب ، فأنكر على النساء سفورهن ، وأمرهن بستر وجوههن ، وضرب هو وأصحابه دوابهن ، فسقطت الأميرة عن دابتها ، ووقع الاضطراب والهرج ، ورفع الأمر إلى أمير المسلمين على بن يوسف ، ففاوض الفقهاء فى شأن هذا الداعية المضطرم . وكانت المعلومات التى جمعت عنه منذ حادثة المسجد ، هو أنه حديث العهد بالوصول إلى مراكش ، وأنه يؤلف الناس ، ويقول لهم إن السنة قد ذهبت . وكان على بن يوسف قد أمر وزيره ينتان بن عمر أن يكشف عن مذهبه ، وعن أحواله ومطلبه ، فإن كانت له

---

(١) مقدمة جولدسيهر الفرنسية لكتاب محمد بن تومرت السالفة الذكر ص ٩٧ .

(٢) المعجب ص ٩٩

حاجة ينظر فى قضائها ، وكان جواب ابن تومرت حسبما أشرنا من قبل ، أن لا حاجة له إلا تغيير المنكر[١].

ورأى أمير المسلمين أن يناظر الفقهاء هذا الرجل . وكان الفقهاء المرابطون يحقدون على ابن تومرت لاعتناقه مذهب الأشعرية . وما يملى به من تأويل المتشابه ، ولحملته عليهم ، وإنكاره لجمودهم إزاء مذهب السلف ، وإقراره كما جاء ، وذهابه إلى حد تكفيرهم ، فأغروا الأمير باستدعائه للمناظرة معهم[٢] ، وقبل ابن تومرت هذا التحدى ، وأبدى فى مناظرته للفقهاء المرابطين تفوقاً ظاهراً . وقد ورد ذكر هذه المناظرة فى كتاب « أعز ما يطلب » ، الذى دونه الخليفة عبد المؤمن بن على عن إملاء ابن تومرت ، وملخص ذلك أن المهدى ، أو « الإمام المعصوم ، المهدى المعلوم » كما يوصف ، طلب إلى مناظريه أن يختاروا من ينوب عنهم لمناظرته ، فقدموا من اختاروه ، فكان مما سألهم المهدى ، أن قال لهم طرق العلم هل هى منحصرة أم لا ، فأجاب مقدمهم المذكور ، نعم هى منحصرة فى الكتاب والسنة والمعانى التى نبهت عليها ، فقال المهدى ، إنما السؤال عن طرق العلم هل هى منحصرة أم لا ، فلم تذكر إلا واحداً منها ، ومن شرط الجواب أن يكون مطابقاً للسؤال ، فلم يفهم مناظره قوله ، وعجز عن الجواب . ثم سألهم المهدى عن أصول الحق والباطل ما هى ، فعاد مناظره إلى جوابه الأول ، فلما رأى المهدى عجزهم عن فهم السؤال ، وعجزهم عن الجواب ، شرع يبين لهم أصول الحق والباطل ، فقال إنها أربعة وهى « العلم والجهل ، والشك والظن » ، ثم أخذ يشرح ماهية كل منها فى كلام طويل ، ثم يستعرض الكتاب بعد ذلك آراء المهدى مفصلة عن « الجهل » و « الشك » ، و « الظن » ، ثم عن « الأصل والحقيقة » ويقسمها إلى أقسام عديدة ، وكل قسم منها إلى فصول مختلفة[٣]. وكان جل من حضر ذلك المجلس من الفقهاء المرابطين ، من علماء الفروع ، وليست لهم معرفة بعلم الأصول . ونقول بهذه المناسبة إن علم الأصول أو أصول الدين ، يقوم على دراسة الشريعة واشتقاقها من الكتاب والسنة ، ودراسة النصوص الشرعية ، والأدلة العقلية ، وتفاصيل العقائد ، وأصول الفقه

---

(١) البيان المغرب فى الأوراق المخطوطة السالفة الذكر .

(٢) ابن خلدون ٦ ص ٢٢٧ .

(٣) كتاب محمد بن تومرت أو أعز ما يطلب (الجزائر سنة ١٩٠٣) ص ١ — ٥ و ١١ — ١٨ .

أى مصادر الشريعة ، ومعرفة النبوة والرسالة ، وكل ما يتعلق بذلك . وأما علم الفروع ، فإنه يقتصر على دراسة فرائض العبادات والمعاملات وأحكامها ، والحدود والأقضية ، أو بعبارة أخرى ، على دراسة الجانب العملى والدنيوى من الشريعة . وقد كانت الدراسات المفضلة فى ظل المرابطين هى علم الفروع . ويقول لنا المراكشى ، خلال حديثه عن نفوذ الفقهاء أيام على بن يوسف ، إنه لم يكن يحظى عنده إلا من أتقن علم الفروع أعنى فروع مذهب مالك ، ثم يستطرد قائلا : « فنفقت فى ذلك الزمان كتب المذهب ، وعمل بمقتضاها ، ونبذ ما سواها ، وكثر ذلك حتى نُسى النظر فى كتاب الله ، وحديث رسول الله (ص) ، فلم يكن أحد من مشاهير ذلك الزمان يعتنى بهما كل الاعتناء »[1]. وقد كان أخص ما تمتاز به هذه المناظرة الدينية ، هو أن ابن تومرت أبدى فى مناقشته تمسكه بأصول الشريعة ، إزاء الفقهاء المرابطين ، وهم أقطاب علم الفروع ، وأراد أن يبين جهلهم بمناهج الشريعة الحقيقية ، فجعل المناقشة تجرى على الأصول لا الفروع ، وأبدى فى عرضه لأصول الشريعة ، أنه يرجع خاصة إلى القرآن والحديث ، ولا يرجع قط إلى قول مستخرج ، ولا يعتبر الإجتهاد مرجعاً من مراجع الشريعة[2].

ولم يكن بين الفقهاء المرابطين من استطاع أن يقدر براعة ابن تومرت ، وتبحره فى علوم الدين ، سوى فقيه أندلسى هو مالك بن وهيب قاضى مراكش ، وقد كان من أكابر العلماء والأدباء ، وكان متمكناً من علوم الدين والفلسفة ، ولكنه كان لا يظهر من علمه إلا ما يروج فى ذلك الزمان[3] . فبين لأمير المسلمين خطورة هذا الرجل ، وخطورة دعوته وتعاليمه ، وقال له إن هذا رجل ، لا يبغى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ولكنه يبغى تضليل العامة ، وإثارة الفتنة ، والوصول إلى السلطان ، وأشار عليه بقتله ، وأشار البعض الآخر على أمير المسلمين ، باعتقال الرجل وسجنه ، وعبر عن ذلك أحدهم بقوله للأمير : « ألقه فى الكبول لئلا يسمعك الطبول » . وخالفهم فى ذلك الوزير ينتان بن عمر ، وقال

---

(١) المعجب ص ٩٥ و ٩٦ .

(٢) جولدسيهر فى مقدمته الفرنسية السالفة الذكر لكتاب محمد بن تومرت ص ٣٩ و ٤٠ .

(٣) المعجب ص ١٠٢ ، ويقول لنا المراكشى إن مالك بن وهيب هذا ، قد وضع كتاباً فريداً فى بابه اسمه « قراضة الذهب فى ذكر لئام العرب » ضمنه لئام العرب فى الجاهلية والإسلام ، وأنه رأى هذا الكتاب فى خزانة بنى عبد المؤمن .

لعلى بن يوسف إن هذا وهن فى حق الملك ، ونوه بضعف الرجل وضآلة شأنه . فأمر على بن يوسف وزيره أن يعتقله لديه أياما حتى يرى فيه رأيه . ولم تمض أيام على ذلك ، حتى جاءت الأنباء بوقوع الفتنة فى قرطبة ، وأخذ على بن يوسف فى التأهب للعبور إلى الأندلس . فطلب إلى وزيره أن يأتيه بابن تومرت ، فحضر بين يديه ، وقال له على بلغنى عنك ما صنعت ببجاية وغيرها فتورع الناس عن قتلك ، فعرفنى بحقيقة غرضك ، فقال ابن تومرت غرضى تغيير المنكر ، ورفع المغارم ، وألاّ تولى من قبيلتك أحد ، وان تتركوا اللثام لأنه من شأن النساء ، ولا تجوز به صلاة ، فزجره أمير المسلمين ، وأمر بإخراجه من مراكش . وكان ذلك فى أوائل سنة ٥١٥ هـ[١] .

— ٣ —

غادر محمد بن تومرت وصحبه مدينة مراكش إلى أغمات ، وفى بعض الروايات أنه بالعكس استمر حيناً يقيم فى خيمة بين مقابر المدينة ، وينهال عليه الناس والطلاب ، وهو يبث فيهم الدعوة ضد المرابطين ، ويرميهم بالتجسيم والكفر ، ثم انتهى بأن أعلن بطلان بيعة على بن يوسف وخلع طاعته عن أعناق أصحابه وتابعيه[٢] ، ولكنه اضطر أن يغادر مكانه حينما بلغه أن القوم يضمرون اعتقاله وقتله[٣] . ولما حل ابن تومرت بأغمات استمر فيها على طريقته من مطاردة المنكر والحملة على المرابطين ، واتخذ لصلاته ودعايته مسجداً خارج أغمات ، فأمر صاحب المدينة بإخراجه وإبعاده[٤] . فعندئذ قصد ابن تومرت وصحبه إلى بلاد السوس ، ولحق بجبال المصامدة ، وذهب أولا إلى مسفيوة ، ثم إلى هنتاتة ، ثم إلى إيكلين ، ومر فى خلال ذلك بكثير من المحلات البربرية ، وهو يتوقف أوقاتا فى بعضها ، ويبنى المساجد ، وينضم إليه الصحب والأتباع . وقد فصل لنا أبو بكر الصنهاجى صاحب ابن تومرت ، برنامج رحلته منذ خروجه من أغمات . ومسيره

---

(١) البيان المغرب (الأوراق المخطوطة السالفة الذكر) ، وروض القرطاس ص ١١٢ ، والحلل الموشية ص ٧٣ و ٧٤ ، وابن الأثير ج ١٠ ص ٢٠٢ ، والمعجب ص ١٠٢ و ١٠٣ ، وراجع كتاب أخبار المهدى ابن تومرت ص ٦٨ و ٦٩ .

(٢) ابن القطان نقلا عن ابن الراعى (نظم الجمان المخطوط لوحة ١٠ ب) .

(٣) هذه هى رواية أبى بكر الصنهاجى أحد أصحاب المهدى فى كتابه « أخبار المهدى ابن تومرت » (ص ٦٩) ونقلها صاحب روض القرطاس (ص ١١٣) .

(٤) البيان المغرب فى الأوراق المخطوطة المشار إليها ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٢٧ .

خلال جبال المصامدة ، ومن لقيه خلال رحلته من الصحب والأتباع . ورحل ابن تومرت وصحبه بعد ذلك إلى قرية إيجليز أوجبل إيجليز من بلاد هرغة ، بلده وموطن قومه وعشيرته ، ونزل فى مكان منيع لا يصل إليه أحد إلا من طريق لا يسلكها إلا الراكب بعد الراكب ، وتدافع عنها أقل عصبة من الناس[١] ، وهنالك انهال إليه المصامدة من كل فج ، وكثر صحبه وأتباعه ، وهو يدعوهم إلى التوحيد ، وإلى قتال المجسمين المرابطين ، وعكف على تدريس العلم . وكان يعنى بالأخص بأن يشرح لأنصاره وتلاميذه نظرية المهدى المنتظر والإمام المعصوم ، وماورد فيها من الأحاديث والأقوال المأثورة ، ويبث الخاصة من دعاته بين رؤساء القبائل يمهدون لتلك الدعوة ويبشرون بها . ولما شعر ابن تومرت بأن دعايته قد أتت ثمرتها ، وأضحى الميدان ممهداً للعمل ، اعتزم أن يعلن إمامته[٢] . وفى اليوم الخامس عشر من رمضان سنة ٥١٥ هـ (ديسمبر سنة ١١٢١م) قام ابن تومرت خطيباً فى أصحابه وأعلن إليهم أنه المهدى المنتظر[٣] فى خطبة قصيرة ينقل إلينا نصها ابن القطان فى « نظم الجمان » فيما يلى :

« الحمد لله الفعال لما يريد ، القاضى بما يشاء ، لا راد لأمره ، ولا معقب لحكمه ، وصلى الله على سيدنا محمد رسول الله ، المبشر بالإمام المهدى ، الذى يملأ الأرض قسطاً وعدلا ، كما ملئت جوراً وظلما ، يبعثه الله إذا نُسخ الحق بالباطل وأزيل العدل بالجور . مكانه المغرب الأقصى منبته وزمانه آخر الزمان ، واسمه اسم النبى عليه الصلاة والسلام ، ونسبه نسب النبى صلى الله تعالى وملائكته الكرام المقربون عليه وسلم ، وقد ظهر جور الأمراء ، وامتلأت الأرض بالفساد ، وهذا آخر الزمان ، والإسم الاسم والنسب النسب ، والفعل الفعل » .

وعلى أثر ذلك ، وفى ظل شجرة خروب وارفة ، هرع إلى المهدى عشرة من أصحابه الملازمين له ، وبايعوه على أنه المهدى المنتظر والإمام المعصوم ، وهؤلاء العشرة الأوائل من أصحاب المهدى هم : تلميذه وألصق الناس عبد المؤمن بن على ،

---

(١) ابن القطان فى نظم الجمان (المخطوط السابق ذكره لوحة ١٣٣ ا) .

(٢) المراكشى فى المعجب ص ١٠٣ .

(٣) هذه رواية روض القرطاس (ص ١١٣) ، ويؤيدها ابن خلدون ، (ج ٦ ص ٢٢٨) ، والحلل الموشية ص ٧٨ ، والزركشى ص ٤ ، ويقول ابن عذارى إنها كانت فى سنة ٥١٨هـ (الأوراق المخطوطة السالفة الذكر — هسبيرس ص ٨٢) .

(٤) نظم الجمان (المخطوط السابق ذكره لوحة ١٢٣ ا) . الحلل الموشية ص ٧٨ .

وكان أول من بايعه ، وأبو محمد عبد الله بن محسن الوانشريشى المسمى بالبشير ، وعبد الله بن ملويات ، وأبو حفص عمر بن يحيي الهنتاتى ، وأبو حفص عمر بن على أزناج (أصناك) ، وسليمان بن مخلوف ، وإبراهيم بن إسماعيل الخزرجى وأبو محمد عبد الواحد الحضرمى ، وأبو عمران موسى بن تمارى ، وأبو يحيي أبو بكر بن يكيت. وسمى هؤلاء العشرة بالمهاجرين الأولين وبالجماعة[١]، ثم بايعه من بعدهم خمسون رجلا ، فسموا أهل خمسين ، وهم الطبقة الثانية من أصحاب المهدى[٢]. ثم بايعه من بعدهم سبعون آخرون فسموا أهل سبعين ، وهم الطبقة الثالثة . وكانت هذه الطبقات الثلاث تضم أخلص أنصار المهدى ، وأقدرهم . وقسم ابن تومرت بعد ذلك بقية أصحابه وأنصاره ، إلى طبقات تلى هذه ،فالطبقة الرابعة تتكون من طلبة العلم ، والطبقة الخامسة تتكون من الحفاظ ، وهم صغار الطلبة ، والطبقة السادسة تتكون من أهل الدار وهم أقارب المهدى وعشيرته وخاصة خدمه . وقد ذكر لنا ابن القطان نقلا عن ابن صاحب الصلاة أسماء هؤلاء الخدم الذين كانوا يلازمونه ليل نهار . والطبقة السابعة تتكون من أهل هرغة بلد المهدى وموطن قبيلته ، والطبقة الثامنة تتكون من أهل تينملّل ، والطبقة التاسعة من أهل جدميوه ، والطبقة العاشرة من أهل جنفيسة ، والطبقة الحادية عشرة من أهل هنتاتة ، والثانية عشرة تتكون من الجند ، والثالثة عشرة من الغزاة والرماة . ويقول ابن القطان إن الطبقة الثانية عشرة كانت تتكون من أهل القبائل ، والثالثة عشرة من الجند . ويضيف إلى ذلك طبقة أخرى ، هى الرابعة عشرة ، وهى طبقة « الفرات » ، وهم الأحداث الصغار الأميون . ووضع المهدى فيما بعد نظاماً خاصاً لمهام هذه الطبقات ورُتَبها ، وجعل لكل منها مهمة تختص بها ، ورتبة لاتتعداها ، سواء فى السفر أوالحضر، وشرع القتل جزاء لمن خالف الأوامر ؛ ومن تخلف عن الحضور أدب ، فإن تمادى قتل ،

---

(١) الحلل الموشية ص ٧٩ ، وروض القرطاس ص ١١٣ . ويذكر لنا ابن القطان اسمين آخرين هما أبو الربيع سليمان بن الحضرمى ، وأبو عبد الله محمد بن سليمان مكان أبى محمد عبد الواحد الحضرمى ، وسليمان بن مخلوف (نظم الجمان لوحة٣٣ ب) . ويورد أبو بكر الصنهاجى فى كتابه أخبار المهدى بن تومرت أسماء أخرى ، ويذكر نفسه ضمن العشرة الأوائل (ص ٧٣) . وكذلك يذكر ابن خلدون بعض أسماء أخرى (ج ٦ ص ٢٢٨) .

(٢) ذكر لنا أبو بكر الصنهاجى صاحب كتاب أخبار المهدى ابن تومرت أسماء « أهل خمسين » ص ٣٣ و ٣٤ .

ومن لم يحفظ حزبه عزر بالسياط ، وكل من لم يتأدب بما أدب به ، ضرب بالسوط مرة أو مرتين ، فإن تمادى فى تصرفه وترك امتثال الأوامر قتل ، ومن داهن على أخيه أو أبيه أو ابنه أو من يكرم عليه قتل . وشدد المهدى فى تنفيذ شريعته وضبط الأمور بحزم ، وكان هذا النظام هو أساس الدولة الموحدية المستقبلة[١].

ولما كملت بيعة ابن تومرت على هذا النحو ، لقبه أنصاره بالمهدى والإمام المعصوم ، وكانوا من قبل يقتصرون على تلقيبه بالإمام . وسمى المهدى وأصحابه وأهل دعوته بالموحدين . ويقول لنا ابن خلدون ، إنه اختار لهم هذه التسمية تعريضاً بلمتونة فى أخذهم بالعدول عن التأويل وميلهم إلى التجسيم[٢] . ووضع لهم فى التوحيد كتابا باللغة البربرية سماه « المرشدة » يحتوى على معرفة الله تعالى ، والعلم بحقيقة القضاء والقدر ، والإيمان بما يجب لله تعالى ، وما يجب على المسلم من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ويتضمن الأعشار والأحزاب والسور ، وقال لهم إن من لا يحفظ هذا التوحيد ، فليس بموحد ، وإنما هو كافر لا تجوز إمامته ، ولاتؤكل ذبيحته . قال صاحب روض القرطاس « فصار هذا التوحيد عند قبائل المصامدة كالقرآن العزيز ، لأنه وجدهم قوماً جهلة لا يعرفون شيئاً من أمر الدين ولامن أمر الدنيا »[٣] . ووضع لهم بالبربرية كتباً أخري فى العقيدة منها كتاب سمى « بالقواعد » وآخر سمى « بالأمانة » ، ودونها كذلك بالعربية ، وكان ابن تومرت أبرع أهل عصره فى إتقان اللغتين العربية والبربرية . ثم وضع بالعربية فيما بعد ، كتابه فى العقيدة والعلم والإمامة الذى رواه عنه تلميذه وخليفته عبد المؤمن بن على والذي يفتتحه بقوله « أعز ما يطلب» وهى عبارة أصبحت تعتبر عنواناً للكتاب ذاته[٤] . وسوف نتحدث فى فصل خاص عن محتويات هذا الكتاب ، وعن عقائد المهدى وآرائه الدينية والسياسية بصفة عامة .

ولبث المهدى بن تومرت يبث دعوته ، ويعمل على توطيدها فى نفوس أنصاره ، بفصاحته وذلاقته ، ورقيق وعظه ، وأعوانه من المخلصين القادرين يجوبون جبال المصامدة ، ويدعون إلى إمامته ومهديته ، والناس يفدون عليه من كل صوب جموعاً غفيرة ، يبايعونه بالإمامة ، ويتبركون برؤيته ، حتى

---

(١) ابن القطان فى نظم الجمان (المخطوط السالف الذكر ص لوحة ١٠ ا و ب) .
(٢) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٢٩ .
(٣) ابن القطان فى نظم الجمان (المخطوط لوحة ٣٤ ا) . وروض القرطاس ص ١١٤ .
(٤) روض القرطاس ص ٨٠ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٢٦ .

استفحل أمره ، وعلا صيته ، وكثر جمعه ، وأضحى يمثل بما تنطوى عليه حركته من القوى الأدبية والمادية الضخمة ، خطراً داهما على سلطان المرابطين .

وإنه ليحق لنا أن نتساءل هنا ، هل كان محمد بن تومرت يضمر منذ الساعة الأولى مشروعه فى انتحال صفة المهدى توسلا إلى نيل السلطان ، وانه مذ عاد عقب دراسته بالمشرق إلى المغرب ، كان يضطرم بهذه الأمنية الكبيرة ، أم أنه حمل على مشروعه ، بما رآه من نجاح دعوته ، وتكاثر أتباعه ، وشعوره بقوة ملأه؟ يلوح لنا أن ابن تومرت كان يضطرم بأطماعه منذ الساعة الأولى ، وأنه كان فى بداية أمره يتخذ الدعوة إلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ستاراً يتحسس به طريقه ، حتى تسنح له فرصة العمل المثمر . يؤيد ذلك ما سبق أن نقلناه عن المراكشى من أن ابن تومرت ، كان خلال محادثاته لتلاميذه وأنصاره ، يعنى بأن يشرح لهم بالأخص نظرية المهدى المنتظر ، والإمام المعصوم ، ويبعث رسله ودعاته لإذاعتها بين القبائل . وتؤيده كذلك رسالة أشار إليها ابن القطان ، قال إنها وجهت من المهدى فى آخر شهر رمضان سنة ٥١١ هـ إلى الفقيه القاضى على بن أبى الحسن الجذامى وفيها يقول بعد البسملة : « أقول ، وأنا محمد بن عبد الله بن تومرت ، وأنا مهدى آخر الزمان »[1] . وقد يؤيده أيضاً ما تردده تراجمه المختلفة من قصة لقائه بالإمام الغزالى ، وما ينسب إلى الغزالى ، حينما وقف منه على ما فعل المرابطون بكتبه ، من دعائه بتمزيق دولتهم ، وزوال ملكهم ، وأن يكون ذلك على يده ، أى على يد ابن تومرت ، وما تردده هذه التراجم أيضاً من أن ابن تومرت ، قد اطلع فى بعض كتب الجفر والملاحم السرية على ماورد فيها بشأن قدره ومصيره ، وأنه وقف منها على العلامات والشواهد الخاصة التى يتميز بها المهدى المنتظر ، وهى علامات كانت كلها متوفرة فيه[2] .

---

(١) ابن القطان فى نظم الجمان (المخطوط السالف ذكره لوحة ١٤ ا) .

(٢) المراكشى فى المعجب ص ١٠٣ . وراجع أيضاً جولدسيهر فى مقدمته الفرنسية لكتاب محمد بن تومرت التى سبقت الإشارة إليها ص ٩٩ .

الفصل الثاني

الصراع بين المرابطين والموحدين

المرحلة الأولى

على بن يوسف يرسل جيشاً لمحاربة المهدى . تحصن المهدى بجبل إيجليز . نزول الموحدين للقاء المرابطين . هزيمة المرابطين وفرارهم . أمير المسلمين يرسل جيشاً آخر لمحاربة الموحدين . هزيمة المرابطين للمرة الثانية ، ثم للمرة الثالثة . أثر هذا الظفر فى توطيد أمر المهدى وتقوية شيعته . المهدى يوجه رسالة إلى المرابطين . غزوات المهدى للمرابطين ثم للقبائل الخارجة . افتتاحه لجبال درن . انتقاله من جبل إيجليز إلى تينملل . رواية عن استيطان المهدى لتينملل ، وفتكه بقبيلة هزميرة . استعداد المهدى لمرحلة جديدة من الصراع ضد المرابطين . تمييزه لأصحابه عن يد محمد البشير . قصة البشير ومعجزاته المزعومة . بعث المهدى قواته لغزو المرابطين . غزوها لكيك وأغمات . هزيمة المرابطين فى الموقعتين . حشد المهدى لسائر قواته . يعهد بقيادتها إلى محمد البشير وعبد المؤمن بن على . زحف الموحدين على مراكش . تفاصيل عن المعارك التمهيدية بين الموحدين والمرابطين . استعداد على ابن يوسف للدفاع . اللقاء الأول بين المرابطين والموحدين تحت أسوار مراكش . هزيمة المرابطين والتجاؤهم إلى داخل المدينة . حصار الموحدين لمراكش . اجتماع الحشود المرابطية من سائر الأنحاء . نشوب معركة جديدة بين الفريقين فى بقعة البحيرة . هزيمة الموحدين وتمزيق قواتهم . مصرع قائدهم البشير ومعظم زملائه . انسحاب عبد المؤمن فى فلوله ، وفتك القوات المرابطية بها . ارتداد الموحدين إلى تينملل . فداحة النكبة التى أصابت الجيش الموحدى . الخلاف حول تاريخ معركة البحيرة . مرض المهدى ووفاته . صفاته وخلاله وأحكامه . سفكه للدماء . خداعه واستغلاله لسذاجة الجماهير . تصدى ابن خلدون للدفاع عن صفته ونسبه وعن صحة دعوته . بواعث هذا الدفاع ، وما يتسم به من سقم وتناقض . مثل الداعية الخاتل الساعى إلى انتزاع السلطان . حكومة المهدى التيوقراطية . الإتفاق على خلافة عبد المؤمن . قبر المهدى فى تينملل .

— ١ —

كان واضحاً ، أن محمد بن تومرت أو المهدى حسبما نسميه منذ الآن ، كان مذ شعر بتوطيد أمره ، وتضخم أنصاره وجموعه ، يتأهب لمحاربة المرابطين . وهو قد أعلن ذلك لأنصاره « الموحدين » بالفعل مذ تمت بيعته وتسمى بالمهدى ، وأخذ الموحدون فى التأهب للحرب ، بعد أن رتبهم المهدى ، وجعل لكل عشرة منهم نقيباً . وسنرى فيما بعد كيف تنتظم الجيوش الموحدية وفق منهاج جديد ، وتتخذ لها فى الحروب خططاً مبتكرة ، كانت من أهم أسباب ظفرها .

وقد رأينا فيما تقدم ، كيف اضطر أمير المسلمين على بن يوسف أن يعبر

البحر إلى الأندلس فى أوائل سنة ٥١٥ هـ ، حينما سمع بأمر الفتنة التى حدثت بقرطبة ، وكيف أنه لم يمكث عندئذ طويلا بالأندلس ، ولم يضطلع بأية أعمال أوغزوات جديدة ، لما بلغه من تفاقم حركة ابن تومرت فى بلاد السوس ، وكان قبل ذلك بأشهر قلائل فقط قد سرحه ، عقب المناظرة التى وقعت بينه وبين الفقهاء ، واكتفى بإبعاده عن حاضرته مراكش ، فسار ابن تومرت إلى بلاد السوس ، وهنالك كشف عن حقيقة نياته ومشاريعه البعيدة المدى .

ولما عاد أمير المسلمين إلى مراكش حاول أن يستدرك ما فاته ، وأن يدبر أمر القبض على ابن تومرت ، ولكن الأمر كان أخطر من ذلك وأعظم ، ولم يكن أمامه سوى محاربة الرجل ، الذى تحول فى فترة قصيرة من فقيه متواضع يدعو إلى تغيير المنكر ، إلى داعية سياسى خطر ، يتشح بثوب الإمامة المهدية ، ويجمع تحت لوائه قوى جرارة .

فبعث لقتاله والى السوس أبا بكر بن محمد اللمتونى ، وقيل إبرهيم بن تيعشت فى جيش من الأجناد والحشم ، فقصد إلى السوس الأقصى ، وكان المهدي قد صعد عندئذ إلى جبل إيجليز من شعب جبال المصامدة ، وتحصن فيه مع أنصاره ، وكان لهذا الجبل طريق واحد ضيق وعر لا يستطيع أن يسلكه سوى فارس واحد ، وتصعب مهاجمته على أية قوة محاربة ، فلما قدم المرابطون نزلوا فى شرقى الجبل بمكان وعر ، فخرج المهدى من معقله ، وعقد مجلساً لأصحابه ووعظهم ، وقال لهم : أنظروا إلى أعدائكم ، واعلموا أن كل ما جاءوا به من خيل وعدة ، إنما هو هدية من الله تعالى لكم ، على غربتكم وفقركم ، فأعطاكم وأغناكم . ثم جهز لقتالهم جيشاً من أنصاره من أهل هرغة وهنتاتة وتينملل ، وزوده بالأعلام البيض ، وندب لقيادته محمداً البشير الوانشريشى أحد أصحابه العشرة ، فنزل الموحدون من الجبل ، وماكاد اللقاء يقع بين الجيشين حتى هزم المرابطون وركنوا إلى الفرار ، واستولى الموحدون على أسلابهم من الخيل والسلاح ، وطاردوهم حتى مدينة مراكش ، ووقع هذا النصر الأول لجيوش المهدى ، فى شهر شعبان سنة ٥١٦ هـ (أغسطس سنة ١١٢٣ م)(١) .

وكان لهذا النصر أثر بالغ فى ذيوع أمر المهدى ، وتضاعف صيته ، وتضخم

---

(١) ابن القطان فى نظم الجمان (المخطوط السالف ذكره لوحة ٣٧ ا) ، والحلل الموشية ص ٨٠ ، وروض القرطاس ص ١١٤ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٢٨ .

شيعته ، وكان له بالأخص أثره في تقوية الروح المعنوية لدى جموع الموحدين . وبادر على بن يوسف فجهز جيشاً آخر ، أضخم عدة وعدداً ، وسيره تحت إمرة الأمير أبى إبراهيم إسحاق ، وكان الموحدون قد كثر جمعهم ، وقويت نفوسهم ، وتزودوا بما غنموه من المرابطين من الخيل والسلاح . فلما التقى الجمعان للمرة الثانية سرى إلى الحشم والجند المرابطين رعب مفاجئ ، وانهزموا أمام الموحدين دون قتال ، وقتل منهم عدد وافر ، واستولى الموحدون على محلتهم ، وسائر عُددهم ، وكان لهذه الهزيمة الثانية أسوأ وقع فى نفس على بن يوسف ، فجهز على الأثر جيشاً عظيما ثالثا ، وعهد بقيادته إلى الأمير سير بن مزدلى اللمتونى ، فلم يكن فى قتال الموحدين أسعد حظاً من سابقيه ، فأصيب كذلك بهزيمة شديدة وقتلت من جنده جملة وافرة ، وكانت نكبة جديدة للمرابطين .

وبدا عندئذ ، لعلى بن يوسف على ضوء هذه الهزائم المتوالية بجيوشه ، أن المسألة ليست فتنة محلية ، وأن المهدى لم يكن ثائراً عادياً ، بل إن الأمر أجل من من ذلك وأخطر ، وأن محاربة الموحدين أضحت بالنسبة للدولة المرابطية ، معركة حياة أو موت . وشعر المهدى من جهة أخرى أنه أضحى من حيث توطد أمره ، ووفرة حشوده ، وروح شيعته المعنوية ، التى أذكاها الظفر ، نداًّ قوياً للمرابطين ، وأنه يسير قدما فى هزيمتهم وتحطيم دولتهم ، وأنه لن يمضى سوى القليل ، حتى ينزعهم سلطانهم ، ويقيم دولته الموحدية الجديدة على أنقاض دولتهم .

وكان من أثر هذه الثقة بالظفر النهائى ، أن وجه المهدى إلى المرابطين ، رسالة يدعوهم فيها إلى طاعته ، وينذرهم فيها بسحقهم إذا لم يستجيبوا . وإليك نص هذه الرسالة التى يوردهالناصاحب الحلل الموشية : « إلى القوم الذين استذلهم الشيطان ، وغضب عليهم الرحمن ، الفئة الباغية ، والشرذمة الطاغية ، لمتونة ، أما بعد ، قد أمرناكم بما نأمر به أنفسنا من تقوى الله العظيم ولزوم طاعته ، وأن الدنيا مخلوقة للفناء ، والجنة لمن اتقى ، والعذاب لمن عصى ، وقد وجبت لنا عليكم حقوق بوجوب السنة ، فإن أديتموها كنتم فى عافية ، وإلا فنستعين بالله على قتالكم حتى نمحو آثاركم ، ونكدر دياركم ، ويرجع العامر خالياً ، والجديد باليا ، وكتابنا هذا إليكم إعذار وإنذار ، وقد أعذر من أنذر ، والسلام عليكم ، سلام السنة ، لاسلام الرضى »[1] .

---

(١) الحلل الموشية ص ٨١ .

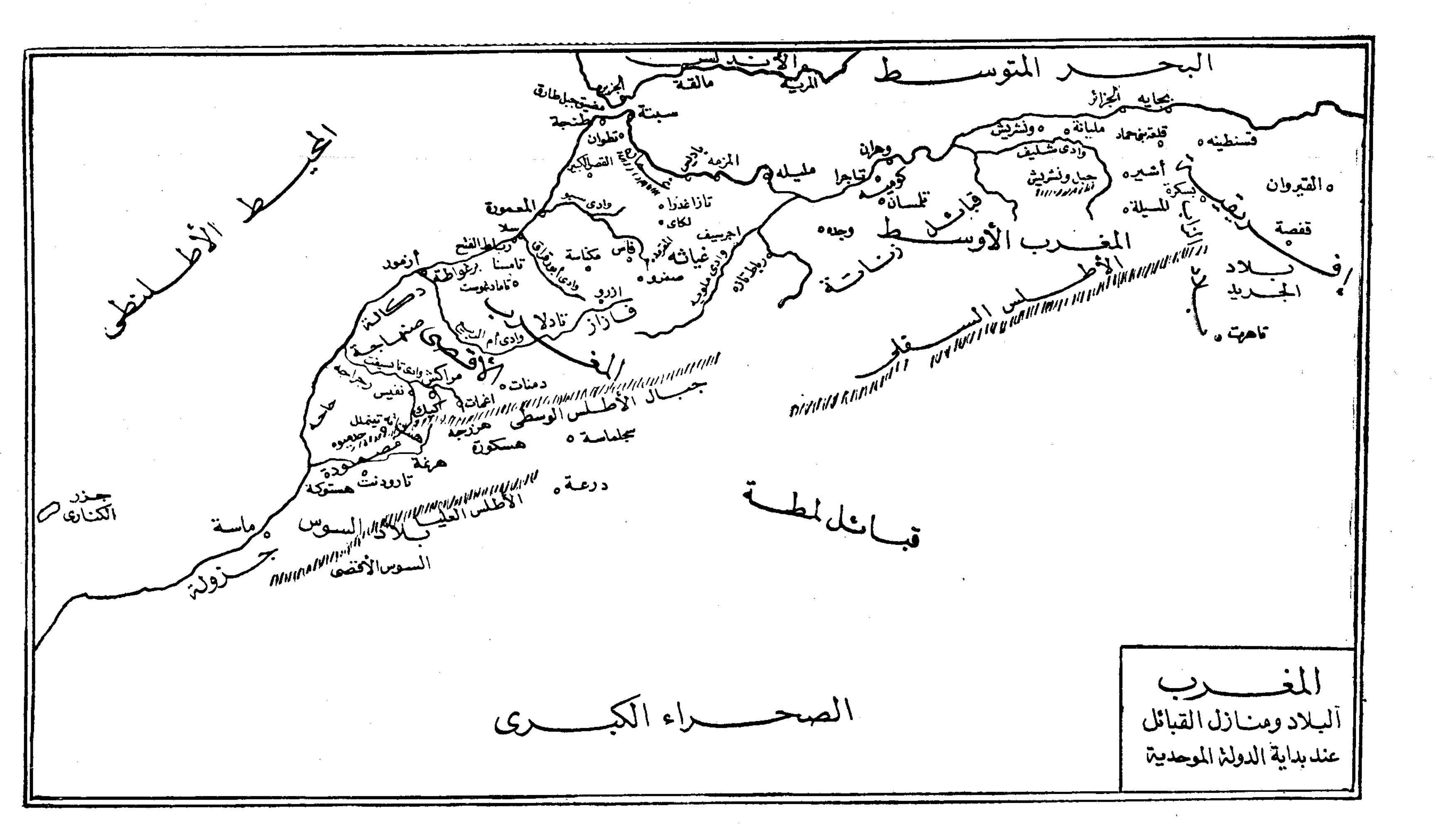
وقعت هذه المرحلة الأولى من الصراع بين الموحدين والمرابطين فى سنة ٥١٦ هـ (١١٢٢ م) وربما كذلك فى سنة ٥١٧هـ . وقد ذكر لنا أبو بكر الصنهاجى المكنى بالبيذق ، وقد كان حسبما يقرر لنا من حشم المهدى وخاصته ، فى روايته فى باب غزوات المهدى ، أو المعصوم كما يسميه ، ان هذه الغزوات الأولى بلغت تسع غزوات متوالية كانت كلها ضد المرابطين ، إلا واحدة منها ، وهى الغزوة السابعة ، فقد كانت لقبيلة هسكورة ، وكان من أبرز هذه الوقائع فى مقاتلة المرابطين واقعتان ، الأولى نشبت بين المرابطين أو الحشم حسبما ينعتهم ابن القطان ، وبين الموحدين فى بلدة تادرارت ، وكانت معركة عنيفة هزم فيها الموحدون ، وفنى معظمهم أو قتلوا جميعاً حسبما يروى ابن القطان . ونشبت الموقعة الثانية فى آنسا ، وكانت الدائرة فى هذه المعركة على الموحدين ، فقتلت منهم جملة كبيرة . أما غزوة هَسْكورة ، فلأنها كانت من القبائل المتخلفة عن بيعة المهدى ، والاعتراف بطاعته ، وفى هذه الغزوة اشترك المهدى بنفسه فى القتال ، وأصيب بجراح ، وأسرع أنصاره بحمله وإنقاذه[1] . والواقع أن المهدى لم يقتصر فى بداية أمره على مقارعة المرابطين أو لمتونة ، ولكنه شغل فى نفس الوقت بمحاربة القبائل المجاورة المتخلفة عن بيعته وطاعته ، مثل هسكورة ، ورَجراجة ، وهزرجة ، وغجرامة ، وكثير من بطون المصامدة ، وكان بعض هذه القبائل مثل هزرجة وهسكورة من حلفاء لمتونة ، فكان المهدى يشتد فى قتالهم ويرغمهم على الطاعة قبيلة بعد أخرى ، حتى دانت له سائر القبائل الخارجة ، من المصامدة ومن غيرهم[2] ، وجاز المهدى بعد ذلك إلى جبال دَرَن ، فاحتوى على سائر بلادها ومحلاتها من بلدة تامبوت إلى ماغوصة إلى جنفيسة ، ثم جاز إلى تادرارت حيث وقعت هزيمة الموحدين الأولى ، فأغار عليها الموحدون وقتلوا أهلها قتلا ذريعاً . وأنفق المهدى فى تلك الحروب والغزوات المحلية زهاء ثلاثة أعوام ، من سنة ٥١٦ إلى سنة ٥١٨ هـ (١١٢٢ — ١١٢٤م) ، وبذلك استطاع أن يبسط سلطانه المطلق على منطقة السوس كلها .

وفى سنة ٥١٨ هـ ، غادر المهدى جبل إيجليز بعد أن أقام فيه ثلاثة أعوام ،

---

(١) كتاب أخبار المهدى ابن تومرت ص ٧٤ — ٧٨ ، وابن القطان فى نظم الجمان (المخطوط السابق ذكره لوحه ٤٦ ا) .

(٢) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٢٨ ، وروض القرطاس ص ١١٥ ، والزركشى ص ٤ .


المغرب
البلاد ومنازل القبائل
عند بداية الدولة الموحدية
البحر المتوسط
المحيط الأطلنطي
الصحراء الكبرى
قبائل لمطة
المغرب الأوسط
المغرب الأقصى
جبال الأطلس الوسطى
الأطلس السفلى
الأطلس العليا
زناتة
بلاد السوس
السوس الأقصى
جزولة
ماسة
جزر الكنارى
هستوكة
تارودنت
هزرجة
هسكورة
سجلماسة
درعة
دمنات
اغمات
مراكش
نفيس
رجراجة
حاحا
تينملل
مصمودة
صنهاجة
دكالة
تادلا
فازاز
غياثة
مكناسة
فاس
تازا
سلا
المعمورة
ارزمو
رباط الفتح
تامسنا
برغواطة
تطوان
طنجة
سبتة
مالقة
المرية
مليلة
وهران
تلمسان
وجدة
تاهرت
بلاد الجريد
قفصة
القيروان
قسنطينة
بجاية
الجزائر
مليانة
ونشريش
قلعة بني حماد
وادي شليف
جبل ونشريش
أشير
بسكرة
المسيلة
وادي ملوية
وادي سبو
وادي أم الربيع
وادي تانسيفت
كومية
إفريقية

وسار فى صحبه إلى تينملّل ، وهى محلة صغيرة من عمل هرغة تقع فوق ربوة عالية فى سفح جبل درّن من شعب جبال الأطلس على قيد نحو مائة كيلومتر من جنوب غربى مراكش ، فقسم أرضها وديارها على أصحابه ، وابتنى بها حصناً فى قمة الجبل يشرف عليها من عل ، وابتنى كذلك داراً ومسجداً ، وأدار حول وهدتها سوراً . وكان اختيار المهدى لهذه البلدة يرجع بالأخص إلى حصانة موقعها الفائق ، وكان الوصول إليها من الغرب من طريق ضيق لايتسع إلا لفارس واحد ، ومن الشرق كذلك من طريق فى بطن الجبل تحت راكبها حافات وفوقه حافات ، والسير فيها خطر شاق . وهكذا استقر المهدى فى تينملّل ، وجعلها مقر رياسته ، ومركز جهاده ، وبذلك أضحى على مسافة قليلة من العاصمة المرابطية الكبرى(١).

ويقدم إلينا اليسع بن أبى اليسع عن استيطان المهدى ليتنملل رواية ، خلاصتها أن أهلها بعثوا إليه بطاعة قبيلتهم هزميرة الجبل ، وأن سكناه لديهم أصلح له ، وأقرب إلى بث دعوته ، فسار إليهم ، ونزل بتينملل ، فأكرمه أهلها أيما إكرام ، وأكدوا له خضوعهم وطاعتهم ، وبايعوه ، فرأى المهدى من كثرتهم وحصانة بلدهم ما راق لديه ، وكان يخرج إلى الشريعة فى خارجها ، ويجلس على حجر مربع أمام المحراب ، ويعظ الناس ، فلاحظ أن قبيلة هزميرة يحضرون دائماً متقلدين سلاحهم . فسألهم يوما لم تمسكون سلاحكم ، وإخوانكم الموحدون لا يمسكونه ؟ فتركوا حمل السلاح مدة . وكان المهدى قد توجس من كثرتهم وقوتهم ، ونظر فى أمرهم . فجاءوا ذات يوم إلى سماع الوعظ دون سلاح . وكان الموحدون بالعكس قد تقلدوا سلاحهم ، فانقضوا عليهم ، وأوسعوهم قتلا ، فقتلوا منهم فى ذلك اليوم وفقاً لرواية اليسع نحو خمسة عشر ألف ، وسبيت نساؤهم ، ونهبت أموالهم ، وقسمت أراضيهم بين الموحدين . ثم ابتنى المهدى سوراً حول تينملل ، وأقام فى قمة الجبل حصناً يكشف ما وراءه . وأخذ يبعث بقواته إلى الأماكن المجاورة من أراضى قبيلة تينملل أو هزميرة فيغيرون عليها ، ويقتلون أهلها ، ويسبون ويغنمون .

ووقعت هذه الحوادث كلها ، حسبما يخبرنا ابن القطان فى سنة ٥١٨ هـ(٢) (١١٢٤ م)

---

(١) أتيح لى خلال إحدى زياراتى للمغرب أن أزور بلدة تينملل ، وأن أتأمل موقعها الحصين فى سفح جبال الأطلس ، وهى اليوم بلدة صغيرة تحتوى على مساكن قليلة وأمامها مسجد المهدى وهو فى حالة خربة ، وعلى مقربة منه موضع تظلله الأشجار ، قيل لنا إنه قبر المهدى .

(٢) ابن القطان عن اليسع ، فى نظم الجمان (المخطوط السابق ذكره لوحة ٤٦ ب و٤٧ ا و ب).

وأخذ المهدى بعد ذلك يتأهب للمرحلة التالية ، وربما الحاسمة ، فى صراعه مع المرابطين. وكان قد اعتاد أن يسميهم « بالمجسمين » . وترجع هذه التسمية إلى حديث نقله إلينا أبو بكر الصنهاجي فى كلامه عن الغزوة التاسعة ، وذلك أن المهدى سأل أنصاره الموحدين فى هذه الغزوة ، وكان مشاركاً فيها ، عما يقوله المرابطون عنهم ، فقالوا إنهم لقبونا بالخوارج ، فقال المهدى « سبقونا بالقبيح » لو كان خيراً أحجموا عنه ، لقبوهم أنتم ، فإن الله ذكر فى كتابه : « فمن اعتدى عليكم ، فاعتدوا عليه » قولوا لهم أنتم أيضاً « المجسمون » . ومن ذلك الحين يطلق الموحدون على خصومهم المرابطين لقب المجسمين ، ويشير إليهم المهدى فى سائر كتاباته بهذا اللقب[1] .

ورأى المهدى ، استعداداً لهذا الصراع ، أن يستوثق من ولاء أنصاره ، فأمر أن ينادى فى الجبل بدعوة الناس كافة ، وندب أبا محمد البشير لتمييز الناس ، فكان يخرج قوماً عن يمينه ويسميهم أهل الجنة ، ويخرج آخرين عن يساره ويسميهم أهل النار ، وهم الذين يشك فى ولائهم ، وفى اعتقادهم أن ابن تومرت هو المهدى المعلوم . ويقول لنا ابن القطان ، إن البشير كان يطلق أهل اليسار ، وهم يعلمون أن ليس لهم إلا القتل فلا يفر منهم أحد ، وكان إذا اجتمع منهم كثير قتلهم قراباتهم ، وقتل الأب ابنه ، والابن أباه والأخ أخاه ، ولم تقل لنا الرواية ، ماذا كان مقياس الولاء أو المروق فى هذا التمييز ، ولكن المفروض أنه انتهى بسحق المنافقين والمثبطين من صفوف الموحدين[2] .

ولمحمد البشير هذا ، وهو كما نذكر من أصحاب المهدى العشرة ، قصة ذكرها لنا ابن القطان نقلا عن اليسع فى أخبار سنة ٥١٩ هـ ، وهى التى وقع فيها التمييز . وذلك أن البشير كان منذ البداية يتظاهر بالبله ، ويلتزم الصمت والعزلة ، وتأخذه سنات من النوم ؛ ففى ذات يوم خرج المهدى إلى الناس ، وقال لهم ، أتعرفون البشير ، فقالوا ومن هو ؟ فقال لهم هو الونشريشى ، وأنتم تعلمون أنه أمى لا يقرأ ولا يكتب ، وتعرفون أنه لايثبت على آية ، ولكن الله قد جعله مبشراً لكم ، مطلعاً على أسراركم ، وهو من آيات الله تعالى فى هذا الأمر . وكان المهدى

---

(١) كتاب أخبار المهدى ابن تومرت ص ٧٧ ، وراجع كتاب ابن تومرت مهدى الموحدين أو كتاب أعز ما يطلب ص ٢٥٨ .

(٢) ابن القطان فى نظم الجمان (المخطوط لوحة ٥٠ ا) ، ونقل هذه الرواية ابن عذارى (فى الأوراق المخطوطة السالفة الذكر هسبيرس ص ٨٢) ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٢٨ .

قد عنى سراً بتحفيظ القرآن للبشير ، فاستعرضه أمامهم ، وقرأه عليهم فى أربعة أيام ، وركب أمامهم حصاناً فأتقن ركوبه ، ثم قال لهم المهدى . إن البشير هـذا مطلع على الأنفس محدث ، وأنه يوجد إلى جانب الموحدين ، أقوام منافقون ، وقف البشير على دخيلتهم ، وأنه لابد من النظر فى أمورهم حتى يتم العدل[1] .

وفى العامين التاليين ، وقعت بين الموحدين والمرابطين بضعة معارك ، يصعب استجلاء تفاصيلها . وكان على بن يوسف قد بعث جيشاً ليحاول اقتحام تينملل معقل المهدى ففشل وهزم . وكانت خطة المهدى ، أن يلتزم الدفاع فى معاقله الجبلية الوعرة ، وألا يهبط إلى السهل ، ليحمل أعداءه المهاجمين أن يصعدوا إليه إذا شاءوا قتاله[2] ، وكانت هذه الخطة تكبد المرابطين مشقات جمة ، وكان الفشل مصيرهم دائماً كلما حاولوا القيام بدور الهجوم .

وفى سنة ٥٢٠ هـ بدأ المهدى فى تنفيذ خطته من الاضطلاع بالهجوم ، وغزو لمتونة على نطاق واسع ، فبعث جيشاً ضخماً من الموحدين بقيادة أبى محمد البشير ، فغزا بهم أراضى كيك شمالى تينملل وغربى أغمات ، فبعث على بن يوسف لردهم جيشاً كبيراً حسن الأهبة ، بقيادة أخيه الأمير أبى الطاهر تميم ، فالتقى الجمعان على مقربة من جبل كيك ، فوقعت الهزيمة على المرابطين ، وجد الموحدون فى مطاردتهم حتى جبل وريكة قبلى أغمات ، فلقيتهم هناك قوات مرابطية جديدة بقيادة أبى بكر بن على بن يوسف ، وقيل بقيادة يطى اللمتونى ، وجموع غفيرة من أهل أغمات وغيرهم ، فانهزم المرابطون مرة أخرى ، ووصل الموحدون فى زحفهم إلى أسوار مراكش ، ثم ارتد قائدهم البشير بقواته عائداً إلى الجبل ، وأمر على بن يوسف أن تسد جميع الطرق الصاعدة التى ينزل منها الموحدون من الجبال إلى السهل ، حتى يعرقل بذلك نزولهم ، ويتقى حرب المفاجأة التى درجوا عليها[3] .وكان خلال الأعوام الثلاثة التى قضاها المهدى بجبل إجليز قد عهد بحراسة طرق الجبل إلى الفلاكى الأندلسى ، وهو مغامر وقاطع طريق من أهل إشبيلية ، كان قد ذاع صيته ، وتاب ودخل خدمة الأمير ، فقام بمهمته خير قيام ، وأقام

---

(١) ابن القطان فى نظم الجمان (المخطوط السالف الذكر لوحة ٤٩ أ و ب) .

(٢) أخبار المهدى ابن تومرت ص ٧٥ .

(٣) ابن القطان فى نظم الجمان (المخطوط السالف الذكر) وابن عذارى فى البيان المغرب (الأوراق المخطوطة — هسبيرس ص ٨٧) ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٢٨ .

سلسلة من الحصون سد بها ثغرات الجبل، ثم كان له بعد ذلك شأن سوف نعود إليه .

وكانت المعركة التالية أعظم المعارك التى اضطرمت بين الموحدين والمرابطين، وفيها وضع المهدى خطته لافتتاح مراكش والقضاء على الدولة المرابطية فى عقر دارها . وكان المهدي قد بلغ عندئذ ذروة سلطانه ونفوذه بين قبائل المصامدة. ونفذت طاعته إلى أعماق تلك الهضاب ، وبلغت جموعه أعظم حد من الكثرة والتوثب والظمأ إلى القتال . وكانت الانتصارات المتوالية التى أحرزتها جموع المهدى على المرابطين . تذكى من عزمه وثقته فى بلوغ النصر النهائى . وعندئذ وجه المهدى رسالة بخطه قرئت على الموحدين فى سائر النواحى، ووجهت بالأخص إلى جزولة ولمطة وهنكيسة ودرعة وصنهاجة القبلة وهسكورة القبلة . وسائر القبائل المجاورة ، وفيها يستدعيهم ويأمرهم بالقدوم عليه ، وكان المهدى إلى جانب تسميته للمرابطين بالملثمين والمجسمين ، والحشم . قد أسبغ عليهم عندئذ اسما جديداً هو « الزراجنة » وذلك تشبيهاً لهم بطائر يقال له الزرجان ، وهو طائر أسود البطن أبيض الريش . لأنهم أى المرابطين « بيض الثياب سود القلوب »[1] . وهرعت الحموع إلى المهدى من كل صوب . وهى فى غاية الاستعداد والأهبة، واجتمع منها جيش عظيم قوامه نحو أربعين ألف مقاتل ، منهم أربعمائة فارس فقط ، والباقى من الرجالة ، وقدم المهدى على هذا الجيش أبا محمد البشير أعظم قواده ، وعبد المؤمن بن على . وجعل عبد المؤمن إمام الصلاة ، ولم يصحب المهدى جيشه الجرار فى هذه الغزوة لمرضه . ونزل الموحدون من سفوح الجبال إلى السهول يقصدون إلى مدينة مراكش .

وهنا تضطرب الرواية أولا فى تحديد تاريخ هذا الزحف الموحدى على العاصمة المرابطية ، وثانيا فى ترتيب الوقائع . فأما من حيث التاريخ فإن اليسع يضع تاريخ هذا الزحف فى سنة ٥٢١هـ (١١٢٧م) ، ولكن ابن القطان يعارضه ، ويقول إنه فى سنة ٥٢٤هـ وهى السنة التى توفى فيها المهدى ، وأن هذا هو قول سائر المؤرخين.

ويقدم إلينا ابن القطان تفاصيل بعض المعارك الأولى التى وقعت قبيل نشوب المعركة العامة تحت أسوار مراكش . فيقول إن معركة وقعت بين الموحدين وبين المرابطين بقيادة أبى بكر بن يندوج بكيلك هزم فيها المرابطون ، واستولى الموحدون على سائر سلاحهم ومتاعهم. ثم تلتها معركة ثانية ، وكان المرابطون فى جيش ضخم

(١) ابن القطان فى نظم الجمان (المخطوط السالف ذكره) .

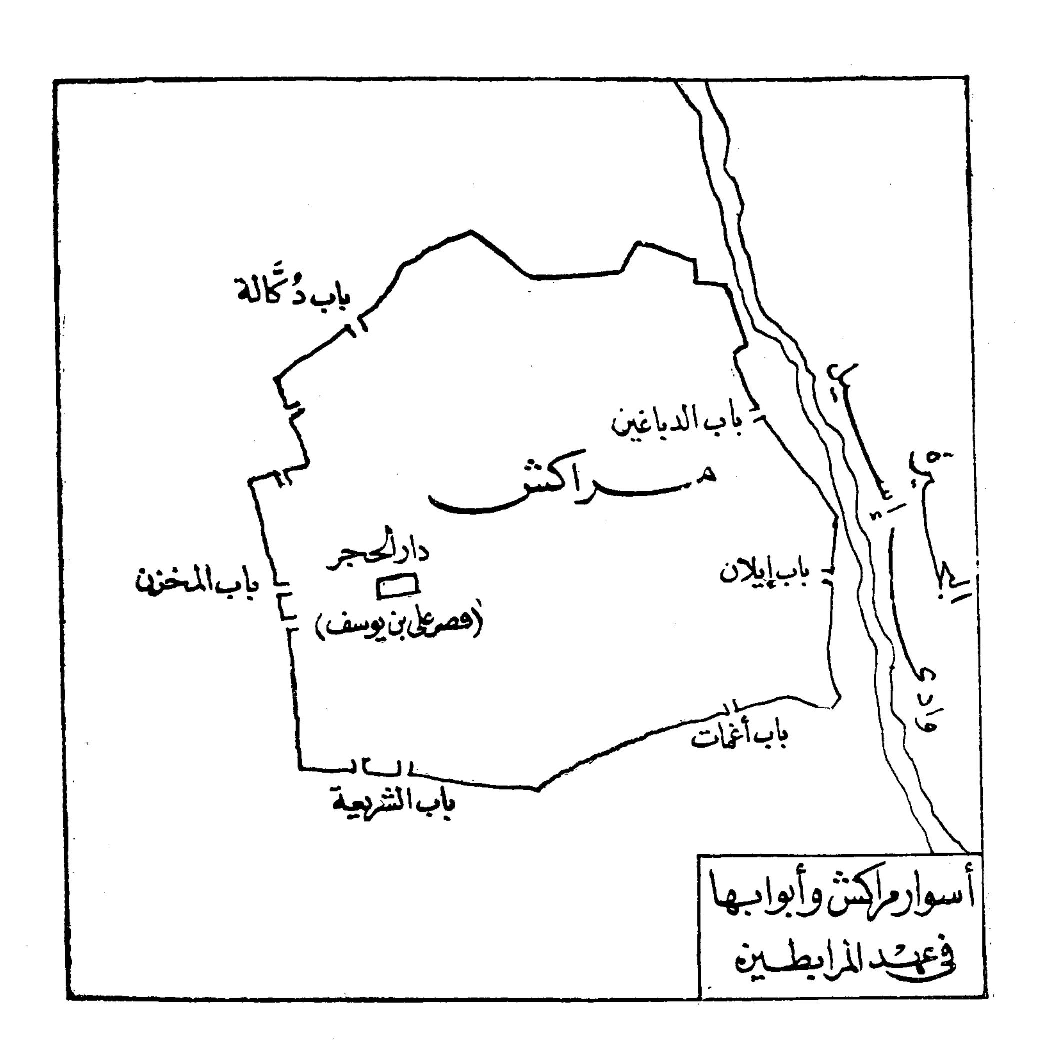
بقيادة بكو بن على بن يوسف ، ومعه يطى بن اسماعيل ، وكان الموحدون بقيادة محمد البشير ، ووقعت المعركة فى الحروبة ، فانهزم المرابطون ، وسقطت محلاتهم ومتاعهم ودوابهم وسائر أسلابهم فى أيدى الموحدين ؛ ثم وقعت معركة ثالثة أمام أغمات ، وكان المرابطون قد جمعوا أشتات قواتهم واستعدوا للقاء الموحدين من جديد ، وانضمت إليهم حشود عظيمة من أهل أغمات . وكانت القوات الموحدية عندئذ بقيادة عبد المومن بن على وأبى حفص عمر بن أصناج ، وأبى عمران موسى بن تمارى . فنشبت بين الفريقين معركة هائلة ، هزم فيها المرابطون ، وقتل منهم ومن أهل أغمات جموع غفيرة ، واستول الموحدون على سائر محلاتهم وعتادهم وسلاحهم[1] . ثم زحف الموحدون على مراكش ، ورابطوا تجاه باب الشريعة ، وكان على بن يوسف قد حشد فى تلك الأثناء قواته ، واستعد للقاء الموحدين أعظم استعداد ، وبلغ الجيش المرابطى يومئذ زهاء مائة ألف مقاتل ما بين فارس وراجل ، وكان تحت إمرة الزبير بن على بن يوسف . والتقى الجمعان فى ظاهر مراكش ، فكتب عبد المؤمن تنفيذاً لتوصية المهدى ، إلى على بن يوسف يدعوه إلى ما يدعوا إليه المهدى ، من قمع البدع ، وإحياء السنة ، والمبادرة إلى بيعة المهدى ، فرد عليه أمير المسلمين يحذره عاقبة مفارقة الجماعة ، ويذكره الله فى سفك الدماء وإثارة الفتنة[2] ، فلم يلتفت عبد المؤمن لتحذيره ، ونشبت بين الفريقين معركة هائلة ، هزم فيها المرابطون ، وقتلت منهم جموع غفيرة ، وهرعت فلولهم مرتدة إلى المدينة ، فازدحموا على الأبواب فى الدخول ، ومات منها فى الزحام خلق كثير ، وفر على بن يوسف إلى داخل المدينة من باب المخزن ، وأغلقت المدينة أبوابها فاحتاط بها الموحدون وضربوا حولها الحصار .

واستمر حصار الموحدين لمراكش زهاء أربعين يوما . وكان ما يزال بداخل المدينة جموع ضخمة من القوات المرابطية ومنها زهاء أربعين ألف فارس ، وأعداد لا تحصى من الرّجالة ، وكان المرابطون يخرجون من وقت لآخر لقتال الموحدين ، وتنشب بين الفريقين تحت الأسوار معارك طاحنة ، يفنى فيها الكثير من الجانبين ، وكان من أعنف ما وقع من هذه المعارك ، معركة هزم فيها المرابطون قبالة باب دُكّالة ، وهلك منهم عدد جم خلال الزحام الهائل ، الذى وقع عند دخولهم من هذا

---

(١) ابن القطان فى نظم الجمان (المخطوط السابق ذكره) .

(٢) المراكشى فى المعجب ص ١٠٦ و ١٠٧ .


باب دُكّالة
باب الدباغين
مراكش
دار الحجر
(قصر علي بن يوسف)
باب المخزن
باب إيلان
باب أغمات
باب الشريعة
أسوار مراكش وأبوابها
في عهد المرابطين

الباب ، وفرت منهم جموع لم يستطيعوا الدخول ، حتى وصلوا إلى وادى أم الربيع ، فلما عادوا بعد ذلك إلى المدينة أمر على بن يوسف بحلق لحاهم ، ومثل بهم ليكونوا عبرة لغيرهم[١] .

وفى تلك الأثناء كان على بن يوسف قد استنفر سائر أمراء لمتونة وولاتها وقادتها ، لموافاته بحشودهم ، فقدمت إليه الأمداد من سائر النواحى ، ووافاه بالأخص جيش ضخم حسن الأهبة ، قام بحشده والى سجلماسة وانودين بن سير . وخرج على ابن يوسف فى قواته من المدينة ، وانضمت إليه الأمداد الزاخرة ، وتولى قيادة الجيوش المرابطية الشيخ أبو محمد وانودين بن سير . وكان الموحدون منذ بدء الحصار ، قد ضربوا محلتهم خارج المدينة تجاه باب الدباغين وباب إيلان أمام بستان كبير ، والبستان فى اللغة المحلية يسمى بالبحيرة ، ومن ثم فقد سميت المعركة التى تلت بموقعة البحيرة[٢] . فى ظاهر تلك البقعة وقعت بين المرابطين والموحدين أعظم معركة نشبت فى ذلك الصراع المروع ، وكان المرابطون يتفوقون على الموحدين بكثرتهم تفوقاً ظاهراً ، وكان الموحدون من جهة أخرى ، قد أرهقتهم المعارك المتوالية التى اضطروا إلى خوضها خلال الحصار . وبدأ القتال بمعركة محلية نشبت بين جيش سجلماسة وحرس الأمير النصرانى ، وبين قوة من الموحدين ، فهزم الموحدون فى هذه الحولة الأولى ، وكان لهذا النصر أثره فى إذكاء روح المرابطين المعنوية ، والتدليل على أن الموحدين ليسوا من المنعة كما بدوا فى المعارك الأولى . ثم نشبت بين الفريقين معركة عامة ، قاتل فيها الموحدون بشجاعة فائقة ، ولكن المرابطين فضلا عن كثرتهم ، كانت تحدوهم عندئذ ، روح مضطرمة من التوثب والظمأ إلى الانتقام ، فقاتلوا بشدة رائعة ، حتى رجحت كفتهم وأصيب الموحدون بهزيمة شنيعة ، وقتلت منهم جموع غفيرة يقدرها ابن القطان بأربعين ألفاً ، ويقول إنه لم يسلم من الموحدين إلا أربعمائة بين فارس وراجل[٣] ، بل قيل بأن الجيش الموحدى ، قد أفنى عن آخره ولم تبق منه سوى فلول يسيرة[٤] ، وسقط

---

(١) ابن عذارى عن ابن القطان فى (الأوراق المخطوطة السالفة الذكر هسبيرس ص ٨٨) .

(٢) ابن الأثير ج ١٠ ص ٢٠٥ .

(٣) ابن القطان فى نظم الجمان (المخطوط السالف الذكر لوحة ١٥٠) . وراجع ابن عذارى (فى الأوراق المخطوطة — هسبيرس ص ٩٣) .

(٤) الحلل الموشية ص ٨٥ ، وهو أيضاً قول عبد الملك بن صاحب الصلاة مؤرخ الموحدين (أورده صاحب الحلل ص ٨٦) .

فى الميدان أبو محمد البشير أعظم قادة الموحدين ، وسقط معه معظم الرؤساء والقادة ومن هؤلاء غير البشير ، أربعة من أصحاب المهدى العشرة ، هم سليمان بن مخلوف الحضرمى ، وأبو عمران موسى بن تمارى الكدميوى ، وأبو يحى بن يكيت ، وأبو عبد الله محمد بن سليمان . ومما هو جدير بالذكر أن البشير لم يعثر له بأثر ، ولم توجد جثته ، فذاع بين المتعصبين من المصامدة أنه رفع إلى السماء[1] . ولكن الحقيقة هى أن عبد المؤمن بادر بدفنه فى مكان سقوطه . ولم ينقذ البقية اليسيرة الباقية من الموحدين سوى دخول الليل وهطل الأمطار ، فارتد قائدهم عبد المؤمن ، وهو جريح قد أصيب فى فخذه ، فى فلوله تحت جنح الظلام ، متجهاً صوب أغمات ، فطارده المرابطون ، حتى أرض هيلانة ، وهناك وقعت بينهما معركة أخرى ، قاتل فيها الموحدون بشجاعة اليأس ، ولكنهم هزموا مرة أخرى ، وقتل منهم عدد جم يقدره ابن القطان بنحو اثنى عشر ألفاً ، وكان الموحدون قد عادوا فجمعوا أشتات قواتهم ، وأوعبوا فى الحشد . وارتد المرابطون بعد ذلك إلى مراكش ، وسارت فلول الموحدين إلى تينملل . ويضع ابن القطان تاريخ هذه الهزيمة الساحقة للموحدين فى يوم السبت الثانى من جمادى الأولى سنة ٥٣٤ هـ (١١ أبريل سنة ١١٣٠ م) .

وكان المهدى ابن تومرت عندئذ مريضاً ، فلما وقف على أخبار النكبة التى أصابت جيشه ، سأل هل « عبد المؤمن فى الحياة » ، ولما أجيب بالإيجاب ، قال «الحمد لله قد بقى أمركم» . ويقول لنا أبو بكر الصنهاجى إنه هو الذى تولى إبلاغ المهدى نبأ نجاة عبد المؤمن ، وينقل لنا عبارات المهدى بألفاظها[2] .

وهكذا أحرز المرابطون نصرهم الساحق على الموحدين ، بعد أن منوا قبل ذلك بسلسلة من الهزائم المتوالية . ويذكر لنا ابن صاحب الصلاة أن هزائم المرابطين بلغت قبل موقعة البحيرة نحو أربعين هزيمة ، وأن المهدى اشترك فى أربع من هذه الغزوات الظافرة ، كما يذكر لنا أن الموحدين فى موقعة البحيرة « قتلوا أجمعين ، ولم ينج منهم إلا نفر يسير » . وهذا القول من مؤرخ الموحدين ، يدلنا على فداحة النكبة التى نزلت بجيوش المهدى ، فى تلك الموقعة الهائلة . ولكن سوف نرى أن إحراز المرابطين لهذا النصر لم ينجهم من قدرهم المحتوم ، وأن ما وضعه المهدى

---

(١) كتاب أخبار المهدى ابن تومرت ص ٢٨ .

(٢) كتاب أخبار المهدى ابن تومرت ص ٧٩ .

من الأمل والثقة فى طالع تلميذه وزعيم أصحابه ، عبد المؤمن بن على ، كان ينم عن تنبؤ صادق وفراسة دقيقة[١] .

وقد سبق أن أشرنا إلى ما هنالك من خلاف حول تاريخ موقعة البحيرة ، فإن اليسع يضع تاريخها فى سنة ٥٢١ هـ ، ويضعه ابن القطان فى سنة ٥٢٤ ، ويضع ابن خلدون تاريخها فى سنة ٥٢٢ ، ويقول لنا إن وقوعها كان لأربعة أشهر قبل وفاة المهدى ، وهو يتفق بعد ذلك مع نفسه فيقول لنا إن المهدى توفى فى نفس العام أى فى سنة ٥٢٢ هـ[٢] . ولكنه لما كان من المتفق عليه أن هزيمة الموحدين وقعت قبيل وفاة المهدى بأشهر قلائل ، فإن هذه الرواية لا يمكن الأخذ بها ، إذ أن المعول عليه أيضاً ، هو أن المهدى توفى فى سنة ٥٢٤ هـ .

ولدينا إلى جانب رواية ابن القطان رواية موحدية قاطعة ، تضع تاريخ المعركة فى سنة ٥٢٤ هـ ، هى رواية أبى بكر الصنهاجى أحد أصحاب المهدى الذين شهدوا الموقعة[٣]. ويأخذ بهذه الرواية ابن الأثير[٤] وصاحب روض القرطاس[٥]، والزركشى[٦] . وأما عن وفاة المهدى ، فإن المتفق عليه ، أنه كان مريضاً وقت موقعة البحيرة ، وأن مرضه اشتد بعد وقوع الهزيمة ، ولم يعش طويلا أو لم يعش بعد ذلك سوى أيام قلائل . وليس أدل على ذلك من أن الموحدين يسمون العام الذى توفى فيه المهدى وهو عام ٥٢٤ هـ بعام البحيرة[٧] . ويصف لنا أبوبكر الصنهاجى ، وقد كان شاهد عيان ، تصرفات المهدى الأخيرة ، فيقول لنا إنه استدعى الموحدين ، فحشروا كلهم ، ثم وعظ الناس حتى أضحى النهار ، ثم دخل الدار فغاب ساعة ، ثم خرج حاسر الرأس ، وقال للناس إننى مسافر عنكم سفراً بعيداً ، فضج الناس بالبكاء وودعوه ، ثم دخل داره ، ولم يره أحد بعد ذلك .

---

(١) تراجع تفاصيل موقعة البحيرة فى نظم الجمان لابن القطان (المخطوط السابق ذكره لوحة ٤٠ ا وما بعدها) ، وابن الأثير ج ١٠ ص ٢٠٥ ، والحلل الموشية ص ٨٤ — ٨٦، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٢٨ و ٢٢٩ ، وأخبار المهدى ابن تومرت ص ٧٨ و ٧٩ ، والمعجب ص ١٠٧ .

(٢) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٢٩ .

(٣) كتاب أخبار المهدى ابن تومرت ص ٢٨ .

(٤) ابن الأثير ج ١٠ ص ٢٠٤ .

(٥) روض القرطاس ص ١١٦ .

(٦) الزركشى فى تاريخ الدولتين ص ٤ .

(٧) ابن القطان فى نظم الجمان (المخطوط السالف الذكر لوحة ١٤٢) وابن خلكان ج ٢ ص ٥٢ .

والمعول عليه أن المهدى توفى فى شهر رمضان سنة ٥٢٤ هـ (أغسطس سنة ١١٣٠ م)، ويقول لنا أبو بكر الصنهاجى إنه توفى يوم الأربعاء أو يوم الخميس الخامس والعشرين من رمضان سنة ٥٢٤ هـ[١]، وتؤيد هذه الرواية رواية موحدية أخرى، هى رواية عبد الملك بن صاحب الصلاة مؤرخ الدولة الموحدية، مع خلاف يسير فى يوم الوفاة، وهى أن المهدى توفى يوم الأربعاء الثالث عشر من رمضان سنة ٥٢٤[٢]، وقال ابن القطان، ويتابعه صاحب الحلل الموشية إنه توفى يوم الاثنين الرابع عشر من رمضان سنة ٥٢٤[٣]. وكان عمر المهدى عند وفاته، على قول ابن القطان، نحواً من خمسين سنة[٤]، وعلى قول ابن الأثير إحدى وخمسين سنة أو خمساً وخمسين سنة[٥] مما يرد تاريخ مولده فى الحالة الأولى إلى سنة ٤٧٤ هـ، وفى الثانية إلى سنة ٤٧٣ هـ، وفى الثالثة إلى سنة ٤٦٩ هـ، وقد سبق أن أشرنا إلى هذا الخلاف فى تاريخ مولد المهدى.

وكان المهدى ابن تومرت من أعظم الدعاة الدينيين، وأغزرهم علما، وأشدهم دهاء، وأقواهم نفساً، وأشدهم تأثيراً فى النفوس. وكان إلى جانب ذكائه ودهائه، يتمتع بمنطق قوى، ومحاجة قاطعة، وذلاقة مؤثرة. وكان خطيباً مفوها، فصيحاً فى العربية والبربرية معاً، يستميل الجموع برائع بيانه ووعظه. وكان متمكناً من علوم القرآن والسنة ومن الأصولين، أصول الفقه وأصول الدين. شديد التقشف والزهد والورع، لم يلبس قط سوى ثياب الصوف من قميص وسراويل وجبة، وقد يرتدى الثياب المرقعة، ولا يقبل على شىء من متاع الدنيا، حتى قيل إنه كان يقتات من غزل أخت له فى كل يوم، رغيفاً بقليل من سمن أو زيت، ولم يتحول عن ذلك حينما سما شأنه وأقبلت عليه الدنيا[٦]. وكان

---

(١) أخبار المهدى ابن تومرت ص ٨٣، وابن القطان فى نظم الجمان (المخطوط السالف ذكره لوحة ٤٢ ا).

(٢) أورده روض القرطاس ص ١١٧.

(٣) ابن القطان فى نظم الجمان (المخطوط السابق ذكره لوحة ٤٢ ا)، والحلل الموشية ص ٨٦

(٤) ابن القطان فى نظم الجمان (المخطوط لوحة ٣٣ ا). ونقله ابن عذارى فى البيان المغرب (الأوراق المخطوطة سالفة الذكر – هسبيرس ص ٩٤).

(٥) ابن الأثير ج ١٠ ص ٢٠٥.

(٦) ابن القطان عن ابن صاحب الصلاة (فى نظم الجمان المخطوط السابق ذكره لوحة ١٤٥ ا)، وابن خلكان (عن المغرب) ج ٢ ص ٥٢.

ظهوره فى ذلك المجتمع البربرى الساذج ، الذى اختاره مسرحاً لدعوته ، والذى كان يخيم عليه الجهل المطبق ، وتعصف به الخرافات والأساطير ، يتسم بصفات الزعامة الخارقة أو النبوة ، ومن ثم فقد ألفى ابن تومرت الطريق ممهداً ليعلن دعوته ، وليتشح بثوب المهدى المنتظر ، وينتحل صفة الإمام المعصوم ، وقد كان ابن تومرت من بين دعاة المهدية ، أوفرهم عزماً وبراعة ، وأشدهم تأثيراً وسحراً .

وكان يدعو الناس إلى عبادة الله تعالى ، ويخبرهم بأنه تعالى قد فرض عليهم الصلوات الخمس فى يومهم وليلتهم ، وفرض عليهم زكاة تؤخذ من أغنيائهم ، وترد على فقرائهم ، ويأمرهم بقراءة القرآن وحفظه ، ولزوم الأحزاب التى ألفها لهم بعد صلاة الصبح ، وبعد المغرب ، وأمر المؤذنين ، إذا طلع الفجر ، أن ينادوا « أصبح ولله الحمد » إشعاراً بلزوم الطاعة وحضور الجماعة ، وللغدو لكل ما يؤمرون به ، وفرض عقوبة المخالفين .

ولكن ابن تومرت إلى جانب هذه الصفات الخلابة ، كان يتسم بطائفة من الصفات المثيرة ، فقد كان شديد التعصب ، صارم النفس ، سفاكا للدماء ، غير متورع فيها ولا متحوط ، يهون عليه سفك دم عالم من الناس فى سبيل رأيه وبلوغ مقصده ، لا تأخذه شفقة ولا رحمة فى دماء خصومه ، ويستحل سبى نسائهم وأولادهم ونهب أموالهم[١] ، ويسبغ على هذا السفك المروع ، صفة الشرعية ، لما يزعمه من مخالفة خصومه لأحكام الكتاب والسنة ، أو لمبدأ التوحيد الذى اتخذه شعاره . وقد رأينا فيما تقدم من مراحل صراعه مع خصومه أمثلة عديدة من هذا الإسراف المغرق فى سفك الدماء ، وربما كان فيما ذكر عن المهدى من أنه «كان حصوراً لا يأتى النساء »[٢] ما يفسر بعض عوامل هذه القسوة المروعة ، وهذا الظمأ إلى سفك الدماء .

ويلاحظ العلامة جولدسيهر بهذه المناسبة أن ابن تومرت كان يبث فى أذهان أنصاره بتدرج غير محسوس ، فكرة محاربة المرابطين ، وأنه حينما كان فى بداية أمره ، يقتصر على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ويتبع ما يقضى به الدين من العمل على حقن الدماء ، ولكنه منذ اتشح بصفة المهدى ، أخذ يشهر الحرب ،

---

(١) روض القرطاس ص ١١٧ .

(٢) ابن القطان فى نظم الجمان (المخطوط لوحة ١٤ ب و١٣٣) ، ونقله ابن خلدون ج ٦ ص ٢٢٩ .

ويدعو إلى سفك الدماء ، ويقول إن المحاربين الذين يسقطون فى هذه المعارك ، إنما هم شهداء فى سبيل الله[١] .

كذلك تنوه الرواية بما جبل عليه ابن تومرت من الخداع والكيد والمكر ، وكيف أنه لجأ إلى هذه الصفات فى استهواء الجماهير وخداعها ، واستغلال جهلها ، وسذاجتها ، حتى ذاعت دعوته ، وتمكن أمره[٢] .

ومن الغريب الذى يلفت النظر فى هذا الشأن موقف العلامة الفيلسوف ابن خلدون من ابن تومرت ودعوته ، فهو يدافع عن المهدى ، وعن صحة دعوته وصدق إمامته ، فى نبذة طويلة يقول فيها :

« ويلحق بهذه المقالات الفاسدة ، والمذاهب الفائلة ، ما يتناوله ضعفة الرأى من فقهاء المغرب من القدح فى الإمام المهدى صاحب دولة الموحدين ، ونسبته إلى الشعوذة ، والتلبيس فيما أتاه من القيام بالتوحيد الحق ، والنعى على أهل البغى قبله ، وتكذيبهم لجميع مدعياته فى ذلك ، حتى فيما يزعم الموحدون أتباعه من انتسابه فى أهل البيت ، وإنما حمل الفقهاء على تكذيبه ، ما كمن فى نفوسهم من حسده على شأنه ، فإنهم لما رأوا من أنفسهم مناهضته فى العلم والفتيا وفى الدين بزعمهم ، ثم امتاز عنهم بأنه متبوع الرأى ، مسموع القول ، موطأ العقب ، نفسوا عليه ذلك ، وغضوا منه بالقدح فى مذاهبه ، والتكذيب لمدعياته ، وأيضاً فكانوا يؤنسون من ملوك لمتونة ، أعدائه تجلة وكرامة لم تكن لهم من غيرهم ، لما كانوا عليه من السذاجة ، وانتحال الديانة ، فكان لحملة العلم بدولتهم مكان من الوجاهة ، والانتصاب للشورى كل فى بلده ، وعلى قدره فى قومه ، فأصبحوا بذلك شيعة لهم ، وحرباً لعدوهم ، ونقموا على المهدى ، ما جاء به من خلافهم ، والتثريب عليهم ، والمناصبة لهم ، تشيعاً للمتونة ، وتعصباً لدولتهم . ثم يقول دفاعاً عن المهدى :
« وما ظنك برجل نقم على أهل الدولة ما نقم من أحوالهم ، وخالف اجتهاده فقهاءهم ، فنادى فى قومه ودعا إلى جهادهم بنفسه ، فاقتلع الدولة من أصولها ، وجعل عاليها سافلها ، أعظم ما كانت قوة ، وأشد شوكة ، وأعز أنصاراً وحامية ، وتساقطت فى ذلك من أتباعه نفوس لا يحصيها إلا خالقها ، قد بايعوه على الموت ، ووقوه بأنفسهم من الهلكة ، فتقربوا إلى الله تعالى باتلاف مهجهم فى إظهار تلك الدعوة ،

---

(١) جولدسيهر فى مقدمته الفرنسية السالفة الذكر لكتاب « أعز ما يطلب » ص ١٠٠ .
(٢) روض القرطاس ص ١١٤ و ١١٧ .

والتعصب لتلك الكلمة حتى علت على الكلم ، ودالت بالعدوتين من الدول ، وهو بحالة من التقشف والحصر ، والصبر على المكاره ، والتقلل من الدنيا ، حتى قبضه الله ، وليس على شيء من الحظ والمتاع فى دنياه .. فليت شعرى ، ما الذى قصد بذلك إن لم يكن وجه الله ، وهو لم يحصل له حظ من الدنيا فى عاجله . ومع هذا فلو كان قصده غير صالح لما تم أمره ، وانفسحت دعوته ، سنة الله التى قد خلت فى عباده»[1] .

وابن خلدون يقدم إلينا هذا الدفاع عن المهدى فى معرض كلامه عن أخطاء المؤرخين وأوهامهم ودعاويهم المغرضة . وهو يقدم إلينا منها نماذج ، يصاحبه التوفيق فى بعضها ويخطئه فى البعض الآخر . ونحن نرى أن التوفيق قد أخطأه فى هذا الدفاع عن المهدى ابن تومرت ، وعن صدق دعوته . وقد استعرضنا فيما تقدم من حديثنا عن حياة المهدى ، ما يحملنا على الشك أولا ، فى صدق انتسابه إلى آل البيت ، وثانيا فى انتحاله دعوة المهدية ، وهى دعوة نشك أيضاً فى صدقها من الناحية الدينية والتاريخية . ونحن نعتقد أن مفكراً عظيما ، ومؤرخاً فيلسوفاً ، وضعى العقلية ، كابن خلدون ، لا يمكن أن يؤمن بصدق هذه الدعوة ، وإنما حمل ابن خلدون على الدفاع عن المهدى ودعوته ، بواعث خاصة ، أولها أن بنى خلدون — أسرة المؤرخ — كانت مذ غادرت الأندلس فى أوائل القرن السابع الهجرى — قد نزلت بتونس ، وعاشت فى رعاية بنى حفص ملوك الدولة الحفصية الموحدية التى أسسها الأمير أبو يحيى زكريا بن عبد الواحد بن أبى حفص عمر الموحدى ؛ وتولى أجداد المؤرخ فى ظلهم مناصب النفوذ والثقة ، وبدأ هو حياته العامة فى ظلهم ، وعاش فى كنفهم ردحاً من الزمن ، وأهدى أول نسخة من مقدمته وتاريخه للسلطان أبى العباس الحفصى (سنة ٧٨٤هـ) ، فلم يكن من المعقول أن يجاهر المؤرخ فى مقدمته ، بالطعن فى إمامة المهدى ودعوته ، وهى التى كانت أساساً لقيام الدولة الموحدية . وثانياً أنه ليس من المنطق السليم ، أن يكون نجاح دعوة المهدى ابن تومرت ، وما ترتب عليه من قيام الدولة الموحدية ، دليلا على صدق هذه الدعوة ، لأن النجاح السياسى والعسكرى لداعية أو متغلب لم يكن قط فى ذاته دليلا على صدق إمامة أو دعوة دينية ، وثالثاً أن إنكار صدق دعوة المهدى ابن تومرت لم يكن قاصراً على الفقهاء المرابطين ، الذين يعلل ابن خلدون طعنهم فى هذه الدعوة بما كان يجيش فى صدورهم من حقد على رجل يتفوق عليهم

---

(١) ابن خلدون — المقدمة (بولاق) ص ٢٢ .

بعلمه ، ويغض بهذا التفوق من مكانتهم ونفوذهم القديم لدى الدولة اللمتونية ، بل شمل هذا الإنكار كثيراً من المؤرخين .

ولا يكتفى ابن خلدون بالدفاع عن صحة دعوة المهدى ، بل يقرن ذلك بالدفاع عن نسبه فى آل البيت ، وهو هنا فى تدليله أضعف منطقاً ، حينما يقول أنه لا دليل يعضد إنكار هذه النسبة ، والناس مصدقون فى أنسابهم . وهو إذ يشعر هنا بضعف منطقه ، يقول لنا إن ظهور المهدى لم يكن يتوقف على نسبته ، وإنما قام أمره بعصبيته القبلية فى هرغة ومصمودة ، وأن هذا النسب الفاطمى ، كان أمراً خفياً عنده وعند عشيرته يتناقلونه بينهم[١] .

ويذكرنا موقف ابن خلدون فى الدفاع عن دعوة المهدى ابن تومرت ونسبه ، بموقفه عن نسب بنى عبيد الخلفاء الفاطميين ، فهو يتصدى لتأييده وإثباته ، ويعتبر الطعن فيه من « الأخبار الواهية » التى عنى بتفنيدها فى مقدمته ، وأن هذا الطعن يرجع بالأخص إلى الأحاديث التى لفقت لبنى العباس خصوم الفاطميين تزلفاً إليهم ، ويعتمد هنا على نفس النظرية التى لجأ إليها فى الدفاع عن دعوة المهدى ، وهو أن ظهور الفاطميين ، وقيام الدولة الفاطمية المترامية الأطراف ، واتصال أمرها نحواً من مائتين وسبعين عاما ، كل ذلك لا يمكن أن يتم لدعى[٢] . وهى طريقة معكوسة فى التدليل ، ونظرية واضحة الضعف والسقم ، إذ كان على بن خلدون أن يقدم لنا الأدلة المباشرة ، على صحة نسب الفاطميين لآل البيت ، كما قدم خصومهم الأدلة على بطلان هذه النسبة .

وقد تناول كاتب مشرقى من كتاب النصف الأول من القرن الثامن الهجرى هو الحسن بن عبدالله العباسى فى كتابه « آثار الأول وترتيب الدول » مثَل ابن تومرت وقصة ظهوره ، فى معرض الكلام عن الزهاد ، والمغالطين باسم الزهد ، والدعاة الذين يعمدون إلى الطعن فى أحوال الملك ، وإثارة الجماهير ، وخطر تركهم ، وأنه « ينبغى للملك أن ينظر فى حالة هذه الطائفة ، ويميز محقهم من مبطلهم ، ويفرق بين الزاهد والمتزهد ، وفيهم أصناف من أهل الغلط فى طريق الزهد والمغالطة لأغراض أخر ، منهم صنف يغلب عليهم محبة الرياسة والإمرة ، ويتفق أعراض الملك عنهم وانقباضه لمخالفة طبعه لطباعهم » ، وأن ذلك مما يحملهم على الطعن

---

(١) ابن خلدون فى المقدمة ص ٢٣ .

(٢) ابن خلدون فى المقدمة ص ١٧ و ١٨ .

على أحوال المَـلِك ، وإهماله لضوابط الشريعة ، ثم يجمعون حولهم الجموع ، ويقصون عليهم من الأمور ، « ما يحركون به عزائمهم لتغيير المنكر ، ونصرة الحق ، فإن أهمل الملك أمرهم عظم وتفاقم ، وكان منهم خطر عظيم » .

ويعتبر هذا الكاتب مثَـل ابن تومرت ، هو أقرب ما جرى فى هذا المعنى ، معنى الداعية المتزهد المخادع الذى يبطن انتزاع الرياسة ، وأنه تذرع بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ومعه طائفة يسيرة ، حتى اشتهر أمره ، ولم يعن الملك بشأنه ، ولم يدر بخلده أنه قد يغدو خطراً على ملكه ، حتى كثرت جموعه واشتدت شوكته ، وانتهى بالاستيلاء ، على البلاد وقيادة الجيوش[1]

وقد نجح المهدى فى إقامة نوع من الحكومة الثيوقراطية (الدينية) ، وكان الجماعة أوأصحابه العشرة الأوائل هم أعضاء وزارته ، يبحث معهم جلائل الأمور ، وعندئذ يخلو بهم ولا يحضر معه أحد سواهم . فإذا جرى البحث فى أمور أقل أهمية ، حضر الخمسون من الصحب فى هيئة جمعية استشارية ، وإذا جرى البحث فى الشئون العادية حضر معهم السبعون . ومن جهة أخرى فقد ذكر لنا اليسع أسماء سبعة رجال ، قال إنهم كانوا للمهدى رجال مشورته ، وهم أبوسليمان من هرغة ، وأبو الحسن ، وأبو وزغيغ بن ياموهل بن ياوجان ، وأبو دايور يغور ميوركن ، من أهل تينملل ؛ وقطران بن ماغليفة ، وأبو محمد سكانة ، وأبو عمران موسى بن واجمد ين من أهل هنتاتة[2] .

واتخذ المهدى شعاراً لجيوشه علما أبيض كتب على أحد وجهيه ، « الواحد الله . محمد رسول الله . المهدى خليفة الله » ، وكتب على الوجه الثانى « وما من إله إلا الله . وما توفيقى إلا بالله . وأفوض أمرى إلى الله »[3]

وأما عن شخصه ، فقد كان المهدى ، حسبما تصفه الرواية ، رجلا ربعة حسن التكوين ، مفلج الثنايا ، عظيم الهامة ، أسمر مشوب بحمرة ، غائر العينين ، حديد البصر ، أقنى ، خفيف العارضين ، له شامة سوداء فى كفه الأيمن[4] .

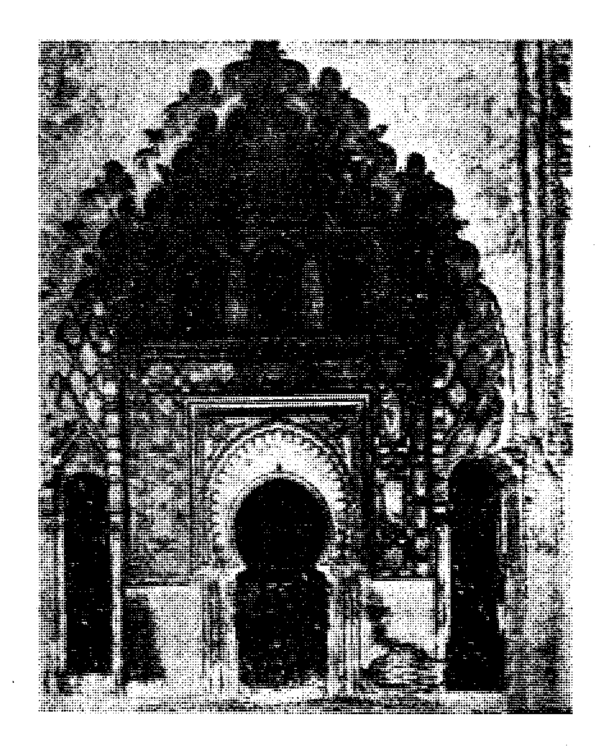
---

(١) كتاب « آثار الأول وترتيب الدول » المنشور على هامش تاريخ الخلفاء للسيوطى (القاهرة سنة ١٣٠٥ هـ) ص ٦١ و ٦٢ .

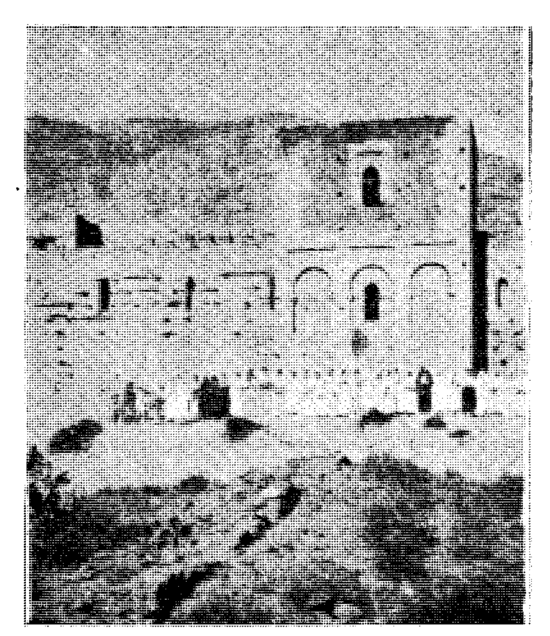
(٢) هذا ما نقله إلينا ابن القطان عن اليسع فى نظم الجمان (المخطوط السالف ذكره لوحة ١٠ ب و ٣٣ ب) .

(٣) ابن القطان فى نظم الجمان (المخطوط لوحة ٤٣ ب) .

(٤) ابن القطان فى نظم الجمان (المخطوط لوحة ١٤ ب) ، وكذلك ابن خلكان ج ٢ ص ٥٢ ، وروض القرطاس ص ١١٧ .



تينملل : محراب جامع
المهدى ابن تومرت



تينملل : إحدى واجهات
جامع المهدى
وأمامها لفيف من قبيلة جندافة

ولما توفى المهدى ، كتم أصحابه الأقربون موته حيناً تختلف الرواية فى مداه . ويذهب ابن القطان ، ويتابعه صاحب روض القرطاس ، إلى أن هذا الكتمان استمر زهاء ثلاثة أعوام حتى سنة ٥٢٧ هـ[١] ، وهى رواية تحمل طابع المبالغة . وعلى أى حال ، فقد كتمت وفاة المهدى حتى اتفق أصحابه على اختيار من يخلفه منهم ، وقد كان هذا الخليفة الأول لدولة الموحدين هو عبد المؤمن بن على ، تلميذ المهدى وأحب أصحابه إليه ، وكان أول ماعمله أن قام بمواراة المهدى فى مثواه الأخير . ويقول لنا ابن القطان ، وهو من أوثق مؤرخى الموحدين ، إن المهدى دفن بتينملل دون تخصيص للمكان ، ويقول لنا ابن خلدون إن عبد المؤمن قام بدفن المهدى فى مسجده الملاصق لداره[٢] ، الكائن بتنملل . وقد أتيح لنا أن نزور تينملّل ، وأن نشهد مسجد المهدى . وتينملل اليوم محلة صغيرة (مدشر) تقع على سفح التل المنحدر إلى الوادى ، وتظللها من الوراء البعيد آكام الأطلس العالية ، ومن بينها قمة « طبوتقال » الشهيرة التى يزيد ارتفاعها على أربعة آلاف متر ، وبها مساكن قليلة ، ولا يعدو سكانها مائة من الأنفس ، ولكنها مازالت تشتهر بكونها بلد المهدى ابن تومرت ، وأما المسجد فهو قائم فى سفح الجبل ، وهو اليوم طلل دارس لا تقام فيه الشعائر ، ولكن جدرانه وعقوده مازالت قائمة ، وله محراب جميل . ولم نجد به ضريح المهدى حسبما تشير إلى ذلك الرواية التاريخية .

بيد أنه توجد على قيد نحو ستين متراً من المسجد ، بقعة صغيرة تظللها الأشجار ، وتقع فوق ربوة منحدرة ، فهذه البقعة تعينها الرواية المتواترة ، وهى رواية قبيلة جندافة ، التى تقطن هذه الناحية منذ أجيال ، بأنها تضم رفات المهدى وبها قبره ، وإن لم يك ثمة ما يدل على وجود قبر بها ، ولاتميزها سوى بضعة أحجار زرقاء ظاهرة الرؤوس ، يقال إنها شواهد القبر . وربما كانت هذه الرواية المتواترة فى تعيين قبر المهدى ، تتفق مع ما يقول لنا ابن خلكان ، من أن المهدى « قد دفن بالجبل ، وان قبره هناك مشهور يزار »[٣] . وعلى أى حال فإن المتفق عليه هو أن المهدى يثوى ثواءه الأخير بتينملل مبعث دعوته ، ومهد دولته ، وذلك سواء داخل مسجده أو فى بقعة قريبة منه .

---

(١) ابن القطان فى نظم الجمان (المخطوط السابق ذكره) ، وروض القرطاس ص ١١٩ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٢٩ .

(٢) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٢٩ .

(٣) ابن خلكان ج ٢ ص ٥٢ .

الفصل الثالث

عقيدة المهدى ابن تومرت

وتعاليمه الدينية والسياسية

تراث المهدى الفكرى والدينى . كتاب أعز ما يطلب ومحتوياته . فاتحته . طريق العلم . تحصيل الفقه . التواتر . رأى ابن تومرت فى أصول الشريعة . حملته على الاجتهاد . تمسكه بالتفسير الظاهرى . نظرية الإمام المعصوم هى السبب . معارضة الغزالى لهذه النظرية . ابن تومرت لم يتأثر بتعاليم الغزالى . تعليق العلامة جولدسيهر على ذلك . فكرة التوحيد عند ابن تومرت . نظريته فى الإمامة . كيف يعرض لنا وجوب الإيمان بها . نظرية المهدى المنتظر . اعتمادها على الأحاديث الموضوعة . كيف يعرضها لنا ابن تومرت . وجوب طاعة المهدى باعتبارها طاعة الله ورسوله . قواعد علوم الدين والدنيا . تكفير من يشك فى أمر المهدى . حملة ابن تومرت على المرابطين . العلامات التى ينسبها لهم . ما أحدثوه من المناكر . تحريم طاعتهم ووجوب جهادهم . نعته لهم بالمجسمين . حملته على اللثام . مظاهر الفساد أيام المرابطين . الطائفة التى تقوم آخر الزمان وتقاتل على الحق . استعارة فكرة التوحيد من المعتزلة . مناقضة فكرة التجسيم للتوحيد . حديث الصلاة والطهارة والغلول . تحريم الخمر . كتاب الجهاد تصنيف الخليفة أبى يعقوب يوسف . كتاب موطأ المهدى ومحتوياته . انتشار كتب المهدى بين البربر لكتابتها بالبربرية .

نقف الآن قليلا فى تتبع ذلك الصراع المرير ، الذى اضطرم بين المرابطين والموحدين ، لنستعرض طرفاً من عقائد المهدى وآرائه ومبادئه الدينية والسياسية .

لقد انتهى إلينا لحسن الطالع من تراث المهدى ، الفكرى والدينى ، ما يلقى الضياء على تلك المبادئ والآراء ، التى اتخذها سنداً لدعوته الدينية ، والتى جعل منها عقيدة جديدة ، يمكن أن توصف بالعقيدة الموحدية .

ويجتمع تراث المهدى الفكرى والدينى فى كتابين ، أولها يضم مبادئه ، ونظرياته فى الأصول ، وفى الإمامة ، وفى التوحيد والعلم ، وهو أهم الكتابين ، وقد عرف بكتاب (أعز ما يطلب) لاستهلاله بتلك العبارة ، والثانى كتاب « الموطأ » أو « موطأ الإمام المهدى » ، وقد وضعه المهدى فى العبادات والمعاملات والحدود ، أو بعبارة أخرى فى علم الفروع ، على مثل موطأ الإمام مالك .

وقد وُصف الكتاب الأول فى أصل نسخته المخطوطة بأنه « سفر فيه جميع

تعاليق الإمام المعصوم ، المهدى المعلوم ، رضى الله عنه ، مما أملاه سيدنا الإمام الخليفة أمير المؤمنين أبو محمد عبد المؤمن بن على أدام الله تأييدهم ، وأعز نصرهم ومكن سعودهم » . ومعنى ذلك أن الكتاب لم يصل إلينا من المهدى مباشرة ، وأن الذى نقل إلينا تعاليم المهدى وآراءه ودونها ، هو تلميذه عبد المؤمن بن على أول خلفاء الموحدين .

ويضم هذا الكتاب فصولا وأبواباً عديدة ، ويشتمل على الكلام عن الجهل والشك والظن ، والأصل والفرع والتواتر ، وعن الصلاة ، وكون الشريعة لاتثبت بالعقل ، وعن العموم والخصوص ، وعن العلم ، وعن العقيدة ووجود البارى سبحانه ،وعن التنزيهات والتسبيحات ، ثم الكلام عن الإمامة وعلامات المهدى ، وعن طوائف المبطلين من الملثمين والمجسمين وعلاماتهم ، وعن الطائفة التى تقاتل عن الحق وتقوم بأمر الله ، وعن علاماتها وخواصها ، وعن التوحيد وثبوته ، وما يتعلق بذلك من الإيمان بالله ورسوله ، وعن تحريم الخمر وماورد فى ذلك ، ويختم الكتاب بفصل عن الجهاد ، وهو منسوب للخليفة أبى يعقوب يوسف ولد الخليفة عبد المؤمن .

— ١ —

يفتتح المهدى كتابه بهذه الفقرة الرنانة التى أضحى مستهلها عنواناً لكتابه وهى :

« أعز ما يطلب ، وأفضل ما يكتسب ، وأنفس ما يدخر ، وأحسن ما يعمل ، العلم الذى جعله الله سبب الهداية إلى كل خير ، هو أعز المطالب ، وأفضل المكاسب ، وأنفس الذخائر ، وأحسن الأعمال » .

وأول ما يلفت النظر فى أسلوب الكتاب جزالته ، فالمهدى رغم أصوله ونشأته البربرية ، يقدم إلينا آراءه فى أسلوب قوى ، وبيان عربى متين ، ولكنه إلى جانب ذلك مولع بالتصنيف والتقسيم ، يكثر من ذلك فى كل باب وفصل ، وهذه النبذة التى يبدأ بها المهدى كتابه ، والتى يحدثنا فيها عن فضل العلم وطرقه ، تعتبر نموذجاً لما يتبعه فى سائر الفصول من التصنيف والتقسيم المستمر لعناصر موضوعاته وآرائه :

« والذى يستعين به طالب العلم على فتح ما انغلق ، وكشف ما التبس ، إخلاص النية ، واغتنام الفوائد ، والحرص على الزيادة ، والرغبة إلى الله فى

الهداية والتوفيق . والعلم نور فى القلب تتميز به الحقائق والخصائص ، والجهل ظلام فى القلب تلتبس به الحقائق والخصائص . وطرق العلم منحصرة فى ثلاثة : الحس ، والعقل ، والسمع . فالحس على ثلاثة أقسام : متصل ومنفصل ، وما يجده الإنسان فى نفسه . والعقل على ثلاثة أقسام : واجب وجائز ومستحيل . والسمع على ثلاثة أقسام : الكتاب والسنة والإجماع . والكلام الآن فى الطريق الذى هو السمع فيما علق عن الإمام المعصوم ، المهدى المعلوم ، رضى [الله عنه] فى ذلك ، أول هذا الأمر برباط هرغة ببلد السوس سنة خمس عشرة وخمسمائة ، أن تحصيل الفقه فى السُّنة بخمسة أوجه : « أحدها كيفية الأخذ والنقل عن الرسول (ص) . والثانى معرفة السند . والثالث معرفة مايتعلق بالمتن . والرابع معرفة الصحيح والسقيم . والخامس معرفة الإستنباط والتأويل » . ثم يتحدث عن الأخذ عن الرسول ، وعن النقل ، وتسمية التواتر والآحاد ، ويقسم ذلك إلى أقسام وفروع عديدة[1] . ويحدثنا خلال ذلك عن مناظرته للفقهاء المرابطين بأغمات ، وماتلاه عليهم من إيضاح ما عجزوا عن الإجابة عنه ، من تبيان أصول الحق والباطل ، وفى رأيه أن هذه الأصول تنحصر فى أربعة : هى العلم والجهل والشك والظن ، وهو يفيض فى شرح نظريته ، وبيان الأدلة عليها ، ثم يتحدث عن كل أصل من الأصول الأربعة ، ويقول لنا إن الجهل والشك والظن هى من أصول الضلال ، ويدلل على أقواله بالآيات القرآنية . ثم يفيض بعد ذلك فى التحدث عن التواتر والأخبار المتواترة وأصولها وفروعها ، ويقسمها إلى أقسام عديدة متفرعة ، ويشرح دور الأصل والفرع فى الإثبات فى حديث طويل متعدد الأقسام والفروع . وهو يعتبر « التواتر » علما ويفيض فى بيان أقسامه وخصائصه ، والدور الذى يؤديه كمصدر من مصادر العلم ، وطريقة التمييز بين ما يثبت بالتواتر ، وما يثبت بالآحاد . وهو يرى أن أفضل التواتر ماكان صادراً عن أهل المدينة ، لأن « الإسلام والشرائع والرسول والصحابة ، إنما كانوا فى المدينة » ولهذا « صار عمل أهل المدينة حجة على غيرهم »[2] ، ويحاول أن يدعم شروحه بما أثر عن الرسول والصحابة ، من أقوال وأعمال .

ويحدثنا المهدى بعد ذلك عن « الصلاة » وعن معناها ، وبيان فضلها ، وحكمتها وتفاصيلها ، وبيان أحكامها ، وذلك فى حديث طويل جداً ، يتخلله

(١) كتاب « أعز ما يطلب » للمهدى محمد بن تومرت (الجزائر سنة ١٩٠٣) ص ٢ ، ٣ .
(٢) كتاب محمد بن تومرت أو أعز ما يطلب ص ٤٩ .

كثير من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية يحاول بها أن يدعم أقواله وآراءه[١].

على أن هذه الشروح الجدلية ، مهما دلت عليه من مقدرة فى العرض والسفسطائية ، ليست هى أهم ما يعرض لنا ابن تومرت من نظرياته الدينية ، وإنما تبدو أهمية تعاليمه ونظرياته فى عدة مسائل خاصة ، هى التى تعتبر قوام مذهبه الدينى .

وأول هذه المسائل هو رأى ابن تومرت فى أصول الشريعة ، وهو يرى قبل كل شىء « أن الشريعة لا تثبت بالعقل من وجوه ، منها أن العقل ليس فيه إلا الإمكان والتجويز وهما شك ، والشك ضد اليقين ، ومحال أخذ الشىء من ضده » ، و « منها ان الله سبحانه وتعالى مالك الأشياء يفعل فى ملكه ما يريد ، ويحكم فى خلقه ما يشاء ، فليس للعقول تحكم ولا مدخل فيما حكم به المولى » . وهو يقصد بإشارته هذه الرد على بعض من لا خلاق لهم « فيما ذهبوا إليه من أن الشريعة لا حكمة فيها ، وأنها ليست على سنن العقل جارية ، طعناً منهم فى الدين ، وجهلا بحكمة الله تعالى » . وهو يحمل فى نفس الوقت على من « ذهبوا إلى الاستنباط من عقولهم ، وتحسين الأشياء على مادتهم ، وجعلوا أقيسة فى الشرع عدولا منهم عن الحق ، وذلك كله فاسد »[٢] ، وعنده أن أصول الشريعة تنحصر فى عشرة وهى : أمر الله ونهيه ، وخبره بمعنى الأمر ، وخبره بمعنى النهى ، وأمر الرسول ونهيه ، وخبره بمعنى الأمر ، وخبره بمعنى النهى ، وفعله ، وإقراره » . وتنحصر الفروع فى خمسة : « وهى الواجب والمندوب والمحظور والمكروه والمباح » . وهو لا يخص الإجماع والقياس بالذكر ، باعتبارهما من أصول الشريعة ، ولكنه يقول إنهما داخلان فيما تقدم ، ماثلين فيه ، ثم يفيض فى شرح ذلك على طريقته من تصنيف القياس إلى أقسام وفروع لا نهاية لها . ومما هو جدير بالذكر أنه يعتبر « قياس الوجود » ، إنما هو « قياس المجسمة » وهم فى نظره المرابطون ، ويعتبره من ضروب القياس الفاسد[٣] ، ثم يعود إلى القياس فى موضع آخر ، فيقول إنه « لا فرق بين القياس العقلى والشرعى فى الإضطراد إذا حقق معناه ، فإن القياس العقلى هو المساواة فيما يجب ويجوز ويستحيل . والقياس الشرعى هو المساواة فى الوجوب أو التحليل

(١) كتاب محمد بن تومرت أو أعز ما يطلب ص ٦٣ — ١٦٣ .

(٢) كتاب محمد بن تومرت أو أعز ما يطلب ص ١٦٣ .

(٣) كتاب محمد بن تومرت ص ١٦٥ .

أو التحريم ، فهذه الثلاث هى المعتبرة فى القياس الشرعى ، وهى مضطردة فى جميع الشرع ، فمتى خرج عن هذه الثلاث أو واحدة منها لم يصح قياس ولايقاس بعضها على بعض لأنها متناقضة . ولايصح القياس فى المتناقضات ، خلافاً لما ذهب إليه من لامعرفة عنده بالقياس ، فقاسوا المتناقضات كالمحرمات على المباحات ، ومزقوا الشرع كل ممزق [١] .

أما عن الاجتهاد كأصل منه أصول الشريعة ، فإن ابن تومرت يحمل عليه ، ويقول مشيراً إلى إثبات النفى ، إنه قلب للحقائق ، وقلب الحقائق محال ، ثم يقول « إن هذه القاعدة كثيرة الإلتباس ، وعنها زل كثير من الناس ، وبالجهل بها ، وعدم التحقيق لها ، قالوا كل مجتهد مصيب ، فجعلوا هذه المقالة سلما إلى هدم الشريعة ، وإسناد الأحكام إلى غير مستندها ، وعكس الحقائق عن موضوعها ، وصيروا الحلال حراما ، والحرام حلالا ، وجعلوا الشرع متناقضاً ، واتبعوا قولة كل قائل ، وإن تناقضت ، واعتقدوا الحق فى المجتهدات وإن تعارضت »[٢] .

ومعنى ذلك بقول آخر أن ابن تومرت كان يأخذ فى تفسير الشريعة بالمذهب الظاهرى ، فيما يقول به من وجوب الاعتماد فى استقاء الأحكام على القرآن والسنة دون غيرهما ، وقد كان الإمام الفيلسوف ابن حزم القرطبى ، يرى فوق ذلك أن يطبق المذهب الظاهرى على العقائد ، ويرى أنه يجب أن يؤخذ بمعنى الكلمة المكتوبة والحديث الثابت ، ويعتبرهما حاسمين . ومن الغريب أن الظاهرية لم تنتظم فى ظل الموحدين إلى مدرسة مذهبية إلا بعد المهدى بنحو ستين عاماً فى عصر الخليفة يعقوب المنصور ، ففى هذا الوقت ، فقط اعترف بأن الظاهرية هى المدرسة الفقهية الرسمية . بيد أنها لم تكن مدرسة ناجحة ، وقد أخفقت فى حل كثير من المسائل[٣] .

وإنكار ابن تومرت لقيمة الاجتهاد كمصدر من مصادر الشريعة ، ومعارضته لجهود المجتهدين فى تجديد الشريعة ، والاستنباط فى مجال الاجتهاد ، من الأمور المنطقية ، لأن ابن تومرت يتشح بثوب « الإمام المعصوم » الذى لا تبحث آراؤه ، ولاترد أحكامه . ويلاحظ العلامة جولدسيهر أن ابن تومرت يخالف بهذه النظرية سائر الآراء السنية التى تسلم بقيمة آراء المجتهدين فى الإمامة وغيرها ، ويفرض

---

(١) كتاب محمد بن تومرت ص ١٧٣ ، ١٧٤ .
(٢) كتاب محمد بن تومرت ص ٢٥ .
(٣) الأستاذ شتروتمان فى دائرة المعارف الإسلامية (مقال الظاهرية ، وابن حزم) .

على أتباعه وجوب الاعتقاد فى الإمام المعصوم ، والإمام المعلوم ، وذلك وفقاً لرأى الشيعة . فهم يعتبرون ، حسبما بصوغ لنا رأيهم الشهرستانى « بأن الإمامة ليست قضية مصلحية ، تناط باختيار العامة ، وينتصب الإمام بنصبهم ، بل هى قضية أصولية ، وهى ركن من أركان الدين ، لايجوز للرسول إغفاله وإهماله ، ولاتفويضه إلى العامة وإرساله . ويجمعهم أى الشيعة القول بوجوب التعيين والتنصيص ، وثبوت عصمة الأئمة وجوباً عن الكبائر والصغائر »[١] . كذلك يلاحظ جولدسيهر بهذه المناسبة أن ابن تومرت بموقفه من الاجتهاد ، يعارض الإمام الغزالى ، الذى يعلق أهمية كبيرة على مبادئ الاجتهاد . ومن جهة أخرى ، فإن الغزالى يعارض نظرية الإمام المعصوم فى غير كتاب من كتبه . وقد أشار إلى ذلك فى أحدى رسائله ، وهى « المنقذ من الضلال » . وفيها يحيل إلى ما سبق أن كتبه فى ذلك من مختلف الفصول ، ثم يحمل على فكرة « المعصوم » ويسخر منها فى عبارة موجزة[٢] .

ثم إن الخلاف بين ابن تومرت والغزالى لايقف عند هذا الحد . والواقع أنه ليس من الحقيقة فى شىء ، أن يقال إن ابن تومرت قد تأثر بتعاليم الغزالى سواء من تتلمذه المزعوم عليه بالمشرق ، أو بدراسة كتبه ونظرياته . وإليك ما يقوله لنا العلامة جولدسيهر فى ذلك : « إن المستخلص من قراءة كتب الغزالى أن ابن تومرت لم يسترشد سواء فى تعاليمه أو أعماله بتعاليم الغزالى ، بل هناك ما هو أكثر ، وهو أن التعصب الذى أبداه ابن تومرت نحو مسائل العقيدة ، يدل على أنه لم يتأثر بنفوذ الغزالى الشخصى . ذلك أن طريقة « الأستاذ » الرفيقة الموفقة ، وميوله المشبعه بالتوقير للإيمان التقليدى ، هى أبعد مما نجده فى تصرفات الثورى « المصمودى » . ولو أن الغزالى عاش مدة أطول ليتتبع حياة ابن تومرت ، وطُلب إليه أن يصدر فى شأنه فتوى ، لأصدر فتواه بنقض عمل تلميذه المزعوم ، وأنه لا يوحد أجدر بلوم الغزالى ، من ذلك التقديم المغصوب « للتأويل » بين الطبقات الدنيا لشعب يتسم بالبداوة »[٣] .

---

(١) كتاب الملل و النحل للشهرستانى المنشور على هامش الفصل و النحل لابن حزم «القاهرة» ج ١ ص ١٩٥ .

(٢) المنقذ من الضلال (طبعة القاهرة سنة ١٣٠٩ ص ١٩) . وراجع مقدمة العلامة جولدسيهر الفرنسية لكتاب (محمد بن تومرت) **Mohamed ibn Toumert et la Théologie de l'Islam dans le. Maghreb au XI eme Siècle, p. 21, 22& 40**

(٣) جولدسيهر فى مقدمته الفرنسية السالفة الذكر ص ٨٣ .

ثم يحدثنا ابن تومرت بعد ذلك عن « العموم والخصوص ، والمطلق والمقيد ، والمجمل والمفسر ، والناسخ والمنسوخ ، والحقيقة والمجاز ، والكناية والتعريض والتصريح ، والأسماء اللغوية التى غلب عليها العرف وخصصها ، والأسماء المنقولة من اللغة إلى عرف الشرع » ، وهو يتناول هذه الأشياء على ضوء الدين ، ويمثل لها بمختلف الآيات القرآنية . ثم يعود فيحدثنا من جديد عن العلم وفضله وتقاسيمه فى فصل خاص ، ينحو فيه منحاه المأثور فى التصنيف والتقسيم .

— ٢ —

بعد ذلك ينتقل بنا ابن تومرت إلى مسألة العقيدة ، ويحدثنا عن التوحيد ، وعن دلائل وجود البارى سبحانه ، وتنزيهه عن التشبيه . وإذا كان التوحيد فى الأصل ركناً من أركان الإسلام الأساسية ، فإنه يعتبر هنا وبنوع خاص أساساً لمذهب ابن تومرت الدينى والسياسى معاً ، وهو يتحول على يد المهدى من صفته الدينية إلى فكرة سياسية ، هى التى أضحت أساس الدولة الموحدية ، ودعامة سلطانها الأولى . ويلاحظ العلامة جولدسيهر بهذه المناسبة ، أن فكرة التوحيد لم يبق معناها فيما بعد ، هو الاعتراف بوحدانية الله ، ولكن غدا معناها الخضوع لحكومة الموحدين[١] ، ويستشهد على ذلك بما ذكره ابن صاحب الصلاة فى تاريخه من خضوع الزعيم الأندلسى إبراهيم بن همشك لحكومة الموحدين فى سنة ٥٦٤ هـ ووصفه ذلك الخضوع فى قوله : « توحيد ابن همشك » ، والتعبير عن رغبته فى الاستسلام برغبته فى « التوحيد والتوبة »[٢] ويقدم إلينا ابن تومرت بعد ذلك صيغة التوحيد وصيغ التسبيح التى وضعها لأتباعه ، وهى صيغ تردد مضمون عبارات التوحيد والتقديس التى عرفت منذ الأجيال[٣] .

على أن أهم ما يتضمنه كتاب ابن تومرت ، هو كلامه عن الإمامة وعن الإمام المعصوم ، وعن المهدى وعلاماته ، وعن قيام الطائفة التى تقوم فى آخر الزمان لتقاتل فى سبيل الحق . ويمكننا أن نعتبر هذا الفصل لب الكتاب ، ولب مذهب

---

(١) I. Goldziher : Materialien zur Kentniss der Almohaden Bewegung. (Z. der Mog. Gesellsch. 1887). p. 70.

(٢) فى كتاب « المن بالإمامة على المستضعفين » (مخطوط أكسفورد السالف الذكر ، لوحة ١٢٦ ب) .

(٣) كتاب المهدى ابن تومرت ص ٢٤٠ — ٢٤٤ ، وقد نقلنا بعضها فى باب الوثائق فى نهاية الكتاب .

ابن تومرت كله ، ولب دعوته السياسية كلها ، فإن الإمامة الدينية ، هى الشعار السياسى الذى انتحله ابن تومرت ، دعامة لزعامته وسلطانه . ونظرية المهدى المنتظر ، هى الثوب الروحى الذى اتشح به ، لتأييد شرعية إمامته وقدسيتها . ونحن نعرف أن الإمامة هى شعار الدعوة الشيعية ، الدينى والسياسى ، وأنها تخص بها آل البيت دون سواهم ، وعلى كر العصور . ولكن ابن تومرت ، فى تمسكه بنظرية الإمامة ، يبدو مستقلا ، بعيداً عن الدعوة الشيعية ، وممثلا لدعوة خاصة ، وإن كان فى نفس الوقت يحرص على أن ينتسب إلى آل البيت ، حتى تتوفر فيه شرعية الإمامة ، وإليك كيف يعرض لنا ابن تومرت نظرية الإمامة وخصائصها حين يقول :

« هذا باب فى العلم ، وهو وجوب اعتقاد الإمامة على الكافة ، وهى ركن من أركان الدين ، وعمدة من عمد الشريعة ، ولايصح قيام الحق فى الدنيا إلا بوجوب اعتقاد الإمامة فى كل زمان من الأزمان إلى أن تقوم الساعة . ما من زمان إلا وفيه إمام لله قائم بالحق فى أرضه من عاد إلى نوح ، ومن بعده إلى ابراهيم . . ولايكون الإمام إلا معصوماً من الباطل ليهدم الباطل ، لأن الباطل لايهدم الباطل ، وأن يكون معصوماً من الضلال ، لأن الضلال لايهدم الضلال .. وأن يكون معصوماً من الجور لأن الجائر لا يهدم الجور بل يثبته ، وأن يكون معصوماً من البدع ، لأن المبتدع لايهدم الكذب بل يثبته ، وأن يكون معصوماً من العمل بالجهل ، لأن الجاهل لايهدم الجهل ، وأن يكون معصوماً من الباطل لأن المبطل ، لا يهدم الباطل ، كما لاتدفع النجاسة بالنجاسة ، وكما لاتدفع الظلمة بالظلمة ، كذلك لايدفع الفساد بالفساد ، ولايدفع الباطل بالباطل ، وإنما يدفع بضده الذى هو الحق ، لايدفع الشىء إلا بضده ، ولا تدفع الظلمة إلا بالنور ، ولايدفع الضلال إلا بالهدى ، ولايدفع الجور إلا بالعدل ، ولاتدفع المعصية إلا بالطاعة ، ولايدفع الاختلاف إلا بالاتفاق ، ولايصح الاتفاق إلا باستناد الأمور إلى أولى الأمر ، وهو الإمام المعصوم من الباطل والظلم»[1]. ثم يعود ابن تومرت فيؤكد أهمية الإمامة كركن جوهرى من أركان الدين ، ووجوب اعتقادها والخضوع لها فى قوله :

« والإمامة هى عمدة الدين وعموده على الإطلاق فى سائر الأزمان ، وهو دين السلف الصالح ، والأمم السالفة إلى إبراهيم وما قبله ، فاعتقادها دين ، والعمل بها

---

(١) كتاب محمد بن تومرت ص ٢٤٥ و٢٤٦ .

دين ، والتزامها دين ، ومعناها الإتباع والاقتداء ، والسمع والساعة ، والتسليم ، وامتثال الأمر ، واجتناب النهى ، والأخذ بسنة الإمام فى القليل والكثير »[١] .

وإنه لا يمكن أن تكون ثمة تأكيدات أخطر من هذه وأشد فعلا ، وأبعد أثراً فى النفوس ، لتأكيد الزعامة الدينية والسياسية ، والانضواء تحت لوائها ، والإذعان لسلطانها . وقد كان المهدى يخاطب بأسلوبه القوى المنذر ، مجتمعاً يسوده الجهل ، وتسيطر عليه الخرافة ، فكانت أقواله وتعاليمه تنساب إلى هذا المجتمع الساذج ، كقرآن جديد . كيف لا وهو يؤكد بأنه « لايكذب بهذا ، إلا كافر أو جاحد أومنافق أوزائغ أومبتدع أو مارق أو فاجر أو فاسق ، أو رذل أو نذل ، لايؤمن بالله واليوم الآخر »[٢] .

— ٣ —

ثم إن هذه الإمامة المطلقة الواجبة الطاعة فى كل زمان ومكان ، لابد أن تتوج بصفة خاصة تؤكد من شرعيتها وتزيد فى قدسيتها ، وتجعلها أقرب إلى مراتب النبوة ، وتلك هى صفة المهدى المنتظر . وهى أسطورة من أقدم الأساطير الدينية فى الإسلام . ويرجعها البعض إلى عصر النبى ذاته . وهنالك طائفة من « الأحاديث » تشير إلى هذه الأسطورة . وهنالك أيضاً طائفة من الأقوال المأثورة تنسب لجماعة من أكابر الصحابة . ولكن هذه الأحاديث والأقوال ، موضع كثير من الجدل والريب ، وهى على الأغلب من خلق الشيعة الذين استغلوا هذه الأسطورة على كر العصور ، واتخذوها سبيلا إلى تحقيق السلطان السياسى . وخلاصة هذه الأحاديث والأقوال « إنه لابد فى آخر الزمان من ظهور رجل من آل البيت ، يؤيد الدين ويظهر العدل ، ويتبعه المسلمون ، ويعيد مجد الإسلام ودولته ، ويسمى بالمهدى » أو على حد عبارتهم المأثورة ، وهى أن المهدى يخرج فى آخر الزمان « فيملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا » . وقد كان قيام الدولة الفاطمية الشيعية بإفريقية ثم بمصر ، فى أوائل القرن الرابع الهجرى ، أعظم وأروع استغلال لهذه الأسطورة . وهذا الثوب القدسى — ثوب المهدى المنتظر — هو الذى اعتزم محمد بن تومرت أن يتشح به ، وأن يتوج به أمامته وسلطانه السياسى . ومن ثم فإنا نراه ، بعد أن يحدثنا عن أهمية الإمامة . وكونها ركن الدين الركين ، يعرض

---

(١) كتاب محمد بن تومرت ص ٢٥٣ و ٢٥٤ .

(٢) كتاب محمد بن تومرت ص ٢٥٤ .

لنا نظرية المهدى بقوة وحماسة . وهو يستهل كلامه بوصف مثير لأحوال العصر الذى تلا عصر النبوة والخلفاء الأربعة ، وما ساد فيه من ضروب التفرق والهوى والفتن ، وهو العصر الذى « يذهب فيه العلماء ، ويظهر الجهال ، ويذهب الصالحون ، وتبقى الحثالة ، ويذهب الأمناء وتبقى الخونة ، وتذهب الأئمة ، وتظهر المبتدعة ، ويذهب الصادقون ، ويظهر الدجالون ، ويذهب أهل الحقائق ، ويظهر أهل التبديل والتغيير والتلبيس والتاليس ، حتى انعكست الأمور ، وانقلبت الحقائق وعطلت الأحكام ، وفسدت العلوم ، وأهملت الأعمال ، وماتت السنن ، وذهب الحق ، وارتفع العدل ، وأظلمت الدنيا بالجهل والباطل ، واسودت بالكفر والفسوق والعصيان ، وتغيرت بالبدع والأهواء ، وامتلأت بالجور والظلم والهرج والفتن » . ثم جاء المهدى فى زمان الغربة ، فى الوقت الذى عكست فيه الأمور ، وقلبت الحقائق ، وبدّلت الأحكام « وخصصه الله بما أودع فيه من معانى الهداية ، ووعده قلب الأمور عن عاداتها ، وهدمها بهدم قواعدها ، ونقلها إلى الحق بإذن الله ، حتى تنتظم الأمور على سنن الهدى ، وتستقيم على منهاج التقوى ، وينهدم الباطل من قواعده ، وتنهدم بانهدامه فروعه ، ويثبت الحق من أصله ، وتثبت بثبوته فروعه ، ويظهر العلم من معادنه ، ويشرق نوره فى الدنيا بظهوره ، حتى يملأها عدلا ، كما ملئت قبله جوراً ، بوعد ربه كما وعد ، وبفضله كما سبق ، هذا ما وعد الله للمهدى ، وعد الحق الذى لا يخلفه »[1] .

وهذا المهدى ، الذى تستحيل على يده شئون العالم ، من الفساد الشامل ، والظلم المطبق ، إلى الصلاح والعدل الشامل ، « لا ند له فى الورى » ولن يجد « من يعانده ، ولا من ينازعه ، ولا من يخالفه ، ولا من يضاده » ، ومن ثم فإن ابن تومرت يؤكد لأتباعه وأنصاره وجوب طاعة المهدى ، والإيمان برسالته ، والإذعان لمشيئته ، والاستسلام لحكمه ، وذلك بصورة مطلقة يعرضها لنا على النحو الآتى :

« فالعلم به واجب ، والسمع والطاعة له واجب ، واتباعه والاقتداء بأفعاله واجب ، والإيمان به والتصديق به واجب على الكافة ، والتسليم له واجب ، والرضى بحكمه واجب ، والانقياد لكل ما قضى واجب ، والرجوع إلى علمه واجب ، واتباع سبيله واجب ، والاستمساك بأمره حتم ، ورفع الأمور إليه بالكلية لازم » .

---

(١) كتاب محمد بن تومرت ص ٢٤٩ — ٢٥١ .

وليس ذلك فقط ، فإن طاعة المهدى ، والاستسلام إليه ، إن هى إلا طاعة الله ورسوله ذاتها ، « فإن سنة المهدى هى سنة الله ورسوله ، وأمره أمر الله ورسوله ، وطاعته طاعة الله ورسوله ، والانقياد له الانقياد إلى الله ورسوله ، وموافقته موافقة الله ورسوله ، وتعظيم حرماته تعظيم حرمات الله ورسوله . هو أعلمهم بالله ، وأقربهم إلى الله ، به قامت السموات والأرض ، وبه كشفت الظلمات ، وبه تدفع الأباطيل ، وبه تظهر المعارف ، وبموافقته تنال السعادة ، وبطاعته تنال البركات »(١) .

أما أولئك الذين تسول لهم أنفسهم مخالفة المهدى ، ومعارضته أو الشك فى أمره ، فويل لهم . ولم ينس ابن تومرت أن يتوعد هؤلاء بشر النكال . ذلك أن من ناوأ المهدى « فقد تقمع فى الردى ، وليس له التطرق إلى النجاة » . ثم إن « أمر المهدى حتم ، ومن خالفه يقتل ، لا دفع له فى هذا لدافع ، ولاحيلة فيه لزائغ ، ثبت بثبوت نصوص الكتاب ، وقواطع الشرع ، وبيان العلم ، ودام مادامت السموات والأرض بإذن الله الواحد القهار »(٢) .

ويتحدث ابن تومرت بعد ذلك فى فصل قصير عن « القواعد التى بنى عليها علوم الدين والدنيا » يتناول فيه أموراً شتى ، ومما جاء فيه : « أن القيام بأمر الله واجب ، وأن الفساد يجب دفعه على الكافة ، ولايجوز التمادى فيه ، وإن من منع فريضة واحدة كمن منع الفرائض كلها ، وان التمادى على ذرة من الباطل ، كالتمادى على الباطل كله ، وأن الهوى لايجوز إيثاره عن الحق ، وان الدنيا لا يجوز إيثارها على الآخرة ، وان الحق لا يجوز تلبيسه بالباطل ، وأن العلم ارتفع ، وأن الجهل عم ، وأن الحق ارتفع ، وأن الباطل عم ، وأن الهدى ارتفع ، وأن الضلال عم ، وأن العدل ارتفع ، وأن الجور عم ، وأن الرؤساء الجهال استولوا على الدنيا ، وأن الملوك الصم البكم استولوا على الدنيا ، وأن الدجالين استولوا على الدنيا » ويختتم ابن تومرت هذا الفصل ، بالعود إلى الكلام عن المهدى فى فقرة يلخص فيها كل ما تقدم ، ويؤكده بقوة ، وذلك على النحو الآتى :

« إن الباطل لا يرفعه إلا المهدى ، وان الحق لا يقوم به إلا المهدى ، وان المهدى معلوم فى العرب والعجم ، والبدو والحضر ، وان العلم به ثابت فى كل

(١) كتاب محمد بن تومرت ص ٢٥٢ .
(٢) كتاب محمد بن تومرت ص ٢٥١ و ٢٥٤ .

مكان ، وفى كل ديوان ، وأن ما علم بضرورة الإستفاضة قبل ظهوره ، يعلم بضرورة المشاهدة بعد ظهوره ، وأن الإيمان بالمهدى واجب ، وأن من شك فيه كافر ، وأنه معصوم فيما دعا إليه من الحق ،لايجوز عليه الخطأ فيه ، وأنه لايكابر ، ولايضاد ، ولايدافع ، ولايعاند ، ولايخالف ولاينازع ، وأنه فرد فى زمانه ، صادق فى قوله ، وأنه يقطع الجبابرة والدجاجلة ، وأنه يفتح الدنيا شرقها وغربها ، وأنه يملؤها بالعدل ، كما ملئت بالجور ، وأن أمره قائم إلى أن تقوم الساعة »[1].

— ٤ —

لم ينس ابن تومرت فى الوقت الذى يعرض فيه دعوته ، ويشيد بنظريته الإمام المعصوم والمهدى المنتظر ، وهى التى اتخذها دعامة لزعامته الدينية ، وسلطانه السياسى ، أن ينظم حملته ضد أصحاب الأمر القائم ، ضد أولئك المرابطين ، الذين كان يرمى إلى تحطيم دولتهم ، والاستيلاء على تراثهم . ومن ثم فإنه يخصهم فى كتابه بفصل ، يشهر فيه عليهم الخصومة والبغض ، ويحاول أن يسبغ على حملته لون القداسة ، وأن يردها إلى أصول دينية ، وهو ينعتهم « بالمبطلين ، والملثمين ، والمجسمين » . ويقول لنا إن لهم علامات خاصة يعرضها لنا فى قوله :

« جميع علاماتهم ظاهرة ، منها ما ظهر قبل مجيئهم من كادم ، ومنها ما ظهر بعد أخذهم البلاد ، ومنها ما ظهر من أحوالهم وأفعالهم . فالذى ظهر منها قبل مجيئهم خمس ، إحداهن أنهم الحفاة ، والثانية أنهم العراة ، والثالثة أنهم العالة ، والرابعة أنهم رعاء الشاء والبهم ، والخامسة أنهم جاهلون بأمر الله . والذى ظهر منها بعد أخذهم البلاد سبع ، إحداهن أنهم فى آخر الزمان ، والثانية أنهم ملوك ، والثالثة أنهم يتطاولون فى البنيان ، والرابعة أنهم يلدون مع الإماء ويستكثرون من الجوارى ، والخامسة أنهم صم ، والسادسة أنهم بكم ، يعنى أنهم صم عن الحق لايستمعون إليه ، بكم عن الحق لايقولون به ، ولايأمرون به ، وكل ذلك راجع إلى الجهل والعدول عن الحق ، والسابعة أنهم ما هم أهلا للأمانة فى القيام بأمر الله . والذى ظهر من أحوالهم وأفعالهم ثمان ، إحداهن أنهم فى أيديهم سياط كأذناب البقر ، والثانية أنهم يعذبون الناس ويضربونهم بها ، والثالثة أن نساءهم رؤوسهن كأسنمة النجب ، يعنى أنهن يجمعن شعورهن فوق رؤوسهن حتى تكون شعورهن على تلك الصفة ، والرابعة أنهم كاسيات عاريات ، والخامسة أنهن مائلات يعنى

(١) كتاب محمد بن تومرت ص ٢٥٧ .

عن الحق والرشاد . والسادسة أنهن مميلات يعني لغيرهن ، والسابعة أنهم يغدون في سخط ، والثامنة أنهم يروحون في لعنة . هذه علاماتهم ، وجملة علاماتهم عشرون أخبر الرسول بجميعها قبل وجودهم ، فظهرت كلها على وفق ما أخبر به »[١].

ويحاول ابن تومرت أن يثبت صحة هذه العلامات بإيراد « أحاديث » تنسب روايتها إلى عمر بن الخطاب وإلى أبي هريرة ، وفيها ذكر للعلامات المتقدمة ، وأنها من علامات الساعة ، و« أحاديث » أخرى يدمغ فيها الرسول أصحاب هذه العلامات ، بالنار والسخط والغضب واللعنة ، ويذكر فيها صفة نسائهن على النحو الذي تقدم ذكره[٢].

ويتناول ابن تومرت بعد ذلك مثالب المرابطين ، وتحريم طاعتهم ، والحض على جهادهم ، في عدة أبواب رتبت كما يأتي :

(١) باب فيما أحدثوه من المناكير والمغارم ، وتقلبهم في السحت والحرام يأكلون فيه ويشربون ، وفيه يغدون وفيه يروحون ، وتجسيمهم وكفرهم أكبر (٢) باب في تحريم معونتهم على ظلمهم ، وتصديقهم على كذبهم (٣) باب في معرفة أتباعهم الذين أعانوهم على ظلمهم ، وصدقوهم على كذبهم ، وبيان أفعالهم (٤) باب في وجوب مخالفتهم وتحريم الاقتداء بهم ، والتشبه بهم ، وتكثير سوادهم وحبهم (٥) باب في وجوب بغضهم ومعاداتهم على باطلهم وظلمهم (٦) باب في تحريم طاعتهم واتباع أفعالهم (٧) باب في وجوب جهادهم على على الكفر والتجسيم وإنكار الحق ، واستحلال دماء المسلمين وأموالهم وأعراضهم (٨) باب في وجوب جهاد من ضيّع السنة ومنع الفرائض (٩) باب في وجوب جهادهم على ارتكاب المناكر والفجور وتماديهم على ما لايؤمرون به (١٠) باب في وجوب جهادهم على العناد والفساد في الأرض[٣].

وهو خلال ذلك يحاول أن يؤيد أقواله وأحكامه بمختلف الأحاديث والآيات القرآنية . وهو ينعى على المرابطين بنوع خاص — وهو ينعتهم هنا بالمجسمين الكفار — مسألة اللثام ، وتشبههم في ذلك بالنساء ، في تغطية الوجوه بالتلثم والتنقيب ، وتشبه نسائهم بالرجال في السفور ، وعدم التلثم والتنقيب ، وتحريم ذلك ، ولعن

(١) كتاب محمد بن تومرت ص ٢٥٨ و ٢٥٩ .

(٢) كتاب محمد بن تومرت ص ٢٦٠ و ٢٦١ .

(٣) كتاب محمد بن تومرت ص ٢٦١ — ٢٦٦ .

من يرتكبه ، وفقاً لحديث تنسب روايته لابن عباس ، ونصه : « لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم المتشبهات من النساء بالرجال ، والمتشبهين من الرجال بالنساء، شملتهم اللعنة جميعاً »[١]. على أنه من الإجحاف البين أن تُنعى هذه المسألة بالذات — مسألة اللثام — على المرابطين ، وتعتبر فى حقهم جرماً يستوجب اللعن . ذلك أنها ليست سوى مسألة تقليد قومى وقبَلى لا شأن له بالدين . وقد قيلت فى أصل اللثام وسببه أشياء كثيرة ، منها ما سبق أن أشرنا إليه من قبل ، وهو أن أهل لمتونة — وهى قبيلة المرابطين — كانوا يتخذون فى أعراسهم نوعاً خاصاً من الحجاب ، ومنها أنه حدث ذات مرة فى بعض حروبهم أن نساءهم كن يقاتلن معهم محجبات ، حتى يحسبن بذلك فى عداد الرجال ، ومنها أنهم كانوا يلجأون إلى اللثام تخفياً من طلبة ثأر الدم ، وأخيراً أن اللثام كان من ضرورات الحماية من لفح العواصف والرمال والحر والبرد . وما تزال عادة اللثام قائمة حتى اليوم بين بعض قبائل موريتانيا والسودان وغيرها ، ويقال إن الحكمة فى ذلك هو أن الرجال الأشراف لا يكشفون عن أنفسهم . وأما عن سفور النساء ، فقد قيل إنه لكى يظهر انحطاطهن عن الرجال[٢] .

وأما حملة ابن تومرت على المرابطين بسبب ما أحدثوه من « المناكر والمغارم » فإن لها ما يبررها . وقد سبق أن أشرنا إلى ما كان يسود العاصمة المرابطية ، (مراكش) وقواعد المغرب الأخرى ، أيام المرابطين ، من مظاهر الاستهتار والفساد ، ومن ذلك ذيوع الخمر والقصف علناً فى الأسواق ، وغير ذلك من مظاهر الخروج على الدين . وهذا ما يردده المراكشى فى قوله مشيراً إلى على بن يوسف : « وكان رجلا صالحاً ، إلا أنه كان ضعيفاً مستضعفاً ، ظهرت فى آخر زمانه مناكر كثيرة ، وفواحش شنيعة ، من استيلاء النساء على الأحوال واستبدادهن بالأمور ، وكان كل شرير أو قاطع طريق ، ينتسب إلى امرأة قد جعلها ملجأ له ، وزراً على ما تقدم »[٣]. ومما هو جدير بالذكر أن أمثال هذه المناكر ، لم تلبث أن ظهرت فى دولة الموحدين ، بعد ذهاب المهدى بفترة قصيرة . ومن ذلك أن

---

(١) كتاب محمد بن تومرت ص ٢٦٤ .

(٢) الإستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى للسلاوى ج ١ ص ٩٨ و ٩٩ ، وكذلك العلامة جولدسيهر فى مقاله : **Materialien zur Kentniss der Almohaden Bewegung (Z. der Morg. Gesellsch. 1887 p. 101)**

(٣) المعجب ص ١٠٣ .

عبدالمؤمن أول الخلفاء الموحدين ، أبى على ولده الأكبر محمد إتمام بيعته لولاية العهد ، لأنه كان مدمناً لشرب الخمر ، ولنقائص أخرى كانت تنسب إليه(١) .

على أنه إذا كان المرابطون ، أوكما ينعتهم ابن تومرت ، طائفة المبطلين من الملثمين والمجسمين ، كانوا يتصفون بما يرميهم به من العيوب والمثالب التى يستحقون من أجلها اللعنات ، والتى تستوجب بغضهم ومعاداتهم ومجاهدتهم ، فإن هناك طائفة أخرى بشر الرسول بظهورها ، وهى التى تقاتل على الحق وتقاتل عنه ، وتقوم به إلى آخر الزمان ، وأن هذه الطائفة تقوم بأمر الله ، لايضرها من خذلها أو خالفها ، وأنها ظاهرة على من عاداها إلى يوم القيامة ، وأنها تقاتل على أمر الله وتقهر عدوها إلى قيام الساعة ، وأنها تقاتل على الحق حتى تجتمع مع عيسى بن مريم ، وحتى يقاتل آخرهم الدجال ، وأن الله يفتح الدنيا كلها لأهل الغرب ، وأخيراً أن هذه الطائفة ينصرها الله حتى تقوم الساعة . وبالرغم من أن ابن تومرت لا يقول لنا من هى هذه الطائفة بصريح العبارة ، فإنه من الواضح أنه يعنى بها طائفة الإمام المعصوم ، والمهدى المعلوم ، أو بالحرى طائفته الخاصة ، طائفة الموحدين ، وهو يحاول هنا كعادته ، أن يؤيد كل أقواله ونبوءاته بطائفة من الأحاديث(٢) .

وقد سبق أن أشرنا إلى ما ذكره ابن تومرت ، عند الحديث عن العقيدة ، عن التوحيد ودلائل وجود البارى سبحانه . ويلاحظ العلامة جولدسيهر ، أن ابن تومرت قد استعار عبارة « التوحيد » ، ومعناها التعلق بفكرة الله وصفاته ، من « المعتزلة » ، فهم الذين يعطون إسم « التوحيد » فى تعريفهم لفكرة الله ، وهذا ما يوضحه لنا الشهرستانى فى قوله عن المعتزلة : « واتفقوا على نفى رؤية الله تعالى بالأبصار فى دار القرار ، ونفى التشبيه عنه من كل وجه ، جهة ومكاناً وصورة وجسما وتحيزاً وانتقالا وزوالا وتغيراً وتأثراً ، وأوجبوا تأويل الآيات المتشابهة فيها ، وسموا هذا النمط « توحيدا »(٣) .

ومن ثم فإن ابن تومرت ، كان يُشَهِّر فى ظل هذا التفسير لمعنى التوحيد ،

---

(١) المعجب ص ١٣١ .

(٢) كتاب محمد بن تومرت ص ٢٦٧ — ٢٧٠ .

(٣) الشهرستانى فى كتاب « الملل والنحل » ، المنشور على هامش كتاب « الفصل » (القاهرة ١٣١٧ هـ) ص ٥٥ .

بالفكرة المادية التى كانت ذائعة فى المغرب فى ظل المرابطين ، والتى تناقض فكرة التوحيد الحقيقية ، ويعتبر المرابطين مسئولين عن فكرة « التجسيم » ، و« التشبيه » الذائعة بين رعاياهم ، وينادى من أجل ذلك بقتالهم ، لأنهم هم السبب فى نشر ذلك الإلحاد الذى يسود العقيدة ، وأنهم يقيمون نظاماً دينياً ، لا تتوجه فكرة الله . ومتى كان المرابطون على هذا النحو من أهل الشرك ، فيجب أن يشهر عليهم الجهاد فى سبيل الله(١).

ويعود ابن تومرت فيتناول التوحيد هنا من ناحية أخرى ، وذلك كعادته فى أبواب متعاقبة . أولها أن التوحيد ، هو أساس الدين الذى بنى عليه ، ثم يحدثنا عن معنى التوحيد ، وتفسير لفظه ، وعن فضله ، وعن شروط الشهادة ، وكون التوحيد يهدم ماكان قبله من الفكر والآثام ، وعن وجوب العلم بالتوحيد وتقديمه على العبادة ، وعن كون التوحيد هو دين الأولين والآخرين من النبيين المرسلين ، وكون دين الأنبياء واحد ، وعن معرفة طريق إثبات العلم بالتوحيد . ثم يتلو ذلك التحدث عن الإيمان وفضله ، والإيمان بالرسول ، وعن معنى الإيمان والعلم ، واتباع الكتاب والسنة ، يتخلل ذلك كله طائفة من الآيات والأحاديث للشرح والتدليل(٢).

— ٥ —

يتناول ابن تومرت بعد ذلك طائفة من المسائل الدينية الأخرى التى لاتتصل أصلا بدعوته الدينية أو السياسية ، ولكنها تتضمن مع ذلك ، بعض وقائع وأقوال تتصل بهذه الدعوة . وهو قد تحدث من قبل فى فصل خاص ، عن الصلاة وفضلها وتفاصيلها . وهو يتحدث هنا عن الطهارة ، وعن رفع العلم ، ورفع الدين والموالاة . وفى هذا الفصل يكرر ما سبق ذكره ، من الأحاديث المتعلقة بالناس ، الذين يحملون سياطاً كأذناب البقر ، والنساء الكاسيات العاريات ، والمائلات رؤوسهن كأسنمة البخت ، وهى التى يعدها بين علامات الملثمين المجسمين . ثم يحدثنا بعد ذلك عن « التبديل والتغيير بعد رسول الله » . وفى هذا الفصل يعود إلى ذكر المهدى ، وما روى بشأنه من أحاديث ، تدل بأنه يكون من آل البيت ، وأن اسمه يطابق اسم النبى ، وأنه يملأ الأرض عدلا

(١) جولدسيهر فى مقدمته الفرنسية لكتاب « أعزما يطلب » التى سبق ذكرها ص ٥٦ و ٦١ .
(٢) كتاب محمد بن تومرت ص ٢٧١ — ٢٨٠ .

كما ملئت جوراً ، وأنه يكون من عترة الرسول من ولد فاطمة [١] ، وما ورد فى شأن خروج الدجال وهزيمته[٢] . ثم يلى ذلك كلام طويل فى بابين لاعنوان لهما ، وكلاهما يفيض بالأحاديث والأقوال المأثورة المتعلقة بالجنة والنار[٣] .

وبعد أن يحدثنا ابن تومرت عن « الغلول والتحذير منه » وهو الخيانة ، ويقدم إلينا فى ذلك طائفة من القصص النبوية ، يختم كتابه بفصل طويل فى « تحريم الخمر » . وقد رأينا فيما تقدم من حياة ابن تومرت ، كيف كانت الحملة على الخمر ومطاردتها ، وإراقتها وكسر أوانيها ، من أخص ما شغله فى دعوته إلى إزالة المنكر ، وكيف أنه كان يتعرض لصنوف من السخط والأذى ، كلما نشط إلى ذلك ، وهو يقرر أن الخمر محرمة « بالكتاب والسنة وإجماع الصحابة » ويستعرض ما ورد فى ذلك من الآيات والأحاديث ، ويبين لنا أنواع الخمر المجمع على تحريمها فى عصر الإسلام ، وهى التى كانت تصنع من العنب والتمر والعسل والشعير ، وهى كلها محرمة فى رأيه قليلها وكثيرها ، ومن الواجب إراقتها وكسر أوانيها ، وهو يؤيد أقواله هنا بمختلف الأحاديث وأقوال الصحابة[٤] .

أما الفصل الأخير من الكتاب ، وهو الذى يلى « كتاب تحريم الخمر » وعنوانه « كتاب الجهاد » فهو ليس من تأليف ابن تومرت ، وإنما هو من تأليف الخليفة أبى يعقوب يوسف ، ولد الخليفة عبد المؤمن بن على وذلك حسبما يبدو من النبذة التى اختتم بها الكتاب ، وأشير فيها إلى تمام « كتاب الجهاد » وجميع تعاليق « الإمام المعصوم ، المهدى المعلوم ، وذلك مما أملاه سيدنا الإمام الخليفة أمير المؤمنين . . وذلك فى العشر الأواخر من شعبان سنة تسع وسبعين وخمسمائة »[٥] .

وكتاب الجهاد ، والترغيب فيه ، يضم طائفة كبيرة من الأحاديث التى وردت فى فضل الجهاد ، والحث عليه . وتبيان محاسنه ، وفضل الشهادة فى سبيل الله . ويلحق بذلك الكلام على الجهاد بالمال وماورد فيه أيضاً من الأحاديث[٦] . وهذا

---

(١) كتاب محمد بن تومرت ص ٣٠٥ و٣٠٦ .
(٢) كتاب محمد بن تومرت ص ٣٠٩ .
(٣) كتاب محمد بن تومرت ص ٣١٣ — ٣٤٦ .
(٤) كتاب محمد بن تومرت ص ٣١٣ — ٣٧٦
(٥) كتاب محمد بن تومرت ص ٤٠١ .
(٦) راجع كتاب الجهاد (من كتاب محمد بن تومرت) ص ٣٧٧ — ٤٠٠ .

الفصل وما ورد فيه من الأحاديث العديدة ، يتفق تمام الإتفاق مع ما أثر عن مقدرة الخليفة أبى يعقوب يوسف العلمية ، وبراعته فى علم الحديث ، والعلوم الشرعية ، وتقدمه « فى علم الإمام المهدى »[1].

— ٦ —

إن كتاب « أعز ما يطلب» حسبما تبين من استعراض فصوله ومحتوياته ، يمكن أن يعتبر وصية ابن تومرت العقيدية والسياسية ، ويمكننا أن نعتبر ماورد فيه من تعاليم ومبادئ، خاصة بالإمامة والزعامة السياسية والدينية ، أساس الدولة الموحدية الروحى والسياسى . على أن ابن تومرت قد ترك لنا بالعربية مؤلفاً آخر ، هو كتاب «الموطأ » المسمى « موطأ الإمام المهدى » وهو كتاب ضخم يتناول فيه ، على نسق « موطأ الإمام مالك » ، أبواب العبادات والمعاملات والحدود .

ونحن نعرف أن مذهب الإمام مالك[2] كان منذ أواخر القرن الثانى للهجرة ، هو المذهب المفضل فى المغرب والأندلس . وبالرغم من أن ابن تومرت قد درس بالمشرق ، على عدد من أقطاب عصره ، فإنه لبث على تقاليد علماء المغرب الراسخة ، من اتباع المذهب المالكى ، ومن ثم فإنه يقدم لنا ثمرة شروحه للعبادات والمعاملات والحدود ، أوبعبارة أخرى لعلم الفروع ، متسمة باسم موسوعة الإمام مالك ، جارية على مذهبه وآرائه ، بل إنه ليبدو ، حسبما جاء فى مقدمة « موطأ » ابن تومرت ، أن مصنفه ليس إلا مختصراً من مصنف الإمام مالك . فقد جاء فى مقدمته طبعته التى نشرت بالجزائر فى سنة ١٣٢٣ هـ (١٩٠٥ م) ، مايأتى : « قابلنا موطأ المهدى بموطأ الإمام مالك ، من رواية يحيى بن يحيى ، فوجدناه مختصراً منه بحذف الأسانيد مع تقديم وتأخير وزيادة تراجم وتفاصيل على أسلوب مفيد وترتيب سديد » .

ويحتوى موطأ المهدى على سفرين : يتناول السفر الأول الكتب الآتية : الطهارة والصلاة ، والجنائز والصيام ، والاعتكاف والزكاة ، والحج والجهاد ، والإيمان والنذور .

ويتناول السفر الثانى الكتب الآتية : الضحايا والعقيقة ، والذبائح والصيد ، والأشربة ، والحدود ، والنكاح ، والطلاق ، والرضاع ، والبيوع ، والشفعة ،

---

(١) ابن صاحب الصلاة فى كتاب « المن بالإمامة » المخطوط السالف الذكر لوحة ٤٦ ا .

(٢) الإمام مالك بن أنس (٩٥ — ١٧٩ هـ) أحد أقطاب المذاهب الأربعة .

والرهن ، والإجارة ، والمساقاة ، والفرائض ، والعتق ، والمكاتب ، والتدبير ، والعقول ، والقسامة ، والتعدى والغصب ، والأقضية والجامع .

ومن الواضح أنه ليس فى كتاب « موطأ المهدى » ما يهمنا من الناحية التاريخية . بيد أننا نستطيع أن نتخذه دلالة على ماكان يتصف به ابن تومرت من النشاط العلمى ، والمقدرة الفقهية ، واجتهاده فى أن يبصر قومه بأحكام الدين الصحيحة ، ولاريب أن كتب ابن تومرت كانت تنتشر بين قومه بالبربرية لغتهم القومية ، فيزداد بذلك نفوذها وتأثيرها ، وقد كان من أعظم مزايا ابن تومرت العلمية ، مقدرته البارزة فى إتقان اللغتين العربية والبربرية ، وكان وعظه ومخاطبته لقومه بالبربرية ، تنفذ إلى سويداء قلوبهم ، وتزيدهم فتنة وبه وتعلقاً ، وتعمل على توطيد مكانته الدينية والسياسية . وكانت كتب ابن تومرت ، بعد القرآن والسنة ، هى أشد الكتب الدينية احتراماً بين أقوام الموحدين على اختلاف قبائلهم ، لأنها نظراً لكتابتها بالبربرية ، كانت ذائعة ، وكانت فى متناول كل إنسان .

الفصل الرابع

الصراع بين المرابطين والموحدين

المرحلة الثانية

خلافة عبد المؤمن . مختلف الروايات حول تاريخها وكيفية وقوعها . أهل عبد المؤمن ونسبته العربية . أساطير حول قدره وتخصيصه بالخلافة . مولده ونشأته . اتصاله بابن تومرت . قيادته للجيوش الموحدية . عزمه على استئناف الجهاد . خروجه من تينملل فى القوات الموحدية . استيلاؤه على تازاجورت وقصبة تادله وعلى درعة وحصن تاسغيموت . عودته إلى تينملل . محاولة ابن ملوية وإخمادها . إنسلاخ الفلاكى الأندلسى عن المرابطين وانضمامه للموحدين . اتخاذ عبد المؤمن ألقاب الخلافة . غزواته فى الأعوام التالية . استيلاؤه على تارودانت عاصمة بلاد السوس . هزيمة المرابطين وفرارهم . غزوه لأحياء بنى بيغز . دفاع بنى بيغز ثم جنوحهم إلى الطاعة . خروج عبد المؤمن إلى الغزو ثانية . تحركه إلى أرض حاحة ونزوله فى أحياء بنى ملول . إغارته عليها وقتله لأهلها . مسيره إلى أجر فرجان . لقاؤه بالمرابطين بقيادة تاشفين بن على والربرتير . هزيمة المرابطين . مبادرة جزولة لإنجاد المرابطين . هزيمتها ومقتل معظمها . ارتداد تاشفين إلى مراكش . رواية ابن عذارى عن هذه الموقعة . خروج تاشفين والربرتير ثانية لمحاربة الموحدين . اللقاء فى تيزغور . هزيمة المرابطين وجرح الربرتير . الربرتير وأصله وظروف التحاقه بخدمة المرابطين . قيادته للمرابطين فى معارك أراضى كدميوه والسوس . غزو عبد المؤمن لأرض السوس . تبادل النساء الأسرى بين الفريقين . حملة عبد المؤمن الكبرى . مسيره إلى الشمال الشرقى . غزوه لعدد من القواعد والقلاع المرابطية . اختراقه لأرض فازاز واحتلاله لأزرو . مسيره شمالا نحو فاس . وصول القوات المرابطية بقيادة تاشفين والربرتير . مقاساتها لأهوال البرد . انحدار الموحدين إلى منطقة الأطلس الوسطى . احتلالهم لوادى ملوية . مسيرهم نحو أرض غياثة ونزولهم فى جبل عفرا . نزول المرابطين قبالهم فى السهل . عصف الرياح والأمطار بالمحلتين . رواية أخرى لابن القطان عن الحملة الموحدية إلى غياثة . مسير الموحدين إلى أرض لكاى . مسير المرابطين بقيادة تاشفين والربرتير فى أثرهم . التحام الربرتير فى بعض قواته مع الموحدين فى تازغدرا . مسير الموحدين نحو القصر الكبير . مسير المرابطين فى إثرهم . وصول الموحدين إلى المزمة . قصة مقتل ابراهيم أخى عبد المؤمن . اقتحام الموحدين لثغر مليلة وسبى نسائه . مسيرهم إلى تاجرا . الحملات الموحدية تقتحم وهران وبنى واثون وجبل مديونة . ارتداد المرابطين إلى فاس وبقاء الموحدين قرب تلمسان . وفاة أمير المسلمين على بن يوسف. بلوغ الدولة المرابطية ذروتها فى عهده . استخدامه للمرتزقة النصارى . إنشاؤه للفرقة الأجنبية بقيادة الربرتير . عزمه على إقالة ولده تاشفين . بعض الأحداث التى وقعت فى أواخر عهده . صفاته وخلاله . حشده لأعلام الكتابة فى بلاطه . أولاده . اختلال الدولة المرابطية ، وانشقاقها فى أواخر عهده . خروج بنى زمانو على تاشفين بن على . مسير الربرتير لعقابهم . إنجاد الموحدين لهم . اقتحام الموحدين لبنى عبد الواد وبنى بيلومى. هزيمتهم ومصرع معظم أصحابهم على يد المرابطين . مسير عبد المؤمن من تلمسان إلى أرض

يلومى . مسير تاشفين إلى تلمسان . إرساله حملة قوية ومعها الربرتير إلى منداس . طريقة عبد المؤمن المبتكرة فى لقاء خصومه . معركة منداس الكبرى . هزيمة المرابطين الساحقة وغنائم الموحدين الوفيرة . غزو النورمانيين لسبتة ورد الأسطول المرابطى لها . مصرع الربرتير فى معركة بينه وبين الموحدين . رواية ابن عذارى عن ذلك . مغادرة النصارى للمعسكر المرابطى . استنفار تاشفين لسائر الحشود المرابطية . مقدم ولده تاشفين إليه وتوليته عهده . سير الموحدين ونزولهم بالصخرتين قرب تلمسان . نزول المرابطين قبالهم فى سطفسيف . وصول الحشود المرابطية . اشتباك الفريقين وهزيمة المرابطين فى معركة بظاهر الصخرتين . مسير تاشفين فى قواته إلى وهران . إرساله ولده ابراهيم إلى مراكش . مقدم بعض سفن الأسطول المرابطى إلى مياه وهران . مسير عبد المؤمن فى أثر تاشفين . فتك الموحدين بأحياء لمتونة فى تلك الجهة . نزول الموحدين فوق جبل وهران . مغادرة معظم القادة المرابطين لتاشفين . اقتحام الموحدين للمحلة المرابطية . فرار تاشفين وخاصته إلى الحصن المطل على البحر . إضرام الموحدين النار حول الحصن . فرار تاشفين فى الليل وسقوطه ومصرعه . روايات أخرى عن مصرع تاشفين . فتك الموحدين بالمرابطين . فرار الفلول المرابطية من تلمسان . دخول عبد المؤمن تاجررت وقتله لأهلها . دخوله تلمسان وقتله لأهلها . روايات أخرى عن دخوله تاجررت وتلمسان . نزوله بتلمسان وتنظيمه لشئون المنطقة . مسيره إلى فاس .

كانت خلافة عبد المؤمن بن على ، للمهدى ابن تومرت ، فى رياسة الموحدين ، حدثا ذا شأن ، وكانت فاتحة عهد جديد فى تاريخ الدولة الموحدية ، هو عهد التوطد والنماء .

وتختلف الرواية أيما اختلاف فى ظروف تولية عبد المؤمن . فهناك القول بأن بيعة عبد المؤمن ، قد تمت على أثر وفاة ، المهدى أوبعدها بأيام قلائل ، وأن المهدى هو الذى رشحه لخلافته قبيل وفاته وهذه هى رواية ابن القطان ، إذ يقول لنا إنه لما توفى المهدى ، كتم أصحابه وأهل الدار ، وهم خدمته ، وأخته شقيقته ، موته ، وبايعوا الإمام أمير المؤمنين (يريد عبد المؤمن) فى الحين « بيعة سر » ، ثم يقول فى موضع آخر ، إن عبد المؤمن بويع على أثر موت الإمام المهدى عام أربعة وعشرين وخمسمائة « بيعة خاصة » . وهناك قول آخر ، بأنه لما توفى المهدى كتم أصحابه موته بعض الوقت ، حتى يتفقوا على من يتولى الخلافة من بعده . ويقول لنا ابن صاحب الصلاة مؤرخ الدولة الموحدية وكذلك ابن القطان ، إن هذه المدة استطالت إلى عام سبعة وعشرين وخمسمائة ، أعنى مدى ثلاثة أعوام ، بويع من بعدها عبد المؤمن بيعته العامة ، وذلك حين أعلن موت الإمام المهدى . ثم يقص علينا ابن صاحب الصلاة بعد ذلك قصة الحيلة ، التى دبرها عبد المؤمن ليقنع الموحدين ببيعته ، وهى تتلخص فى قصة الطائر والشبل ، اللذين دربهما خفية ، خلال هذه المدة ، الطائر على أن يدعو له بالخلافة ، والشبل على أن

يجلس بين يديه وادعاً هادئاً . ثم دعوته بعد ذلك الأشياخ الموحدين إلى مجلسه ، واستشارتهم فى أمر من يتولى الخلافة ، ودعاء الطائر له بنطقه « العز والتمكين للخليفة عبدالمؤمن أمير المؤمنين » ومثول الشبل بين يديه ، رابضاً مطيعاً لإشارته ، وتأثر الحاضرين بذلك ومبايعتهم له[1] .

بيد أنه بغض النظر عما يطبع هذه الرواية من مبالغة ، وجنوح إلى الأسطورة ، فإنه توجد لدينا أكثر من رواية وثيقة تؤيد القول ، بأن بيعة عبد المؤمن ، قد تمت عقب وفاة المهدى ، ووفقاً لسابق إشارته . من ذلك ماذكره أبو بكر الصنهاجى المكنى بالبيذق ، وهو كما تقدم من أصحاب المهدى الأوائل ، من أنه عقب وفاة المهدى، فى يوم الأربعاء أويوم الخميس الخامس والعشرين من شهر رمضان سنة ٥٢٤ هـ ، بويع الخليفة أعنى عبد المؤمن فى يوم السبت الأقرب من هذا التاريخ[2] . وما ذكره فى موضع آخر من أنه عقب وفاة المهدى ، قام عبد المؤمن بإعلان ذلك النبأ للناس ، وعندئذ تقدم إليه أربعة من الصحب ، اثنان من الجماعة ، وهما عمر بن عبد الله الصنهاجى المعروف بعمر أصناك ، وأبو إبراهيم إسماعيل ، واثنان من أهل خمسين هما عبد الرحمن بن زكو ، ومحمد ابن محمد ، وبايعوه على ما بايعوا عليه المهدى ، ثم تبعهم سائر الناس حتى دخل الليل ، واستمرت البيعة ثلاثة أيام متواليات[3] .

ويأخذ صاحب « الحلل الموشية » بمجمل هذه الراوية ، فيقول لنا إنه « لما توفى المهدى ، تفاوض بقية أصحابه وهم أربعة ، بمن يكون إمامهم بعده ، فوقع اتفاقهم على عبد المؤمن ، لما كانوا يشهدونه من تعظيم المهدى له ، بمحضر أصحابه وجميع الموحدين ، ويقبل عليه ، ويستبشر بكلامه ، فاتفقوا عليه وقدموه »[4] . وكذلك يذكر لنا صاحب روض القرطاس أن المهدى بويع يوم الخميس الرابع عشر من رمضان سنة ٥٢٤ هـ ، ويصف هذه البيعة ، بالبيعة الخاصة التى بايعه فيها عشرة من أصحاب المهدى . وأما البيعة العامة فقد وقعت وفقاً لقوله فى

---

(١) ابن القطان فى نظم الجمان (المخطوط السابق ذكره لوحة ٤٥ ا و ٦٦ ا) . وراجع رواية ابن صاحب الصلاة فى روض القرطاس ص ١١٩ و ١٢٠ .

(٢) كتاب أخبار المهدى ابن تومرت ص ٨٣ .

(٣) كتاب أخبار المهدى بن تومرت ص ٨٥ ، والمعجب ص ١٠٨ ، ويورد المراكشى اسمين آخرين مع عمر أصناك ، هما عمر بن مرزاك ، وعبد الله بن سليمان .

(٤) الحلل الموشية ص ١٠٧ .

٢٠ من ربيع أول سنة ٥٢٦هـ ، بعد وفاة المهدى بنحو عامين بجامع تينملّل[١].

وفضلا عن ذلك ، فإن لدينا رواية المراكشى ، وهو أيضاً من مؤرخى الموحدين ، وهى رواية مفصلة واضحة ، خلاصتها أن ابن تومرت استدعى قبل موته بأيام يسيرة ، أصحابه من الجماعة وأهل خمسين ، وهم من قبائل متفرقة لا يجمعهم إلا اسم المصامدة ، فلما حضروا بين يديه ، نهض متكئاً ، وخطب فيهم فذكرهم بما كان عليه السلف الصالح ، من الثبات فى الدين ، والعزيمة فى الأمر ، وما حدث من بعدهم من ظهور الفتنة ، التى أضحى فيها العالم متجاهلا مداهناً ، يقصد بعلمه الملوك ، ويجتلب الدنيا ، وكيف أن الله سبحانه قد خصهم بتأييده ، وحقيقة توحيده ، وهداهم بعد الضلالة ؛ ثم حذرهم من الفرقة واختلاف الكلمة ، وأن يكونوا على عدوهم يداً واحدة ، ثم أعلن لهم اختياره عبد المؤمن لخلافته قائلا فى تزكيته « وهذا بعد أن بلوناه فى جميع أحواله ، من ليله ونهاره ، ومدخله ومخرجه ، واختبرنا سريرته وعلانيته ، فرأيناه فى ذلك كله ، ثبتا فى دينه ، متبصراً فى أمره » . وأنه على أثر ذلك قام القوم بمبايعه عبد المؤمن . ودعا لهم ابن تومرت ، ومسح وجوههم وصدورهم . ثم توفى ابن تومرت بعد عهده بيسير ، واجتمع أمر المصامدة على عبد المؤمن[٢] .

وهكذا يبدو أن عبد المؤمن ، تلقى بيعته عقب وفاة المهدى ، وربما قبيل وفاته ، وفقاً لرواية المراكشى ، وليس من المستبعد أن يكون عبد المؤمن وأصحابه قد كتموا موت المهدى حيناً ، حتى يجتنب الخلاف ، ويستوثق الأمر ؛ ذلك أنه لما توفى المهدى ، أخذ كل زعيم ، وكل قبيلة ، تتطلع إلى اجتناء تراث المهدى ، برياسة الموحدين ، واشتد التنافس بينهم فى ذلك ، فخشى الجماعة والخمسون ، أن يفسد الأمر ، وأن تضطرم الفتنة ، فاجتمعوا وتفاوضوا ، ووقع اختيارهم على عبد المؤمن . وكان عبد المؤمن فى الواقع ، منذ البداية أرجح القوم مكانة ، إذ كان أوثقهم صلة بالمهدى ، وأشدهم اختصاصاً به ، واستئثارا بحبه وثقته ، وكان يُنسب للمهدى قوله فيه وإنشاده كلما رآه :

تكاملت فيك أوصاف خصصت بها ... فكلنا بك مسرور ومغتبط
السنُّ ضاحكة والكف مانحـــة ... والصدر متسع والوجه منبسط[٣]

(١) روض القرطاس ص ١٢١ . (٢) المعجب ص ١٠٨ و ١٠٩ .

(٣) المعجب ص ١١٠ ، ويقول ابن خلكان إن هذين البيتين ينسبان إلى أبى الشيص الخزاعى الشاعر المشهور (وفيات الأعيان ج ٢ ص ٣٩١) .

وفضلا عن ذلك كله فقد كان عبدالمؤمن ، غريباً بأصله وقبيلته عن المصامدة ، ولم يكن له بينهم قبيل ولا طائفة ، فكان ذلك مما شجع القوم على اختياره ، اجتناباً لكل منافسة وخلاف[1] .

أما عن أصل عبد المؤمن ونسبه ، فإن الرواية تختلف أيضاً ، فهو وفقاً لرواية أبي بكر الصنهاجي ، عبد المؤمن بن على بن عَلْوى بن يعلى بن على بن حسن ابن نصر بن الأمير بن نصر بن مقاتل بن كومى بن عون الله بن ورجايغ بن ينفر ابن مراو بن مطاط بن صطفور بن نفور بن رجيك بن يحيى بن هزرج بن قيس ابن عيلان . ثم يقول لنا أبو بكر معلقاً على هذا النسب ، إنه صحيح حتى مقاتل ابن كومى بن عون الله ، وأما ما ورد بعد ذلك من الأسماء إلى قيس بن عيلان ففيها اختلاف وتصحيف وتقديم وتأخير[2] .

وينتمي عبد المؤمن إلى قبيلة كومية ، وهى بطن من بطون زناتة ، وذلك سواء عن أبيه أو أمه ، إذ هى كومية أيضاً ، فهو بذلك بربرى الأصل ، وحسبما تدلى بذلك أيضاً نسبته . ولكن عبد المؤمن هو خليفة المهدى ، وهو أمير المؤمنين ، وإذاً فلابد أن يكون له — حسبما حدث فى شأن المهدى — نسبة عربية أولا ، ثم لابد أن تكون هذه النسبة متصلة بآل البيت . ومن ثم فإن الرواية تقول لنا إنه من ولد سليم بن منصور بن قيس بن عيلان بن مضر . وأما كيف تحولت نسبته العربية إلى النسبة البربرية ، فهو أن جدًّا من أجداده العرب ، نزل بساحل تلمسان ، فارًّا من بعض الفتن بالأندلس ، وجاور بعض أحياء مطاطة ، إخوة زناتة ، فنسب ذلك إليهم بالجوار والحلف . وفى رواية أخرى أن نسبته ترجع مباشرة إلى آل البيت بانتسابه إلى جدته كنونة بنت إدريس بن إدريس بن عبد الله بن القاسم بن محمد بن الحسن بن على بن أبى طالب . والى كنونة هذه أيضاً يرجع نسبة أمه تعلو بنت عطية ، فهو إذن ، وفقاً لهذه النسبة سليل آل البيت عن طريق أبيه وأمه[3] . وقد كان عبد المؤمن نفسه ، حسبما يروى لنا المراكشى ، ينكر نسبته البربرية ، ويقول إذا ذُكرت كمية (كومية) « لست منهم وإنما نحن لقيس عيلان بن مضر بن نزار بن معدّ بن عدنان . ولكُمية علينا حق الولادة بينهم ،

---

(١) روض القرطاس ص ١١٩ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٢٩ .

(٢) كتاب أخبار المهدى ابن تومرت ص ٢١ و٢٢ .

(٣) المعجب ص ١٠٩ ، وروض القرطاس ص ١١٩ .

والمنشأ فيهم ، وهم الأخوال » . ويزيد المراكشي على ذلك ، أنه أدرك من أولاد عبد المؤمن وأحفاده ، من ينتسبون لقيس عيلان بن مضر[١] .

وكما نُسجت حول ابن تومرت ودعوته ، واختيار القدر له ليكون مهدى آخر الزمان ، هالة من الأساطير ، لتؤكد قدسيته وصدق رسالته ، فكذلك نسجت مثل هذه الهالة حول عبد المؤمن وخلافته للمهدى ، لتؤكد أن القدر قد اختاره ، كما اختار المهدى منذ الأزل ، ليقوم بهذه الرسالة . وقد أورد لنا ابن القطان بعض ما ذكره أبو القاسم المؤمن فى كتابه المسمى « فضائل الإمام المهدى » ، من أقوال وأمارات للتدليل على صدق رسالته . ومن ذلك أنه جاء فى كتاب أبى عبد الله الباقر بن على زين العابدين بن الحسين ، الحض على الإيمان بالمهدى وطائفته ، وذكر عبد المؤمن بن على القيسى ، وأنه هو الذى وعد بالنصر والتأييد والفتح .

ويقول أبو القاسم ، ان ذلك قد ورد أيضاً فى كتاب يحيى بن زيد ، وفى كتاب القاسم الأكبر ، وفيه جميع ماذكر من فضائل الإمام المهدى ، وعلاماته ومواضعه ورجاله ، والخليفة الآخذ عنه . وقد شرح ذلك كله صاحب كتاب « النصر » إدريس بن إدريس ، وأورد لتأييده أحاديث عديدة .

ثم ينقل إلينا ابن القطان بعد ذلك قول ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد فى أرجوزة نظمها بعد ذكر « المهدى » ووفاته[٢] ، حيث يقول :

ويرجع الأمر إلى عدنان لماجد قد خص من عيلان
رب الفتوح صاحب الملاحم وقامع الأعراب والأعاجم

وقول عبد الملك بن حبيب :

صاحب المهدى يأتى بعده خيرة الأعراب طرا والعجم
أقبل الملك به من نعته أشيب اللحية ليس بالهرم

وأنه قد ورد ذلك أيضاً فى بعض الأراجيز القديمة ، وفيها شرح صفاته وأفعاله وفتوحه . ويزيد أبو القاسم المؤمن على ذلك كله أنه رأى بالقدس فى رباط للنصارى اسم المهدى منقوشاً على رخامة بيضاء ، كما رأى اسم عبد المؤمن خليفته ، وأنه أى

---

(١) المراكشى فى المعجب ص ١٠٩ .

(٢) المقصود هنا « المهدى » بصفة عامة ، وليس المهدى بن تومرت ، لأن ابن عبد ربه قد عاش قبل المهدى ابن تومرت بنحو قرنين .

أبو القاسم ذكر ذلك للإمام المهدى ، فأمر بكتمانه حتى يحين الوقت الذى يكون فيه ظهوره[١] .

وهكذا نرى كُتاب الدولة الموحدية ومؤرخيها يجدون فى تقصى الأساطير ، ونسجها حول إمامة المهدى ابن تومرت ، وحول خلافة عبد المؤمن ، حتى تتخذ الدعوة الموحدية ، ومن بعدها الخلافة الموحدية ، مكانتها من الرسوخ والقدسية .

وكان مولد عبد المؤمن فى آخر سنة ٤٨٧ هـ (أول سنة ١٠٩٥ م) بموضع يعرف بتاجرا على مقربة من مرسى هنين شمالى تلمسان ، وقيل إنه ولد سنة ٤٩٠ هـ ، أو سنة ٥٠٠ هـ[٢]. ويبدو سقم هذه الرواية الأخيرة ، إذا ذكرنا أن عبد المؤمن قد لقى المهدى ابن تومرت عقب عوده من المشرق إلى المغرب فى سنة ٥١٢ هـ ، وكان يومئذ شاباً ، ولم يكن غلاماً حدثاً . وكان والد عبد المؤمن فخاراً يصنع الآنية من الطين ، وهى المعروفة بالنوابيخ ، وكان بالرغم من ضعته رجلا عاقلا محترماً من قومه[٣] . ويذكر لنا البيذق أن والد عبد المؤمن كان بالعكس قاضياً فى زمانه وفى قومه[٤] . ونشأ عبد المؤمن منذ البداية محباً للقراءة والدرس ، يلازم المساجد لتلاوة القرآن ، ولما بلغ نحو العشرين من عمره ، اعتزم الرحلة إلى المشرق ليتابع الدرس ، وقد رأينا فيما تقدم كيف التقى هو وعمه بملالة على مقربة من بجاية بمحمد بن تومرت ، وكان يومئذ يقود حملته المعروفة ضد المنكر ، وكيف آنس فيه ابن تومرت نجابة وذكاء ، وشعر أنه سوف يغدو أعظم معاونيه ، وكيف استطاع أن يقنعه بالبقاء إلى جانبه يطلب العلم على يديه ، ويعاونه فيما هو قائم به « من إماتة المنكر ، وإحياء العلم ، وإخماد البدع » . كان ذلك فى أوائل سنة ٥١٢هـ . وقد بقى عبد المؤمن من ذلك التاريخ إلى جانب ابن تومرت ، ولازمه واختص به ، يؤازره فى دعوته ، ويشاطره مصيره أينما حل ، حتى كان من أمر ابن تومرت ما سبق ذكره من اشتداد دعوته الدينية ضد المرابطين ، ثم التجاؤه وصحبه إلى تينملل ، وإعلانه أنه هو المهدى المنتظر ، ومبايعة أصحابه وفى مقدمتهم عبد المؤمن له على ذلك .

---

(١) ابن القطان فى نظم الجمان (المخطوط السالف الذكر لوحة ٥٣ ب و٥٤ ا) .

(٢) الأولى هى رواية المراكشى (ص ١٠٩) ، والثانية والثالثة أوردهما ابن خلكان فى الوفيات (ج ٢ ص ٣٩١) .

(٣) ابن خلكان ج ٢ ص ٣٩١ ، وروض القرطاس ص ١١٩ .

(٤) كتاب أخبار المهدى ابن تومرت ص ٢٧ .

وقد رأينا فيما تقدم . كيف كان عبد المؤمن ، إلى جانب أبى محمد البشير ، أعظم قادة الموحدين . وكيف أنه عقب هزيمة البحيرة الساحقة (أوائل سنة ٥٢٤هـ) ومقتل البشير ، استطاع أن يجمع فلول الموحدين وأن ينقذها من الفناء المحقق ، وأن يقودها بالرغم من مطاردة المرابطين إلى تينملل ، وكيف أن المهدى ، وقد كان فى مرض موته ، حينما أبلغ أمر الهزيمة ، سأل عن عبد المؤمن ، ولما علم بأنه سالم ، قال لأصحابه « الحمد لله قد بقى أمركم » .

— ١ —

لم تخب فراسة المهدى فى تلميذه وصاحبه الأثير ، وخليفته من بعده ، فقد شاءت العناية الإلهية أن يغدو عبد المؤمن مؤسس دولة الموحدين الحقيقى ، وأن يقود الموحدين إلى ميادين النصر الباهر ، وأن يحقق لهم سلطان الإمبراطورية الموحدية الكبرى فى المغرب والأندلس .

قضى عبد المؤمن بعد توليه الخلافة زهاء عام ونصف ، ينظم شئون الموحدين ويؤلف قلوبهم ، ويحشد جموعهم ، ويستنفرهم إلى الجهاد . ولما كملت أهباته ، اعتزم أن يستأنف الجهاد لمقاتلة أعداء الدولة الموحدية — المرابطين — وافتتاح البلاد من أيديهم ، وإرغامهم على الطاعة ، واستقر رأى الموحدين بعد البحث والتشاور على أن تكون أولى غزاتهم لقصبة تادلة فى وادى درعة[1] . فخرج عبد المؤمن من تينملّل فى شهر ربيع الأول (وقيل فى شوال) سنة ٥٢٦هـ (يناير سنة ١١٣٢م) فى جيش ضخم من الموحدين ، قوامه ثلاثون ألف مقاتل ، وسار أولا إلى قلعة تازاجورت ، وكانت تدافع عنها حامية مرابطية بقيادة يدّر بن ولجوط ، فاقتحمها واستولى عليها ، وسبى أهلها[2] . وفى رواية أخرى أن قائد تازاجورت المرابطى كان يدعى يحيى بن مريم ، وأن عبد المؤمن قتله وقتل معه نحو عشرين ألفاً من الجسمين ، وأسر زوجته ميمونة بنت ينتان بن عمر ، وصحبها معه إلى الجبل ، حتى افتديت فيما بعد بمن كان من أسرى الموحدين فى تلمسان[3] وسار عبد المؤمن

---

(١) إن تادله التى يذكرها بهذه المناسبة صاحب الحلل الموشية (ص ١٠٧) ، وروض القرطاس (ص ١٢١) ، وابن خلدون (ج ٦ ص ٢٢٩) ليست هى بلدة تادلا الواقعة شمال شرق مراكش ، ولكنها هى المحلة الحصينة الواقعة شرق وادى درعة ، وذلك حسبما يستدل من سير الحملة الموحدية والمواقع التى استولت عليها ، ومنها مدينة درعة .

(٢) كتاب أخبار المهدى ابن تومرت ص ٨٥ .

(٣) هذه رواية ابن القطان فى نظم الجمان (المخطوط السابق ذكره لوحة ٧٠ ا) .

بعد ذلك إلى درعة ، واستولى عليها وعلى أحوازها ، ثم غزا سائر محلات تلك المنطقة وعاد إلى تنيملّل .

وافتتح الموحدون فى هذا العام حصن تاسغيموت ، وهو حصن منيع يقع فوق الجبل ، وبه حامية من هزرجة ، فتواطأ معهم الموحدون على فتحه ، واستطاعوا أن يدخلوه ليلا ، وقتلوا واليه المرابطى أبا بكر بن وارصول ومن معه المرابطين ، وحملوا بابه الحديدى الضخم ، وركب فيما بعد على سور تينملل .

وكذلك افتتح الموحدون فى نفس العام حصن جلاوة ، افتتحه الشيخ أبو حفص عمر وجماعة من وجوه الموحدين ، ودخلوه عنوة وقتلوا كل من فيه . وكان أهل جلاوة هم الذين جرحوا المهدى فى إحدى غزواته ، وقام الخليفة من ناحيته بافتتاح حصن هزرجة وأحرقه ، وقتل معظم أهله . ثم دخل بلدة جشجال ، وأحرقها أيضا ، وسار منها إلى أرض غجدامة ، وافتتح بلدة أجلاحال .

ودخل فى هذا العام فى طاعة الموحدين ، بعض بطون من هزرجة وهسكورة ، ثم ارتدوا وعادوا إلى الخروج والعصيان [١] .

ولما عاد عبدالمؤمن إلى تينملل ، كانت قد وقعت خلال غيبته فى تلك الغزوة حادثة خطيرة ، كادت تحدث صدعاً فى صفوف الموحدين لو لم تخمد فى المهد . وذلك أن عبدالله بن يَعْلى الزناتى ، الشهير بابن مَلْوية ، وهو أحد أصحاب المهدى العشرة ، وكان من أشد المعارضين لبيعة عبدالمؤمن ، انتهز فرصة ابتعاد عبدالمؤمن بالجيش ، وسار إلى مراكش ، وتفاهم مع أمير المسلمين على بن يوسف على مهاجمة تينملّل ، وسحق حكومة الموحدين ، فعهد إليه على بن يوسف بقوة من المرابطين ، فسار بها إلى تاماذاجوست مجمع قبيلة كنفيسة على مقربة من تينملّل ، لكى يضمها إليه ، ويسير بقواته المجتمعة لتدمير العاصمة الموحدية ، وكان بتينملل عبد الله بن وسيدّرن أحد زعماء كنفيسة ، فجمعهم فأعلنوا تمسكهم بالعهد الذى قطعوه للمهدى ، ونعوا على ابن ملوية تلك الخيانة ، وفى الحال قام واحد من أهل خمسين هو أبو سعيد يخلف بن الحسن آتيكى ومعه غلامه ، وسار إلى محلة ابن ملوية فى أسفل الجبل ، وقتلاه ، وحملا جثته إلى تينملل وصلبت بها ، وأخمدت المحاولة فى المهد . ولما عاد عبد المؤمن شكر لكنفيسة إخلاصها ، وقسم الغنائم . ثم هبط

---

(١) ابن القطان فى نظم الجمان (المخطوط السالف الذكر لوحة ٧١ ا) .

ثانية إلى الوادى ، واستولى على أراضى صنهاجة القريبة (أصناجان) وولى عليها على بن ناصر ، وهو أحد زعمائها ومن أهل خمسين[١] .

ويضع ابن القطان فى أخبار هذا العام — سنة ٥٢٦ هـ — حادثاً من نوع خاص ، هو انضمام الفلاكى الأندلسى ، وهو من قادة المرابطين ، إلى الموحدين . وكان الفلاكى حسبما تقدم أندلسى من أهل إشبيلية ، وكان فى بداية أمره شقياً وقاطع طريق ، يتسم بالجرأة والشجاعة ، ثم تاب وسلك سبيل الاستقامة ، فعفا عنه والى إشبيلية ، وقدمه على الرماة والرجّالة . ونمى خبره إلى على بن يوسف ، فاستقدمه إلى مراكش ، وقدّمه على فرقة من الجند المرابطين ، وعهد إليه بحراسة مخارج جبل درَن التى يهبط منها الموحدون إلى السهل لكى يعيق سبيلهم . ثم وجهه إلى السوس لمكافحة الموحدين ، ووالى السوس حينئذ وانودين بن سير ، فجد الفلاكى فى محاربة الموحدين ومكافحتهم . ثم فسد مابينه وبين على بن يوسف ، فانضم إلى الموحدين مع طائفة من جنده ، وأخذ يغير على حصون لمتونة ، ويفعل بها مثلما كان يفعل من قبل بقواعد الموحدين ، وأخذ يغير على جهات السوس وأغمات . واستمر فى خدمة الموحدين مدى أعوام ، ثم ارتد بعد ذلك ، وفقاً لقول ابن القطان[٢] . بيد أنه لايذكر لنا ماذا كان مصيره بعد هذا الارتداد . ومن جهة أخرى ، فإن بعض الروايات تضع انضمام الفلاكى إلى الموحدين فى تاريخ لاحق — فى سنة ٥٣٥ هـ — أى بعد التاريخ الذى يقدمه لنا ابن القطان بنحو تسعة أعوام[٣] .

وفى العام التالى ، أعنى فى سنة ٥٢٧ هـ أعلنت بيعة عبد المؤمن الخاصة ، وعقدت بيعته العامة ، وذلك إذا أخذنا برواية كتمان وفاة المهدى مدى ثلاثة أعوام ، وهى حسبما تقدم رواية ابن صاحب الصلاة وابن القطان . ويضع ابن القطان هذا الحادث سهواً فى أخبار سنة تسع وعشرين وخمسمائة ، ومن الواجب لكى يكون متفقاً مع سابق روايته أن تكون سنة سبع وعشرين . ويقول لنا إنه فى هذه السنة ،

---

(١) كتاب أخبار المهدى ابن تومرت ص ٨٥ ، هذا ويروى لنا ابن القطان أن ابن ملوية قتل فى سنة ٥١٨ هـ فى مناسبة سابقة ، خلاصتها أنه حينما قام المهدى بتدبير اغتيال قبيلة هزميرة وسبى نسائهم ، ونهب أراضيهم ، اعترض ابن ملوية ، ونعى عليه هذا التصرف الدموى ، وأنه لا يتفق مع ما يدعيه من العصمة ، فأمر المهدى بقتله فقتل وصلب على الفور (نظم الجمان المخطوط لوحة ٤٧ ب) .

(٢) ابن القطان فى نظم الجمان (المخطوط السابق ذكره لوحة ٣٩ ب و ١٧٥) .

(٣) هذه رواية صاحب الحلل الموشية (ص ٨٣) ، وربما كان هذا الانضمام المتأخر من جانب الفلاكى إلى الموحدين ، هو انضمامه الثانى لا الأول .

كان الإعلان بموت المهدى والإعلان ببيعة الخليفة أمير المؤمنين ، ثم يعلق على ذلك بعبارات رنانة يقول فيها : « فرفع الغطاء ، وسطع الضياء ، وبهرت الشمس ما دونها من السحاب ، وتبلج الحق واضحاً بغير حجاب » ، وبايعه الصحب على ما بايعوا عليه « الإمام المهدى » ، واتصلت البيعة ثلاثة أيام « فأشرقت الأرض بنور إمامته ، ونال أهلها عظيم حظوته وكرامته » . وعلى أثر ذلك اتخذ عبد المؤمن لقب « أمير المؤمنين » ، والظاهر أنه لم يكن يلقب به قبل ذلك[١] .

ويوجد شيء من التناقض والغموض حول أعمال عبد المؤمن وحركاته فى بضعة الأعوام التالية ، من سنة ٥٢٨ إلى سنة ٥٣٢ هـ . ويقدم إلينا ابن القطان بعض التفاصيل عن حوادث هذه الفترة ، فيقول لنا فى أخبار سنة ٥٢٨هـ ، إن الموحدين اشتبكوا مع المرابطين بقيادة ابراهيم بن يوسف المعروف بابن تاعياشت فى معركة هزم فيها المرابطون وقتل قائدهم . ثم ينقل إلينا عن ابن الراعى ، خبر فتح الموحدين لمدينة تارودانت . فيقول إنه لما استولى الموحدون على سائر بلاد السوس ، ارتد المرابطون منهزمين إلى تيونوين ، وعندئذ سار « العلج الأعرج » (والغالب أنه الربرتير الذى سوف يأتى ذكره) من أجرفرجان ، فاقتحم طريق ايغيران فى غفلة من الموحدين ، وسبقهم بمن معه ، فأتبعهم الموحدون حتى وصلوا إلى بلاد السوس . وكان العلج فى نحو أربعمائة فارس ، فلما وصل تيونوين ، وعلم بمقدمه من كان قد فر إلى الأطراف من أهل السوس ، هرعوا إلى الالتفاف حوله .

ونقتبس هنا وصف ماتلا من أدوار المعركة من رسالة كتب بها الخليفة عبد المؤمن ونقلها إلينا ابن الراعى . وفيها يقول الخليفة : « فميزنا عسكراً مباركاً من خيل ورجل ، فخرجوا إلى ناحية تارودانت ، وبعثنا تلك الليلة سرية إلى أسفل السوس ، فقتلوا وغنموا بقراً وغنماً وعبيداً ، وسبو ذراريهم ، ثم بعثنا سرية أخرى فى الليلة التالية إلى بقية تلك الناحية ، أعنى أسفل السوس فقتلوا مقتلة أكثر من الأولى ، وغنموا أكثر مما غنم أصحابهم .

«وأما العسكر فقصدوا إلى تارودانت ودخلوها ، وفر من كان بها من المرابطين ، وقتل الموحدون من وجدوا بها ، واستقر الموحدون بالمدينة ، وأطلقوا النار فى القصب ، فارتفعت النار فى الهواء . كل ذلك والمرابطون فى تيونوين يشهدون

---

(١) نظم الجمان (المخطوط السابق لوحة ٧٤ ب و ١٧٥) وراجع روض القرطاس عن ابن صاحب الصلاة ص ١٢٢ .

النيران تحرق أوطانهم . ولما أيقن البربر وغيرهم بعجز العلج ، انكسرت قلوبهم ، وحقت الهزيمة عليهم » .

وفى العام التالى سنة ٥٢٩ هـ ، سار عبد المؤمن لغزو بنى يبغز ، وذلك لأنهم كانوا قد قتلوا أبا محمد عبد العزيز الغيغائى من أصحاب الإمام المهدى ، فلما نزل الخليفة على أحيائهم ، وضعوا الأحطاب على ظهور الجمال ، وأضرموا فيها النار ، ودفعوها نحو محلة الموحدين ، فوقع الهرج فى المحلة الموحدية ، وسار بنو يبغز فى أثر جمالهم وهاجموا الموحدين ، ونشبت بين الفريقين معركة عنيفة . وحاول رجلان من بنى يبغز أن ينفذا إلى خيمة عبد المؤمن وأن يقتلاه ، ولكن عبد المؤمن كان قد غادر خباءه تحوطاً وحذراً ، فأخذ الرجلان وقتلا . وقضى عبد المؤمن فى تلك الغزوة أربعين يوماً ثم قفل عائداً إلى تينملل . ويضيف ابن القطان إلى ماتقدم نقلا عن ابن صاحب الصلاة ، أن عبد المؤمن كان قد وجه إلى بنى يبغز بعض اخوانهم المجاورين لهم ، لينصحوهم وينذروهم ، وأن مساعيه فى ذلك السبيل قد كللت بالنجاح ، إذ انقاد بنو يبغز وأذعنوا ، ودخلوا فى طاعة الموحدين . وهذا ما يفسر لنا النتيجة السلبية التى انتهت إليها معركة بنى يبغز ضد الموحدين[١] .

ويحدثنا اليسع عن موقعة نشبت بين المرابطين والموحدين فى سنة ٥٣٠ هـ ، فيقول إن عبد المؤمن سار فى قواته إلى أجرفرجان ومصكروطن ، فخرج إليه سير بن على بن يوسف ، ولى العهد يومئذ ، فى القوات المرابطية . ولبث عبدالمؤمن حيناً معتصما بالجبال يطاول العدو ، ثم التقى الفريقان فى مصكروطن . فهزم المرابطون ، واستولى الموحدون على مقادير عظيمة من أسلابهم ، من المال والسلاح[٢] .

ومن جهة أخرى فإن البيذق أبا بكر الصنهاجى ، مؤرخ الموحدين المعاصر ، فيما يسطره لنا من غزوات عبد المؤمن يؤكد لنا عقب كلامه عن غزوة صنهاجة ، أن الخليفة التقى مع الإبرتير وتاشفين ، وفتح الله عليه فى محاربتهم فى البداية . وهذه أول مرة يلتقى فيها عبد المؤمن بجيش مرابطى يقوده الأمير تاشفين بن على . وقد ذكرنا فيما تقدم من أخبار تاشفين ، أنه لبث والياً على الأندلس ، وقائداً للجيوش المرابطية بها حتى سنة ٥٣١هـ (أو سنة ٥٣٢هـ) ، وأنه عبر فى أواخر

---

(١) ابن القطان فى نظم الجمان (المخطوط السابق ذكره) .

(٢) ابن القطان فى نظم الجمان (المخطوط لوحة ٧٨ ب) .

سنة ٥٣٢ هـ إلى المغرب استجابة لدعوة أبيه ، وذلك حينما تفاقمت هجمات الموحدين ، وكثرت هزائم المرابطين . وإذن فلابد أن يكون هذا اللقاء الأول بين الموحدين ، وبين الجيوش المرابطية بقيادة تاشفين قد وقع على الأقل في أوائل سنة ٥٣٣هـ . والواقع أن ابن القطان يقص علينا خبر موقعة حدثت في سنة ٥٣٣هـ بين المرابطين بقيادة الأمير تاشفين بن على والربرتير وبين الموحدين ، فيقول إن الخليفة عبد المؤمن تحرك في هذا العام من تينملل ، ونزل في بلد بنى ملول من منانة في أراضى حاحة ، ونزل تاشفين بقواته في تاحكوط من حاحة . وكان على بن يوسف قد قتل أعيان قبيلة منانة ، فدخلت في طاعة الموحدين ، ثم ارتدت غير مرة ، فأقام عبد المؤمن في بنى ملول شهراً وثلاثة أيام ، وهو يغير على تلك الأحياء ، ويقتلهم قتلا ذريعاً . ثم استولى على سائر أسلابهم من الحلى والثياب والأقوات وغيرها ؛ وسار بعد ذلك إلى أحياء بنى واجدزان ، ثم إلى أحياء بنى سوار من منانة الجبل ، وقصد بعد ذلك إلى أجرفرجان ، فتبعه تاشفين في قواته ، وهنالك نشبت بين الفريقين معركة شديدة ، هزم فيها المرابطون وقتل منهم عدد جم . ثم تجدد القتال بعد ذلك ، فانهزم تاشفين مرة أخرى ، وارتد إلى جهة المبزتابوت ، واستولى الموحدون على أسلابه من السلاح والثياب والدواب والعبيد . وهرعت قوات جزولة من مراكش إلى مكان الموقعة لنجدة المرابطين ، وطمعت في أن تنتزع الغنائم من الموحدين ، فرتب لها عبد المؤمن الكمائن في مضايق الجبل ، وقدم الغنائم بين يديه اجتذاباً لها ، وخرجت جزولة ، وهاجمت ساقة الغنيمة وقتلت بعض حراسها ، فخرجت إليها الكمائن الموحدية وأمعنت فيها قتلا حتى أفنتها ، واستولت على سائر أسلحتها ودوابها . وكانت جزولة تضم آلافاً من الفرسان والرجالة ، وارتد عبد المؤمن صوب بلاد جنفيسة ظافراً .

وجاء في رواية أخرى أن عبد المؤمن أراد أن يبنى حائطاً في أضيق موضع من الجبل ليحول دون انصراف المرابطين حتى يهلكوا في تلك الهضاب ، فأحس تاشفين بمشروعه ، وارتد بقواته صوب مراكش ، وتركته جزولة عند أحياء رجراجة ، فتصدت لها قوة من المرابطين ، بقيادة الشيخ أبى حفص أصناج ، ففتكت بها ، واستاقت من خيلها إلى تينملل ثلاثة آلاف قسمت على الموحدين ، ثم عادت جزولة بعد ذلك ، فمالت إلى التوحيد ، ودخلت في طاعة الموحدين[١] .

---

(١) ابن القطان في نظم الجمان (المخطوط السالف الذكر لوحة ٨١ ب إلى ٨٢ ب) .

ويتفق ابن عذارى مع ابن القطان فى حدوث الموقعة فى سنة **٥٣٣** هـ ، ولكنه يقدمها إلينا فى صورة أخرى ، فيقول إن القوات المرابطية كانت بقيادة الأمير تاشفين ، ومنهم جملة وافرة من قبائل جزولة ، وإن اللقاء وقع بين المرابطين وبين عبد المؤمن فى موضع ببنى ملول ، وان موقعة عظيمة نشبت بين الفريقين ، فى مفاوز وجبال ضيقة ، استمرت شهراً وثلاثة أيام ، ثم انجلت عن هزيمة تاشفين. فطارده عبد المؤمن حتى موضع يسمى إيمران تانورت . ويزيد ابن عذارى على ذلك ، بأن أبناء جزولة رغبوا فى الرجوع إلى بلادهم ، فأذن لهم تاشفين ، ونصحهم ألا يسلكوا طريق الجبال الوعرة ، حتى لايتعرضوا لمهاجمة الموحدين ، ولكن جزولة لم يصغوا إلى نصحه . وكان عبد المؤمن قد رتب كمائنه فى هذا الطريق الجبلى ، فما كادت جزولة تسلك هذا الطريق ، حتى انقض عليها الموحدون وفتكوا بهم فتكاً ذريعاً ، واستولوا على نسائهم وخيلهم وسلاحهم ،واستاقوهم إلى تينملل . ثم رغب أشياخ جزولة بعد ذلك فى مسالمة الموحدين ، والدخول فى طاعتهم ، فأصدر لهم عبد المؤمن أمانا وظهيراً بذلك[1] .

وفى سنة **٥٣٤** هـ خرج تاشفين بجيش ضخم من لمتونة والحشم وزناتة ، لقتال الموحدين ومعه فرقة من النصارى المرتزقة بقيادة « الإبرتير » ، واستمرت المعارك بينه وبين الموحدين زهاء شهرين . ووقعت المعركة الأخيرة بينهما فى شوال من هذا العام ، وقتل فيها كثير من الفريقين . وعلى أثر ذلك ارتد تاشفين إلى مراكش وعاد الموحدون إلى تينملل[2] .

ويبدو من أقوال البيذق أنه قد وقعت فى ذلك الوقت معارك أخرى ، بين المرابطين والموحدين ، بأرض « حاحة » غربى تينملل ، وشمالى السوس الأدنى بموضع يسميه البيذق « تيزغور » ، وأن الموحدين انتصروا أولا وأحرزوا بعض الغنائم ، ولكن المرابطين استطاعوا أن يحاصروا الموحدين بعد ذلك بهذا الموضع زهاء ستين يوما ، حتى استنفد الموحدون غنائمهم . ثم تشبت بعد ذلك بين الفريقين موقعة جديدة ، هزم فيها الموحدون أولا ، ثم انقلبت الآية ووقعت الهزيمة على المرابطين . وعلى أثر ذلك ارتد تاشفين فى قواته إلى مراكش ، ومعه

---

(١) ابن عذارى فى البيان المغرب (الأوراق المخطوطة التى سبق ذكرها — هسبيرس ص١٠٣) ، وكذلك فى القسم الثالث من البيان المغرب (نسخة تامجروت التى نشرت فى تطوان ص ١١) .

(٢) ابن عذارى فى الأوراق المخطوطة السالفة الذكر (هسبيرس ص ١٠٤ و ١٠٥) .

زميله قائد الروم المسمى « الإبرتير » جريحاً ، وارتد عبد المؤمن فى قوات الموحدين إلى تينملل[١] .

ويجدر بنا قبل الكلام عن المعارك التى اضطرمت بين الفريقين فى تلك الفترة ، والتى كان يشترك فيها « الإبرتير » قائد الروم باستمرار ، أن نذكر كلمة عن هذا القائد النصرانى .

إن الإبرتير أو الربرتير[٢] حسبما تسميه الرواية العربية ، هو بالإفرنجية El Reverter أو Roberto ، هو فى الأصل سيد (ڤيكونت) من أشراف برشلونه ، حدث بينه وبين أميرها برنجار رامون نزاع ، فنزعه ألقابه وأمواله ، فغادر برشلونة ، وعبر البحر إلى المغرب ، والتحق بخدمة الأمير على بن يوسف. ونحن نعرف أن على بن يوسف ، كان يضم إلى حرسه الخاص ، فرقة كبيرة من المرتزقة النصارى ، وقد كانت هذه الفرقة الأجنبية تشترك إلى جانب الحشم ، أو جند الحرس الخاص ، فى كثير من المعارك ، وتبدى فى القتال براعة وبسالة ، وتعرف الرواية العربية هذه الفرقة « بالجند الروم » ، وتذكر أعمالها فى مواطن كثيرة . فلما وفد الربرتير ، أو الكونت روبرتو ، على بلاط مراكش ، عهد إليه على بن يوسف بقيادة حرسه من النصارى ، لما آنسه من براعته وشجاعته . ويقول ابن صاحب الصلاة فى وصف الربرتير « أنه كان من أكبر الطغاة بالأندلس نجدة وظهوراً متصلة »[٣] . وظهر الربرتير فى الواقع فى معظم المعارك التى اضطرمت بين المرابطين والموحدين . وترك الربرتير عند مقتله ولدين ، اعتنق أحدهما الإسلام ، وتسمى باسم على الربرتير ، واشتهر فيما بعد بمشاركته فى حوادث ميورقة والجزائر الشرقية حسبما نذكر فى موضعه .

ويبدو مما يذكره لنا البيذق ، وابن عذارى أيضاً ، أن الربرتير ، هو الذى كان يقود الجيوش المرابطية فى المعارك التى وقعت بين المرابطين والموحدين فى أراضى كَدْميوَه والسوس ، فى ذلك العام أو فى العام التالى ، وتفصيل ذلك ، هو أن الربرتير ، التقى بقواته مع الموحدين بقيادة عبد المؤمن أولا فى مكان يسمى

---

(١) أخبار المهدى ابن تومرت ص ٨٦ . والبيان المغرب فى الأوراق المخطوطة (هسبيرس ص ١٠٥) .

(٢) ويسميه ابن الأبار « الربرتير » ، ويقول إنه كان علما لبنى تاشفين من كبار قوادهم ، وأبطال رجالهم كانت له فى الحروب مقاوم شهيرة (الحلة السيراء ص ١٩٧ و ١٩٨) .

(٣) ابن عذارى فى القسم الثالث البيان المغرب (نسخة تاجموت) ص ١٦ .

أمسيميصى ، وهو يقع فى أرض كدميوه ، شمال تينملل ، ولم تقع بين الفريقين موقعة حاسمة ، فارتد كل منهما إلى أراضيه . ثم عاد الربرتير فخرج فى قوات لمتونة ، وخرج عبد المؤمن للقائه ، فالتقيا بموضع يسمى آجظورر ، فهزم المرابطون ، وقتل منهم عدد جم ، وارتد الربرتير فى فلوله جريحاً إلى مراكش ، وعاد الموحدون إلى تينملل . ويضع البيذق وكذلك ابن عذارى تاريخ هذه الموقعة فى سنة ٥٣٥هـ[١] .

وخرج عبد المؤمن بعد ذلك فى قواته إلى أرض السوس ، وهاجم حصن تنلين ، وكان يدافع عنه حاكمه المرابطى يرجين بن ويدّرن ، فبدأ الموحدون بحصاره ، ولكن قدمت القوات المرابطية عندئذ بقيادة الربرتير ، فغادر الموحدون الحصن ، ودخلوا أرض السوس ، واستولوا تباعاً على إيرمناد ميمون ، وتاسلولت ثم على تارودَنت قاعدة السوس الأدنى ، ثم على حصن تيونوين . وهزم اللمتونيون فى كل المواقع التى نشبت ، واستولى الموحدون خلال ذلك على كثير من الغنائم ، وسبوا النساء ، وعادوا بالغنائم والأسرى إلى تينملل . وكان من الحوادث التى وقعت فى تلك الغزوة ، وفقاً لرواية صاحب الحلل الموشية أن الفلاّكى الأندلسى انضم بمن معه إلى الموحدين[٢] ، وقد سبق أن ذكرنا أن هذا الانضمام قد وقع فى تاريخ سابق ، قبل ذلك بعدة أعوام . وفى نفس الوقت هاجم الربرتير محلة تيغيغايين الموحدية ، وسبى نساءها ، وفى جملتهن زوجة يعزّى بن مخلوف ، وأخذهن معه إلى مراكش ، ولما عاد عبد المؤمن بالسبايا إلى تينملل ، خاطبته تماجونت ابنة الوزير ينتان بن عمر ، وكانت بين الأسرى ، وذكرته بما قام به والدها ينتان من الشفاعة فى المهدى ، وقت أن كان بمراكش ، وحرض الفقهاء علىّ بن يوسف على التنكيل به ، وناشدته أن يسرحها هى وسائر النساء اللائى معها ، فاستجاب عبد المؤمن إلى ضراعتها ، وأطلق النساء ، وبعثهن إلى مراكش معززات مكرمات ، فبادر على بن يوسف من جانبه ، بإطلاق سراح نساء تيغيغايين ، وفى مقدمتهن زوجة يعزّى بن مخلوف ، وأرسلهن كذلك فى أمن وكرامة إلى تينملل . وكان هذا عمل فروسية مشكورة من الجانبين[٣] .

---

(١) كتاب أخبار المهدى ابن تومرت ص ٨٧ ، وابن عذارى فى الأوراق المخطوطة (هسبيرس ص ١٠٥) .

(٢) الحلل الموشية ص ٨٣ .

(٣) راجع كتاب المهدى ابن تومرت ص ٨٧ و ٨٨ .

— ٢ —

لبثت المعارك التى تضطرم بين المرابطين والموحدين ، منذ وفاة المهدى ابن تومرت زهاء عشرة أعوام ، منحصرة فى مناطق الأطلس ، جنوبى مراكش . فى وادى درعة وبلاد السوس ، وفى بلاد حاحة من أحواز تينملل . وقد كان النصر حليف الموحدين فى معظم هذه المعارك . بيد أن انحصار الصراع فى هذا النطاق المحدود من الإمبراطورية المرابطية ، لم تترتب عليه أية نتائج حاسمة ، ومن ثم فقد كان لزاماً على الموحدين أن ينقلوا مسرح الصراع إلى قلب الإمبراطورية المرابطية ، حتى يتاح لهم أن يضربوها فى الصميم . وأن يقضوا عليها القضاء الأخير .

وهذا ما اعتزمه عبد المؤمن فى الواقع ، واستدعى من أجله سائر حشود الموحدين ، من كل صوب وقبيل . وفى سنة ٥٣٥ هـ (١١٤٠ م) خرج من تينملل بعد أن استخلف عليها صهره أبا عمران موسى بن سليمان ، فى جيش ضخم ، يضم مجموعة كبيرة من الفرسان والرجّالة ، وسار فى طرقات الجبل نحو الشمال الشرقى . ويفصل لنا البيذق ، وقد كان من شهود هذه الحملة الكبيرة ، خط سير الجيش الموحدى ، فيقول لنا إن عبد المؤمن سار أولا إلى موضع يسمى وانزال ، ثم إلى موضع يسمى وفاد ، وسار من وفاد إلى أشبار . وهى محلة تقع على مقربة من جنوب شرقى مراكش . وفى تلك الأثناء خرج جيش المرابطين بقيادة تاشفين من مراكش ، فغادر الموحدون أشبار إلى مكان قريب يقع فى الشمال الشرقى ، ويسمى تاساوت ، ولحق المرابطون بأشبار . ثم غادر الموحدون تاساوت إلى دمنات الواقعة شرقى مراكش ، على قيد نحو سبعين كيلومتراً منها ، وسار المرابطون فى نفس الوقت إلى عملُّو الواقعة شمال شرقى دمنات . ولم تقع خلال ذلك معارك ذات شأن بين الفريقين ، ولكن القبائل والعشائر الواقعة فى طريق الموحدين ، كانت تدخل فى طاعتهم تباعا ، واستمر الموحدون فى مسيرهم شمالا بشرق حتى واويزغت ، ثم إلى داى الواقعة جنوب تادلا . ووقعت خلال ذلك بين الفريقين معركة محلية فى موضع يقال له تيزى ، انتهت حسبما يقول البيذق بهزيمة « الفئة الباغية» أى المرابطين . ولما وصل الموحدون إلى داى ، فر حاكمها المرابطى على بن ساقطرا ، واستولى عليها الموحدون دون مقاومة . وأعلن من كان بها من

صنهاجة بيعتهم للموحدين ، وطالبوا عبد المؤمن بالإفراج عمن كان معه من أسرى صنهاجة ، فأجاب مطلبهم .

وسار الموحدون بعد ذلك حتى تازاجارت ، وكان يدافع عنها حاكمها المرابطى يحيى بن ساقطرا ، فاقتحموها ، واستولوا على خيلها وغنائمها ، واقتحموا من بعدها قلعة واوْما ، وكان يدافع عنها يحيى بن سير ، واستولوا عليها ، ثم استمروا فى سيرهم حتى آزرو ، التى تقع فى قلب منطقة فازاز على قيد نحو مائة كيلومتر من شمالى شرقى تادلا ، فدخلوها ونزلوا بها . وبعث عبد المؤمن ، بضعة فرق من جيشه لتخضع الأنحاء المجاورة فقامت بمهمتها ، وعادت إلى آزور ، وأرسل فى نفس الوقت بعض الأشياخ إلى تينملل يحملون إليها أخبار الحملة ، وليطمئنوا على أحوالها . ودخل أهل فازاز جميعاً فى طاعة الموحدين(١) .

وغادر عبد المؤمن والموحدون آزور شمالا نحو فاس التى تبعد عنها زهاء ستين كيلومتراً . وكان تاشفين قد وصل فى تلك الأثناء فى القوات المرابطية ومعه الربرتير إلى فاس . ويصف لنا صاحب البيان المغرب سير الجيشين على هذا النحو فى قوله : « كان الموحدون يمشون فى الجبال المانعة حيث الأرزاق الواسعة ، وكان تاشفين ينزل البسائط بعساكره ، فما يجد من البرابر من يداخله ولا من يستعين به ، فيواصله ، وذلك بسبب إدباره إلى أن استقر عبد المؤمن بالجبال المجاورة لجهة فاس المعروفة بكراندة ، ونزل تاشفين بحصن بالموضع المذكور »(٢) .

وهكذا عسكرت الجيوش المرابطية والموحدية ، كل منها على مقربة من فاس عاصمة المغرب القديمة ، وكان ذلك حسبما يستخلص من أقوال البيذق ، وابن عذارى ، فى أواخر سنة ٥٣٥ هـ (١١٤١ م) . وكان الوقت شتاء ، والشتاء قاسياً ، والمطر ينهمر بشدة . والظاهر أن المرابطين لم يحتاطوا لقسوة الطقس فعصف بهم البرد ، وأقاموا شهوراً دون حطب ولا فحم ، حتى أنهم اضطروا لحرق أوتاد أخبيتهم ، وخشب أبنيتهم ، ومات كثير منهم من البرد . وفى أثناء ذلك خرجت القوات المرابطية من فاس ومكناسة ، ومعها المؤن والميرة ، تقصد إلى محلة المرابطين ، ولكنها اختلفت أثناء الطريق واقتتلت ، ففر البعض منها ، وسار

---

(١) كتاب أخبار المهدى ابن تومرت ص ٨٩ و ٩٠ .

(٢) القسم الثالث من البيان المغرب (نسخة تامجروت) ص ١٢ . وراجع أيضاً الحلل الموشية ص ٩٦ و ٩٧ .

أحد قادتها ، وهو يحيى بن على ، هو ومن معه إلى محلة الموحدين ، وسلموا ، واعترض الموحدون قوة أخرى منها يقودها ابن وحوط على طريق مكناسة ، وفتكوا بها ، وقتلوا معظمها واستولوا على ما معها من المؤن والعتاد .

وعبر الموحدون بعد ذلك إلى جبال الأطلس الوسطى ، وهاجموا القواعد المرابطية فى غريس الواقعة جنوب آزرو ، وتودجا الواقعة شمال سجلماسة ، وسيطروا على وادى مَلْوية الواقع فى شرق آزرو ، ودخل القادة المرابطون فى تلك الأنحاء فى طاعتهم . ولما شعر والى سجلماسة المرابطى أبو بكر بن صارة ، باقتراب الموحدين من قاعدته ، خرج إليهم ، وقصد عبد المؤمن ، وأعلن خضوعه ، فتقبل منه ذلك عبد المؤمن ، وصرف النظر عن مهاجمة سجلماسة ، وعاد إليها واليها[1] .

وفى أواخر سنة ٥٣٥ هـ ، وأوائل سنة ٥٣٦ هـ (صيف سنة ١١٤١ م) نرى عبد المؤمن وجيوشه الموحدية تندفع نحو الشمال فى غزوات مستمرة ، تستغرق بضعة أعوام ، وتشتبك مع الجيوش المرابطية المختلفة ، فى معارك متعاقبة ، فى أواسط المغرب وشماله ، وقد بدأت هذه المعارك منذ المحرم من العام المذكور ، حيث خرجت قوة موحدية بقيادة عبد الرحمن بن زجّو أحد أهل خمسين ، وهاجمت صفرو واقتحمتها ، واستولت على غنائمها . ثم لحقت ببقية الجيش الموحدى فى جهة الفلاج ، الواقعة شمال شرقى صفرو . وكان تاشفين قد غادر عندئذ أحواز فاس ، وعسكر فى جبل العرض الواقع فى شرقها . وبعث الربرتير قائد الجند النصارى فى قوة إلى الفلاج . فخرج إليه الموحدون بقيادة يحيى آغوال ، ونشبت بين الفريقين معركة ، هزم فيها الموحدون وقتل قائدهم ، واحتز رأسه وأرسل إلى فاس .

وعلى أثر ذلك سار الموحدون نحو أرض غيّاثة الواقعة شرقى فاس ، وجنوبى رباط تازة ، وهى من أرض زنانة ، وضربوا محلتهم بها فوق جبل عفرا ، وسار المرابطون فى نفس الوقت إلى موضع فى السهل يسمى النواظر ، يقع على مقربة من جبل عفرا من ناحية تازا . وهنا دخل الشتاء بقره . وكان شتاء قاسياً توالت فيه الرياح العاصفة ، والأمطار الغزيرة ، بضعة أسابيع ، فأغرقت السهول واكتسحت الوديان والقرى ، وقاسى منها العسكران أيما عناء وشدة ، وكان وقعها على

---

(١) كتاب المهدى ابن تومرت ص ٩٠ .

المرابطين فى السهل أشد وأنكى ، حيث تساقطت الخيام ، وعامت أوتادها لرخاوة الأرض ، وغرقت الدور ، ومات كثير من المرابطين برداً وجوعاً ، وعزت الأقوات والوقود فى المعسكرين ، وبلغ سعر الشعير وفقاً لقول البيذق فى معسكر الموحدين « ثلاثة دنانير للسطل ، وبلغ الحطب عند تاشفين ديناراً للرطل » ، ولم ترفع هذه الغمة إلا حينما دخلت طوالع الربيع ، وكان ذلك حسبما يحدثنا البيذق سنة ست وثلاثين وخمسمائة (أوائل سنة ١١٤٢ م)(١).

هذا ما يقوله لنا البيذق عن حملة الموحدين إلى غياثة ، فهو أولا يضع تاريخها فى سنة ٥٣٩ هـ ، وهو ثانيا لايذكر لنا أنه قد وقعت هنالك أية معارك بين الموحدين والمرابطين ، وإنما وقعت بعد ذلك فى أماكن أخرى. ولكن ابن القطان يقدم إلينا رواية أخرى تختلف عن رواية البيذق اختلافاً بيناً ، وهو أولا يضع تاريخها فى سنة ٥٣٢ هـ ، ثم يقول لنا إنه لما نزل الموحدون بجبل غياثة خرج إليهم سير بن على بن يوسف فى القوات المرابطية ، ونزل بجراندة عند وادى أبى جلوا ، وهنالك وافته حشود المغرب بقيادة عبد الله بن يحيى بن تيفلويت ، واجتمعت من حشود زناتة قوة أخرى من نيف وخمسة آلاف فارس بقيادة يحيى ابن فانّو . وفى أثناء ذلك وحّد زيرى بن ماخوخ من أشياخ زناتة ، ولحق بعبد المؤمن ، وطلب عسكراً يقوده ضد المرابطين ، فأسعفه الخليفة بما طلب ، وقدم إليه عسكراً تحت إمرة أحد أشياخ الموحدين ، فأخذ يهاجم الحشود المرابطية ، ويقتل العدد الجم من رجالها ، وينتهب سلاحها ومتاعها . ثم توفى قائد عسكر زناتة يحيى بن فانو ، فخلفه فى القيادة ولده محمد . وأرسل زيرى إلى إخوانه من مشايخ زناته يحرضهم على النكث ، وأن يعملوا لهزيمة المرابطين. ثم وجه الخليفة قوة موحدية مختارة مع زيرى ، فقصدت إلى محلة زناتة ، وهاجمتها ، ونشبت بين الفريقين معركة هزمت فيها زناتة ، وانتصر الموحدون .

وكان سير بن على ، قد علم أن عبد المؤمن يزمع السير إلى أرض غُمارة ، فرتب له فى الطريق ألفى فارس ، تقيم وتستبدل باستمرار لتعيق سيره ، واستمر ذلك مدى شهرين(٢).

---

(١) كتاب أخبار المهدى ابن تومرت ص ٩١ ، وابن الأثير ج ١٠ ص ٣٠٥ . وكذلك ابن عذارى فى البيان المغرب (الأوراق المخطوطة السالفة الذكر) .

(٢) ابن القطان فى نظم الجمان (المخطوط السالف ذكره لوحة ٧٩ ب و ١٨٠) .

هذا ما يقوله ابن القطان عن حملة غياثة . وربما اختلط عليه القول هنا بأخبار حملة موحدية أخرى . ونحن على أى حال نفضل الأخذ برواية البيذق ، وهو معاصر وشاهد عيان .

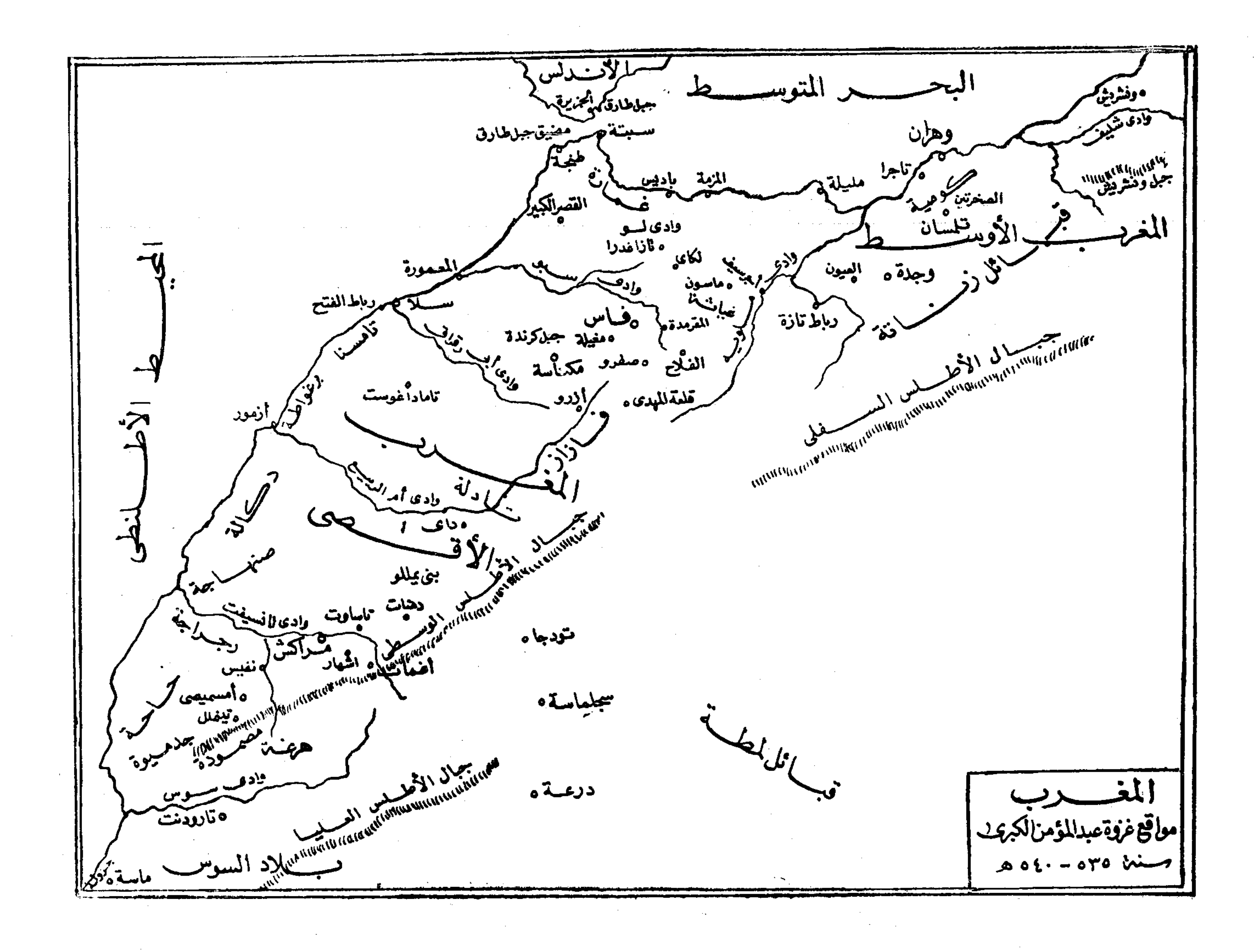
يقول البيذق إنه لما هدأت الرياح ، وبدأ الربيع ، استأنف الموحدون زحفهم . ويمضى البيذق ، وقد كان من شهود هذه الحملة الشهيرة ، فيصف لنا سير عبد المؤمن نحو الشمال تفصيلا . وكان أول موضع قصده الموحدون عندئذ ، أرض لُكاى الواقعة شمالى شرقى فاس ، فى منتصف المسافة بينها وبين البحر المتوسط . وهنالك استولوا على قلعة الوجلة من حصونها . وسار المرابطون بقيادة تاشفين والربرتير فى أثر الموحدين ، وحاولوا تطويقهم فى أرض بنى سلمان ، ولكن الموحدين أحبطوا هذه الحركة بالسير إلى أرض بنى غُمارة ، من بطون صنهاجة ، الذين انضموا إليهم ، ودخلوا فى طاعتهم ، ثم جازوا منها إلى أرض لُجاية . وعندئذ سار تاشفين والربرتير إلى أرض بنى تاودا ونزلوا بها ، فكان بينهم وبين الموحدين نهر ورغة وواديه . . وهنا خرج الربرتير فى قوة مختارة من المرابطين والجند النصارى ، واشتبك مع الموحدين فى موضع يقال له تازغدرا ، فى معركة عنيفة ، قتل فيها كثير من الفريقين ، ثم ارتد الربرتير إلى بنى تاودا ، وسار الموحدون إلى تاغزوت ، ثم إلى بنى مزكلدة ، ثم إلى إيلانة ثم إلى أجن على مقربة من القصر الكبير . وسار تاشفين والربرتير فى أثر الموحدين حتى موضع قريب من المعسكر الموحدى يسمى « نهليط » . وفى أجن مرض عمر أزناج (أصناك) أحد الجماعة العشرة ، ولما شعر بدنو أجله ، قام فوعظ الموحدين وعظا طويلا ، وحثهم على طاعة الخليفة عبد المؤمن ، ثم توفى مساء ذلك اليوم .

وسار الموحدون بعدئذ إلى تامقريت ، ثم إلى وادى لو ، أرض بنى سعيد . وسار الربرتير فى أثرهم حتى وصل إلى تيطاوين (تطوان) ، فارتد الموحدون نحو الشمال حتى قلعة باديس الواقعة على شاطىء البحر المتوسط ، ودخل فى طاعتهم أهل تلك الأنحاء ، ثم ساروا بعد ذلك إلى ثغر المزمة[1] ، فى شرقى باديس ونزلوا به أياما ، هبت عليهم فيها رياح شديدة ، كادت أن تهلك دوابهم ، فسماها عبد المؤمن تاغزوت ، ثم أقلع عنها إلى جبل تمسامان[2] .

---

(١) المزمة هى التى تسمى فى الجغرافية الحديثة محرفة « الحسيمة » **Alhucemas** .

(٢) أخبار المهدى ابن تومرت ص ٩٢ و ٩٣ ، والبيان المغرب فى الأوراق المخطوطة السالفة الذكر .


المغرب
مواقع غزوة عبد المؤمن الكبرى
سنة ٥٣٥ - ٥٤٠ هـ
البحر المتوسط
المحيط الأطلنطى
الأندلس
جبل طارق
الجزيرة
سبتة
مضيق جبل طارق
طنجة
القصر الكبير
المعمورة
رباط الفتح
سلا
تامسنا
برغواطة
أزمور
وهران
تاجرا
مليلة
المزمة
باديس
وادى لو
تازاغدرا
لكاي
ماسون
عيابة
المغرب الأوسط
تلمسان
الصخرتين
كومية
وجدة
العيون
رباط تازة
قبائل زناتة
جبال الأطلس السفلى
ونشريش
وادى شلف
جبل ونشريش
فاس
مغيلة
جبل كرندة
صفرو
مكناسة
الفلاح
القرمدة
قلعة المهدى
إدرو
فازاز
تامادغوست
وادى أم الربيع
تادلة
المغرب الأقصى
دكالة
صنهاجة
بنى يملو
دجات
تاساوت
وادى تانسيفت
جبال الأطلس الوسطى
مراكش
رجراجة
نفيس
أغمات
الشهار
أسميمى
تينملل
حاحة
جدميوة
هرغة
مصمودة
وادى سوس
تارودنت
جبال الأطلس العليا
بلاد السوس
ماسة
تودجاه
سجلماسة
درعة
قبائل لمطة

وهنا يقص علينا البيذق قصة غريبة ، خلاصتها أنه قد وفد عندئذ على الخليفة عبد المؤمن أخوه إبراهيم ، فغمره الخليفة بإكرامه ، وأعطاه الخيل والعبيد والحباء ، وأنزله فى موضع محمد بن أبى بكر بن يكيت ، وقد كان أبوه ابن يكيت من أصحاب المهدى العشرة ، فاستاء لذلك محمد ووثب بإبراهيم فقتله ، فغضب الخليفة لمقتل أخيه أيما غضب ، وطالب بقتل ابن يكيت ، فاعترض عليه أبو حفص عمر اينتى ، وابن واجاج ، وقالا له ، ألم يقل المهدى ، « بأن أهل الجماعة وصبيانهم ، عبيدهم كل من فى الدنيا » ، فصمت الخليفة عندئذ ، وعدل عن قراره ، ولكنه أمر أن يقسم المعسكر الموحدى إلى فرق أو بنود ، وأن يكون لكل قبيلة بندها الخاص[1] . وهنا يلاحظ الأستاذ هويثى بحق « أنه ليس أقطع دليلا من ذلك على التعصب الأعمى ، الذى كان يضطرم به الموحدون الأوائل ، ويدافعون به عن مزايا وامتيازات نظامهم الدينى »[2] .

وفى أثناء ذلك خرج عبد الرحمن بن زجّو فى قوة من الموحدين ، وزحف على ثغر مليلة ، واقتحمه ، وحصل على غنائم كثيرة ، كان من بينها مائة بكر ، قسمها عبد المؤمن على أعيان الموحدين ، فتزوجوهن ، وبقيت منهن أميرتان ، هما فاطمة بنت يوسف الزناتية ، وابنة ماكسن بن المعز صاحب مليلة ، فأخذ الشيخ اسماعيل أبو ابراهيم أحد العشرة فاطمة ، وأخذ الخليفة بنت ماكسن . ثم رحل الموحدون بعد ذلك إلى ندرومة وبلاد كومية ، قبيلة عبد المؤمن ، فدخلت جميعاً فى طاعة الموحدين . وسار الموحدون بعد ذلك إلى تاجرا الواقعة على البحر شرقى مليلة ، فنزلوا بها[3] .

وكان الجيش الموحدى قد تضخم عندئذ ، ودخل فى طاعة الموحدين ، عدد كبير من القبائل والبطون الشمالية . ومن تاجرا خرجت ثلاث قوات موحدية ، الأولى بقيادة عبد الرحمن بن زجّو ، وقد سارت شمالا بشرق ، وهاجمت ثغر وهران ، واقتحمته واستولت على غنائمه ، والثانية بقيادة الشيخ أبى إبراهيم ، وقد سارت إلى أرض بنى وانوان واستاقت غنائمها ، وخرجت الحملة الثالثة بقيادة

---

(١) كتاب أخبار المهدى ابن تومرت ص ٩٣ و ٩٤ .

(٢) راجع : A. Huici Miranda : Historia Politica del Imperio Almohade (Tetuan 1956) V I. p. 126 .

(٣) البيان المغرب (فى الأوراق المخطوطة – هسبيرس ص ١٠٦) .

يوسف بن وانودين ، وسارت إلى جبل مديونة من أحواز تلمسان ، فخرج إليها المرابطون من تلمسان بقيادة أبى بكر بن الجوهر ، ومحمد بن يحيى بن فانّو ، ونشبت بين الفريقين معركة عنيفة فى وادى الزيتون ، هزم فيها المرابطون ، وقتل قائداهما . ووفد على الخليفة عندئذ ، عدد من زعماء القبائل المجاورة ، وأعلنوا خضوعهم .

ثم رحل الخليفة من تاجرا إلى تيفسرت من أرض مديونة ، وخرجت عندئذ قوة موحدية بقيادة الشيخ أبى حفص عمرإينتى ويصلاصن بن المعز إلى العيون من أراضى قبيلة صاء غربى وجدة ، وغلبت على قبائل تلك الناحية ، وهم أربعة ، واستولت على غنائمهم .

وكانت الجيوش المرابطية بقيادة تاشفين والربرتير ، قد ارتدت عند دخول الشتاء إلى مراكزها فى فاس ، وبقى الموحدون فى مراكزهم فى أحواز تلمسان .

— ٣ —

وفى تلك الأثناء تطورت الحوادث بمراكش تطوراً خطيراً ، فقد توفى أمير المسلمين على بن يوسف ، فى السابع من شهر رجب سنة ٥٣٧ هـ (يناير سنة ١١٤٣ م). وكانت حوادث الأعوام الأخيرة من حكمه ، وما توالى فيها من محن وخطوب ، ترتبت على قيام المهدى ابن تومرت ، وتوالى ظفر الموحدين ، وهزائم الجيوش المرابطية ، قد فتت فى عضده ، وحطمت قواه ، وأذكت آلامه المعنوية ، فتوفى غما وألماً ، وهو يشهد نذر النهاية المروعة جاثمة فى الأفق . فكتم نبأ وفاته ثلاثة أشهر حتى السابع من شوال ، ثم أعلنت بعد ذلك ولاية ولده أبى محمد تاشفين ، وكان أبوه قد قلده ولاية عهده ، وبويع بها منذ سنة ٥٣٣ هـ (١١٣٨ م) حسبما أشرنا إلى ذلك من قبل فى موضعه[1] .

وكان على بن يوسف خير أمراء الدولة المرابطية ، بعد أبيه العظيم يوسف . ونستطيع أن نعتبر حكمه ، الذى امتد سبعة وثلاثين عاما مذ ولى الملك بعد وفاة أبيه فى المحرم سنة ٥٠٠ هـ ، هو عصر الدولة المرابطية الحقيقى ، بعد أن توطدت

(١) رجع البيان المغرب (الأوراق المخطوطة هسبيرس ص ١٠٧) والحلل الموشية (ص ٩٠) ، والزركشى فى تاريخ الدولتين (ص ٥) . ولكن ابن الخطيب يذكر لنا فى الإحاطة أن على بن يوسف توفى فى السابع من ربيع (؟) (سنة ٥٣٧ هـ) ولم يشهر موته إلا فى الخامس من شوال (الإحاطة ، مخطوط الإسكوريال لوحة ٢٩٢) .

دعائمها فى المغرب والأندلس ، وفى أوائل عهده ، وصلت الدولة المرابطية إلى ذروة قوتها وضخامتها ، بيد أنه سرعان ما ظهرت حركة المهدى ابن تومرت حتى انقلبت الآية ، وأخذ الانحلال يسرى إلى ذلك الصرح الشامخ ، وأخذت الدولة المرابطية ، تسير سراعاً إلى قدرها المحتوم .

ومما يؤثر عن على بن يوسف ، أنه كان أول من استخدم النصارى فى الجيش المرابطى . وقد بدأ فى ذلك حينما وقع تغريب النصارى المعاهدين بالأندلس فى سنة ٥٢١ ﻫ (١١٢٧ م) ، حيث استخدم جماعة من الذين قضى بتغريبهم فى حرسه الخاص ، وكان ما أبداه أولئك الجند النصارى من الغيرة والإخلاص ، مشجعاً له على التوسع فى استخدامهم ، واستقدامهم من شبه الجزيرة ، ودعوة أنجادهم من الفرسان ، وهكذا انتظمت فى الجيش المرابطى فرقة أو فرق خاصة من المرتزقة النصارى . وفى أواخر عهد على ، عهد بقيادة هذه الفرق الأجنبية إلى الفارس القسطلانى الإبرتير أو الربرتير كما تقدم ، وأخذت تقوم بدور هام فى المعارك التى كانت تضطرم يومئذ بين المرابطين والموحدين . ويقول لنا صاحب البيان المغرب أن علياً كان يؤثر أولئك الجند النصارى ، ويمكن لهم ، وكانوا فى ظل هذه الرعاية الخاصة يتعالون على المسلمين ، ويفرضون عليهم المغارم . ولما اضطربت الأمور فى أواخر عهد على ، أهمل أمر الجند المسلمين ، وعجز الأمير عن الإنفاق عليهم ، حتى كان أكثرهم يكرون دوابهم[1] .

ومما يذكره لنا ابن عذارى فى هذا الصدد أيضاً ، أن أمير المسلمين علياً ، حينما رأى توالى فشل ولده تاشفين فى محاربة الموحدين ساءه ذلك ، وعزم على إقالته ، وأن يقدم مكانه ولده إسحاق ، وكتب بالفعل إلى عامله على إشبيلية عمر ، بالقدوم ، ليجعله مدبر ولده ، وكان ذلك فى سنة ٥٣٦ ﻫ . بيد أنه يبدو أنه لم يجد متسعاً من الوقت لتحقيق هذا العزم ، إذ توفى بعد ذلك بأشهر قلائل[2] .

وكان من الأحداث البارزة فى أواخر عهد على ، السيل العظيم الذى وقع بطنجة ، فى سنة ٥٣٢ ﻫ ، وقد اكتسح معظم دورها وصروحها ، وهلك فيه عدد عظيم من الناس ، والدواب[3] . ثم الحريق الكبير الذى وقع فى العام التالى بسوق

---

(١) البيان المغرب ، فى الأوراق المخطوطة التى سبقت الإشارة إليها .

(٢) البيان المغرب (فى الأوراق المخطوطة المشار إليها – هسبيرس ص ١٠٥) .

(٢) البيان المغرب (الأوراق المخطوطة – هسبيرس ص ١٠٣) .

مدينة فاس (٥٣٣ هـ) ، وتلفت من جرائه طائفة كبيرة من الدروب التجارية ، وهلكت فيه أموال جليلة ، وافتقر كثير من الناس[١].

وكان منها أيضاً ، أنه فى سنة ٥٣٥ هـ ، هاجرت جموع عظيمة من أهل المغرب ، من مختلف نواحيه ، إلى الأندلس . وهذا ما يذكره لنا ابن عذارى نقلا عن ابن حمادة . والظاهر أن ذلك كان راجعاً إلى توالى ظفر الموحدين على المرابطين ، وتوجس أنصار المرابطين وأوليائهم مما قد يؤول إليه الأمر من انهيار سلطان المرابطين بالمغرب[٢] .

وعلى بن يوسف هو الذى وسع مدينة مراكش ، وعمرها ، ونظم خططها ، حتى غدت أضعاف ما كانت عليه عند إنشائها ، وأنشأ بها الجامع ، والقصر المرابطى ، ونظم سقاياتها ، وأدار أسوارها ، حتى غدت فى عصره حاضرة عظيمة[٣] .

وتنوه الرواية بخلال على بن يوسف ، وتصفه بأنه كان ملكاً عظيما ، عالى الهمة ، رفيع القدر ، فسيح المعرفة عظيم السياسة[٤] ، وكان فوق ذلك ورعاً متعبداً ، يحب العلماء ويؤثر مجالسهم[٥] . بيد أنه لم يكن فى ذلك صنو أبيه العظيم فى الاقتصار على الاسترشاد بآرائهم دون خنوع واستسلام ، بل كان يخضع لأهوائهم ، ويترك لهم الكلمة العليا . وقد رأينا ما كان فى استسلامه لهم ، من الحجر على حرية الفكر ، ومطاردة كتب الغزالى وإحراقها ، لما كانت تتسم به من إيثار لعلم الأصول ، وقد كان هذا من أكبر أخطائه ، ومن دلائل استسلامه لأهوائهم وتعصبهم .

وكان البلاط المرابطى فى عهد على بن يوسف ، يزدان سواء فى المغرب أو الأندلس بعدة من أكابر الكتاب ، وأعلام البلاغة فى ذلك العصر . وكان فى مقدمة هؤلاء أبو بكر بن القصيرة المتوفى سنة ٥٠٨ هـ ، وقد كتب عن يوسف ابن تاشفين ، ثم عن ابنه على ، وأبو القاسم ابن الجد المعروف بالأحدب ، وأبو بكر بن عبد العزيز البطليوسى المعروف بابن القبطُرنة ، وأخواه أبو الحسن

---

(١) ابن القطان فى نظم الجمان (المخطوط السابق ذكره) .

(٢) البيان المغرب (فى الأوراق المخطوطة — هسبيرس ص ١٠٥) .

(٣) الزركشى فى تاريخ الدولتين ص ٥ .

(٤) ابن الخطيب فى ترجمة على بن يوسف فى الإحاطة (مخطوط الإسكوريال السالف الذكر لوحة ٢٩٢) .

(٥) المعجب للمراكشى ص ٩٩ ، والحلل الموشية ص ٦١ .

وأبو محمد ، وأبو عبد الله بن أبى الخِصال وأخوه أبو مروان ، وأبو محمد عبد المجيد بن عبدون وزير بنى الأفطس السابق[١] . وأبو جعفر أحمد بن محمد ابن عطية القضاعى ، وقد خدم تاشفين بن على من بعد أبيه ، ثم انتقل فيما بعد إلى خدمة عبد المؤمن حسبما يجىء[٢] .

وكان أنبههم وآثرهم لدى على بن يوسف ، أبو عبد الله بن أبى الخصال المتوفى سنة ٥٤٠ هـ . وقد كان من أعظم علماء العصر وكتابه وبلغائه . وكان اجتماع هذه الجمهرة من أعلام البلاغة فى البلاط المرابطى ، أثر من آثار قصور الطوائف ، التى امتازت بحشد أقطاب الكتاب والأدباء بين وزرائها ، وأغدقت عليهم حمايتها ورعايتها .

وكان على قد استوزر فى أواخر عهده ، إسحق بن ينتان بن عمر بن ينتان ، وكان فتى حدثا لم يجاوز الثامنة عشرة من عمره ، ولكنه كان يتوقد ذكاء وفطنة وعزماً ، فأعجب به على ، وولاه خطة المظالم والشكايات ، فأبدى فى منصبه براعة وكياسة ، فانتفع به الناس وأحبوه ، وكان حسبما تصفه الرواية « مثل كاهن يأتى بعجائب الأخبار »[٣] .

هذا ، وأما عن شخصه ، فإن الرواية تصف على بن يوسف ، بأنه كان أبيض اللون ، مشرباً بحمرة ، حسن القد ، صبوح الوجه ، أفلج ، أقنى ، أكحل العينين ، سبط الشعر[٤] .

وكان لعلى من الولد الذكور ، أحد عشر ، ولكنه لم يترك من أولاده الأحياء بعده سوى ولى عهده وخلفه تاشفين . أما ولده الأكبر سير ، فكان قد توفى قبل وفاته بمدة طويلة ، وكذلك توفى أولاده الآخرون قبل وفاته ، ومنهم ولده أبو بكر ، وقد كان والياً بالأندلس . وفى رواية أنه قد غُرِّب بأمر أبيه إلى الصحراء حينما اعترض على تعيين أخيه تاشفين لولاية الأندلس . وفى أخرى أنه أصيب إصابة أقعدته ، فحُمل على أعناق الرجال حتى الجزيرة ، ولكنه سجن هناك حتى توفى ، واشتد ألم أبيه على فقده .

---

(١) المعجب ص ٩٦ ، والإحاطة (١٩٥٦) ج ١ ص ٥٢٩ .
(٢) الإحاطة (١٩٥٦) ج ١ ص ٢٧٠ .
(٣) البيان المغرب (فى الأوراق المخطوطة السالفة الذكر – هسبيرس ص ١٠٧) ، والحلل الموشية ص ٦١ .
(٤) روض القرطاس ص ١٠٢ .

— ٤ —

وكانت دولة المرابطين فى تلك الأعوام الأخيرة من حكم على بن يوسف ، قد اضطربت أحوالها واهتزت أسسها ، وفقدت كثيراً من قواعدها وأراضيها ، وسادت الفوضى فى كل ناحية ، وساءت الأحوال الاقتصادية من توالى الحرب ، وعزت الأقوات والموارد ، وارتفعت كلفة العيش ، وعانى الناس مشقات وشدائد. وماكاد على بن يوسف يختفى من الميدان ، حتى وقع ما هو أخطر ، من تصدع الجبهة المرابطية وتفرق كلمتها . وذلك أن الخصومة قد اضطرمت بين قبيلتى لمتونة ومسّوفة وهما دعامتا العصبة المرابطية ، وخرج عدة من زعماء مسّوفة على حكومة مراكش ، ورأوا ، أن يلوذوا بحماية الموحدين ، فسار منهم يحيى ابن تاكفت ، وبرّاز بن محمد ، ويحيى بن إسحاق المعروف بأنجمار حاكم تلمسان السابق ، فى صحبهم وأتباعهم ، إلى محلة الموحدين ، وقدموا طاعتهم إلى عبدالمؤمن ، وكانت هـــذه ضربة جديدة لتاشفين بن على ، فاشتد الاضطراب فى الجبهة المرابطية ، ووغرت صدور اللمتونيين على مسوفة ، وأخذ يتربص بعضهم ببعض ، ويقتل بعضهم بعضاً .

وكان ممن انشق على تاشفين فى تلك الفترة ، بنى ومانّو من بطون زناتة ، وقدّم أشياخهم طاعتهم إلى عبد المؤمن ، فبعثهم مع بعض قواته إلى بلادهم ، فأعلنوا طاعتهم جميعاً للموحدين . ولما علم تاشفين بخروج بنى ومانّو ، وجه إليهم عسكراً على رأسه الرّبرتير ، فسارع الموحدون إلى إنجادهم ، وتحصن بنى ومانّو ببعض التلال ، فصعد إليهم المرابطون ، يحاولون اقتحام مراكزهم ، ولكنهم ردوا المرابطين على أعقابهم . وعلى أثر ذلك سار جيش موحدى بقيادة ابن وانودين ، وابن زجّو ، وابن يومور ، إلى بلاد بنى عبد الواد وبنى يلومى وهم من أنصار المرابطين ، وعاث فى تلك المنطقة ، واستاق كثيراً من الغنائم ، ولكن فاجأته حين العودة قوة من المرابطين من زناتة واستولت على معسكر الغنائم ، وقتلت كل حراسة وهم من بنى ومانّو وعددهم ستمائة رجل ، وتحصن الموحدون بجبل هنالك ، وسار عسكر المرابطين إلى موضع يسمى منداس بلد بنى يلومى من بطون زناتة ، فاجتمع إليه بنى يلومى ، وعدة أخرى من البطون .

ولما علم عبد المؤمن بما حدث ، سار بقواته من أحواز تلمسان إلى أرض يلومى ، وكان الأمير تاشفين قد قدم فى نفس الوقت إلى تلمسان ، وحشد فيها

عسكراً ، وأرسله على عجل إلى محلة المرابطين فى منداس ، وكذلك انضم إليهم الرّبرتير فى قواته ، واجتمعت بذلك للمرابطين حشود ضخمة . فلما شعر عبد المؤمن بتفوق خصومه ، لجأ إلى خطة حربية جديدة مبتكرة ، هى خطة المربع الموحدى الذى اشتهر فيما بعد . وأضحى عماد خطط الدفاع الموحدية فى الميدان المكشوف . وقد وصف لنا ابن اليسع خلاصة هذه الخطة ، نقلا عن بعض الموحدين ، فيما يلى :

« أن تُصنع دارة مربعة فى البسيط يجعل فيها من جهاتها الأربع صف من الرجال بأيديهم القنا الطوال ، والطوارق المانعة ، ومن ورائهم أصحاب الدروق والحراب صفاً ثانيا ، ومن ورائهم أصحاب المخالى فيها الحجارة صفاً ثالثا ، ومن وراء هؤلاء الرماة صفاً رابعا . وفى وسط المربعة ، ترابط قوى الفرسان » . يقول ابن اليسع « فكانت خيل المرابطين إذا دفعت إليهم ، إلى الموحدين ، لاتجد إلا الرماح الطوال الشارعة ، والحراب والحجارة والسهام ياسرة . فحين ماتوا من الدفع وتدبر ، وأخرج خيل الموحدين من طرق تركوها ، وفرج أعدوها ، فتصيب من أصابت ، فإذا كرت عليهم دخلوا فى غاب القنا »[١] .

وهكذا فإنه حينما نشب القتال بين المرابطين والموحدين فى منداس ، ظهرت آثار الخطة الدفاعية الموحدية واضحة فى عجز المرابطين على تفوقهم فى العدد والعدة ، عن النيل من خصومهم . وبالعكس فقد أثخن الموحدون فى خصومهم ، وردوهم الكرة بعد الكرة بخسائر فادحة ، واستمر القتال على أشده ثلاثة أيام . وفى اليوم الرابع أحرز الموحدون على خصومهم نصراً باهراً ، واحتووا على محلتهم ، ومحلات حلفائهم من بنى بلومى وغيرهم ، واستولوا على غنائم فادحة ، تقدرها الرواية بثلاثين ألفاً من الغنم ، واثنى عشر ألفاً من البقر. بيد أنه حينما ارتد عبد المؤمن بغنائمه صوب الصخرتين من أحواز تلمسان ، اعترضه الربرتير فى قواته ، وهاجمه بشدة واسترد منه معظم الغنائم ، وقتل من كومية قبيلة عبد المؤمن نحو أربعمائة رجل . ثم سار فى قواته وغنائمه إلى تلمسان ، فانضم هناك إلى قوات الأمير تاشفين[٢] .

وفى خلال ذلك الصراع المرير الذى استغرق قوى المرابطين ، وصل إلى

---

(١) الحلل الموشية ص ٩٨ .

(٢) البيان المغرب (القسم الثالث نسخة تاجروت) (تطوان ١٩٦٣) ص ١٥ .

مياه سبتة أسطول نورمانى ضخم قوامه مائة وخمسون سفينة ، وأغار أولئك النورمان (المجوس) على سبتة ، محاولين اقتحامها ، فخرجت إليهم سفن المرابطين بقيادة أمير البحر ابن ميمون ، ووقعت بين الفريقين معركة بحرية عنيفة ، غرقت فيها من الجانبين سفن عديدة ، وقتل من الفريقين خلق كثير . وكان ذلك فى سنة ٥٣٨ هـ [(١)] . ودل ذلك الحادث على أن القوات البحرية المرابطية ، كانت ما تزال ، بالرغم مما حدث فى داخل المغرب ، يقظة ساهرة ، على حراسة الشواطئ والثغور المغربية المرابطية .

ووقع بعد ذلك بقليل حادث كان له فى مركز المرابطين أسوأ الأثر هو مصرع الرّبرتير قائد « الروم » . وتختلف الرواية فى شرح هذا الحادث وفى تفاصيله . ويقدم إلينا البيذق رواية خلاصتها ، أن عبد المؤمن وجه حشود جزولة لقتال الربرتير ، وكانوا بموضع يسمى « بكيرس » ، فسار الربرتير فى قواته للقائهم ، وكانت جزولة تحتمى وراء خندق ، فاستطاعوا أن يردوا الربرتير ، فولى عنهم مهزوماً ، وكتب إلى عبد المؤمن كتاباً يسدى فيه النصح ، ويقول إن جزولة ، قد غدروا بإخوانهم ، وهم بلاريب سوف يغدرون بك ، وعندئذ عمد عبد المؤمن إلى تجريدهم من خيلهم وسلاحهم ، ثم قتلهم جميعاً إلا الصبيان الصغار ، واستولى على غنائمهم . فلما علم الربرتير بذلك قرر أن يسير لمهاجمة الموحدين ، واستخلاص الغنائم منهم ، فلم يعترض تاشفين على رغبته ، ولكنه لم يسر معه ، والتقى الربرتير بالموحدين فى موضع يسمى « تاكوط آن تيفسرت » ونشبت بينه وبين الموحدين معركة عنيفة هلك فيها هو ومعظم جنده ، ولم يسلم من عسكره حسبما تحدثنا البيذق سوى ستة ، ثلاثة من الروم ، وثلاثة من المرابطين ، يذكر لنا البيذق أسماءهم . وكان ذلك فى سنة ٥٣٩ هـ (١١٤٤ م)[(٢)] .

ويذكر لنا ابن عذارى من جهة أخرى مصرع الربرتير فى جملة موجزة يقول فيها « فى سنة تسع وثلاثين خرج قائد الروم بعسكره ، ومعه عسكر لمتونة والحشم ، فهزمهم الموحدون ، وقتل القائد المذكور» . وهذا ما ورد فى الأوراق المخطوطة التى بين أيدينا من البيان المغرب . ولكن ابن عذارى يحاول فيما بعد ، أن ينقل تفاصيل مصرع الربرتير عن ابن صاحب الصلاة ، وذلك فى القسم

(١) البيان المغرب (الأوراق المخطوطة – هسبيرس ص ١٠٨) .
(٢) كتاب أخبار المهدى ابن تومرت ص ٩٦ .

الثالث من كتابه ، بيد أن ما نقله فى ذلك قد سقط من نسخة « تاجروت » وهى التى تغدو مرجعنا منذ الآن فصاعدا[١] .

ويقدم إلينا ابن خلدون عن مصرع الربرتير رواية ثالثة يقول فيها ، إن تاشفين بعث الربرتير فى عسكر ضخم فأغار على بنى سندم وزناتة الذين كانوا فى بسيطهم ، وعاد بالغنائم ، فاعترضه الموحدون ، ونشبت بين الفريقين معركة قتل فيها الربرتير وجنده[٢] .

ولما رأى الجند النصارى مصرع عميدهم ، ورأوا أنهم لا يستطيعون بعد أن يعملوا لتدعيم إمبراطورية أصبحت وشيكة الانهيار ، تفرقوا تباعاً ، وغادر الكثير منهم المغرب إلى اسبانيا ومعهم أسرهم وقساوستهم ، وساروا إلى طليطلة ملتجئين إلى حماية القيصر ألفونسو ريمونديس (ألفونسو السابع) ملك قشتالة ، فأحسن استقبالهم ، وأنزلهم بدياره ، وحمد لهم تمسكهم خلال الحوادث والخطوب بدينهم وولاءهم لمذهبهم[٣] .

وعلى أى حال فقد كان مصرع الربرتير وتبدد جنده ، ضربة جديدة أصابت الجيش المرابطى ، وكان تاشفين فى تلك الأثناء قد كتب إلى الأقطار يستدعى الحشود من كل ناحية ، فقدم إليه عسكر سجلماسة ، وعسكر بجاية بقيادة طاهر ابن كباب الصنهاجى من بنى حماد أصحاب إفريقية ، ووصل من الأندلس عسكر آخر بقيادة الأمير إبراهيم بن تاشفين ، وكان قد قدم إلى أبيه قبل ذلك على أثر موت جده على وزاره بجهة كراندة ، فبعثه والده إلى قرطبة لإتمام دراسته بها ، ثم استدعاه بعد ذلك فوصل فى عسكره إلى تلمسان فى أواخر سنة ٥٣٨هـ ، فولاه أبوه فى الحال عهده ، واجتمعت الجيوش المذكورة فى ظاهر تلمسان ، وميزوا ، وبرزوا فى نظام متقن وهيئة كاملة ، وعجب الناس من كثرتهم ، وحسن نظامهم ، وجمال هيئتهم ، بيد أنها كانت آخر حشود يحتفل بها المرابطون[٤] .

— ٥ —

ولما قتل الربرتير وبدد جيشه ، غادر الموحدون « تيفسرت » وساروا إلى

---

(١) راجع القسم الثالث من البيان المغرب (نسخة تاجروت) ص ١٦ .

(٢) كتاب العبر ج ٦ ص ٢٣١ .

(٣) Simonet : Hist. de los Mozárabes. p. 760 & 761

(٤) القسم الثالث من البيان المغرب (نسخة تاجروت) ص١٥ ، والحلل الموشية ص ٩٧و٩٨

شمالی غربی تلمسان ونزلوا « بالصخرتين » القريبة منها ، وكان تاشفين قد أقام محلته فى « سطفسيف» القريبة ، وكانت المعارك والمناوشات تنشب كل يوم تقريباً بين الفريقين ، واستمر ذلك مدى شهرين . ولما وصلت حشود الأقطار إلى تاشفين ، خرجت منها حشود بجاية ، واشتبكت مع الموحدين فى معركة عنيفة فى ظاهر « الصخرتين » ، فهزمت وقتل منها عدد جم ، وبعث قائدها سراً إلى عبد المؤمن ، يعده بالتوحيد ، وأنه متى افتتح المغرب ، فإنه إذا ورد المشرق وجده مفتوحاً كذلك .

وعندئذ أدرك تاشفين دقة مركزه ، فقرر أن يترك محلته فى تلمسان ، وغادرها فى قواته إلى وهران الواقعة على البحر فى شمالها الشرقى . وبعث ابنه وولى عهده إبراهيم إلى مراكش فى جماعة من أشياخ لمتونة ومعه كاتبه أحمد بن عطيه . وكان تاشفين قد ابتنى فى وهران حصناً منيعاً على البحر كى يحتمى به عندالحاجة ، ودبر مع قائد أسطوله محمد بن ميمون ، أن يوافيه إلى وهران بجناح من الأسطول فقدم ابن ميمون من ألمرية فى عدة من السفن ، وأرسى قريباً من المعسكر المرابطى ينتظر تطور الحوادث . وكان ذلك فى شهر شعبان سنة ٥٣٩ هـ (يناير ١١٤٥م) .

وكان المرابطون قبل أن يغادروا محلتهم فى سطفسيف إلى وهران قد دبروا كميناً لجيش موحدى يقوده ابن زجّو ، ففتكوا به وقتلوا ابن زجّو . فكان ذلك عاملا جديداً فى إذكاء سخط الموحدين . وماكاد المرابطون يتحركون نحو الشمال ، حتى سار فى أثرهم عبد المؤمن فى قواته ، وبعث فى مقدمته الشيخ أبا حفص عمر ابن يحيى الهنتانى (عمرإينتى) ، وحشود بنى ومانّو من زناتة ، فنفذوا إلى بلاد بنى يلومى ، وبنى عبد الواد ، وبنى ورسيفين ، وبنى توجين ، وكلهم من أنصار لمتونة ، وأثخنوا فيهم حتى أذعنوا إلى الطاعة ، وسار زعماؤهم إلى عبد المؤمن ، وقدموا طاعتهم إليه ، فتاقاهم بالقبول ، وضمهم إلى قواته[1] . وأشرف الموحدون على وهران ، وعسكروا فوق الجبل المطل عليها .

وكان كل شيء ينذر عندئذ بوقوع المعركة الحاسمة . وكان المرابطون يرقبون تحركات الموحدين فى وجوم وتوجس وقد غادر عدة من قوادهم المعسكر المرابطى وتركوا تاشفين لمصيره . وشعر الموحدون من جانبهم أن الفرصة المنشودة قد حلت ، ففى ذات صباح أطلقوا من فوق الجبال صيحتهم الحربية بصوت واحد

(١) البيان المغرب القسم الثالث (نسخة تاجمروت) ص ١٦ ، وكتاب العبر ج ٦ ص٢٢١ .

ارتجت له المحلة المرابطية ، وأمر تاشفين جنده بان يلزموا أماكنهم خيفة الكمين؛ وعند الظهر سار الموحدون إلى عين الماء التى يشرب منها أهل وهران ، فسقوا دوابهم دفعة واحدة ، ثم قاد الشيخ أبو حفص قواته ، واقتحم المحلة المرابطية ، حتى أشرف على مكان خباء تاشفين ، وكان موقعه بإزاء الحصن المطل على البحر ، فوقع الاضطراب فى المعسكر المرابطى ، وبادر تاشفين وخاصته ومنهم ابن مزدلى ، وبشير الرومى ، وصندل الفتى ، إلى الالتجاء إلى الحصن ، ووقع القتل بين المرابطين ، وجمع الموحدون الخشب ، وأضرموا النار حول الحصن ، وما كاد الظلام يرخى سدوله ، حتى كانت ألسنة اللهب قد تعالت ، فخشى تاشفين الهلاك ، وخرج من الحصن فوق فرسه « ريحانة » يطلب النجاة ويرجو أن تصل إليه بعض قطع أسطوله لتحمله إلى الأندلس ، وكان معه صحبه الثلاثة ، فسقط صندل فى النار واحترق ، واستطاع ابن مزدلى أن يجوز إلى أسوار المدينة ، ولكنه فقد رشده ومات بعد ثلاثة أيام . وسار تاشفين وبشير إلى مرتفعات الجبل ، فقيض لبشير النجاة . ولكن تاشفين ، ترددت به فرسه تحت جنح الظلام ، فسقطت فى هوة سحيقة فهلكت الفرس ، وهلك تاشفين . وفى الصباح عثر الموحدون على جثة تاشفين فى تلك الحافة فصلبوا الجثة ، واحتزوا رأسه ، وبعث بها عبد المؤمن إلى تينملل ، فعلقت فى الشجرة التى بإزاء مسجد المهدى. وكان مصرع تاشفين فى ليلة السابع والعشرين من رمضان سنة ٥٣٩ هـ (٢٢ فبراير ١١٤٥ م)[١] ، وذلك بعد أن قضى فى مدافعة الموحدين زهاء خمسة أعوام متوالية ، لم يأو فيها إلى مكان . ولم ينعم بهدنة ، ولم يتصل بأهل ولا ولد[٢] .

وقد أورد لنا ابن الأبار عن مصرع تاشفين رواية أخرى عن أبى على بن الأشيرى ، وقد كان داخل تلمسان حين نزل الموحدون على مقربة منها فى سنة ٥٣٩ هـ ، وكان تاشفين عندئذ فى ظاهرها فى محلاته وجموعه . وخلاصة هذه الرواية ، أن تاشفين بعد أن وجه ابنه إبراهيم ولى عهده إلى مراكش خوفاً عليه فى شعبان من تلك السنة ، وسير معه كاتبه أبو جعفر بن عطية ، سار إلى وهران ، ولجأ إلى حصن شرع فى بنيانه ، فقصده الموحدون ، وأضرموا النار حوله ،

---

(١) البيان المغرب ، القسم الثالث ص١٦و١٧ ، وأخبار المهدى ابن تومرت ص٩٨ ، والحلل الموشية ص ١٠٠ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٣١ ، وابن الخطيب فى الإحاطة (القاهرة ١٩٥٦) ج ١ ص ٤٦٢ .

(٢) ابن الأبار فى الحلة السيراء ص ١٩٨ .

فلما رأى ذلك ودع أصحابه ليلا ، واقتحم والنار محتدمة بباب الحصن ، فوُجد من الغد ميتاً لا أثر فيه لضربة ولا طعنة ، ويقال إن فرسه صرعه . وتتفق هذه الرواية مع الروايات الأخرى فى أن مصرع تاشفين وقع فى ليلة سبع وعشرين من شهر رمضان سنة **٥٣٩** هـ[١] .

وأورد لنا المراكشى رواية ثالثة خلاصتها أن تاشفين لما ذهب إلى تلمسان لم يرضه موقف أهلها ، فغادرها إلى وهران ، فحاصره الموحدون بها ، فلما اشتد عليه الحصار ، خرج راكباً فرساً شهباء وعليه سلاحه ، فاقتحم البحر حتى هلك ، ويقال إنهم أخرجوه من البحر وصلبوه ثم أحرقوه[٢] .

هذا ويصف لنا ابن الخطيب مصرع تاشفين بن على فى تلك العبارات الشعرية :

« واستقبل تاشفين مدافعة جيش أمير الموحدين ، أبى محمد عبد المؤمن بن على خليفة مهديهم ، ومقاومة أمر قضى الله ظهوره ، والدفاع عن ملك بلغ مداه وتمت أيامه ، كتاب الله عليه ، فالتأث سعده ، وفل جده ولم تقم له قائمة ، إلى أن هزم ، وتبدد عسكره ، ولجأ إلى وهران ، فأحاط به الجيش ، وأخذه الحصار ، قالوا فكان فى تدبيره أن يلحق ببعض السواحل ، وقد تقدم بوصول ابن ميمون قائد أسطوله ليرفعه إلى الأندلس ، فخرج ليلا فى نفر من خاصته فرقهم الليل ، وأضلهم الروع ، وبددتهم الأوعار ، فمنهم من قتل ، ومنهم من لحق بالقطائع البحرية ، وتردى بتاشفين فرسه من بعض الحافات ، ووجد ميتاً فى الغد ، وذلك ليلة سبع وعشرين لرمضان سنة تسع وثلاثين وخمسمائة ، وصلبه الموحدون ، واستولوا على الأمر بعده ، والبقاء لله تعالى »[٣] .

وعلى أثر مصرع تاشفين ، اقتحم الشيخ أبو حفص بقواته وهران ، وأثخن فى المرابطين حتى فنى معظمهم ، والتجأت منهم جماعة إلى الحصن ، فحاصرهم الموحدون وقطعوا عنهم الماء حتى أذعنوا إلى التسليم بعد ثلاثة أيام . ومع ذلك فقد قتلهم الموحدون جميعاً كباراً وصغاراً ، وكان ذلك فى يوم عيد الفطر من سنة **٥٣٩** هـ . وكانت مذابح وهران هذه ، من أفظع المظاهر التى تميزت بها سياسة الموحدين الدموية .

---

(١) ابن الأبار فى الحلة السيراء ص ١٩٧ و١٩٨ .

(٢) المعجب ص ١١٢ و ١١٣ .

(٣) الإحاطة فى أخبار غرناطة (القاهرة ١٩٥٦) ج ١ ص ٤٦١ و٤٦٢ .

ولما وصل خبر مصرع تاشفين إلى تلمسان ، مع فلّ لمتونة ، أسرع من كان بها وبضاحيتها القريبة تاجررت من لمتونة ، فغادروها هائمين على وجوههم يقصدون إلى فاس وغيرها من الأماكن التى مازالت تحت حكم المرابطين . وكان فى مقدمة من غادرها الأمير يحيى بن أبى بكر بن على المعروف بالصحراوى وهو ابن أخى تاشفين ، وكان قد وفد إليها قبل ذلك بقليل فى بعض قواته لإنجاد تاشفين . فلما وقعت الكارثة أسرع فى فلوله إلى فاس ، وامتنع بها ، وأخذ ينظم الدفاع عنها . ولم يبق بتلمسان سوى العامة وأهل الحضر ، وبادر جماعة من أعيانها فى نحو ستين رجلا إلى لقاء عبد المؤمن يلتمسون منه الأمان ، فلقيهم يصلاتن (يصلاصن) الزناتى فى قوة من الموحدين فى وادى تافنا القريب ، فقتلهم عن آخرهم ، وطار نبأ مصرعهم إلى تلمسان . فسرى إلى أهلها الرعب والروع ، وسادت بها الفوضى .

ودخل عبد المؤمن وجنده الموحدون تاجررت فى غداة عيد الفطر ، فقتلوا أهلها ، واقتسموا دورها . ثم غادروها إلى تلمسان . وكان يسودها الوجوم والفزع . فلما اقترب الموحدون منها خرج الأعيان والطلبة ، يسعون إلى لقاء عبد المؤمن والتماس العفو منه ، فأقبل يصلاتن وجنده وجردوهم من ثيابهم ، وقتلوا جماعة منهم ، تحت نظر الخليفة ، والشيخ أبى إبراهيم أحد الصحب العشرة ، ثم دخل عبد المؤمن المدينة ، وقتل الموحدون كثيراً من أهلها[1] . ويؤيد هذه الرواية ويعززها صاحب الحلل الموشية . فيقول لنا إن عبد المؤمن دخل تلمسان عنوة وقتل أهلها وسبى حريمها ، ودخل كل واحد من الموحدين من الموضع الذى يليه ، فأخذوا منها من الأموال ما لا يحصى ، وقد بلغ فيها عدد القتلى ، وفقاً لابن اليسع مائة ألف أو تزيد .

وفى رواية أخرى أن عبد المؤمن استباح أهل تاجررت وقتلهم لما كان معظمهم من حشم اللمتونيين ، وعفا عن أهل تلمسان . وفى رواية ثالثة أن عبد المؤمن لم يدخل تلمسان فوراً ، ولكنها امتنعت عليه ، واضطر إلى محاصرتها ، وأنه لبث وقتاً على حصارها ، وأخبار الفتوح والبيعات ترد عليه ، وأنه ترك على حصارها إبراهيم بن جامع وغادرها إلى فاس[2] . بيد أنه يبدو أن الرواية

(١) البيان المغرب ، القسم الثالث ص ١٨ ، والحلل الموشية ص ١٠١ .
(٢) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٣١ .

الأولى هى الرواية الراجحة ، وأنه ليس من المعقول أن تصمد تلمسان فى مثل هذه الظروف ، أمام جيش مظفر مثل جيش عبد المؤمن ، يندفع فى فتوحه كالسيل يحمل من يصادره . هذا ، وربما كان فيما يقول ابن صاحب الصلاة ، مؤرخ الموحدين ، ما يرفع هذا التناقض بين الروايتين ، فهو يقول لنا إنه لما استقر عبد المؤمن بتلمسان بعد استشهاد من استشهد ، امتنعت عليه قصبتها بمن فيها ، فوضع عليها الحصار ، ولما رحل إلى فاس ترك عسكراً ليتابع حصارها[1].

ومن ثم فقد لبث عبد المؤمن ، وفقاً للرواية الأولى فى تلمسان سبعة أشهر ، ليستريح وليرقب شئون الفتوح فى تلك المنطقة . ومن المعروف مما تقدم أن عبد المؤمن كان من أهل تاجرا (تاجررت) وبها كان مسقط رأسه ، وأن أمه تنتمى إلى قبيلة كومية ، وموطنها يقع فى نفس المنطقة جنوب تاجرا . وإذاً فقد كان من الطبيعى أن يتمهل عبد المؤمن قليلا فى تلك الربوع ، التى نشأ فيها وترعرع .. ولما تم تنظيم الشئون، ندب عبد المؤمن للولاية على تلمسان ، سليمان بن محمد بن وانودين الهنتاتى ، ثم غادرها فى قواته فى ربيع الثانى سنة ٥٤٠ هـ (أكتوبر ١١٤٥ م) ، قاصداً إلى مدينة فاس .

(١) أورده البيان المغرب ، القسم الثالث — ص ١٩ .

الفصل الخامس

نهاية الدولة المرابطية

فى المغرب

الدولة المرابطية فى طور الاحتضار . ولاية الأمير أبى إسحاق إبراهيم والخلاف حولها . مسير عبد المؤمن إلى وجدة ودخولها فى الطاعة . مسيره إلى أجرسيف واقتحامها . زحفه على فاس ونزوله بالمقرمدة . خروج المرابطين بقيادة الصحراوى ، واشتباكهم مع الموحدين . مسير عبد المؤمن إلى وادى سبو ونزوله فى عقبة البقر . احتلاله لجبل العرض . إرساله حملة لمحاصرة مكناسة . خروج المرابطين منها وفتكهم بالموحدين . مسير عبد المؤمن بنفسه إلى مكناسة . محاصرة الموحدين لفاس . قطعهم للنهر وإغراق مياهه للوادى . اتصال الجيانى المشرف على المدينة بالموحدين . غدره بالصحراوى وفتحه باب المدينة . دخول الموحدين فاس وفرار الصحراوى . قدوم عبد المؤمن من مكناسة ودخوله فاس . قتله لأشياخ المرابطين وهدمه لأسوار المدينة . مسيره إلى مكناسة ثم إلى سلا . سقوط مكناسة فى أيدى الموحدين . مسير عبد المؤمن إلى وادى أم الربيع وخضوع صنهاجة ودكالة . وفود ابن ميمون قائد الأسطول المرابطى ودخوله فى الطاعة . وفود رسل أهل سبتة . مسير عبد المؤمن فى قواته إلى مراكش . نزوله فوق جبل إيجليز . محاصرة الموحدين لمراكش . حالة المرابطين داخل المدينة . خروجهم لقتال الموحدين . هزيمة المرابطين وارتدادهم إلى الداخل . وفود أشياخ القبائل على عبد المؤمن . وفود الأندلس إليه . توحيد إسحاق بن ينتان . امتداد الحصار وصمود المدينة . استعمال الموحدين للسلالم واقتحامهم الأسوار . دخول الموحدين مراكش ومقاومة أهلها اليائسة . اقتحام القصبة والقبض على الأمير إبراهيم وآله وخاصته . استباحة الموحدين لمراكش ، وقتلهم الذريع لأهلها . مقتل إبراهيم بن تاشفين وأمراء وأشياخ لمتونة . دخول عبد المؤمن المدينة ثم عوده إلى محلته . منع الدخول والخروج من المدينة . اعتبارها مدينة رجسة وتطهيرها وهدم جوامعها . جمع السبى والأسلاب ، وصف مراكش فى هذا العهد . دخول الموحدين قصبة تلمسان . وفود وفد إشبيلية على عبد المؤمن .

— ١ —

لم يكن ثمة شك ، بعد أن انهار سلطان المرابطين ، فى المغرب الأوسط ، وفى المغرب الشمالى ، على هذا النحو الخارف ، وبسط الموحدون الظافرون سلطانهم ، على سائر القواعد الجنوبية ، فيما خلا مراكش ، وسائر الثغور الشمالية ، فيما خلا الركن الشمالى الغربى — لم يكن ثمة شك فى أن الدولة المرابطية ، كانت تسير إلى نهايتها المحتومة بسرعة مذهلة .

وكان تبدد قوى الدولة المرابطية ، واستنفاد مواردها ، خلال هذه المعركة

الطويلة التى استمرت منذ قيام محمد بن تومرت المهدى ، زهاء عشرين عاما ، وتوالى الهزائم على الجيوش المرابطية ، معركة بعد أخرى ، وتمزق صفوفها ، وفناء عديدها . وهبوط روحها المعنوى ، من جراء هذا الإدبار المستمر — كان ذلك كله مما يؤذن بأنه مهما كانت المقاومة المريرة اليائسة ، التى يمكن أن تبذل فى المرحلة الأخيرة ، من ذلك الصراع الرهيب ، فإنها لن تغنى شيئاً ، ولن تحول دون وقوع الكارثة المرتقبة ، التى أخذت طوالعها تبدو قوية فى الأفق ، ولاسيما بعد مصرع الأمير تاشفين بن على ، وتبدد جيوشه الضخمة على هـذا النحو الشامل .

والواقع أن الدولة المرابطية لم تعد بعد هذه الضربة القاضية ، سوى شبح هزيل . ففى مراكش . كان يمثل الفصل الأخير من مأساة الدولة المحتضرة ، وذلك حينما بويع فى مراكش ، على أثر مصرع تاشفين ، لولده الأمير أبى إسحاق إبراهيم ، وكان أبوه قد ولاه ولاية عهده ، منذ وفوده عليه فى تلمسان فى أواخر سنة ٥٣٨ هـ حسبما تقدم ، ثم وجهه إلى مراكش ، وذلك قبيل وفاته بنحو شهر . على أن هذه البيعة التى تمت فى أدق الظروف التى كانت تواجهها الدولة المرابطية ، لم تقع دون خلاف . فإن إسحاق بن على عم الأمير إبراهيم ، خرج عليه ودعا لنفسه بالإمارة ، ووقع الجدل والتطاحن بين الفريقين داخل العاصمة المرابطية . وكان الموحدون فى ذلك الوقت نفسه يقتربون من فاس ، والوفود والحشود ، تترى من كل صوب على عاهلهم عبد المؤمن ، فتزيد جموعه ، وتعزز قواه . ويصف لنا البيذق ، مؤرخ الحملة ومرافقها ، مسير عبد المؤمن ، فيقول لنا إنه نزل على وجدات (وجدة) فأخذها ، ووحد أهلها[1] . هذا فى حين أن صاحب البيان المغرب يذكر لنا أن الموحدين استولوا على وجدة قبل ذلك بعامين (٥٣٨ هـ)[2] . وسار عبد المؤمن بعد ذلك إلى أجرسيف ، وهى تقع فى منتصف المسافة بين تلمسان وفاس ، فنزل عليها ، ولقى الموحدون بعض المقاومة من بعض زعماء تلك الناحية ، فجرد عليهم عبد المؤمن بعض قواته ، فمزقت جموعهم وقتلتهم ، ودخل أجرسيف ، ثم غادرها إلى فاس ، ونزل بالمقرمدة التى تقع على مقربة من جنوب شرقى فاس ، وكان يحيى بن أبى بكر الصحراوى ، قد قدم

---

(١) أخبار المهدى ابن تومرت ص ٩٨ .

(٢) البيان المغرب فى الأوراق المخطوطة السالفة الذكر (هسبيرس ص ١٠٨) .

إليها فى جموعه من تلمسان كما تقدم ، وأخذ ينظم خطط الدفاع عنها . وكان عبد المؤمن يتوق إلى الوقوف على مدى استعداد المدينة للدفاع ، ومبلغ القوى المدافعة عنها . ذلك أنه بالرغم من وفرة جموعه التى تتألف حسبما تقول الرواية ، من ثمانين ساقة على عدد القبائل والوفود ، كان يريد التحوط للمفاجآت ، ويرمى إلى الاستيلاء على فاس ، بأقل التضحيات الممكنة . فبعث ألفاً من المشاه نصفهم من صنهاجة ، والنصف الآخر من هسكورة ، بقيادة أبى بكر بن الجبر ، فعبر بهم نهر سبو ، وصعد إلى جبل زالاغ الذى يشرف على فاس من الشمال ، وأوقد الموحدون النيران ليلا فوق الجبل ، فلما رأى أهل فاس نيران الموحدين على مقربة من مدينتهم ، اضطربوا وماجوا ، وخرج الصحراوى فى قواته لقتال الموحدين ، وفى صباح الغد نشب القتال بين الفريقين ، وقدر الموحدون قوة أعدائهم بنحو ألف وخمسمائة ، ما بين لمتونة وأهل فاس . وفى العصر ارتد الصحراوى بقواته إلى داخل المدينة .

وفى الليلة التالية ، عاد الموحدون إلى إيقاد النيران ، ولكن الصحراوى لم يخرج إلى القتال فى تلك المرة . وفى صباح اليوم التالى ، سار عبد المؤمن فى قواته إلى وادى نهر سبو ، ونزل فى موضع يسمى « عقبة البقر » فملأت حشوده السهل والوعر ، هذا والصحراوى وأهل فاس ، يشهدون هذه الجموع الجرارة من فوق الأسوار ، فيملأهم منظرها رهبة وروعاً . وفى اليوم التالى ، تحرك عبد المؤمن فى قسم منتخب من جيشه ، إلى موضع يعرف « بمنزل الحاج » وخرج الصحراوى فى خيله إلى جبل العرض ، الواقع فى شمال غربى المدينة ، يفصله عن الموحدين واد يسمى « بسد رواغ » . ولم يقع فى ذلك اليوم قتال بين الفريقين . وارتد الموحدون إلى السهل الشاسع ، وبقى عبد المؤمن فى « منزل الحاج » على قدم الأهبة ، فى ثلاثة آلاف وخمسمائة من رجاله . وارتد الصحراوى بخيله ثانية إلى المدينة .

وفى صباح اليوم التالى ، غادر عبد المؤمن فى قواته السهل ، واحتل جبل العرض ، مشرفاً منه على المدينة . وقطع الموحدون الأشجار ، وعملوا منها حول محلتهم حاجزاً من الخشب ، ثم بنوا حائطاً من وراء الحاجز حماية لأنفسهم ، ولدوابهم ، واستعدوا لحصار طويل . وبعث عبد المؤمن قسما من جيشه لمحاصرة مكناسة ، الواقعة على قيد ستين كيلومترا غربى فاس ، وكان فى مكناسة نحو

ثلاثة آلاف فارس من قوى لمتونة من الحشم والروم وغيرهم ، هذا عدا من انضم إليهم من رجال القبائل القريبة الموالية . فخرجت هذه القوة من مكناسة بقيادة يدّر بن ولجوط اللمتونى واستطاعت أن ترد الموحدين ، وأن تثخن فيهم ، وتفنى معظمهم ، فعول عبد المؤمن عندئذ أن يسير بنفسه إلى مكناسة ، وخرج ليلا فى قسم منتخب من جيشه ، وعهد بحصار فاس إلى أبى بكر بن الجبر ، وأبى إبراهيم ، وأبى حفص عمر بن يحيى الهنتاتى . ولما وصل إلى مكناسة ، ضرب حولها الحصار المرهق ، ولبث ينتظر الحوادث .

واستمر حصار الموحدين لفاس زهاء سبعة أشهر أوتسعة حسبما يروى البيذق[1] ، وفى داخلها يحيى بن أبى بكر بن على الصحراوى فى قواته ، ومعه أهل فاس صامدون وراء الأسوار ، يخرجون إلى قتال الموحدين من آن لآخر ، ثم يعتصمون بمدينتهم . وأخيراً لجأ الموحدون إلى عملية استراتيجية بارعة . ذلك أنهم قطعوا مجرى النهر الذى يدخل إلى المدينة ، وأقاموا عليه سدا منيعاً من الحطب والخشب والتراب ، فسألت مياه النهر فى الوادى ، وتعالت حتى صارت بحراً تتلاطم أمواجه ، وانهارت بعض أقسام السور من ضغط الماء المتزايد ، وسقط معها باب السلسلة[2] . فبادر الصحراوى وجموعه إلى إصلاح ما تهدم من السور ، واجتمع المدافعون فوق الأسوار ، ونشبت بينهم وبين الموحدين معارك عديدة .

وقد كان حرياً أن يطول حصار فاس ، لولا أن عجل بنهايته ماحدث داخل المدينة ذاتها . ذلك أنه حدث بين يحيى بن على ، وبين أبى محمد عبد الله بن خيّار الجيانى المشرف على المدينة ، خلاف من جراء اشتداد يحيى فى مطالبة الجيانى بالأموال ، بطريقة أرهقته ، وحملته على أن يتصل سراً بقائد الموحدين أبى بكر ابن الجبر ، وأن يعده بفتح أبواب المدينة ، وكانت لديه مفاتيحها . وساعدت الظروف الجيانى على تحقيق مشروعه . ذلك أن يحيى الصحراوى ، أعرس بامرأة من قومه . فبعث إليه الجيانى بهدايا جليلة من الطعام والشراب ، وشغل الصحراوى فى تلك الليلة بعرسه وطعامه وشرابه[3] . وفى صباح اليوم التالى ، أوفى الجيانى

---

(١) أخبار المهدى ابن تومرت صفحة ١٠٢ .

(٢) روض القرطاس صفحة ١٢٣ .

(٣) الحلة السيراء فى القسم الذى نشره المستشرق ميللر ، ضمن مجموعة بعنوان : (Beiträge zur Geschichte des Westlichen Araber) ص ٣١٥ — ٣١٨ .

بوعده ، وفتح « باب الفتوح » ، فتدفق منه الموحدون إلى داخل المدينة ، وخرج الجيانى فانضم إليهم . ولما شعر الصحراوى بوقوع الكارثة ، بادر بالفرار مع نفر من صحبه ، واخترق الوادى دون أن يلوى على شىء ، حتى وصل إلى طنجة . وكان دخول الموحدين مدينة فاس ، حسبما يروى ابن صاحب الصلاة ، فى صباح اليوم الثانى عشر من شهر ذى القعدة سنة ٥٤٠ هـ (٢٦ أبريل سنة ١١٤٦ م)[١] .

وظاهر مما يرويه البيذق وابن عذارى ، أن عبد المؤمن لم يكن حاضراً ، وقت دخول الموحدين فاس ، وأنه كان عندئذ على حصار مكناسة[٢] ، وهذا ما يقرره ابن صاحب الصلاة وابن خلدون بطريقة واضحة[٣] . ولكن صاحب الحلل الموشية من جهة أخرى ، يذكر أن الجيانى اتصل بعبد المؤمن ذاته ، وأدخله المدينة من باب الفتوح[٤]. بيد أنه من الواضح أن الرواية الأولى ، وهى التى يؤيدها البيذق مرافق الحملة ، وابن صاحب الصلاة مؤرخ الموحدين ، هى الرواية الراجحة . ولما علم عبد المؤمن ، وهو بمكناسة ، بسقوط فاس ، قدم إليها بسرعة ودخلها ، وولى عليها أبا إسحاق بن جامع[٥] ومشرفها الجيانى ، وأمر بقتل كل من قبض عليهم من أشياخ المرابطين ، إلا عمر بن ينتان وزير على ابن يوسف السابق ، وهو الذى تعرض لحماية المهدى ابن تومرت ، وصرف على ابن يوسف عن إيذائه ، حسبما تقدم فى موضعه ، وكان المهدى نفسه قد نهى عن قتله وقتل ذريته ، فاكتفى عبد المؤمن باعتقاله[٦] .

وأمر عبد المؤمن بهدم أسوار فاس ، فهدم معظمها ، وصرح عبد المؤمن بأن الموحدين لا يحتاجون إلى أسوار ، وإنما الأسوار هى سيوفهم ، وبقيت فاس بلا أسوار عصراً ، حتى قام بتشييدها من جديد ، حفيده الخليفة

---

(١) البيان المغرب ، القسم الثالث ، صفحة ٢٠ .

(٢) أخبار المهدى ابن تومرت ص ١٠١ ؛ والبيان المغرب (القسم الثالث) ص ١٩ .

(٣) البيان المغرب عن ابن صاحب الصلاة ، القسم الثالث ، ص ٢٠ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٣٢ .

(٤) الحلل الموشية ص ١٠١ .

(٥) هذا ما ورد فى البيان (القسم الثالث ص ٢٠) ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٣٢ . ولكن البيذق يذكر لنا أن الذى ولى على فاس ، هو أبو عبد الله محمد بن يحيى الكدميوى (أخبار المهدى ابن تومرت ص ١٠٢) .

(٦) أخبار المهدى ابن تومرت ص ١٠٢ .

يعقوب المنصور ، ثم ولده الناصر ، وذلك فى سنة ٦٠٠ هـ (١٢٠٣ م)[١] .

ولم يمكث عبد المؤمن فى فاس سوى أربعة أيام قام فيها بتنظيم شئون المدينة المفتوحة ، ثم غادرها فى جموع الموحدين إلى مكناسة ، وهنالك عهد بمتابعة حصارها لقائده أبى زكريا بن يومور . ثم غادرها إلى سلا . وضيق الموحدون على مكناسة ، وبنوا حولها سوراً ، وحفروا أمامه خندقاً ، وتركوا فيهما ثغرات لمهاجمة المدينة ، ومقاتلة المدافعين عنها ، فلم تلبث أن سقطت فى أيديهم . وعين عبد المؤمن ابن يومور والياً لها . ويبدو من رواية البيذق أن عبد المؤمن حضر سقوط مكناسة . ثم يقول لنا إنه غادرها إلى تادلا ، وهنالك ميز جنوده ، وانضمت إليه هسكورة وصنهاجة ، ثم سار فى قواته إلى وادى أم الربيع ، واخترقه شرقاً حتى ثغر أزمّور ، وهنالك حملت إليه صنهاجة المؤن ، واستدعى أشياخ دُكّالة جيرانهم فى الجنوب ، فوفدوا عليهم وأعلنوا خضوعهم الأول . ثم هبط بعد ذلك إلى مراكش[٢] .

هكذا يصف لنا البيذق مسير عبد المؤمن إلى مراكش . ولكن سائر الروايات الأخرى تجمع على أن عبد المؤمن ، حينما غادر مكناسة ، سار منها أولا إلى سلا ، وافتتحها بعد مقاومة قصيرة ، وذلك فى اليوم السابع من شهر ذى الحجة سنة ٥٤٠ هـ . واستولى كذلك على قصبة الرِّباط التى كان قد بناها الأمير تاشفين ، وعين والياً لسلا عبد الواحد الشرقى ، وبعد أن مكث بها أربعة أيام غادرها إلى مراكش[٣] .

وكان عبد المؤمن حين وجوده تحت أسوار فاس (سنة ٥٤٠ هـ) ، قد وفد عليه قائد الأسطول الأندلسى المرابطى على بن عيسى بن ميمون ، وقدم طاعته ، ثم عاد إلى الأندلس ، وأقام الخطبة للموحدين بجامع قادس ، وهى مركز قيادة الأسطول فى تلك المنطقة . ثم وفدت على عبد المؤمن خلال مسيره إلى سلا ، رسل أهل سبتة يحملون إليه بيعتهم . فتقبلها منهم ، وندب للولاية على سبتة يوسف بن مخلوف التينمللى من مشيخة هنتاته[٤] .

---

(١) روض القرطاس ص ١٣٣ .

(٢) أخبار المهدى ابن تومرت ص ١٠٢ .

(٣) الحلل الموشية ص ١٠٢ ، والبيان المغرب القسم الثالث ص ٢٠ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٣ .

(٤) البيان المغرب القسم الثالث ص ٢١ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٣٢ .

وكان عبد المؤمن قد بعث فى نفس الوقت قبل مسيره إلى مراكش حملة بقيادة أبى حفص عمر بن يحيى الهنتاتى لغزو قبائل برغواطة ، النازلة على الشاطئ شمالى أزمور وجنوبها ، فاقتحم ديارهم ، واستاق غنائمهم ، ثم ارتد أدراجه ، فالتقى بعبد المؤمن ، وهو فى طريقه إلى مراكش ، فقسم الغنائم على الموحدين ، ثم تابع سيره إلى العاصمة المرابطية .

ولما وصل جيش الموحدين إلى ظاهر مراكش ، خرج إليه جمع كبير من طلائع لمتونة ، فلما رأوا كثرة الموحدين ، سرى إليهم الرعب وبادروا إلى الفرار نحو أسوار المدينة ، فأدركهم الموحدون وقتلوا عدداً كبيراً منهم . وعلم عبدالمؤمن كذلك أن قوات كبيرة من قبيلة لمطة ، قد وفدت على المدينة نصرة للمدافعين عنها ، فطاردهم الموحدون ، وأثخنوا فيهم ، وانتزعوا منهم آلافاً من الدواب وغيرها من الغنائم[١] .

— ٢ —

وكان نزول الموحدين على مراكش فى فاتحة شهر المحرم سنة ٥٤١هـ (١٣ يونيه سنة١١٤٦م). وفى الحال احتل عبدالمؤمن بقواته جبل إيجليز الواقع غربها ، وضرب فوقه قبته الحمراء ، وبنى الموحدون حولها محلة أومدينة كبيرة يتوسطها مسجد وصومعة عالية ، تشرف على مراكش ، ونزلت فيها القبائل ، كل قبيلة فى الموضع الذى حدد لها[٢] . وكان إقامة هذه المدينة دليلا على ماكان يتوقعه الموحدون من طول المدافعة والحصار .

وضرب الموحدون الحصار حول العاصمة المرابطية . وكانت مراكش تموج بجموع المدافعين عنها ، من بقايا الجيوش المرابطية الكبرى ، من مختلف الحشود والقبائل . وكان منهم قوة من النصارى المرتزقة ، هى بقية الحرس الملكى القديم . بيد أن هذه الجموع الحاشدة ، كانت تنقصها القيادة الحازمة ، وكانت تعانى من هبوط قواها المعنوية ، وكان على عرش مراكش فى تلك الآونة الدقيقة ، صبى حدث لم يجاوز السادسة عشرة من عمره ، هو أبو إسحاق إبراهيم بن تاشفين بن على . وكان يقود هذه المعركة الأخيرة نفر من أشياخ لمتونة ، مثل سير بن الحاج ،

(١) البيان المغرب القسم الثالث ص ٢١ و٢٢ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٣٢ .
(٢) الحلل الموشية ص ١٠٢ .

وإسحاق بن ينتان ، ومحمد بن حواء ، ومحمد بن يانجالا وغيرهم ، وكان الشعور عاماً بأن مصير الدولة المرابطية أضحى أمراً مقضياً ، وأنها لم تكن سوى معركة يأس ، تمليها غريزة الاحتفاظ بالنفس ، والتعلق بأوهى الاحتمالات والآمال .

وهكذا فإن الموحدين ، ماكادت تستقر حشودهم حول العاصمة المرابطية ، حتى اعتزم المرابطون أن يخرجوا لقتالهم . وخرجت قوة مراطية قوامها نحو خمسة آلاف وخمسمائة فارس ، وحشود لا تحصى من المشاة ، يقودها إسحاق ابن ينتان ، ومحمد بن حواء ، ومحمد بن يانجالا ، وسارت إلى محلة الموحدين . ويقول لنا البيذق إن القتال الذى نشب بين الفريقين ، استمر أربعة أيام . وفى اليوم الخامس ، رتب عبد المؤمن من جنده عدداً من الكمائن المستورة ، وخرج المرابطون إلى القتال كالعادة ، فلقيهم الموحدون فى حشود قليلة ، واغتر المرابطون بتفوقهم ، بيد أنه ماكاد يتعالى النهار ، حتى خرجت الكمائن الموحدية من أماكنها ، وحملت على المرابطين بشدة ، فانهزموا فى الحال ، وارتدوا على أعقابهم نحو الأسوار ، والقتل مثخن فيهم ، حتى وصلوا إلى باب دُكّالة ، أو باب الشريعة على قول البيذق ، فقتل منهم عدد جم ، واستولى الموحدون على نحو ثلاثة آلاف من خيلهم وامتنعت فلولهم بداخل المدينة[١] .

وفى خلال ذلك كانت الوفود والحشود ، تترى على جيش عبد المؤمن ، ويفد عليه أشياخ القبائل وزعماؤها موحدين معلنين لطاعتهم . وكان ممن وفد عليه فى تلك الفترة بعض زعماء الأندلس الثائرين على سلطان المرابطين ، مثل أبى الغمر بن غرون الثائر بشريش ، وابن حمْدين الثائر بقرطبة . وأرسل عدد آخر من زعماء الأندلس الذين شعروا بانهيار سلطان المرابطين ، كذلك رسلهم إلى عبد المؤمن[٢] . ولم تقع بعد هزيمة المرابطين الكبيرة فى ظاهر باب دُكّالة ، بين الفريقين معارك ذات شأن ، اللهم إلا ما يقصه علينا البيذق ، من خروج ابن ينتان لقتال الموحدين من آن لآخر . ثم ما وقع بعد ذلك من إرسال الموحدين زعيم بنى ينتان الذى كان قد « وحّد » إليه أعنى إلى إسحاق بن ينتان ، وتقدم إسحاق بطاعته وتوحيده ، وخروجه من المدينة مع أنصاره ، وانضمامه إلى الموحدين[٣] .

---

(١) أخبار المهدى ابن تومرت ص ١٠٢ و١٠٣ ، والبيان المغرب (عن ابن صاحب الصلاة) القسم الثالث ص ٢٢ ، والحلل الموشية ص ١٠٣ .

(٢) البيان المغرب القسم الثالث ص ٢٢ .

(٣) أخبار المهدى ابن تومرت ص ١٠٣

واستطال حصار مراكش أكثر من تسعة أشهر ، وشدد الموحدون فى تطويق المدينة ، وقطع علائقها مع الخارج ، حتى أضحى من المتعذر ، أن يدخلها داخل أو يخرج منها خارج . كل ذلك والمدينة صامدة فى وجوه المحاصرين . والظاهر أن الموحدين لم يقوموا خلال تلك الفترة بهجمات شديدة على المدينة ، وأنهم كانوا يكتفون بالمحاولات الجزئية . والظاهر أيضاً أنه لم تنجح كذلك ، أية محاولة من هذه المحاولات ، فى اقتحام أية ناحية من المدينة ، أو ثلم أية ناحية من الأسوار . وفى خلال ذلك كان أهل المدينة يعانون ويلات الحصار ، وتنضب الموارد والمؤن تباعا ، حتى نفدت الحبوب والمواد الغذائية ، وفنيت الدواب ، وخلت المخازن السلطانية من مخزونها ، وتساقطت الألوف العديدة من الجوع . وتقدر الرواية عدد من هلك جوعاً من أهل مراكش فى تلك المحنة بنيف ومائة وعشرين ألفاً ، وعجز الجند عن الحركة والدفاع ، وأضحت النهاية المحتومة على الأبواب . ولما شعر عبد المؤمن بأن الضيق بلغ ذروته بالمحصورين ، وأن المدينة أصبحت عاجزة عن كل دفاع ، اعتزم أن يضرب الضربة الأخيرة . وكان قد مضى على الحصار عندئذ تسعة أشهر وثمانية عشر يوما . وتختلف الرواية فيما اقترن بتلك الخطوة الأخيرة . ويقول لنا البيذق وهو من شهود الحصار ، إن الخليفة أمر باستعمال السلالم لصعود الأسوار ، وقسمها على القبائل ، وأن الموحدين دخلوا المدينة على أثر ذلك . بيد أن صاحب الحلل الموشية يقدم لنا عن ابن اليسع الذى عاش قريباً من العصر ، رواية أخرى مفادها ، أن جيش الروم أو النصارى المرتزقة الذين كانوا داخل المدينة ، اتصلوا بعبد المؤمن واستأمنوه ، فمنحهم الأمان ، واتفقوا معه على أن يُدخلوه المدينة من «باب أغمات» الواقع فى جنوبها الشرقى ، وعندئذ أمر عبد المؤمن بعمل السلالم . وفى يوم السبت الثامن عشر من شوال سنة ٥٤١ هـ (٢٤ مارس ١١٤٧م) دفع الموحدون السلالم إلى الأسوار ، وخُصت القبائل كل قبيلة بباب معين ، وأقبل أهل مراكش يبذلون آخر محاولة للدفاع . وكانت بالطبع محاولة يائسة . فاقتحم الموحدون المدينة ، ودخلوها من كل صوب ، فدخلت هنتاتة ، وأهل تينملل من باب دُكّالة ، فى شمالها الغربى ، ودخلت صنهاجة وعبيد المخزن من باب الدباغين فى شرقها ، ودخلت هسكورة مع القبائل الأخرى من باب يينتان . ولم يأت الظهر حتى استولى الموحدون على مراكش . ولجأ الأمير إبراهيم ابن تاشفين وجماعة من الخاصة والأعيان ، إلى القصبة الداخلية المعروفة « بقصر

الحجر» وهى قلعة منيعة ، فاستمر القتال حتى الزوال ، وكثر القتل فى المدافعين وأهل المدينة ، واقتحم الموحدون القصبة ، وقبضوا على الأمير إبراهيم ومن معه من الأمراء والكبراء ، والأهل والولد ، وأخذوهم إلى محلة عبد المؤمن ، فوق تل إيجليز ، لتقرير مصيرهم[1] .

وهكذا اقتحم الموحدون مراكش ، ودخلوها بالسيف على النحو الذى تصفه لنا الرواية المعاصرة . ويضيف مؤرخ معاصر آخر هو ابن الأشيرى إلى ذلك قوله ، إن أهل مراكش بعد هزيمة باب دكالة ، أيقنوا بالهلاك ، وأن المحلة الموحدية انتقلت إلى دار الفتح وسط البحيرة (أى البستان) ، فى صدر شوال سنة ٥٤١هـ ، فلم تزل هناك ، وأمر المدينة فى كل يوم يزداد ضعفاً ، وأحوالها ترق ، إلى أن كان يوم السبت السابع عشر من شوال ، ففتحت مراكش ودخلها الموحدون[2] .

بيد أن ابن خلدون يقدم إلينا رواية أخرى خلاصتها ، أنه لما أجهد الحصار أهل مراكش ، وفتك بهم الجوع ، برزوا إلى قتال الموحدين ، فوقعت عليهم الهزيمة ، وتتبعهم الموحدون بالقتل ، واقتحموا عليهم المدينة . ومعنى ذلك أن مراكش سقطت على أثر معركة ، نشبت خارج الأسوار ، بين المرابطين والموحدين[3] .

ويبدو من مختلف التفاصيل ، أن مراكش لم تسقط فى أيدى الموحدين إلا بعد دفاع مرير ، بذل فيه المرابطون وأهل المدينة جهوداً رائعة ، بالرغم مما كان يحيط بهم من الظروف الأليمة ، وقتل فيه من المرابطين والمدنيين ، حسبما يقول لنا ابن اليسع نيف وسبعون ألف رجل[4] . ومن المواقف الرائعة الجديرة بالإعجاب ، ما يقصه علينا البيذق من أن فانّو بنت عمر بن ينتان ، وهى فتاة بارعة الحسن ، وافرة الجرأة ، كانت تقاتل الموحدين أمام القصر (القصبة) فى ثياب فارس . وكان الموحدون ، حسبما يقص علينا البيذق يتعجبون من قتالها ، ومن شدة ما أعطاها الله من الشجاعة ، ولم يعرفها الموحدون حتى قتلت وتبين أنها امرأة فى ثياب رجل[5] .

---

(١) كتاب أخبار المهدى ابن تومرت ص ١٠٣ ، والبيان المغرب القسم الثالث ص ٣٣ ، والحلل الموشية ص ١٠٣ و ١٠٤ . وراجع خريطة مراكش السابق نشرها فى ص ١٨٧ .

(٢) البيان المغرب القسم الثالث ص ٢٣و٢٤ .

(٣) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٣٢ .

(٤) الحلل الموشية ص ١٠٤ .

(٥) أخبار المهدى ابن تومرت ص ١٠٣ .

ولم يكتف الموحدون ، بما أوقعوا من الفتك الذريع بالمرابطين وأهل المدينة ، ولكنهم أعلنوا استباحة مراكش فيما يصفه ابن الخطيب « بالمحنة العظمى » . وذلك أنهم قرروا استباحة دماء كل من اشتملت عليه من الذكور البالغين . واستمر بها القتل الذريع ثلاثة أيام أخرى ، ولم ينج من أهلها إلا من استطاع الاختفاء فى سرب أو غيره . وطورد اللمتونيون بالأخص أشد مطاردة ، واستئصلوا أينما وجدوا . ثم أعلن عبد المؤمن بعد ذلك عفوه عن أهل المدينة المفتوحة . قال ابن الخطيب « فظهر من جميع الخلق بها ، ما يناهز السبعين رجلا ، وبيعوا بيع أسارى المشركين ، هم وذراريهم ، وعفى عنهم»[1] . وقال صاحب البيان المغرب ، إن مراكش أبيحت لقتل من وجد فيها من اللمتونيين مدى ثلاثة أيام ، ثم عفا عنهم عبد المؤمن ، واشتراهم من الموحدين ، وأعتقهم وأطلقهم . واستولى عبد المؤمن على ذخائر تاشفين وجميع أمراء لمتونة ، مما لا يحيط به حصر ولا وصف ولا بيان .

ولم يكن مصير الأمير الصبى إبراهيم آخر ملوك الدولة المرابطية ، وزملائه من أشياخ لمتونة ، بأقل روعة . ذلك أنهم اقتيدوا حسبما قدمنا ، إلى قبة عبد المؤمن فوق تل إيجليز . وكان إبراهيم قد قبض عليه مع الآخرين فى القصبة . وقيل إنه وجد مختفياً فى إحدى غرف القصر فى كومة من الفحم[2] . فلما أخذ إلى عبد المؤمن ، أشفق عليه ورثا لمحنته وصغر سنه ، ومال إلى العفو عنه والإبقاء عليه . ويقص علينا البيذق وهو شاهد عيان ، أن الأمير الفتى كان يتضرع إلى عبد المؤمن ، ويقول له يا أمير المؤمنين مالى فى الرأى شىء ، فيقول له وصيفه طلحة « أصمت عنا ، هل رأيت ملكاً يتضرع لملك مثله » . وفى رواية أخرى أن سير بن الحاج أحد أشياخ المرابطين ، لما رأى تضرع إبراهيم لعبد المؤمن ، تفل فى وجهه وقال له « أترغب إلى أبيك ومشفق عليك ، اصبر صبر الرجال » . وعلى أى حال فقد تأثر عبد المؤمن لضراعة الأمير الفتى ، وقال لأبى الحسن بن واجّاج (وهو من أهل خمسين) ، وكان قد قتل بيده عدة من أمراء وأشياخ لمتونة عقب إحضارهم إلى تل إيجليز « أترك هؤلاء الصبيان ، ما الذى تعمل بهم » ، فصاح به أبو الحسن « ارتد علينا عبد المؤمن ، يريد أن يربى علينا فراخ السبوعة » ، فغضب الخليفة ، وغادر

---

(١) الإحاطة فى أخبار غرناطة (١٩٥٦) ج ١ ص ١٩٢ .

(٢) البيان المغرب القسم الثالث ص ٢٣ .

مكانه وتبعه الموحدون إلا أبا الحسن ، والشيخ أبا حفص ، فاقتاد أبو الحسن الأمير إبراهيم وقتله ، ثم جذبوا طلحة ، وصيفه ليقتلوه ، فلما اقترب من أبي الحسن ، استل خنجراً كان يحتفظ به ، وطعن أبا الحسن فقتله ، وقتله الموحدون على الأثر ، ويضيف البيذق إلى ذلك أن أبا الحسن كان قد أوثق زهاء ألف رجل من أبناء دُكّالة ليقتلهم ، فلما قُتل أطلق سراحهم. وعفي عنهم[1].

وهكذا زهق أبو إسحاق إبراهيم بن تاشفين بن علي بن يوسف بن تاشفين ، صبياً في السادسة عشرة من عمره ، بعد أن حكم حكمه الإسمي المنكود مدى عامين ، وزهق ضحية بريئة للحوادث ، دون أن يضطلع منها بشيء ، أو يعقد أو يحل منها أمراً ذا خطر ، وقد كان حرياً برجل عظيم مثل عبد المؤمن أن يحقن دم هذا الأمير الصغير ، لو أنه استعمل الصرامة والحزم مع أولئك الأتباع الظمئين إلى الدماء . وبموت إبراهيم اختتم ثبت ملوك لمتونة ، وانهار عرش بني يوسف ابن تاشفين ، بعد أن لبث منذ تأسيس مراكش في سنة ٤٦٢ هـ ، ثمانين عاما ، ترفرف أعلامه الظافرة على أنحاء المغرب ، وخمسين عاما ترفرف فوق جنبات الدولة المرابطية الكبرى بالمغرب والأندلس .

ويصف لنا البيذق بعد ذلك مصير أبي بكر بن تيزميت خادم علي بن يوسف ، وكيف أمر الخليفة بقتله ، لأنه هو الذي قبض على المهدي أيام وجوده بمراكش وحمله إلى السجن ، وكيف غرر أبو بكر بالموحدين ، وزعم أن لديه بمنزله آنية ملأى بالذهب ، يريد أن يسلمها للموحدين ، فبعث معه الخليفة باثني عشر رجلا ليتسلموا الذهب فأغلق الدار عليهم وقتلهم ، وهم يشتغلون بالحفر بحثاً عن الآنية المزعومة ، فأخذ إلى الخليفة وأمر به فقتل[2] .

وكان عبد المؤمن قد دخل مراكش على أثر افتتاحها ، ثم عاد منها في الحال إلى محلته ، ورتب الأمناء على أبوابها . وبقيت مراكش بعد ذلك ثلاثة أيام لايدخلها ولايخرج منها أحد . ذلك أن الموحدين ، كانوا يرون ، في غلوائهم الدينية ، أن مراكش هي مدينة المجسمين وأهل اللثام ، الذين لعنهم المهدي ، وأفتى بشركهم وتكفيرهم ، فهي إذن مدينة نجسة ، لاتصلح لنزول الموحدين الأطهار . وقال أشياخ الموحدين فوق ذلك إن المهدي امتنع عن سكنى مراكش ،

---

(١) أخبار المهدي ابن تومرت ص ١٠٤ ، والبيان المغرب القسم الثالث ص ٢٤ .

(٢) أخبار المهدي ابن تومرت ص ١٠٥ .

لتشريق مساجدها عن القبلة المستقيمة ، والتشريق والتحريف ، لغير المسلمين من اليهود وغيرهم . فأشار الفقهاء الموحدون عندئذ بتطير المدينة ، تمهيداً لسكناها ، ونصحوا بهدم جوامعها القائمة ، بسبب تشريقها وتحريفها عن القبلة . وهكذا هُدم جامع على بن يوسف هدماً جزئياً ، وهدمت الجوامع الأخرى . وتولى الأمناء جمع السبي والأسلاب من الحلى والسلاح والمتاع وغيرها ، وحملت كلها إلى المخازن ، وبيع النساء فى اليوم الرابع ، بعد أن تم تطهير المدينة ، وجمعت أسلابها على هذا النحو ، ودخل عبد المؤمن مراكش ، وقسم أرزاقها ودورها على الموحدين ، فسكنوها بضع أسابيع [١] .

ومما له مغزى بارز ، ما يقصه علينا المراكشى ، من أن عبد المؤمن حين دخوله مراكش ، بحث عن قبر أمير المسلمين يوسف بن تاشفين أشد البحث ، فأخفاه الله عنه وستره ، وكان ذلك حسبما يروى المؤرخ ، دليلا على رعاية الله وعادته الحسنى مع الصالحين المصلحين [٢] .

ويقدم إلينا الإدريسى الذى تجول فى أنحاء المغرب وقواعده فى أواخر عهد المرابطين (حوالى سنة ٥٣٠ هـ) وصفاً لمدينة مراكش عقب سقوطها فى أيدى الموحدين ، يقول فيه ، إنها أى مراكش كانت دار إمارة لمتونة ومدار ملكهم ، وكان بها قصور لكثير من الأمراء والقواد وخدّام الدولة ، وأزقتها واسعة ، ورحابها فسيحة ، ومبانيها سامية ، وأسواقها مختلفة ، وسلعها نافقة ، وكان بها جامع بناه أميرها يوسف بن تاشفين ، فلما كان فى هذا الوقت ، وتغلب عليها المصامدة ، وصار الملك لهم ، تركوا ذلك الجامع معطّلا مغلق الأبواب ، ولا يرون الصلاة فيه ، وبنوا لأنفسهم مسجداً جامعاً يصلون فيه ، بعد أن نهبوا الأموال وسفكوا الدماء ، وأباحوا الحُرم ؛ كل ذلك بمذهب لهم يرون ذلك فيه حلالا . وشُرب أهل مراكش من الآبار ، ومياهها كلها عذبة ، وآبارهم قريبة معينة . وكان على بن يوسف قد جلب إلى مراكش ماء من عين بينها وبين المدينة أميال ، ولم يستتم ذلك ،

(١) أخبار المهدى ابن تومرت ص ١٠٥ و ١٠٦ . والبيان المغرب القسم الثالث ص ٢٥ .

(٢) المعجب ص ١١٣ . ولو صحت رواية المراكشى ، فإن المرجح هو أن يكون المرابطون ، قد اصطلحوا على إخفاء قبر يوسف وتجهيله ، حتى لا يخربه الموحدون ، ويعتدوا على رفات البطل المرابطى . ولقد أرشدت فى بعض زياراتى لمراكش إلى زاوية صغيرة ، بها صبيان يقرأون ، وقيل لى إن بها قبر يوسف بن تاشفين . ولكنى لم أجد أى شاهد أو نقش أو دليل يحمل على الاعتقاد فى صحة هذا القول .

فلما تغلب المصامدة على الملك ، تمموا جلب ذلك الماء إلى داخل المدينة ، وصنعوا به سقايات بقرب دار الحجر ، وهى الحظيرة التى فيها القصر منفرداً متحيزاً بذاته ، والمدينة بخارج هذا القصر ، وطولها أشف من ميل ، وعرضها قرب ذلك ، وعلى ثلاثة أميال من مراكش نهر لها يسمى تانسيفت ، وليس بالكبير لكنه دائم الجرى[١] .

وفى نفس الوقت الذى افتتحت فيه مراكش ، دخل الموحدون قصبة تلمسان ، وذلك فى الخامس عشر من شوال سنة ٥٤١ هـ ، أعنى قبل سقوط مراكش بثلاثة أيام . ووفد على عبد المؤمن عندئذ مع أشياخ الموحدين ، يحيى بن إسحاق المسّوفى المعروف بأنجمار أمير تلمسان السابق ، وكان قد دخل فى طاعة الموحدين ، فشمله عبد المؤمن برعايته ، واحتُرمت داره وزوجته زينب بنت على بن يوسف ، وسائر أصحابه وأسرهم[٢] .

وحدث خلال وجود عبد المؤمن بمراكش أن قدم عليه من الأندلس وفد إشبيلية وعلى رأسه القاضى أبو بكر بن العربى المعافرى ، بعد مقتل ولده عبد الله فى حوادث إشبيلية ، والخطيب أبو عمر بن الحجاج ، وأبو بكر بن الجد الكاتب ، وأبو الحسن الزهرى ، وأبو الحسن ابن صاحب الصلاة ، وغيرهم من زعماء إشبيلية ووجوهها ، فاستقبلهم عبد المؤمن ، وألقى القاضى أبو بكر وبعض زملائه بين يديه خطباً بليغة ، ورفعوا إليه بيعة أهل إشبيلية مكتوبة بخطوطهم ، فاستحسن عبد المؤمن موقفهم ، وقبل طاعتهم ، وأغدق عليهم الجوائز والصلات ، وكان ذلك فى أوائل سنة ٥٤٢ هـ . ولما عاد الوفد إلى الأندلس ، توفى القاضى ابن العربى ، خلال الطريق ، ودفن بفاس فى جمادى الآخرة من نفس السنة . وكان مقدم هذا الوفد البارز ، وهو يمثل أعظم حواضر الأندلس ، من الدلالات الواضحة ، على تحول ولاء الأندلس بسرعة ، إلى جانب الموحدين . وكان له أثره فيما بعد ، فى إيثار الموحدين لإشبيلية ، واتخاذها حاضرة الأندلس فى عهدهم[٣] .

---

(١) وصف المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس (المأخوذ من كتاب نزهة المشتاق) للإدريسى (طبعة دوزى) ص ٦٨ و ٦٩ .

(٢) البيان المغرب — القسم الثالث — ص ٢٥ .

(٣) الحلل الموشية ص ١١١ و ١١٢ ، والزركشى فى تاريخ الدولتين ص ٦ .

الفصل السادس

الدولة الموحـــــدية

فى سبيل التوطد

اختتام الغزوة الموحدية الكبرى . اضطرام الثورة فى بلاد السوس . زعيمها الهادى أو الماسى . اتساع نطاقها وخلع القبائل لطاعة الموحدين . مسير الموحدين لقمع الثورة بقيادة الشيخ أبى حفص عمر . لقاء الموحدين وقوات الماسى فى وادى ماسة . هزيمة الماسى ومصرعه وتمزيق جموعه . الجندى الكاتب أبو جعفر بن عطية ورسالته عن الموقعة . إعجاب أبى حفص بها . إعجاب الخليفة واستدعاؤه لابن عطية ، وتقليده خطة الكتابة . مطاردة أبى حفص للقبائل الخارجة وتمزيقها . غزوه لأراضى برغواطة . نزول يحيى الصحراوى فى سبتة . غدره بابن ميمون وقتله . دور القاضى عياض فى حوادث سبتة . انتقاض أهل سبتة ومقتل واليها الموحدى . مسير الصحراوى من سبتة إلى سلا ثم إلى أراضى برغواطة . اجتماع برغ اطة ودكالة ورجراجة وحاحة حوله . عبد المؤمن يرسل إلى برغواطة حملة جديدة بقيادة يصلاسن . مسير يصلاسن إلى سلا واقتحامها وخضوعها . ثم إلى بنى وراغل وإخضاعهم . مسيره إلى طنجه واقتحامها ، ثم إلى سبتة . مبادرة أهل سبتة إلى الخضوع والعفو عنها . عبد المؤمن يجهز الحشود لمقاتلة برغواطة والصحراوى . خروجه فى قواته من مراكش ومسيره صوب دكالة ، ثم أزمور . مهاجمته لحشود الثوار وتمزيقهم . فرارهم نحو البحروغرق الكثير منهم . فرار يحيى الصحراوى وصحبه إلى السوس ثم إلى الصحراء . استيلاء عبد المؤمن على أسلاب برغواطة ودكالة . إذعان برغواطة إلى التوحيد . عودة عبد المؤمن إلى مراكش . نزعة الموحدين إلى القمع الدموى . حادث الاعتراف وقتل المارقين والمعاندين . الجرائد الدموية لمختلف القبائل وعدد القتلى من كل منها . تأملات حول موقف عبد المؤمن من هذا السفك المروع . إخماد ثورة أخرى فى برغواطة . مسير عبد المؤمن فى قواته إلى سلا . إنشاؤه لقصبة رباط الفتح . استقباله لوفود الأندلس . اعتزامه فتح بجاية وبواعث هذا القرار . مسيره صوب بجاية من طريق ملتوية . استيلاؤه على جزائر بنى مزغنة . . بنوحماد أصحاب بجاية والقلعة . قلعة بنى حماد وموقعها . انتقالهم إلى بجاية . استيلاء عبد المؤمن على بجاية وما يقال فى ذلك . استيلاء عبد الله بن عبد المؤمن على القلعة . سقوط بونة وقسنطينة فى أيدى الموحدين . مسير يحيى بن العزيز صاحب بجاية صحبة عبد المؤمن إلى مراكش . وصف بجاية فى هذا العهد . الصدام بين الموحدين والعرب فى هذه المنطقة . هزيمة العرب وتمزيق حشودهم . ثورة صنهاجة قرب بجاية وإخمادها . مسير عبد المؤمن إلى تلمسان ثم إلى فاس ومكناسة وسلا فمراكش . مؤامرة أخوى المهدى بمراكش . إخمادها وإعدام المتآمرين . قيام عبد المؤمن بحركة تطهير جديدة . عبد المؤمن يدبر مصرع القائد يصلاسن . ثورة جديدة فى السوس . مسير أبى حفص لإخمادها . سحق القبائل الثائرة وأخذ غنائمها وتوحيد بعضها . مسير عبد المؤمن من مراكش إلى تينملل .

— ١ —

وهكذا اختتمت تلك الغزوة الكبرى ، التى اضطلع بها عبد المؤمن بن على ، مذ خرج فى حشوده الموحدية الجرارة ، من تينملل فى سنة ٥٣٥ هـ (١١٤٠ م) ،

واستمر زهاء سبعة أعوام يثخن فى أنحاء المغرب ، من الجنوب إلى الشمال ، ثم إلى الشرق ثم إلى الجنوب ، ويوقع بالجيوش المرابطية مرة بعد أخرى ، ويستولى تباعاً على قواعد المغرب — اختتمت تلك الغزوة الكبرى باستيلاء الموحدين على حضرة مراكش ، والقضاء على الدولة المرابطية فى المغرب .

على أن تحقيق هذه الغاية الجوهرية ، لم يكن نهاية الصراع الذى كان على الموحدين أن يضطلعوا به ، لتوطيد دولتهم ، والقضاء بصورة نهائية ، على كل مقاومة لدعوتهم الدينية ، وسلطانهم السياسى ، وذلك أولا فى المغرب ، حيث قامت دعوتهم ، وانتظمت دولتهم .

ثم كان عليهم بعد ذلك ، أن يتابعوا فتوحهم ، فيما وراء البحر ، فى الأندلس حيث كانت الدولة المرابطية ، مازالت تحتفظ ببقية من سلطانها ، فى شبه الجزيرة ، وفى بعض قواعد الأندلس ، وتحتفظ فى نفس الوقت ببقية من قواتها العسكرية ، وتفر من أكابر قادتها وزعمائها .

وفى الوقت الذى لاح فيه أن الموحدين ، بفتح مراكش ، قد وصلوا إلى ذروة سلطانهم ، اضطرمت أول ثورة خطيرة ضد دعوتهم الدينية وسلطانهم السياسى ، وكان ذلك فى بلاد جزولة ، غربى بلاد السوس ، حيث قام ثائر يدعى محمد بن عبد الله بن هود وتسمى بالهادى . وأصل هذا الرجل من سلا ، وكان قصّاراً ، فلما ذاعت الدعوة الموحدية ، واستولى الموحدون على سلا ، ادعى الهداية ، وسمى نفسه بالهادى ، ثم سار جنوبا إلى أرض جزولة ونزل برباط ماسة ، وذلك فى شوال سنة ٥٤١ هـ ، ومن ثم اشتهر كذلك باسم الماسى [١] ، فتبعه كثير من الناس من مختلف القبائل ، وذاعت دعوته بسرعة مدهشة . وسرعان ما استولى على بلاد تامسنا ، وبلاد المصامدة ، وانضمت إليه عدة من القبائل التى كانت تدين بالتوحيد مثل حاحة ، ورجراجه ، وهزميرة وهسكورة ودكالة ، وخلعت معظم القواعد التى توحدت الطاعة ، حتى لم يبق تحت سلطان عبد المؤمن وطاعته ، فى وسط المغرب وجنوبه ، سوى فاس ومراكش . وكان استفحال الثورة ، واتساع نطاقها على هذا النحو ، دليلا على أن الدعوة الموحدية ، لم تكن قد تمكنت بعد فى نفوس معتنقيها ، وأنهم لم يدينوا بها إلا تحت سلطان الضغط

---

(١) الحلل الموشية ص ١١٠ ، والبيان المغرب القسم الثالث ص ٢٦ . ويقول لنا صاحب روض القرطاس ، إن الماسى حضر فتح مراكش مع عبد المؤمن وبايعه ثم خرج عليه (ص ١٢٣) .

والإرهاب المادى . والواقع أن وسائل الموحدين فى نشر دعوتهم لم تكن حسبما رأينا مما فصلناه من قبل ، رفيقة ولا إنسانية ، بل كانت قائمة على الخضوع الأعمى للدعوة والإرهاب المطلق ، وسفك الدم السريع . ومن ثم كان ارتداد القبائل الموالية ، بمثل السرعة التى توحدت بها ، وانضمامها إلى راية الدعىّ الجديد . وشعر عبد المؤمن وأشياخ الموحدين ، أن الأمر سوف يخرج من أيديهم ، إذا لم لم تسحق ثورة الماسى بسرعة . فبعث عبد المؤمن لقتاله حملة بقيادة ابن يكيت ويحيى المسّوفى المعروف بأنجمار ، فلقيهم الماسى فى قواته وهزمهم وأثخن فيهم . فعندئذ جهز عبد المؤمن لقتاله حملة ضخمة مختارة ، تضم طائفة من الروم ، أى النصارى المرتزقة ، والرماة وغيرهم ، من المقاتلة المدربين ، وعلى رأسها الشيخ أبو حفص عمر الهنتاتى وعدة من أشياخ الموحدين . وكان بين الجند الرماة فتى يمتّ إلى الأدب بصلة ، هو أبو جعفر أحمد بن عطية القضاعى ، وهو من أهل مراكش ، ولكنه يرجع إلى أهل الأندلس ، وأصله القديم من طرطوشة ثم من دانية[1] ، وقد كان ضمن كتاب على بن يوسف ، ثم كتب عن ابنه تاشفين ثم عن حفيده إبراهيم ، وكان على حداثة سنه من أحظى كتاب الدولة اللمتونية . فلما سقطت مراكش أخفى نفسه ، ودخل فى غمر الناس ، وانضم إلى كتائب الموحدين ، لايعلم بحقيقته أحد . وكانت الحملة الموحدية تضم نحو ستة آلاف فارس ومثلهم من الرجالة . وكان جيش الماسى يضم نحو الستين ألفاً ، ليس فيهم من الفرسان سوى سبعمائة . وسار الموحدون صوب تامسنا بوادى ماسه ، والتقوا بقوات الماسى ، وذلك فى السادس عشر من شهر ذى الحجة سنة ٥٤٢ هـ (٧ مايو ١١٤٨م) ، ونشبت بين الفريقين معركة شديدة ، قاتل فيها جند الماسى بشجاعة ، ولكنهم هزموا فى النهاية ، وقتل الماسى ، قتله الشيخ أبو حفص بيده ، ومُزق جنده شر ممزق ، وحمل الموحدون جثته فوق بغل ، حيث صلبت على باب الشريعة بمراكش . وكان نصراً باهراً ، انهارت على أثره ثورة الماسى وانفضت جموعه[2] .

وحدث على أثر انتهاء المعركة بظفر الموحدين ، أن بحث الشيخ أبو حفص

---

(١) ابن الخطيب فى الإحاطة (١٩٥٦) ج ١ ص ٢٧١ .

(٢) أخبار المهدى ابن تومرت ص ١٠٦ ، والبيان المغرب القسم الثالث ص ٢٦ ، والحلل الموشية ص ١١٠ ، وروض القرطاس ص ١٣٤ .

عن كاتب بارع يقوم بإعلام الخليفة بما أتاه الله من نصره ، فى رسالة قوية بليغة ، فأرشد إلى فتى من الجند الرماة ، يجيد الشعر والترسل ، فاستحضره ، وكان هو أبو جعفر بن عطية ، فعهد إليه بأن يكتب عنه إلى الخليفة رسالة يصف فيها المعركة ، فنزل أبو جعفر عند رغبته مرغماً ، وكتب رسالته الشهيرة ، فى نصر الموحدين فى ذلك اليوم ، فجاءت قطعة من البلاغة المتدفقة ، والبيان الرائع ، وهى الرسالة التى رفعت إسمه وقدره ، لدى الخليفة ، وبين سائر الموحدين ، وكانت سبيله إلى الوزارة ، وإلى النفوذ والسلطان . وقد أورد لنا ابن الخطيب نص هذه الرسالة . وإنه ليكفى أن ننقل منها هاتين الفقرتين .

جاء فى الديباجة ما يأتى :

« كتبنا هذا من وادى ماسة ، بعد ما تزحزح من أمر الله الكريم ، ونصر الله المعلوم ، وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم ، فتح بمسرى الأنوار إشراقاً ، وأحدق بنفوس المؤمنين إحداقاً ، ونبه للأمانى القائمة جفوناً وأحداقاً ، واستغرق غاية الشكر استغراقاً ، فلا تطيق الألسنة كنه وصفه إدراكاً ولا لحاقاً ، جمع أشتات الطب والأدب ، وتقلب فى النعم أكرم منقلب ، وملأ دلاء الأمل إلى عقد الكرب .

فتح تفتّح أبواب السماء له وتبرز الأرض فى أثوابها القشب

وتقدمت بشارتنا به جملة ، حين لم تعط الحال بشرحه مهلة . كان أولئك الضالون المرتدون ، قد بطروا عدواناً وظلما ، واقتطعوا الكفر معنى وإسما ، وأملى الله لهم ليزدادوا إثماً » .

ومنها فى وصف مصرع أنصار الماسى : « فامتلأت تلك الجهات بأجسادهم ، وأذنت الآجال بانقراض آمالهم ، وأخذهم الله بكفرهم وفسادهم ، فلم يُعاين منهم إلا من خر صريعاً ، وسقى الأرض نجيعاً ، ولقى من وقع الهنديات أمراً فظيعاً ، ودعت الضرورة باقيهم إلى الترامى فى الوادى ، فمن كان يؤمل الفرار ويرتجيه ، ويسبح طامعاً فى الخروج إلى ما ينجيه ، اختطفته الأسنة اختطافاً ، وأذاقته موتاً زعافاً ، ومن لج فى الترامى على لجحه ، ورام البقاء فى ثبجه ، قضى عليه شرقه ، وألوى فرقته غرقه »[1] .

(١) ابن الخطيب فى الإحاطة فى ترجمة أبى جعفر بن عطية ج ١ ص ٢٧٧ .

يقول لنا ابن الخطيب ، إن الشيخ أبا حفص حين قرئت عليه رسالة هذا الجندى الأديب ، اشتد إعجابه بها ، وأحسن إلى كاتبها ، واعتقد أنه ذخر يتحف به عبد المؤمن ، وأنها لما قرئت بعد ذلك على الخليفة بمحضر من أكابر الدولة عظُم مقدارها ، ومقدار منشيها ، وبعث فى طلبه معززاً مكرماً . ولما وفد ابن عطية على عبد المؤمن ، بالغ فى إكرامه ، وقلده خطة الكتابة ، وأسند إليه وزارته ، ثم فوض إليه فيما بعد النظر فى أموره كلها ، فنهض بأعباء منصبه ، خير نهوض . ولكن القدر كان يتربص به ، وكان يدخر له تلك الخاتمة المؤسية ، التى سنقص سيرتها فيما بعد .

وعلى أثر هزيمة الماسى ومصرعه ، وانهيار حركته ، خرج الشيخ أبو حفص فى قواته لمطاردة القبائل الخارجة ، فسار أولا إلى هسكورة ،وأثخن فيها ، ومزق شملها ، وسبى أهلها ، واستاق غنائمها . ثم سار إلى أرض نفيس ، ثم أرض هيلانة ، فمزق جموعهم ، وفرض عليهم الخضوع والطاعة . وسار بعد ذلك إلى سجلماسة فاستولى عليها ، وأمّن أهلها . وعاد إلى مراكش فاستراح بها قليلا ، ثم خرج غازياً إلى أرض برغواطة ، وكانوا مازالوا على دعوة الماسى ، فنشب بينهم وبينه قتال مرير ، ومعارك متوالية ، استمرت حيناً ، وهزم الموحدون فى نهايتها . واستمرت برغواطة ومن يجاورها من القبائل فى ثورتهم وخروجهم فترة أخرى .

وكان يحيى بن أبى بكر بن على الصحراوى ، أو ابن الصحراوية ، حينما فر من فاس ، عند سقوطها فى أيدى الموحدين ، قد غادرها إلى سبتة ليحاول أن يجعل منها قاعدة للمقاومة ، وجمع أشتات الفلول المرابطية . وهنا تختلف الرواية فى شأن ماتلا من الحوادث التى وقعت فى سبتة . ذلك أن البيذق يقدم إلينا رواية خلاصتها ، أن الصحراوى حينما نزل بسبتة ، حاصره بها على بن عيسى بن ميمون قائد الأسطول الأندلسى فى منطقة قادس ، وهو الذى انحاز إلى الموحدين حسبما تقدم ، فتودد إليه الصحراوى ، وأوهمه أنه يريد أن يبايع الموحدين ، وأن يكون توحيده على يديه ، وفى اليوم التالى نزل ابن ميمون من سفينته إلى البر ، فاستقبله الصحراوى ثم هاجمه فجأة وطعنه برمحه فأرداه ، وصلب جثته فى برج المدينة ، ثم غادر الصحراوى على أثر ذلك سبتة إلى طنجة[1] .

---

(١) أخبار المهدى ابن تومرت ص ١٠٧ .

بيد أن هنالك رواية أوضح تفصيلا ، هي روايه صاحب روض القرطاس ، وابن خلدون ، وهي رواية تدور حول الدور الخطير الذى قام به القاضي عياض ابن موسى اليحصبي قاضي سبتة ، فى حوادث سبتة عندئذ . وكان القاضي عياض من أعظم فقهاء العصر وعلمائه ، وكان قد وُلى قضاء سبتة شابا ، فاشتهر بنزاهته وغزارة علمه ، فنقل إلى قضاء غرناطة (سنة ٥٣١ هـ) ، ثم أعيد بعد ذلك إلى قضاء سبتة (٥٣٩ هـ) . فلما ظهر أمر الموحدين ، بادر إلى الدخول فى طاعتهم ، وسار إلى لقاء الخليفة عبد المؤمن ، وهو بسلا فى أواخر سنة ٥٤٠ هـ ، فأكرمه عبد المؤمن وأجزل صلته ، فعاد إلى سبتة واستمر فى منصبه[1]. بيد أنه لأسباب غير واضحة ، تغير ضد الموحدين فجأة ، ولم يلبث وفقاً للرواية المتقدمة ، أن حرض أهل المدينة على الانتقاض والثورة ، فثاروا بواليها الموحدى يوسف بن مخلوف التينمللى ، وقتلوه ومن معه من الموحدين . ثم عبر القاضي عياض البحر إلى الأندلس ، ولقى يحيى بن غانية المسّوفى ، والى الأندلس المرابطى . وطلب منه والياً لسبتة ، فبعث معه يحيى بن أبى بكر الصحراوى ، وكان وفقاً لنفس الرواية قد عبر البحر إلى الأندلس ، وانضم إلى ابن غانية . فقام الصحراوى بأمر سبتة ، ثم كتبت إليه برغواطة تستنصر به على قتال عبد المؤمن ، فغادر سبتة ، وسار فى صحبه إليهم ، فبايعوه واجتمعوا تحت رايته[2]. بيد أن البيذق ، بعد ذكر ما تقدم من اغتيال الصحراوى لابن ميمون ، يقدم إلينا عن خطط الصحراوى ومسيره إلى الجنوب ، تفاصيل أخرى ، خلاصتها أن الصحراوى لما غادر سبتة ، سار منها إلى طنجة ، وهنالك ألفى واليها يحيى بن تايشا المرابطى ، ممتنعاً بأسوارها القوية ، وعلى أهبة حسنة للدفاع ، فغادرها إلى سلا ، وكان بها الخياط والد الثائر الماسى ، وكانت قد خرجت فيمن خرج على طاعة الموحدين . ولكن الخياط لم يكن من أنصار لمتونة ، فساء التفاهم بينه وبين الصحراوى ، ولم يلبث أن وثب به الصحراوى وقتله ، ووقعت هذه الحوادث كلها فى أوائل سنة ٥٤٣ هـ (١١٤٨ م)[3] .

وكان يحيى الصحراوى جندياً عظيما ، وفارساً وافر الجرأة[4] . وكان يعتزم

---

(١) ابن الخطيب فى الإحاطة — مخطوط الإسكوريال فى ترجمة القاضي عياض لوحة ٣٥٠ .

(٢) روض القرطاس ص ١٢٤ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٣٣ .

(٣) أخبار المهدى ابن تومرت ص ١٠٧ .

(٤) المراكشي فى المعجب ص ١١١ .

أن ينزل إلى ميدان تضطرم فيه الثورة ضد الموحدين . وكانت المنطقة الساحلية الممتدة من سلا جنوباً ، حتى أراضى برغواطة ، ودُكالة ، قد غدت كلها بعد هزيمة الموحدين أمام برغواطة ، منطقة لمقاومة الدعوة الموحدية ، ومحاولة تحطيمها ، فإلى هذا الميدان نزل الصحراوى فى صحبه القلائل ، واجتمعت برغواطة ودكالة حول رايته ، ثم قدمت إليه حشود رَجراجة وحاحة ، وانضمت إليه ، واجتمع من هؤلاء وهؤلاء ، قوة يخشى بأسها .

فلما علم عبد المؤمن باجتماع هذه الحشود الضخمة الخصيمة وتأهبها لمقارعته ، بعث لقتال الثوار حملة بقيادة يصلاسن ، أحد خاصته . فسار يصلاسن أولا إلى تادلا ، ومنها إلى سلا لمعاقبة أهلها على نكثهم ، فاقتحمها ، وغلب على قصبتها بالسيف . فعاد أهلها إلى الخضوع والطاعة ، وعهد بولايتها إلى موسى بن زيرى المنتانى . ثم سار إلى أرض بنى ورياغل ، فيما بين سلا ومكناسة ، وكانوا من الناكثين ، فأخضعهم واستاق غنائمهم إلى مكناسة ، فقسمت بين الموحدين ، ثم اتجه شمالا صوب طنجة ، وكانت ما تزال من معاقل لمتونة ، فاقتحمها ، وقتل واليها المرابطى يحيى بن تايشا . وسار منها بعد ذلك شرقاً إلى سبتة وحاصرها ، ولكنه لم يدخلها ، وعاد بقواته إلى مكناسة(1) . وهنا لابد لنا أن نتساءل عن سر هذا الإغضاء عن معاقبة المدينة الثائرة أعنى سبتة . والجواب على ذلك هو أن القاضى عياض ، حسبما يروى لنا البيذق ، بادر فبعث إلى القائد الموحدى ببيعته وبيعة أهل سبتة للموحدين ، وبذلك أنقذت المدينة(2). وفى رواية أخرى ، أنه لما قدم الموحدون إلى سبتة ، وشددوا فى حصارها ، سعى إليهم القاضى عياض ، وتلطف فى الاعتذار إليهم عما حدث ، وفى استدرار عطفهم وصفحهم ، فعفوا عنه ، وملكوا البلدة ، ولقى القاضى من القائد الموحدى يصلاسن بن المعز ، كل عطف وإكرام ، وأن القاضى عياض ، سار بعد ذلك إلى مراكش (سنة ٥٤٣ هـ) ، ليستعطف الخليفة ويلتمس صفحه ، فعفا عنه عبد المؤمن ، وأمره بلزوم مجلسه ، وأغدق عليه عطفه . ثم مرض القاضى غير بعيد ، وتوفى بمراكش فى ليلة التاسع من جمادى الآخرة سنة ٥٤٤ هـ ودفن بها (١١٤٩م)(3). وأخيراً يقول لنا

(١) أخبار المهدى ابن تومرت ص ١٠٧ و١٠٨ .

(٢) أخبار المهدى ابن تومرت ص ١٠٨ .

(٣) وردت هذه الراوية خلال ترجمة للقاضى عياض يتضمنها مخطوط بالمكتبة الكتانية بخزانة الرباط عنوانه : «كتاب فى التعريف بعياض» ، ويحفظ بها برقم 553 (لوحات ٧ — ١٤) .

صاحب القرطاس « إن أهل سبتة حينما رأوا ما نزل بالناكثين من صنوف الويل، بادروا بإعلان بيعتهم وطاعتهم ، وحمل البيعة إلى عبد المؤمن أشياخ المدينة وطلبتها فتقبلها منهم ، وعفا عنهم ، وعن القاضى عياض ، ولكنه أمره بمغادرة سبتة والإقامة بمراكش ، فصدع بالأمر وسار إلى مراكش ، وهنالك توفى بعد قليل فى جمادى الأخرى سنة ٥٤٤ هـ ، وأمر عبد المؤمن كذلك بهدم أسوار سبتة فهدمت[1]، وأسندت ولايتها إلى حاكم موحدى هو عبد الله بن سليمان مع طائفة من الحفاظ ، وعاد إليها الهدوء والسكينة .

واعتزم عبد المؤمن أن يخرج بنفسه ليقضى على الخارجين عليه فى منطقة برغواطة ودُكالة، التى غدت بعد حلول الصحراوى بها مركزاً للمقاومة المرابطية. فأرسل الكتب إلى سائر الأنحاء ، وجاءت إليه الحشود تترى من كل مكان، وكان فى مقدمتهم يوسف بن وانودين ، وقد وافاه بعساكر النواحى الشرقية ، ولكنه توفى خلال الطريق بفاس ، فخلفه فى القيادة تاشفين بن ماخوخ وآخرون من الزعماء ، ووفدت حشود المناطق الغربية وعلى رأسها عبد الله بن خيّار الجيّانى ، الذى عرفناه من قبل مشرفاً على فاس ، وقد لعب دوره فى تسليمها إلى الموحدين ، ثم حشود زناتة ، بقيادة عبد الله بن شريف وثلاثة آخرين من الزعماء ، وحشود غُمارة بقيادة عبدالله بن سليمان، وحشود صنهاجة بقيادة أبى بكر ابن الجبر وأبى يدِّر بن ومصال ، وحشود جَراوة بقيادة عبد الله بن داود . واجتمعت هذه الحشود كلها تحت راية عبد المؤمن، فخرج من مراكش فى عسكر جرار ، وسار شمالا نحو أراضى دُكالة . وكانت حشود برغواطة ودكالة ويحيى الصحراوى قد اجتمعت عندئذ على مقربة من ساحل المحيط جنوبى ثغر أزمّور. وفى بعض الروايات أن هذه الجيوش التى اجتمعت لقتال عبد المؤمن بلغت زهاء عشرين ألف فارس ومائتى ألف راجل ، وهو تقدير يحمل طابع المبالغة . ويقدم إلينا ابن خلدون تقديراً أكثر اعتدالا ، فيقول إنهم كانوا فى نحو ستين ألفاً من الرجالة وسبعمائة من الفرسان[2] . بيد أنها كانت خالية من فرق الرماة ، التى امتازت بها الجيوش الموحدية . والظاهر أيضاً مما تذكره الرواية المذكورة أن عبد المؤمن لجأ إلى خطة لم يحسب حسابها خصومه ، وفاجأهم بالهجوم ، فاختل

---

(١) روض القرطاس ص ١٢٤ .

(٢) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٣٢ .

نظامهم ، وتبدد شملهم ، واضطروا إلى مغادرة مراكزهم الحصينة نحو البحر ، فغرقت منهم جموع غفيرة ، وتمت عليهم الهزيمة الساحقة[١] . ومزقت بالأخص حشود دكالة ، وفر زعماؤها ومعهم يحيى الصحراوى إلى السوس ، فسار فى أثرهم يصلاسن حتى أراضى رجراجة ، ومزق جموعها حتى أذعنت إلى التوحيد ، وفر يحيى إلى الصحراء . وفى رواية أخرى أنه بعث إلى عبد المؤمن يستأمنه فأمنه وبايعه وحسنت طاعته[٢] . واستولى عبد المؤمن على أسلاب برغواطة ودكالة ، وسبى نساءهم وأولادهم وبيعوا رقيقاً . وأذعنت برغواطة إلى التوحيد ، واسترد الموحدون منها ما سبق أن غنموه من أبى حفص حين هزيمته من السلاح والعتاد . وكذلك رُد إليه ولده وجاريته ، وانتشر الموحدون فى تلك المنطقة ، وأخمدوا عدة ثورات محلية صغيرة . ووقعت هذه الحوادث حسبما يقص علينا البيذق فى سنة ٥٤٣ هـ (١١٤٨ م)[٣] ، وعاد عبد المؤمن إلى مراكش ظافراً بعد أن قضى فى تلك الغزوة ستة أشهر .

— ٢ —

وهكذا هدأت الثورة ضد الموحدين فى مختلف النواحى ، وأرغمت معظم القبائل والقواعد الثائرة ، بقوة السيف ، والسيف وحده ، على العودة إلى الخضوع والطاعة . ولكن ما بثته هذه الثورات المضطرمة ، من أقوام كان معظمهم قد آمن بدعوة المهدى ، وانضوى تحت لوائها ، فى نفوس الموحدين من المرارة والسخط ، كان نذيراً بفورة دموية جديدة . ولقد رأينا فيما تقدم ، من مراحل الصراع بين الموحدين والمرابطين ، كيف كان هذا الصراع يتميز فى كثير من المواطن ، بألوانه الدموية المثيرة ، وكيف كان الموحدون يتبعون نحو المهزومين والعزّل من خصومهم ، خطة التقتيل الشامل ، وسفك الدماء دون تحفظ ، وهى خطة كانت حسبما رأينا شعار المهدى ابن تومرت فى محاربة خصومه .

والظاهر أن هذه النزعة الدموية استمرت فى الموحدين أجيالا ، حتى بعد أن توطدت دولتهم بمدة طويلة ، فإن المراكشى مثلا ، وهو من مؤرخى الموحدين ،

---

(١) الحلل الموشية ص ١١١ .

(٢) روض القرطاس ص ١٢٤ .

(٣) أخبار المهدى ابن تومرت ص ١٠٩ . وفى ابن خلدون أنها وقعت فى سنة ٥٤٢ هـ . كتاب العبر ج ٦ ص ٢٣٣ .

بنوه فى كتابه بما جبل عليه المصامدة ، وهم عماد الجيوش الموحدية ، من ميل إلى سفك الدماء ، وكيف أنه وهو فى بلاد السوس (فى أوائل القرن السابع) مهد المصامدة ، قد شهد من ذلك العجب[١] .

والآن نقف أمام صفحة دموية جديدة كتبها الخليفة عبد المؤمن وصحبه الموحدون ، عقب انتصارهم على القبائل الثائرة ، وهى صفحة يقدم إلينا البيذق تفاصيلها الرهيبة فيما يسميه « الاعتراف » أعنى الاعتراف بطاعة التوحيد .

وذلك أن الخليفة عبد المؤمن ، عقب عوده ظافراً إلى مراكش ، عقد للموحدين مجلساً ، ووعظهم وكتب لهم الجرائد بالوعظ والاعتراف ، ووزعها على أشياخ الموحدين ، وأمرهم باستعمال السيف فى تنفيذها . ومؤدى ذلك أنه عهد إلى أشياخ مختلف القبائل وزعمائها ، كل بجريدة أو قائمة ، تحتوى على مئات من أسماء المارقين ، والمشكوك فى ولائهم ، أومن يصفهم البيذق « بأهل التخليط والمعاندين » ووجوب قتلهم ، وتطهير القبائل والبطون منهم . ونحن نكتفى ، بأن ننقل مما يورده لنا البيذق من الأسماء والتفاصيل الكثيرة ، أسماء القبائل ، وعدد من أعدم منها ، على الوجه الآتى :

أعدم من قبيلة هزميرة خمسمائة ، وأعدم من رجراجة ثمانمائة ، وأعدم من حاحة ثمانمائة ، وأعدم من أهل السوس ستمائة من أهل إيجلى ، وستمائة من أهل إينجيست ، وأعدم من أهل جزولة مائتان فى تاعجيزت وثلاثمائة فى هشتوكة ، وأعدم من هسكورة ثمانمائة ، وهوجمت بقية بطونهم حتى بلغ عدد القتلى ألفين وخمسمائة ، وأعدم من أهل تادلا خمسمائة فى محلة نظير ، ثم هوجم منهم أهل تيفسيرت وقتلوا ، وأخذت غنائمهم ونساؤهم ، وقتل من صنهاجة وجراوة ألف فى موضع يسمى بالعمرى ، وقتل من زناتة ستة آلاف بأرض فازاز ، وقتل من صاربوه وبنى ماكود اثنا عشر ألفاً ، وقتل من غمارة فى تطاوين ثمانمائة ، وقتل فى مكناسة مائتان ، وفى فاس ثمانين ، وقتل فى تامسنا ستمائة من أهل برغواطة ، وقتل من دكالة ستمائة ، ومن هيلانة ثمانمائة ، ومن وريكة وهزرجة مائتان وخمسون ، ومن لحاعة مائة وخمسون ، ومن درعة ستمائة . ونجا أهل سجلماسة بدعاء عابد فيهم استجاب الله دعاءه[٢] .

---

(١) المعجب للمراكشى ص ١٠٦ .

(٢) أخبار المهدى ابن تومرت ص ١٠٩ — ١١٢ .

يقول البيذق بعد إيراد ما تقدم « تم الاعتراف بحمد الله وعونه .. فهدّأ الله البلاد للموحدين ، وأعانهم على الحق ونصرهم ، وأقاموا الدين ، ولم يتفرقوا فيه . وتمهدت الدنيا ، وأزال الله ما كان فيها من التخليط . وهذا كان سبب الاعتراف » ، ثم يضع تاريخ هذه الحوادث الدموية فى سنة ٥٤٤ (١١٤٩م)(١) .

وإنه لما يلفت النظر فى هذا الحادث الدموى ، أولا وقبل كل شىء ، أنه وفقاً لأقوال البيذق ، من عمل عبد المؤمن وتدبيره ، وأنه يدمغ جهود عبد المؤمن وسياسته فى توطيد الدولة الموحدية ، بطابع بغيض . بيد أننا نشعر من جهة أخرى ، أن هذا العمل . وما تقدمه من تصرفات دموية عديدة ، خلال هذا الصراع الدينى والسياسى العظيم ، لايمكن أن تنسب إلى عبد المؤمن دون تحفظ . ذلك أن عبد المؤمن إذا كان باعتباره خليفة الموحدين وقائدهم الأعلى ، مسئولا عن هذه الأعمال المثيرة أمام التاريخ ، فإنه يجب أن نذكر أيضاً أن عبد المؤمن ، لم يكن بالرغم من رفيع مركزه ، وسلطانه الظاهر . مطلق التصرف فى كل ما يقوله أو يفعله ، وأنه كان بالعكس مرغماً على أن يخضع فى كثير من المواطن لضغط الأشياخ والقادة . فقد رأينا مثلا . كيف أنه حينما قُتل أخوه إبراهيم بيد بعض أكابر الموحدين ، غلب على أمره . ومنع بتدخل أصحاب المهدى ، من أن يقتص لمقتله من قاتله ، ثم رأيناه بعد ذلك يُغلب على أمره مرة أخرى ، حينما دخل الموحدون مراكش ، وقُبض على إبراهيم بن تاشفين ، وأتى به إلى عبد المؤمن فرقّ لحداثة سنه . وأراد أن يعفو عنه وأن يفره من القتل ، فاعترض عليه بعض الأشياخ ، وأخذ إبراهيم وقتل رغماً عن إرادته . ففى هذه الحوادث وأمثالها ما يدلى بوضوح بأن عبد المؤمن ، لم يكن مطلق الحرية فى سائر تصرفاته . وإنّا لنرتاب فى أن يكون أمثال مذبحة الإعتراف ، معبرة عن خلق عبد المؤمن وميوله الحقيقية . ونعتقد أنه لابد أن يكون وراءها ، ووراء أمثالها من التصرفات الدموية المثيرة ، ضغط الأشياخ والصحب . وقد كانوا فى تلك المرحلة ، هم أصحاب التوجيه الحقيقى ، يزاولونه أحيانا ، بصورة ظاهرة ، وغالباً من وراء حجاب .

— ٣ —

بعد أن تم لعبد المؤمن سحق الثورة الكبرى ، فى أراضى برغواطة ودكالة ، وبعد أن تم له تميز القبائل ، وقتل المارقين على النحو المتقدم ، اعتزم أن يقوم

---

(١) أخبار المهدى بن تومرت ص ١١٢ .

بجولته الثانية لسحق ما تبقى من مواطن الثورة والمقاومة، وليتم افتتاح المغرب بافتتاح إفريقية . وكان قد قام فى تلك الأثناء بتامسنا ، عقب حرب برغواطة بقليل ، ثائر جديد يدعى بابن تمركيد، فبايعه كثير من أهل برغواطة، وغيرهامن القبائل ، ولبث حيناً يتحدى الموحدين، ويشتبك معهم فى معارك متوالية، إلى أن هزم أخيراً ، وقتل ، وقتل معه كثير من أنصاره ، وحمل رأسه إلى مراكش (سنة ٥٤٤ ﻫ) .

وخرج عبد المؤمن فى قواته من مراكش سنة ٥٤٥ ﻫ ، مستخلفاً عليها أبا حفص عمر بن يحيى الهنتاتى ، وسار إلى مدينة سلا ، وأمر بأن تنشأ قصبة وقصر فوق اللسان الممتد فى البحر أمام سلا ، وبأن ينشأ سرب يستمد الماء من عين غبولة القريبة لإمداد المحلة الموحدية ، فتم ذلك ، وجرى الماء ، وغرست الحدائق والرياض ، وأذن الخليفة للناس فى التعمير والسكنى ، فكان ذلك منشأ مدينة رباط الفتح ، التى غدت من ذلك الحين مركزاً لتجمع الجيوش الموحدية الغازية . ولبث الخليفة بسلا خمسة أشهر . وفى خلال ذلك ، وفدت عليه وفود عديدة من الأندلس بلغت زهاء خمسمائة من الفقهاء والقضاة والزعماء والقادة ، فاستقبلهم الوزير أبو إبراهيم والوزير أبو حفص ، والكاتب الوزير أبو جعفر بن عطية ، وأشياخ الموحدين . فأكرمت وفادتهم وأنزلوا خير منزل . ثم أخذوا لمقابلة الخليفة ، وكان دخولهم عليه فى غرة شهر المحرم سنة ٤٤٦ ﻫ ، وكان أول من تقدم بين يديه وفد قرطبة ، فشرح قاضيها أبو القاسم ابن الحاج للخليفة ، ما تعانيه قرطبة ، من تهديد النصارى وضغطهم ، وتلاه الكاتب أبو بكر بن الجد بخطبة بليغة ، ثم تعاقبت الوفود فى السلام والتهنئة ، فشمل الخليفة الجميع بعطفه ، وأجزل لهم الصلات كل على قدر مكانته ، ثم أمرهم بالانصراف إلى بلادهم[1]. ولاريب أن تعاقب الوفود الأندلسية على المغرب على هذا النحو ، كان له أثره فى خطط عبد المؤمن المستقبلة ، نحو افتتاح الأندلس ، وتنظيم شئونها .

وغادر عبد المؤمن سلا فى أوائل سنة ٥٤٦ ﻫ ، وسار إلى المعمورة ، وهو يعتزم افتتاح بجاية وإفريقية . وكانت ثمة بواعث عديدة لها خطرها ، قد حملته على

---

(١) هذه هى رواية صاحب روض القرطاس (ص ١٢٢) ، ويمر البيذق على هذا الحادث بالصمت . ويشير إليه الزركشى فى تاريخ الدولتين (ص ٧) ، ولكنه يضع تاريخه سنة ٥٥٣ ﻫ ، ويقول لنا إنه كان ضمن الوفد الأندلسى ، الشاعرة الأندلسية الشهيرة حفصة بنت الحاج الركونى ، وانها أنشدت الخليفة شعراً ، أعجب به ، وأنه منحها إقطاع قرية ركانة .

اتخاذ هذا القرار ، منها اضطراب الأمور فى إفريقية واختلاف أمرائها ، واستطالة العرب عليها ؛ وعيثهم فى أراضيها ، حتى أنهم حاصروا مدينة القيروان . وأهم من ذلك كله ماحدث من اعتداء الفرنج الصقليين على الثغور الإفريقية ، وافتتاحهم لمدينة المهدية (سنة ٥٤٣ هـ) ، وسيطرتهم على الشاطئ الإفريقى من طرابلس حتى مياه تونس . كل ذلك حمل عبد المؤمن على أن يضع خطته لافتتاح إفريقية[1] . بيد أنه لم يسر فى ذلك الاتجاه توا ، بل سار إلى سبتة متظاهراً بقصد الجواز إلى الأندلس برسم الجهاد . وهنالك استدعى وجوه الأندلس وفقهاءها وقوادها ، فوفدوا إليه ، فحدثهم فى مسائلهم ، وألقى عليهم توصياته ثم صرفهم ، وغادر سبتة متجهاً فى الظاهر إلى طريق مراكش ، ولكنه سلك طريقاً أخرى غير مطروقة ، وأمر فى نفس الوقت بمنع السفر فى الطرق المسلوكة ، فى المغرب الأوسط ، من سلا إلى مكناسة ، ومن مكناسة إلى فاس ومن تلمسان إلى فاس . ثم اتجه نحو الشرق ، مبالغاً فى إخفاء وجهته ، وسار مسرعاً صوب بجاية ، واستولى فى طريقه على جزائر بنى مزغنة (وهى التى صارت مدينة الجزائر فيما بعد) ، ففر منها عاملها القائم بن يحيى إلى بجاية ، ونبأ أباه يحيى بن العزيز بالله الصنهاجى ، سليل بنى حماد ، بمقدم الموحدين . وكان بالجزائر فى نفس الوقت ، الحسن بن على الصنهاجى صاحب المهدية ، وابن عم صاحب بجاية ، وكان الفرنج الصقليون قد استولوا على المهدية فى أوائل سنة ٥٤٣ هـ (١١٤٨ م) حسبما تقدم ، فخرج منها ملتجئاً إلى ابن عمه يحيى ، فأنزله بالجزائر منزلا سيئاً ، فلما دخلها الموحدون ، بادر إلى عبد المؤمن فبايعه ، وصحبه مستظلا برعايته .

ويجدر بنا أن نذكر هنا كلمة عن مدينة بجاية هذه ، وهى التى سوف يتردد ذكرها منذ الآن فصاعداً ، فى مواطن ومناسبات تاريخية كثيرة . وكان إنشاؤها نتيجة لما حدث من الشقاق ، بين بنى زيرى أمراء إفريقية . وذلك أنه قام خلاف بين تميم بن المعز بن باديس أمير إفريقية ، وبين ابن عمه الناصر ابن علناس ، ففارقه الناصر ، وخرج فى أصحابه ، ودله بعضهم على موضع بجاية ، وقد كان به منازل قليلة للبربر ، وبين له مزاياه من المنعة ، والمرسى الذى يمكن أن يغدو مركزاً هاماً لرسو السفن ، وترويج التجارة ، فأمر باختطاط مدينة بهذا الموقع ، وهو فى حماية جبل شاهق ، وكان ذلك فى حدود سنة

---

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٣٥ .

٤٥٧ هـ (١٠٦٥م)[١] . وفى رواية أخرى أن بناء بجاية جاء نتيجة لتوغل العرب فى إفريقية وعيثهم فيها ، وأنهم لما قاموا بتخريب القيروان ، ومعظم مدن إفريقية ، فر منهم صاحب القيروان ، وخرج لنصرته ابن عمه المنصور بن حماد ، فهزمه العرب هزيمة شديدة ، ففر إلى قاعدته بالقلعة ، ولكن العرب جدوا فى أثره ، وطاردوه ، فبحث عن موضع يختط فيه لنفسه محلة جديدة لا يلحقه فيها شر العرب ، فدله بعض أصحابه على موقع بجاية ، وكان مرسى قديماً ، فاختطها فيه ، ونقل إليها مركز حكمه ، واتخذها دار ملكه[٢] . ومن ذلك الحين سارت بجاية فى طريق التقدم ، وغدت من أغنى وأزهر الثغور الإفريقية .

وكان بنو حماد هؤلاء أصحاب بجاية والقلعة ، وما يليها من ثغور المغرب الأوسط ، بونة وقسنطينة والجزائر ، هم فرع من بنى زيرى بن مناد ملوك إفريقية الصنهاجيين ، الذين بسطوا عليها سيادتهم مذ غادرها بنو عبيد الفاطميون إلى مصر ، فى أواخر القرن الرابع الهجرى ، وكانوا يستظلون فى البداية بسلطان الخلافة الفاطمية ، ثم أعلنوا استقلالهم ، وضخم ملكهم بإفريقية . وفى أوائل القرن الخامس خرج حماد بن يوسف بن زيرى على ابن أخيه باديس بن المنصور ابن يوسف ، واستقل بالمناطق الغربية ، أعنى الزاب والمغرب الأوسط ، وكان والياً عليها من قبل ابن أخيه ، وأسس بها إمارة جديدة عرفت بمملكة بنى حماد . ولما توفى حماد فى سنة ٤١٩ هـ ، تعاقب بنوه من بعده فى الملك ، وكان مركزهم فى البداية بالقلعة ، وهى محلة فى غاية المناعة والحصانة ، اختطها منشئ دولتهم حماد فى بقعة حصينة ، تقع جنوبى بجاية على مقربة من بلدة أشير ، وقد كانت وفقاً لقول الإدريسى من أكبر البلاد فى تلك المنطقة وأكثرها خلقاً ، وأغزرها خيراً ، وأوسعها أموالا ، وأحسنها قصوراً ومساكن ، وأعمها فواكه وخصباً ، وهى فى سند جبل سامى العلو ، صعب الارتقاء ، وقد استدار سورها بجميع الجبل ، ويسمى تاقربست . ويقول لنا ياقوت فى وصفها ، من أجهة أخرى ، « وليس لهذه القلعة منظر ولا رواء حسن ، إنما اختطها حماد للتحصن والامتناع »[٣] .

---

(١) ياقوت فى معجم البلدان تحت كلمة بجاية .

(٢) الاستبصار فى عجائب الأمصار المنشور بعناية الدكتور سعد زغلول (الإسكندرية ١٩٥٨) ص ١٢٨ و ١٢٩ .

(٣) الإدريسى فى وصف المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس ص٨٦ ، وراجع ياقوت فى معجم البلدان تحت كلمة « قلعة حماد » .

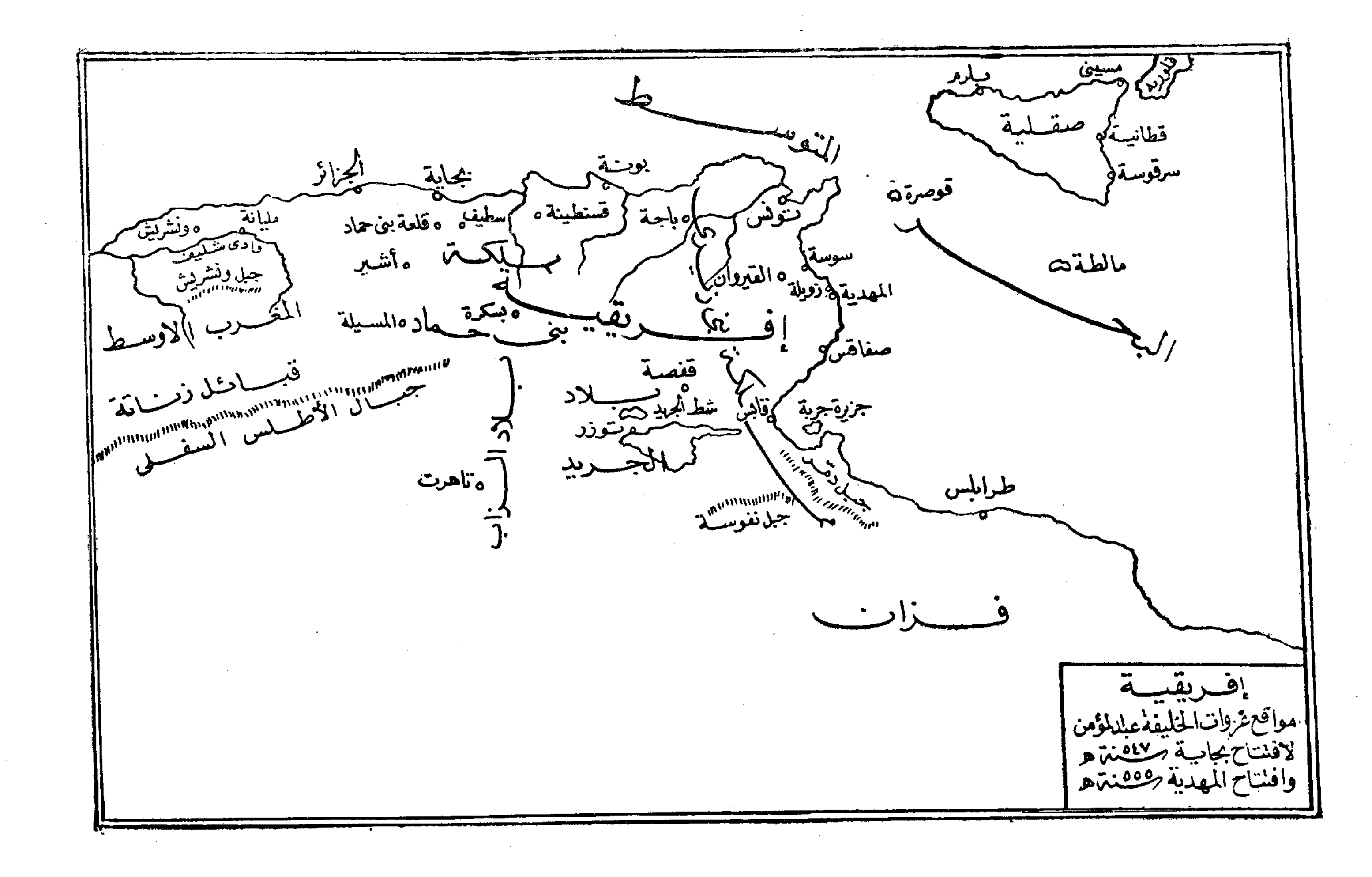
ثم انتقل بنو حماد ، بعد ذلك إلى بجاية منذ اختطها وأنشأها الناصر بن علناس بن حماد وذلك فى سنة ٤٥٧ هـ ، وجعلوها قاعدة ملكهم . وكانت مملكة بنى حماد ، حينما زحف الموحدون على بجاية فى حالة اضطراب وتفكك ، وكان ملكها يحيى ابن العزيز بالله أميراً ضعيفاً يعشق اللهو والصيد . وكان وزيره القائد أبومحمد ميمون بن على بن حمدون هو حاكمها الحقيقى ، فلما وصل الموحدون إلى بجاية ضربوا حولها الحصار . واتصل ابن حمدون سراً بعبد المؤمن ، وفتح له أبواب المدينة ، فدخلها الموحدون[١] . وفى الوثائق الموحدية ما يؤيد هذه الرواية . ففى الرسالة ، التى وجهها عبد المؤمن بعد فتح بجاية إلى أهالى قسنطينة يدعوهم إلى التوحيد، ما يفيد بأن القائد ابن حمدون كان ضالعاً فى السر مع الموحدين، وأنه عقب فتح بجاية انضم إليهم ، وخدمهم هو وأخوه الفقيه أبو عبد الله محمد بن على بن حمدون[٢] . بيد أن هناك رواية أخرى تقول إن ابن حمدون بالعكس خرج فى قوات بجاية ، وهى تزيد على العشرين ألف فارس ، واشتبك فى ظاهرها مع الموحدين فى معركة هزم فيها ، ودخل الموحدون المدينة على أثرها[٣] . وزحفت فى نفس الوقت قوة موحدية بقيادة عبد الله ولد الخليفة عبد المؤمن ، على القلعة —قلعة بنى حماد الشهيرة — وقد كانت من أعظم وأمنع قلاع المغرب ، وكانت معقل بنى حماد الأعظم ، ومهد ملكهم الأول ، فاستولت عليها ، وقتلت بها عدة ألوف من الصنهاجيين . ولما دخل الموحدون بجاية فر عنها صاحبها يحيى بن العزيز بالله إلى بونة ، وفر أخواه الحارث وعبد الله إلى صقلية حيث استظلا بحماية الفرنج . ثم سار يحيى من بونة إلى قسنطينة ، فامتنع بها مع أهله وقرابته ، وهنالك حاصره الموحدون ، فلما ضاق بالحصار ذرعاً ، أرسل أخاه وشيوخ صنهاجة وقسنطينة ، إلى عبد المؤمن يعلنون خضوعه ، وإذعانه إلى التسليم ويطابون الأمان فأجابهم عبد المؤمن إلى ما طلبوه . ولما غادر عبد المؤمن بجاية سار معه يحيى فى أهله وولده إلى مراكش ، وهنالك عاش فى كنف الخليفة فى عزة وسعة من الرزق ، ولبثوا بمراكش حتى انقرض بيتهم . وكان استيلاء

---

(١) روض القرطاس ص ١٢٦ .

(٢) راجع رسائل موحدية ، المنشور بعناية الأستاذ ليڤى بروڤنسال (الرباط سنة ١٩٤١) الرسالة السابعة ص ٢٠ .

(٣) ابن الأثير ج ١١ ص ٥٩ .



إفـريقيـة
مواقع غزوات الخليفة عبد المؤمن
لافتتاح بجاية سنة ٥٤٧ هـ
وافتتاح المهدية سنة ٥٥٥ هـ
البحر المتوسط
صقلية
بلرم
مسيني
قلورية
قطانية
سرقوسة
قوصرة
مالطة
الجزائر
بجاية
بونة
قسنطينة
سطيف
قلعة بني حماد
مليانة
ونشريش
وادي شليف
جبل ونشريش
أشير
مملكة بني حماد
بسكرة
المسيلة
المغرب الاوسط
قبائل زناتة
جبال الأطلس السفلى
تاهرت
بلاد الزاب
باجة
تونس
القيروان
سوسة
المهدية
زويلة
إفريقية
صفاقس
قفصة
بلاد الجريد
شط الجريد
توزر
قابس
جزيرة جربة
جبل دمر
جبل نفوسة
طرابلس
فزان

الموحدين على بجاية فى شهر ذى القعدة سنة ٥٤٧ هـ (يناير سنة ١١٥٣ م)[١].

وكانت بجاية فى ذلك الوقت ، حسبما يصفها لنا الإدريسى ، الذى زارها قبل ذلك بنحو عشرين عاما ، قاعدة المغرب الأوسط ، وميناؤها عامرة بالسفن الواردة والصادرة ، والبضائع تتدفق إليها براً وبحراً ، وأهلها تجار مياسير ، وبها من الصناعات والصناع ما ليس بكثير من البلاد ، ولأهلها معاملات مع تجار المغرب الأقصى ، وتجار الصحراء ، وتجار المشرق ، وبها تحل الشدود وتباع البضائع بالأموال الوفيرة ، ولها بواد ومزارع ، والحنطة والشعير يوجدان بها بكثرة ، وكذلك سائر الفواكه ، وبها دار صناعة لإنشاء الأساطيل والمراكب والسفن الحربية ، يمدها الخشب الكثير الموجود فى جبالها وأوديتها ، والزفت البالغ الجودة والقطران الموجود فى أقاليمها ، وبها أيضاً معدن الحديد الطيب ، وهى مركز هام للمواصلات إلى بلاد إفريقية . وهذا كله فضلا عن حصانتها الطبيعية ، سواء من ناحية البر أو البحر[٢] .

وكانت جموع من العرب من بطون أثبج وزغبة ورياح وغيرها ، تحتل المنطقة الشاسعة ، الواقعة جنوبى بجاية ، وتعيش فى ظل بنى حماد ، وتحت حمايتهم. فلما استولى الموحدون على مملكة بنى حماد ، شعر أولئك العرب بما يهددهم من فقد أوطانهم وأرزاقهم ، فاحتشدوا لمقاومة الموحدين ، وأخذوا يغيرون على مؤخراتهم ، ويزعجون محلاتهم ، فاعتزم عبد المؤمن أن يطهر هذه المناطق من عيثهم ، وسار فى قواته إلى سطيف ، وجهز لقتالهم حملتين ، الأولى بقيادة صهره وزوج ابنته عبد الله بن وانودين ، والثانية بقيادة يصلاسن بن المعز ، ولكن ثار بين القائدين خلاف ، تعدى فيه يصلاسن على زميله صهر الخليفة وأهانه . ثم تركه وحده فى مواجهة العرب . فانتهز العرب هذه الفرصة وهاجموا قوات عبد الله بن وانودين وهزموه وأسروه ثم قتلوه . فاستشاط عبد المؤمن لذلك غضباً ، وحشد كافة الموحدين لمقاتلة العرب . فلما شعر العرب بشدة وطأة الموحدين ، افترقت كلمتهم ، وأذعن بعض زعمائهم إلى التوحيد ، وشدد عبدالمؤمن

---

(١) أخبار المهدى ابن تومرت ص ١١٣ و١١٤ ، والحلل الموشية ص ١١٢ و١١٣ ، وروض القرطاس ص١٢٨ و١٢٩ ، والمعجب ص ١١٣ و١١٤ . وراجع الرسالة الثامنة من رسائل موحدية ص ٢٤ و٢٥ ، وكذلك المؤنس فى أخبار إفريقية وتونس ص ١١١ .

(٢) الإدريسى فى وصف المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس ص ٩٠ و ٩١ .

فى قتال من تبقى منهم ، ونشبت بين الفريقين معركة شديدة ، دامت يوما وليلة ، وهزم العرب فى نهايتها شر هزيمة ، ومزقت جموعهم ، وقتل وأسر منهم عدد جم . وكان فى مقدمة القتلى ألمع زعمائهم هلال بن عامر . واستولى الموحدون على غنائمهم من العتاد والدواب ، وكانت وفيرة هائلة . ثم طاردوهم مدى ثلاثة أيام أو أربعة فى مختلف الأنحاء ، حتى قضوا على معظم فلولهم . وحدثت هذه الموقعة الحاسمة فى شهر ربيع الأول سنة ٥٤٨ هـ (يونيه ١١٥٣ م)[١] .

وبينما كان عبد المؤمن فى بجاية ، إذ اجتمعت حشود غفيرة من صنهاجة يقودها زعيم يدعى أبو قصبة من بنى زالدوى ، وانضمت إليها كذلك جموع كثيرة من كتامة ولواتة وغيرهما ، وسارت هذه الجموع لقتال الموحدين ، فبعث عبد المؤمن لردهم حملة قوية بقيادة أبى سعيد يخلف ، وهو من أصحاب خمسين ، فالتقوا فى عرض الجبل شرقى بجاية ، فانهزمت صنهاجة وحلفاؤها ، وقتل معظمهم ، وأخذت أسلابهم ونساؤهم[٢] . ويقول لنا البيذق إن الذى قام بمدافعة صنهاجة هو عبد المؤمن نفسه ، وقد كان فى قلة من جنده وحشمه ، ولكنه خرج ليردهم بنفسه ، واشترك فى قتالهم ، مع أنه لم يمتشق السيف منذ موقعة البحيرة عام ٥٢٤ هـ[٣] .

وغادر عبد المؤمن بجاية ، بعد أن نظم شئونها ، وندب لولايتها ولده أبا محمد عبد الله ، وسار فى جيشه الظافر ، أولا إلى تلمسان ، ثم سار إلى فاس ، ومكناسة ، ثم إلى سلا ، ووزع الغنائم والسبى على هذه البلاد . ثم غادر سلا إلى مراكش ، وفى ركبه عدة من زعماء العرب — أو سلاطينهم حسبما يصفهم البيذق — الذين خضعوا فى تلك الحركة . ولما وصلوا إلى مراكش ، زودهم بالأموال ورد إليهم نساءهم وأولادهم ، وصرفهم إلى بلادهم .

— ٤ —

وصل عبد المؤمن إلى مراكش ليواجه آثار مؤامرة دبرت فى غيبته ، وكادت أن تصدع صرح حكومته ، لو لم تخمد فى مهدها .

---

(١) أخبار المهدى ابن تومرت ص ١١٤ و ١١٥ ، ورسائل موحدية ، فى الرسالة التاسعة ص ٣٢ — ٣٥ .

(٢) ابن الأثير ج ١١ ص ٦٠ .

(٣) أخبار المهدى ابن تومرت ص ١١٥ .

وكان بطلا هذه المؤامرة أخوا المهدى ابن تومرت ، أبو موسى عيسى ، وأبو محمد عبد العزيز ، وكانا مذ ظفر عبد المؤمن بخلافة المهدى واجتناء تراثه ، يرقبان الفرص لبث الاضطراب والشغب ، ويظاهرهما كثير من أهل هرغة ، قبيلة المهدى ، وكان عبد المؤمن بالرغم من وقوفه على ما يضمره الأخوان له من البغض والكيد ، وما جنحا إليه من الانحراف ، ومخالطة أهل السوء ، يغضى عن سلوكهما ، ويجزل لهما الصلات والنفقة ، برا بذكرى المهدى وقرابتهما الوثيقة له ، ويكتفى بإسداء النصح اليهما . فلما سار المهدى إلى غزاته لافتتاح إفريقية ، شعر الأخوان بأن الفرصة قد سنحت لتدبير الإنقلاب المنشود ، وكانا يقيمان بفاس ، ويلتف حولهما نفر من الناقمين . فسارا فى صحبهما من فاس إلى مراكش ، وهنالك استطاعا تحريك بعض الجموع ، واضطرمت بالمدينة فتنة ، قتل خلالها والى المدينة عمر بن تفْراجين حين خروجه فى الفجر إلى الجامع ، وكاد يستطير شررها . وعلم عبد المؤمن بما حدث وهو فى سلا (أواخر سنة ٥٤٥ هـ) ، فبعث الوزير ابن عطية على عجل ليستدرك الأمر ، فوصل إلى مراكش بعد يومين ، واستطاع فى الحال أن يخمد الفتنة ، وأن يقبض على زعيميها عيسى وعبد العزيز . ويقول لنا البيذق إن الخليفة ، أمر بقتل المخالفين من هرغة وأهل تينملّل ، ولكنه أبقى على حياة أخوى المهدى وبعثهما إلى فاس حيث اعتقلا هناك تحت إشراف واليها الحيّانى(١) . ولكن صاحب البيان المغرب يقول لنا إنهما قتلا وصلبا ضمن من قتلوا وصلبوا من الخوارج ، فقتل عيسى قرب باب الدباغين ، وقتل عبد العزيز بباب أغمات(٢) . ويؤيد هذه الرواية ما ورد فى خطاب الخليفة الرسمى عن الحادث من الإشارة غير مرة إلى مصرع المخالفين ، وفتك العامة بهم وصلبهم خارج المدينة(٣) .

وما كاد عبد المؤمن يصل إلى مراكش حتى قام بحركة تطهير شاملة ، قُبض خلالها على كثير من الخواج وأهل التخليط ، حسبما تصفهم الرواية ، من سائر القبائل ، وألقوا إلى ظلام السجن . ثم أصدر الخليفة أمره بأن يتولى الموحدون المخلصون ، من كل قبيلة ، قتل المارقين من قبيلتهم بأنفسهم .فامتثل الموحدون

---

(١) أخبار المهدى ابن تومرت ص ١١٦ .

(٢) البيان المغرب ، القسم الثالث ص ٣٨ .

(٣) الرسالة الحادية عشرة من رسائل موحدية (ص ٣٢ و ٤٥ و ٤٦) .

لما أمروا به ، وتولوا الإجهاز بأيديهم ، كل جماعة على أبناء قبيلتها ، وكان الخليفة أثناء هذه المذبحة الجديدة ، يجلس فى البرج القائم فى أعلى قصره ، قصر الحجر ، ليشهد التنفيذ بنفسه . ويقول المؤرخ معلقاً على ذلك « فطرقت للموحدين فى هذا الوقت وحشة من الخجل والوجل ، ودهشة من قبيح ما ظهر من الغادرين المذكورين ، من نكوث العهد ، فى السهل والجبل ، فتراموا على خليفتهم راغبين فى العفو وإزالة الكدر ، وجلب ما تعودوه من الخلوص والظفر ، فقبل منهم ما أملوا ، وتعطف عليهم على عادته بما سألوا » . وبعث الخليفة بهذه المناسبة ، إلى مختلف البلدان ، رسالة من إنشاء الوزير ابن عطية ، تفيض بلاغة وبيانا ، يفصل فيها ما حدث ، ويوضح موقفه ويلتمس الأعذار لتبريره[١] .

وكان من الحوادث البارزة فى هذه الحركة الدموية مصرع القائد يصلاسن ، ابن المعز الهرغى . وكان يصلاسن أو يصليتن حسبما يسمى فى رواية أخرى من زعماء قبيلة هرغة ، ومن أهل الدار ، أعنى من أقرباء المهدى[٢] . وقد رأينا فيما تقدم كيف اختلف مع ؛ ميله القائد عبد الله بن وانودين صهر الخليفة ، وتركه فى قواته ليواجه وحده العرب ، وكيف كان ذلك سبباً فى هزيمته ومصرعه . وكان عبد المؤمن يتوق إلى معاقبة يصلاسن على سوء تصرفه . ومن جهة أخرى ، فإنه يبدو أن يصلاسن كان ضالعاً مع خصوم عبد المؤمن ، ومؤيداً لحركة أخوى المهدى . فلما عاد عبد المؤمن إلى مراكش ، كان يصلاسن فى سبتة ، فأرسل الخليفة إلى واليها عبد الله بن سليمان بأن يدبر حيلة للقبض على يصلاسن وإرساله ، فدعا عبد الله يصلاسن إلى نزهة بحرية فى إحدى السفن ، فى مياه سبتة ، فلما توسط البحر ، انقض عليه وكبله بالحديد ، ونبأ عبد المؤمن بما تم ، فأمره بإعدام يصلاسن وصلبه بعد الإشهاد عليه بالذنب ، فقام عبد الله بما أمر به[٣] . وفى رواية روض القرطاس ، أن عبد الله أرسل يصلاسن مكبولا إلى مراكش ، وأنه أعدم بها وصلب على بابها تنفيذاً لأمر الخليفة[٤] .

واضطرمت الثورة فى نفس الوقت بأرض السوس ، وارتدت قبيلة جزولة

---

(١) البيان المغرب — القسم الثالث ص ٢٨ و ٢٩ .
(٢) أخبار المهدى ابن تومرت ص ٢٩ .
(٣) أخبار المهدى ابن تومرت ص ١١٥ و ١١٦ .
(٤) روض القرطاس ص ١٢٦ .

عن الطاعة ، وبعثوا إلى يحيى بن أبى بكر الصحراوى ، فوفد إليهم مع زعيم آخر من خصوم الموحدين يدعى الحاج بن مركونة ، وارتدت كذلك قبيلة لمطة وتزعم ثورتها محمد بن آمرجال ، ثم ارتدت قبيلة إيت ييغز ، وساروا إلى تازاجورت واقتحموها ، وقتلوا حاكمها الموحدى ، واما زير بن حواء الهنتاتى ، فاهتم عبد المؤمن لهذه الحوادث ، وسير الشيخ أبا حفص فى حملة قوية لإخماد الثورة ، فخرج إلى السوس ، وقاتل بنى ييغز ، ففروا إلى حيث كان الصحراوى ، ثم سار إلى سيروان ، حيث هزم بنى واوزجيت ، وقسمهم إلى قسمين ، قسم ضمه إلى أهل تينملل وقسم ضمه إلى هنتانة ، ثم عاد إلى مراكش حيث أمر الخليفة بحشد قوات جديدة ، وخرجت هذه القوات بقيادة أبى حفص ، وأربعة آخرين من أكابر القادة الموحدين ، هم وسنار ، وعبد الله بن أبى بكر بن ونكى ، وعبد الله بن فاطمة ، وعمر بن ميمون ، وسارت كل قوة منها إلى منطقة من المناطق الثائرة ، وهوجمت قبائل لمطة ، وهشتوكة ، وتاسريرت وآهوكار وغيرها من القبائل الثائرة ، وهزمت جميعاً ، وأذعن بعضها إلى التوحيد ، وأخذت غنائمها وسبيها إلى مراكش ، وبلغ نصيب الخليفة من تلك الغنائم ، ثمانمائة ناقة[1] ، ووقعت هـذه الحوادث ، فيما يرجح فى أوائل سنة ٥٤٩ هـ (سنة ١١٥٤ م) .

ولما تم إخضاع القبائل الثائرة والمرتدة على هذا النحو ، غادر عبد المؤمن مراكش إلى تينملّل ، وهناك زار قبر المهدى ، وفرق فى أهلها أموالا كثيرة وأمر ببناء مسجدها ، وتوسيع خططها[2] .

---

(١) أخبار المهدى ابن تومرت ص ١١٧ .

(٢) روض القرطاس ص ١٢٦ .

الفصل السابع

فتـــح المهـــدية

وإجلاء الفرنج عن إفريقية

غزوات الفرنج النورمانيين لثغور إفريقية . استيلاؤهم على طرابلس والمهدية . فرار الحسن الصنهاجى أمير المهدية وآله . انتهاء مملكة بنى زيرى . استيلاء الفرنج على سوسة وصفاقس . التجاء الحسن إلى عبد المؤمن . إحجام عبد المؤمن حين غزوه لبجاية عن مهاجمة الفرنج . استيلاء الفرنج على بونة . وفاة الملك رجار النورمانى . بداية الثورة فى إفريقية ضد الفرنج . الثورة فى جزيرة جربة وصفاقس وطرابلس وقابس . انتزاع الموحدين لبونة . فشل الثورة فى المهدية وزويلة . استغاثة أهل إفريقية بعبد المؤمن . تأهبه للجهاد ضد الفرنج . مسير عبد المؤمن فى قواته إلى رباط الفتح . تكامل الحشود وتضخمها . مسير عبد المؤمن إلى إفريقية ومعه الحسن الصنهاجى . مسير الأسطول فى البحر إلى شاطىء إفريقية . استيلاء عبد المؤمن على تونس . شروط الأمان الممنوح لها . عبد المؤمن يهاجم المهدية ثم يحاصرها . دخول صفاقس وطرابلس وجبال نفوسة فى الطاعة . افتتاح الموحدين لقابس . معركة بحرية بين الموحدين والفرنج . تسليم المهدية بالأمان . إتمام تحرير إفريقية من نير الفرنج . المناوشات بين عبد المؤمن وبين العرب . أصل أولئك العرب الأفارقة . نزوحهم إلى مصر . قصة نزوحهم إلى إفريقية . عبورهم إلى الغرب ونزولهم به . محاولة استمالة المعز بن باديس لهم وعيثهم بأراضيه . الحرب بينهم وبين البربر . هزيمة المعز وفراره إلى القيروان . حصار العرب للقيروان . دخولهم إياها وتخريبهم لها . تخريبهم لتونس ونهبها . نزولهم فى المهدية . قطعهم السبل وبسطهم لحكم الإرهاب فى إفريقية . سيطرتهم على طرابلس وقابس وبلاد الزاب . تحولهم إلى عنصر خطر بغيض . اعتداؤهم على قابس ، واستنقاذ عبد المؤمن لها . تفكير عبد المؤمن فى حشد طوائفهم فى عسكره . تظاهرهم بالتبول وغدرهم . محاصرة الموحدين لهم وفتكهم بهم . عبد المؤمن يرد حريمهم ويستميلهم بصلاته . عبور عبد المؤمن إلى الأندلس .

لما افتتح الموحدون بجاية معقل إفريقية[1] من الغرب ، فى أواخر سنة ٥٤٧ هـ ، وقضى عبد المؤمن على سائر الثورات والمؤامرات التى دبرت ضده سنة ٥٤٩هـ ، وقصد على أثر ذلك إلى تينملّل ، وزار قبر المهدى ، كانت الظروف تتهيأ لمرحلة جديدة من الفتح الإفريقى . وكانت الحوادث فى إفريقية ، قد تطورت خلال هذه الأعوام الأخيرة تطوراً سيئاً ، واستفحل عدوان الفرنج النورمانيين أصحاب صقلية ، على الثغور التونسية ، والشواطئ المجاورة . وكان الفرنج

---

(١) يقصد بإفريقية هنا « منطقة تونس » .

النورمان قد استولوا على جزيرة جِربة الواقعة فى مدخل خليج قابس منذ سنة ٥٢٩ هـ (١١٣٥ م) ، بعد أن قاومهم أهلها مقاومة عنيفة ، ثم حاولوا الاستيلاء على ثغر طرابلس فى سنة ٥٣٧هـ (١١٤٢ م) . فهاجموه بأسطول قويٍ ، ولكنهم فشلوا وردهم أهله المسلمون بخسارة فادحة ، وكانت طرابلس وقتئذ تابعة لمملكة إفريقية (تونس) ، ولكنها لم تكن تدين بالطاعة لملكها الأمير الحسن بن على بن يحيى الصنهاجى. ثم عاد رُجّار (روجر) ملك صقلية ، فجهز إلى طرابلس أسطولاً ضخماً ، واستطاع الفرنج هذه المرة الاستيلاء عليها (٥٤١هـ — ١١٤٦م) وولوا عليها رجلا من بنى مطروح . وفى العام التالى (٥٤٢ هـ) أعلن يوسف صاحب قابس المتغلب عليها طاعته للفرنج ، فبعث الأمير الحسن جيشاً لقتاله ، فنازل قابس وحاصرها ، وثار أهل البلد بيوسف ، فأسر وعذب وقتل ، وفر إخوته وأولاده إلى صقلية ، واستغاثوا بملكها رجار الثانى . وكانت الهدنة معقودة بين رجار وبين الحسن لمدة سنتين ، ولكن رجار علم ما تعانيه إفريقية والمغرب فى هذه الفترة ، من الشدة الغلاء والقحط ، ولم يرد أن تفوته هذه الفرصة السانحة لمهاجمة إفريقية ، وانتزاع ما يمكن انتزاعه منها . فسير إلى مياه إفريقية أسطولا ضخماً قوامه مائتى وخمسين سفينة مشحونة بالرجال والسلاح والأقوات ، بقيادة أمير البحر جرجى الأنطاكى ، وكان قبل التحاقه بخدمة ملك صقلية ، أميراً لأسطول إفريقية الإسلامى ، ومن ثم كان علمه بأسرار هذه الشواطئ . واستولى الأسطول فى طريقه على جريرة قوصرة(بنتلاريا) الواقعة بين صقلية ، وبين الشاطئ التونسى ، ثم سار نحو الجنوب الغربى ، وقصد إلى ثغر المهدية ، وهى قاعدة مملكة بنى زيرى الصنهاجيين . وكان ذلك فى اليوم الثانى من صفر سنة ٥٤٣ هـ (يونيه ١١٤٨ م) . وكان أمير البحر جرجى يرجو مفاجأة المدينة ، بالوصول إليها فى وقت السحر ، ولكن الرياح عاكسته ، ولم يصل إلا فى الضحى ، فرآه أهل المدينة ، وانزعج الأمير الحسن الصنهاجى من قدوم الفرنج ، وبعث إليه جرجى يخاطبه باللين ، ويقول إنه مازال يحترم الهدنة المعقودة بينه وبين الملك رجار ، ولكنه يطالب بثأر صاحب قابس وردها إلى ولده ، ويطلب أن تنضم إليه قوة من جند الحسن ، فجمع الحسن فقهاء المدينة وأعيانها ، وشاورهم فى الأمر ، وبين لهم حرج الموقف ، وتخوفه من قيام الفرنج بحصار المدينة ، وقطع الأقوات عنها ، ثم اقتحامها عنوة ، والفتك بأهلها ، ونصح بمغادرة الناس

للمدينة ، قبل أن يفوت الوقت ، ثم بادر هو بالخروج منها ومعه الأهل والولد ، ومن صحبه من الفقهاء والأعيان ، وقد حمل معه كل ما يستطاع من المال والذخائر ، وتبعه معظم الناس ، فخرجوا بأهلهم وأولادهم ، ومعهم ماخف حمله من أموالهم ومتاعهم . ولم يكد يأتى العصر حتى كان معظم أهل المهدية قد غادروها ، وأقبل الفرنج وعلى رأسهم جرجى ودخلوا المدينة دون ممانعة ، ودخل جرجى القصر ، وكان ما يزال غاصاً بنفيس المتاع والرياش والذخائر ، وبه عدة من جوارى الحسن ، فاحتاط الفرنج على ما فيه ، ونُهبت المدينة مدى ساعتين ، ثم نودى بالأمان ، فظهر من استخفى من أهل المدينة ، واستدعى جرجى العرب القريبين فأحسن إليهم ، وفرق فيهم أموالا جزيلة ، وبعث طائفة من جند المهدية ، فى أثر من خرج من أهلها ، ومعهم الأمان لهم ، ومعهم كذلك دواب يعودون عليها ، فعاد معظمهم . أما الحسن ، فسار فى أهله وولده ، وكانوا إثنا عشر ولداً غير الإناث ، والخاصة ، وقصد إلى أمير من أمراء العرب يدعى محرز ، وكان أبو الحسن قد آثره وأحسن إليه ، فأكرم محرز وفادته ، فأقام لديه شهوراً . ثم بعث إلى ابن عمه يحيى بن العزيز بالله صاحب بجاية ، يستأذنه فى الوفود عليه والانضواء تحت لوائه ، والسفر من لديه إلى الخليفة عبد المؤمن ، فأذن له يحيى ، ولكنه ماكاد يصل إلى بلاده ، حتى سيره إلى جزائر بنى مزغنة ، أو بنى مزغنان (وهى الجزائر الحالية) وأنزله بها هو وأولاده فى حالة اعتقال ، وضيق عليه .

وهكذا انتهت باستيلاء الفرنج على المهدية ، وعزل الحسن ، مملكة بنى زيرى ابن مناد الصنهاجيين ، بعد أن لبثت فى إفريقية مذ رحل المعز لدين الله عنها إلى مصر ، فى سنة ٣٦١هـ ، وتولى زيرى بن مناد حكمها ، حتى سقوط المهدية فى سنة ٥٤٣هـ ، مائة وثمانين سنة ، ولم تمض أيام قلائل على استيلاء الفرنج على المهدية حتى سير أمير البحر جرجى حملة بحرية إلى سوسة ، وكان واليها الأمير على بن الحسن ، فغادرها ، وخرج عنها أهلها ، ودخلها الفرنج دون قتال فى الثانى عشر من شهر صفر . وسير جرجى بعد ذلك حملة أخرى إلى صفاقس ، فاستولت عليها بعد مقاومة عنيفة من أهلها ومن حلفائهم العرب ، وذلك فى الثالث والعشرين من صفر . ثم نودى بالأمان ، فعاد الناس إلى سوسة وصفاقس ، وافتدوا حريمهم وأولادهم ، وأحسن الفرنج معاملتهم . ثم وصلت بعد ذلك كتب الملك رُجَّار بمنح الأمان لسائر أهل إفريقية . وهكذا استولى الفرنج النورمانيون على شاطئ

إفريقية من ثغر طرابلس حتى خليج تونس (١) .

ولما سار الخليفة عبد المؤمن فى جيوشه من سلا فى أوائل سنة ٥٤٦ هـ ، متجهاً إلى بجاية بغية فتحها ، واستولى فى طريقه على جزائر بنى مزغنة ، خرج إليه منها الحسن بن على الصنهاجى ، وكان معتقلا بها كما تقدم ، وبايع عبد المؤمن بالطاعة ، ملتجئاً إليه ومستظلا برعايته ، فأكرم عبد المؤمن مثواه ، وصاهره بأن تزوج ابنة من بناته ، واصطحبه معه إلى مراكش . وبالرغم من تقدم الفرنج والنورمانيين على هذا النحو ، فى امتلاك ثغور إفريقية ، فإن الظروف التى كانت تحيط بالموحدين يومئذ ، لم تكن تسمح لعبد المؤمن ، بأن يدخل فى صراع مع الفرنج ، وهو مازال يعمل على توطيد أركان الدولة الجديدة ، ومطاردة أعدائها فى الداخل ، ومن ثم فإنه بعد أن افتتح بجاية ، وقضى على شغب العرب المحالفين لبنى حماد ، عاد إلى سلا ثم إلى مراكش ، ليواجه أحداثاً جديدة فى الداخل .

ولكن الفرنج الصقليين لم يقفوا عند حد . ذلك أنه لم تمض بضعة أعوام على افتتاحهم للمهدية ، وباقى ثغور إفريقة (تونس) الشرقية ، حتى سار من صقلية أسطول فرنجى جديد بقيادة أمير البحر فيليب المهدوى ، وقصد إلى مدينة بونة ، الواقعة شرقى بجاية ، فى منتصف المسافة بينها وبين تونس ، فحاصرها واستعان على أخذها بالعرب ، وذلك فى شهر رجب سنة ٥٤٨ هـ (أكتوبر ١١٥٣ م) . وبالرغم من أن فيليب قد سبى أهل بونة ، واستصفى أموالها ، فإنه أغضى عن جماعة الفقهاء والعلماء ، فتركهم يخرجون بأهلهم وأموالهم ، فترتب على ذلك أن اتهمه بعض خصومه بأنه نصرانى مارق ، وأنه يبطن الإسلام هو وفتيانه ، فقبض عليه الملك رُجار ، وحكم عليه بالموت حرقاً . وتوفى رُجار بعد ذلك بقليل (فبراير ١١٥٤ م) وخلفه فى الملك ولده ، وليم ، وهو المسمى فى الرواية العربية غليالم . ولم يكن وليم يتمتع بكثير من مقدرة أبيه وحزمه ، فلم تلبث أن اضطربت شئون المملكة ، وثارت عليه بعض النواحى ، وكان لذلك أثره فى تطور الحوادث فى إفريقية .

ذلك أن أهل الثغور الإسلامية المفتوحة ماكادوا يشعرون باضطراب الأحوال فى صقلية ، حتى بادروا بإعلان الخلاف ، ونبذ طاعة الفرنج ، وكان أول من ثار منهم أهل جزيرة جربة ، ثم تلتها مدينة صفاقس ، وكان واليها عمر بن

---

(١) ابن الأثير ج ١١ ص ٤٧ — ٤٩ .

أبى الحسن الفريانى ، قد وُلى عليها من قبل رُجار ، وأخذ أبوه الشيخ أبو الحسن إلى صقلية رهينة بحسن طاعته ، ولكن أبا الحسن أوعز إلى ولده بأن ينتهز أول فرصة لتحطيم نير الفرنج ، ولايبالى فى ذلك بمصيره . فأعلن عمر الخلاف ، ودعا أهل المدينة إلى قتل الفرنج وسائر النصارى ، ففتكوا بهم ، وقتلوهم عن آخرهم ، وكان ذلك فى أوائل سنة ٥٥١ هـ (أوائل ١١٥٦ م) . واضطرمت الثورة ضد الفرنج فى نفس الوقت فى طرابلس بقيادة شيخها أبى يحيى بن مطروح ، وكان زعيما شهماً حازماً ، وأسرت الحامية النصرانية (أوائل ٥٥٣ هـ) ، وكذلك اضطرمت الثورة ضد الفرنج ، فى قابس ، وسارت قوة موحدية من بجاية إلى مدينة بونة ، وانتزعتها من الفرنج ، ولم يبق بيد الفرنج من ثغور إفريقية سوى سوسة والمهدية . وحرض عمر بن أبى الحسين والى صفاقس ، أهل بلدة زويلة الواقعة على مقربة من المهدية ، أن يقتلوا النصارى ففعلوا ، وعاونهم العرب على قطع المؤن والأقوات عن المهدية . ولما علم الملك وليم بذلك ، حاول أن يدفع الفقيه أبى الحسن إلى نصح ولده ، وبعث يتهدد عمراً بالويل ، إذا لم يعدل عن سلوكه ، فلم تنجح المحاولة ، وأمر وليم بأبى الحسن فصلب أو شنق وهو يتلو القرآن[1]. واجتمع أهل زويلة وصفاقس ومن معهم من الأعراب ، وحاصروا المهدية ، وضيقوا عليها ، فبعث وليم إلى المهدية عدداً من السفن المشحونة بالرجال والأقوات ، واستمال الفرنج الأعراب بالمال والأعطية ، فانسحبوا من المعركة وانحصر القتال بين الفرنج وأهل صفاقس وزويلة ، واستطاع أهل صفاقس الانسحاب بطريق البحر ، ووقع عبء القتال كله على أهل زويلة ، فارتدوا إلى بلدهم ، وقاتلوا تحت أسوارها حتى فنى معظمهم ، ولم ينج منهم إلا القليل ، ودخل الفرنج زويلة فقتلوا من وجدوا بها من النساء والأطفال ، ونهبوا الأموال ، واستقر الفرنج بالمهدية ، على أهبة للصراع المرتقب[2] .

ووفد على عبد المؤمن ، وهو يومئذ بمراكش ، وفود من زويلة ، وغيرها من الثغور المنكوبة يستغيثون به ، ويستصرخونه لرد عادية الفرنج عنهم وعن أرض الإسلام ، فأكرم وفادتهم ووعدهم خيراً . وكان الحسن بن على الصنهاجى أمير المهدية السابق ، ما فتئ منذ نزوله فى كنف عبد المؤمن ، يحرضه

---

(١) رحلة التجانى (تونس ١٩٥٨) ص ٧٥ و ٢٤٢ .

(٢) ابن الأثير ج ١١ ص ٧٦ و ٧٧ .

على استنقاذ إفريقية ، وتحريرها من نير الفرنج ، وكان عبد المؤمن نفسه ، يرقب تقدم الفرنج فى هذا الركن من شمال إفريقية ، بكثير من التوجس ، ويخشى أن يتفاقم عدوانهم بالتوغل فى أرجاء أخرى من شمالى المغرب . ومن ثم فإنه ما كاد ينتهى من تنظيم الشئون الداخلية ، حتى أمر باتخاذ الأهبة للجهاد ، وأن تجمع الأقوات ، وتحفر الآبار فى الطرق ، وبعث كاتبه عبد الملك بن عيّاش ، بالكتب إلى سائر قبائل الموحدين ، يستنفرهم للجهاد ، وادخار المؤن ، وكتب إلى أهل الثغور البحرية بإنشاء السفن والأجفان . وكان عبد المؤمن ، بعد أن نكب وزيره وكاتبه أبا جعفر بن عطية ، وأمر بقتله (صفر سنة ٥٥٣ هـ) حسبما نفصل فى موضعه ، قد استوزر مكانه عبد السلام بن محمد الكومى ، وعين لكتابته عبد الملك بن عيّاش القرطبى . وفى فاتحة شوال سنة٥٥٣هـ (نوفمبر ١١٥٨ م) ، غادر عبد المؤمن حضرة مراكش ، وسار إلى رباط الفتح ، قبالة ثغر سلا ، مستخلفاً على مراكش الشيخ أبا حفص عمر بن يحيى الهنتانى ومعه ولده أبو الحسن على ، وعلى فاس أبا يعقوب يوسف بن سليمان . وتوافدت عليه العساكر من كل صوب . فلما تكامل ورود الجيوش الموحدية ، تحرك عبد المؤمن من سلا فى العاشر من شهر صفر سنة ٥٥٤ هـ (فبراير ١١٥٩ م) ومعه الحسن بن على الصنهاجى أمير إفريقية السابق(١) . وتقدر الرواية هذا الجيش الموحدى الكبير بمائة ألف مقاتل ومعهم مثل هذا العدد من الأتباع والسوقة(٢). وفى رواية أخرى أنه كان يضم خمسة وسبعين ألف فارس ، وخمسمائة ألف من الرجالة ، وكان يضم عدا طوائف الموحدين ومختلف القبائل من زناتة والأغزاز والرماة وغيرها ، جموعاً كبيراً من قبائل العرب . وكان ينقسم إلى أربعة جيوش ، لكل عسكر يوم يختص به ، مسيره فى كل مرحلة من السحر إلى وقت الغداة . وتنزل الجيوش مرحلة إلى يوم آخر(٣) . واخترق هذا الجيش الجرار هضاب المغرب ، متجهاً نحو إفريقية ، واخترق بلاد الزاب من جنوبها ، وهو يفتتح المعاقل الممتنعة ، ويؤمن من استأمن. ثم اتجه نحو الشمال فوصل إلى أحواز مدينة تونس فى الرابع والعشرين من جمادى الثانية ، ومعنى ذلك أنه قطع هذه المسافة الشاسعة ، وهى تبلغ نحو ألف

---

(١) البيان المغرب ، القسم الثالث ص ٣٨ ، وابن الأثير ج ١١ ص ٩١ .
(٢) ابن الأثير ج ١١ ص ٩١ .
(٣) الحلل الموشية ص ١١٥ .

وثلاثمائة ميل فى نحو أربعة أشهر ونصف ، وقد كانت يومئذ « مسيرة سبعين يوماً للفارس المجد » . وسار الأسطول الموحدى فى نفس الوقت قبالة شاطئ البحر المتوسط بقيادة أبى عبد الله بن ميمون ، وكان مكوناً من سبعين سفينة حربية ، من الشوانى والطرائد والشلندرات . ولما وصل الموحدون إلى المدينة ، بعث عبد المؤمن إلى أهلها يطلب الطاعة ، فرفض أهل المدينة ، وعلى رأسهم حاكمها أحمد بن خراسان ، فبدأ الموحدون مهاجمة المدينة ، وعاقت الرياح الأسطول عن دخولها من ناحية البحر ، فلما دخل الليل ، أقبل سبعة عشر رجلا من أعيانها يطلبون الأمان لأهلها ، فمنحهم عبد المؤمن الأمان المطلوب لأنفسهم ، وارتضى الأمان لأهل المدينة فى أنفسهم وأهلهم فقط ، على أن يقاسمهم الموحدون أملاكهم وأموالهم بحق النصف ، وأن يخرج حاكم البلد وأهله منها ، فاستقر الرأى على ذلك ، ودخل الموحدون المدينة ، وزصدت الأملاك والأموال ، وأقيم عليها الأمناء لتحصيل ما يستحق منها للموحدين ، وأقام بها عبد المؤمن ثلاثة أيام ، وعرض الإسلام على من بها من النصارى واليهود ، وأمر بقتل كل ممتنع عن اعتناقه ، ثم غادر عبد المؤمن تونس فى قواته ، وسار جنوباً إلى المهدية ، والأسطول يلاحقه فى البحر ، فوصل إليها فى الثامن عشر من شهر رجب سنة ٥٥٤هـ (٥ أغسطس ١١٥٩ م) .

وكان الفرنج بالمهدية على أهبة للدفاع ، وكانت حاميتها تتكون من ثلاثة آلاف مقاتل ، وكانت المدينة فوق ذلك تموج بطوائف الأشراف والفرسان الفرنج[1] ، وقد أخلى الفرنج ضاحيتها الشمالية زويلة ، فدخلها عبد المؤمن ، واحتلها الجند الموحدون والسوقة ، وانضمت إليهم جموع غفيرة من العرب وصنهاجة . وأخذ الموحدون فى منازلة المدينة ، ولكنهم لم يستطيعوا خلال ثلاثة أيام من الهجوم المستمر ، أن ينالوا منها شيئاً ، وكانت بمناعة موقعها الطبيعى ، والبحر يكاد يحيط بها إلا من لسان متصل بالبر ، وبأسوارها الحصينة العالية ، ترد كل محاولة ، وكان الفرنج يخرجون منها بين آن وآخر لمقاتلة الموحدين ، فينالون منهم ، ثم يعودون بسرعة إلى الاعتصام بالمدينة . وعندئذ أدرك عبد المؤمن أنه لاسبيل إلى اقتحام المدينة ، وأنه لابد من أخذها بالحصار والمطاولة ، وأمر بجمع الغلال والأقوات ، فجمعت حتى صارت بين العسكر كالجبال . واستمر

---

(١) ابن الأثير ج ١١ ص ٩٩ ، والحلل الموشية ص ١١٧ .

الحصار زهاء ستة أشهر . وفى أثناء ذلك أعلنت مدينة صفاقس ، ومدينة طرابلس ، وجبال نفوسة ، وقصور إفريقية ، كلها الطاعة لعبد المؤمن ، وجاء والى صفاقس عمر بن الحسين مع جماعة من الأشياخ فقدموا طاعتهم ، وعين لهم عبد المؤمن حافظاً من الموحدين ، وترك الشئون المخزنية لعمر ، وكذلك جاء وفد من أعيان طرابلس وعلى رأسه واليها أبو يحيي بن مطروح ، وبايعوا عبد المؤمن بالطاعة فأقر عبد المؤمن أبا يحيي على ولايته ، واستمر فى رياسته عصرا وسار جيش موحدى بقيادة السيد عبد الله بن عبد المؤمن ، وقيل بقيادة الوزير محمد بن عبد السلام الكومى إلى مدينة قابس ، فافتتحها بالرغم من خروج قاضيها وأعيانها لطلب الأمان ، ونهبت أموالها ، وأبيد من كان حولها من طوائف العرب . وفر واليها مدافع بن رشيد بن مدافع فى أهله وصحبه . ثم عاد بعد فترة من التشريد ، فاستجار بعبد المؤمن فعفا عنه ، وأسكنه بقابس حتى توفى وكان مدافع عالماً حافظاً وأديباً شاعراً[1] .

وجاء وفد من أعيان قفصة ، وعلى رأسهم واليها يحيي بن تميم بن المعز ، ليقدموا طاعتهم إلى عبد المؤمن ، فتقبلها منهم ، ومدح عبد المؤمن شاعرهم الفقيه أبو عبد الله محمد بن أبى العباس التيفاشى ، بقصيدة مطلعها :

ماهزّ عطفيه بين البيض والأسل — مثلُ الخليفة عبد المؤمن بن على

ويقال إن عبد المؤمن لما سمع هذا البيت ، أشار على الشاعر بأن يقتصر عليه ، وأمر له بصلة قدرها ألف دينار[2] .

ولم تمض بضعة أسابيع على بدء الحصار ، حتى قدم أسطول فرنجى كبير ، مكون من مائة وخمسين سفينة ، مشحونة بالأقوات والمقاتلة لإمداد الفرنج . وكان هذا الأسطول قد عاد من جزيرة يابسة ، إحدى الجزائر الشرقية بعد ما أثخن فيها ، وسبى أهلها ، فلما قرب من صقلية ، بعثه الملك وليم لإنجاد حامية المهدية ، فلما اقتربوا من الخليج ، خرج إليهم الأسطول المغربى بقيادة أبى عبدالله ابن ميمون ، ونشبت بين الأسطولين معركة بحرية عظيمة انتهت بهزيمة الفرنج ، واستيلاء المسلمين على عدة من سفنهم . ويقال إن عبد المؤمن كان خلال المعركة

---

(١) رحلة التجانى ص ٧٦ و١٠١ و٢٤٣ .

(٢) ابن خلكان ج ١ ص ٣٩١ ، وابن الأثير ج ١١ ص ٩٢ .

يمرغ وجهه فى الأرض باكياً ، وهو يدعو للمسلمين بالنصر فحقق الله دعاءه[1]
واستمر الحصار على أشده بضعة أشهر أخرى ، حتى آخر شهر ذى الحجة من سنة ٥٤٩ هـ وقد نضبت الأقوات ، وأخذ الضيق يرهق المحصورين ، فلما رأى الفرنج ما رأوا من ضخامة جيوش عبد المؤمن وأساطيله ، وأنه لا أمل لهم فى النجاة من مصيرهم المحتوم ، خرج منهم عشرة فرسان ، وقابلوا عبد المؤمن وسألوه الأمان لمن فيها من الفرنج على أنفسهم وأموالهم ، وأن يتركهم أحراراً يخرجون من المدينة ، ويذهبون إلى ديارهم ، فأجابهم عبد المؤمن إلى ما طلبوه ، وجهز لهم السفن ليعبروا البحر فيها . وكان تصرفاً مقروناً بالحكمة ، لأن صاحب صقلية الملك وليم ، كان قد أنذر بقتل المسلمين فى بلاده وانتزاع أموالهم ، وسبى حريمهم ، إذا أقدم الموحدون على قتل الفرنج فى المهدية . ومع ذلك فقد غرق كثير من السفن التى كانت تحمل الفرنج إلى صقلية من جراء العواصف وثورة الموج .

ودخل عبد المؤمن ثغر المهدية فى صبيحة يوم عاشوراء من المحرم سنة ٥٥٥ هـ (٢١ يناير سنة ١١٦٠ م) وقد سماها عبد المؤمن سنة الأخماس . وأقام بالمهدية عشرين يوما يرتب شئونها ، ويصلح أسوارها ، ويشحنها بالذخائر والأقوات . ثم ندب لولايتها أبا عبد الله محمد بن فرج الكومى ، وجعل معه صاحبها القديم الحسن بن على الصنهاجى ، وأقطعه بها إقطاعاً حسناً . وهكذا استطاع عبد المؤمن ، أن يقضى على عدوان الفرنج الصقليين على ثغور إفريقية ، بعد أن كاد يستقر ويتأثل ، وأن يحررها من نير النصرانية ، وأن يردها إلى صولة الإسلام ، بعد أن خرجت عنها اثنى عشر عاما ، مذ سقطت فى أيدى الفرنج فى سنة ٥٤٣ هـ (١١٤٨ م)[2] .

وفى فاتحة صفر سنة ٥٥٥ هـ ، غادر عبد المؤمن ثغر المهدية ، وسار فى قواته عائداً إلى المغرب . بيد أنه قبل أن يغادر أراضى إفريقية ، وقعت بينه وبين العرب بعض مناوشات ومعارك .

وكان أولئك العرب ومعظمهم من بطون هلال وسليم من مضر ، قد نزحوا إلى إفريقية منذ أوائل القرن الخامس الهجرى . وكانت أحياء بنى سليم بالحجاز على مقربة من المدينة ، وأحياء بنى هلال فى جبل غزوان عند الطائف ، ومنهم جشم

---

(١) ابن الأثير ج ١١ ص ٩٢ . وراجع مواقع غزوات المهدية فى الخريطة المنشورة فى ص ٢٨٣ .

(٢) ابن الأثير ج ١١ ص ٩٢ ، والحلل الموشية ص ١١٧ و ١١٨ ، والبيان المغرب القسم الثالث ص ٣٩ ، وروض القرطاس ص ١٣٩ ، والاستقصاء ج ١ ص ١٥٥ و ١٥٦ .

والأثبج وزغبة ورياح وربيعة وعدى. وكانوا يزحفون أحياناً إلى أطراف العراق والشام، ويقطعون الطرق، ويفسدون السابلة، وأحياناً كان بنو سليم يعتدون على الحاج أيام موسمهم بمكة، وأيام الزيارة بالمدينة. واستمرت البعوث والكتائب تجهز لمعاقبتهم، وحماية الحاج من شرهم، ولكن دون جدوى. ولما ظهر القرامطة بالبحرين فى أوائل القرن الرابع الهجرى لحق بهم بنو سليم، وبنو هلال، وكثير من بطون ربيعة بن عامر. ولما تغلب القرامطة على الشام، وأخذوا يهددون مصر، وظفر الخليفة العزيز بالله بهزيمتهم وردهم، استبقى أشياعهم من العرب من بنى هلال وسليم بمصر، وأنزلهم بالصعيد وفى الصحراء الشرقية، فأقاموا هنالك، ولكنهم لم ينقطعوا عن عيثهم وفسادهم.

وهنا تأتى قصة نزوحهم إلى إفريقية. وكان المعز لدين الله الفاطمى، حينما انتقل من إفريقية إلى مصر فى سنة ٣٦١ هـ، قد استخلف على إفريقية يوسف بن زيرى بن مناد الصنهاجى ليحكم باسم الخلافة الفاطمية وتحت سيادتها. ثم تطورت الظروف وعمل آل زيرى على تدعيم استقلالهم، حتى فسد الأمر بينهم وبين الخلافة الفاطمية، فخلعوا طاعتها الإسمية، وأعلن المعز بن باديس الصنهاجى انضواءه تحت لواء الخلافة العباسية (سنة ٤٣٧ هـ)، فعز ذلك على الخلافة الفاطمية، وغضب الخليفة المستنصر بالله، وأخذ البلاط الفاطمى يبحث عما يمكن فعله لمقابلة هـذا الإجراء، الذى اعتبر خروجاً على الخلافة الفاطمية، واعتداء على حقوقها الشرعية.

وكان العرب من بنى سليم وهلال الذين أنزلوا بالصعيد قد تكاثروا، وتفاقم عيثهم وشرهم، فأشار الوزير أبو محمد الحسن بن على اليازورى، على الخليفة المستنصر باستمالة أشياخهم، وتقليدهم أعمال إفريقية وشئونها، ليكونوا هنالك أولياء للدعوة الشيعية، وليعملوا على نصرتها إزاء آل زيرى المنتزين عليها، فإن نجحت الفكرة وبقى أولئك على ولائهم، كان ذلك كسباً للخلافة الفاطمية وتقوية لجانبها، هذا فضلا عن انقطاع عيثهم بنواحى مصر، وإن كان الأمر بالعكس فهم وشأنهم. فوافق المستنصر على ذلك الرأى، وبعث وزيره إلى العرب فى سنة ٥٤١ هـ، فسار إلى أحيائهم، وبذل العطاء الوفير لأشياخهم، وفرق فى عامتهم بعيراً وديناراً لكل منهم، وأباح لهم عبور النيل، وقال لهم قد أعطيناكم مُلك المغرب، ومُلك المعز بن باديس.

فثارت أطماع أولئك العرب ، وأغراهم ما سوف ينالونه فى إفريقية من أسباب الثراء والسلطان ، وجازت النيل من بطون سليم وهلال جموع غفيرة وساروا إلى برقة ، ونزلوا بها ، واقتحموا أمصارها ، واستباحوها ، واستولوا على أسلابها ، وبعثوا إلى إخوانهم فى شرقى النيل يرغبونهم فى اللحاق بهم ، فجازت منهم جموع أخرى بعد أن أعطوا دينارين لكل رأس ، واقتسموا الأراضى المفتوحة ، فحصل لبنى سليم الشرق ، ولهلال الغرب ، وأقامت طوائف من سليم وأحلافها برواحة وناصرة وعمرة من أرض برقة . وسارت قبائل دياب وزغبة وجميع بطون هلال إلى إفريقية ، وهم «كالجراد المنتشر لايمرون على شىء إلا أتوا عليه » حتى وصلوا إلى إفريقية وذلك فى سنة ٤٤٣ هـ . وكان أول من وصل إليها من أشياخهم أمير رياح موسى بن يحيى الصنبرى ، وكان المعز بن باديس حينما رأى تقاطر العرب نحو أراضيه ، قد فكر فى استمالتهم ومحالفتهم ، فاستدعى موسى إليه وقربه وأصهر إليه ،وحثه على استدعاء العرب ، وذلك لكى يقوى جانبه بمؤازرتهم ، فاستنصرهم وجلبهم . ولكنهم عاثوا فى البلاد أيما عيث ، ونادوا بشعار الخلافة الفاطمية ، واعتدوا على أحياء صنهاجة ، فغضب المعز ، وقبض على أخى موسى ، وخرج بقواته إلى ظاهر القيروان ، واستعان بابن عمه حماد بن بلكّين صاحب القلعة ، فبعث إليه بالأمداد ، والتفت حوله زناتة والبربر ، وصمد فى حشوده الجرارة للعرب ، وكانوا وفقاً لأقوال الرواية فى ثلاثين ألفاً ، وفى مقدمتهم رياح وزغبة وعدى . فلما التقى الفريقان انخذل العرب من أنصار المعز ، وخانته زناتة ، فكانت عليه الهزيمة ففر فى فلوله الباقية إلى القيروان ، ونهب العرب جميع محلته ، وقتلوا من حشوده أكثر من ثلاثة آلاف . ثم حاصر العرب مدينة القيروان ، وطال حصارها ، وخرب العرب أحوازها ، وعاثوا فيها أيما عيث ، وطوقت زغبة ورياح المدينة ، ففر منها الأعيان والقرابة من آل زيرى ، وفر كثير من أهلها إلى تونس . وملك العرب فى نفس الوقت قسنطينة وسائر أعمالها ، واقتسموا بلاد إفريقية ، وذلك فى سنة ٤٤٦ هـ ، فكان لزغبة طرابلس وأحوازها ، ولمرداس من رياح باجة وما إليها ، ثم اقتسموها مرة أخرى ، فكان لهلال من تونس إلى الغرب ، وبطونهم رياح وزغبة وجشم وقرة والأثبج وسفيان .

وغلب عائد بن أبى الغيث من شيوخهم على تونس ، ونهبها ، وملك أبو مسعود

سوسة صلحاً . ورأى المعز بن باديس ملكه يتصرم ، فحاول التقرب من العرب ، وصاهر ببناته الثلاث ثلاثة من أمرائهم ، هم فارس بن أبى الغيث وأخوه عائد ، والفضل بن أبى على المرادى ، ولكن ذلك لم يحقق له ما أمل ، فسار إلى القيروان وسار العرب فى أثره ، فخشى أمرهم ، وانحرف نحو الشاطئ ودخل العرب مدينة القيروان وخربوها ونهبوها ، وعاثوا فيها أيما عيث واستباحوا سائر حريمها ، واستصفوا سائر أموال المعز وآله ، وفر عنها أهلها فى سائر الأنحاء . وسار العرب بعد ذلك إلى المهدية ، فنزلوها ، وضيقوا على أهلها ، وكثر فسادهم وعيثهم وتصدت زناتة بعد صنهاجة لمقاومتهم ، فغلبوا عليها ، واستولوا على سائر الضواحى والأعمال فى تلك المنطقة . واضطرب أمر إفريقية . وساد بها الذعر والفزع ، وانهارت أركان الأمن ، وفسدت السابلة ، وبسط العرب عليها حكم عصابات مروع ، وغلبوا على صنهاجة وزناتة ومغرواة وغيرها ، وسيطروا على نواحى طرابلس ، وقابس والزاب ، ومعظم أعمال إفريقية(١) .

ثم وقع التهادن والصلح بينهم وبين صنهاجة وبقية القبائل البربرية ، وتفرقوا فى الضواحى والبوادى ، فتكاثروا فى تلك الجهات ، وتأثل نفوذهم وسلطانهم بمضى الزمن ، وأضحوا عاملا يحسب حسابه فى ميزان القوى ، فى إفريقية ، وفى بلاد الزاب ، والمغرب الأوسط . بيد أنهم لبثوا دائماً عنصراً من عناصر الاضطراب والفوضى ، يتنقلون بين مختلف الأحزاب والمعسكرات ، ويتدخلون فى مختلف الحروب التى تنشب على مقربة من ديارهم ، لاتحدوهم فى ذلك أية مثل سياسية أو دينية ، ولا هم لهم إلا اجتناء الكسب والمغانم ، من أى جانب وبأى الوسائل ، وقد رأينا ما وقع بينهم وبين الموحدين من معارك ، على أثر افتتاح عبد المؤمن لبجاية . وقد كانوا أولياء لأمرائها من بنى حماد ، يعيشون فى كنفهم وتحت حمايتهم .

تلك هى قصة نزوح العرب إلى إفريقية وقصة تخريبهم لها . وقد نوه سائر الكتاب والمؤرخين المعاصرين والمتأخرين بتلك الروح العدوانية المخربة ، وتلك الخواص الذميمة التى سادت طوائف العرب النازحين ، وجعلت منهم عنصراً خطراً ، تتوق سائر السلطات وسائر العناصر الأخرى من السكان إلى سحقه

---

(١) ابن خلدون فى كتاب العبر ج ٦ ص ١٣ وما بعدها .

وإبادته ، وإنقاذ العباد من شره وعدوانه[١]. وسوف نرى فيما بعد أى دور خطير يلعبه أولئك العرب فى حوادث إفريقية أيام نزول بنى غانية بها .

وكان عبد المؤمن حينما تم له فتح المهدية ، وإجلاء الفرنج من إفريقية ، يتجه بكل جوارحه نحو شئون الأندلس . وكان يعتقد أنه يستطيع أن يستعين بطوائف المرتزقة من أولئك الأعراب ، فى حملات الجهاد التى يزمع تسييرها إلى شبه الجزيرة ، وكانت طائفة من بنى سليم قد اعتدت على مدينة قابس ، على أثر افتتاح الموحدين لها ، فبعث إليهم عبد المؤمن يعاتبهم ويستدنيهم ، ووجه إليهم فى ذلك شعراً من نظم القاضى ابن عمران . بيد أنهم تمادوا فى عدوانهم ، وتغلبوا على قابس ، فبعث عبد المؤمن عسكراً لقتالهم ، وهو بالمهدية ، فهزمهم ، واستنقذ قابس من أيديهم[٢] .

وفكر عبد المؤمن قبل عودته إلى المغرب ، أن يدعو العرب إلى الانتظام فى عسكره ، فجمع زعماء العرب من بنى رياح وغيرهم ، وحثهم على نصرة الإسلام بالأندلس ، وطلب إليهم أن يجهزوا لهذه الغاية عشرة آلاف فارس ، من أهل النجدة والشجاعة ، ليجاهدوا فى سبيل الله ، إلى جانب الجيوش الموحدية ، فتظاهروا بالموافقة والطاعة ، وأقسموا على ذلك ، وساروا معه حتى جبل زغوان . وكان من بين زعمائهم ، زعيم يدعى يوسف بن مالك ، فاتصل بعبد المؤمن بالليل ، وأخبره بأن العرب لايريدون المسير إلى الأندلس ، وأنهم يعتقدون أنه يريد بذلك أن يخرجهم من بلادهم ، وقد تحقق صدق ذلك فى الليلة التالية ، إذ هرب العرب تحت جنح الظلام إلى عشائرهم ، ولم يبق سوى يوسف هذا ، فسماه عبد المؤمن يوسف الصادق ، وسار عبد المؤمن فى قواته حتى وصل إلى مقربة من قسنطينة ، ونزل هنالك فى وادى مخصب يقال له وادى النساء ، بعيداً عن أطراف العمران ، واستمر هنالك عشرين يوماً ، والسكينة ترفرف على جيوشه ، وقد انصرف العرب إلى أحيائهم التى يحتلونها . فلما علم عبد المؤمن باجتماعهم ثانية فى أحيائهم بعث إليهم جيشاً من ثلاثين ألف مقاتل ، بقيادة ولديه أبى محمد وأبى عبد الله ،

---

(١) يشير ابن خلدون فى مواضع كثيرة إلى عيث أولئك العرب وتخريبهم لمدن إفريقية (راجع كتاب العبر ج ٦ ص ١٤ و١٥ و١٦) . ويشير الإدريسى إلى ذلك غير مرة (وصف المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس ص ٩٣ و١٠٥ و١٠٩ و١٢٢) ، وكذلك صاحب الاستبصار فى عجائب الأمصار (ص ١٢٨ و١٦١) ، وغيرهم .

(٢) البيان المغرب — القسم الثالث ص ٣٩ .

فسار الموحدون فى هدوء ، وانعطفوا إلى الصحراء ، وراء أحياء العرب ، حتى لايفلتوا بالتوغل فيها ، وكان العرب قد احتشدوا جنوبى القيروان عند جبل القرن ، تحت إمرة بعض المشاهير من مقدميهم ، مثل أبى محفوظ محرز بن زياد ، ومسعود بن زمام ، وجبارة بن كامل بن سرحان وغيرهم ، فلما دهمهم الموحدون اضطربوا واختل نظامهم ، وفر مسعود وجبارة ومن معهما من العشائر ، وثبت محرز بن زياد ومن معه ، واشتبكوا مع الموحدين فى معركة عنيفة ، وذلك فى منتصف شهر ربيع الآخر من سنة ٥٥٥ هـ ، فقتل محرز ، وانهزمت جموع العرب ، وسقط متاعهم وحريمهم وولدهم فى أيدى الموحدين ، فأمر عبد المؤمن بالتحفظ عليهم ورعايتهم ، حتى أقبلت وفود رياح والأثبج ، فى طلب حريمهم ، فردهن إليهم ، وفرق فيهم الصلات ، واستمالهم بحسن صنيعه ، وانتهى بأن جهز منهم قوة لتشترك فى الجهاد فى الأندلس [١]. وسوف نرى فيما بعد أى دور هام يلعبه أولئك العرب ، فى حوادث المغرب والأندلس ، وكيف تعمد السياسة الموحدية إلى استمالتهم والاستعانة بهم ، ولاسيما فى عهد الخليفة أبى يعقوب يوسف ولد عبد المؤمن وخليفته .

وفى شهر ذى القعدة سنة ٥٥٥ هـ (نوفمبر سنة ١١٦٠ م) عبر الخليفة عبد المؤمن البحر إلى الأندلس ، وكان عبوره إليها حادثاً هاما من أشهر حوادث العصر ، وكانت له نتائج بعيدة المدى .

بيد أنه يجب قبل أن نتحدث عن عبور الخليفة الموحدى إلى شبه الجزيرة ، أن نستعرض ما تقدمه من الحوادث المتعلقة بموقف الموحدين من شئون الأندلس .

(١) ابن الأثير ج ١١ ص ٩٢ و ٩٣ .

الكتاب الثالث

ثورة القوى الوطنية بالأندلس
وتغلّب الموحّدين على شبه الجزيرة

الفصل الأول

الثـــــورة فى الأندلس

وانهيار سلطان المرابطين

صدى حوادث المغرب فى الأندلس . اضطرام الفكرة القومية الأندلسية . قيام الثورة فى غربى الأندلس . ابن قسى وأتباعه المريدون . دعوته ومزاعمه . ظهور أمره وفراره إلى ميرتلة . معاونة ابن القابلة . تحرج مركز المرابطين فى الغرب . ابن قسى يدير خطة الاستيلاء على ميرتلة . مداهمة ابن القابلة لحصن ميرتلة وانتزاعه . نزول ابن قسى فيه . قيام الثورة فى يابرة وشلب . ابن المنذر المتغلب على شلب . تسليم المرابطين بباجة ، ومغادرتهم لها . استيلاء ابن المنذر عليها . مبايعة ابن وزير صاحب يابرة ، وابن المنذر لابن قسى . ابن قسى يرسل سفارة إلى عبد المؤمن . خروج ابن المنذر فى قوات المريدين واستيلاؤه على ولبة ولبلة . مسيره إلى إشبيلية وانتزاعه بعض ضواحيها . لقاؤه بالمرابطين . هزيمته وفراره . مسير ابن غانية أمير المرابطين إلى لبلة . وقوع الثورة بقرطبة وعود ابن غانية إلى إشبيلية . محاولة المريدين الزحف على قرطبة وفشلها . الخلاف بين ابن قسى وابن وزير . استيلاء ابن وزير على شلب وميرتلة . فرار ابن قسى إلى المغرب والتجاؤه إلى عبد المؤمن . إقناعه للخليفة بالتدخل فى حوادث الأندلس . ابن غانية أمير المرابطين بالأندلس وموقفه . قيام الثورة فى قرطبة . زعيمها القاضى ابن حمدين . مبايعته بالإمارة وتسميه بأمير المسلمين . استدعاء فريق من أهل قرطبة لسيف الدولة ابن هود . مقدمه إلى قرطبة ودخوله إياها . فرار ابن حمدين . الثورة ضد ابن هود وفراره . عودة ابن حمدين إلى حكم قرطبة . زحف ابن غانية على قرطبة . اللقاء بينه وبين ابن حمدين . هزيمة ابن حمدين وفراره . دخول ابن غانية قرطبة . تغلب ابن حمدين على حصن أندوجر وأحوازه . مسير ابن غانية لقتاله . التجاء ابن حمدين إلى ملك قشتالة . مسير ابن حمدين وحلفاؤه النصارى إلى قرطبة . دخولهم المدينة وعيثهم فيها . امتناع ابن غانية بقصبتها . ذيوع الأخبار بمقدم الموحدين إلى شبه الجزيرة . التهادن بين قشتالة وابن غانية . ولاية ابن غانية لقرطبة . ما يروى فى ذلك عن قيصر قشتالة . خروج ابن حمدين من قرطبة . عبوره إلى المغرب ومقابلته لعبد المؤمن . عوده إلى الأندلس والتجاؤه إلى صاحب مالقة . الثورة فى غرناطة . زعيمها القاضى ابن أضحى . استغاثته بابن حمدين . دعوة أهل غرناطة لسيف الدولة بن هود . تحالف ابن أضحى وابن هود ضد المرابطين . لقاء ابن هود والمرابطين خارج غرناطة . تحصن المرابطين بالقصبة . وفاة ابن أضحى وقيام ولده محمد . تعاونه مع ابن هود ضد المرابطين . مقدم عسكر مرسية لقتال المرابطين ، هزيمتهم ومقتل زعيمهم . مغادرة ابن هود لغرناطة والتجاؤه إلى جيان . رواية ابن الأبار عن مراحل الصراع فى غرناطة بين المرابطين وخصومهم . الثورة فى مالقة . ظاهرة تزعم القضاة للثورة ضد المرابطين وتعليلها. أبو الحكم بن حسون زعيم الثورة فى مالقة . تغلبه على المرابطين وانتزاعه للرياسة . استعانته بالمرتزقة النصارى . تدبير مؤامرة لإسقاطه . نجاح المؤامرة وانتحار ابن حسون . ثورة ابن ملحان فى

وادى آش . ثورة ابن جزى فى جيان . ثورة أخيل بن إدريس فى رندة . ثورة ابن عزون فى شريش . عبوره إلى المغرب ولقاؤه لعبد المؤمن . إنضمامه إلى الموحدين عند عبورهم . رواية أخرى عن ابن عزون وبيعته لعبد المؤمن . قيام ابن ميمون فى قادس . عبوره إلى المغرب وانضمامه إلى عبد المؤمن . ثورة ابن الحجام فى بطليوس . دخوله فى طاعة الموحدين .

كان من الطبيعى أن تحدث حوادث المغرب صداها القوى فيما وراء البحر ، فى شبه الجزيرة الإسبانية ، حيث كانت الدولة المرابطية تبسط سلطانها على مختلف القواعد الأندلسية . وقد اتخذ هذا الصدى منذ البداية ، صورة ثورة عامة ضد المرابطين ، اجتاحت الأندلس بسرعة من غربها إلى شرقها . بيد أنه يجب أن نلاحظ بادئ ذى بدء ، أن هذه الثورة الجارفة ضد سلطان المرابطين لم تكن فقط نتيجة لحوادث المغرب ، وظهور أمر الموحدين ، وتضعضع قوى الدولة المرابطية ، وعجز المرابطين عن حماية الأندلس من غزوات النصارى المخربة ، وإن كانت هذه الحوادث ، قد بثت إليها قوة واضطراما جديدين . وإنما كانت عوامل الثورة الأندلسية ، ضد الحكم المرابطى ، تكمن منذ بعيد ، بل هى ترجع حسبما أشرنا فى مقدمة هذا الكتاب ، إلى أعقاب الفتح المرابطى ذاته ، حيث كانت الفكرة القومية تجيش بأذهان فريق كبير من أبناء الأمة الأندلسية ، وكان هذا الفريق ، يرى فى المرابطين ، بعد أن تبددت آثار المديح والإعجاب الأولى ، التى تلت نصر الزلاقة ، وبعد أن انقلب الإخوة المنقذون إلى فاتحين متغلبين ، أجانب غاصبين ، يستظلون بفكرة الجهاد ، ليبسطوا سلطانهم على الأمة الأندلسية . وبالرغم من أن فترة الجهاد الأولى ، التى اضطلع بها المرابطون فى الأندلس ، فى أوائل عهد على بن يوسف ، والتى أسفرت عند ظفرهم ضد الجيوش النصرانية ، فى عدة وقائع ، مثل موقعة أقليش (٥٠١ هـ) ، وما تلاها من الغزوات المظفرة ، حتى موقعة إفراغة (٥٢٨ هـ) ، كانت تغالب هذه الفكرة القومية ، وتضفى على حكم المرابطين رونقاً ومجداً ، فإن الأمة الأندلسية لم تنس الحقائق الواقعة ، ولم تنس أنها قد فقدت استقلالها وحرياتها ، فى ظل الحكم المرابطى ، خصوصاً بعد أن أخذت وطأة هذا الحكم تشتد شيئاً فشيئاً . وكانت ثورة قرطبة على حكومتها المرابطية فى سنة ٥١٥ هـ (١١٢١ م) ، أول تعبير مادى لهذا الشعور القومى ، وأول نفثة لهذا السخط المكبوت ضد عسف الحكم المرابطى . وقد رأينا كيف أدرك أمير المسلمين على بن يوسف يومئذ خطورة

الموقف وتذرع إزاءه بالإغضاء والتسامح . ويرى الأستاذ كوديرا ، أنه كان من أسباب سخط أهل الأندلس على المرابطين أيضاً ، مبالغة الدولة المرابطية فى العطف على النصارى ، وإيثار على بن يوسف ومن بعده ولده تاشفين لهم ، وإدماجهم فى الجيوش المرابطية ، وإعطائهم مراكز التفوق والقيادة(١). بيد أن هذا السبب ، يعتبر فى نظرنا ثانوياً ، إزاء العامل القومى ، لأن الأندلسيين أنفسهم ، كانوا أيام الطوائف ، يستظهرون بالنصارى على قتال بعضهم بعضاً ، وسوف نرى أنهم يلجأون إلى مثل هذه الوسيلة فى ثورتهم ضد المرابطين ، ثم الموحدين .

وعلى أى حال ، فإن بذور الثورة الأندلسية ضد المرابطين ، لبثت حيناً تنمو وتختمر ، حتى أخذت الدولة المرابطية ، فى أواخر عهد على بن يوسف ، ثم ولده تاشفين من بعده ، تترنح تباعاً تحت ضربات الموحدين ، ولاح عندئذ أن الفرصة قد سنحت لتقوم الأندلس بدورها الفعال فى تحطيم الدولة المرابطية ، والتخلص من نيرها . بيد أنه كان من الواضح ، أن تحقيق مثل هذه الغاية ، كان يرتبط أشد الارتباط بمسألة الإنضواء تحت لواء الدولة الجديدة التى غلبت على الدولة المرابطية ، ونعنى دولة الموحدين ، وأن هذا الانضواء ، كانت تمليه ضرورات الموقف ، وبواعث المصلحة القومية ذاتها . ذلك أن الأندلس بالرغم مما كانت تجيش به ضد المرابطين من عوامل السخط والانتقاض ، لم تنس أن جيوشهم كانت عماد الدفاع عنها ضد إسبانيا النصرانية ،وأن مثل هذا الدفاع ، لا يمكن أن يتحقق ، بعد انهيار سلطان المرابطين ، إلا بقيام سلطان الدولة الجديدة ، وتدفق جيوشها على شبه الجزيرة ، لتقوم بنفس المهمة الدفاعية ، التى كانت تقوم بها الجيوش المرابطية من قبل .

وقد ظهرت أعراض الثورة فى الأندلس ضد المرابطين ، أولا فى الطرف الغربى لولاية الغرب الأندلسية ، وهى أبعد المناطق عن سلطان الحكومة المركزية . ولنلاحظ أولا أن هذه الأعراض الثورية ، قد ظهرت فى الأندلس ، فى نفس الوقت الذى بدا فيه انهيار الدولة المرابطية فى المغرب أمراً محققاً ، وذلك حين جد الموحدون فى مطاردة الجيوش المرابطية بقيادة الأمير تاشفين بن على شمالا ، ثم حين انتهت موقعة وهران بمصرع تاشفين وتبدد جيوشه ، وذلك فى رمضان سنة ٥٣٩ هـ (١١٤٥ م) .

---

(١) F. Codera : Decadencia y Disparición de los Almorávides, p. 28 & 29

- ١ -

فى تلك الآونة ظهر أول الزعماء الثائرين بالأندلس فى منطقة شِلْب فى جنوبى البرتغال ، واضطرمت أول ثورة فعلية ضد المرابطين . أما الزعيم الثائر فهو أبوالقاسم أحمد بن الحسين بن قَسِيّ. وأما الثورة فهى ثورة أتباعه المريدين . وكان ابن قَسِيّ مُوَلداً ، يرجع إلى أصل نصرانى. وقد نشأ فى أحواز شلب ، واشتغل فى بداية أمره مشرفاً بشلب[1] ، ثم اعتنق طرائق الصوفية ، وتبحر فيها حتى غدا من شيوخها ، وألف فيها طائفة من الكتب ، منها كتاب « خلع النعلين » . ثم تزهد ، أو تظاهر بالزهد وباع أمواله ، وتصدق بثمنها ، وتجول فى البلاد ، ولقى بألمرية قطب الصوفية يومئذ أبا العباس بن أحمد بن محمد الصنهاجى الأندلسى المعروف بابن العريف ، ودرس عليه ، ثم عاد إلى وطنه ، واستقر بقرية جلة من أحواز شلب ، وابتنى بها رابطة كان يجتمع فيها بصحبه ، وانكب على قراءة كتب الغزالى ، والتف حوله كثير من الصحب والأنصار ، ينكبون على قراءة الكتب الصوفية والباطنية ، ورسائل إخوان الصفا وغيرها ، وينهمكون فى مزاولة شعائر الطريقة ورسومها، حتى ذاع أمرهم بالأخص بمنطقة شلب وميرتلة ولبلة ، وغيرها من أعمال غرب الأندلس ، وسموا بطائفة « المريدين »[2]. وكان ابن قسىّ فى الواقع يتخذ الصوفية قناعاً لمشاريع يضمرها ، ويدعو إلى الثورة فى الباطن ، ثم لم يلبث أن ادعى الولاية والهداية ، وتسمى بالمهدى وبالإمام ، وكثرت مخاريقه وشعوذته ، وزعم القدرة على الخوارق ، ومن ذلك أنه حج فى ليلة واحدة ، وأنه يناجى بما يشاء ، وينفق من الكون ، فذاع أمره ، وتقاطرت إليه الوفود ، من أهل البيوتات والأجناد . وكان من صحبه جماعة ممن ظهروا فيما بعد ، فى ميدان الحوادث ، مثل أبى محمد سيدراى بن وزير ، وابن عفان ، وكلاهما من زعماء يابُرة ، ومحمد بن المنذر من أهل شلب ، ومحمد بن عمر ، وعبد الله بن أبى حبيب ، وغيرهم من زعماء ولاية الغرب . ولما شعر أن السلطات فطنت لأمره . وهمت بمطاردته ، وقُبض على جماعة من أصحابه ، وأخذوا إلى إشبيلية ، سار هو إلى جهة ميرتلة ، واختفى هناك بقرية الجوزة عند قوم يعرفون ببنى السنة . وكان

---

(١) ويقول ابن الأبار إنه كان يشتغل بالأعمال المخزنية أى المالية (الحلة السيراء ص ١٩٩).

(٢) ابن الأبار فى الحلة السيراء ص ١٩٩ ، وابن الخطيب فى أعمال الأعلام ص ٢٤٩ .

من أصحابه المقربين ، رجل وافر الدهاء والجرأة ، يدعى محمد بن يحيي الشلطيشي ، ويعرف بابن القابلة ، وكان يسميه بالمصطفى لاختصاصه به ، واطلاعه على أموره ومشاريعه ، ويعتمد عليه فى تنفيذ خططه . فأوعز إليه من مقره السرى ، أن يسير فى صحبه المريدين إلى قلعة ميرتلة ، وأن يدهموها وفق خطة وضعها لهم ، وكان ذلك فى أوائل سنة ٥٣٩ ﻫ .

وكانت حال المرابطين ، ولاسيما فى هذا الإقليم النائى ، إقليم الغرب ، قد اضطربت وغلب عليهم الضعف والوهن بما أصاب دولتهم فى المغرب من الاختلال والانهيار ، وبما افتقدوه من أمداد كانت تشد أزرهم وقت الحاجة ، وزادت الجفوة بينهم وبين أهل الأندلس ، لما اشتد من ضغطهم ، وعيث جندهم بسبب الحاجة ، وقد استطال عليهم الناس ، وأخذوا فى التعدى عليهم وإرهاقهم . وشعر الثوار فى هذه الظروف التى هبطت فيها قوى المرابطين المادية والمعنوية ، بأن مشاريعهم سوف يحالفها النجاح ، وكان هذا شعور ابن قسى حينما دبر مع معاونه ابن القابلة خطة الاستيلاء على ميرتلة . فجمع ابن القابلة نحو سبعين رجلا من أولئك المريدين المتعصبين ، وسار إلى ميرتلة ، ودهم حصنها فى جوف الليل ، واستولى عليه ، وذلك ليلة الخميس الثانى عشر من صفر سنة ٥٣٩ ، وضبط ابن القابلة القلعة ، وأعلن بها دعوة ابن قسى . وحاول المرابطون فى تلك الجهة استعادتها من المريدين ، فلم يفلحوا فتركوها ، وانقلبوا إلى تخريب تلك المنطقة . وفى غرة ربيع الأول وصل ابن قسىّ إلى ميرتلة فى جمع حاشد من المريدين ، شعارهم التهليل والتكبير ، فصعد إلى قصبتها ، واستقر بقصرها ، وتسمى بالإمام ، وبعث إلى أعيان ولاية الغرب وزعمائها ، يدعوهم إلى الانضمام إليه ، وإلى الثورة ضد المرابطين . فاستجاب له كثير من أهل تلك الأنحاء ، وقام أهل يابُرة بزعامة عميدهم سيدراى بن وزير ، ونزعوا سلطان المرابطين ، وحذا حذوهم أهل شلب ، بقيادة زعيمها محمد بن عمر بن المنذر . وكان ابن المنذر هذا ينتمى إلى بيت قديم من بيوتات المولدين بشلب ، وكان من علمائها ونبهائها ، وقد درس فى إشبيلية ، وبرع فى الفقه والأدب ، ووُلى خطة الشورى ببلده ، ثم تزهد على مثل ابن قسىّ ، واستقر برابطة على شاطئ البحر تعرف برابطة الريحانة ، واعتنق دعوة ابن قسى وتوثقت صلاتهما . ولما قام بشلب اقتداء بابن قسى فى ميرتلة ، سار إلى حصن مرجيق فى شرقى شلب ، وانتزعه من المرابطين

وقتلهم . ولما علم المرابطون بباجة بما وقع ، طلبوا من أهلها الأمان ، وغادروها إلى إشبيلية . وعلى أثر خروجهم منها سار إليها ابن المنذر ، ومعه فرقة من جند يابُرة أمده بها ابن وزير بقيادة أخيه أحمد ، وخاله عبد الله بن الصميل ، واستولى عليها . ثم سار ابن المنذر وابن وزير إلى ابن قسى ، فسلما عليه بالإمارة ، وبايعاه بالطاعة (ربيع الأول سنة ٥٣٩هـ) ، فأقر ابن وزير على حكم باجة وأحوازها ، وابن المنذر على حكم شلب وأحوازها .

والظاهر أن ابن قسىّ حاول فى تلك الفترة بالذات ، أن يتصل بالموحدين لأول مرة . وكان لانتصار الموحدين فى موقعة وهران ومصرع تاشفين بن على سنة ٥٣٩ ، أعمق وقع فى الأندلس ، وأكبر حافز للعناصر الثائرة ، على أن تمضى قدماً فى ثورتها . وهنا بعث ابن قسى سفيراً إلى عبد المؤمن عاهل الموحدين ، وهو قائم على حصار تلمسان ، فى أواخر سنة ٥٣٩ ، وتلقب فى رسالته بالمهدى ، فأنكر ذلك عبد المؤمن ولم يجاوبه[1] ، لما لمسه من تعاليه فى الخطاب عليه . وفى خلال ذلك وقعت بولاية الغرب حوادث هامة . وكان ابن المنذر ، حين ولاه ابن قسى إمارة شلب ، قد حشد قواته وقوات أكشونبة وسائر صحبه المريدين ، ثم سار إلى ابن قسى بميرتُلة ، وجدد له البيعة والعزم على نصرته ونشر دعوته ، فجدد له ابن قسى عهده على ما بيده من البلاد ، وسماه العزيز بالله . وعندئذ خرج ابن المنذر فى قواته ، وعبر نهر وادى يانه ، وسار إلى مدينة وِلْبة على مقربة من شرقيه ، فاقتحمها واستولى عليها ، ثم سار منها إلى مدينة لَبلة الواقعة فى شمالها الشرقى ، واستولى عليها بمعاونة يوسف بن أحمد البطروجى ، أحد أقطاب الثوار المريدين فى تلك الناحية ، وأخرج من كان فى قلعتها من المرابطين . وهنا شعر ابن المنذر بتضاعف قواته ، وتملكه الغرور ، واعتزم أن يسير إلى مدينة إشبيلية ، وقد شجعه ما نمى إليه من أنها كانت حينئذ دون أمير يتولى أمرها . فخرج فى قواته من لَبْلة ، وسار إلى حصن القصر وطُلياطة من مشارف إشبيلية الغربية ، واستولى عليها ، ثم تقدم حتى الحصن الزاهر ودخله . بيد أنه حينما وصل إلى طُريانة ضاحية إشبيلية الغربية ، التقى بقوة من المرابطين . وكان أمير الأندلس المرابطى أبو زكريا يحيى بن غانية ، حينما وقف على حركات الثوار فى غرب الأندلس ، وسيرهم من لَبلة صوب إشبيلية ، قد غادر قرطبة فى قواته ، وسار

(١) ابن خلدون فى كتاب العبر ج ٦ ص ٢٣١ ، وابن الخطيب فى أعمال الأعلام ص ٢٥١ .

إلى إشبيلية فوصل إليها ، فى الوقت الذى كان فيه ابن المنذر يعيث فى نواحيها ، فبعث لقتاله قوة عبرت نهر الوادى الكبير ، والتقت بالمريدين فى طريانة ، فأوقعت بهم ، وقتلت منهم عدداً جما ، وفر ابن المنذر فى فله إلى لبلة ، ثم لحق بشلب ، وترك يوسف البطروجى للدفاع عن لبلة . وزحف ابن غانية على لبلة . وكان ذلك فى قلب الشتاء وشدة قره ، فلبث على منازلة لبلة نحو ثلاثة أشهر ، وعندئذ بلغه قيام الثورة فى قرطبة بزعامة القاضى ابن حَمْدين ، فترك لبلة وعاد إلى إشبيلية ، وقد عول على التريث وملازمة الحيطة والحذر ، إلى أن يستبين سير الحوادث .

ولما علم ابن قسىّ بما وقع من اضطرام الثورة فى قرطبة ، ألفى الميدان ممهداً للقيام بمغامرات جديدة . فأمر ابن المنذر أن يحشد قواته ، وأن يسير ومعه ابن القابلة كاتب ابن قسى وصاحبه الأثير إلى قرطبة ، ليحاول دخولها .وبعث إلى نفر من أنصاره بقرطبة ليعملوا على بث دعوته ، وترغيب العامة فى قبولها . فسار ابن المنذر وصاحبه فى عسكر شلب ولبلة ، إلى قرطبة . بيد أنهما حين اقتربا منها ، علما بأن الحوادث قد تطورت ، وأن أهل قرطبة استدعوا لرياستها سيف الدولة ابن هود ، وطردوا ابن حمدين ، فارتدا خائبين إلى الغرب ، وفشلت محاولة ابن قسىّ فى مهدها[١] .

وكان الجو قد فسد عندئذ بين ابن قسىّ ، وحليفه السابق سيدراى بن وزير صاحب باجة . وكان ابن قسى ، قد دبر القبض عليه حينما وفد عليه بميرتلة أثناء غيبة المنذر وخلعه ، ثم أطلق سراحه ورده إلى ولايته . ولما عاد ابن المنذر خائباً من حملة قرطبة ، حاول ابن قسى أن يتفاهم مع سيدراى ، ولكن سيدراى ارتاب فى مقصده ، وأبى الاستجابة له ، فبعث ابن قسى ، ابن المنذر لمحاربته ، فهزمه ابن وزير وقبض عليه ، ثم زحف على شلب وانتزعها[٢] ، وانتهى بالاستيلاء على ميرتلة ، وأعلن خلع ابن قسى والدعوة لابن حمدين صاحب قرطبة ، وذلك فى شعبان سنة ٥٤٠ هـ[٣] . فبادر ابن قسى إلى الفرار ، وعبر البحر إلى المغرب ، وسار إلى مقابلة الخليفة عبد المؤمن ، وتقدم إليه تائباً متبرئاً من دعاويه السابقة

---

(١) ابن الأبار فى الحلة السيراء ص ٢٠٣ و ٢٠٤ .

(٢) ابن الخطيب فى أعمال الأعلام ص ٢٥١ .

(٣) الحلة السيراء ص ٢٣٩ .

فى الولاية والهداية ، فتقبل عبد المؤمن اعتذاره ، وأكرم وفادته . وهنا تختلف الرواية اختلافاً بيناً فى الزمان والمكان ، اللذين التقى فيهما ابن قسى بالخليفة الموحدى . فيقول ابن الأبار ، ويتابعه ابن الخطيب ، إن ابن قسى لقى عبدالمؤمن فى سلا فى ربيع الآخر سنة ٥٤٠ هـ ، ثم انصرف فى المحرم سنة ٥٤١ هـ[١] . هذا مع أن ابن الأبار يذكر لنا فى موضع آخر أن تغلب سيدراى على ابن قسى واستيلاءه على ميرتلة كان فى شعبان سنة ٥٤٠هـ . ولابد أن عبور ابن قسى كان عقب خلعه وفقده لإمارته . ويقول لنا ابن خلدون إن ابن قسى عبر إلى المغرب فى سنة ٥٤٠ هـ ، ثم يذكر لنا فى موضع آخر أنه قدم إلى المغرب ، عقب افتتاح مراكش ، وقد كان افتتاح مراكش حسبما تقدم فى شوال سنة ٥٤١ هـ[٢]. ويزيد ابن خلدون على ذلك أن ابن قسى نزل عند عبوره بسبتة ،وأن واليها ابن مخلوف هو الذى جهزه إلى عبد المؤمن . وربما كانت رواية ابن خلدون الأولى أكثر الروايات تمشياً مع سير الحوادث . وعلى أى حال ، فقد كان لمقدم ابن قسى نتائج عملية . ذلك أنه استطاع أن يحمل الخليفة الموحدى على المبادرة بالتدخل فى حوادث الأندلس ، وتجهيز حملة موحدية بقيادة برّاز بن محمد المسّوفى ، لقتال المرابطين والثوار فيما وراء البحر ، تلتها بعد ذلك حملات أخرى حسبما نفصل بعد .

— ٢ —

كانت غرناطة فى البداية مقر الحكومة المرابطية العامة بالأندلس ، ثم رأى أمير المسلمين على بن يوسف أن ينقل مركز الحكم إلى قرطبة ،وذلك حينما أصدر مرسومه فى سنة ٥٢٦ هـ بتعيين ولده الأمير تاشفين ، متولى شئون الأندلس ، والياً لقرطبة ، وأن يجعلها مقر الحكم . ثم استُدعى تاشفين إلى المغرب فى سنة ٥٣٢هـ وعين لولاية العهد . ولما توفى على بن يوسف سنة ٥٣٧ هـ ، وخلفه ولده تاشفين فى الملك اختار الأمير يحيى بن غانية الصحراوى والياً لقرطبة ، ومشرفاً على شئون الأندلس، وقائداً عاما للجيش المرابطى ، وذلك فى سنة ٥٣٨هـ (١١٤٣م) .

وقد تحدثنا فيما تقدم عن أصل ابن غانية ونشأته ، وأعماله فى شرق الأندلس. ولما تجهمت الحوادث للدولة اللمتونية بالمغرب ، وتقوضت دعامتها تحت ضربات

(١) الحلة السيراء ص ٢٠٠ ، وأعمال الأعلام ص ٢٥١ .

(٢) كتاب العبر ج ٤ ص ١٦٦ ، و ج ٦ ص ٢٣٤ .

عبد المؤمن ، ودوت أصداء النكبة فى جنبات الأندلس ، أخذ ابن غانية يواجه عواصف الثورة هنا وهنالك . ولما تفاقمت حوادث الغرب ، وزحف المريدون أتباع ابن قسى على إشبيلية ، سار ابن غانية فى قواته لردهم ، مستخلفاً على قرطبة أبا عمر اللمتونى ، فهزمهم فى طريانة ، ثم طاردهم حتى لبلة ، وأخذ فى منازلتها ، وهنا بلغته أنباء الثورة فى قرطبة ، فارتد أدراجه إلى إشبيلية ، ولبث بها حيناً يدبر أمره ، ويستعد لمواجهة الحوادث .

ذلك أنه لم تمض بضعة أشهر على قيام الثورة فى الغرب ، وسقوط قواعده فى أيدى الثوار ، حتى اضطرمت قرطبة بثورة مماثلة . وكان زعيم الثورة قاضى المدينة ، ابن حَمْدين ، وهو أبو جعفر حمدين بن محمد بن على بن حمدين ، وكان بيتهم من أقدم البيوتات العربية . دخل جدهم الأندلس مع الطالعة البلجية ، واستقروا فى باغة ، وبها ازدهر بيتهم ، وكان ابن حمدين قد وُلى قضاء قرطبة فى شعبان سنة ٥٢٩ هـ ، على أثر مقتل قاضيها أبى عبد الله بن الحاج ، وهو يصلى بالمسجد الجامع فى صفر من تلك السنة . ثم صُرف ابن حمدين عن القضاء فى سنة ٥٣٢ هـ ، وولى مكانه أبو القاسم بن رشد فوليه نحو عامين ، ثم أعفاه الأمير على بن يوسف من منصبه دون أن يعين خلفاً له ، ووقع بعد ذلك بقرطبة هياج اعتدى فيه العامة على المرابطين ، فخرج إليهم ابن حمدين ، وتمكن من تسكين ثورتهم ، فظهر يومئذ بوافر حكمته وشهامته ، وبقيت قرطبة دون قاض مدى عام . ثم أذن على بن يوسف لأهلها أن يختاروا لهم قاضياً ، فأجمعوا على اختيار ابن حمدين ، فولى القضاء للمرة الثانية فى سنة ٥٣٦ هـ ، واستمر فى منصبه حتى أواخر سنة ٥٣٩ هـ .

وكانت حوادث المغرب من جهة ، وحوادث الثورة فى الغرب ، قد أخذت تحدث أثرها ، وأخذت بذور الثورة تختمر من جديد فى أذهان الشعب القرطبى ، وقد عرفناه فيما تقدم من مراجل التاريخ الأندلسى شعباً سريع التقلب ، سريع الهياج . فما كاد الحاكم المرابطى ، الأمير يحيى بن غانية ، يبتعد فى قواته صوب إشبيلية لحمايتها من عيث المريدين ، حتى اضطرمت قرطبة بالثورة ، وثارت العامة بالوالى المرابطى الرئيس أبى عمر اللمتونى ، وأعلنوا خلعه ، وخلع دعوة المرابطين ، ونادوا برياسة القاضى أبى جعفر بن حَمْدين ، وبويع ابن حمدين بالإمارة فى المسجد الجامع ، وبايعه الخاصة والعامة ، وذلك فى الخامس من شهر رمضان سنة ٥٣٩ هـ . واستقر

ابن حمدين بقصر الخلافة ، وتسمى بأمير المسلمين وناصر الدين ، ووفقاً لقول ابن الأبار بأمير المسلمين المنصور بالله ، وفى بعض الروايات بأمير المؤمنين . ودعى له على منبر قرطبة ومعظم منابر القواعد الأندلسية. وكان ابن غانية قد سار عندئذ إلى لبلة ليجهز على المريدين الذين تحصنوا بها ، فلما علم بما وقع فى قرطبة ، عاد أدراجه إلى إشبيلية . ولكنه ما كاد يستقربها حتى ثار به أهلها ، وناصبوه الحرب وجرح أثناء القتال الذى نشب بينه وبينهم ، فارتد عندئذ فى قواته إلى حصن مرجانة القريب(١).

وفى تلك الأثناء تطورت الحوادث فى قرطبة ، وسعى فريق من شعبها القُلّب إلى الاتصال بأبى جعفر أحمد بن عبد الملك بن هود الملقب بسيف الدولة المستنصر بالله . وقد فصلنا فيما تقدم سيرة هذا الأمير ، وكيف آل أمره إلى مغادرة روطة آخر قواعد بنى هود فى الثغر الأعلى، وتسليمها إلى ملك قشتالة ألفونسو ريمونديس مقابل أراض منحها إياه فى منطقة طليطلة ، وذلك فى سنة ٥٣٤هـ (١١٣٩م) . وقد لبث سيف الدولة ، الذى تعرفه الرواية النصرانية باسم «سفادولا» Zafadola مقيما فى أراضيه الجديدة ، فى كنف ملك قشتالة ، بضعة أعوام ، حتى قامت الثورة فى قرطبة وفى غيرها من القواعد الشرقية . وكان فريق من أهل قرطبة يرى فى هذا الأمير — آخر بنى هود ملوك سرقسطة السابقين — خير ممثل للزعامة الأندلسية العريقة ، ومن ثم فقد عملوا على استدعائه ، ليتولى إمارة قرطبة . ولبى سيف الدولة هذه الدعوة ، وجاء إلى قرطبة ، فدخلها بممالأة فريق كبير من أهلها ، فبادر ابن حمدين إلى الفرار ، ولحق بحصن فرنجولش المنيع ، الواقع شمال غربى قرطبة ، فى سطح جبل الشاراب (سيراامورينا) . بيد أن هذا الإزعاج لم يطل أمره . ذلك أنه لم يمض أيام قلائل على قيام سيف الدولة بالأمر ، حتى ثار القرطبيون مرة أخرى ، وهاجموا القصر ، وفتكوا بابن الشماخ وزير سيف الدولة ، وعدة من أصحابه ، ففر سيف الدولة ناجياً بنفسه ، ولما يمض على وجوده فى قرطبة اثناعشر يوما ، وقصد إلى مدينة جيان ، وكان قد ثار بها القاضى ابن جزى ، فتغلب عليه وملكها منه ، ثم خاض عدة حوادث أخرى نرجئ التحدث عنها ، حتى تستوفى حوادث قرطبة(٢) .

---

(١) ابن الأبار فى التكملة رقم ١١٩ ، ج ١ ص ٣٨ و ٣٩ ، وابن الخطيب فى أعمال الأعلام ص٥٣ ، وفى الإحاطة (١٩٥٦) ج ١ ص٣٠٦ . وفى مخطوط الإسكوريال السالف الذكر لوحة ٣٩٢ .

(٢) الحلة السيراء ص ٢٢٥ .

وما كاد سيف الدولة يغادر قرطبة ، حتى عاد إليها ابن حمدين من حصن فرنجولش واستأنف رياسته ، واستطاع فى الأشهر القلائل التى عاشتها حكومته ، أن يدون الدواوين ، وأن يجند الأجناد ، وأن يرسم الخطط ، وبعث إلى بعض زملائه الثوار فى القواعد الأخرى فى طلب الاعتراف برياسته ، فاعترف بها بعضهم ، ومن هؤلاء أبو الغمر بن عزون[١] صاحب شريش ، وابو جعفر بن أبى جعفر صاحب مرسية .

واستمرت رياسة ابن حمدين الثانية أحد عشر شهراً . ولكن فريقاً من خصومه الناقمين على حكمه ، كتبوا إلى يحيى بن غانية فى القدوم عليهم ، واستعادة سلطانه على المدينة . فسار ابن غانية من إشبيلية قاصداً إلى قرطبة ، فى جمادى الآخرة سنة ٥٤٠ هـ (١١٥٤م) . وبرز ابن حمدين من قرطبة فى قواته للقائه ، فالتقيا بأحواز إستجة فى جنوب غربى قرطبة ، وكانت بينهما وقيعة ، هزم فيها ابن حمدين ، وفر إلى بطليوس ، ملتجئاً إلى حماية صاحبها عبدالله بن الصميل من زعماء المريدين . ودخل ابن غانية قرطبة فى الثانى عشر من شعبان من تلك السنة ، ثم غادر ابن حمدين بطليوس ، وسار إلى حصن أندوجر الواقع شرقى قرطبة وتحصن به ، وبسط سلطانه على البلاد المجاورة ، فتحرك ابن غانية إلى قتالة ، وحاصره فى أندوجر مدى شهر . وهنا لجأ ابن حمدين إلى تلك الوسيلة القديمة الذميمة ، التى كانت عماد الطوائف فى محاربة بعضهم بعضاً ، وهى الاستنصار بعاهل قشتالة ، القيصر ألفونسو ريمونديس . ويقول لنا ابن الخطيب إن ابن حمدين ، « أطمع القيصر فى قرطبة » ، فاستجاب إلى دعوته ، وتحرك وفقاً للرواية العربية إلى نصرته . ولكن الرواية النصرانية تقول لنا إن القيصر أرسل إلى معاونة ابن حمدين ، الدوق فرناندو خوانس فى بعض قواته[٢] . ولما وصل القيصر إلى أندوجر ، ولم يستطع ابن غانية ، دفعاً للنصارى ، انصرف فى قواته إلى قرطبة ، فسار النصارى فى أثره ، ومعهم حليفهم ابن حمدين فى أصحابه ، ودخل النصارى وابن حمدين قرطبة فى العاشر من ذى الحجة سنة ٥٤٠ هـ (مايو ١١٤٥ م) ، وامتنع ابن غانية فى المدينة ، يدافع النصارى فى صبر وجلد . وعاث القشتاليون فى شرقى قرطبة ، واستباحوا المسجد الجامع ، وأخذوا ما كان فيه من النواقيس التى كانت رؤوسا للثريات ، ومزقوا المصاحف ، ومنها فيما زعموا مصحف عثمان ، ونزعوا المنار من الصومعة ، وكان من الفضة

(١) رسمت كذلك – ابن عزون – فى البيان المغرب ص ٢٢ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٣٤ ، وابن صاحب الصلاة (مخطوط المن بالإمامة لوحة ١٧٥ ا) . ولكن ابن الأبار يرسمها ابن غرون الحلة السيراء ص ٢٢٢

(٢) F. Codera : cit. Anales Toledanes (Dec. y Disp.) p. 61.

الخالصة ، وأحرقوا الأسواق . كل ذلك وابن غانية صامد يدفع النصارى عن القصبة بمنتهى الشدة والبسالة(١) .

وحدث عندئذ أن جاءت الأخبار بأن الموحدين قد عبروا البحر إلى اسبانيا ، وأن أهل إشبيلية خلعوا طاعة المرابطين ، فاهتم القيصر لهذه الأنباء ، ورأى من الفطنة أن يهادن ابن غانية ، وأن يتركه بقرطبة « سدا بينه وبين بلاده » . وهكذا تم التفاهم بين القيصر وابن غانية ، وعقدت شروط الهدنة ، وخرج ابن غانية من القصبة ، واستحضر له القيصر أهل قرطبة بين يديه ، وقال لهم « إنى قد فعلت معكم من الخير ما لم يفعله من قبلى ، وتركتكم رعية لى ، وقد وليت عليكم يحيى بن غانية ، فاسمعوا له وأطيعوا » .

ويقص علينا ابن الخطيب الذى ننقل عنه هذه التفاصيل ، أن القيصر مضى فى مخاطبة أهل قرطبة ، فقال « ولايربكم أن تكونوا تحت يدى ونظرى ، فعندى كتاب نبيكم إلى جدى » . حدث ابن أم العماد وأبو الحسن قال ، حضرت ، وأحضر حقاً من الذهب ، فُتح وأخرج منه كتاب من رسول الله (ص) إلى قيصر ملك الروم ، وهو جده بزعمه . والكتاب بخط على بن أبى طالب . قال أبوالحسن ، قرأته من أوله إلى آخره كما جاء فى حديث البخارى(٢) .

وهكذا استقر ابن غانية بقرطبة ، وأخذ فى تحصين القصبة ، واشتد فى معاملة أهلها ، وأخذ يسومهم الخسف ، لما أثموا به فى حقه وغدروا به . وعهد بضبط المدينة ، وتدبير شئونها لمولاه فلوج العلج ، وكان حازماً شديد الوطأة ، فمال على أهل المدينة ، وأذلهم وانتزع كثيراً من أموالهم .

واستمر ابن غانية على تهادنه مع القشتاليين نحو عام آخر ، تطورت الحوادث خلاله بسرعة . أما ابن حمدين فقد غادر قرطبة مع النصارى ، وسار إلى حصن فرنجولش ، ولبث به فترة قصيرة ، ثم عبر البحر إلى المغرب ، وسار إلى مقابلة الخليفة عبد المؤمن أسوة بمن سار إلى لقائه ، من زعماء الثورة فى الأندلس ، فلقيه تحت أسوار مراكش ، وهو محاصر لها (أوائل سنة ٥٤١ هـ) حسبما تقدم ذكره ، فأحسن الخليفة استقباله . ثم عاد إلى الأندلس فنزل بمالقة ، فى كنف زميله وحليفه ابن حسون الثائر بها ، وحاول مرة أخرى أن يسترد سلطانه

---

(١) نقلنا هذه التفاصيل عن ابن الخطيب فى الإحاطة فى ترجمة ابن غانية (مخطوط الإسكوريال السالف الذكر لوحة ٣٩٢) .

(٢) ابن الخطيب فى الإحاطة (مخطوط الإسكوريال) نفس اللوحة السابقة .

بقرطبة ، فأخفق مسعاه ، وارتد ثانية إلى مالقة ، واستقر بها حتى توفى فى رجب سنة ٥٤٦ ﻫ (نوفمبر ١١٥١ م) ودفن بمسجدها الجامع . ولما استولى الموحدون على مالقة ، بعد ذلك بعشرين شهراً ، نبشوا قبره ، واستخرجوا جثمانه وصلبوه ، وهو وفقاً للرواية ، بحاله لم يتغير[1] .

— ٣ —

كان من أصداء ثورة ابن حمدين فى قرطبة أن قامت فى نفس الوقت فى غرناطة ثورة مماثلة ، زعيمها القاضى أبو الحسن على بن عمر بن أضحى . وكان أبو الحسن هذا من أهل ألمرية ، وبها ولد فى سنة ٤٩٢ ﻫ ، وولى قضاءها بعد قاضيها الزاهد ابن الفرّا . ولما قامت ثورة ابن حمدين بقرطبة ، كان ابن أضحى بمدينة غرناطة ، فبعث إليه ابن حمدين يدعوه إلى اتّباعه والدعوة له . فاستجاب ابن أضحى لدعوته ، وآزره فريق كبير من أهل المدينة ، وتعاونوا على إخراج الملثمين (المرابطين) منها ، فاعتصموا بالقصبة ، ونشب القتال بين الفريقين ، وكان أمير غرناطة المرابطى يومئذ ، هو على بن أبى بكر المعروف بابن فنّو. وهو اسم أمه ، أخت على بن يوسف . ولما شعر ابن أضحى بتفوق المرابطين ، استغاث بحليفه ابن حمدين صاحب قرطبة ، وابن جزى قاضى جيان ، فبعث إليه ابن حمدين بعض قواته بقيادة ابن أخيه على بن أبى القاسم المعروف بابن أم العماد . ولكن حدث خلال ذلك ، أن رأى فريق من أهل غرناطة ، أن يلتجئوا إلى رئيس يولونه على أنفسهم ، ويستطيع مغالبة اللمتونيين ، واقترح البعض أن يكون هذا الرئيس هو سيف الدولة بن هود ، لقدم بيته ، وبعد صيته فى الرياسة ، وتغلبه على جيان وغيرها من القواعد ، وأيدهم فى ذلك ابن أضحى وأصحابه . وبعث أهل المدينة برغبتهم إلى ابن هود ، فلباها ، وقدم إلى غرناطة فى عسكر « من أوباش النصارى وسقاط الجند » . فلما رأى ابن أم العماد تطور الأمور على هذا النحو ، ارتد فى قواته ثانية إلى قرطبة . وتعاهد ابن أضحى وابن هود على مدافعة اللمتونيين . وكان اللمتونيون حين مقدم ابن هود ، قد أنسوا ضعف عسكره ، وانحلال جنده ، فبرزوا للقائه خارج غرناطة ، ونشب بينهما قتال شديد ، فهزم ابن هود ، وقتل كثير من أصحابه ، وكان ذلك فى اليوم

---

(١) ابن الخطيب فى أعمال الأعلام ص ٢٥٤ . ويقول الضبى إن وفاته كانت فى سنة ٥٤٣ ﻫ (بغية الملتمس ص ٢٦١) ، ويقول ابن الأبار إنها كانت فى سنة ٥٤٨ ﻫ (التكملة رقم ١١٩) .

التاسع عشر من ذى الحجة سنة ٥٣٩ هـ . ولم يستطع ابن هود أن يدخل غرناطة إلا بشق النفس ، فدخلها مع من بقى من رجاله ، من فوق الأسوار ، ومن أعلى التلال ، ثم جاز إليها من باب مورور ، بعد أن اشتبك فى معركة أخرى مع قوة مرابطية ثانية ، وفقد عدداً آخر من جنده[1] . وفى رواية ابن الأبار أن ابن هود وابن أضحى لبثا على قتال المرابطين بالقصبة شهراً ، وفى خلال ذلك جرح ولد ابن هود عماد الدولة وأسر ومات بالقصبة ، فدفع المرابطون بنعشه إلى أبيه . ثم توفى القاضى ابن أضحى ، فتقدم ولده محمد مكانه ، واستمر على التعاون مع ابن هود فى مدافعة اللمتونيين . وقدم فى نفس الوقت عسكر من مرسية قوامه نحو ألفى فارس بقيادة قاضيها الثائر بها ابن أبى جعفر ، فخرج إليه اللمتونيون ، فهزموه وقتلوه ومعظم عسكره ، واستباحوا البلد — غرناطة — استباحة قهر وغلبة ، وفر معظم الناس عن منازلهم ، ثم ارتدوا إلى القصبة واعتصموا بها . فلما رأى ابن هود تفاقم الأمور على هذا النحو ، وأنه لا طاقة له بمقاومة اللمتونيين ، غادر غرناطة ، وفر إلى قاعدته جيان ، وكان قد ترك بها ابن عمه نائباً عنه . وقد أورد لنا ابن الأبار ، فى ترتيب هذه الحوادث ، رواية أخرى خلاصتها ، أن ابن أضحى لما قام بثورته ، دعا أولا لابن حمدين وذلك فى رمضان سنة ٥٣٩ هـ ، فامتنع الملثمون بالقصبة ، إلى أن وصل من جيان مع بعض قواد الثغر مدد لابن أضحى ، وانضم إليه جمع وافر من أهل غرناطة ، فخرج إليهم الملثمون ، وهزموهم شر هزيمة ، ثم عادوا إلى القصبة . ودامت الحرب بين الفريقين مدة داخل غرناطة وخارجها ، إلى أن قدم ابن أبى جعفر القائم بمرسية فى عسكر قيل إنه كان يبلغ اثنى عشر ألفاً بين خيل ورجل ، فخرج إليهم الملثمون مرة أخرى وهزموهم ، وقتلوا ابن أبى جعفر ، ثم عادوا إلى الاعتصام بالقصبة مرة أخرى. وهنا قدم ابن هود فى قواته ودخل غرناطة من باب مورور ، فاستقبله ابن أضحى وأنزله ، واستسقى ابن هود ، فأمر له بقدح من الماء المسموم ، فصاحت به العامة محذرة ، فخجل ابن أضحى ، وتناول القدح وشرب منه ، لكى يدفع مظنة الاتهام ، فمات من ليلته ، وانتقل ابن هود إلى القلعة الحمراء ، والقتال متصل بين الملثمين وأهل غرناطة ، حتى كان ذات يوم تمكن الملثمون فيه من

---

(١) نقلنا التفاصيل المتقدمة عن كتاب الذيل والتكملة لابن عبد الملك المراكشى ، وقد وردت فى ترجمة على بن عبد الله بن ثابت الأنصارى (عن نسخة خزانة الرباط المصورة عن نسخة باريس) .

ابنه وقتلوه . وبقى ابن هود بعد ذلك نحو شهر فى غرناطة ، والصعاب تكتنفه من كل صوب ، ثم هم أهل غرناطة بمناوأته ففر عنها ليلا وقصد إلى مرسية ، أو إلى جيان . وقام من بعده بأمر غرناطة أبو بكر محمد بن أبى الحسن بن أضحى ، ولكنه لم يلبث بها سوى أيام قلائل ، وهو يدافع خصومه ، ثم فر بعد ذلك إلى المُنكّب ناجياً بنفسه(أول سنة ٥٤٠ هـ) واضطر أهل غرناطة إلى التفاهم مع حاكمها المرابطى ميمون بن بدّر بن ورقاء ، وكان قد خلف أميرها السابق على بن فنّو بعد وفاته ، وهكذا استعاد اللمتونيون سيطرتهم على غرناطة[1] .

وكان القاضى أبو الحسن بن أضحى فقيهاً بارعاً ، وأديباً ، وشاعراً جزلا ، وقد أورد لنا ابن الآبار طائفة من نظمه ، ومن ذلك قوله :

يا ساكن القلب رفقاً كم تقطعه ... الله فى منزل قد ظل مثواكا
يشيد الناس للتحصين منزلهم ... وأنت تهدمه بالعنف عيناكا[2]

— ٤ —

وحدث فى مالقة نفس ما حدث فى قرطبة وغرناطة ، وانقلب قاضيها إلى تزعم الثورة بها ضد المرابطين . وإنه لما يلفت النظر فى هذه الأحداث المتشابهة ، تلك الظاهرة العجيبة ، وهى أن قادة الثورة ضد المرابطين لم يكونوا زعماء الجند ، وإنما كان معظمهم قضاة من رجال القلم . ففى قرطبة ، وجيان ، وغرناطة ، ومالقة ، ومرسية ، وبلنسية ، وغيرها ، كان زعماء الثورة قضاة ، فقهاء أدباء وشعراء ، من أعلام التفكير فى ذلك العصر . وقد نجد تعليلا لتلك الظاهرة ، فيما كان يتمتع بها الفقهاء والقضاة ، فى ظل الدولة اللمتونية من واسع الجاه والنفوذ ، حتى تركزت فيهم عناصر الزعامة المحلية ، التى كان يتمتع بها من قبل جيل الأمراء والقادة ، الذين اختفى معظمهم حينما قضت الدولة اللمتونية على دول الطوائف ، وإلى أنه لما أخذ نجم الدولة اللمتونية فى الأفول ، وانهار سلطان أولئك القضاة بانهيار الدولة ، التى أظلهم سلطانها ونفوذها ، حاولوا بإضرام نار الثورات المحلية ، وتولى زعامة مدائنهم ، أولا أن يحتفظوا بسابق رياستهم ، وثانياً أن يستردوا سلطانهم القومى ، بعد ما تحطم نير الدولة الغالبة . وسوف نرى فيما بعد ، أنه بعد أن تختفى هذه الثورات المحلية الصغيرة ، سواء بالقضاء

(١) ابن الأبار فى الحلة السيراء ص ٢٠٩ .
(٢) الحلة السيراء ص١٠٩ و ٢١٠ و ٢١١ ، وقد وردت بها مقطوعات شعرية أخرى لابن أضحى.

عليها ، أو بانضواء قادتها تحت لواء الدولة الموحدية الجديدة ، تبقى عناصر الثورة القومية الأندلسية العسكرية والسياسية ، مستمرة مدى جيل آخر ، على يد بعض الزعماء ، الذين لم يجدوا فى قيام الدولة الموحدية بالأندلس ، مكان الدولة المرابطية ، تحقيقاً للغاية القومية التحريرية ، التى كانت تبتغيها الأندلس ، من تحطيم نير أولئك الغزاة البربر ، الذين جاءوا إليها من وراء البحر ، باسم الجهاد فى سبيل الله ، ثم استقروا فيها سادة حاكمين .

فى الوقت الذى قام فيه ابن حمدين بقرطبة ، وابن أضحى بغرناطة ، نهض بمالقة قاضيها أبو الحكم بن حسّون ، ليتزعم ثورة مماثلة . وهو الحسين بن الحسين ابن عبد الله بن الحسين الكلبى بن حسّون ، ويكنى بأبى الحكم ، وكان ينتمى إلى بيت من أعرق بيوتات مالقة ، اشتهر بالعلم والجاه والسراوة . وُلى قضاء مالقة فى سنة ٥٣٨ هـ ، مكان قاضيها أبى محمد الوحيدى حينما استقال لفقد بصره ؛ ولما وقعت الثورة بقرطبة وغرناطة ، وغيرها من القواعد ، فى هذا الوقت بالذات ، وتكاتب القضاة ، أعلن أبو الحكم الثورة فى مالقة ، ودعا لنفسه ، وقام بأمر المدينة ، وحاصر اللمتونيين فى القصبة ، ولبث على منازلتهم ستة أشهر ، حتى أخرجهم منها ، وملك القصبة ، واستقر بها وتسمى بألقاب الإمارة ، وعين أخاه أبا الحسن قائداً لقواته ، وأسند إليه ولاية قرطمة وما إليها .

ولكن المرابطين فى أنتقيره وغيرها من الحصون المجاورة ، استمروا فى مهاجمته ومضايقته ، حتى اضطر أخيراً ، أن يستعين بالمرتزقة النصارى ، واضطر من أجل دفع أجورهم ، أن يرهق أهل المدينة بالمطالب والمغارم المختلفة ، فنقموا عليه مسلكه ، وداخل فريق منهم رجلا من خاصته ، كان قائد الحرس ببابه يدعى اللوشى ، وائتمروا معه على الإيقاع بأبى الحكم . ونجحت المؤامرة ، واستطاع المتآمرون بمعاونة اللوشى ، أن يخترقوا الأبواب ، وأن يملكوا القصبة ، فامتنع ابن حسون داخل القصر ، ودافع عن نفسه بأعنف ما يستطاع ، فلما نفدت جهوده ، وقتل أخوه وأيقن بالهلاك ، نفذ إلى داخل داره ، وأراد أن يقتل نساءه وبناته صوناً لهن ، فاعتصمن منه بالغرف والبيوت الداخلية ، فعمد عندئذ إلى إحراق كتبه وذخائره ، ثم تناول سما فلم يقتله لفوره ، فتحامل على نفسه ، وطعن نفسه برمح نفذ إلى ظهره ، ولكنه لم يمت وارتمى وهو يحتضر متخبطاً فى دمه ، ودخل أعداؤه القصر فألفوه على تلك الحالة ، ومات بعد يومين فى الحادى عشر

من ربيع الأول سنة ٥٤٧ هـ (يونيه سنة ١١٥٢م) . فصلبت جثته ، واحتز رأسه وأرسل إلى مراكش . ولما استولى الموحدون على مالقة بعد ذلك بنحو عام ، فى أوائل سنة ٥٤٨ هـ ، قبض على أهله وولده ، وبيع بناته ، واشترى بعضهن بعض أكابر الدولة الجديدة . فكانت نهايته المحزنة من أتعس ما لقى ثوار النواحى فى تلك الفترة[1] .

— ٥ —

وقام فى وداى آش ، على مقربة من غرناطة ، فى الوقت الذى قام فيه ابن حمدين فى قرطبة ، وابن أضحى فى غرناطة ، أحمد بن محمد بن مَلْحان الطائى ، فاستولى على القصبة وحصنها ، ودعا لنفسه ، وتلقب بالمتأيد بالله ، وعمل على تعزيز مركزه بكل الوسائل ، واشتد فى تحصيل المال والدخائر ، واقتنى الضياع الواسعة ، وتولى فلاحتها وحرثها ، حتى غدا من أغنى أهل زمانه . وتغلب على بعض القواعد القريبة ، مثل بَسْطة وضمها إلى إمارته ، واستخدم فى بلاطه الصغير عدة من مشاهير العلم والأدب فى ذلك العصر ، مثل أبى بكر بن طفيل الفيلسوف الطبيب ، وأبى الحكم هرودُس. واستطال عهده عدة أعوام . ولما قام محمد بن سعد بن مردنيش بثورته فى شرقى الأندلس ، وزحف على القواعد الوسطى والجنوبية ، قاصداً توسيع أملاكه ، ومحاربة الموحدين فى نفس الوقت ، سار إلى وادى آش تعاونه فرقة من النصارى ، فلما رأى ابن ملحان أنه لاطاقة له به أعلن طاعته للموحدين ، وكانوا فى ذلك الوقت قد استولوا على غرناطة ، بيد أنه لم يستطع الاحتفاظ بوادى آش فخرج عنها ، واستولى عليها ابن مردنيش كما استولى على بسطة وغيرها ، وذلك فى سنة ٥٤٦ هـ (١١٥١ م) . وعبر ابن ملحان البحر إلى المغرب ، ودخل فى خدمة الموحدين ، واستعمل بمراكش فى بعض الأعمال الهندسية فى إقامة البحيرة وإجراء مائها ، ثم نكب بعد ذلك لأسباب لانعرفها ، ونزعت أمواله ، وتوفى فى بؤس وضعة[2] .

— ٦ —

وثار فى جيان قاضيها يوسف بن عبدالرحمن بن جُزى ، وأنشأ بها حكومة مستقلة ،

---

(١) ابن الخطيب فى أعمال الأعلام ص ٢٥٥ .

(٢) ابن الخطيب فى أعمال الأعلام ص ٢٦٤ ، والإحاطة ج ٢ (القاهرة) ص ٨٩ .

اقتداء بزملائه القضاة فى قرطبة ، وغرناطة ، ومالقة ، ومرسية وغيرها . وليست لدينا عن حكمه وأيامه بجيان تفاصيل شافية . بيد أن رياسته لم تطل فيما يبدو ، لأن سيف الدولة بن هود استطاع التغلب على جيان وانتزاعها منه ، قبيل مسيره إلى قرطبة فى أواخر سنة ٥٣٩ هـ (أوائل سنة ١١٤٥ م)[١] .

— ٧ —

وشملت الثورة أراضى مثلث الأندلس الجنوبى ، فقامت فى رُندة ، وشَريش وقادس حكومات مستقلة ، وقضى فيها على سيادة المرابطين . ففى رندة قام رجل من رجال القلم ، وهو أخيل بن إدريس الرندى ، وأنشأ بها حكومة مستقلة . وكان أخيل هذا ، وهو فى الأصل من أهل رندة ، كما يدل على ذلك اسمه ، كاتباً أديباً شاعراً ، وكتب فى بداية حياته للملثمين . ولما قام ابن حمدين فى قرطبة ، استخدمه فى بطانته ، وكتب له ، وكان وثيق الصلة به مذ كان متولياً قضاء قرطبة . فلما استرد الملثمون قرطبة على يد ابن غانية ، وسقطت حكومة ابن حمدين ، سار أخيل إلى بلده رندة ، وكانت أمورها فوضى لاضابط لها ، فدعا لنفسه ، واستطاع أن يقوم بحكمها وضبطها ، ولكن فريقاً من خصومه سعوا إلى إسقاطه ، وخاطبوا أبا الغمر بن السائب بن عزون ، صاحب شريش ، فى القدوم إلى رندة ، والتغلب عليها . فاستجاب لهم ، وقدم إلى رندة ، واستطاع بمخادعة أخيل ، أن يستولى على القصبة دون قتال ، وانتزع أموال أخيل وأموال أصحابه ، وفر أخيل ناجياً بنفسه إلى مالقة ، ثم عبر البحر منها إلى المغرب ، واتصل فى مراكش بالوزير ابن عطية ، فأكرم وفادته ، وساعده فيما بعد على استرداد أمواله . ولما استولى الموحدون على الأندلس ، وُلى قضاء قرطبة ، ثم قضاء إشبيلية ، وتوفى بإشبيلية سنة ٥٦١ هـ (١١٦٦ م) ، وكان أديباً مطبوعاً وشاعراً جزلا[٢] .

وكان ابن عزون فى مقدمة الثوار الذين خلعوا طاعة المرابطين ، فقام فى بلده شَريش ، وأنشأ حكومة مستقلة ، فى نفس الوقت الذى قام فيه أحمد ابن قسىّ فى الغرب . وقوى أمر ابن عزون بسرعة ، وبسط سلطانه على أركش ، ثم على رندة حسبما تقدم ، وأعلن انضواءه فى البداية تحت طاعة ابن حمدين صاحب

(١) أشار ابن الخطيب فى أعمال الأعلام إلى ثورة ابن جزى فى جيان إشارة عابرة ص ٢٥٩ .
(٢) الحلة السيراء ص ٢٢٢ .

قرطبة . فلما تطورت الحوادث وانهارت حكومة ابن حمدين ، واضطر إلى مغادرة قرطبة ، نادى بخلع طاعته ، والاستقلال بدعوته . وفى أوائل سنة ٥٤١ ، عبر البحر إلى المغرب ، وسار إلى لقاء الخليفة عبد المؤمن ، وهو يومئذ يعسكر بمحلته تحت أسوار مراكش وبايعه بالطاعة ، وكان من الوافدين على عبدالمؤمن فى نفس الوقت ابن حمدين زعيم قرطبة السابق[١] . ولما عبر الموحدون إلى الأندلس ، كان ابن عزون وجند شريش أول من لقيهم ، وانضم اليهم . ويقدم إلينا صاحب روض القرطاس ، رواية أخرى ، خلاصتها أن أبا الغمر (ويسميه محرفا أبا القمر) وهو من بنى غانية ، كان هو القائد المرابطى لشريش ، وأنه لما عبر الموحدون البحر إلى الأندلس لأول مرة فى سنة ٥٣٩ هـ ، وفتحوا مدينة شريش صلحاً ، انضم إليهم أبو الغمر فى قواته ، وكانت ثلاثمائة فارس ، وأعلن بيعة عبد المؤمن ، فكانت شريش بذلك أول قاعدة أندلسية دخلت فى طاعة الموحدين ، وكان الموحدون لذلك يسمون أهلها بالسابقين الأولين ، ومن أجل ذلك حررت أملاكهم من المغارم ، وكانت وفود الأندلس إذا قدمت للسلام على الخليفة الموحدى ، كان وفد شريش أول الداخلين . وتم فتح شريش وفقاً لهذه الرواية فى شهر ذى الحجة سنة ٥٣٩ هـ (١١٤٥ م)[٢] . على أننا نؤثر الأخذ بالرواية المتقدمة : وهى تقدم إلينا ابن عزون ضمن ثوار الأندلس ، ثم تفصل لنا أعماله وحركاته فى منطقة الفُرُنتيرة ، ووفوده على عبد المؤمن بما يتفق مع باقى الحوادث التى وقعت فى تلك المنطقة فى تلك الفترة ، وهى رواية يؤيدها ابن الأبار ، وابن عذارى ، وابن خلدون ، وهى بذلك فى نظرنا أوثق وأكثر قبولا[٣] .

ونختتم هذا الثبت من ثوار غربى الأندلس ضد المرابطين بذكر زعيمين آخرين ، أولهما على بن عيسى بن ميمون والى ثغر قادس ، وقائد الأسطول المرابطى بهذه المنطقة ، وقد كان فى مقدمة الزعماء الذين خلعوا طاعة المرابطين ؛ وفى سنة ٥٤٠ هـ عبر البحر إلى المغرب ، وسار إلى لقاء عبد المؤمن ، وكان يومئذ قائماً على حصار فاس ، فقدم إليه طاعته ، ثم عاد إلى قادس ، وأقام بها الخطبة

---

(١) البيان المغرب — القسم الثالث ص ٢٢ .

(٢) روض القرطاس ص ١٣٢ .

(٣) راجع الحلة السيراء ص ٢٢٢ ، والبيان المغرب القسم الثالث ص ٢٢ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٣٤ .

للموحدين . وهو الذى عاون ابن قسى على العبور إلى المغرب ، ودفعه إلى مقابلة عبد المؤمن بنفسه ، ليناشده الجواز إلى الأندلس . ثم كان بعد ذلك ممن ثاروا على الموحدين ، وخلعوا طاعتهم من زعماء الغرب ، وذلك حينما ارتد ابن قسى عن الطاعة ، وتبعه زعماء لبلة وبطليوس وطبيرة وغيرهم ، إلى أن عبرت عساكر الموحدين بعد ذلك بقليل بقيادة يوسف بن سليمان ، وأخضعت أولئك الزعماء الثائرين بمختلف قواعد الغرب .

والثانى هو محمد بن على الحجام الثائر ببطليوس ، وقد ذكره ابن الخطيب فى ثبت زعماء الثورة ضد المرابطين ، ولكنه لم يقدم لنا عنه أى تفصيل آخر[١]. وذكره ابن خلدون ضمن الزعماء الذين خلعوا طاعة الموحدين ، ثم ذكر لنا بعد ذلك أنه حينما عبر يوسف بن سليمان بعساكر الموحدين ، وسار إلى مقاتلة ثوار الغرب ، عاد ابن الحجام (ويسميه هنا محرفاً ابن الحاج) إلى الطاعة ، وبعث إلى عبد المؤمن بهدية كان لها وقع حسن[٢]. ونحن نعرف مما تقدم أن بطليوس كانت من القواعد التى بسط ابن وزير عليها سلطانه ، وندب خاله عبد الله بن الصميل والياً عليها[٣] . ولم تذكر لنا الرواية بعد ذلك ، متى ولا فى أى ظروف ، آلت بطليوس إلى محمد بن الحجام .

---

(١) أعمال الأعلام ص ٢٤٨ .
(٢) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٣٤ و ٢٣٥ .
(٣) الحلة السيراء ص ٢٠٤ .

الفصل الثاني

عبد المؤمن وشـــئون الأندلس

وافتتاح إشبيلية وقرطبة وغرناطة والمرية

اهتمام عبد المؤمن بشئون الأندلس . مقدم الوفود الأندلسية على عبد المؤمن . متى تدخل الموحدون فى شئون الأندلس . عبور الجيوش الموحدية الأولى إلى شبه الجزيرة وأعمالها . زحفها على إشبيلية ، وافتتاحها إياها . أخوا المهدى وحكمهما لإشبيلية . تطور الحوادث وخروج الزعماء الأندلسيين على الموحدين . عبد المؤمن يرسل جيشاً آخر إلى الأندلس . إخضاع الموحدين للبلة وطلياطة وطبيرة وبطليوس . التجاء ابن قسى إلى ملك البرتغال . سخط أهل شلب وتآمرهم ضده بزعامة ابن المنذر . مصرع ابن قسى وعودة شلب إلى طاعة الموحدين . استيلاء ابن وزير على شلب . اعتقال الموحدين لابن المنذر . شعر ابن قسى وابن المنذر . رياسة ابن غانية فى قرطبة . ضغط ملك قشتالة عليه . تنازله عن بياسة وأبدة . مطالبته بالتنازل عن جيان . مفاوضة ابن غانية لبراز والى إشبيلية الموحدى . الاتفاق على تسليم قرطبة وقرمونة للموحدين . مغادرة ابن غانية قرطبة إلى غرناطة . فكرته فى التفاهم مع الموحدين . مرضه ووفاته وخلاله . زحف القشتاليين على قرطبة واحتلالهم إياها . مبادرة الحشود الموحدية لإنقاذها . انسحاب القشتاليين منها . احتلال الموحدين لقرطبة وجيان وأبدة وبياسة . قيام ابن مردنيش فى شرقى الأندلس . امتداد أملاكه حتى جيان . قيام الثورة ضده فى بلنسية . اقتحامه لبلنسية واستعادته لسلطانه . معاقبته لأهل بلنسية ولورقة . رسالة عبد المؤمن لابن مردنيش . استيلاء الموحدين على مالقة . اختيار عبد المؤمن لولده محمد لولاية العهد . ظروف هذا الاختيار حسبما يعرضها عبد المؤمن فى رسالته . رواية أخرى عن ذلك . عبد المؤمن يولى أولاده حكم البلاد . مهاجمة الوهيبى لمدينة لبلة . مسير ابن يومور والى إشبيلية إليها . احتلاله لبلة وفتكه بأهلها . القبض على ابن يومور ومعاقبته . الشكوى إلى الخليفة من ابن الرنق . إنشاء عبد المؤمن لبستان شنطلولية . طوافه بنواحى الأطلس والسوس . زيارته لتينملل . المصحف العثمانى ونقله من قرطبة إلى مراكش . إنشاء عبد المؤمن لمسجد مراكش الجامع . ندب ابن يكيت لولاية قرطبة وعبد الله بن أبى حفص لولاية إشبيلية . غزو ابن يكيت لأرض قشتالة . غزو عبد الله بن أبى حفص لأراضى البرتغال . تسليم الوالى المرابطى غرناطة للموحدين . التأهب لاسترداد ألمرية من النصارى . مسير السيد أبو سعيد والى غرناطة إليها . مسير الأسطول الموحدى إلى مياهها . محاصرة الموحدين لألمرية . مبادرة ملك قشتالة وحليفه ابن مردنيش لإنجاد الحامية النصرانية . استمرار الحصار وفشل كل محاولة لإنجاد الحامية . مقدم الوزير ابن عطية ومعالجته للموقف . تسليم النصارى وعودة ألمرية إلى المسلمين . انسحاب ملك قشتالة وحليفه ابن مردنيش . وفاة ملك قشتالة ألفونسو السابع . حوادث الغرب . امتناع الوهيبى بثغر طبيرة . مسير الموحدين إلى طبيرة ومحاصرتها . إتفاق الموحدين مع الوهيبى . تخلى ابن وزير عن باجة وميرتلة وشلب ، وعبوره إلى المغرب . الوزير ابن عطية . توليه الوزارة وتوطد مكانته . إرساله إلى الأندلس . تولية عبد السلام الكومى الوزارة فى غيابه . سعى خصومه

إلى التشهير به . مروان بن عبد العزيز وتحريضه للخليفة عليه . عود ابن عطية إلى المغرب . اعتزام عبد المؤمن التنكيل به . القبض عليه وعقد مجلس لاتهامه . القبض على أخيه عقيل بن عطية . توسل ابن عطية إلى الخليفة للعفو عنه . إعراض الخليفة عن توسله والسر فى ذلك . مسير الخليفة إلى تينملل ومعه الأخوان . إعدامهما خلال عوده إلى مراكش . تأملات عن هذا الحادث .

— ١ —

لم يكن عبد المؤمن بغافل عن أهمية الأندلس ، والعمل على تحريرها من أيدى المرابطين باعتبارها جزءاً لايتجزأ من الإمبراطورية المرابطية ، التى نذر الموحدون أنفسهم للقضاء عليها ، واستخلاص تراثها ، ولم تكن تعوقه عن العناية بشئون الأندلس ، أية حوادث أو مشاغل داخلية ، مهما بلغت من الخطورة ، فنراه فى أدق المراحل من الصراع بينه وبين المرابطين ، يستقبل وفود الأندلس ، ويزودها بنصحه وعونه ، ثم هو بعد ذلك ينتهز أول فرصة لتوجيه جيوشه إلى شبه الجزيرة ، لتأخذ بنصيبها من حوادث الأندلس ، ولتمهد السبيل لسيطرة الموحدين عليها .

وكان فى مقدمة من وفد على عبد المؤمن من زعماء الثورة فى الاندلس ضد المرابطين ، أبو الغمر بن السائب بن عزون زعيم شريش وأركش ورندة ، وأبو جعفر بن حمدين زعيم قرطبة المعزول ، وفدا عليه فى أوائل سنة ٥٤١ هـ وهو على حصار مراكش ، لاستنهاض همته للتدخل فى حوادث الأندلس ، وإنجاد زعمائها الثائرين ضد المرابطين . ووفد فى نفس الوقت أو بعده بقليل على عبد المؤمن زعيم الثورة فى غرب الأندلس ، أو زعيم ثورة المريدين أحمد بن قسىّ ، عقب خلعه وفقده لإمارته فى شلب وميرتلة على يد خصمه ومنافسه سيدراى بن وزير صاحب باجة . وقد سبق أن فصلنا فى موضعه ظروف مقدمه على عبد المؤمن ، وما يحيط بذلك من خلاف على تاريخ مقدمه ، ومكان لقائه به . ثم وفد على عبد المؤمن فى أوائل سنة ٥٤٢ هـ عقب افتتاح مراكش ، وفد كبير من إشبيلية ، وعلى رأسه القاضى أبو بكر بن العربى وعدة من زعماء إشبيلية ، يحملون إليه بيعة أهل إشبيلية ، وذلك على أثر افتتاح الموحدين لها . وفى أواخر سنة ٥٤٥ هـ وأوائل سنة ٥٤٦ هـ ، وفد على عبد المؤمن ، وهو بسلا يعد عدته لافتتاح إفريقية ، وفود أندلسية عديدة من مختلف حواضر الأندلس ، ومن بينها كثير من رجالات الأندلس البارزين ، من الفقهاء والقضاة والزعماء والقواد ، بلغوا نحو خمسمائة ، وشرح له خطباؤهم خطورة عدوان النصارى على الأندلس ،

واستطالتهم على قرطبة ، ومايقتضيه ذلك من مزيد العون والجهاد ، وذلك كله حسبما فصلناه من قبل فى موضعه[١] .

كان لمقدم هذه الوفود الأندلسية المتوالية أثرها فى إذكاء العزم ، الذى تكون لدى عبد المؤمن من قبل ، نحو شئون الأندلس ، ومبادرته إلى التدخل الفعلى فى حوادثها ، ومضاعفة جهوده فى توجيه البعوث العسكرية إليها . وقد اختلفت الرواية فى تحديد تاريخ تدخل الموحدين فى شئون الأندلس ، وفى كيفية هذا التدخل . ففى رواية صاحب روض القرطاس ومن روى عنهم ، أن هذا التدخل يرجع إلى أواخر سنة ٥٣٩ هـ (١١٤٤ م) عقب افتتاح عبد المؤمن لتلمسان ، ففى هذا التاريخ بعث عبد المؤمن إلى الأندلس جيشاً موحدياً من عشرة آلاف فارس بقيادة الشيخ أبى عمران موسى بن سعيد ، ونزل هذا الجيش بساحل الجزيرة الخضراء ، وكان أول بلد افتتحوه هو مدينة شريش ، افتتحوها صلحاً ، إذ خرج صاحبها أبو الغمر بن عزون ، وهو من بنى غانية المرابطين ، فى حامية المرابطين ، وقوامها ثلاثمائة فارس ، وبايع لعبد المؤمن ، وأعلن دخوله فى طاعته . وكان الموحدون لذلك يسمون أهل شريش بالسابقين الأولين ، وحررت أملاكهم من المغارم ، وكان خلفاء الموحدين إذا قدمت عليهم وفود الأندلس للسلام ، يقدمون وفد شريش ، ويُنادى عليهم اين السابقون ، ثم تتلوهم بقية الوفود . ويحدد لنا صاحب روض القرطاس ، نقلا عن ابن فرحون ، دخول الموحدين شريش بشهر ذى الحجة سنة ٥٣٩ هـ . ودخل الموحدون بلدة طريف والجزيرة الخضراء قبل ذلك بقليل ، وفر المرابطون منها إلى إشبيلية[٢] . بيد أن هذه الرواية التى ينفرد بها صاحب روض القرطاس ، تعارضها رواية أخرى هى رواية ابن الأبار وابن خلدون ، وهى تدلى بأن تدخل الموحدين فى شئون الأندلس يرجع إلى سنة ٥٤٠ هـ ، وأن أول جيش موحدى وُجه إلى الأندلس ، دخلها فى أوائل سنة ٥٤١ هـ . وتفصيل ذلك هو أنه حينما كان عبد المؤمن يعسكر بجيشه تحت أسوار فاس فى سنة ٥٤٠ هـ ، وفد عليه على بن عيسى بن ميمون قائد الأسطول المرابطى فى مياه قادس ، وقدم إليه طاعته ، ثم عاد إلى الأندلس ،

---

(١) البيان المغرب القسم الثالث ص ٢٢ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٣٤ ، والحلل الموشية ص١١١ ، وروض القرطاس ص ١٢٥ ، والحلة السيراء ص ٢٠٠ .

(٢) روض القرطاس ص ١٢٢ و١٢٣ .

وأقام الخطبة للموحدين بجامع قادس[١] ، وفى وسعنا أن نرجع بداية تدخل الموحدين فى شئون الأندلس إلى هذا التاريخ ، أعنى إلى سنة ٥٤٠هـ . وأما تدخل الموحدين العسكرى فى شئون الأندلس فيرجع وفقاً لقول ابن الأبار إلى أوائل سنة ٥٤١ هـ . وذلك أنه حينما وفد ابن قسى زعيم ثورة الغرب ، على عبد المؤمن فى ربيع الثانى سنة ٥٤٠ هـ ، ليحثه على إنجاد ثوار الغرب ، واستخلاص الإندلس من أيدى المرابطين ، بعث عبد المؤمن فى المحرم سنة ٥٤١ هـ جيشاً إلى الأندلس، ومعه ابن قسى . وهذا الجيش هو الذى افتتح طريف والجزيرة الخضراء ، ثم سار بعد ذلك إلى شلب ليفتتحها من يد ابن وزير المتغلب عليها ، وليعيدها إلى صاحبها ابن قسى[٢]. بيد أننا قد بينا من قبل ، أن عبور ابن قسى إلى المغرب ، لابد أنه وقع بعد التاريخ الذى يحدده ابن الأبار بقليل ، وذلك عقب فقد ابن قسى لحاضرته ميرتلة فى شعبان سنة ٥٤٠ ، وأن هذا العبور قد وقع حسبما يرجح فى أواخر سنة ٥٤٠ هـ[٣] ، فهنا وجه عبد المؤمن أول جيش موحدى إلى الأندلس بقيادة برّاز بن محمد المسّوفى ، وكان قبل من قاده الأمير تاشفين ، ثم انحاز بعد مصرعه إلى الموحدين ، ثم أمده بجيش آخر بقيادة موسى بن سعيد ، ثم بجيش ثالث بقيادة عمر بن صالح الصنهاجى ، وكانت مهمة الموحدين فى شبه الجزيرة ، أن يقاتلوا اللمتونيين ، والثوار معاً . وكان عبور هذا الجيش الموحدى إلى الأندلس فى شهر المحرم سنة ٥٤١ هـ . وبعد أن استولى الموحدون على طريف والجزيرة الخضراء ، ساروا إلى مدينة شَريش حيث انضم إليهم صاحبها أبو الغمر بن عزون وولده . ثم ساروا إلى مدينة لَبلة ، فأعلن صاحبها يوسف بن أحمد البطروجى الطاعة . وقصد الموحدون بعد ذلك إلى ميرتلة ، حاضرة ابن قسى من قبل ، وكانت عندئذ تحت سلطان منافسه سيدراى بن وزير فاستولوا عليها . ثم استولوا على شلب ، وردوا أمرها إلى ابن قسى . وساروا بعد ذلك إلى باجة ثم إلى بطليوس ، وكانا لنظر ابن وزير ، وعلى بطليوس من قبله خاله عبد الله بن الصميل ، فأعلن ابن وزير الطاعة ، وأطلق سجينه محمد بن عمر بن المنذر أحد زعماء المريدين ، وكان قد تغلب عليه وسجنه

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٣٣ .
(٢) ابن الأبار فى الحلة السيراء ص ٢٠٠ .
(٣) ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٦ ، و ج ٦ ص ٢٣٤ .

حسبما ذكرنا من قبل فى موضعه ، ثم سُملت عيناه وهو فى السجن ، فقصد إلى شلب واستقر بها إلى جانب زميله وحليفه السابق ابن قسى[1] . وسيطر الموحدون فى هذه الحولة الأولى على قواعد الغرب ، التى كانت بأيدى المريدين ، ولم تستغرق منهم سوى بضعة أشهر . بيد أنها لم تكن سوى مقدمة ، لغاية أهم وأخطر ، هى الاستيلاء على حاضرة إشبيلية .

وسار الموحدون فى سائر قواتهم إلى إشبيلية ، وانضم إليهم زعماء المريدين ، أحمد بن قسى وسيدراى بن وزير ويوسف البطروجى كل فى قواته ، واستولوا فى طريقهم صلحاً على طلياطة وحصن القصر ، وهما قلعتا إشبيلية من الغرب ، وقد أعلنت كلتاهما الطاعة ، ثم ضربوا الحصار حول إشبيلية . وحاصرتها من البحر سفن الأسطول الأندلسى ، بقيادة على بن عيسى بن ميمون ، صاحب قادس . ولم يطل أمد هذا الحصار ، إذ لم يكن بإشبيلية سوى حامية مرابطية ضعيفة ، تدافع فى ظروف دقيقة ، ومن حولها شعب خصيم متربص ، وسرعان ما اقتحم الموحدون المدينة ، ففر منها المرابطون إلى قرمونة ، وقتل الموحدون من أدركوه منهم ، وقتل فى تلك المعمعة عبد الله بن العربى ، ولد القاضى أبى بكر ابن العربى ، عميد فقهاء المدينة وزعمائها . وتم فتح إشبيلية فى اليوم الثانى عشر من شعبان سنة ٥٤١ هـ (١٨ يناير سنة ١١٤٧ م)[2] وكتب بالفتح إلى عبد المؤمن ، فعلم به ، وهو على وشك دخول مراكش ، ثم قدم إليها بعد افتتاحها بقليل ، وفد إشبيلية برياسة القاضى ابن العربى ، يحمل إليه بيعة أهلها ، حسبما ذكرنا من قبل ، وذلك فى أوائل سنة ٥٤٢ هـ .

وكان بين مشيخة عسكر الموحدين بإشبيلية ، عبد العزيز وعيسى ، أخوا المهدى ابن تومرت . ولما كانت إشبيلية ، عند فتحها دون أمير يتولى حكمها ، فقد توليا هذه المهمة ، فساء سلوكهما ، وبغى كلاهما وطغى ، واستحلا سفك الدماء ونهب الأموال ، وغدت المدينة فى ظلهما مسرحاً لشر ضروب الفوضى ، وناهضهما فى ذلك يوسف البطروجى صاحب لبلة ، فاعتزما الفتك به ، فغادر

---

(١) ابن الأبار ص ٢٠٤ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٣٤ .

(٢) ابن الأبار فى الحلة السيراء ص ٢٣٩ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٣٤ ، وابن الأثير ج ١١ ص ٤٣و٤٤ . ويقول صاحب روض القرطاس ان افتتاح الموحدين لإشبيلية كان فى سنة ٥٤٠ هـ (ص ١٢٣) وهى رواية ضعيفة .

إشبيلية إلى بلده ، وأخرج الموحدين منها ، ونقض الطاعة ، وتحالف مع فلول المرابطين . وكذا فعل أهل طلياطة ، وحصن القصر . ثم خرج على الطاعة ابن قسى صاحب شلب ، وابن ميمون صاحب قادس ، ومحمد بن الحجام صاحب بطليوس ، ولم يثبت على طاعة الموحدين سوى ابن عزون صاحب شريش وولده . ولنلاحظ أن خروج أولئك الزعماء عن طاعة الموحدين ، قد وقع فى نفس الوقت الذى اضطرمت فيه بالمغرب ثورة الماسى ضد الموحدين (٥٤٢ هـ) ، ولاح مدى حين أنها تهدد سلطانهم ودولتهم . وانتهز يحيى بن غانية فرصة هذا الاضطراب الذين ترتب على سوء تصرف الموحدين ، وسخط زعماء الغرب على حكمهم ، فبعث قوة من المرابطين ، تغلبت على الجزيرة الخضراء ، مدخل شبه الجزيرة ، وتردد صدى ذلك فى سبتة ، فخلع أهلها الطاعة ، بزعامة عميدها القاضى عياض السبتى ، وقتلوا واليها يوسف بن مخلوف التينمللى ومن معه من الموحدين ، وتولى أمرها يحيى بن أبى بكر الصحراوى ، وذلك حسبما فصلناه فى موضعه . وفى خلال ذلك ساءت الأحوال فى إشبيلية وغادرها عبد العزيز وعيسى أخوا المهدى ومن معهما من الموحدين ، ولحقا بحصن ببشتر من معاقل ابن عزون ، ثم سارا ومعهما ابن عزون فى قواته ، وحاصروا الجزيرة حتى افتتحوها ، وقتلوا من بها من المرابطين . ثم عبر عبد العزيز وعيسى البحر بعد ذلك إلى المغرب ولحقا بمراكش حيث كان من أمرهما ومصيرهما ماسبق ذكره فى أخبار الخوارج على عبد المؤمن[1]

ولما علم عبد المؤمن بما حدث فى إشبيلية وغربى الأندلس ، بادر فبعث جيشاً من الموحدين إلى شبه الجزيرة ، بقيادة يوسف بن سليمان ، وندب برّازاً ابن محمد المسّوفى لشئون الجباية بالأندلس . وسار يوسف فى قواته أولا إلى لبله ، حيث قضى على ثورة البطروجى وأخضعه ، وتلا ذلك إخضاعه لطلياطة ، وحصن القصر . ثم سار إلى قاصية الغرب ، فأخضع مدينة طبيرة ، وأعلن صاحبها عامل ابن مهيب الطاعة ، وأعلن على بن عيسى بن ميمون صاحب شنتمرية الغرب وقادس كذلك عودته إلى الطاعة ، وحذا حذوه محمد بن على بن الحجام صاحب بطليوس ، وبعث بطائفة من الهدايا الفخمة برسم الخليفة عبد المؤمن ، فقبلت وكان لها وقع حسن . ولما دعيت وفود الأندلس إلى مقابلة الخليفة عبد المؤمن ، وهو بسلا فى سنة ٥٤٥ ، سار زعماء الغرب ، الذين تقدم ذكرهم وفى مقدمتهم سيدراى

---

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٣٤ .

ابن وزير صاحب باجة ويابرة ، إلى لقائه ، ولم يتخلف منهم سوى ابن قسى صاحب شلب وميرتلة[1] . وكان ابن قسى ، حينما رأى تقدم الموحدين فى أنحاء الغرب ، وانضواء زعمائه تحت لوائهم ، قد خشى البادرة على نفسه ،وهو لم يكن حين أعلن طاعته للموحدين لأول مرة ، مخلصاً لهم ، ولا مؤمناً بدعوتهم، وإنما كان مقصده فقط أن يستعين بهم ، وأن يأمن سطوتهم ، فلما رأى أنه عاجز عن مقاومتهم ، بعد أن خضع كل زملائه زعماء الغرب ، تحول إلى النصارى ، وبعث إلى ألفونسو هنريكيز ملك البرتغال ، وهو الذى تسميه الرواية العربية بابن الرنق وابن الرنك[2] يناشده التحالف والعون ، فاستجاب ألفونسو إلى دعوته، وبعث إليه بفرس من أفراسه ، وترس ورمح ، ووعده بالعون المنشود، فلما رأى أهل شلب تحول ابن قسى إلى النصارى ، سخطوا عليه ، ودبروا مؤامرة للتخلص منه ، بزعامة ابن المنذر الأعمى ، زميل ابن قسى وحليفه السابق ، وكان الموحدون قد أطلقوا سراحه من سجن بطليوس ، فعاد إلى شلب وأقام بها ، حسبما تقدم ، وشغل المتآمرون الحسين ولد ابن قسى بنزهة أعدوها له ، ثم احتالوا على دخول القصر ، وهو المسمى بقصر الشراجب ، واقتحمت طائفة منهم الحصن ، وفتكوا بابن قسى ، ورفعوا رأسه على الرمح المهدى إليه من ملك النصارى ، ونصبوا مكانه لرياستهم ابن المنذر ، معلنين ولاءهم للدعوة الموحدية ، وذلك فى جمادى الأولى من سنة ٥٤٦ هـ (سبتمبر ١١٥١ م) ، وبذلك انتهت رياسة ابن قسى ، ورياسة المريدين الذين كانوا أول من أعلن الخروج والثورة على المرابطين فى ولاية الغرب .

وكان ابن قسى عالماً ضليعاً ، ولاسيما فى علم الكلام والتصوف ، وشاعراً جزلا . وقد أورد لنا ابن الأبار طائفة من نظمه . فمن ذلك قوله يشيد بثورته :

وما تدفع الأبطال بالوعظ عن حمى	ولا الحرب تطفأ بالرّقا والتمائم
ولكن ببيض مرهفـات وذبّـل	موازدها ماء الطلى والغلاصم
ولا صلح حتّى نطعن الخيل بالقنـا	ونضرب بالبيض الرقاق الصوارم

---

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٣٥ .

(٢) ويسميه ابن الأبار بابن الريق (الحلة السيراء ص ٢٠٠) . ويسميه ابن الخطيب بصاحب قلمرية Coimbra ، وقد كانت يومئذ عاصمة إمارة البرتغال الناشئة (أعمال الأعلام ص ٢٥١) .

ونحن أناس قد حمتنا سيوفنا عن الظلم لما جرتم بالمظالم[1]

وكان ابن المنذر ، وقد فصلنا أخباره فيما تقدم ، رجلا قوى الشكيمة لا تؤمن عواقبه ، وكان الموحدون بالرغم من تمسكه بدعوتهم ، يخشون انتقاضه وتقلباته ، وكان سيدراى بن وزير من جهة أخرى يطمح بعد مصرع ابن قسى إلى احتلال شلب وضمها إلى أملاكه ، ومن ثم فإنه لم يمض سوى قليل على ولاية ابن المنذر ، حتى سار إلى شلب وتغلب عليها ، وذلك حسبما فصله ابن صاحب الصلاة فى كتابه « ثورة المريدين » ، وهو مؤلف لم يصل إلينا . ولم يعترض الموحدون على هذا التغيير فى رياسة شلب ، ولكنهم خشوا أن يعود ابن المنذر الأعمى ، إلى الثورة مرة أخرى ، فنقلوه إلى إشبيلية ليقيم بها تحت رقابتهم . وبعد حين غادرها ابن المنذر ، وعبر البحر إلى المغرب ، وقصد إلى سلا ، وأقام بها حتى توفى فى سنة ٥٥٨ ﻫ .

وكذا كان ابن المنذر ، مثل زميله ابن قسى ، عالماً وأديباً شاعراً ، وقد نقل إلينا ابن الأبار طائفة من نظمه ، فمن ذلك قوله يخاطب وزيره أبا بكر ابن المنخل ، وقد كان أيضاً من شعراء الغرب فى هذا العصر :

لئن غض منك الدهر يوما بأزمة فحسبك أن تلقى وانت مبور

فليس أساً يبقى وإن جل مثل ما على كل حال لا يدوم سرور

أيوجد فى الدنيا من الناس صاحب إذا أعرضت أبقى لذاك عسير

طلبت عزيزاً لا ينال فإن يكن فإنّ أبا بكر بذاك جدير

رضيت به حظاً من الناس كلهم فما بعده حرٌّ إليه نُشير[2]

— ٢ —

نعود الآن بعد أن استعرضنا تطور الحوادث فى غربى الأندلس ، وما انتهت إليه من بسط الموحدين لسلطانهم عليه ، منذ إشبيلية حتى شلب فى قاصية ولاية الغرب ، إلى تتبع الحوادث فى وسط الأندلس .

تركنا قرطبة ، وقد استعاد الأمير يحيى بن غانية المرابطى سلطانه عليها ، بمؤازرة القيصر ألفونسو السابع ملك قشتالة ، وغادرها زعيمها السابق القاضى

---

(١) راجع الحلة السيراء ص ٢٠٠ و ٢٠١ و ٢٠٤ ، وأعمال الأعلام ص ٢٥١ و ٢٥٢ .

(٢) الحلة السيراء ص ٢٠٤ — ٢٠٦ .

بن حمدين ، بعد أن تخلى عن مؤازرته النصارى لما رأوه من تقدم الموحدين فى ولاية الغرب ، واستيلائهم على إشبيلية ، واضطرارهم بذلك إلى مهادنة ابن غانية ، وحماية سلطانه على قرطبة (أوائل سنة ٥٤١ هـ) . وكان ألفونسو السابع يرى بحق ، أن ابن غانية يمثل آخر ماتبقى من سلطان المرابطين فى شبه الجزيرة ، وأنه أضحى رمز المقاومة لزحف الموحدين إلى أواسط الأندلس ، وكان ابن غانية يشعر فى كثير من المرارة ، أنه أضحى فى الواقع تابعاً لملك قشتالة ، وأن مصيره فى قرطبة وفى الأندلس أضحى رهيناً بمشيئته . واستمر ابن غانية عدة أشهر أخرى يصانع النصارى ، وملك قشتالة يشتط فى مطالبه ورغباته ، ويضيق عليه فى تصرفاته . وأخيراً استدعاه ألفونسو إلى حصن أندوجر ، وكان حاكمه ، وهو رجل يعرف بالعربى ، منضوياً تحت لواء النصارى ، فسار ابن غانية إلى أندوجر ، وهناك طالبه ملك قشتاله ، بالتنازل له عن بيّاسة وأبّده ، لقاء الاستمرار فى محالفته وحمايته ، فاضطر ابن غانية إلى القبول والتخلى عن هاتين القاعدتين الهامتين . ثم عاد ملك قشتالة فطالب ابن غانية ، بالتخلى له عن مدينة جيّان ، أومضاعفة الجزية المفروضة عليه . والظاهر أن ابن غانية وعد ملك قشتالة ، بإجابة مطلبه واستمهله بعض الوقت . واتصل فى نفس الوقت سراً ، ببراز بن محمد المسوفى والى إشبيلية الموحدى ، وكان حسبما تقدم من القادة المرابطين السابقين ، واجتمع الإثنان خفية بمدينة إستجة ، واتفقا على أن يقوم ابن غانية بتسليم قرطبة وقرمونة للموحدين . ويقول لنا ابن الخطيب بأن ابن غانية وصله خطاب عبد المؤمن « بما أحب » دون أن يوضح لنا ما الذى طلبه ابن غانية مقابل هذا التخلى ، وربما كان ذلك هو معاونة الموحدين له على الاحتفاظ بجيان . ومن ثم فإنه لما بعث ملك قشتالة سفراءه إليه يطالبونه بالتعجيل بتسليم جيان ، قبض عليهم وبعثهم إلى قلعة بنى سعيد (قلعة يحصب) فاعتقلوا بها تحت حراسة مشددة ، واضطر النصارى إلى الإفراج عن جيان[1] . وعلى أثر ذلك غادر ابن غانية قرطبة إلى غرناطة ، وهى آخر ما بقى للمرابطين من القواعد فى شبه الجزيرة ، وذلك فى جمادى الثانية سنة ٥٤٣هـ ،وكان يمتنع بها واليها ميمون بن يدّر اللمتونى مع جماعة من قادة المرابطين.

---

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٣٥ ، والإحاطة (مخطوط الإسكوريال السالف الذكر) لوحة ٢٧٢ فى ترجمة عبد الملك بن سعيد . ولوحة ٣٩٢ فى ترجمة ابن غانية .

وكان ابن غانية يرمى وفقاً لرواية صاحب القرطاس إلى ان يحمل يدر اللمتونى على أن يسلم غرناطة للموحدين ، على غرار قرطبة وقرمونة ، ووفقاً لرواية ابن خلدون على أن يحمله على « مثل حاله مع الموحدين » . ويزيد ابن الخطيب الأمر وضوحاً ، فيقول لنا إن ابن غانية كان يرمى إلى أن يجتمع فى غرناطة بأعيان لمتونة ومسوّفه ، فى شأن تصريف الأمر إلى الموحدين . وقد يفهم من ذلك أن ابن غانية انتهى بإعلان طاعته للموحدين وانضوى تحت لوائهم[١] . بيد أنه مما ينقض هذه الرواية ما يذكره لنا ابن الخطيب فى موضع آخر من أن ابن غانية ، بعد أن حل بغرناطة ، أقام بها شهرين ثم مرض وتوفى ، وكان يقول للمرابطين ، فى مرض موته ، وقد عول على جعل غرناطة معقلا للدعوة المرابطية : « الأندلس درقة وغرناطة قبضتها ، فإذا جشمتم يا معشر المرابطين القبضة لم تخرج الدرقة من أيديكم » . وهو ما ينفى عن ابن غانية أية شبهة فى الانحراف عن الدعوة المرابطية[٢] .

وكانت وفاة يحيى بن غانية فى الرابع والعشرين من شعبان سنة ٥٤٣ هـ (٧ يناير ١١٤٩ م) . ودفن بداخل قصبتها بالمسجد المتصل بقصر باديس ابن حبوس ، ومجاوراً له فى مدفنه ، وكان قبره مزاراً معروفاً يتبرك به حتى أيام ابن الخطيب (أواسط القرن الرابع عشر)[٣] .

وعلى أثر وفاة ابن غانية ، غادر مولاه العلج فلّوج غرناطة إلى حصن بنى بشير ، وكان سيده قد ولاه إياه ، وأودع فيه أمواله وذخائره ، وكانت مقادير طائلة واستعان على حفظه بجماعة من النصارى . ثم خطر له أن يلحق بابن أخى مولاه إسحق بن غانية . واستخلف على الحصن رجلا من أهل سرقسطة يعرف بابن مالك ، فقبض عليه إسحق وعذبه حتى مات . ولما علم الموحدون بما حدث ، سارت منهم سرية من مدينة لوشة القريبة ، وغلبوا على الحصن ، واستولوا على سائر ماكان فيه من الأموال والحلى والثياب وكان منها ذخائر جليله[٤] .

وكان يحيى بن على بن غانية أميراً نابهاً ، وجندياً وافر الجرأة والشجاعة ، والخبرة بأساليب الحروب ، وكان فى نفس الوقت سياسياً فطناً ، وحاكما وافر

---

(١) روض القرطاس ص ١٢٥ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٣٥ ، وابن الخطيب فى الإحاطة (مخطوط الإسكوريال) لوحة ٣٩٢ .

(٢) ابن الخطيب فى الإحاطة (١٩٥٦) ج ١ ص ١٠٣ و ١٠٤ .

(٣) ابن الخطيب فى الإحاطة (مخطوط الإسكوريال) لوحة ٣٩٢ .

(٤) ابن الخطيب فى الإحاطة (مخطوط الإسكوريال) لوحة ٣٦٠ .

الكفاية والمقدرة ، وقد استعرضنا فيما تقدم مراحل حياته ، وما وليه من مختلف المناصب ، وما ساهم به فى محاربة النصارى ، ولاسيما موقعة إفراغة (٥٢٨هـ) التى أحرز فيها المرابطون نصرهم الباهر على ألفونسو المحارب . ويلخص لنا ابن الخطيب خلاله فى قوله : « كان بطلا شهماً ، حازماً ، كثير الدهاء والإقدام ، والمعرفة بالحروب ، مجمعاً على تقدمه » . أما أخوه الأصغر محمد بن على بن غانية ، فقد ولى حكم الجزائر الشرقية منذ سنة ٥٢٠ هـ ، أيام على بن يوسف ، ولبث على ولايتها مدة طويلة حتى تعثرت أحوال الدولة المرابطية ، وانهارت دعائمها ، فاستقل بحكم الجزائر . وكان لعقبه بها دولة ، استمرت دهراً حصناً للدعوة المرابطية ، ومركزاً للكفاح المرير ضد الدولة الموحدية .

وكان ملك قشتالة فى تلك الأثناء ، يرقب الحوادث ، ويتربص الفرص . فما كاد ابن غانية ، يتخلى للموحدين عن قرطبة ، ويغادرها إلى غرناطة ، حتى زحف القشتاليون على عاصمة الخلافة القديمة ، والظاهر أنها كانت عندئذ بلا دفاع ، أو كانت لديها حامية صغيرة ، لا تستطيع دفعاً للنصارى ، فدخلها القشتاليون للمرة الثانية خلال عامين ، وذلك فيما يبدو فى جمادى الثانية أو رجب سنة ٥٤٣ هـ (نوفمبر أو ديسمبر سنة ١١٤٨ م) . بيد أنه كان احتلالا قصير الأمد ، ذلك أن الموحدين مذ حصلوا على موافقة ابن غانية ، على التخلى لهم عن قرطبة ، لم يفتهم أن النصارى ، وهم على مقربة منها فى حصن أندوجر ، يرقبون الفرصة لاحتلالها ، ومن ثم ، فإن برّازاً المسّوفى والى إشبيلية ، جهز فى الحال حملة موحدية بقيادة أبى الغمر بن عزون صاحب شريش ، تؤازرها قوة أخرى بقيادة يوسف البطروجى صاحب لبلة ، وكتب إلى الخليفة عبد المؤمن فى نفس الوقت لإمداده بالعساكر ، فبعث إلى الأندلس على وجه السرعة ، جيشاً موحدياً بقيادة أبى زكريا يحيى يومور . وزحفت العساكر الموحدية صوب قرطبة ، فلما شعر ملك قشتالة بوفرة القوات الموحدية الزاحفة ، لم يرد أن يشتبك وهو بعيد عن قواعده ومملكته ، فى معارك لا تؤمن عواقبها ، فغادر قرطبة فى قواته لأيام قلائل من احتلالها ، ودخل الموحدون قرطبة ، وبسطوا سلطانهم عليها ، وذلك فى شهر رجب أو شعبان سنة ٥٤٣ هـ . ولم تمض أشهر قلائل على ذلك حتى احتلوا مدينة جيان ، بعد أن لبث القشتاليون يهددونها حيناً ، ويحاولون احتلالها[١] . ثم استولوا

---

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٣٥ ، وروض القرطاس ص ١٢٥ .

على بياسة وأبدة من النصارى ، وبذلك امتد سلطان الموحدين إلى أواسط الأندلس ، ولم يبق بيد المرابطين سوى مدينة غرناطة ، التى استطاعوا أن يحتفظوا بها بضعة أعوام أخرى .

— ٣ —

وفى تلك الآونة بالذات ، حدثت فى شرقى الأندلس عدة حوادث هامة ، أولها قيام محمد بن سعد بن مردنيش فى بلنسية ومرسية ، وبسطه لسيادته على شرقى الأندلس (٥٤٢ هـ) ، ومحالفته للنصارى ؛ وثانيها سقوط القواعد الإسلامية الباقية من الثغر الأعلى فى أيدى النصارى ، وهى طرطوشة ولاردة وإفراغة ومكناسة (٥٤٣ — ٥٤٤ هـ) . وقد كان من الواضح منذ البداية ، ان ابن مردنيش ، وهو يمثل الفكرة القومية الأندلسية ، سوف يخوض مع الموحدين صراعاً لاهوادة فيه ، وهو قد بدأ هذا الصراع بالفعل ، مذ شعر بتوطد سلطانه واجتماع قواته ، فسار إلى بسطة ، ووادى آش ، وانتزعهما من صاحبهما ابن ملحان الطائى فى سنة ٥٤٦ هـ (١١٥٣ م) وذلك حسبما فصلنا من قبل . وهكذا امتد ت أملاك ابن مردنيش إلى مقربة من جيان ، التى كانت يومئذ قاعدة مو حدية . بيد أنه وقعت فى نفس هذا العام فى بلنسية وابن مردنيش بعيد عنها ، ثورة داخلية ، انتهت بقيام زعيم يدعى أبا مروان عبد الملك بن شلبان فى حكمها . فارتد ابن مردنيش بقواته ليحاصر بلنسية مدى حين . ولم يشر إلى قيام هذه الثورة ، ويقدم إلينا بعض تفاصيلها سوى ابن الأبار[١] . بيد أن هنالك نص آخر يشير إليها من زاوية أخرى ، وهو عبارة عن رسالة موحدية ، بعث بها الخليفة عبد المؤمن إلى « الشيخ أبى عبد الله محمد بن سعد » من حضرة مراكش مؤرخه فى ١٦ جمادى الآخرة سنة ٥٤٨ هـ . والظاهر من نص هذه الرسالة ، أن هذه الثورة التى كانت فى بلنسية ضد محمد بن سعد ، كانت تعلن « التوحيد » شعارا لها ، وأن ابن مردنيش ، حينما تم له اقتحام بلنسية ، وإخضاع الثورة ، قد نكل بالثوار ، ولاسيما الذين أبدوا ميلهم للدعوة الموحدية . كذلك يبدو من هذا النص أن أهل مدينة لورقة قد أبدوا نفس الميل إلى الدعوة الموحدية ، وأن ابن سعد قد نكل بهم أسوة بما فعله بأهل بلنسية ، ويدعو الخليفة عبد المؤمن فى رسالته ابن سعد إلى اعتناق أمر المهدى ، والدخول فى الدعوة الموحدية ، ويلفت نظره

---

(١) هذا ما ورد فى التكلمة (القاهرة) — الجزء الثانى — رقم ١٣١٣ و١٣٩٤ .

إلى أنه لم يفز أحد من زعماء الأندلس ببغيته إلا من دخل فى هذه الدعوة ، وأن من خرج عليها منهم ، كان جزاؤه سوء المنقلب ، ثم يدعوه إلى المبادرة إلى الاعتبار ، ويلومه بما كان منه فى حق أهل بلنسية « حينما أظهروا كلمة التوحيد » وكذلك أهل لورقة « حينما ظهر أخلاصهم »[1] .

وقد كان هذا فيما يبدو ، أول احتكاك بين ابن سعد وبين الموحدين . وقد كان الموحدون يعتقدون أنهم سوف يجدون فى شرقى الأندلس ، نفس الطراز من الزعماء الثائرين ، الذى لقوا فى غربى الأندلس ، يعبرون البحر إليهم ، ويلتمسون إلى خليفتهم العون والإمداد ، ولكن هذا الأمل لم يتحقق فى ابن مردنيش ، وهو سوف يغدو منذ الآن فصاعدا ، ألد خصومهم ، وأصلبهم عوداً ، وأرسخهم عزماً ، فى مقاومة الدعوة الموحدية فى شبه الجزيرة .

وفى أواخر سنة ٥٤٧ هـ (أواخر ١١٥٢ م) تقدمت القوات الموحدية من أنتقيرة ، وكذلك من الفرنتيرة نحو مالقة ، واستولت عليها ، وذلك عقب مصرع صاحبها المتغلب عليها القاضى أبى الحكم بن حسون ، وتم لهم بذلك الاستيلاء على كورة ريّة كلها .

وكانت سنة ٥٤٩ هـ (١١٥٥ م) سنة مليئة بالأحداث الهامة بالنسبة للموحدين والدولة الموحدية . ويمكننا أن نعتبر أن أهم حادث وقع فيها ، هو إسناد عبد المؤمن ولاية عهده لولده البكر محمد . ونحن نعرف أن الدولة الموحدية ، قامت على أسس دعوة دينية ، وأن عبد المؤمن ، حينما أتيح له أن يجتنى تراث المهدى ابن تومرت ، لم يكن قيامه فى الخلافة نتيجة وراثة أو ولاية عهد ، وإنما كان فى الظاهر على الأقل نتيجة لاختيار مختلف القبائل والطوائف الموحدية ، وتفضيلها لعبد المؤمن ، بالرغم من كونه لم يكن من قبيلة المهدى ، لخلاله ومقدرته ، ولأنه كان بالنسبة للمهدى ، أوثق أصحابه وتلاميذه صلة به ، وآثرهم لديه . ولكن الحوادث تطورت منذ وفاة المهدى ، تطوراً عميقا ، وقام عبدالمؤمن فى قيادة الدولة الموحدية الناشئة بأعظم دور ، وأبدى فى مصارعة خصومها وفى توطيد دعائمها مقدرة فائقة ، وأضحى عاهلها القوى يقود مصايرها بعزم لامثيل له ، وحوله تلتف سائر الزعامات الموحدية ، تحبوه بمطلق تأييدها وطاعتها .

---

(١) راجع رسائل موحدية التى سبقت الإشارة إليها ، الرسالة العاشرة ص ٣٦ و٣٧ . وقد نشرت هذه الرسالة أيضاً فى صبح الأعشى ج ٦ ص ٤٤٣ .

ونحن نذكر أن عبد المؤمن ، بعد أن أتم فتح بجاية ، وقضى على ثورة العرب فى إفريقية ، وعلى ثورة القبائل الخارجة فى أرض السوس وغيرها ، غادر مراكش إلى تينملّل ، فزار قبر المهدى ، وأمر ببناء مسجدها وتوسيع خططها ، ثم سار منها إلى سلا ، لإصلاح خططها أيضاً ، وليتم المنشآت التى بدأها فى عدوتها الرِّباط ، وكان ذلك فى أوائل أواسط سنة ٥٤٩ هـ . فى تلك الفترة ، وقعت تولية عبد المؤمن لولده أبى عبد الله محمد لولاية العهد . ولم يقدم لنا البيذق وهو المؤرخ المعاصر وشاهد العيان ، أى تفصيل عن هذا الحادث الجلل ، فى تاريخ الدولة الموحدية ، مكتفياً بالإشارة إليه فى بضع كلمات[1] . بيد أنه يستفاد من مختلف التفاصيل ، التى وردت فى رسائل الخليفة عبد المؤمن ذاته ، أن هذا التعيين قد اتخذ سبيل الشورى والاختيار من جانب الموحدين ، فهو يقول فى رسالته التى وجهها عن هذا الموضوع إلى أهالى سبتة وطنجة ، ومن بها من الطلبة والأشياخ والموحدين ، إن أولياء هذه الدعوة من القبائل والعشائر الشرقية المختلفة ، العربية والصنهاجية ، تقدموا باقتراحهم ورغبتهم فى هذه البيعة بولاية العهد ، وبعثوا إليه بذلك مراراً وتكراراً ، وأنهم لما وفدوا عليه بسلا ، أبدوا رغبتهم صراحة ، واختاروا لذلك ولده محمداً بالذات ، ورغبوا إليه فى أن يتولى هو حكم بلادهم ، وأنه أى عبد المؤمن لم يكن له فى ذلك كله قصد ينويه ، وأنه رأى بعد استخارة الله تعالى ، أن يجمع حوله بسلا شيوخ الموحدين وطلبتهم وعمالهم ، وأن يشاورهم فى هذا الأمر . وتقدمهم الشيخ الأجل أبو حفص عمر ابن يحيى ، وأكد أنهم هم المتقدمون بذلك ، وأنهم يرون وجوبه وتنفيذه ، وأنهم هم السابقون إلى مبايعته على حدود الشرع ورسومه ، وأكد سائر الطلبة والفقهاء ما تقدم ، واتفقوا جميعاً على وجوب تحقيقه ، « لأن فيه من إبقاء الأمر فى نصابه ، وإتيان الحق من أبوابه ، واتباع الدين من أخلائه وأحبابه ، وقطع كل منافق مرتاب عن أسباب نفاقه وارتيابه ، والنظر فيما يجمع كلمة الموحدين ، ويضم شمل المؤمنين ، بأوائل هـذا القصد الصالح وأعقابه ، ما ابتنى عليه اتفاقهم وإصفاقهم ، واسترسل فيه تعيينهم وإطلاقهم » . ثم يزيد عبد المؤمن على ذلك ، بأن ذلك لم يكن له فى نفسه « عقد سابق ، ولا نظر لاحق ، وأنه لما رأى اتفاق كلمة الموحدين على ربط هذا الأمر وعقده ، استخار الله فى الاتفاق

---

(١) كتاب أخبار المهدى ابن تومرت ص ١١٨ .

معهم على إنفاذه ؛ وبدأ البيعة الشيخ الأجل أبو حفص ، وتتابع من بعده الأشياخ والطلبة ، ومن حضر من قبائل الموحدين ، قبيلا بعد قبيل[١] ، وكتب بولاية العهد إلى سائر البلاد .

وإنه لما يلفت النظر ، أن الخليفة عبد المؤمن يؤكد فى رسالته غير مرة ، أنه لم يفكر ولم يكن له قصد سابق فى هذا التعيين لولده ، ثم هو يعود فيؤكد فى رسالة ثانية وجهها إلى أهل سبتة ، وإلى الطلبة والأشياخ ، أنه لم يكن عنده فى ذلك « قصد متقدم ، ولاعهد متوهم ، لكنه أمر الله أراده فأتمه ، واختاره لعباده فشمله بآمالهم وعممه »[٢]. نقول إن فى هذا التنصل من جانب الخليفة الموحدى ، ما يدلى بأنه كان يشعر بخطورة هذه الخطوة التى عمد إليها فى اختيار ولده لولاية العهد ، ويخشى أن يبدو فى اتخاذها ملكاً دنيوياً ، يعمل لتخليد السلطان فى عقبه ، وليخلق منهم أسرة ملوكية . وقد رأينا فيما تقدم كيف أنه حينما توفى المهدى ابن تومرت فى رمضان سنة ٥٢٤هـ (١١٣٠م) استطاع عبد المؤمن دون غيره من أشياخ الموحدين ، أن يفوز بالخلافة ، وأن يجتنى تراث المهدى الدينى والسياسى ، وأن يتم بعد جهود طويلة شاقة ، مهمته الأساسية فى القضاء على الدولة المرابطية ، وفى توطيد سلطان الدولة الموحدية ، ولم يكن ثمة شك فى أن تحقيق هذه المهمة الكبرى ، يرجع فى معظم نواحيه إلى عبقرية عبد المؤمن ، ومقدرته العسكرية والسياسية ، وإذن فقد كان من الطبيعى أن يتطلع عبد المؤمن إلى الاحتفاظ بثمار جهاده ، وإلى أن يورثها لبنيه وعقبه .

بيد أن هناك رواية تقول لنا إن عبد المؤمن لم يحقق ولاية العهد لولده ، نتيجة للشورى ونزولا على رغبة الأشياخ والقبائل ، حسبما يؤكد لنا فى رسائله ، ولكن تحقيقها كان بالعكس نتيجة لترتيب سابق ، دبره عبد المؤمن بالتفاهم مع بعض أنصاره . وذلك أن عبد المؤمن حينما شعر بتوطد مركزه ، وكثر أولاده من حوله ، قرر أن يستبقى الملك فى عقبه ، واستدعى أمراء العرب من بنى هلال وزغبة وعدى وغيرهم ، ووصلهم وأحسن إليهم ، ودفع إليهم من يقول لهم ، أن يطلبوا إلى عبد المؤمن أن يختار لهم ولى عهد من بنيه ، يرجع الناس إليه من بعده ، ففعلوا ما طلب إليهم ، فلم يجبهم عبد المؤمن فى بادئ الأمر ، إكراماً لأبى حفص

---

(١) مجموعة الرسائل الموحدية السالفة الذكر — الرسالة الثالثة عشرة ، ص ٥٦ — ٦٠ .
(٢) الرسائل الموحدية — الرسالة الرابعة عشرة ، ص ٦٢ .

عمر بن يحيى الهنتاني ، لعلو منزلته بين الموحدين ، وكان يعتبر ثاني رجل في الدولة بعد عبد المؤمن ، وكان من المتفق ، يوم تولى عبد المؤمن الخلافة ، أن يلي عمر الأمر من بعده ، ومن ثم فإن عبد المؤمن أجاب من طالبوه بترشيح ولده ، أن الأمر ليس له ، وإنما هو لأبي حفص عمر . فلما وقف أبو حفص على ذلك ، خشي عاقبة هذا التوريط ، فمثل أمام عبد المؤمن وأعلن خلع نفسه من الولاية ، فعندئذ بويع لمحمد بن عبد المؤمن بولاية العهد ، وكتب بذلك إلى جميع الجهات ، وذكر اسمه في الخطبة إلى جانب اسم أبيه[1] .

ولم يكتف عبد المؤمن بهذه الخطوة الحاسمة في تحقيق ولاية العهد لولده ولكنه قرنها في نفس الوقت (سنة ٥٤٩ هـ) بخطوة أخرى ، هي تولية أولاده حكم البلاد ، فندب ولده وولي عهده السيد أبا عبد الله محمد ، لحكم بجاية وأعمالها ، واستوزر له يخلف بن الحسين ؛ وولده السيد أبا الحسين لحكم فاس وأعمالها ، واستوزر له يوسف بن سليمان ؛ وولده السيد أبا حفص لحكم تلمسان واستوزر له أبا محمد بن وانودين ، وعين لكتابته الفقيه أبا الحسن بن عبد الملك ابن عياش ؛ وولده السيد أبا سعيد لحكم سبتة ومالقة والجزيرة الخضراء ، واستوزر له محمد بن سليمان وسعيد بن ميمون الصنهاجي ، ومن الكتاب الفقيه أبا الحكم ابن هرودس ، والفيلسوف أبا بكر بن طفيل . ويضع البيذق تاريخ هذه التولية في سنة ٥٤٨ هـ ؛ ويزيد على ذلك بأن الخليفة أعطى ولده يوسف حكم إشبيلية . ولكن سنرى أن هذه التولية تمت بعد هذا التاريخ . وولى ولده أبا الربيع حكم تادلا ، وولده أبا زيد أرض السوس ، ويقدم إلينا البيذق بهذه المناسبة بعض البيانات عن أولاد الخليفة وأمهاتهم ، فيقول لنا إن عمر ويوسف شقيقان وأمهما صفية بنت أبي عمران . وفي هذا العام أعني في سنة ٥٤٨ هـ ، وُلد للخليفة ولده يعقوب بقصر عبد الكريم ، وأمه جارية أهداها إليه ابن وزير ، وولد عمر الرشيد في عرض البحر ، وأمه من قادس ، وكان أبو زيد عند ولايته صبياً صغيراً ، وأمه لمطية من قبيلة لمطة . ومن أولاد عبد المؤمن أيضاً السيد اسماعيل ، وأمه بنت ماكسن بن المعز ، وعلي وأمه فاسية تدعى فاطمة ، ومحمد وأخوه موسى وأمهما من بلاد السوس[2] .

---

(١) ابن الأثير ج ١١ ص ٧٩ .

(٢) راجع أخبار ابن تومرت ص ١١٦ و١١٧ ، وابن الأثير ج ١١ ص ٧٩ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٣٦ ، وروض القرطاس ص ١٣٦ و١٣٧ .

وبعد أن انتهى عبد المؤمن من عقد البيعة بولاية العهد لولده محمد ، وتولية أولاده الآخرين حكم البلاد ، أخذ فى النظر فى شئون الأندلس ، وتوجيه البعوث إلى حمايتها وضبط أمورها . وكانت قد حدثت فى ذلك الحين فى ولاية الغرب بعض الحوادث المقلقة . ومن ذلك أن علياً الوهيبى أحد ثوار الغرب ، هاجم فى صحبة مدينة لبلة ليلا ، وأخذ أهلها على غرة وفتك بكثير منهم ، فلجأ الناس إلى قصبة الموحدين . فحاصر الوهيبى القصبة ، وأرهق من بها ، فلما وقف يحيى بن يومور والى قرطبة وإشبيلية الموحدى على ماحدث ، غادر من فوره قرطبة فى عسكر من الموحدين ، وسار إلى لبلة ، فبادر الوهيبى بالفرار ، وخرج أهل لبلة فى اليوم التالى ، معتذرين طائعين ، فلم يقبل لهم عذراً ، واعتبرهم جميعاً مذنبين ، وأوقع السيف فيهم أجمعين ، ولم يرحم منهم أحدا ، وكان ممن قتل من أعيان فقهائهم ، الفقيه أبو الحكم بن بطال المحدث ، وأبو عامر بن الجد . وتقدر الرواية من قتل من أهل لبلة فى ذلك اليوم بثمانية آلاف ، ومن أحوازها بأربعة آلاف ، ثم بيع نساؤهم وأولادهم . وكان مع ابن يومور فى تلك الوقيعة أبو الغمر بن عزون ، وهو الذى أشار عليه بارتكاب هذا الجرم . ووقع الفتك بأهل لبلة ، على هذا النحو فى الرابع عشر من شعبان سنة ٥٤٩ هـ . فلما بلغ عبد المؤمن ما فعله ابن يومور ، وما ارتكبه من شنيع السفك بأهل لبلة بمحض رأيه واستبداده ، بعث أبا محمد عبد الله بن أبى حفص إلى إشبيلية ومعه أمر باعتقال ابن يومور ، فاعتقله بمعاونة برّاز بن محمد ، وأخذاه يوم الفطر مكبلا ، وبعثا به إلى مراكش فى صحبة عبد الله بن سليمان ، فاعتقل بمنزله ، واستمر على ذلك حيناً إلى أن زار الخليفة قبر المهدى ، وسار ابن يومور فى ركبه ، فعفا عنه وأمنه ، وأبقى عليه حساب الآخرة ، ثم بعثه إلى تلمسان صحبة ابنه السيد أبى حفص ضمن أشياخ الموحدين الذى ساروا فى رفقته[١] .

وفى آخر هذا العام ، وفد ابن وزير صاحب باجة ويابرة إلى مراكش ، مستغيثاً بالخليفة من أعمال ملك البرتغال ألفونسو هنريكيز ، وهو المسمى فى الرواية العربية ابن الرنك ، أو ابن الرنق ، وتفاقم عدوانه على الثغور ودأبه على غزو أراضيهم والعيث فى بسائطهم ، وإتلاف زروعهم ، وتشتيت شملهم ، فوعده الخليفة

(١) البيان المغرب — القسم الثالث ص ٢٩ و ٣٠ ، وروض القرطاس ص ١٢٧ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٣٦ .

بالعون ، وردع العدو وتحقيق النصر الذى يؤمل ، وأمر بالكتب بذلك إلى أهل يابرة وباجة ، فوجهت إليهم الكتب فى الثالث والعشرين من المحرم سنة ٥٥٠ هـ[1].

* * *

وزار عبد المؤمن قبر المهدى فى هذه السنة ، ثم غادر تينملل إلى سلا ، وبقى بها حسبما يحدثنا البيذق مدى عامين ، ثم عاد إلى مراكش ، وأمر بأن يغرس فى خارجها بستان عظيم ، أطلق عليه اسم « شنطلوليه »[2]، وعنى بتخطيط هذا البستان (أو البحيرة كما كانت تسمى الحديقة يومئذ) أحمد بن ملحان صاحب وادى آش السابق ، وأجرى إليه الماء من أغمات ، ومن عيون كثيرة أنشأها ، وكان قد وفد على مراكش بعد استيلاء ابن مردنيش على أراضيه فى سنة ٥٤٦ هـ ، واستعمل فى إنشاء البستان وغرسه ، لما له فى ذلك من خبرة هندسية فائقة[3]. وزود هذا البستان الضخم ، بسائر الغروس من الفواكه والأزهار والرياحين ، والأشجار النادرة ، ولم يمض سوى قليل حتى غدا بجمال تنسيقه ، وروعة نضرته ، وكأنه قطعة من الجنان . ويقول ابن اليسع إن هذا البستان كان يشغل مساحة قدرها ثلاثة أميال فى مثلها ، وأنه بعد عامين أو ثلاثة من غرسه كان إيراد زيتونه وفواكهه ، يبلغ ثلاثين ألف دينار مؤمنية على رخص أثمان الفواكه[4] . ويقص علينا صاحب المعجب ، أن الوزير أبا جعفر بن عطية ، دخل على عبد المؤمن ذات يوم ، وهو جالس فى قبة مشرفة على البستان ، فسحره جمال البستان وروعته ، ولاحظ ذلك عبد المؤمن ، فأبدى له أن المنظر الحسن إنما هو شىء آخر ، وبعد ذلك بأيام قلائل أجرى الخليفة عرضاً لعسكره ، ومرت الكتائب ، متوالية فى أكمل هيئة ونظام ، وكان إلى جانبه وزيره ، فالتفت إليه قائلا « إن هذا هو المنظر الحسن يا أبا جعفر لا ثمارك وأشجارك »[5].

وقضى عبد المؤمن بقية هذا العام (سنة ٥٥٢ هـ) فى الطواف بنواحى الأطلس وبلاد السوس ، ومعه طائفة من أشياخ الموحدين وطلبتهم وحفاظهم ،

---

(١) البيان المغرب القسم الثالث ص ٢٠ .

(٢) أخبار المهدى ابن تومرت ص ١٢٠ .

(٣) أعمال الأعلام ص ٢٦٤ .

(٤) الحلل الموشية ص ١١٠ .

(٥) المراكشى فى المعجب ص ١١٢ .

وكان يرمى بهذا الطواف إلى الاتصال بالقبائل المنضوية تحت لواء التوحيد ، فاجتمع خلال طوافه بأبناء جدميوة ، ومصمودة ، وجنفيسة ، ورجراجة ، وحاحة ، كل قبيلة منهم فى مكانها ، وأمر بأن تلقى عليهم المواعظ والتعريف بمقاصد التوحيد ، تذكيراً لهم ، وتوطيداً لعقائدهم ، وفرق فيهم الصلات . ثم وفد عليه جملة من قبائل جزولة ، طالبين الأمان ، ومؤكدين ولاءهم وإيمانهم ، وصادق توبتهم ، فحذروا من العود إلى الخلاف ، وما يترتب على ذلك من الهلكة ، وشملهم العفو والرحمة . وسار الخليفة بعد ذلك إلى تارودانت واجتمع فيها بقبائل السوس ، فأكدوا له عهد الولاء والطاعة ، وشملتهم رعايته ومننه . ولما صل إلى آنسا ، وهى طرف بلاد السوس ، اجتمعت حوله قبائل تينملل وهنتاتة ، فنالهم ما نال اخوانهم من أسباب الخير والبركة . وكان فصل الخريف قد انصرم يومئذ ، وأقبل الشتاء ، فسار عبد المؤمن إلى تينملل ليختتم جولته بزيارة قبر المهدى مرة أخرى ، وقصد إليها ، « والنفوس قد حفزها الشوق إلى مقامه ، وسارع بها الحرص إلى معالمه المقدسة وأعلامه » ، وذلك حسبما يقول لنا فى رسالته المستفيضه التى أمر بكتبها عن رحلته . وهنالك تقاطرت عليه وفود القبائل من سائر تلك الأقطار ، وازدحمت بهم الوديان والربى ، وشملوا جميعاً بالرعاية والإكرام ، « وأفهموا فى أثناء ذلك من مقاصد الحق المبين ، وعقائد الدين المتين ، ما شرح صدورهم ، وضاعف سرورهم » ، وتأكد ولاؤهم ، وتمسكهم بدعوة التوحيد .

وانتهت رحلة الخليفة ، بعد أن تحققت مقاصدها ، فى العمل على إحياء الدعوة الموحدية فى مهادها ، وتذكير مختلف القبائل بما يجب عليهم نحوها من الولاء والإخلاص ، وتحذيرهم من عواقب الخروج والردة ، وتنقية النفوس من الشوائب . وعاد عبد المؤمن إلى مراكش فى أواخر رمضان سنة ٥٥٢ هـ ، وصدرت عن رحلته بتاريخ الثامن من شوال رسالة مستفيضة ، من إنشاء كاتبه أبى عقيل بن عطية ، أخى الوزير أبى جعفر ، وهى رسالة ممتعة كتبت بأسلوب بليغ مشرق[1] .

وكان هذا العام — ٥٥٢ هـ — عام الأحداث المباركة ، فكان بعد الحج إلى تينملل ، أن أحضر المصحف العثمانى من قرطبة إلى مراكش ، تحقيقاً لرغبة الخليفة عبد المؤمن . وكان هذا المصحف أحد المصاحف الأربعة المشهورة التى

(١) راجع هذه الرسالة ضمن مجموعة الرسائل الموحدية ، وهى الرسالة السابعة عشرة (ص ٨١ — ٩٢) .

بعث بها الخليفة عثمان إلى الأمصار — مكة والبصرة والكوفة والشام — وكان من ذخائر بنى أمية بالأندلس، يودعونه بجامع قرطبة الأعظم. وقد وصفه لنا الإدريسى عند حديثه عن جامع قرطبة فى الفقرة الآتية : « وعن شمال المحراب بيت فيه عدد وطشوت ذهب وفضة وحسك ، وكلها لوقيد الشمع فى كل ليلة من شهر رمضان المعظم . ومع ذلك ففى هذا المخزن مصحف يرفعه رجلان لثقله ، فيه أوراق من مصحف عثمان بن عفان ، وهو المصحف الذى خطه بيمينه رضى الله عنه ، وفيه نقط من دمه . وهذا المصحف يخرج فى صبيحة كل جمعة ، ويتولى إخراجه رجلان من قومة المسجد ، وأمامهم رجل ثالث بشمعة . وللمصحف غشاء بديع الصنعة منقوش بأغرب ما يكون من النقش وأدقه وأعجبه ، وله بموضع المصلى كرسى يوضع عليه ، ويتولى الإمام قراءة نصف حزب منه ، ثم يرد إلى موضعه »[١]. فلما استولى الموحدون على قرطبة ، كان من أجل أمانى عبد المؤمن أن ينقل هذا المصحف إلى مراكش ، ويقال إن أهل قرطبة هم الذين عملوا على أهدائه إلى الخليفة الموحدى ، وكان إخراجه من جامع قرطبة فى اليوم الحادى عشر من شوال سنة ٥٥٢ هـ ، وحمله إلى المغرب السيدان أبو سعيد وأبو يعقوب ولدا الخليفة ، فلما وصل إلى مراكش استقبله الخليفة بأعظم آيات التبجيل والإجلال ، وصنع له كسوة عظيمة مرصعة بأنواع اليواقيت والأحجار النفيسة ، وتابوتاً من صفائح الذهب المرصع بالياقوت الأحمر ، وعمل لحمله كرسى فاخر كذلك ، وكان عبد المومن يحمله بعد ذلك فى مقدمة جيشه فى حملاته تبركاً به ، وقد حمله معه فى غزوة المهدية سنة ٥٥٤ هـ [٢]. ولبث هذا المصحف النفيس لدى الخلفاء الموحدين زهاء قرن آخر حتى أواخر دولتهم .

وأمر عبد المؤمن فى نفس العام ، بإنشاء المسجد الجامع بمراكش ، وبدئ بإنشائه فى أوائل ربيع الآخر سنة ٥٥٣هـ ، وأنشأ له « ساباطا » يوصل إليه من القصر مباشرة ، وزوده بمنبر فخم أمر بصنعه فى الأندلس ، من خشب العود والصندل ، المغطى بصفائح الذهب والفضة ، وصنع له مقصورة من الخشب

(١) الإدريسى فى « وصف المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس » ص ٢١٠ و ٢١١ .

(٢) نقل إلينا المقرى رواية ابن طفيل عن قصة هذا المصحف وحمله إلى المغرب كاملة مفصلة ، ووصف كسوته الفاخرة ، وما زينت به من روائع التحف والذخائر (نفح الطيب ج ١ ص ٢٨٤ — ٢٨٨) . وراجع أيضاً الحلل الموشية ص ١١٥ و ١١٦ ، والمعجب ص ١٤٢ .

ذات ستة أضلاع ، تفتح أبوابها دفعة واحدة بطريقة آلية ، وكذا المنبر لايفتح إلا عند صعود الخطيب ، بطريقة آلية كذلك . وكان الذى قام على صنع المنبر والمقصورة على هذا النحو المبتكر ، رجل فنان من أهل مالقة هو الحاج يعيش المالقى ، وهو الذى قام فيما بعد على تخطيط مدينة جبل طارق ، وصنع منارة الجامع بإشبيلية ، فى عهد الخليفة يعقوب المنصور ، حفيد عبد المؤمن . وكمل بناء المسجد الجامع فى نحو أربعة أشهر ، فى منتصف شعبان من نفس السنة ، وبذلت فى بنائه وتجميله وزخرفته جهود عظيمة وأموال جمة[1] .

— ٤ —

لما أقيل ابن يومور عقب مذبحة لبلة ، من ولاية قرطبة وإشبيلية على النحو المتقدم ، ندب الخليفة عبد المؤمن مكانه لولاية قرطبة أبا زيد عبد الرحمن بن يكيت أو يخيت ، ولولاية إشبيلية أبا محمد عبد الله بن أبى حفص بن على التينمللى ، فوصلا إلى الأندلس فى أوائل سنة ٥٥٠ هـ (١١٥٥ م) ، وذهب كل منهما إلى مقر ولايته . وماكاد ابن يكيت يستقر فى قرطبة ، حتى خرج فى بعض القوات الموحدية ، وسار إلى مهاجمة الحصون النصرانية فى المناطق القريبة ، وكان القشتاليون بقيادة ملكهم ألفونسو السابع ، قد استولوا على حصن أندوجر ، وحصن البطروج القريب منه ، قبل ذلك بقليل ، فهاجم ابن يكيت ، حصن البطروج[2] وما يليه من حصون النصارى ، وتغلب على الحصن المذكور ، وأسر قائده القشتالى ، وبعث به إلى مراكش ، ثم عاد فجهز حملة ثانية ، وسار إلى مهاجمة الحصون النصرانية ، واستولى منها فى تلك المرة على حصنين منيعين ، هما حصن منتور وحصن المدور[3] ، وهما يقعان جنوبى قرطبة ، وبعض حصون أخرى .

وكان مثل ابن يكيت حافزاً لزميله عبد الله بن أبى حفص والى إشبيلية ، فحشد قواته بمعاونة برّاز صاحب المخزن ، وكتب إلى ابن الحجام صاحب بطليوس بأن يحشد جند الثغر ، وخرج عبد الله فى قواته من إشبيلية وهى تزداد كل يوم ، بمن ينضم إليها من المتطوعين والمجاهدين ، حتى وصل إلى بطليوس

---

(١) الحلل الموشية ص ١٠٩ .

(٢) وهو بالإسبانية حصن **Pedroche**

(٣) وهما بالإسبانية **Almodóvar, Montoro**

فانضمت إليه حشودها ، فاستقر الرأى على غزو أراضى البرتغال انتقاماً من ملكها ألفونسو هنريكيز (ابن الرنك) . فسارت القوات الموحدية وحلفاؤها نحو الشمال الغربى ، حتى عبرت نهر التاجه ، وهاجمت حصن أطرونكس[1] وتغلبت عليه وقتلت حاميته ، وعاثت فى تلك المنطقة قتلا وسبياً ، وامتلأت أيدى الغزاة من الغنائم والأموال والأسرى ، وبادر النصارى فى تلك المنطقة فاحتشدوا وقدموا مسرعين لمقاتلة المسلمين ، ونشبت بين الفريقين معركة هزم فيها النصارى ، واستولى المسلمون على أسلابهم ، وعاد الموحدون وقائدهم ظافرين إلى إشبيلية .

ولما وصلت أنباء هذه الفتوحات إلى مراكش ، بعث الخليفة إلى عبد الرحمن ابن يكيت وعبدالله بن أبى حفص بالقدوم إلى الحضرة (مراكش) فقدما إليها ، وقدّما إلى الخليفة خضوعهما ، وعرفاه بما فتح الله على عسكره من النصر ، وما تحقق للأندلس من رعاية أحوالها ، والتفاف أهلها حول رايته ، ودعاءهم له بالتأييد ودوام النصر[2] .

وكان لهذه الإنتصارات الموحدية بالأندلس ، تأثير حاسم فى سير الحوادث بمدينة غرناطة . وكانت غرناطة ، قد بقيت بأيدى المرابطين ، من بعد وفاة عميدهم الأمير يحيى بن غانية فى شعبان سنة ٥٤٣ ، واستطاع واليها ميمون بن يدّر اللمتونى ، أن يصمد بها طوال هذه الأعوام السبعة . فلما تتابعت الحوادث ، وامتد سلطان الموحدين إلى معظم قواعد الأندلس الغربية والوسطى ، وتوالت انتصاراتهم فى منطقة قرطبة وما اليها ، شعر المرابطون فى غرناطة بتحرج مركزهم ، وتضاؤل قواتهم ومواردهم ، فبعث واليها ميمون بن يدر إلى عبدالمؤمن يعرض تسليمها ، ويلتمس العفو والأمان ، فأجابه عبد المؤمن إلى طلبه ، وأمر عبد الله بن سليمان صاحب الأسطول بسبتة ، وولده السيد أبا سعيد والى سبتة والجزيرة الخضراء بالسير إلى غرناطة ، فسارا إليها ، واستقبلهما ميمون وحاميته المرابطية بترحاب ، وتسلم الموحدون المدينة ، وعاد ميمون وصحبه مع عبد الله ابن سليمان ، إلى العدوة ، ووصلوا فى صحبته إلى مراكش ، حيث أنزلوا منازل حسنة ، وأغدقت عليهم الصلات والأرزاق . وندب عبد المؤمن ولده السيد أبا سعيد لولاية غرناطة بالإضافة إلى سبتة والجزيرة ، فاستقر بها مع حامية

---

(١) وهو بالإفرنجية **Trancoso** .

(٢) البيان المغرب — القسم الثالث — ص ٣١ و٣٢ .

موحدية . وكان استيلاء الموحدين على غرناطة فى سنة ٥٥١ هـ (١١٥٦ م)[1].

وتلا استيلاء الموحدين على غرناطة ، استيلاؤهم على ألمرية . وكان النصارى قد انتهزوا فرصة الاضطراب العام الذى ساد الأندلس ، عقب انهيار سلطان المرابطين ، وجهزوا حملة صليبية برية وبحرية ، اشتركت فيها ممالك اسبانيا النصرانية قشتالة وناڤار (نبرّة)، وأراجون وقطلونية ، ومعها أمداد من چنوة وبيزة وبعض حشود من وراء البرنيه وذلك لافتتاح ثغر ألمرية ، وحاصروا ألمرية براً وبحراً ، مدى ثلاثة أشهر ، واستولوا عليها حسبما ذكر فى موضعه فى شهر أكتوبر سنة ١١٤٧ م (٥٤٢ هـ) . وكان الموحدون مذ عبروا إلى شبه الجزيرة ، واستقروا فى قرطبة فى أواسط الأندلس ، يتوقون إلى استرداد هذا الثغر الإسلامى العظيم ، خصوصاً وقد كان وجود النصارى فيه يهدد مواصلاتهم البحرية شرقى بحر الزقاق ، فيما بين شاطىء المغرب الأوسط ، وجنوبى الأندلس . فلما تم استيلاؤهم على غرناطة ، شعروا بأن الفرصة قد سنحت لتحقيق هذا المشروع ، الذى كان الخليفة عبد المؤمن ، يحبوه بمزيد من عنايته واهتمامه . فحشد السيد أبو سعيد والى غرناطة قواته ، وبعث إلى ألمرية بادئ ذى بدء حملة استطلاعية ، وصلت إلى أسوار ألمرية ، وقتلت عدداً من النصارى ، ثم ارتدت إلى حصن برجة الواقع شمال غربى ألمرية ، وعلمت من أهله أن النصارى بقصبة ألمرية فى عدد قليل ، ولايستطيعون دفاعاً عن المدينة . وعلى أثر ذلك سار السيد أبو سعيد إلى ألمرية فى جيش ضخم من الموحدين ، ومعهم قوة أندلسية بقيادة أحمد بن ملحان صاحب وادى آش السابق ، بينما قصد إليها من البحر أسطول سبتة الموحدى بقيادة أمير البحر عبد الله بن سليمان . وضرب الموحدون حول ألمرية حصاراً محكماً ، ونصبوا حولها المجانيق ، وابتنى السيد أبو سعيد فوق الجبل الذى احتله الموحدون إزاء المدينة ، سوراً يمتد إلى البحر ، وأمامه خندق عميق ، وذلك حتى يعوق وصول النجدات إلى المدينة . وشعر النصارى بالقصبة منذ البداية بخطورة الموقف ، فبعثوا يستغيثون بعاهلهم ، وهرع ألفونسو السابع أو السُّليطين حسبما تسميه الرواية الإسلامية ، لإنجاد المحصورين فى جيش قوامه إثنا عشر ألف فارس ، وقدم معه حليفه محمد بن سعد بن مردنيش أمير شرقى الأندلس فى جيش من ستة آلاف من المسلمين . وكان مقدم الأمير المسلم فى هذا

---

(١) روض القرطاس ص ١٢٧ ، والبيان المغرب القسم الثالث ص ٣٣ .

الموطن ، ليحارب إلى جانب النصارى ، أبناء دينه ووطنه ، وليحول دون تحرير الثغر المسلم ، من أشنع المواقف التى يمكن تصورها ، مهما كان وراءه من الإعتبارات القومية والوطنية . وحدث أثناء الحصار بين ابن ملحان وبين عبدالله ابن سليمان نزاع ، انسحب ابن ملحان على أثره مع قواته إلى معسكر ابن مردنيش ، ليشاطره خزى موقفه . واستمر حصار الموحدين لألمرية بضعة أشهر ، حاول النصارى وحليفهم ابن مردنبش خلالها غير مرة ، أن يقتحموا الحصار لإنجاد المحصورين ، فذهبت كل جهودهم عبثاً . وتقول الرواية النصرانية ، إنه نشبت خلال ذلك بين الموحدين والنصارى موقعة عنيفة ، فقد فيها الموحدون زهرة جندهم ، وتفرقوا فى غير نظام[1]. بيد أنه مما ينقض هذه الرواية ، أن القشتاليين لم يفلحوا فى خرق الحصار ، وأن حامية ألمرية النصرانية ، لم تلبث أن أرغمت على التسليم . وكان السيد أبو سعيد قد بعث إلى أبيه الخليفة يستمده العون ، فبعث الخليفة وزيره أبا جعفر بن عطية القضاعى إلى الأندلس صحبة ولده السيد أبى يعقوب يوسف ، الذى ندبه لولاية إشبيلية ، وأمر بعد استقرار ولده بإشبيلية ، أن يتوجه أبو جعفر إلى ألمرية ليعالج أمرها ، ووصل ابن عطية إلى ألمرية ، وقد تحرج مركز النصارى بقصبتها ، وأرهقهم الحصار ، ففاوضهم ، ونجح فى إقناعهم بالتسليم على الأمان . ودخل الموحدون ألمرية فى أواخر سنة ١١٥٧ م (ذوالقعدة أو ذو الحجة سنة ٥٥٢ هـ) بعد حصار دام سبعة أشهر ، وعاد الثغر الإسلامى إلى سلطان المسلمين بعد أن احتله النصارى زهاء عشرة أعوام . وكان السيد أبو سعيد يتوق إلى العود مسرعاً بقواته إلى غرناطة خشية عدوان القشتاليين . ولكن الواقع أن ملك قشتالة وحليفة ابن مردنيش اضطرا إلى الانسحاب خائبين ، تاركين المدينة المحصورة لمصيرها ، ومرض ألفونسو السابع فى طريق العود إلى عاصمته طليطلة ، وتوفى قبل أن يصل إليها فى بلدة مورتلة (مورادال) وذلك فى ٢١ أغسطس سنة ١١٥٧ م . وارتد ابن مردنيش فى قواته إلى بلاده[2] .

وحدثت فى نفس الوقت فى ولاية المغرب تطورات جديدة . وذلك أن عليا الوهيبى حينما فر من لبلة عندما دهمها الموحدون ، سار إلى ثغر طبيرة الصغير ،

---

(١) **La Fuente: Historia General de Espana (Ed. 1889) T, III. p. 300**

(٢) يراجع فى استرجاع الموحدين لألمرية : ابن الأثير ج ١١ ص ٨٤ ، والبيان المغرب القسم الثالث ص ٣٣ ، والإحاطة (١٩٥٦) ج ١ ص ٢٧٢ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٣٧ .

الواقع على شاطىء المحيط قرب مصب نهر وادى يانه ، وامتنع به . وكان الخليفة عبد المؤمن قد ندب ولده السيد أبا يعقوب يوسف لولاية إشبيلية ، تحقيقاً لرغبة أشياخها حينما وفدوا عليه بمراكش فى سنة ٥٥١ هـ ، وذلك بالرغم من صغر سنه ، وبعث معه الوزير ابن عطية حسبما تقدم . فلما فرغ ابن عطية من تحقيق مهمته بألمرية ، عاد إلى إشبيلية ، ثم خرج منها مع السيد أبى يعقوب فى حملة موحدية سارت لغزو طبيرة ، فامتنع بها الوهيبى ، واضطر الموحدون إلى حصارها براً وبحراً ، وأقاموا على حصارها زهاء شهرين ، ثم رأى ابن عطية مفاوضة الوهيبى ، وقنع منه بذكر الخليفة فى الخطبة ، على أن يبقى محتفظاً بطبيرة . واستولى الموحدون فى هذه الغزوة على بلاد أبى محمد سيدراى بن وزير ، وهى شلب وميرتلة ، وباجة وأحوازها ، تخلى عنها ابن وزيرها طوعاً [1] ، وعبر البحر إلى المغرب . ولسنا نعرف سبباً لهذا التخلى ، إلا أن يكون ما يذكره ابن عذارى من أنه حينما كان السيد أبو يعقوب فى جيشه تحت أسوار طبيرة ، وفد عليه أشياخ بلاد ابن وزير ، ومدحه شاعرهم الأديب أبو بكر بن المنخل بقصيدة طويلة ، والظاهر أن أولئك الأشياخ قد طلبوا إلى السيد أبى يعقوب إقالة ابن وزير ، وتعيين حاكم موحدى لبلادهم ، ومن ثم فقد عين لولاية شلب وبلاد الغرب حاكم موحدى هو يعقوب بن جبون الهزرجى ، وبعض الحفاظ الموحدين . ويضع ابن عذارى تاريخ هذه الحوادث فى النصف الأول من سنة ٥٥٢ هـ ، وهو ما يحمل على الاعتقاد بأن الوزير ابن عطية قد قام بمهمته فى ألمرية بعد أن اشترك فى حوادث الغرب المتقدمة ، وليس من الممكن أن يكون اشتراكه فيها بعد عوده من ألمرية إلى إشبيلية ، إذ سقطت ألمرية كما رأينا فى أيدى الموحدين فى أواخر سنة ٥٥٢ هـ [2] .

— ٥ —

ولم يمض قليل على ذلك حتى وقع بمراكش حادث محزن ، هو نكبة الوزير أبى جعفر بن عطية ، وأخيه الكاتب أبى عقيل بن عطية .

وقد سبق أن أشرنا إلى نشأة أبى جعفر ، وظهوره خلال المعركة التى

---

(١) ابن الأبار فى الحلة السيراء ص ٢٣٩ .

(٢) البيان المغرب — القسم الثالث — ص ٣٤ .

اضطرمت بين الموحدين وبين الماسي ، برسالته التي كتبها بتكليف الشيخ أبي حفص الهنتاتي إلى الخليفة ، وصفاً لهذه المعركة ، وما كان من حظوته لدى الخليفة بسببها ، وتوليه الوزارة ، وتوطد سلطانه ونفوذه ، حتى غدا من أقرب أعوان الخليفة ، وآثرهم لديه ، وأكثرهم فوزاً بثقته . وكان أبو جعفر فى الواقع من أقدر وزراء الدولة المؤمنية ، وأوفرهم كفاية ، وأبرعهم خلالا ، وكان رضى النفس قريب المنال ، خدوماً يعمل على قضاء الحوائج ، فأحبه الناس ، وقدروا مروءته ، ومكانته .

وكان يبدو أن ابن عطية ، ما يزال متمتعاً برفيع مكانته ونفوذه ، حينما بعثه الخليفة إلى الأندلس ليكون إلى جانب ولده السيد أبي يعقوب ، وليعالج قضية ألمرية . بيد أنه كان ثمة طائفة من تيارات خفية تعمل ضده ، وتسعى إلى تقويض نفوذه ، والقضاء عليه ، وكان ابتعاده عن مراكش فرصة سانحة لخصومه ، يحكمون فيها تدبير خطتهم ودسائسهم . وفى خلال ذلك استوزر عبد المؤمن ، عبد السلام ابن محمد الكومى ، من قرابته وأبناء قبيلته كومية[1] ، فتزعم خصوم ابن عطية ، واشتد فى مطاردته ، والحملة عليه والتشهير به ، وتتبع عوراته وسقطاته « وأغرى صنايعه ، وشحن عليه حاشيته » حسبما يقول لنا ابن الخطيب « فبروا وراشوا وانقلبوا » . وكان فى مقدمة مانسب إلى أبي جعفر ، ممالأته اللمتونيين ، وإسرافه فى اصطناعهم ، وتوليتهم الأعمال والوظائف ، وفوق ذلك ، فقد كانت زوجه لمتونية ، أبوها يحيى الحمار من أمرائهم ، وأمها ابنة زينب بنت علي بن يوسف[2] ، فكانت هذه الظروف ، تثير من حوله الريب ، وتدمغه فى نظر المتعصبين من أشياخ الموحدين . وكان يعمل لإهلاكه إلى جانب الوزير عبدالسلام الكومى ، رجل ممن شملتهم حمايته ورعايته ، فكفر بشكر الصنيعة ، هو القاضى مروان بن عبدالعزيز ، أمير بلنسية السابق ، وكان ابن عطية قد سعى فى إطلاق سراحه من سجنه الطويل بميورقة ، واستغل فى ذلك نفوذه لدى واليها إسحق بن محمد بن غانية ، فعبر البحر إلى بجاية ، ثم إلى مراكش ، فأسعفه ابن عطيه ، وعاونه على الانتظام فى

(١) ذكر لنا البيذق نوع هذه القرابة ، فقال إن والدة عبد المؤمن « تعلو » لما توفى زوجها الأول على والد عبد المؤمن ، تزوجت من بعده ، والد عبد السلام الكومى ، ورزقت منه بابنة سميت فندة ، فكانت فندة هذه أخت عبد المؤمن لأمه وعبد السلام الكومى لأبيه (أخبار المهدى ابن تومرت ص ٢٤) .

(٢) ابن الخطيب فى الإحاطة (١٩٥٦) ج ١ ص ٢٧٣ .

مجلس الخليفة[1] . بيد أنه ما لبث أن انقلب عليه ، وكفر بصنيعته ، وأخذ يحرض عليه ، ومن ذلك أبيات نظمها ضده وخرجت بمجلس عبد المؤمن يقول فيها :

قل للإمام أطال الله مدته	قولا تبين لذى لب حقائقه
ان الزراجين قوم قد وترتهم	وطالب الثأر لم تؤمن بوائقه
وللوزير إلى آرائهم ميل	لذاك ماكثرت فيهم علائقه
فبادر الحزم فى إطفاء نارهم	فربما عاق عن أمر عوائقه
هم العدو ومن والاهم كلهم	فاحذر عدوك واحذر من يصادقه
الله يعلم أنى ناصح لكم	والحق أبلج لا تخفى طرايقه[2]

والظاهر أن هذه الأبيات ، قد تركت أثرها فى نفس الخليفة ، وقد كانت مستعدة بما أوحى إليه من مختلف المصادر للتنكيل بأبى جعفر . وكان أبو جعفر قد ترامت إليه وهو فى شبه الجزيرة ، أنباء مقلقة عما يدور حوله من دسائس ، وما يرمى به من التهم ، فعجل بالعودة ، ليرد هجوم خصومه ، ولكن الخليفة ، كان عندئذ قد اعتزم أمره ، فما كاد يصل إلى مراكش ، حتى أمر عبد المؤمن بالقبض عليه واعتقاله ، ثم اقتيد بعد أيام قلائل إلى الجامع مهانا حاسر الرأس كسير الفؤاد ، واستحضر الناس على طبقاتهم ليعلنوا مايعلمونه من أمر الوزير المنكوب ، ومنهم أشياخ الموحدين والطلبة ، ووفود الأندلس ، وطلب إليهم ابن عمر باسم الخليفة أن يقول كل منهم ما يعلمه عن ابن عطية من سوء ، وما إذا كان قد أعطاه شيئاً أو صانعه ، وكان الوزير عبد السلام الكومى ، قد رتب أعوانه وصنائعه لهذا اليوم . فأجاب كل من الحضور بما اقتضاه هواه . ولم يرتفع لسان بالدفاع عن ابن عطيه سوى ابن وزير صاحب شلب وباجة السابق ، حيث أكد أنه لم يعط ابن عطية يوماً شيئاً إلا رده إليه مضاعفاً ، وأنه لو عين الخليفة للوساطة بينه وبين رعاياه ، عبداً حبشياً ، لكان من واجبهم أن يعظموه وأن يهادوه . فلما انتهى المجلس أعيد ابن عطية إلى سجنه ، وسجن معه أخوه الكاتب أبو عقيل بن عطية ، ولبث الأخوان فى المطبق بضعة أشهر ، وأبو جعفر ، يتوسل إلى الخليفة

---

(١) ابن الأبار فى الحلة السيراء ص ٢١٥ ، و٢١٦ ، وفى التكملة (القاهرة) رقم ١٧٥٠ .

(٢) الحلة السيراء ص ٢١٦ ، والإحاطة (١٩٥٦) ج ١ ص ٢٧٤ .

لالتماس عفوه برسائل وقصائد تذبب الجماد إشفاقاً وتأثراً ، ومنها الأبيات الآتية :

فعفواً أمير المؤمنين فمن لنـــا	بحمل قلوب هدها الخفقـــان
عطفا علينا أمير المؤمنين فقــد	بان العزاء لفرط البث والحزن
قد أغرقتنــا ذنوب كلها لجج	وعطفة منكم أنجى من السفن
وصادفتنــا سهام كلهـا غرض	لها ورحمتكم أوفى من الجنن
هيهات للخطب أن تسطو حوادثه	بمن أجارته رحماكم من المحن
أنتم بذلتم حيــاة الخلق كلهم	من دون من عليهم لا ، ولا ثمن
ونحن من بعض من أحيت مكارمكم	تلك الحياتين من نفس ومن بدن
وصبية كفراخ الورق من صغر	لم يألفوا النوح فى فرع ولا فنن
قد أوجدتهم أياد منك ســابقة	والكل لولاك لم يوجد ولم يكن

ولكن عبد المؤمن لم يتأثر لضراعة وزيره ، ولم تجد الرحمة إلى قلبه سبيلا .
وقيل فى سبب قسوة عبد المؤمن على وزيره ، أنه أفضى إليه بسر خطير فأفشاه .
ويوضح لنا المراكشى ماهية هذا السر ، فيقول لنا إن يحيى بن أبى بكر الصحراوى أو ابن الصحراوية فارس المرابطين ، الذى فصلنا أخباره فيما تقدم ، كان قد استأمن إلى عبد المؤمن ، فأمنه وأكرم وفادته ، وحظى لديه ، وجعله قائداً على من بقى من لمتونة ، وكانت زوجة ابن عطية ، زينب بنت أبى بكر أخت يحيى المذكور ، وحدث أن ترامت إلى عبد المؤمن أشياء وأقوال نسبت إلى يحيى الصحراوى غضب منها ، ونقمها عليه ، وقرر أن ينكل به ، وصدر عنه فى بعض مجالسه ، ما يفصح عن هذا العزم ، فكان من ابن عطية أن قال لزوجته أخت يحيى أن تحذر أخاها ، وأن يتمارض إذا دعى إلى مجلس الخليفة ، وأن يلوذ بالفرار إذا استطاع إلى ميورقة ، ففعلت زينب ما طلب إليها ، وتمارض يحيى ، وزاره بعض صحبه فى مرضه ، فأفضى إلى بعضهم بما بلغه عن الوزير ، وما نصح به ، فنقل هذا الصديق ما سمعه إلى بعض ولد عبد المؤمن . ووقف عبد المؤمن على ذلك ، فكان هذا هو أعظم سبب فى نكبة ابن عطية[1]. ولما توجه عبد المؤمن بعد ذلك ، فى أوائل سنة ٥٥٣ هـ إلى تينملل لزيارة قبر المهدى ،

---

(١) المراكشى فى المعجب ص ١١١ . وقد ذكرنا فيما تقدم نقلا عن ابن الخطيب، أن زوجة ابن عطية كانت حفيدة زينب بنت على بن يوسف .

حمل معه أبا جعفر وأخاه أبا عقيل يرسفان فى أغلالها . قال ابن الخطيب : « وصدرت عن أبى جعفر فى هذه الحركة من لطايف الأدب ، نظما ونثراً ، فى سبيل التوسل بتربة المهدى ، أمامهم ، عجائب لم تجد ، مع نفوذ قدر الله فيه » . ولما غادر عبد المؤمن تينملل ، عائداً إلى مراكش ، حمل الأخوين معه ، فلما وصل إلى موضع يقال له تغمرت ، على مقربة من الملاحة ، أصدر أمره بإعدامهما واستصفاء أموالها ، فأعدما على الأثر ، وكان إعدامهما فى التاسع والعشرين من شهر صفر سنة ٥٥٣ هـ (أول أبريل سنة ١١٥٨م) ، وكان أبو جعفر عند مصرعه فتى فى نحو السادسة والعشرين من عمره ، إذ كان مولده بمراكش وفقاً لابن الخطيب سنة ٥٢٧ هـ[1] .

وهكذا زهق الوزير الكاتب الشاعر ابن عطية ، ضحية نزعة دموية من الخليفة ، أثارتها الأهواء والوشاية ، ودون ما خطير جريرة واضحة يسجلها لنا التاريخ ، وأضاف عبد المؤمن بذلك صفحة دموية جديدة إلى صفحاته العديدة السابقة . ومما يدل على أن عبد المؤمن كان متسرعاً فى قراره إزاء وزيره المنكود ، ما يقصه علينا صاحب البيان المغرب من أن عبد المؤمن ندم أشد الندم على مقتل وزيره ، وذرف عليه الدموع . وإنه لما يؤسف له ، أن يضطر المؤرخ إلى أن يحصى مثل هذه النزوات الدموية المتوالية ، فى سيرة رجل عظيم مثل عبد المؤمن أقامت عبقريته دولة من أعظم الدول الإسلامية فى المغرب والأندلس ، وامتازت بطائفة من أبدع الخلال التى تزدان بها البطولة ، ولكنا ربما استطعنا أن نلتمس فى روح العصر ، وروح الصراع الذى كانت تضطلع به الدولة الموحدية الفتية ، كثيراً من العوامل الملطفة ، لما تثيره هذه الصفحات القاتمة من سحب على سيرة الرجل العظيم .

---

(١) راجع فى نكبة الوزير ابن عطية : ابن الخطيب فى الإحاطة (١٩٥٦) ج ١ ص ٢٧٣ — ٢٧٦ ، والبيان المغرب — القسم الثالث ص ٣٥ ، والاستقصاء ج ١ ص ١٥٢ — ١٥٤ . ونود أن نلاحظ هنا أن تاريخ مولد ابن عطية الذى يقدمه لنا ابن الخطيب ، وهو سنة ٥٢٧ هـ — لا يتفق مع ما يقوله لنا عن مراحل حياته ، ومن أنه كتب عن على بن يوسف ثم عن ولده تاشفين ثم عن حفيده إبراهيم . ومن الواضح أن هذا لا يستقيم من الناحية الزمنية ، إذ يكون عمره حين كتب عن على ابن يوسف نحو عشرة أعوام فقط . وربما يستقيم الأمر إذا قيل لنا إنه كتب عن الأمير إبراهيم ، إذ يكون عندئذ فى نحو الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة من عمره .

الفصل الثالث

الثـــــورة فى شرق الأندلس

وظهور محمد بن سعد بن مردنيش

خواص الثورة فى شرق الأندلس . بلنسية مركز الثورة فى الشرق . فرار واليها عبد الله بن غانية . اختيار القاضى ابن عبد العزيز لولايتها . القتال بين المرابطين وأهل بلنسية . استيلاء ابن عبد العزيز على شاطبة . استيلاء ابن عياض على مرسية . تمرد الجند . فرار ابن عبد العزيز وسقوطه فى يد ابن غانية . ولاية ابن عياض لبلنسية وعبد الله بن سعد لمرسية . مصير ابن عبد العزيز ووفاته . حوادث مرسية . تدخل ابن هود فى شئونها . قيام القاضى ابن أبى جعفر بولايتها . مسيره لإنجاد ابن حمدين ومصرعه . تطور شئون الرياسة فى مرسية . تقديم ابى عبد الرحمن بن طاهر لولايتها . السعى إلى خلعه . دخول ابن عياض مرسية . اعتزال ابن طاهر وعبوره إلى المغرب . دعوة ابن عياض لرياسة ابن هود فى بلنسية ومرسية . مقدم ابن هود الى مرسية . خروجه وابن عياض لمقاتلة النصارى . مقتل ابن هود وعبد الله ابن سعد . موقعة البسيط . ظروفها وبواعثها حسبما تصورها الرواية النصرانية . سيف الدولة بن هود . شخصيته وأعماله . خضوعه لتوجيه ملك قشتاله . أدبه وشعره . ابن عياض يدعو لنفسه فى بلنسية . نائبه محمد بن سعد بمرسية . القائد عبد الله الثغرى . نجاحه فى انتزاع مرسية . استرداد ابن عياض لمرسية ومصرع الثغرى . إمارة ابن عياض بمرسية وبلنسية . مصرعه والخلاف حول ذلك . محمد بن سعد ابن مردنيش يخلفه فى بلنسية ثم فى مرسية . محمد بن سعد وحقيقة أصله . ولعه بمصادقة النصارى والتشبه بهم . يبسط سلطانه على شرقى الأندلس . سياسته نحو الممالك النصرانية . عقده لمعاهدات صلح مع أمير برشلونة وجمهوريتى بيزة وجنوة . إقدامه وشجاعته . حليفه ابن همشك . أصله ونشأته . أعماله وظهوره . تغلبه على مدينة شقورة . محالفته ومصاهرته لمحمد بن سعد . استيلاء النصارى على قواعد الثغر الأعلى . موقف ابن مردنيش من ذلك الحادث . استيلاء النصارى على ألمرية وقلعة رباح . استيلاء ابن همشك على شقورة . بيعة ابن مردنيش ببلنسية ومرسية استيلاؤه على بسطة ووادى آش . مواجهته للموحدين فى أواسط الأندلس .

لم تكن تلك الثورات التى نشبت ضد المرابطين فى أواسط الأندلس وفى غربها ، سوى جانب فقط من الثورة العامة ، التى اضطرمت بها الأندلس من أقصاها إلى أقصاها . ذلك أن ريح الثورة قد اجتاحت فى الوقت نفسه شرقى الأندلس كله ، من بلنسية إلى ألمرية ، وكانت الثورة فى شرقى الأندلس ، أعرق مثلا ، وأعمق جذوراً . وأشد مراساً منها فى الغرب ، وكانت تُسيرها منذ البداية فكرة قومية عميقة ، هى الفكرة الأندلسية الخالصة ، فكانت تضطرم ضد

المرابطين والموحدين معاً ، بنفس العنف والإصرار ، وكانت العوامل الجغرافية والعسكرية ، تشد من أزرها ، وتضاعف مقدرتها على المقاومة ، فقد كانت قواعدها الرئيسية ، بعيدة عن متناول الجيوش الموحدية ، وكان اتصالها بالبحر يمدها بوسائل وموارد خاصة ، وكان وقوعها على مقربة من الممالك النصرانية ، يفتح لها باب الاتصال المستمر بالملوك النصارى ، ومحالفتهم ، والاستنصار بهم ، وكانت هذه الوسيلة بالرغم مما يحيط بها من ملابسات ذميمة ، تعتبر فى تلك الآونة من الخطط المشروعة ، فى مقاومة الغزاة المحتلين ، مرابطين كانوا أو موحدين . وثمة عامل آخر ، فى استفحال الثورة وصمودها فى شرقى الأندلس ، هو انحصار زعامتها ، وتركيزها مدى أعوام طويلة ، فى شخصية واحدة قوية ، كانت تجتمع حولها خيوط المقاومة ، وكان يحدوها إيمان عميق بالفكرة الأندلسية ، تتحطم عليه سائر الاعتبارات الدينية : تلك هى شخصية محمد بن سعد بن مردنيش ، أعظم ثوار الأندلس ضد الموحدين ، وأشدهم مراساً ، وأعنفهم كفاحا .

— ١ —

وكانت بلنسية تحتل فى شرقى الأندلس ، نفس المكانة ، التى تحتلها قرطبة فى الوسط ، وإشبيلية فى الغرب ، باعتبارها قاعدة لسلطان المرابطين ، ومركزهم الدفاعى فى هذا القطاع من الأندلس . وكان للمرابطين عناية خاصة بتأمين ثغر بلنسية ، لموقعه الدقيق على مقربة من الثغر ، والممالك النصرانية ، يولونه الصفوة من القرابة والخاصة ، فكان ضمن ولاتها الأمير مزدلى بن تيولتكان ، محررها من الغزاة النصارى ، والأمير أبو الطاهر تميم بن يوسف ، ومحمد بن يوسف ابن يدّر ، والأمير أبو زكريا يحيى بن غانية . وكان على ولايتها حينما اضطرمت الثورة فى غربى الأندلس ، وفى قرطبة ، أبو محمد عبد الله بن محمد بن على أخى يحيى بن غانية ، وقاضيها يومئذ أبو عبد الملك مروان بن عبد الله بن مروان ابن عبد العزيز ، وكان قد ولاه منصب القضاء الأمير تاشفين بن على فى ذى الحجة سنة ٥٣٨ ﻫ .

فلما نشبت الثورة فى قرطبة ، بعد نشوبها فى الغرب ، ونادى ابن حمْدين بخلع نير المرابطين ، طافت ريح الثورة بقواعد شرقى الأندلس ، وهاجت الخواطر فى بلنسية وغيرها ، واجتمع واليها عبد الله بن محمد بن غانية ، وقاضيها

أبو عبد الملك مروان بن عبد العزيز ، وتفاهما ، بالرغم مماكان بينهما من المنافسة الباطنية ، على الائتلاف والتعاون على حفظ النظام وضبط المدينة ، واجتمع الناس فى المسجد الجامع فى أواسط رمضان سنة ٥٣٩ هـ ، فخطب فيهم مروان ، وذكرهم بجهاد اللمتونيين ضد النصارى ، ونصرهم لقضية الأندلس ، وتحريرهم لبلنسية من أيدى القشتاليين ، وحثهم على التمسك بدعوتهم والوفاء لهم . وتكلم الوالى بمثل ذلك ، وذكرهم بأيام عمه يحيى بن غانية ، وبما انعقد بينهم وبينه من التعاطف والمودة . بيد أن هـذا التفاهم الظاهر بين زعيمى المدينة ، لم يكن سوى ستار لما يضطرم فى الأنفس الثائرة ، وسرعان ماتوجس الوالى عبد الله ابن غانية من نيات زميله وحليفه القاضى ، ومما قد يجيش به الشعب نحوه ونحو اللمتونيين من المقاصد الخطرة ، فبعث أهله وأمواله خفية إلى شاطبة ، ثم لحق بهم فى صحبه فى اليوم التالى ، واستطاع ، بالرغم مما وقع بينه وبين جند بلنسية من مناوشة ، أن يلوذ بالفرار ، وأن يصل إلى شاطبة . فلما استقر بها ، أخذت سرياته اللمتونية تغير على أحواز بلنسية ، وتثخن فيها ، وتعتدى على الأموال والأنفس ، فتقدم الجند والعرب وأعيان المدينة إلى ابن عبد العزيز ، بأن يتولى أمرهم ، فأبى ، وقال لهم اختاروا لولايتكم من ترون من شيوخكم ، فوقع الاختيار على بعض زعماء لمتونة ، ممن بقى منهم بالمدينة ، وأراد هذا الزعيم الجديد أن يقبض على ابن عبد العزيز ، فلم يستطع ، ثم تولاه الخوف والروع ، ففر إلى شاطبة ، ومعه بقية أشياخ لمتونة ، ووقع إجماع الناس على اختيار القاضى ابن عبد العزيز للولاية ، فاستتر منهم ، فسعى إلى الانفراد به ، أبو محمد عبد الله ابن عياض قائد الثغر ، وعبدالله بن مردنيش ، وأقنعاه بقبول الإمارة ، فقبلهامكرها وبويع له فى اليوم الثالث من شوال من نفس السنة ، وولى عبد الله بن عياض الثغر وما والاه ، واستمر المرابطون خلال ذلك فى غاراتهم وعيثهم فى أحواز المدينة ، فحشد ابن عبد العزيز جنود الثغر وسار إلى شاطبة ، فخرج المرابطون من قصبتها إلى المدينة ، وعاثوا فيها وسبوا النساء ، والتقى جند بلنسية بالمرابطين ، ونشبت بين الفريقين موقعة هزم فيها المرابطون ، فعادوا إلى الامتناع بالقصبة ، وقدم عسكر من مرسية بقيادة قاضيها ابن أبى جعفر محمد بن عبد الله لإنجاد ابن‌عبد العزيز ، وتعاونا على حصار شاطبة ، وكلاهما يضمر فى نفسه أن يفوز بها ، ثم وصل ابن عياض فى جند الثغر ، وأدرك عبد الله بن محمد بن غانية ، الوالى

السابق ، أنه لا طاقة له بهذه القوى ، ففر من شاطبة فى نفر من خاصته ، واستطاع أن يلحق بألمرية ، وهنالك لقى محمد بن ميمون قائد الأسطول فى تلك المنطقة وكان قد بقى على طاعة المرابطين ، فجهزه إلى ميورقة ، حيث كان أبوه محمد ابن غانية يتولى أمن الجزائر ، فاستقر إلى جانبه ، وكان من أمر بنى غانية ، ودولتهم بالجزائر الشرقية أيام الموحدين ، ماسوف نذكره فى موضعه(١) .

واستولى ابن عبد العزيز على شاطبة صلحاً ، وحصنها وعين لها قائداً ، وانضمت إليه لَقَنت وما يجاورها ، فاتسعت إمارته ، وضخم أمره ، ثم عاد إلى بلنسية حيث جددت له البيعة ، وذلك فى شهر صفر سنة ٥٤٠ هـ . وانصرف ابن أبى جعفر إلى مرسية ، ثم خرج منها بعد ذلك لإنجاد ابن أضحى فى غرناطة ، وقتل حسبما تقدم ، فى المعركة التى نشبت بينه وبين المرابطين .

ولكن ابن عبد العزيز لم يلبث أن آنس متاعب جمة من تمرد الجند ، وعجز الجباية ، وقصوره عن الوفاء بأجور الجند ، وما تتطلبه المصالح العامة ، فخاطب الجند ابن عياض ، يستعجلونه فى الوصول إليهم للاضطلاع بزمام الأمور ، وكان عندئذ بمرسية ، بعد استيلائه عليها ، من واليها السابق أبى عبد الرحمن بن طاهر ، وذلك فى جمادى الأول سنة ٥٤٠ هـ (١١٤٥م) . وفى أثناء ذلك ، أحاط الجند بقصر الإمارة فشعر ابن عبد العزيز بالخطر ، وغادر القصر خفية ، وتدلى من سور بلنسية ليلا ، وسار حتى لحق بألمرية ، وهنالك قبض عليه ابن ميمون أمير البحر ، ودفعه إلى عدوه السابق عبد الله بن غانية ، وكان ما يزال بألمرية ، فاحتمله معه عبد الله مصفداً إلى ميورقة .

وعلى أثر اختفاء ابن عبد العزيز ، قدّم الجند للرياسة عبد الله بن محمد بن سعد بن مردنيش صهر ابن عياض نائباً عنه ، وأسكنوه قصر بلنسية . وفى آخر جمادى الأولى ، قدم ابن عياض إلى المدينة ، وقد وصلته بيعة أهلها ، وهوفى طريقه إليها ، فأقام بها حيناً ينظم شئونها ويحصن ثغورها . ثم عاد إلى مرسية ، وترك صهره عبد الله بن سعد بن مردنيش أميراً عليها من قبله ، وهو عم محمد ابن سعد بن مردنيش زعيم الشرق فيما بعد ، ويعرف بصاحب البسيط ، لأنه استشهد ، فى موقعة البسيط مع ابن هود حسبما نذكر بعد(٢) .

---

(١) ابن الأبار فى الحلة السيراء ص ٢١٢ — ٢١٤ ، وابن الخطيب فى أعمال الأعلام ص ٢٥٦ .

(٢) الحلة السيراء ص ٢١٥ .

وإما ابن عبد العزيز ، فقد لبث يرسف فى سجنه بميورقة لدى بنى غانية نحو عشرة أعوام ، وهو يعانى أمر ضروب العذاب والمهانة ، حتى قيض الله له الخلاص فى النهاية ، بواسطة الوزير أبى جعفر بن عطية ، وكان والى ميورقة يومئذ إسحق بن محمد بن غانية ، وليها بعد مقتل أبيه محمد وأخيه عبد الله ، وجنح إلى مهادنة الموحدين ، فأطلق سراحه ، وبعث به إلى ثغر بجاية ، وذلك فى سنة ٥٤٨ هـ فسار إلى مراكش ، وهنالك عاونه ابن عطية على أن ينتظم فى مجلس الخليفة العلمى . بيد أنه لم يرع لابن عطية ، شكر الصنيعة ، ونظم فى حقه أبياته المشهورة فى التحريض عليه ، ومطلعها :

قل للإمام أطال الله مدته قولا تبين لذى لب حقائقه

فكانت هذه الأبيات حسبما نذكر بعد ، من أقوى الأسباب فى نكبة ابن عطية ، وظل ابن عبد العزيز مقيما بمراكش فى خمول ونسيان حتى توفى سنة ٥٧٨ هـ (١١٨٢ م) فى الثالثة والسبعين من عمره[١] .

— ٢ —

ونود قبل أن نمضى فى تتبع مصاير الثورة فى بلنسية وتطوراتها ، أن نتناول ما وقع من الأحداث فى مرسية ، وباقى أعمال الشرق .

كانت مرسية ثانى قواعد الشرق بعد بلنسية ، وكانت تحتل فى النصف الجنوبى من شرقى الأندلس ، نفس المركز الدفاعى ، الذى تحتله بلنسية فى النصف الشمالى ، ومن ثم فإنا نجد فى فترات الثورة ، واضطراب الأحداث السياسية والعسكرية ، دائماً صلة وثيقة بين ما يقع فى هاتين القاعدتين من أحداث وتطورات ، وقد كان هذا شأنهما أيام الطوائف ، ثم كان شأنهما حينما اجتاحت ريح الثورة ضد المرابطين سائر قواعد الأندلس فى الغرب والشرق معاً .

وقد رأينا كيف نشبت الثورة فى بلنسية فى الوقت الذى اضطرمت فيه بقرطبة ، وقام القاضى ابن حمدين بدعوته ، فى هذه الآونة بالذات تضطرم الثورة أيضاً فى مرسية ، ويختار أهلها لرياستهم زعيما منهم ، يدعى أبو محمد بن الحاج اللورقى ، ودعا اللورقى لابن حمدين ، ولكنه لم يلبث فى رياسته سوى بضعة أسابيع ، خلال شهرى رمضان وشوال سنة ٥٣٩ هـ ، ثم رغب فى التخلى عن منصبه لما آنسه من صعاب ومتاعب لا قبل له بها . وكان سيف الدولة بن هود ، قد غادر عندئذ

(١) ابن الأبار فى الحلة السيراء ص ٢١٥ و ٢١٦ ، وكذلك فى التكملة (القاهرة) رقم ١٧٥١ .

مقره على مقربة من طليطلة ، وأخذ يترقب فرص الحوادث هنا وهنالك . فلما نمى إليه ماوقع فى مرسية ، بعث إليها قائداً من قواده يدعى بعبد الله بن فتوح الثغرى ، فأخرج منها ابن الحاج ودعا لابن هود ، ولكنه لم يلبث أن أخرج منها بدوره ، وقدم الفقيه القاضى أبو جعفر محمد بن عبد الله بن أبى جعفر الخشنى ، وذلك فى آخر شوال من السنة المذكورة ، فلبث فى منصبه حتى أوائل سنة ٥٤٠ هـ (١١٤٥م): وكان يتبرم بالإمارة ويقول : إنها « ليست تصلح لى ، ولست بأهل لها ، ولكنى أريد أن أمسك الناس بعضهم عن بعض حتى يجىء من يكون لها أهلا » . ولما سار القاضى مروان بن عبد العزيز أمير بلنسية إلى شاطبة لمقاتلة من امتنع بها من اللمتونيين ، سار الفقيه ابن أبى جعفر فى بعض قواته لمعاونته ، ثم سار من مرسية فى قواته مرة أخرى لمعاونة القاضى ابن أضحى زعيم الثورة فى غرناطة على قتال الملثمين ويقال إن قوات أبى جعفر ، بلغت فى هذه الحملة اثنى عشر ألفا من خيل ورجل ، فخرج الملثمون إلى لقائه فى جموع كثيفة ، ونشبت بين الفريقين فى ظاهر غرناطة ، موقعة عنيفة ، هزم فيها ابن أبى جعفر وقتل ، وذلك حسبما فصلنا من قبل فى أخبار الثورة فى غرناطة. ونقل إلينا ابن الأبار عن ابن صاحب الصلاة رواية أخرى ، خلاصتها ، أن عبد الله الثغرى كان قائداً بمدينة كونكة ، فلما سمع بقيام ابن حمدين بقرطبة ، سار إليه والتحق بخدمته ، وفى خلال ذلك جاءت الأنباء من مرسية بقيام ابن الحاج ثم تبرمه من الرياسة ، فبعث ابن حمدين إليهم الثغرى واليا ، فقدم الفقيه ابن أبى جعفر قاضياً ، وذلك فى منتصف شهر شوال سنة ٥٣٩ ، فأبدى شغفاً شديداً بالظهور والتعلق بالرياسة ، وحشد الناس لقتال المرابطين فى أوريولة ، وغدر بهم عند نزولهم بالأمان ، وقتلهم ، فذاع صيته . ثم داخل أهل مرسية فى أن يؤمروه ، وأن يُقدم للقضاء أبو العباس ابن الحلال ، ولقيادة الخيل عبد الله الثغرى ، فوافقوه على ذلك . ولما عقدت له البيعة ، نبذ طاعة ابن حمدين ، ودعا لنفسه وتلقب بالأمير الناصر لدين الله ، ثم قبض على الثغرى وعلى صهريه ، ابنى مسلوقة ، وعين لقيادة الخيل زعنون أحد وجوه الجند ، ثم سار إلى شاطبة لنصرة ابن عبد العزيز فى مقاتلة المرابطين بها ، فثارت العامة خلال غيبته بمرسية ، وأطلقوا سراح الثغرى وصهريه . فسار إلى مرسية على عجل ، وأخمد الهياج ، وفر الثغرى إلى كونكة . وعاد ابن أبى جعفر إلى متابعة القتال فى شاطبة . ثم عاد بعد هزيمة الملثمين ، وفرار أميرهم عبد الله بن غانية إلى

مرسية ، وذلك فى صفر سنة ٥٤٠ هـ . ثم غادرها مرة أخرى فى قواته إلى غرناطة لإنجاد ابن أضحى وقتل حسبما تقدم فى الموقعة التى نشبت بينه وبين المرابطين[1].

ولما عادت فلول عسكر مرسية بعد مقتل أميرها ، أجمع أهل مرسية على تقديم أبى عبد الرحمن بن طاهر للرياسة ، وذلك فى أواخر شهر ربيع الأول سنة ٥٤٠ هـ ، فانتقل إلى القصر ، ودعا لابن هود ثم لنفسه . وأبو عبد الرحمن هذا ، هو محمد بن عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الرحمن بن طاهر القيسى ، سليل بنى طاهر أمراء مرسية أيام الطوائف . وقد سبق أن تحدثنا فى أخبار مملكة مرسية عن أصلهم وعراقة بيتهم ، فى الوجاهة والسراوة والعلم. وكان جده أبو عبد الرحمن بن طاهر أمير مرسية ، من أعظم علماء عصر الطوائف وكتابه ، وقد أشاد بذكره وروعة أدبه ابن بسام صاحب الذخيرة[2] ، وكان هو أى أبو عبد الرحمن بن طاهر الحفيد ، صنو جده فى العلم والأدب والبراعة فى الترسل .

تولى أبو عبد الرحمن بن طاهر الإمارة ، وقدم أخاه أبا بكر على الخيل . وكان ابن حمدين حينما اضطربت الأحوال فى مرسية ، قد وجه إليها قوة بقيادة ابن عمه المعروف بالقلفلى ، ومعه أبو محمد بن الحاج وغيره من أعيان مرسية اللاجئين إلى قرطبة ، فردت هذه القوة كسابقتها . وهكذا بدأ ابن طاهر إمارته ، فى جو مكفهر ، والدسائس تضطرم من حوله . ولم تمض أيام قلائل على رياسته ، حتى خاطب بعض أهل مرسية ، أبا محمد عبد الرحمن بن عِياض قائد جند الثغر فى بلنسية فى القدوم إليهم وتقلد الرياسة ، فبادر بالسير إلى مرسية ، وتلقاه فى طريقه والى أوريولة ، وهو القائد زعنون الذى تقدم ذكره ، وسلمه إياها ، ثم سار إلى مرسية ، ومعه عدة من وجوه أهل مرسية ، الذين خرجوا إلى لقائه والسير فى ركابه ، كل ذلك وابن طاهر يعمل هادئاً فى قصره ، ولا يدرى بما يدور حوله من الأحداث . ثم دخل ابن عياض مرسية ، وقد برز الناس إلى لقائه ، وابن طاهر ، مستمر على سكوته وعلى حسن ظنه ، ودخل ابن عياض القصر ، لا يدفعه عند أحد ، فلم يشعر ابن طاهر ، إلا وقد نُزع من رياسته ، فانتقل إلى داره ، وعف ابن عياض عن دمه ، توقيراً له ، وإشفاقاً لضعفه . وتم هذا الانقلاب فى العاشر من جمادى الأولى سنة ٥٤٠ هـ (أكتوبر سنة ١١٤٥ م) .

---

(١) الحلة السيراء ص ٢١٨ .

(٢) راجع كتابى « دول الطوائف » ص ١٧٥ .

ولم تمض أيام قلائل على ذلك حتى تطورت الحوادث فى بلنسية ، وخلع مروان ابن عبد العزيز من الإمارة ، واستدعى الجند ابن عياض لتولى الرياسة مكانه ، فسار ابن عياض إلى بلنسية فى آخر شهر جمادى ، وقد فر عنها ابن عبد العزيز مخاوعاً ، وبويع بالإمارة ، ودعا لابن هود ، وأقام بها حيناً ينظم شئونها ، ثم غادرها إلى مرسية ، بعد أن أقر عليها صهره عبد الله بن سعد بن مردنيش عنه فى رياستها حسبما تقدم من قبل .

أما ابن طاهر ، فإنه لزم داره ، وعاش فى عزلة وهو يشهد تطور الحوادث فى مرسية ، وفى شرقى الأندلس ، فى ظل زعيمه وأميره فيما بعد محمد بن سعد ابن مردنيش ، ويشهد صراعه المرير مع الموحدين ، وهو يزداد ، توجساً وحذراً ، كلما تطورت الحوادث ، وكلما تقدمت به السن ، إلى أن توفى ابن مردنيش فى سنة ٥٦٧ هـ ، فعندئذ دخل فى طاعة الموحدين ، وعبر البحر إلى المغرب ، وتوفى بمراكش فى سنة ٥٧٤ هـ[1] .

وقد أشرنا فيما تقدم ، إلى ماكان من مقدم سيف الدولة بن هود إلى قرطبة ، بدعوة أهلها ، ثم تحولهم إلى خصومته ، وقتلهم وزيره ابن الشماخ وطائفة من أصحابه ، ومغادرته عندئذ قرطبة إلى جيّان ، وكان قد ثار بها قاضيها ابن جزى واستقل بحكمها ، فتغلب عليه وانتزعها منه . ثم سار إلى غرناطة بدعوة أهلها ، وخاض هناك بعض الوقائع إلى جانب القاضى ابن أضحى ، ولكنه لم يوفق إلى الاستقرار بها ، فغادرها فى أواخر سنة ٥٣٩ هـ عائداً إلى جيان . وسرعان ما ألفى فى حوادث مرسية فرصة جديدة للتدخل والمغامرة ، فبعث إليها أولا قائده عبد الله الثغرى ، فتغلب عليها ، ولكنه أخرج منها بعد أيام قلائل ، ثم توالت الحوادث على النحو الذى فصلناه من قبل ، واستولى ابن عياض قائد جنود الثغر على مرسية ، ثم على بلنسية ، ودعا لابن هود فى كلتا الحاضرتين . فبعث إليه ابن هود بولده أبى بكر ، فخرج للقائه واحتفى به ، واصطحبه معه إلى بلنسية ، ثم سار ابن هود نفسه إلى مرسية ، ودخلها ونزل بقصرها ، فعجل ابن عياض فى اللحاق به ، وأعلن طاعته ، والامتثال لأوامره ، ونزل بالقصر الصغير ، فعهد إليه ابن هود بالأمور كلها ، وأسبغ عليه لقب الرئيس مكتفياً بلقب الإمارة ومظاهرها ، وكان ذلك فى أواخر رجب سنة ٥٤٠ هـ (أوائل سنة ١١٤٦ م) .

---

(١) الحلة السيراء ص ٢٢٠ .

وكان ابن عياض جندياً عظيما ، وفارساً ذا نجدة ، ورئيساً وافر الحزم ، وكان فوق ذلك رجلا صالحا ورعاً ، رقيق الحس والعاطفة ، وكان النصارى يقدرون فروسيته وشدة مراسه ، ويعدونه وحده بمائة فارس[1]. وكان يقظاً لحركات النصارى فى شرقى الأندلس ، فلم تمض أيام قلائل ، على مقدم ابن هود ، حتى جاءت الأنباء باعتداء النصارى على أحواز شاطبة ، ومبادرة عبد الله ابن سعد بعسكر بلنسية لقتالهم . فأسرع ابن عياض وابن هود فى قواتهما لنجدته . والتقى المسلمون والنصارى فى موضع يسمى « باللج » فى ظاهر بلدة البسيط[2] على مقربة من جنجالة ، فى يوم الجمعة العشرين من شهر شعبان سنة ٥٤٠ هـ (فبراير سنة ١١٤٦ م) فوقعت الهزيمة على المسلمين ، وقتل فى الموقعة عبد الله ابن سعد بن مردنيش ، وسيف الدولة ابن هود ، ونجا ابن عياض . وكانت ضربة شديدة للمسلمين فى شرقى الأندلس[3] .

هكذا تصور لنا الرواية الإسلامية موقعة البسيط . بيد أنه يوجد ثمة شىء من الغموض فى تلك الرواية الموجزة . ذلك أننا نعرف أن سيف الدولة بن هود ، هو حليف النصارى ، وصنيعة عاهلهم القيصر ألفونسو السابع أو ألفونسو ريمونديس وهم الذين دفعوه إلى خوض غمار الحوادث فى الأندلس ، وأمدوه بعونهم ، فكيف انقلب إلى محاربتهم بين عشية وضحاها ؟ والجواب على ذلك نجده فى الرواية النصرانية المعاصرة ، وهى المسماة « رواية ألفونسو السابع » فهى تقول لنا إن سيف الدولة ، بعد أن فشلت محاولته فى قرطبة بعث إلى ألفونسو السابع ملك قشتالة ، يخبره بأن أراضى أبدة ، وبياسة وقلاعها ، وهى من أملاكه التى تغلب عليها ، قد ثارت عليه ورفضت أداء الضرائب المطلوبة ، فندب ألفونسو أربعة من الأشراف القشتاليين هم الكونتات ما نريكى ، وأرمنجود ، وبانسيو ، ومارتن فرنانديث ، وأمرهم بأن يقوموا بإخضاع أراضى أبدة ، وبياسة ، وجيان وغيرها ، لطاعته وطاعة سيف الدولة ، فسار الكونتات فى قواتهم ، وأغاروا على تلك الجهات وأثخنوا فيها ، وافتتحوا جيان وأبدة وبياسة ، ونكلوا بسكانها المسلمين ، وعندئذ استغاث المسلمون بسيف الدولة ، وأعلنوا بطاعته ، فاستجاب لدعوتهم ، وسار

---

(١) المراكشى فى المعجب ص ١١٥ .

(٢) وهى بالإسبانية Albacete

(٣) ابن الأبار فى الحلة السيراء ص ٢٢٦

إليهم فى جيش ضخم ، وطلب إلى الكونتات النصارى أن يرفعوا أيديهم عن المسلمين ، وأن يكفوا عن غزواتهم المخربة التى قاموا بها فى الأراضى الإسلامية ، بالتحالف مع القاضى الطموح عبد الله الطغرائى والى قونقة ، فيما بين شاطبة وأبدة ، وأخيراً أن يسلموا إليه الغنائم والأسرى . فرفض الكونتات مطالب سيف الدولة ، وأجابوا بأنهم لم يفعلوا إلا ما أمر به عاهلهم ، وماطلبه سيف الدولة ذاته . وطال الجدل بين الفريقين ، وعندئذ قرر سيف الدولة أن يلجأ إلى السيف ، وسار الكونتات النصارى وحليفهم القاضى الطغرائى ، بعد أن امتنعت عليهم شاطبة غربا ، وسارت قوات بلنسية ومرسية وسيف الدولة لقتالهم فى نفس الوقت . والتقى المسلمون والنصارى فى سهل البسيط على مقربة من جنجالة ، فهزم المسلمون شر هزيمة ، وقتل عبد الله بن سعد قائد جند بلنسية وأسر سيف الدولة ، وقتله بعض الجند النصارى دون معرفة لشخصه ، وارتد ابن عياض فى فلول الجيش إلى بلنسية . ولما علم ألفونسو السابع بمصرع صديقه القديم سيف الدولة أسف كل الأسف وأعلن أنه برىء من دمه(١) .

وكان أحمد بن يوسف بن هود ، المتلقب بسيف الدولة وبالمستنصر ، شخصية غامضة . وبالرغم من أنه كان سليل أسرة بنى هود أصحاب الثغر الأعلى ، وحماته والمتفانين فى الذود عنه ضد النصارى ، فإنه لم يكن يتمتع بشىء من خلال أسرته الملوكية العريقة . وقد رأينا كيف تخلى عن روطة ، آخر قواعد مملكة سرقسطة القديمة ، لملك قشتالة ، ألفونسو ريمونديس ، وآثر أن يعيش فى أراضيه وتحت كنفه ، وأن يغدو آلة لخططه ودسائسه ضد المسلمين ، يحقق بها إذا استطاع بعض مآربه فى الضرب والتفريق بين أبناء الأمة الأندلسية ، واقتطاع ما يمكن اقتطاعه من أراضيها . ولم يكن اشتراك سيف الدولة فى حوادث الثورة ضد المرابطين ، وتدخله فى شئون الرياسة بالقواعد الثائرة ، مثل قرطبة وغرناطة وجيان ومرسية ، محاوله اختيارية يشق بها طريقه إلى الرياسة ، ولكنه كان يقوم بها بوحى ملك قشتالة ، ومعاونته الفعلية بالمال والجند ، لانتهاز الفرص السانحة ، خلال هذا الاضطراب العام ، الذى كان يسود الأمة الأندلسية ، ولم تكن دعوات

---

(١) M. Gaspar Remiro, cit. Crónica del Emperador Alfonno (Murcia Musulmana) p. 180 & 181 . وراجع أيضاً تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين لأشباخ (وترجمة محمد عبد الله عنان) الطبعة الثانية ص ٢١٦ .

الزعماء الثائرين له ليقدم عليهم ، أو ليستظلوا بصفته الملوكية السابقة ، إلا سراباً وخديعة لمواطنيهم ، بتنصيب شخصية لا تخلص لقضيتهم . ولقد كان من رحمة القدر بذكرى هذا الأمير المنكود — صنيعة القشتاليين وخديمهم — أن قتل فى غمرة الدفاع عن أمته ودينه ، ضد حلفائه القدماء ، فى ظروف طارئة ، لم تكن من تدبيره ، وإنما استدرج إليها فكانت فيها خاتمته .

بيد أن سيف الدولة كان يتمتع بحلة العلم والتأدب شيمة آبائه وأجداده ، وكان شاعرا ينظم الشعر الجيد ، وقد أورد لنا ابن الآبار شيئاً من نظمه فمن ذلك قوله :

يا باكيا عمر الطلول بدمعه أسفا على ذاك الدم المطلول
أودت بلبك لوعة صديت لها صفحات ذاك الخاطر المصقول

وقوله من قصيدة طويلة :

خطرت خطرة الغرام على القلب وحسب الفتى لها يستكين
أذكرتنى بلجاء وُرْقٌ تجاوبن بنجد حديثهن شجون
أطربتنى أصواتهن على الأيكة قد يطرب الحزين الحزين
يا مَة القوم والمنا يضع المر ء إذا ما استقل يوماً قطين
إن تكونى قد استقر بك الربع فقلبى مع الرفاق رهين
أو تكونى سلوت عنا فلا والله تسلُك الظباء العين
أين للشمس أن تنال محيا ك وتعزى لمعطفيك الغصون
غرر لحن من دجى الشعر بيض ما تجلت عن مثلهن الدجون(١)

* * *

وعلى أثر مقتل ابن هود ، أعلن ابن عياض الدعوة لنفسه ببلنسية ، وكان قد ترك فى مرسية محمد بن سعد بن مردنيش نائباً عنه بها ، وكان قد عهد فى نفس الوقت إلى عبد الله الثغرى الذى شهدناه من قبل ، يشترك فى حوادث مرسية باسم ابن هود ، بأن يكون سفيره لدى الإمبراطور ألفونسو ريمونديس ليعقد معه السلم والتحالف ضد أمير برشلونة ، فعاد من سفارته هذه ، وزعم أن الإمبراطور قد منحه إمارة مرسية ، واستعان على دخولها بطائفة من الخوارج

(٢) راجع الحلة السيراء ص ٢٢٦ و٢٢٧ .

المشايعين له ، فنجح فى محاولته ، وفر محمد بن سعد بن مردنيش نائب ابن عياض بمرسية ، ولحق بثغر لقنت ، وذلك فى أوائل شهر ذى الحجة سنة ٥٤٠ هـ ، (مايو سنة ١١٤٦ م) . ولم تمض بضعة أشهر على ذلك ، حتى زحف ابن‌عياض على مرسية لاستخلاصها من الثغرى ، وقتل الثغرى فى المعركة التى نشبت بينهما ، وذلك فى السابع من رجب سنة ٥٤١ هـ (ديسمبر ١١٤٦ م) . ويقدم إلينا الضبى تفاصيل مصرع الثغرى ، فيقول إنه لما نجح ابن عياض فى دخول مرسية، وقع القتال بينه وبين ابن عياض فى شوارع المدينة حتى هزم الثغرى ، وركن إلى الفرار ، وخرج من الباب المسمى باب الفارقة ، فألقى عليه من فوق السور حجر أصاب رأس جواده ، فوثب الجواد جامحاً براكبه نحو مجرى النهر ، وهنالك قتله رجل ممن كانوا يرابطون فى هذا المكان .

وهكذا استعاد ابن عياض إمارته على مرسية ، وأضحى يبسط سلطانه على سائر قواعد الشرق من بلنسية شمالا حتى أحواز قرطاجنّة ، جنوباً . واستمر فى إمارته على تلك المنطقة بلا منازع مدى عام وتسعة أشهر وعشرين يوماً ، إلى أن لقى مصرعه فى اليوم الثانى والعشرين من شهر ربيع الأول سنة ٥٤٢ هـ (٢١ أغسطس ١١٤٧ م) . ويقول لنا ابن الأبار إنه توفى قتيلا من جراء سهم أصابه فى بعض حروبه مع القشتاليين[1]. ويقول الضبى إنه قتل بالعكس خلال معركة نشبت بينه وبين بنى جميل على مقربة من بلّش وحمل جثمانه إلى بلنسية ودفن بها . وقام على موارا ته صهره ونائبه فى بلنسية محمد بن سعد بن مردنيش، وأعلن للناس أن ابن‌عياض قد أولاه عهده بالإمارة من بعده ، فبايعوه على ذلك . ويقول المراكشى إن ابن‌عياض حين حضرته الوفاة ، أشار إلى من اجتمع إليه من الأعيان والجند بتقديم محمد بن سعد للرياسة ، وأبى أن يوصى برياسة ولده لأنه كان يشرب الخمر ويغفل الصلاة . وقيل أيضاً إن أهل بلنسية بايعوا ابن سعد، ونصبوه أميراً عليهم دون عهد سابق . وأما فى مرسية فقد اختار أهلها للإمارة عليهم نائب ابن عياض أبا الحسن على بن عبيد ، ولكنه لم يمكث فى‌الإمارة سوى فترة يسيرة حتى أواخر جمادى الأولى ، ثم تخلى عنها لابن سعد أمير بلنسية . وهكذا نجح محمد بن‌سعد بن مردنيش فى اجتناء تراث ابن‌عياض بأكمله ، وخلفه فى إمارة‌شرق الأندلس كله ، وكان ذلك فى جمادى الأولى سنة ٥٤٢هـ (أكتوبر ١١٤٧ م)

---

(١) المراكشى فى المعجب ص « ١١٥ » ، وابن الأبار فى الحلة السيراء ص ٢٢٠ .

وبقيام ابن مردنيش ، فى إمارة شرقى الأندلس ، تهيأ الظروف لصفحة جديدة من الصراع بين الأندلس الثائرة وبين الموحدين ، وهو صراع عنيف يضطرم زهاء عشرين عاما ، وتخوضه منطقة الشرق كلها ، بسائر مواردها وقواتها ، تحت زعامة قوية موحدة ، ويقتضى لمدافعته معظم جهود الموحدين فى شبه الجزيرة ، ثم لا تهدأ ثائرته وتطوى صفحته ، إلا باختفاء مثير ضرامه من الميدان .

— ٣ —

إن ابن مردنيش ، الذى حمل لواء هذا الصراع الشهير ضد الموحدين ، ولبث طيلة اضطرامه صامداً ، كالصخرة الصلدة ، لا تفتر له همة ، ولا يهادن ، ولا تلين قناته ، حتى طواه الموت ، هو شخصية من أغرب شخصيات التاريخ الأندلسى ، تمثل كل خلال العصر ، ورذائله فى نفس الوقت ، ولو لم يبالغ ابن مردنيش فى مداخلة النصارى ، وربط قضيته بعونهم ، لكان فى وسعنا أن نعتبره بطل الوطنية الأندلسية ، وحامل لوائها ضد الموحدين .

وهو أبو عبد الله محمد بن سعد بن محمد بن سعد الجذامى بن مَرْدنَيش . أصله من الثغر الأعلى ، وولد فى قلعة من قلاع طرطوشة المنيعة تسمى بُنُشْكُلَة ، Peñiscola (١) وذلك فى سنة ٥١٨ هـ (٢) وإذن فقد كان حينما تولى إمارة شرقى الأندلس ، فتى فى نحو الرابعة والعشرين من عمره . وقد كان أبوه سعد بن محمد ابن مردنيش واليا لإفراغة أيام المرابطين ، حينما حاصرها ألفونسو المحارب ملك أراجون فى أواخر سنة ٥٢٧ هـ (يونيه سنة ١١٣٣م) ، وأبدى فى مدافعة النصارى بسالة رائعة ، واضطر المحاصرين أن يرفعوا الحصار غير مرة ، إلى أن وفدت الأمداد المرابطية ، ومعها الأمير يحيى بن غانية ، وكان ما كان من انتصار المسلمين الباهر على النصارى وذلك حسبما فصلناه من قبل فى موضعه ، وعمه عبد الله بن محمد بن سعد بن مردنيش صهر ابن عياض ، ونائبه فى بلنسية ، وهو الذى سبقت الإشارة إليه فيما تقدم غير مرة .

وقد لفت محمد بن سعد أنظار الباحثين باسمه ولقبه ، وصفاته الغريبة الفذة ، وتساءل بعضهم عن حقيقة أصله ونسبه ، فهو وفقاً لاسمه المدون جذامى ، أو

---

(١) ومكانها اليوم نضر **Peniscola** الصغير الواقع جنوبى طرطوشة .

(٢) ابن خلكان فى وفيات الأعيان ج٢ ص ٤٩٢ ، فى ترجمة أبى يوسف يعقوب المنصور . وهو يضبط « مردنيش » وفقاً للشكل الموضوع عليها .

تجيبي وفقاً للبعض الآخر[١] ، أو بعبارة أخرى عربى الأرومة . بيد أن فى لقبه ، وهو ابن مردنيش ، وفى صفاته وسلوكه أيضاً ، ما يحمل على الريب فى هذه النسبة . وأغلب الظن أنه ينتمى إلى المولدين أو بعبارة أخرى أنه إسبانى الأصل ، دخل أجداده فى الإسلام ، فأصبح من ذلك العنصر المسلم الدخيل ، الذى كان يؤلف شطراً له خطره من الأمة الأندلسية ، والذى لعب فى تاريخها أعظم دور ، ولاسيما فى أيام الفتن والثورات القومية . ويرى البحث الحديث . أن مردنيش ، هو تحريف الاسم الإسبانى « مرتنيث » Martinez أو Martinizi أى (ابن مرتين) ، وربما تحريف لاسم Mardonius وهو سليل البيزنطيين القدماء فى منطقة قرطاجنة[٢] . ومن جهة أخرى فإن صفات ابن مردنيش وسلوكه حسبما تصورها لنا الرواية العربية ، تؤيد هذا الظن فى انتمائه إلى عنصر المولدين . فقد كان شغوفاً بالتشبه بالنصارى (القشتاليين) فى الزى والملابس والسلاح واللجم والسروج ، وكان يجيد اللغة القشتالية ، ويؤثر التحدث بها ، وكان يدعو إلى جيشه كثيراً من النصارى المرتزقة ، من القشتاليين والقطلان والبشكنس ، يبتنى لهم الأحياء والمعسكرات ، ويزودها بأسباب الرفاهية والحانات ، وكان يغدق عليهم الصلات الوفيرة من المال والإقطاعات ، وذهب فى ذلك إلى حد أنه أقطع أحد أكابر فرسان البشكنس ، وهو المسمى بيدرو دى أثاجرا مدينة شنتمرية ابن رزين مع سائر مرافقها وأراضيها ، وقد أنشأ بها هذا الفارس مركزاً لأسقفية[٣] . وقد كان من جراء هذا الإغداق الفياض على النصارى أن اشتط ابن سعد فى فرض المغارم والرسوم المختلفة على رعاياه المسلمين[٤] . وكان النصارى يسمونه الملك لوبى (لب) Rey Lope أو Lobo أعنى « الذئب » . وفى بعض الروايات النصرانية ان هذا الاسم الأخير أطلقه عليه النصارى لما أثر من إقدامه وشجاعته[٥] .

---

(١) ابن الخطيب فى الإحاطة (طبعة القاهرة القديمة) ج ٢ ص ٨٥ .

(٢) Dozy : Recherches (1881) V.I. p. 365-Codera : Decad. y Desp. de los Almoravides p. 113 & 311

(٣) وهى شنتمرية الشرق المسماة بالإسبانية Albarracin . وقد كانت أيام عصر الطوائف قاعدة لمملكة بنى رزين .

(٤) الإحاطة ج ٢ ص ٨٧ ؛ وأعمال الأعلام ص ٢٦١ ؛ وكذلك Dozy: Recherches. V.I. p. 366

(٥) A. Piles Ibars : Valencia Arabe (Valencia 1901) p. 516

وأضحى محمد بن سعد بن مردنيش بتغلبه على بلنسية ، ومرسية ، سيد المنطقة الشرقية كلها ، وامتد سلطانه من أحواز طرطوشة شمالا حتى قرطاجنة ولورقة جنوبا . ولما كان من الواضح أنه لايستطيع أن ينصرف إلى توطيد سلطانه فى تلك المنطقة الشاسعة إلا إذا أمن جانب النصارى ، وهم جيرانه من الشمال والغرب واستطاع بذلك أن ينصرف إلى مقارعة الموحدين ، الذين جازت جيوشهم الأولى إلى شبه الجزيرة ، فقد رأى أن تكون مسالمة الممالك النصرانية ، شعاره الذى لا يحيد عنه ، وأن يعقد معها التحالف كلما سمحت بذلك الفرص ودعت الضرورات .

ومن ثم فقد عقد لأول ولايته مع أمير برشلونة الكونت رامون برنجير الرابع صلحاً لمدة أربعة أعوام ، وعقد معاهدة صلح أخرى مع ملك قشتالة الإمبراطور ألفونسو السابع (ألفونسو ريمونديس) . وكان يؤدى لكل منهما فى السنة جزية قدرها خمسون ألف مثقال من الذهب . ولم تقف هذه السياسة فى مصانعة النصارى ومصادقتهم ، عند حدود شبه الجزيرة ، بل شملت الدول النصرانية فى خارجها . ففى العام الثانى من حكمه ، أعنى فى سنة ٥٤٣ هـ (١١٤٩م) عقد ابن مردنيش مع جمهورية بيزة معاهدة صلح مدتها عشرة أعوام ، ثم عقد معاهدة أخرى مع جمهورية چنوة ، يتعهد فيها بأن يؤدى إليها إتاوة قدرها عشرة آلاف دينار مرابطية خلال عامين ، وأن يبنى للرعايا الجنويين الذين يقطنون فى بلنسية ودانية فندقاً يزاولون فيه تجارتهم ، وأن يمنحهم حماماً مجانياً فى كل أسبوع ، وتعهدت جمهورية چنوة من جانبها بأن لاتحدث أضراراً لأحد من رعايا الملك لوبو فى طرطوشة والمرية . وكان ابن مردنيش فضلا عما تقدم يراسل كثيراً من الملوك النصارى فى مختلف أنحاء القارة ، ويبعث إليهم بالهدايا القيمة . ومن ذلك أنه أرسل إلى هنرى الثانى ملك انجلترا ، هدية قيمة من الذهب والحرير والخيل والجمال ، وبعث إليه ملك انجلترا هدية جليلة[1]

وظهر ابن مردنيش منذ البداية بفائق عزمه وشجاعته وإقدامه ، كما ظهر بوافر شهامته وجوده . ويقول لنا ابن الخطيب إنه «كان له يومان فى الأسبوع ، يوم الاثنين والخميس ، يشرب مع ندمائه ، ويجود على قواده وخاصته وأجناده ، ويذبح الأبقار فى المواسم ، ويفرق لحومها على الأجناد ، ويتخلل ذلك لهو كثير ،

---

(١) F. Codera: Decad. y Desp,. de de los Almoravides, p. 115 & 120-123

حتى ملك القلوب من الجند، وعاملوه بغاية النصح، وربما وهب المال فى مجالس أنسه»[١].

وينوه المقرى بشجاعة ابن مردنيش، ويقول إنه كان من أبطال عصره، وأنه كان يدفع فى المواكب ويشقها شقاً، يميناً وشمالا، منشداً:

أكرّ على الكتيبة لا أبالى   أحتفى كان فيها أم سواها[٢]

وجمعت الأقدار بين ابن مردنيش وزعيم يشبهه فى كثير من صفاته وميوله، وكان له أكبر عضد فى مضاعفة صولته، وتوطيد سلطانه، وهو إبراهيم ابن محمد بن مفرج بن همشك، وهو مثل ابن مردنيش شخصية تتميز بصفاتها الخاصة، وهو من أصل نصرانى صريح، فجده مفرج أو همشك نصرانى نزح إلى سرقسطة، وأسلم عل يد أحد ملوك بنى هود فى أواخر أيامهم، وكان مقطوع إحدى الأذنين، فكان النصارى إذا رأوه فى القتال عرفوه وقالوا « هامشك »، ويقول لنا ابن الخطيب أن معنى هذه العبارة فى لغتهم « ترى المقطوع الأذن »[٣] وأصل العبارة فى القشتالية هو He Mochico وبالتفصيل He aqui el Mocho pequeño, El desorejado menor. ومعناها مقطوع الذيل الصغير، ومقطوع الأذن[٤]. ولما سقطت سرقسطة فى أيدى النصارى، وغادرها بنو هود، تحول إبراهيم بن همشك إلى قشتالة، وخدم ملكها حيناً، ثم ترك خدمة النصارى، ونزح إلى الأندلس، وخدم اللمتونيين بعد أن أعلن توبته، وشفع فيه بعض الأكابر. ولما ندب يحيى بن غانية لولاية قرطبة من قبل تاشفين بن على بن يوسف فى سنة ٥٣٨ هـ (١١٤٣ م) التحق بخدمته. ولما ثار القاضى ابن حمدين بقرطبة فى العالم التالى، وتسمى بأمير المسلمين، وكان ابن غانية يومئذ فى منطقة الغرب يطارد ثوارها، بعثه ابن غانية رسولا إلى قرطبة لمحاولة عقد الصلح بينه وبين ابن حمدين. ولكن الحوادث اتخذت يومئذ فى قرطبة وجهة أخرى، ثم اتسع نطاق الثورة بالأندلس، وتوالت الإنقلابات فى قواعد الشرق، فاتصل ابن همشك بابن عياض، وقد تغلب يومئذ على بلنسية، ولم يمض وقت طويل على ذلك حتى سنحت لابن همشك فرصة لاحتلال حصن شقوبش،

---

(١) ابن الخطيب فى الإحاطة ج ٢ ص ٨٣.

(٢) نفح الطيب (القاهرة) ج ٢ ص ٣٢٢.

(٣) الإحاطة (١٩٥٦) ج ١ ص ٣٠٥.

(٤) M. Gaspar Remiro : Murcia Musulmana, p. 166

ثم تغلب بعد ذلك على مدينة شقورة[١] الواقعة على مقربة من شمال شرقى أبدة ، فقوى أمره : وفى رواية أخرى أنه تغلب على شقورة فيما بعد حينما ندبه لذلك ابن مَرْدَنيش ، ولما آلت بلنسية ومرسية إلى محمد بن سعد اتصل به ، وعقد معه ابن سعد صهراً على ابنته ، فتوثقت بينهما العلائق ، وغدا ابن همشك من أعظم أعوان ابن سعد وقادته . وكان ابن همشك فى الواقع من أقدر قواد العصر ، وأوفرهم جرأة وشجاعة وإقداماً ، وقد خاض ضد الموحدين فيما بعد ، عدة من الحروب والوقائع الهامة[٢] .

— ٤ —

ليست لدينا تفاصيل شافية عن حوادث شرقى الأندلس فى الأعوام الأولى لحكم ابن مردنيش ، بيد أنه وقع عقب تولى ابن مردنيش حكم بلنسية ومرسية بقليل ، حادثان خطيران ، الأول فى شمال شرقى الأندلس ، والثانى فى جنوبى شرقها .

أما الحادث الأول ، فهو استيلاء النصارى على ما بقى بأيدى المسلمين من قواعد الثغر الأعلى . ونحن نعرف أن النصارى ، منذ استولوا على سرقسطة فى سنة ٥١٢ هـ (١١١٨ م) لبثوا يتربصون الفرص لانتزاع القواعد القليلة الباقية فى هذا الركن النائى من الأندلس . وقد صدتهم هزيمة إفراغة المروعة (٥٢٨هـ) عن مشاريعهم حيناً . فلما انفجر بركان الثورة فى الأندلس ضد المرابطين ، وشغلت الحاميات المرابطية فى كل قاعدة ، بالذود عن نفسها ، وشغل الزعماء الثائرون كل بتوطيد سلطانه ، شعر النصارى فى الثغر الأعلى ، بأن الفرصة قد سنحت لتحقيق مشروعهم . وكانت القواعد الباقية ، داخل الثغر الأعلى تنحصر فى لاردة وإفراغة ومكننسة (مكناسة) ثم فى ثغر طرطوشة الواقع عند مصب نهر إيبرو (إبرة) ، وكانت جميعها تقع على حدود إمارة برشلونة . وكانت طرطوشة أولى القواعد التى سقطت عندئذ فى أيدى النصارى . وكانت قد غدت فى أواخر عهدها الإسلامى مثوى للمجاهدين والمغامرين من رواد الحملات البحرية ، التى تثخن فى شواطىء الأمم النصرانية المجاورة . فدعا البابا أوجين الثالث إلى حملة صليبية لفتحها ، واجتمعت قوات النصارى من الأرجونيين والقطلان والبيزيين والجنويين وفرسان المعبد بقيادة الكونت رامون برنجير أمير برشلونة « وضربت

---

(١) وهى بالإسبانية **Segura de Sierra** .

(٢) ابن الخطيب فى الإحاطة (١٩٥٦) ج ١ ص ٣٠٦ و ٣٠٧ .

الحصار حول طرطوشة من البر والبحر ، ودافع المسلمون عن المدينة بمنتهى البسالة ، وصمدوا للحصار أربعين يوماً ، مؤملين أن ترد إليهم أمداد من بلنسية أو غيرها : فلما يئسوا من كل عون ، اضطروا إلى تسليم المدينة صلحاً فى آخر سنة ١١٤٨ م (١٦ شعبان سنة ٥٤٣ هـ) . مشترطين الاحتفاظ بأملاكهم ومساجدهم . بيد أنهم لم يستطيعوا الاحتفاظ بمساجدهم أكثر من ثلاثين أو أربعين عاماً : وهاجمت القوات النصرانية المتحالفة وعلى رأسها الكونت رامون برنجير مدينة لاردة بعد ذلك بقليل وكان طبيعياً ألا تصمد طويلا بعد سقوط طرطوشة ، فسقطت فى أيدى المهاجمين وذلك فى ٢٤ أكتوبر سنة ١١٤٩ م (٥٤٤ هـ) وعبر واليها المرابطى ابن هلال البحر ملتجئاً إلى أمير ميورقة محمد بن غانية ، وسقطت معها فى نفس الوقت ، بل وفى نفس اليوم حسبما تروى التواريخ القطلانية ، مدينتا إفراغة ومكناسة . ويقول لنا ابن الخطيب إن القشتاليين استولوا فى نفس الوقت على حصن أقليش وحصن سرانية (سنة ٥٤٣ هـ)(١) .

سقطت هذه القواعد الإسلامية الشمالية الأخيرة فى أيدى النصارى ، وانتهت بذلك سيادة المسلمين فى الثغر الأعلى . وقد كانت هذه القواعد ، تابعة من قبل لمملكة سرقسطة ، فلما سقطت سرقسطة فى أيدى الأرجونيين ، أصبحت تابعة لولاية بلنسية ، كما كانت منذ بداية العهد المرابطى ، وإذن فقد كانت هذه القواعد خاضعة لسيادة ابن مردنيش ، من الناحية الإسمية على الأقل . بيد أن ابن مردنيش لم يكن فى وسعه أن يحميها أو أن ينجدها ، وكان ارتباطه برباط الصداقة والمهادنة مع الكونت برنجير أمير برشلونة ، يحول دون أية محاولة لإنقاذها ، تفسد علائقه مع الممالك النصرانية ، ومن جهة أخرى فقد كان الدفاع عن هذه القواعد النائية الواقعة فى قلب الأراضى النصرانية عملا غير ميسور . ومن ثم فإن ابن مردنيش لم يحرك ساكنا ، إزاء هذا الحدث المؤلم ، وإن كان قد لبث يعتبر نفسه حامياً للرعايا المسلمين ، فى تلك القواعد المنزوعة ، يدل على ذلك أنه حينما عقد معاهدة الصداقة مع جمهورية جنوة ، قد اشترط فيها أن تتعهد جنوة بألا توقع أية أضرار برعايا الملك لوبو فى طرطوشة وألمرية ، وقد كانت جنوة ضمن البلاد التى اشتركت فى افتتاح طرطوشة .

---

(٢) ابن الأثير ج ١١ ص ٥٢ . وراجع روض القرطاس ص ١٧٦ ، والإحاطة ج ٢ ص ٨٩ . وراجع أيضاً : Codera : Ibid ; p. 124 - 126

وأما الحادث الثانى فقد وقع فى نفس الوقت ، الذى ظفر فيه ابن مردنيش بولاية بلنسية ومرسية ، وهو استيلاء النصارى على ثغر ألمرية . وكانت ألمرية فى الواقع شجى فى عيون الدول النصرانية القريبة مثل قطلونية وجنوة وبيزة ، بما كانت تقوم به الحملات البحرية الخارجة منها فى شواطىء هذه الدول من ضروب العيث والتخريب . ففى غمرة الإضطراب العام ، الذى شمل الأندلس عقب انهيار سلطان المرابطين ، رأت الدول النصرانية ، وعلى رأسها البابا ، أن تقوم بانتزاع هذا الثغر الغنى الحصين من أيدى المسلمين ، وبادر ألفونسو السابع ملك قشتالة بانتهاز الفرقة السانحة ، ونظمت حملة برية وبحرية مشتركة من قوات قشتالة ، وقطلونية ، وناڤار ، وجنوة ، وبيزة ، وبعض حشود فرنسية من وراء البرنيه ، وسارت هذه الحملة الصليبية المشتركة إلى ألمرية ، وحاصرتها من البر والبحر بقوات كثيفة ، واستمر الحصار ثلاثة أشهر ، حتى نضبت موارد المدينة ، واضطر المسلمون فى النهاية إلى تسليمها للنصارى ، وذلك فى العشرين من جمادى الأولى سنة ٥٤٢ هـ (١٧ أكتوبر سنة ١١٤٧ م)[1] . وقد كان سقوط هـذا الثغر الأندلسى الهام فى أيدى النصارى حادثاً جللا ، بيد أن أصداءه المحزنة قد تبددت خلال المحنة العامة التى كانت تعانيها الأندلس يومئذ ، من تفرق كلمتها وتبدد قواها ومواردها ، وكان استرداده من أهم ما عنى به الموحدون ، مذ ثبتت أقدامهم فى شبه الجزيرة .

وكان ألفونسو السابع ملك قشتالة قد استولى فى نفس الوقت على معقل من أهم معاقل الأندلس الوسطى ، وهو قلعة رباح ، وذلك فى أواخر سنة ٥٤١ هـ (١١٤٧ م) ، وذلك قبل استيلائه على ثغر ألمرية بأشهر قلائل . وقد أحدث القشتاليون باستيلائهم على هذا المعقل المنيع ثغرة خطيرة فى خطوط الدفاع الأندلسية . وسنرى فيما بعد أى دور خطير تلعبه هذه القلعة الشهيرة فى حوادث الصراع بين الموحدين والنصارى .

فى ذلك الحين كان ابن مَرْدَنيش يعمل على توطيد سلطانه . وقد كان حريصاً على ألا ينتقص من أطرافه معتد خارجى أو داخلى ، حتى لقد بلغه خلال سيره إلى بلنسية ليتولى سلطانه بها ، أن النصارى هاجموا حصن « حلال » فكر إليه ،

---

(١) ابن الأثير ج ١١ ص ٤٦ ، وروض القرطاس ص ١٧٦ . وراجع : **Lafuente : Hist General de Espana T. III. p. 294**

واسترده من أيديهم ، ثم عاد إلى بلنسية فتلقى بها البيعة[1] . ولما سار إلى مرسية ليستخلصها من يد نائبها ابن عبيد ، بعث قائده ابن همشك إلى مدينة شقورة ، وقد كان يعتبرها من متعلقات بلنسية ، لينتزعها من صاحبها ابن سوار ، فاستولى ابن همشك عليها[2] ، ثم عاد إلى مرسية لمعاونة ابن مردنيش على السيطرة على مرسية وتلقى بيعتها. فلما تم له الأمر غادرها إلى بلنسية ، وترك ابن همشك نائباً عليها . وكان ابن مردنيش ، قد عين أخاه أبا الحجاج يوسف بن سعد ، منذ البداية نائباً له ببلنسية .

ولسنا نعلم الكثير عن أعمال ابن مردنيش فى الأعوام الأولى لولايته . وأول ما تحدثنا عنه الرواية من ذلك هو استيلاؤه فى سنة ٥٤٦هـ (١١٥١م) على مدينتى بسطة ووادى آش . وقد سبق أن ذكرنا ما كان من قيام ابن ملحان الطائى بوادى آش ، وتغلبه عليها وعلى بسطة . وكان الموحدون قد عبروا إلى شبه الجزيرة قبل ذلك ببضعة أعوام ، واستولوا على إشبيلية ، فى شهر شعبان سنة ٥٤١ ، وذلك بعد أن استولوا على شريش ، وقواعد الغرب ، التى كانت أولى القواعد الثائرة ضد المرابطين ، ثم استولوا على قرطبة سنة ٥٤٣هـ ، ثم على جيان وبياسة وأبدة. وهكذا وصلت طلائع الموحدين إلى أواسط الأندلس ، وأضحت تشرف من ناحية الشرق على أملاك ابن مردنيش . والظاهر أن ابن مردنيش كان يستعين فى حملته ضد بسطة ووادى آش بجنود من القشتاليين أرسلها ألفونسو السابع لمعاونته[3]. ولما رأى ابن ملحان أنه لا طاقة له بمقاومة الغزاة أعلن طاعته للموحدين ، ثم غادر وادى آش فى أهله وأمواله ، وعبر البحر إلى المغرب حسبما ذكرنا من قبل فى فى موضعه . وأضحى ابن مردنيش باستيلائه على بسطة ووادى آش يواجه القواعد الموحدية فى جيان وبياسة وأبدة من الجنوب كما يواجهها من الشرق ، وهكذا أخذت تجتمع عناصر ذلك الصراع المضطرم الذى لبث ابن مردنيش ، ومن ورائه قوى الأندلس الشرقية كلها ، يضطلع به ضد الموحدين أعواما طوالا ، والذى كان يمثل فى كثير من نواحيه ثورة الأندلس القومية ضد غزاتها من وراء البحر ، أعنى المرابطين والموحدين .

---

(١) الإحاطة ج ٢ ص ٨٥ .

(٢) M. Gaspar Remiro : Murcia Musulmann p. 188 . وقد سبق أن أشرنا إلى رواية ابن الخطيب فى تغلب ابن همشك على شقورة قبل اتصاله بابن مردنيش .

(٣) F. Codera : Ibid ; p. 133

الفصل الرابع

أعوام عبد المؤمن الأخيرة

وفاته وخلاله

ابن مردنيش ينتزع جيان ويحاصر قرطبة . خديعته ومسيره إلى إشبيلية . إخفاقه وارتداده . غزو ابن همشك لأراضى قرطبة . هزيمة الموحدين ومقتل قائدهم . مسير ابن همشك إلى قرمونة وتغلبه عليها . الوزير ابن عبد السلام الكومى . سوء مسلكه وطغيانه . مصرعه . تكسير الإمبراطورية الموحدية . كتب عبد المؤمن بالفتح . اهتمامه بشئون الأندلس . مشروعه لتحصين جبل طارق وإنشاء مدينته . بناء المدينة ووصفها وفقاً لرواية ابن صاحب الصلاة . عبور عبد المؤمن إلى جبل طارق . الاحتفال بافتتاح المدينة . وفود الأعيان والكبراء . مدائح الشعراء . عبد المؤمن ينظم شئون الأندلس . عبوره إلى المغرب وعوده إلى مراكش . استرداد الموحدين لقرمونة . مهاجمة ابن همشك لغرناطة ودخوله إياها . محاصرته للموحدين بالقصبة . مقدم الأمداد الموحدية . موقعة مرج الرقاد . . هزيمة الموحدين وفرارهم . عبد المؤمن يرسل جيشاً إلى الأندلس . مسير ابن مردنيش لإمداد ابن همشك . موقعة السبيكة . هزيمة ابن همشك وحلفائه النصارى . استرداد الموحدين لغرناطة . ارتداد ابن همشك وابن مردنيش . تحصين الموحدين لغرناطة . نقل قاعدة الحكم الموحدى إلى قرطبة . إصلاح قرطبة وتنظيم شئونها . استعداد عبد المؤمن للجهاد بالأندلس . زيارته لتينملل . مسيره إلى رباط الفتح . اجتماع الجيوش الموحدية . بحث خطة الغزو بالأندلس . مرض عبد المؤمن . تنحيته لولده محمد عن ولاية العهد واختياره لولده يوسف . . وفاة عبد المؤمن . عقد البيعة لولده يوسف . تولى أخيه أبى حفص الوزارة . روايات أخرى عن تولية يوسف . عبقرية عبد المؤمن . إنشاؤه للدولة الموحدية الكبرى . إنشاؤه للخلافة الزمنية . عبد المؤمن أعظم خلفاء الغرب الإسلامى . قائد من أعظم قواد عصره . نظام حركة الجيوش الموحدية . تنظيم عبد المؤمن لطبقات الموحدين . تنظيمه للجيوش الموحدية . طوائف العرب وتقلبها . نظم الحكم والإدارة الموحدية حسبما وردت فى رسالة لعبد المؤمن . حبه للعلم والعلماء . عنايته بأمر الطلبة وتدريبهم . علمه وأدبه . الجراوى الشاعر . صرامة عبد المؤمن الدينية . تشدده فى معاملة النصارى واليهود . قسوته وسفكه للدماء . قواده وكتابه ووزراؤه وقضاته . سياسته فى فرض الضرائب والجبايات . مسحه لبلاد المغرب . أولاده . صفة شخصه .

— ١ —

لما تم لعبد المؤمن فتح المهدية فى العاشر من المحرم سنة ٥٥٥ هـ ، وإجلاء الفرنج الصقليين عن إفريقية ، ثم القضاء عقب ذلك على طوائف العرب الذين تصدوا لمقاومته ، كانت حوادث الأندلس ، قد أخذت تشغل معظم تفكيره ،

وكانت حوادث شرق الأندلس بالأخص ، قد تطورت خلال ذلك ، بصورة تدعو إلى القلق . ذلك أنه فى الوقت الذى كانت جيوش عبد المؤمن ، تعسكر فيه تحت أسوار المهدية ، كان زعيم الشرق محمد بن سعد بن مَرْدَنيش ، قد خرج من مدينة مرسية ، بجيش مختلط من قواته ، ومن حلفائه القشتاليين ، وسار إلى إلى مدينة جيّان ، فلم يبد واليها الموحدى محمد بن على الكومى أية مقاومة ، وسلمها إليه ، وانضوى تحت لوائه ، وهو ما تعتبره الرواية الموحدية خيانة منه ، ونكثا لبيعته للموحدين . ثم سار ابن مردنيش من جيان إلى قرطبة ، ونازلها بشدة ، وعاث فى ربوعها ، وأتلف زروعها ، فخرج إليه واليها أبو زيد عبد الرحمن ابن يكيت (أو يخيت) فى قواته ، واشتبك معه فى معركة شديدة ، ثم ارتد إلى المدينة ، وامتنع بها ، فضرب ابن مردنيش الحصار حول قرطبة ، ولبث يرقب فرصة الاستيلاء عليها ، ولكن ابن يكيت ، وقاضى المدينة أخيل ابن إدريس لجآ إلى حيلة أو خدعة حربية ، فكتبا على لسان سيدراى بن وزير إلى ابن مردنيش كتابا ، وبعثا به إلى ابن مردنيش ، على يد رسول متنكر فى صفة زيات من أهل الشرق ، وفيه يحث ابن وزير ، ابن مردنيش ، بأن يسرع بالإقلاع عن قرطبة ، والسير إلى إشبيلية لأنها دون دفاع . فآمن ابن مردنيش بالخدعة وبادر فى الحال بالسير إلى إشبيلية ، وسبقه من قرطبة جاسوس موحدى إلى إشبيلية ، فأخطر ولاة الأمر بما حدث ، واعتقد هؤلاء فى صحة مانسب إلى ابن وزير ، فقبض عليه واعتقل . ووصل ابن مردنيش بقواته إلى إشبيلية ، ونزل بظاهرها بموضع يعرف بألفونت ، ونازلها ببعض قواته حتى وصل إلى باب قرمونة فى شمالها الشرقى ، وأقام أمامها ثلاثة أيام ، وقد شاع الاضطراب فى المدينة ، وتوجس الناس شراً ، وأبدى واليها السيد أبو يعقوب منتهى الحزم واليقظة فى الدفاع عن المدينة ، بمعاونة الأشياخ والطلبة والحفاظ الموحدين ، ومعهم طائفة من جند الأندلس بقيادة أبى العلاء بن عزون صاحب شريش ، وكان أشياخ إشبيلية وأعيانها يسهرون طول الليل فوق الأسوار ، ويحرصون كل الحرص على ثقاف أبواب المدينة . واتخذ الموحدون داخل المدينة اجراءات صارمة ، فقتلوا عدداً ممن لحقت بهم ريبة الغدر ، واعتقلوا الكثير من الناس . وأدرك ابن مردنيش أمام ذلك كله ، أنه قد خدع بما جاء فى الخطاب المزور ، وأن إشبيلية ليست بغية هينة ، فغادرها وارتد على عقبيه ، دون أن يفوز بطائل .

ووقعت هذه الأحداث التى نستقيها من رواية كاتب معاصر ، وشاهد عيان ، هو عبد الملك بن صاحب الصلاة ، مؤرخ الدولة الموحدية[١] ، فى سنة ٥٥٤ هـ (١١٥٩ م) .

بيد أنه لم تمض بضعة أشهر أخرى حتى عاد ابن مردنيش إلى مهاجمة الموحدين ، فبعث جيشاً (فى أوائل سنة ٥٥٥ هـ) تحت إمرة قائده وصهره إبراهيم بن هَمُشك ، فسار إلى قرطبة واجتاح أراضيها ، وانتسف زروعها ، ونازلها وقتاً ، ثم أقلع عنها ، ورتب كمائنه على مقربة منها فى قرية تسمى « أطابة » ، فخرج الموحدون من قرطبة بقيادة واليها عبد الرحمن بن يكيت لاستطلاع الأحوال ، فخرجت عليهم كمائن ابن همشك ، وأثخنت فيهم ، وقتل ابن يكيت فيمن قتل ، وارتد الموحدون إلى المدينة فاعتصموا بها . وسار ابن همشك بعد ذلك فى قواته إلى مدينة قَرْمونة ، وهى حصن إشبيلية من الشمال الشرقى ، فهاجمها ، واستولى عليها بمعاونة زعيم من زعمائها يدعى عبد الله بن شراحيل وذلك فى شهر ربيع الأول سنة ٥٥٥ هـ (مارس ١١٦٠ م) . وامتنع الموحدون الذين بها بقصبتها . ولما وقف السيد أبو يعقوب والى إشبيلية على ذلك ، وكان على أهبة السفر لملاقاة والده الخليفة ، بادر فارسل عسكراً إلى قرمونة لإنجاد حاميتها ، وانتظر حيناً يرقب الحوادث[٢] .

وفى خلال ذلك ، وعقب اتمام فتح المهدية ، وقع فى المعسكر الموحدى حادث يتصل بصميم الشئون الموحدية الداخلية ، وهو مصرع الوزير محمد ابن عبد السلام الكومى . ويبدو من أقوال ابن صاحب الصلاة ، أن عبد المؤمن ندب هذا الوزير لخدمته فى شهر شوال سنة ٥٥٣ هـ ، عند خروجه إلى غزو إفريقية وافتتاح المهدية[٣] . ولكنا قد رأينا مما تقدم ، أن هذا الوزير قد لعب وفقاً لرواية ابن عذارى وابن الخطيب[٤] ، دوراً كبيراً فى مصرع الوزير

---

(١) فى كتابه « تاريخ المن بالإمامة على المستضعفين ، بأن جعلهم الله أئمة ، وجعلهم الوارثين » ، (السفر الثانى) وهو المخطوط الذى سبق التعريف به فى بيان المصادر لوحة ٢ ا و ب . وسوف يكون هذا المخطوط منذ الآن فصاعدا من أثمن مصادرنا . وراجع أيضاً البيان المغرب — القسم الثالث — ص ٤٠ .

(٢) تاريخ المن بالإمامة على المستضعفين — المخطوط سالف الذكر لوحة (٥ و ١٤) ، والبيان المغرب القسم الثالث ص ٤٣ و ٤٥ .

(٣) تاريخ المن بالإمامة — المخطوط السابق ذكره (لوحة ٢٠ ا) .

(٤) البيان المغرب — القسم الثالث — ص ٣٥ ، والإحاطة (١٩٥٦) ج ١ ص ٢٧٣ .

ابن عطية ، وأنه فى الوقت الذى كان فيه ابن عطية ، يقوم بمهمته فى الأندلس ، كان ابن عبد السلام ، يتولى الوزارة ، ويتزعم خصوم ابن عطية ، فى مطاردته ، وتدبير الوسائل الكفيلة بسحقه ، وأنه لما عاد ابن عطية من الأندلس مسرعاً لمناهضة سعى خصومه ، انتهى الأمر باعتقاله ، ثم إعدامه مع أخيه وذلك فى شهر صفر سنة ٥٥٣ هـ . وإذن فمن المرجح أن يكون ابن عبد السلام ، قد تولى الوزارة لعبد المؤمن قبل هذا التاريخ ببضعة أشهر . وعلى أى حال ، فقد شاء القدر أن يلقى ابن عبد السلام نفس المصير الذى لقيه زميله ابن عطية . وذلك أنه لما خرج عبد المؤمن إلى غزوة المهدية ، وعرج فى طريقه على سلا ، كان ابن عبد السلام فى ركابه ، فوجهه عبد المؤمن إلى الأندلس ليستطلع أحوالها بسرعة . فسار الوزير إلى إشبيلية ، ثم إلى قرطبة وغرناطة ، وتفقد أحوالها ، وأبلغ إلى الأشياخ والطلبة ماكان لديه من الأوامر والتوجيهات ثم عاد إلى الخليفة ، وكان ما يزال بمحلته فى سلا ، وأبلغه نتيجة مهمته . ثم تحرك عبد المؤمن إلى تلمسان ، واستدعى معه واليها وهو ولده السيد أبو حفص ، ثم سار إلى بجاية ، واستدعى معه كذلك واليها ، وهو ولده السيد أبو محمد عبد الله . وكان الوزير ابن عبد السلام ، عندئذ فى ذروة سلطانه ونفوذه يهيمن على سائر الشئون ، ويراقب أحوال السادة أبناء الخليفة ، وينقل أخبارهم إليه ، فكان مما نقل إليه أنهم يشربون الخمر ، ويعكفون على اللهو ، ويأتون فعالا قبيحة ، فتأثر الخليفة لذلك ، وعهد إلى بعض أشياخ الموحدين بتحقيق هذا الأمر ، فقاموا بالمهمة ، وراقبوا السادة ، وانتهوا إلى التحقق من بطلان التهم الموجهة إليهم ، فأدرك عبد المؤمن عندئذ تحامل وزيره ، وأسرها له . ولما حدث أثناء حصار المهدية من زحف الموحدين على قابس ، كان ابن عبد السلام ، على رأس الجيش المهاجم . فلما افتتحها الموحدون ، استأثر الوزير بجمع الأسلاب والغنائم والأموال ، واحتجز وأخفى منها ما شاء . وفى أثناء غيبته تكلم أشياخ الموحدين فى حقه ، وشكوا من استعلائه عليهم ، ورغبوا إلى الخليفة أن يكون ابنه أبا حفص ، هو صلة الوصل بينه وبينهم ، فاستجاب الخليفة إلى رغبتهم . ولما تم فتح المهدية ، وتمزيق طوائف العرب فى إفريقية ، ارتد عبد المؤمن فى قواته إلى تلمسان ومعه وزيره ابن عبد السلام . وهناك ارتفعت الشكوى للخليفة من عمال ابن عبد السلام ، وظلمهم ، وتعديهم على الرعية ، ومن قرابته كوميه ، وتجرئهم على سلب

الأموال ، ومضاعفة الجباية ، وغير ذلك من المظالم الفادحة بممالأة ابن عبد السلام وتشجيعه ، وحمايته ، فأمر الخليفة بجمع المتظلمين وأشياخ الموحدين وطلبة الحضر والقاضى ، لسماع أقوالهم ، فأفاضوا فى التظلم والشكوى ، وكرروا اتهاماتهم ، ونقلت أقوالهم إلى عبد المؤمن ، فأبدى دهشته مما يحدث ، ومن كثرة الأموال التى تجمع ، وكونها لاتصل إليه ، وقلة ما بيده منها ، وعجزه عن أن يمد أجناده الموحدين بالعطاء المجزى ، هذا مع أن لمتونة التى لم تكن تملك مثل إمبراطوريته الشاسعة ، كانت بالنسبة لأجنادها أكثر بذلا وإنصافاً . وغادر الخليفة مجلسه مغضباً ، وكان ابن عبد السلام حاضراً ذلك المجلس ، فتوجس شراً ، ولم يأت ظهر ذلك اليوم حتى تحققت مخاوفه ، وقبض عليه فى مجلسه ، وسيق إلى المطبق . ولما غادر الخليفة تلمسان ، أوعز بقتل ابن عبد السلام ، فقدم إليه طعام مسموم توفى عقب تناوله ، وكفّر بذلك عما أثم به فى حق زميله الوزير ابن عطية ، وكان ذلك فيما يرجح فى أواسط سنة ٥٥٥ هـ (١١٦٠ م)[١] .

وكان من الأعمال البارزة التى قام بها عبد المؤمن ، عقب افتتاح المهدية ، وتوطد سلطانه فى سائر نواحى إفريقية والمغرب ، البدء بتكسير الإمبراطورية الموحدية أعنى مسحها من برقة إلى السوس الأقصى ، ومن شاطىء البحر المتوسط إلى مشارف الصحراء ، على أن يسقط من التكسير الثلث فى الجبال والوهاد والأنهار والسبخات والطرق ، ومابقى يفرض عليه الخراج ، وأن تلزم كل قبيلة بأداء قسطها من الزرع والوِرْق أى المال ، وكان عبد المؤمن هو أول من قام بمثل هذا الإجراء من ملوك المغرب[٢] .

— ٢ —

وهكذا شعر عبد المؤمن بعد افتتاح المهدية ، واستكمال سيادة الموحدين على سائر نواحى إفريقية ، أن الأندلس تتطلب مزيداً من عنايته واهتمامه . ولم ينس أن الحركة التى قام بها ابن مردنيش بالاستيلاء على جيان ، وتهديد قرطبة وإشبيلية ، قد تتفاقم وتقضى على سيادة الموحدين الفتية فى شبه الجزيرة . ومن ثم فقد حزم أمره على أن يعبر البحر إلى الأندلس ، لينظر فى شئونها ، ولينظم وسائل الدفاع عنها .

---

(١) كتاب المن بالإمامة على المستضعفين — المخطوط المشار إليه لوحة ١٢٢ ا ، والبيان المغرب القسم الثالث — ص ٤٣ و ٤٤ .

(٢) روض القرطاس ص ١٢٩ .

وكان عبد المؤمن عقب افتتاح المهدية ، قد أرسل إلى الأندلس كتبه بالفتح ، وفى مقدمتها كتابه إلى ولده السيد أبى يعقوب والى إشبيلية ، وفيه يشرح حوادث الفتح ، وما وقع من إجلاء النصارى ، وماقام به العرب ، من ضروب التمرد والمقاومة ، ثم يقرنه بقصيدة يوردها لنا ابن صاحب الصلاة ومما جاء فيها :

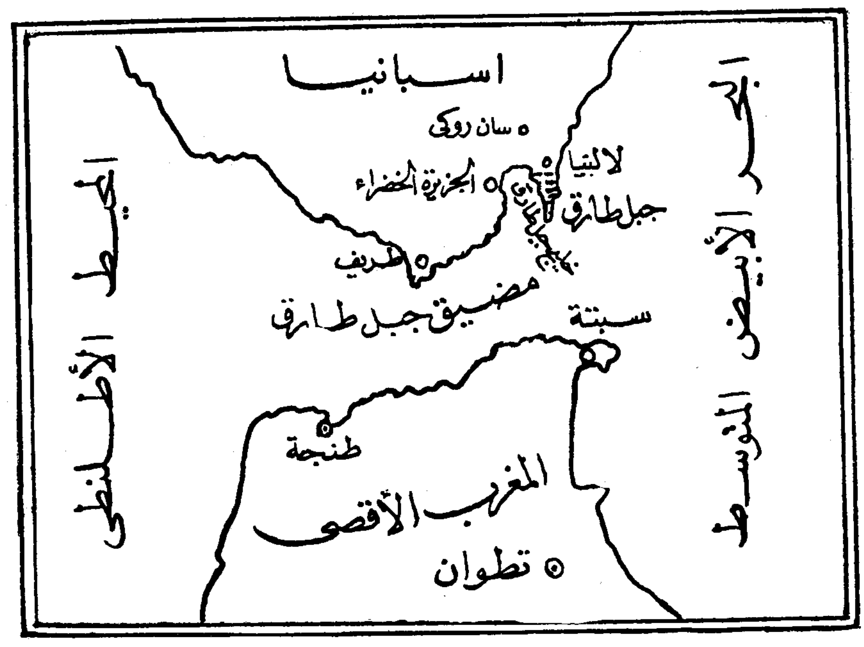
ولما قضـــينا بالمشـــارق أمرنا	وتم مراد الله فى كل مطلب
وأشرقت الشمس المنيرة فوقنـا	وأصبح وجه الجو غير محجب
وطهر هذا الصقع من كل كافر	وعاد به الإســـلام بعد تغيب
وكسرت الصلبان فى كل بيعـة	ونادى منادى الحق فى كل مرقب
أشرنا بأعناق المطى إليـــكم	فطار بها شأو السرور بمغرب

ووصل كتاب عبد المؤمن بالفتح إلى إشبيلية فى صفر سنة ٥٥٥ ؛ ويقول لنا ابن صاحب الصلاة ، إن السيد أبا يعقوب أمر أن يكتبه الناس والطلبة ، وأن يحفظوه ، وأن يتلى من فوق المنابر ،وأمر كذلك بقرع الطبول ، وإقامة المآدب للأجناد والناس كافة ، واستمر قرع الطبول ، والإطعام ثلاثين يوما ، والبشر يعم أنحاء المدينة ، والشعراء ينشدون قصائدهم بالتهنئة ، فى مختلف المناسبات والمواطن(١) .

ولم يكدر صفو هذا البشر الشامل ، سوى ماوقع فى هذه الآونة بالذات من منازلة ابن همشك لقرطبة ، ومصرع واليها ابن يكيت ، ومحاصرة قصبة قرمونة ، ومن ثم فقد كان رد السيد أبى يعقوب على كتاب الفتح ، يتضمن شرحاً لهذه الحوادث ، وتضرعاً إلى والده الخليفة ، بأن يعجل بالإنجاد والغوث.

وكانت خطة عبد المؤمن لتنظيم شئون الأندلس وإتمام فتحها ، وإذكاء حركة الجهاد بها ، تتضمن فضلا عن مضاعفة البعوث العسكرية إلى شبه الجزيرة ، تحصين قاعدة جبل طارق ، وإنشاء مدينة كبرى بها . ومن حسن الحظ أننا نجد أدق شرح وأوفى تفصيل لهذا المشروع الضخم ، فى رواية بن صاحب الصلاة ، وقد كان فضلا عن اطلاعه على الكتب والوثائق المتعلقة بذلك ، شاهد عيان وثيق الصلة ببلاط الخليفة ، وبالسيد أبى يعقوب والى إشبيلية ، والسيد أبى سعيد والى غرناطة ، وهما اللذان عنيا بتنفيذ المشروع . وبالرغم من أنه يقرن روايته فى معظم

(١) كتاب المن بالإمامة على المستضعفين — المخطوط السالف الذكر ، لوحة ٢٥ .



جبل طارق والمضيق

الأحيان ، بكثير من عبارات الدعاء والتبجيل والملق ، التى تفصح عن طبيعة علائقه بالبلاط الموحدى ، فإنه يقدم إلينا فى نفس الوقت كثيراً من المعلومات والتفاصيل النفسية ، التى لاتوجد فى أى مصدر آخر .

أرسل السيد أبو يعقوب رسالة بطلب الإنجاد إلى والده الخليفة ، وإشبيلية تسودها ريح التوجس والقلق ، فسرعان ما وصل رد الخليفة من معسكره المظفر ، على مقربة من قسنطينة ، بتاريخ ربيع الأول سنة ٥٥٥ ﻫ « يعرف فيه بصحيح الآيات ، وما ثنى فيه من أعنة خيل الله لهذه الأصقاع ، وحماية ذلك الجناب » ، فأطمأن الموحدون لما وعد به الخليفة ، من سريع العون وبالغه ، واستبشروا بالنصر القريب ، وقرىء كتاب الخليفة على المنابر ، وساد البشر بين الناس .

ووصل فى نفس الوقت كتاب آخر من الخليفة ، مؤرخ فى التاسع من ربيع الأول من نفس العام ، ومتضمن « للأمر العزيز » ، بإنشاء مدينة كبرى فى جبل طارق ، ذلك الجبل الذى يصفه ابن صاحب الصلاة « بالجبل الميمون القديم البركة ، على جزيرة الأندلس السامق الشاهق ، المفتتح منه دانيها وقاصيها ، وطايعها وعاصيها » ، ولتكون هذه المدينة منزلا للأمير عند إجازته بالعساكر ، ومستقراً تتقدم منه « الرايات المظفرة ، والأعلام المنشورة إلى بلاد الروم » . وكان الكتاب

يتضمن أمراً مشدداً من الخليفة إلى ولده السيد أبى سعيد عثمان والى غرناطة ، بأن يسير بنفسه من غرناطة مع صحبه وبعض عسكره إلى جبل طارق ، وأن يجتمع فيه بالطلبة الوافدين من إشبيلية ، وبالشيخ أبى حفص عمر ، وأبى إسحق برّاز ابن محمد ، والحاج يعيش المالقى ، والقائد عبد الله بن جيار ، وأن يدرس الجميع خطط المدينة الجديدة ، وأين يكون موقعها من الجبل . فصدع السيد أبو سعيد بأمر الخليفة ونهض فى صحبه إلى جبل طارق ، للعمل على تنفيذ الخطة المطلوبة ، وطُلب فى الكتاب إلى السيد أبى يعقوب والى إشبيلية أن يحشد جميع العمال البنائين والجيارين والنجارين والعرفاء ، من جميع بلاد الأندلس التى تحت نظر الموحدين ، وأن يعجلوا بالسير إلى الجبل ، لتنفيذ الأمر الكريم ، فنهض السيد أبو يعقوب بما طلب إليه ، وسار من إشبيلية العريف أحمد بن باسُه ، ومعه حشد كبير من العمال من بنائين وغيرهم من مختلف الحرف إلى جبل طارق ، ووصل إليه فى نفس الوقت جمهرة من القواد والكتاب وأهل الحساب ، لتنظيم النفقة على الأعمال المطلوبة ، ورصدها ، وتم ذلك كله فى سرعة ونظام وحزم .

قال ابن صاحب الصلاة : « وابتدأوا البناء فى الموضع الذى وقع الجميع عليه ، والاتفاق من نواحيه ، بسيف البحر ، مما يلاصقه ويليه ، وزادت الآمال بأهل الأندلس إلى ماتقدم إليهم من الأمل ، وتحققوا اليمن والسعد والفتح فى بنيان هذا الجبل ، وكان من اشغال السيد الأعلى أبى يعقوب بإشبيلية فى إزعاج الفعلة والرجال للبناء المذكور ، وأحكم البناءون فيه بناء من القصور المشيدة والديار ، واخترعوا فى أسسها طيقاناً وحنايا ، لتعتدل بها الأرض ، مبنية بالحجر المنجور والجيار ، بما هو عجيب فى الآثار . . وهذا شريف البقعة كريم التربة ، عظيم المنعة ، باسق مع أعشار السماء ، تكاد فى المسامتة إلى الجوزاء ، وكل ما استودع فى أرضه من البطحة المنبسطة ، من بعضه ، مما زكى وفضل وجل ، وأثمر عن قرب لغرسه وأكمل ، وأستقل من جميع الفواكه ، كشجر التين والعنب والتفاح والكمثرى والسفرجل والمشموم والأجاص والأترج والجوز وغير ذلك ، على ضيق صفته المد دة كالجبل ، المستمدة من الظل والوبل ، وماؤه عذب زلال ، مروق سلسال . وكان الحاج يعيش المهندس مدة إقامته للبناء على ما ذكرته فيه ، فوضع فى أعلاه رحى تطحن الأقوات بالريح ، عاينها الثقات مدة البناء المذكور ، فلما رجع إلى مراكش عند إكمال ما أمر به فسدت الرحى ، لعدم الاهتبال بها ،

واتصل بهذا العمل من بناء الدور القصور ، بناء السور والباب المسمى بباب الفتوح فى الفرجة التى كان يدخل منها إلى الجبل ، بين البحر المحدق به من كلا جانبيه ، فجاء فرداً فى المعاقل التى لايتمكن اطامع فيه طمع ، ولا يخطر على خاطر ساكنه جزع ، من بر ولا بحر »[1] .

واستمر العمل شهوراً بهمة مضاعفة ، والسيد أبو يعقوب والى إشبيلية ، يشرف على تنفيذ أوامر الخليفة ، دون هوادة ولا كلل ، والمهندسون والعرفاء ، والعمال من كل ضرب ، يبذلون أقصى جهدهم فى إتمام المشروع ، حتى كمل على أحسن وجه ، وتم بناء المدينة الجديدة فى شهر ذى القعدة سنة ٥٥٥ هـ (ديسمبر سنة ١١٦٠ م) وابتنى بها جامع ، وقصر للخليفة ، ودور لأبنائه وحاشيته ، وغُرست الحدائق على طولها حذاء البحر ، وجُلب إليها الماء العذب ، وجدد الحصن والأسوار القديمة ، وعنى بتحصين الصخرة ، أكمل عناية ، وسمى الجبل بأمر الخليفة جبل الفتح أومدينة الفتح ، وكانت المراسلات أثناء ذلك تتردد بين السيد أبى يعقوب ووالده الخليفة ، بتحديد موعد عبوره ، واستعداداً للاحتفال بهـذا الحادث الجلل . وكان السيد أبو يعقوب يعتزم العبور إلى المغرب ، وليعاين أثناء مسيره ماتم من الأعمال فى جبل طارق ، ولكنه ما كاد يركب السفينة التى أعدت بالنهر لعبوره ، حتى وصلته أبناء استيلاء ابن همشك على قرمونة ، وامتناع حاميتها الموحدية بالقصبة ، فارتد من فوره إلى المدينة ، وقد اضطربت بها الأحوال ، ووجه فرقة من العسكر لإنجاد الحامية ، ومقاتلة أهل قرمونة ، وكان ذلك حسبما تقدم ، فى شهر ربيع الأول سنة ٥٥٥ هـ (مارس سنة ١١٦٠م) ، وهو الشهر الذى وصلت فيه رسالة الخليفة بإنشاء مدينة جبل طارق .

— ٣ —

وكان عبد المؤمن يرتقب إتمام المدينة الجديدة بجبل طارق ، ليعبر إلى شبه الجزيرة ، فلما كملت ، وكان عندئذ فى أحواز فاس ، سار إلى سبتة فى جموع ضخمة من الموحدين والعرب من بنى رياح ، وبنى جشم ، وبنى عدى وغيرهم. ويصف لنا ابن صاحب الصلاة مناظر احتشاد الناس على الشاطىء لرؤية موكب الخليفة ، وجيشه فى ذلك اليوم المشهود ، فى قوله : « وبرز إليه يوم إجازته

---

(١) كتاب المن بالإمامة على المستضعفين — المخطوط السالف الذكر لوحة ١٣ و ١٤ .

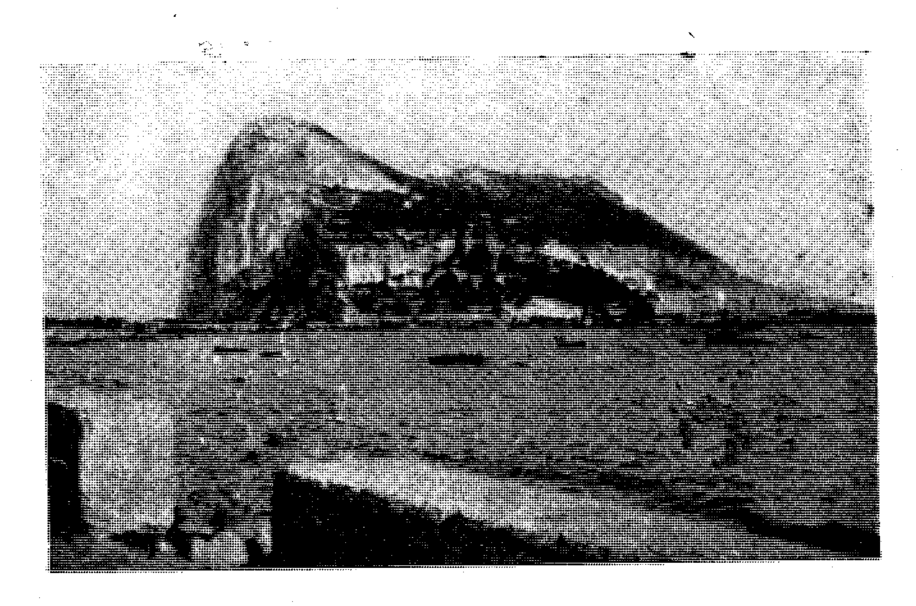
البحر من الناس ، النظارة على سيف البحر عالم لايحصيهم إلا خالقهم . وكان يوماً مذكوراً مشهوداً ، ظهر فيه من فخامة الملك والأمر ، ما لم يتقدم فى سالف الأزمان ، ولاتخيل مرآه فى الأذهان » .

وكان عبور عبد المؤمن إلى شبه الجزيرة ، ونزوله فى جبل طارق ، فى شهر ذى القعدة سنة ٥٥٥ هـ (يناير سنة ١١٦١ م) . وكان فى استقباله فى الجبل ، ولداه السيد أبو يعقوب والى إشبيلية ، وقد غادرها مع وفد كبير من أشياخ الموحدين ، ورؤساء الأندلس وقادتها وعلى رأسهم أبو العلاء بن عزون ، وأعيان إشبيلية وشيوخها وقاضيها أبو بكر الغافقى ، وكبير علمائها الحافظ أبو بكر ابن الجد ، وسائر من بها من الكبراء والشعراء ؛ والسيد أبو سعيد والى غرناطة ، مع من بها من أشياخ الموحدين والحفاظ ، وأكابر غرناطة وعلماؤها ؛ وكذلك أعيان قرطبة وعلمائوها ، وأعيان غرب الأندلس وعلماؤها ، وأعيان مالقة ورندة ، وشريش ، وعلى الجملة سائر أعيان الأندلس الموحدية وكبراؤها ، وعلماؤها وأدباؤها وشعراؤها . وندب عبد المؤمن ولده وزيره السيد أبا حفص لكى يتولى أمر الوفود ، ويقودها إلى مجلسه للسلام وتجديد البيعة ، فأدخلوا بترتيب معين ، وأدوا التحية للخليفة الموحدى ، وأكدوا له البيعة والطاعة ، وكان القضاة يتقدمون الوفود . وتعاقب الخطباء بين يدى الخليفة ، فخطب أبو الحسين ابن الإشبيلى وصاحبه أبو محمد بن جبل ، وأبو محمد المالقى وغيرهم ، وكانت خطبهم تدور كلها حول وجوب البيعة ، وما يوجبه الشرع من العهود والرسوم ، والوفاء بالطاعة لولى الأمر ، ثم أذن لهم « بتقبيل اليد المباركة »[1] .

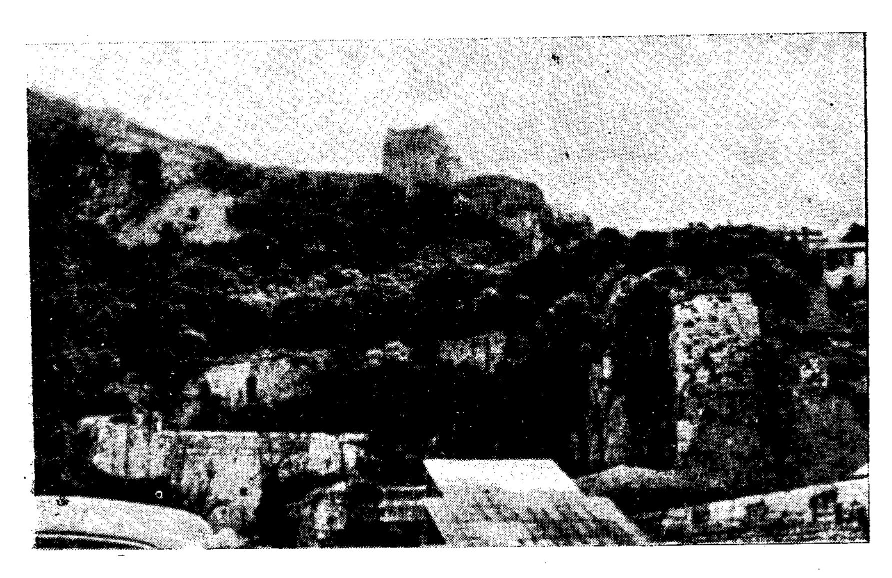
وجاء بعد ذلك دور الشعر ، فأمر عبد المؤمن باستدعاء الشعراء ، ولم يكن يستدعيهم قبل ذلك اليوم ، إنما كانوا يستأذنون فيؤذن لهم . وكان يوماً عظيما من أيام الشعر والشعراء . وكان بين هذه الوفود الحاشدة ، عدة من أقطاب الشعر بالمغرب والأندلس ، ذكر لنا ابن صاحب الصلاة ، وصاحب المعجب أسماءهم ، فكان منهم شاعر المغرب أبو عبد الله محمد بن حبوس من أهل فاس ، والوزير الكاتب أبو عبد الله محمد بن غالب البلنسى المعروف بالرُّصافى ، نزيل مالقة ، وأحمد بن عبد الملك بن سعيد العنسى ، والقرشى القرطبى المعروف بالطليق ، وأبو الحسن عبيد الله محمد بن صاحب الصلاة الباجى ، وأبو بكر

---

(١) كتاب المن بالإمامة على المستضعفين — المخطوط — لوحة ١٥ و١٦ .



منظر جبل طارق من البر الإسبانى (من الجزيرة الخضراء)



بقايا الحصن الأندلسى قائمة فوق سطح صخرة طارق

ابن المنخل الشلبي ، وابن سيد الإشبيلى المعروف باللص وغيرهم .

وكان أول من أنشد شعره بين يدى الخليفة ، أبو عبد الله بن حبوس ، وهو الذى يشبهه صاحب المعجب فى طريقته بابن هانىء الأندلسى فى تخير الألفاظ الرائعة ، فأنشد قصيدة هذا مطلعها :

بلغ الزمان بكم ما أمـــلا وتعلمت أيامه أن تعـــدلا
وبحسبه ان كان شيئا قابـــلا وجد الهداية صورة فتشـكلا

وأنشد القرشى المعروف بالطليق قصيدة مطلعها :

ما للعدى جنة أوقى من الهرب كيف المفر وخيل الله فى الطلب
لو بدلوا قد مازلت بقـادمه لأصبح الكل طياراً من الرعب

وأنشد أبو الحسن عبيد الله بن صاحب الصلاة الباجى قصيدة هذا أولها :

تلألأ من نور الخلافة بارق أضاءت به الآفاق والليل غاسق
وأشرقت الدنيـا به فكأنهـــا من البشر فى كل الجهات مشارق
بسعدك يبرى السيف ما عز قطعه وينفذ حد السهم ماهو راتق
ولازال أمر الله للدين هادياً وأنت لدين الكفر ماح وماحـق

وأنشد الوزير الكاتب الشاعر أبو عبد الله محمد بن غالب الرصافى البلنسى قصيدة طويلة فى نيف وستين بيتاً هذا مطلعها :

لوجئت نار الهدى من جانب الطور قبست ماشئت من علم ومن نور
من كل زهراء لم ترفع ذوائبها ليلا لسارٍ ولم تثبت لمغرور
فيضية القدح من نور النبوة أو نور الهداية تجلـو ظلمة الزور

ومنها وصف مدينة الجبل :

يا دار دار أمير المؤمنين بسـف ح الطود طود الهدى بوركت فى الدور
ذات العمـادين من عز ومملـكة على الأساسين من قدس وتطهير
ماكان يأتيك الوانى الكرامة عن قصر على مجمع البحرين مقصور

وفى وصف الجبل :

لله ما جبل المفتحين من جبـــل معظم القدر فى الأجيال مذكور
من شامخ القدر فى سحنائه طاس له من القيم جيب غير مزرور

معبراً بذراه عن ذرى مـلك مستمطر الكف والأكناف ممطور
تمشى النجوم على أكليل مفرقه فى الحو حائمة مثـل الدنانير[١]

بيد أنه قد ظهر فى هذا اليوم ، إلى جانب أكابر الشعراء ، شاعر حدَث ، لم يبلغ العشرين من عمره ، هو أبو جعفر أحمد بن عبد الملك بن سعيد العنسى ، سليل بنى سعيد أصحاب قلعة يحصب من أعمال غرناطة[٢] ، وكان قد حضر إلى جبل طارق مع أبيه وإخوته وقومه ضمن وفد غرناطة ، ومثل بين يدى الخليفة ضمن الشعراء . ولما جاء دوره ، أنشد قصيدة لفتت الأنظار بروعتها ، وكانت فاتحة مجده الشعرى ، وقد نقل إلينا ابن الخطيب منها الأبيات الآتية :

تكلم فقد أصغى إلى قولك الدهر وما لسواك اليـوم نهى ولا أمر
ورُمْ كل ما قد شئته فهو كائن وحاول فلا برٌّ يفـوت ولا بحر
وحسبك هذا البحر فألاً فإنه يقبـِّل تُرْباً داسه جيشُك الغَمْرْ
وما صـوته إلّا سلام مردّد عليك وعن بِشْرٍ بقربك يفترُّ
بجيش لكى يلقى أمامك مَنْ غدَا يُعاند أمراً لا يقوم له أمر
أطلّ على أرض الجزيرة سعدُها وجدّد فيها ذلك الخبَرَ الخُبْرُ
فما طـارقٌ إلا لذلك مُطرق ولابن نُصير لم يكن ذلك النصـر
هما مهّداها لكى تحُل بأرضها كما حلّ عند التمِّ بالهالة البـدرُ

فوقعت هذه القصيدة من الخليفة أجمل موقع ، وأثنى على ناظمها الفتى ، وهنأ به والده عبد الملك . وحظى أبوجعفر هذا فيما بعد لدى السيد أبى سعيد والى غرناطة ، فاستوزره حيناً إلى أن فسد ما بينهما ، بسبب تنافسهما فى حب الشاعرة الأندلسية الجميلة حفصة بنت الحاج الرّكونى ، فقبض عليه ، واتهم بالاشتراك فى فتنة ابن مردنيش ، وأعدم وذلك فى سنة ٥٥٩ هـ[٣] .

ولبث عبد المؤمن فى جبل طارق زهاء شهرين ، وسماه « جبل الفتح » حسبما تقدم ، واستمرت إقامة الوفود والاحتفال بها ، وغمرها بالضيافات وقضاء

(١) راجع هذه القصيدة بأكملها فى المعجب للمراكشى ص١١٩ — ١٢٢ ، وفى أعمال الأعلام لابن الخطيب ص ٢٦٦ — ٢٦٨ .

(٢) وهو أحد مؤلفى كتاب « المغرب » الشهير الذى تعاقب فى تأليفه بنوسعيد ، واختتم تصنيفه ابن أخيه موسى بن محمد بن عبد الملك بن سعيد . وقلعة يحصب أوقلعة بنى سعيد هى اليوم القرية المسماة القلعة الملكية **Alcalá la Real** الواقعة شمال غرناطة .

(٣) ابن الخطيب فى الإحاطة (١٩٥٦) ج ١ ص ٢٢٣ و٢٢٥ و٢٢٦ .

الحوائج ، عشرين يوماً ، حتى ختام عيد الأضحى لسنة ٥٥٥ هـ ، وعندئذ أذن للوفود بالانصراف ، فانصرف الناس إلى مواطنهم . وكان عبد المؤمن خلال ذلك يدرس شئون الأندلس مع الأشياخ والقادة ، وينظر فى المظالم ويقضى فيها ، ويبذل لمختلف الوفود وعوده ببذل كل معونة لحماية الأندلس ومجاهدة أعدائها ، وقد خصص لإنجاد ها بالفعل جيشاً مختلطاً من الموحدين والأندلسيين قوامه ثمانية عشرة ألف فارس ، وجعل على قيادة الموحدين ابن الشرقى وعلى قيادة الأندلسيين ابن صناديد[1] ، وأعاد تعيين ولده السيد أبى يعقوب والياً لإشبيلية ، وندب لمعاونته جماعة من أشياخ الموحدين ذوى المكانة والرأى ، وولده السيد أبى سعيد والياً لغرناطة ، وندب لولاية قرطبة الشيخ أبا حفص عمر اينتى ، أو عمر ابن يحيى الهنتانى[2] . ولما فرغ من تنظيم شئون الأندلس على هذا النحو ، عبر البحر إلى سبتة ، عائداً إلى المغرب ، وذلك فى فاتحة سنة ٥٥٦ هـ (فبراير سنة ١١٦١ م) وسار توّاً الى حاضرته مراكش . وكانت هذه الفترة القصيرة التى قضاها عبد المؤمن فى جبل طارق ، أو جبل الفتح ، من مواسم الأندلس وأيامها المشهودة ، بما تخللها من روعة السلطان ، وعظائم الأمور .

— ٤ —

على أثر مغادرة الخليفة لجبل طارق ، عائداً إلى المغرب ، غادره السيد أبو سعيد إلى غرناطة ، والسيد أبو يعقوب إلى إشبيلية .

وكان الموقف ما يزال فى منطقة إشبيلية على خطورته ، وأهل قَرْمونة على تمردهم بزعامة عبد الله بن شراحيل ، ومحالفتهم لابن هَمُشْك ، ومحاصرتهم للحامية الموحدية بقصبتها ، فجهز السيد أبو يعقوب لمحاربتهم حملة من الموحدين بقيادة الشيخ أبى محمد عبدالله بن أبى حفص بن على . وسار الموحدون بقيادة ابن أبى حفص من قلعة جابر شمالا إلى قرمونة ، ومعه أبو العلاء بن عزون فى قوة من الجند الأندلسيين ، وضربوا الحصار حول قرمونة . وكان ابراهيم بن همشك ، خلال ذلك قد غادر قرمونة إلى جيان ولم يعبأ بأمرها . وضيق الموحدون على قرمونة ، وأرهقوها بالغارات المتوالية ، حتى استطاعوا التفاهم سراً مع رجل من أهلها ، على أن يفتح لهم باب البرج الأكبر ، فتم ذلك ، ودخل الموحدون

---

(١) الحلل الموشية ص ١١٨ ، والبيان المغرب — القسم الثالث ص ٤٦ .

(٢) المراكشى فى المعجب ص ١٢٤ .

قرمونة بغتة ، وذلك فى المحرم سنة ٥٥٧ هـ (ديسمبر سنة ١١٥١م)[١]، وقُبض على عبد الله بن شراحيل ، وأخذ مكبولا إلى إشبيلية مع نفر من أتباعه ، وصلبوا هنالك فى الميدان العام تحت قصر ابن عباد .

وهكذا عادت قرمونة إلى سلطان الموحدين بعد أن لبثت على خروجها نحو عامين منذ اقتحمها ابن همشك فى ربيع الأول سنة ٥٥٥ هـ .

وفى نفس الوقت وصل إلى إشبيلية ، جيش موحدى جديد ، بقيادة يوسف ابن سليمان ، فاطمأنت الخواطر ، وساد الهدوء فى إشبيلية ومنطقة الغرب كلها ، وسارت منه قوة تحمل العتاد والأقوات إلى قرطبة لشد أزرها ، وتقوية وسائل دفاعها[٢] .

وكان ابراهيم بن همشك ، حينما شعر بأن الجبهة الموحدية فى إشبيلية وقرطبة ، قد عززت ، وأضحى من العسير مهاجمتها ، قد اتجه وجهة أخرى ودبر خطة لمهاجمة غرناطة ، وقد كانت أقرب إلى قواعده فى جيان وهى التى عينه صهره ابن مردنيش لولايتها . ومن جهة أخرى فقد استطاع ابن همشك ، أن يتفاهم سراً مع جماعة من يهود غرناطة ، الذين أسلموا رغم إرادتهم ، ومع حليفهم المسمى ابن دهرى ، وأن يتفق معهم على أن يسهلوا له دخول المدينة فى ليلة معينة . وكانت غرناطة فى الواقع دون دفاع قوى ، وقد غادرها واليها السيد أبو سعيد إلى المغرب حسبما تقدم ، ولم تبق بها سوى الحامية الموحدية . فسار إليها ابن همشك فى بعض قواته ، وفى ليلة من ليالى جمادى الأولى سنة ٥٥٥هـ ، تمت الخيانة المدبرة ، وكسر اليهود بإيعاز ابن دهرى ، باب الربض بغرناطة ، وتنادوا بالصياح « يا للأصحاب» ، فدخل ابن همشك وأصحابه المدينة ، وفر أنصار الموحدين إلى القصبة ، وكانت تموج بمن بها من جند الموحدين . ولما رأى ابن همشك حصانة القصبة ، وقوة الحامية الموحدية ، بعث إلى صهره محمد بن سعد ابن مردنيش ، وكان عندئذ بمرسية ، يطلب إليه الإنجاد ويطمعه فى أخذ غرناطة ، فحشد ابن مردنيش قوة من جنده ، وانضمت إليهم فرقة من الجند النصارى بقيادة ألبار رودريجس الأصلع أو الأقرع حسبما تسميه الرواية العربية ، وهو حفيد القائد

---

(١) أخذنا فى تاريخ استرداد قرمونة برواية صاحب البيان المغرب (القسم الثالث ص ٤٦) . ويضع ابن صاحب الصلاة تاريخ أخذها فى أوائل سنة ٥٥٦ هـ ، وهو لا يتفق مع منطق الحوادث حيث طال حصار قرمونة نحو عام .

(٢) ابن صاحب الصلاة فى المن بالإمامة — المخطوط — لوحة ٢٤ ا و ب) .

الشهير ألبارهانيس . وسار هذا الجيش إلى غرناطة لإمداد ابن همشك . وكان ابن همشك قد نزل بالقلعة الحمراء القائمة فوق تل السبيكة فى مواجهة القصبة ، وشرع فى منازلتها ، وضربها بالمجانيق . وكان ابن همشك جبارا قاسياً ، فظاً غليظاً فى حربه ، فكان يعذب من يقع فى يده من الموحدين بأروع نكال ، ويلقيهم فى أفواه المجانيق ، ويقذفهم من الشواهق ، ويحرقهم بالنار ، ولكن الموحدين صمدوا بالقصبة ، وكانت لديهم مؤن وافرة ، وبعثوا إلى الخليفة فى طلب الإنجاد ، وكذلك إلى الموحدين فى إشبيلية . وكان الخليفة عبد المؤمن ، قد خرج كعادته من مراكش إلى سلا ، لتنظيم شئون الجهاد ، فبلغته حوادث غرناطة ، وهو فى طريقه ، فلما وصل إلى سلا بعث ولده السيد أبا سعيد فيمن معه على جناح السرعة ، وعبر السيد البحر إلى مالقة ، وبعث منها يستدعى الشيخ أبا محمد بن عبد الله ابن أبى حفص القائم على ولاية إشبيلية ليوافيه عند غرناطة ، بجيش إشبيلية . واجتمعت القوات الموحدية ، فى فحص غرناطة[1] وتقدمت حتى الموضع المسمى « بمرج الرقاد » على قيد أربعة أميال من غرناطة[2] ، وعندئذ خرج لقتالها ابن همشك فى قواته وقوات مرسية من الأندلسيين والنصارى ، وكانت تبلغ ألنى فارس . وليس فى رواية ابن صاحب الصلاة مايدل على أن ابن مردنيش قد اشترك فى الموقعة التى تلت ، ولكن ابن الخطيب يقول لنا إن ابن مردنيش قد مثل بنفسه فى الموقعة ، وكانت محلته قائمة فوق الربوة العالية المتصلة بربض البيّازين ، وهى التى عرفت فيما بعد بكدية ابن مردنيش[3] . واضطرم القتال فى الحال بين الفريقين ، وسرعان ما ظهر تفوق ابن همشك وحلفائه النصارى ، فاختل نظام القوات الموحدية ودارت عليها الدائرة ، وكثر القتل فيهم ، وغرق منهم فى سواقى المرج ومياهه عدد جم ، وكان بين القتلى الشيخ أبو محمد عبد الله ابن أبى حفص والى إشبيلية ، وعدة من أشياخ الموحدين ، وأكابر الأندلسيين . وفر السيد أبو سعيد فى نفر من صحبه إلى مالقة . وكانت نكبة موحدية بالغة الخطورة . وارتد ابن همشك فى قواته المظفرة إلى القلعة الحمراء ، ومعه جملة من أسرى الموحدين أفحش فى تعذيبهم ، والتنكيل بهم ، وازهاقهم بمرأى

---

(١) وهو المرج أو مرج غرناطة الشهير La Vega .

(٢) كان هذا الاسم يطلق على موضع يقع على بضعة كيلومترات من قرية الطرف Atarfe فى سفح جبل إلبيرة على مقربة من نهر شنيل ويطلق عليه اليوم اسم Majorrocal

(٣) الإحاطة ج ٢ ص ٨٩ .

من إخوانهم المحصورين ، وقد استمروا على حالهم من الاعتصام بالقصبة .

ووصلت أنباء هذه النكبة إلى عبد المؤمن ، وهو مايزال بسلا ، وكانت الجيوش قد توافدت عليه فى تلك الأثناء ، فجهز جيشاً منتخباً من أنجاد الفرسان والجند ، يضم زهاء عشرين ألف مقاتل ، وجمهرة من أشياخ الموحدين[1] تحت إمرة ولده السيد أبى يعقوب يوسف ، ومعه الشيخ أبو يعقوب يوسف ابن سليمان ، زعيم أشياخ الموحدين ، ومستشار عبد المؤمن الأثير فى العظائم والخطوب ، وهو الذى يصفه ابن الخطيب « بزعيم وقته وداهية زمانه » . وعبر هذا الجيش الموحدى البحر إلى الجزيرة الخضراء ، ثم سار إلى مالقة حيث انضم إليه السيد أبو سعيد فيمن معه ، وزود بالعلوفات والمؤن الكافية ، وخرج الموحدون بعد ذلك من مالقة ، وساروا إلى غرناطة . وكان ابن مردنيش قد وقف على تلك الأهبة الموحدية الضخمة ، فسار فى قواته ، ومعه فرقة من حلفائه النصارى لإنجاد صهره ابن همشك ، ونزل فوق الجبل المتصل بقصبة غرناطة على الضفة الأخرى لنهر حدرُّه ، وبقى ابن همشك بقواته بالقصبة الحمراء فوق جبل السبيكة ، ومعه حلفاؤه النصارى تحت إمرة قائدهم ألبار ردريجس الأصلع حفيد ألبارهانيس ، ومعه ابن كونت أورقلة (أرخل) وهم يبلغون نحو ثمانية آلاف مقاتل ، وكان نهر حدرُّه يفصل بين محلة ابن همشك ومحلة صهره ابن مردنيش . واستمر الموحدون فى سيرهم حتى وصلوا إلى قرية دلر على مقربة من غرناطة ، ثم صعدوا إلى الجبل المطل على وادى شنّيل ، قبالة جبل السبيكة والحمراء . وفى يوم الخميس السابع والعشرين من شهر رجب سنة ٥٥٧ ﻫ (١٢ يوليه سنة ١١٦٢ م) جمع يوسف بن سليمان قائد الجيش الموحدى أشياخ الموحدين ، وأشياخ الأجناد ، من مختلف القبائل ، ووعظهم وذكرهم بأن الجنة مثوى المجاهدين ، وحثهم على التفانى فى سبيل الله . وفى مساء هذا اليوم ركب الموحدون خيولهم ، وساروا فوق الجبل وأمامهم المشاة والطلائع من المصامدة ، وعلى ناصية ضفة شنيل المحاذية للسبيكة ، وكانت ليلة منيرة صافية الأديم ، وعند الفجر وصلوا إلى مقربة من محلات ابن همشك وحلفائه النصارى فوق جبل السبيكة ، وفى الحال انقض الموحدون على أعدائهم على غرة ، قبل أن يتم استعدادهم ، بل وقبل أن يركب معظمهم خيولهم ، واضطرمت بين الفريقين

---

(١) ابن الأثير ج ١١ ص ١٠٦ .

موقعة عنيفة هائلة ، وأبلى الموحدون فى قتال ابن همشك وحلفائه النصارى أعظم البلاء ، وقتلوا منهم جموعاً غفيرة ، ولم يأت الصباح ، حتى مزق الموحدون أعداءهم تمزيقاً وشتتوا فى كل ناحية . وقتل معظم قادتهم ، وفى مقدمتهم ألبار ردريجس الأصلع وزميله ولد كونت أورقلة ، ورفعت رأس الأصلع بعد أيام بمدينة قرطبة على باب القنطرة ، وقتل كذلك معظم القادة الأندلسيين ، ومنهم ابن عبيد صهر ابن مردنيش . وكان مما حز فى نفس ابن مردنيش ، وانفطر له فؤاده ، أنه لم يستطع ، وهو بقواته على الضفة الأخرى من نهر حدرُّه ، أن يبادر لإنجاد صهره ابن همشك ، فلبث يرقب تمزيق قواته جامداً ، حتى تم الظفر للموحدين ، وتمت الهزيمة الساحقة على ابن همشك . وتعرف هذه الموقعة بموقعة السبيكة . ودخل الموحدون غرناطة ظافرين ، فى ظهر ذلك اليوم — يوم الجمعة الثامن والعشرين من رجب سنة ٥٥٧ (١٣ يوليه ١١٦٢ م) ، وخرج الموحدون المحصورون من القصبة ، وقتلوا سائر خصومهم والمتحالفين مع أعدائهم من أهل غرناطة ، وارتد ابن مردنيش وابن همشك كل بقواته ، وسار الأول صوب مرسية ، وسار الثانى فى فلوله صوب جيان ، والموحدون فى أثره . وكان من أثر هذا النصر الموحدى ، أن سارعت سائر النواحى فى منطقة غرناطة ، إلى إعلان الطاعة والتوحيد . وعنى السيد أبو يعقوب يوسف والقائد يوسف بن سليمان بالنظر فى شئون غرناطة ، وإصلاح قصبتها وأسوارها ، وإثابة من كان بها من الموحدين المحصورين والإنعام عليهم . واستقرت الأمور بها ، وسادتها السكينة والهدوء[1] .

وسار الموحدون فى أثر ابن همشك إلى قاعدته جيان ، ولكنه لم يقف بها ، بل ترك أمر الدفاع عنها إلى وزيره أبى جعفر الوقَّشى ، فامتنع بها ، وحاصرها الموحدون حيناً دون جدوى ، وعاثوا فيما حولها من الأراضى ، وانتسفوا زروعها ، ودمروا قراها ، حتى أصبحت خراباً مطلقاً ، ثم غادروها عائدين إلى قواعدهم[2] .

وبعث السيد أبو يعقوب يوسف ، والقائد ابن سليمان بأنباء النصر يوم الوقيعة ، الى الخليفة عبد المؤمن ، وكان ما يزال برباط الفتح قبالة سلا ،

---

(١) نقلنا تفاصيل هذه الموقعة الكبيرة عن ابن صاحب الصلاة فى كتاب « المن بالإمامة » اللوحات ٢٩ إلى ٣٢ . ويراجع ابن الأثير ج ١١ ص ١٠٦ ، والإحاطة (١٩٥٦) ج ١ ص ٣٠٩ و ٣١٠ ، وج ٢ ص ٨٩ و ٩٠ ، والبيان المغرب القسم الثالث ص ٥٢ و ٥٣ ، وهو يلخص أقوال ابن صاحب الصلاة .

(٢) ابن الأبار فى الحلة السيراء ص ٢٣٠ .

فسر بها أيما سرور ، وصدرت أوامره فيما يتعلق بشئون الأندلس بتحقيق أمرين ، الأول أن يجعل من غرناطة وقصبتها مركز دفاع قوى ، وأن تشحن بالعتاد والأقوات ، والثانى أن ينقل مركز الحكم الموحدى بالأندلس من إشبيلية إلى قرطبة ، وأرسلت لتحقيق الأمر الأول ، من شواطىء العدوة إلى ثغر المنكب عدة سفن ، مشحونة بالأقوات والسلاح ، ونقلت حمولتها إلى غرناطة ، وزودت قصبتها من ذلك بكميات كبيرة ، وندب لتنظيم شئون الدفاع عن المدينة إلى جانب الموحدين ، عدة من الزعماء الأندلسيين الموثوق بهم من أهلها ، وكان القصد من ذلك أن تغدو غرناطة مركز الدفاع الرئيسى فى جنوبى الأندلس ، أو تغدو « سنام » الأندلس حسبما يقول ابن صاحب الصلاة .

وأما فيما يتعلق بنقل مركز الحكم إلى قرطبة ، فقد بعث عبد المؤمن إلى ولده السيد أبى يعقوب يوسف ، والشيخ أبى يعقوب سليمان « الأمر العزيز » باستيطان قرطبة ، وأن تكون مقر الأمير ، ومقر الحكم بالأندلس ، إذ هى « مُوَسّطة الأندلس » كما تغدو مستقر الجيوش الموحدية . ووصل بهذا الأمر أبو اسحق برّاز بن محمد اللمتونى . وعلى أثر ذلك سار السيدان أبو يعقوب يوسف ، وأبو سعيد ، ولدا الخليفة ، ومعهما القائد يوسف بن سليمان ، إلى قرطبة فوصلوا إليها فى الخامس عشر من شهر شوال سنة ٥٥٧ هـ ، وخرج أهل قرطبة لاستقبالهم فى جموع حاشدة حافلة ، واستدعى إليها من إشبيلية عدة من أشياخها وأعيانها وكتابها ، ومنهم أبو القاسم بن عساكر ، وأبو بكر الخطار ، ويذكر لنا ابن صاحب الصلاة ، أنه كان من بين أولئك الكتاب المدعوين إلى العمل . وطُلب كذلك أن تُنقل من إشبيلية إلى قرطبة سائر الدواوين والأموال ، التى جمعت من القواعد المنزوعة من الثوار . وهكذا غدت قرطبة ، بعد إشبيلية قاعدة الحكم الموحدى بالأندلس ، واستردت قرطبة بذلك رياستها وأهميتها وحيويتها القديمة ، ورتبت بها الإدارات ، واستعمل الكتاب والأشياخ فى مختلف الأعمال ، واختار أبو اسحق لحكم إشبيلية بعض أصحابه ، وقام هو على النظر فى شئون المخازن (الشئون المالية) فى قرطبة وسائر البلاد الخاضعة للموحدين ، ولم يزل قائماً بهذه المهمة حتى توفى فى سنة ٥٥٩ هـ[1] .

واستقر السيدان أبو يعقوب وأبو سعيد حيناً بقرطبة ، ومعهما القائد الشيخ

---

(١) ابن صاحب الصلاة فى كتاب المن بالإمامة لوحة ٣٣ و ٣٤ .

أبو يعقوب . وقامت هذه الحكومة الجديدة لعاصمة الخلافة القديمة ، بتنظيم شئونها المختلفة ، وتعمير قصورها ودورها المهدمة ، وإصلاح حصونها وأسوارها ، وتأمين أهلها ، فساد الهدوء والطمأنينة فى أرجائها ، بعد أن لبثت أعواماً طويلة ، مسرحاً للفتن المخربة ، والفورات المزعجة ، وعاد إليها الكثير من أهلها الذين غادروها ، مستبشرين بالعهد الجديد . ثم انصرف الشيخ أبو يعقوب عائداً إلى العدوة ، واستمر السيدان من بعده فترة يسيرة ، حتى فاتحة المحرم من سنة ٥٥٨ هـ ، وعندئذ وردت دعوة الخليفة إلى ولده السيد أبى يعقوب يوسف بالمثول إلى حضرته ، فبادر بالسير إلى إشبيلية ، ولم يقم بها سوى أيام قلائل ، ثم غادرها إلى العدوة ، ولحق بأبيه الخليفة ، وبقى السيد أبو سعيد بقرطبة ، قائماً على شئونها ، متعهداً لمصالحها ، وأضيف إليه النظر على إشبيلية ، وكان يعاونه القائد القدير أبو إسحق براز ابن محمد المسوفى ، وندب للنيابة على إشبيلية أبو داود بلول ابن جلداسن ، وتولى شئون المخزن بها محمد بن المعلم ، واستمر الأمر على ذلك فترة يسيرة أخرى .

— ٥ —

فى خلال ذلك كانت حوادث المغرب تنذر بتطورات خطيرة . وكان عبد المؤمن حينما تلقى نبأ انتصار الموحدين فى موقعة السبيكة ، وهو بعدوة سلا (الرباط) قد اعتزم أن يعد العدة لاستئناف الجهاد بالأندلس ، فى البر والبحر على أوسع نطاق ممكن ، فأمر بكتب الكتب إلى سائر الجهات والقبائل ، لاستنفار الناس ، وحثهم على الجهاد فى سبيل الله ، وأمر بإنشاء الأساطيل (القطائع) ، فأنشىء منها مائتا قطعة ، وقيل أربعمائة ، أعد منها فى مرسى المعمورة على شاطىء وادى سبو ، شمالى ثغر سلا ، مائة وعشرون قطعة ، وأعد الباقى فى مختلف ثغور العدوة والأندلس ، وأمر بإعداد الوفير من العتاد والمؤن والعلوفات ، وكان قد أعد منها خلال سنة ٥٥٧ هـ ، أكداس هائلة فى وادى سبو ، فى حمى الجبال المشرفة عليه ، وجلبت الخيل من سائر أنحاء إفريقية والمغرب ، وجلبت كذلك مقادير وفيرة من السهام والرماح الطوال ، والدروع ، والبيضات ، والتروس ، والبنود ، والكسى ، ووزع ذلك كله على طوائف الموحدين والعرب الموالين من سائر القبائل[1] ؛ وأذكى هذا العزم على الجهاد فى الأندلس ، وأكده ما وقع

---

(١) ابن صاحب الصلاة فى كتاب المن بالإمامة لوحة ٣٩ والمراكشى فى المعجب ص ١٣١ .

فى أواخر سنة ٥٥٧ ، من غزو نصارى مدينة شنترين بالبرتغال لمدينة باجة ، واستباحتها ، واحتلالها فى ٢٢ شهر ذى الحجة هذا العام (أول ديسمبر ١١٦٢م) ، ومكثهم بها نحو أربعة أشهر ، قبل أن يغادروها ، بعد أن دمروا ربوعها ، وخربوا أسوارها[١] .

وأقام عبد المؤمن بمراكش فترة يسيرة ، حتى أول عام سنة ٥٥٨هـ ، وهو يتابع بعناية تلك الاستعدادات الضخمة للجهاد فى الأندلس . ثم خرج من حاضرته ليزور قبر المهدى فى تينملّل ، وكان الفصل شتاء ، والبرد قارساً ، والأمطار والثلوج تنهمر بشدة ، حتى غمرت سائر السهول والربى ، ومع ذلك فقد شق الخليفة طريقة إلى تينملل بعزم ، وجاز المياه والثلوج الغامرة ، ولم يبال بما أصابه من البلل ، وتبعه أشياخ الموحدين بصعوبة ، ثم أدى زيارته المأثورة لقبر المهدى ، وعاد إلى حاضرته ، ليستأنف الاستعداد للجهاد .

وفى اليوم الخامس عشر من ربيع الأول سنة٥٥٨هـ (١٩ فبراير سنة١١٦٣م) خرج عبد المؤمن من مراكش ، وسار إلى رباط الفتح ، تتقدمه الجيوش الموحدية الجرارة ، فى تؤدة وهوادة ، فلما وصل إلى رباط الفتح ، كانت البقاع المجاورة فيما بين سلا والمعمورة ، قد ضاقت بهذه الجيوش الضخمة التى يقدرها المؤرخ المعاصر بأكثر من مائة ألف فارس ، ومائة ألف راجل[٢]. وتقدرها بعض الروايات الأخرى بأكثر من ثلاثمائة ألف فارس ، من الموحدين والمرتزقة العرب والبربر . ومن المتطوعة ثمانون ألف فارس ومائة ألف راجل[٣]، وزعت عليهم جميعاً الأعطية والصلات السخية . وما كاد الخليفة يستقر فى محلته ، حتى استدعى إليه سائر القادة والأشياخ من الموحدين والعرب ، وأهل الرأى ، وعقد مجلساً حربياً عاماً ، ليبحث خير الوسائل لتنفيذ الغزوة الأندلسية الكبرى وتوجيهها ، سواء فى البر أو البحر ، وكان من بين الحاضرين أبو محمد سيدراى بن وزير ، فشرح للخليفة أحوال الأندلس وما يحسن أن يعمله ، واقترح ابن وزير ووافقه الأشياخ ، أن تقسم الحملة الكبرى إلى أربعة جيوش ، يسير أولها إلى البرتغال لمقاتلة ابن الرنك صاحب قلمرية (ألفونسو هنريكيز) ، والثانى يسير إلى مملكة ليون ، وملكها

---

(١) كتاب المن بالإمامة لوحة ١١٧ .

(٢) ابن صاحب الصلاة فى كتاب المن بالإمامة لوحة ٤١ .

(٣) الاستقصاء ج ١ ص ١٥٨ .

يومئذ فرناندو الثانى ولد القيصر ألفونسو ريموند يس ، وهو الذى تعرفه الرواية العربية « بالببوج » ، والثالث يسير إلى قشتالة ، وملكها يومئذ ألفونسو الثامن طفل تحت الوصاية ، والرابع يسير صوب مملكة أراجون وبرشلونة ، وملكها يومئذ ألفونسو الثانى . واستحسن الخليفة اقتراح ابن وزير ووافق عليه .

ولم تمض أيام قلائل على ذلك حتى مرض عبد المؤمن مرضه الذى لم يبرأ منه . ولم توضح لنا الرواية نوع هذا المرض الذى حمل الخليفة إلى القبر ، والذى يقتصر ابن صاحب الصلاة على وصفه ، « بالوجع » ، بيد أنه لبث يشتد و يتفاقم ، حتى كان يوم الجمعة الثانى من جمادى الآخرة ، وقد شعر الخليفة بدنو أجله ، فأمر بإسقاط اسم ولده وولى عهده محمد من الخطبة ، وكان هذا القرار يخفى مأساة عائلية ، كان الخليفة يود أن يتلافى آثارها قبل موته . وذلك أنه نمى إليه أن محمداً يشرب الخمر ، ويبدو مخموراً أمام الأشياخ والقادة فى هيئة زرية ، ويرتكب أموراً طائشة مخلة بالكرامة ، وأنه يغلب عليه الخور وجبن النفس ، وقيل أيضاً إنه كان مصاباً بالجذام[1] . ومن ثم فقد رأى أنه لايصلح للخلافة ، وأنه يجب تنحيته وإبعاده ، ودعا الأشياخ إلى سريره ، وأخطرهم بتنحية ولده محمد وتولية يوسف ، باعتباره أصلح من يتولى الخلافة ، وأوصاهم بتنفيذ إرادته ومبايعته ، ولاسيما الشيخ أبى حفص عمر الهنتانى عميد الأشياخ ، واستوثق من ولده أبى حفص بتقديم شقيقه الأصغر يوسف ، وكان أبو حفص يتولى الوزارة والحجابة لأبيه حسبما تقدم ذكره . وفى الأيام القلائل التالية تفاقم مرض الخليفة واشتد به الألم ، وفى فجر يوم الثلاثاء الثامن من جمادى الثانية — وفقاً لرواية البيذق — توفى الخليفة عبد المؤمن بن على . بيد أنه إذا أخذنا بهذه الرواية فلابد أن الوفاة كانت فى فجر اليوم السادس وهو الموافق ليوم الثلاثاء ، حيث كان اليوم الثانى من جمادى الآخرة يوافق يوم الجمعة ، وهو اليوم الذى أسقط فيه اسم محمد من الخطبة . ويقول لنا ابن صاحب الصلاة إن عبد المؤمن توفى ليلة الجمعة العاشر من جمادى الآخرة سنة ٥٥٨ هـ (١٥ مايو سنة ١١٦٣ م) ، وهى رواية تبدو أرجح لانطباقها مع تسلسل الأيام والتواريخ[2] . وكانت وفاته بمحلته فى سلا ، وكان عند وفاته فى الثالثة والستين من عمره ، وقيل فى الرابعة والستين ، وكانت

---

(١) المراكشى فى المعجب ص ١٣١ ، وابن خلكان ج ٢ ص ٤٩٣ .

(٢) كتاب المن بالإمامة لوحة ٤٥ ا .

ولايته ، منذ وفاة المهدى فى ٢٥ رمضان سنة ٥٢٤ هـ ، ثلاث وثلاثون سنة ، وخمسة أشهر ، وثلاثة وعشرون يوما[١] .

ولما توفى عبد المؤمن كتمت وفاته وقتاً ، واستأثر ولده السيد أبو حفص بتدبير الأمور ، وبادر إلى تنفيذ وصية أبيه فى عقد البيعة بالخلافة لأخيه يوسف ، وكان قد قدم من قرطبة ، استجابة لدعوة أبيه ، وبقى إلى جانبه حتى توفى . والظاهر أن عبد المؤمن ، كان عندئذ قد قرر أمره نحو مسألة الخلافة ، وترشيح ولده يوسف لها ، واستدعاه لهذا الغرض وأبلغ السيد أبو حفص ، والشيخ أبو حفص الهنتانى وصية الخليفة الراحل لأشياخ الموحدين ، فأقروها جميعاً ، وبايعوا للسيد أبى يعقوب يوسف بالخلافة . ويقول لنا البيذق إن بيعة الخليفة الجديد ، تمت فى مدى يومين ، فى العاشر من جمادى الآخرة سنة ٥٥٨ هـ وارتضى أبو عبد الله محمد ما تقرر من أمر خلعه ، وبايع لأخيه راضياً ،وتمت هذه البيعة فى سلا فى محلة الخليفة الراحل ، ونفذ الأمر إلى الجيوش المحتشدة ، بالانصراف إلى بلادها ، فى انتظار أوامر تصدر فى فرصة أخرى. وتولى الشيخ أبو حفص عمر الهنتانى وعظ الموحدين على اختلاف طبقاتهم ومراتبهم ، وذكرهم بما يجب عليهم من اتباع أوامر دينهم ، واكتمال ولائهم وطاعتهم واشتغالهم بأمورهم عن الأحاديث العقيمة والخزعبلات . ولما تمت البيعة حسبما تقدم ، سار الخليفة الجديد مع أشياخ الموحدين إلى مراكش ، ونزل فى دار الخلافة ، وتولى أخوه السيد أبو حفص الأمور السلطانية والحجابة على نحو ماكان مع أبيه ، وعن رضى من أخيه الخليفة الجديد . وحمل جثمان الخليفة الراحل إلى تينملّل ، فى يوم الجمعة أول شعبان ، حيث دفن إلى جانب أستاذه وأمامه المهدى ، وفقاً لوصيته[٢] .

تلك هى الرواية الراجحة فى شأن تولية السيد أبى يعقوب يوسف للخلافة .

---

(١) ينقل صاحب روض القرطاس عن تاريخ وفاة عبد المؤمن ، روايتى البيذق وابن صاحب الصلاة (الثامن من جمادى الآخرة والعاشر منه) ، ويضعها ابن الأثير فى العشرين من جمادى الآخرة سنة ٥٥٨ هـ (ج ١١ ص ١٠٩) . ويضعها ابن خلكان فى العشر الأخيرة من جمادى الآخرة (ج ١ ص ٣٩١) ، ويضعها المراكشى فى السابع والعشرين من جمادى الآخرة (المعجب ص ١٣١) . ويضعها الزركشى فى ليلة العاشر من جمادى الآخرة متفقاً مع ابن صاحب الصلاة . تاريخ الدولتين ص ٢٩ .

(٢) أخبار المهدى ابن تومرت ص ٨٣ ، وابن صاحب الصلاة فى المن بالإمامة لوحة ٤٥ والبيان المغرب القسم الثالث ص ٥٨ و ٥٩ .

وهى الرواية الموحدية التى يقول بها مؤرخا الموحدين المعاصران ، البيذق ، وابن صاحب الصلاة . بيد أن هناك رواية أخرى ، يقدمها إلينا ابن الأثير ، وهى أنه لما توفى عبد المؤمن بسلا ، كتمت وفاته ، وحمل من سلا إلى مراكش فوق محفة ، وكأنه مريض ، ولما وصل إلى مراكش استبد ابنه أبو حفص بشئون الحجابة ، وكان يصدر أوامره باسم أبيه ، ويقول للناس أمير المؤمنين أمر بكذا ، واستمر على ذلك حتى كملت البيعة لأخيه يوسف ، فى سائر البلاد والنواحى ، واستقرت الأمور ، وعندئذ أظهر موت أبيه[1]. وينقل إلينا ابن خلكان رواية أخرى ، ينفرد بها فى شأن محمد وأخيه يوسف فيقول إنه لما توفى عبد المؤمن خلفه ولده محمد ، وتولى الأمر مدة خمسة وأربعين يوما حتى شعبان سنة ٥٥٨ هـ ، ولكن سرعان ما اضطربت الأمور ، وظهر منه من اختلال الرأى ، وكثرة الطيش ، وجبن النفس ، ما أدى إلى خلعه ، وكان الذى سعى فى خلعه أخواه أبو حفص عمر ويوسف . ولما تم خلعه ، انحصر الأمر بين أخويه المذكورين ، فتأخر عمر ، وسلم الأمر إلى أخيه يوسف فبايعه الناس ، واتفقت عليه الكلمة[2] . وينقل إلينا المراكشى هذه الرواية فى المعجب[3]. بيد أنه يبدو ، إزاء ما تؤكده لنا الرواية الموحدية المعاصرة ، أنها رواية ضعيفة لاسند لها .

— ٦ —

كان الخليفة عبد المؤمن بن على ، عبقرية فذة ، تنطوى على طائفة من أبدع الخلال التى تصاغ منها العظمة والبطولة ، وقد شادت هذه العبقرية دولة من أعظم الدول الإسلامية ، تمتد من أواسط شبه الجزيرة الإسبانية شمالا حتى مشارف الصحراء الإفريقية الكبرى جنوبا ، ومن طرابلس الغرب شرقاً حتى شواطىء المحيط الأطلنطى غربا ، وشادتها فى ظروف صعبة ، وفى غمر الكفاح المضنى ، من إمارات وقبائل بربرية متنابذة مفترقة الكلمة ، لم تعرف خلال حياتها الطويلة معنى للنظام والاتحاد ، ولم تأنس لأى نوع من الخضوع والطاعة ،

---

(١) ابن الأثير ج ١١ ص ١٠٩ .

(٢) ابن خلكان ج ٢ ص ٤٩٣ . ويقول لنا ابن خلكان إنه نقل هذه الرواية من كتاب بخط العماد بن جبريل أخى المعلم المصرى ناظر بيت المال بالديار المصرية ، فيه فوائد من أخبار المغاربة وغيرهم .

(٣) المعجب ص ١٣١ .

فصاغ عبد المؤمن بعزمه ، وقوة نفسه ، وبراعته العسكرية والسياسية ، من هذه العناصر المضطرمة الخصيمة ، كتلة متناسقة متعاونة متحدة ، وأنشأ منها ، الدولة الموحدية الكبرى ، أعظم الدول المغربية إطلاقاً ، واستطاع أن يجعل من الدعوة المهدية أو الدعوة الموحدية ، ناموساً دينياً ، ودستوراً نظامياً ، تقوم عليه وتستمد منه ، مقوماتها السياسية والعسكرية .

وقد رأينا أن عبد المؤمن ، نشأ طالب علم متواضع ، تجتمع آماله حول التقدم فى هذا المضمار ، والتقى بالمهدى ابن تومرت ، فى بداية أمره ، وقبل أن تلوح لدعوته وتعاليمه أية بارقة أمل ، فى التقدم أوالرسوخ . ومع ذلك فقد ثبت إلى جانبه وشاطره كل آلامه ومحنه ، وكل آماله ومشاريعه ، وغدا ساعده الأيمن فى كفاحه . وكان هذا الاختصاص بالمهدى وإيثار المهدى لتلميذه الوفى ، من أهم العوامل ، التى مهدت لعبد المؤمن ، عند وفاة أستاذه وإمامه ، سبيل الاحتواء على تراثه وخلافته . ولم تخب فراسة المهدى فى تلميذه ، حينما قال لصحبه وهو فى مرض موته عقب هزيمة البحيرة الساحقة ، إنه مادام عبد المؤمن قد سلم ، فسوف يبقى أمرهم . وقد شاء القدر أن يقوم عبد المؤمن بالمهمة الكبرى ، مهمة سحق الدولة المرابطية ، وإنشاء الدولة الموحدية الكبرى على أنقاضها ، وأنقاض الإمارات الإفريقية . وقد استمرت الدولة الموحدية حيناً ، تحتفظ بطابعها الروحى ، وأساسها الدينى ، حتى عمد عبد المؤمن بعد أن تضخم ملكه ، وتوطد سلطانه ونفوذه ، بين سائر الطوائف والقبائل ، إلى إنشاء السلطة الزمنية الوراثية ، بتعيين ولده لولاية العهد . وكانت هذه الخطوة أعظم تطور حدث فى طبيعة الدولة الموحدية ، التى تغدو من ذلك الحين ، خلافة زمنية سياسية ، ويتضاءل أساسها الروحى . ويمكننا أن نعتبر الخلافة الموحدية المؤمنية ، أعظم خلافة قامت فى الغرب الإسلامى ، وإن كانت خلافة قرطبة الأموية تتفوق عليها بخواصها التمدنية والحضارية ، وأن نعتبر عبد المؤمن أعظم خلفاء الغرب الإسلامى ، وإن كان عبدالرحمن الناصر يتفوق عليه بخواصه المصقولة وخلاله الإنسانية ، بل نستطيع أن نعتبر أن عظمة الدولة الموحدية الكبرى تنحصر فى عصر عبد المؤمن ، وولده أبى يعقوب يوسف ، وحفيده أبى يوسف يعقوب المنصور (٥٢٤ — ٥٩٥ هـ) ، وهى حقبة من سبعين عاما ، تستنفد الدولة الموحدية فيها كل مصادر قوتها ، وعظمتها .

هذا وربما كان عبد المؤمن بخلاله العلمية ، وحياته العسكرية الحافلة بالغزوات

والفتوحات المظفرة ، أكثر الرؤساء شبهاً بالمنصور بن أبى عامر ، فإن هاتين الصفتين هما أبرز ما فى حياة كل من هذين الرجلين العظيمين ، وإن كانت غزوات المنصور تتسم قبل كل شىء بطابع الجهاد فى سبيل الله .

ولم تحل نشأة عبد المؤمن العلمية دون تحوله فى ميدان الحرب ، إلى قائد من أعظم قواد عصره ، وأشدهم فروسة ، وأوفرهم شجاعة ، وإقداماً . كان عبد المؤمن بصيراً بطرائق الحرب ، وأساليب القتال ، وقد أنفق فى غزواته وحروبه أكثر من ربع قرن ، ذرع فيها وهاد المغرب وقفاره ، من أقصاه إلى أقصاه ، شرقاً وغرباً ، وشمالا وجنوباً ، وخرج مكللا بغار الظفر فى معظم هذه الغزوات والحروب ، ولم يجتمع لملك من ملوك المغرب أو خليفة من خلفائه ، مثل ما اجتمع لعبد المؤمن من الجيوش الجرارة ، التى كانت تضم مئات الألوف من الفرسان والرجالة ، من مختلف القبائل البربرية والعربية ، وكان عبد المؤمن خلال الحروب والغزوات جنديا بمعنى الكلمة ، يشاطر جنده مشاق السير الوعر ، وتقشف حياة الميدان ، وكانت عادته فى أسفاره أن يرحل بعد صلاة الصبح ، بعد أن يُضرب طبل ضخم ثلاث ضربات إيذاناً بالرحيل ، وكانت حركة الجيوش الموحدية تجرى عندئذ وفق النظام الذى رسمه المهدى لمسيرها ، فيتقدمها اللواء الموحدى الأبيض مع فرقة من الرجالة يكون بينها وبين الأمير نحو ربع ميل ، ثم يسير الأمير أو الخليفة خلف اللواء المذكور تحف به خاصته ووزراؤه ، ثم تتبعهم الرايات الكبار والطبول وجند الساقة ، ثم جند كل قبيل بترتيب خاص[1] . وكان عبد المؤمن فى معظم الأحيان يرسم خطط المعارك بنفسه ، وربما قاد جنده ، واشترك معهم فى القتال .

وكان عبد المؤمن إلى جانب هذه الصفات العسكرية البارزة ، من أعقل أهل عصره وأوفرهم ذكاء وحكمة ، وكان حازماً سديد الرأى حسن السياسة ، واسع الحيلة ، يعالج الأمور الصعبة بكثير من الفطنة والكياسة .

وكان مما فعله عبد المؤمن لتنظيم أصحاب المهدى وطوائف الموحدين ، بعد تعاقب الحوادث ، وفقد الكثير من أهل الجماعة وأهل خمسين وأهل سبعين ، أن استدعى أشياخ القبائل الموحدية من المصامدة وغيرهم إلى مراكش ، ولما اكتمل دورهم ، أعلن تصنيف الموحدين إلى ثلاث طوائف أوطبقات ، الأولى ،

---

(١) ابن القطان فى نظم الجمان (المخطوط لوحة ٤٣ ب) .

هم « السابقون الأولون » الذين بايعوا الإمام المهدى وصحبوه وغزوا معه ، وصلوا خلفه ، والذين شاهدوا واقعة البحيرة واشتركوا فيها ، ويتلو هذه الطبقة من آمن بالتوحيد ، ودخل فى زمرة الموحدين من بعد البحيرة إلى فتح وهران (سنة ٥٣٩ هـ) ، وتتكون الطبقة الثالثة ممن انتظم فى سلك الموحدين من فتح وهران إلى ما هلم جرا ، وقد تم هذا التصنيف الجديد بعد أن روعيت فيه كل الاعتبارات ، من الزلف والقرب والعدالة وغيرها ، لتعرف كل طبقة مكانتها ومركزها[١] .

وقد أسبغ عبد المؤمن بسياسته فى تأليف القبائل المختلفة ، وإدماجها فى الجيش الموحدى الضخم ، على هذا الجيش وحدة وتناسقاً ، لم تعرفها الجيوش المغربية من قبل . بيد أنه لم يكن موفقاً فى سياسته لتأليف القبائل العربية ، وضمها للقوات الموحدية . ذلك أن هذه الفرق العربية التى استمرت عصراً تكون جناحاً هاماً فى الجيوش الموحدية بالمغرب والأندلس ، كانت متعثرة الولاء كثيرة التقلب ، لا تدين بمبدأ ولا عقيدة ، سوى انتهاز الفرص ، والكسب المادى الرخيص ، وكان تقاعسها وتقلبها فى حروب إفريقية ، فيما بعد أيام الخليفة أبى يعقوب يوسف ، وولده يعقوب المنصور من أهم الأسباب ، فى نجاح ثورة بنى غانية فى إفريقية ، وتغلبهم على معظم نواحيها ، وفى تخاذل الجيوش الموحدية ، فى معظم المعارك التى خاضتها إلى جانبها .

وأما عن نظم الحكم والإدارة ، فقد كان عبد المؤمن ، وهو مؤسس الدولة الموحدية الحقيقى ، أول من وضع القواعد والنظم التى يسترشد بها فى تسيير دفة الحكم ، وفى تطبيق السياسة الشرعية ، وفى جباية الأموال . وقد انتهت إلينا فى ذلك رسالة هامة من إنشاء الكاتب أبى جعفر بن عطية ، وجهها الخليفة من تينملل فى السادس عشر من ربيع الأول سنة ٥٤٣هـ ، إلى الطلبة والمشيخة والأعيان والكافة بالأندلس ، وفيها يبسط ما يمكن أن يسمى بالأسس الدستورية لنظم الحكم الموحدى ، ونحن نورد فيما يلى ملخصاً لما احتوته هذه الرسالة الدستورية الهامة ، التى ينفرد ابن القطان بإيرادها .

١ — يقول الخليفة ، إنه اتصل به أن بعض العمال ممن لا يخافون الله ، يتسلطون بأهوائهم على الأموال والإبشار ، ويستحلون حرمات المسلمين ، وينقضون

(١) راجع الرسالة الثانية عشرة من « رسائل موحدية » ص ٥٣ و ٥٤ .

أحكام الشرع ، ويبتدعون مظالم شنيعة ، ويستنبطون من فواحش الآثام صنوفاً فظيعة ، ويتسببون فى قتل المسلمين ، فضلا عن استباحة أموالهم وأعراضهم بتلبسات يسيئونها ، ويمدون أيديهم بضرب الناس بالسياط وسيلة إلى أخذ أموالهم. وهو ينذر هؤلاء بشر العقاب ، ويقول ، إن لمن يستوجب الضرب أو يستحقه حدود معلومة ، ومواقف مرسومة ، تقابل كلا بمقتضى جرمه .

٢ — وأنه قد ذكر له فى أمر المغارم والمكوس والقبالات وتحجير المراسى وغيرها ، مظالم وكبائر عظيمة ، ثم يتساءل ألم يقم الأمر العالى لقطع أسباب الظلم وإجراء العدل .

ومن ذلك ما ذكر فى أمر المسافرين الذين يريدون الرجوع إلى أوطانهم ، فإن بعض هؤلاء الظلمة ، يزعمون لهم أن للمخزن حقوق تمتد إلى جميع ما أتى به ، ثم يضطروه بالوعيد إلى الخروج عن جزء كبير من ماله ، ويسائل الخليفة الموحدين والطلبة ، كيف تقع هذه الأمور ، وهم يرصدون الشئون ، وكيف تسفك الدماء على هذه الصورة ، وتنتهك الحرمات ، وهم لا يمتعضون .

٣ — وأنه ليجول بخاطره ، أن أسباب تلك المنكرات ، هو أن قوماً يتوسطون بينهم وبين الناس ، وينقلون الأمور إليهم بطريق التدليس ، وذلك لبعدهم عن مباشرة الأمور ، ثم ينصحهم بأن لا يتركوا مباشرة الأمور إلى أحد سواهم ، وأنه يجب عليهم أن يباشروا الأحكام مباشرة تعهد وتفقد ، وأنهم فى ذلك يجب أن يتذرعوا بالحزم والاعتدال وسلوك الطريق الوسط ، والتواضع لأمر الله تعالى وترك الاستعلاء المنتقد ، وعليهم أن يبحثوا عن المتسببين فى وقوع تلك القبائح ، وأن يعرّفوه بأمرهم ليقوم بعقابهم .

٤ — ثم يقول الخليفة : « وقد استخرنا الله فى سد تلك الذريعة ، وصد تلك الأفعال الشنيعة ، فرأينا أن ترفعوا إلينا أحكام المذنبين للكبائر ، وتعلمونا بنبأ كل من ترون أنه يستوجب القتل بفعله الخاسر ، دون أن تقيموا الحد عليه ، أو تبادروا بالعقاب إليه ، ولا سبيل لكم إلى قتل أحد من كل من هو فى بلاد الموحّدين وأنظارهم ، ومن هو معهم داخل فى مضمارهم ، وكل من ترون أنه يستوجب القتل ، ممن يريد المكر فى أمر الله تعالى والختل ، فعرفونا بجلية أمره وتصحيحه ، وخاطبونا بميز أمره ومشروحه ، لينفذ فيه من قبلنا ما يوجبه الحق ويقتضيه ، ونمضى فى عقابه ما ينفذه الشرع ويمضيه . فإياكم من مخالفة أمرنا

هذا فى قتل أحد ممن ذكرنا كائناً من كان ، كبر ذنبه عندكم أو هان ، ولتبادروا إلى إعلاننا بذنبه بعد سجنه وتثقيفه لنقابله بما نراه ، ونجرى الحق فيه مجراه » .

٥ — وأنه قد بلغه أن يقع بيع النساء بصورة تخالف حكم الشرع ، وأنه يوجد من يبتاع المرأة ثم يبيعها دون استبراء ، وأنه لا يتحفظ فى ذلك من مواقعة الزنا المحض ، وأنه يجب ألاّ يتولى أمر بيع النساء إلا من اتصف بالدين والأمانة ، فهو الذى يشرف على أسواق بيعهن . ثم إنه يجب التوقف عن بيع النساء فى جميع من يغنمن منهن ، حتى يخاطب بأصل أمرهن وكيفيته ، ليرسم لهم فيها مايجب اتباعه .

٦ — ويحض الخليفة على مطاردة الخمر ، والاجتهاد فى إراقتها وكسر دنانها ، واختيار الأمناء الذين يسهرون على ذلك ، وتعهدهم لمواضع « الرُّب » واعتصاره ، وأن لايبيحوا من ذلك إلا ما تجوز إباحته شرعا .

٧ — وأنه قد ذكر له أن الراقصين (الرسل) الذين يردون بالكتب ويصدرون ، يأخذون الناس بالنظر فى كلفهم ، ويلزمونهم بزادهم وعلفهم فى كل موضع ، ويحلون بأفنية الناس حلولا شنيعاً ، ويتحكمون عليهم بحكم المغرم ، ويطلب إليهم المسارعة فى قطع تلك العادة الذميمة ، وتزويد الرسل بما يقوم بأودهم فى المجىء والانصراف ، ويقطع شأنهم من التكليف والإلحاف ، وتحذيرهم من تكليف أحد من الناس بأى شىء .

٨ — وأنه قد ذكر له مايقع من التحكم فى الأموال ، وعدم المبالاة بالتفريق فيها بين الحرام والحلال ، وأن هناك من يفعلون بأموال الناس ماتقدم ، وتمتد أيديهم إلى المخازن فيعيثون بها ، ويجرؤون فى التعدى عليها ، ويطلب إليهم أن يتقوا الله فى أموال « المخزن » ووجوب السهر على صونها ، وحمايتها من التعدى عليها ، إذ هى أموال الله المخزونة فى أرضه ، وأنه يجب عليهم ألا ينفذوا منها قليلا ولا كثيراً إلا بعد استئذانه وتعريفه .

٩ — هذا ، وأنه يجب عليهم اتباع كل ما جاء فى هذا الكتاب بدقة وأن يجمعوا لقراءاته والاطلاع ، عليه سائر الطلبة والعمال ، وكافة المقدمين للأعمال ، وأن تكتب منه نسخ لكل قبيلة من قبائل أقطار الموحدين ، وكل كورة من الكور ، وينذر من لم يتبع ما جاء فيه بشر العقاب .

ويختتم الخليفة كتابه بقوله ، إنه لاغرض له إلا أن يحقق دعة المسلمين وأمانهم ، وأنه يجب أن يعلموا أن الموحدين ، مسئولون عن هذه الرعاية ، وأنهم يجب أن

يكونوا إخواناً فضلاء ، لعباد الله ، وأن يعاملوا الناس بالحسنى ، وأن يغدقوا عليهم المبرات ، وأن هذا هو واجبهم ، وأن هذه نصيحته ، فليقبلوها .

وأنه كان مما دعاه إلى تنبيههم وتذكيرهم بما تقدم ، ماوجده بحضرة مراكش من تلك الأنواع التى أحدثها أهل الابتداع مثل القبالة وما يجرى مجراها ، وأنه لم يكن يدور بخلده أن يسلك أحد مثل هذا المسلك ، وأنه أنكر ما وجده منه ، وقام بإزالة مايحظره الشرع [1] .

وقد لبث عبد المؤمن بالرغم من غلبة الحرب والجهاد على حياته ، محتفظاً بسمته وخلاله العلمية . كان عبد المؤمن فقيهاً بارعاً حافظاً للسنة ، وعالماً متمكناً من علوم الدين ، ولاسيما علم الأصول الذى تلقاه عن المهدى ابن تومرت ، وكان يقوم بإملاء علوم المهدى وقراءة العقائد ، وكتاب الموطأ ، وكان محباً للعلماء مؤثراً لهم ، مقبلا على مجالستهم ، محسناً إليهم ، يستدعيهم من سائر البلاد ليسكنوا بالحضرة إلى جواره ، ولينتظموا فى مجلسه ، ويجرى عليهم الأرزاق السخية ، ويعظم من شأنهم ومكانتهم . وكان فى الوقت نفسه يعنى أشد العناية بأمر الطلبة والحفاظ ، ويقسمهم إلى طائفتين ، طلبة الموحدين ، وطلبة الحضر ، والطائفة الأولى هى طلبة المصامدة ، بعد أن سمى المهدى المصامدة بالموحدين ، لخوضهم فى علم الأصول ، الذى لم يكن أحد من أهل هذه الأنحاء يخوض فيه [2]. واستقدم عبد المؤمن فى نفس الوقت صغار الصبيان النجباء من مختلف قواعد المغرب ، والأندلس ، من إشبيلية وقرطبة وفاس وتلمسان وغيرها — إلى حضرته ، وكان منهم من إشبيلية وحدها خمسون صبياً ، حضروا إلى مراكش مع أستاذيهم أبى الحسن وأبى بكر الحصار ، وعنى الخليفة بأمر هؤلاء التلاميذ الصغار أتم عناية ، وأنزلهم أكرم منزل ، وأمر بأن يحفظوا القرآن ، وكتب التوحيد وموطأ المهدى وصحيح مسلم وغيرها [3] . وعنى عبد المؤمن بأمر الحفاظ أشد عناية ، وأمر بأن يحفظوا كتابى الموطأ ، وأعز ما يطلب ، وغيرهما من آثار المهدى ، وكان يستدعيهم فى كل يوم جمعة إلى داخل القصر ، وهم نحو ثلاثة آلاف حافظ ،

---

(١) أورد لنا ابن القطان نص هذه الرسالة كاملا فى « نظم الجمان » وهى تقع فى عدة صحفات (المخطوط لوحة ٥٦ ب إلى ١٦٥) . وسوف ننشرها فى باب الوثائق .

(٢) المراكشى فى المعجب ص ١١٢ ، وروض القرطاس ص ١٣٣ .

(٣) ابن القطان فى نظم الجمان (المخطوط لوحة ١٥٣) .

فيوجههم إلى ما يبغيه من سرعة الحفظ والتدريب ، فيأخذهم يوماً بتعلم الركوب ، ويوماً بالرمى بالقسي ، ويوما بالسباحة فى بحيرة أنشأها لهم خارج بستانه ، فى مربع ضلعه نحو ثلاثمائة ذراع ، ويوماً بالتدرب على إصابة الهدف ، على قوار وخوازيق صنعها لهم بتلك البحيرة ، وذلك لكى يجعل منهم رجالا مثقفين ، مدربين مقتدرين . وكانت نفقتهم وسائر مؤنهم وخيلهم ، وعُددهم ، كلها من عنده . وفضلا عن ذلك ، فقد قرر عبد المؤمن ، بموافقة أشياخ الموحدين ، أن يدفع لكل طالب من هؤلاء قرضاً يتجر به إسعافاً لهم ، وصرف لكل منهم من مال المخزن قرضاً قدره ألف دينار ، فتاجروا وأثروا ، ولم يسترد منهم هذا القرض قط[1]. ولما كمل تدريبهم ، وأصبحوا طائفة يعتمد على علمها ودربتها وخبرتها ، ندبهم لمختلف الأعمال والرياسة بدلا من أشياخ الموحدين ، وقال لهم إن العلماء أولى منكم ، واستبقى الأشياخ لمشورته[2] . وقد رأينا فيما تقدم كيف ندب كثير من أولئك الحفاظ لأعمال الإدارة والرياسة ، فى كثير من القواعد الأندلسية المفتوحة ، وهم سوف يشغلون من الآن فصاعدا حيزاً كبيراً ، فى أعمال الولاية والرياسة ، فى أنحاء الدولة الموحدية .

وكان عبد المؤمن فوق ذلك ، كاتباً بليغاً ، وأديباً ضليعاً ، إماما فى النحو واللغة ، حافظاً للتاريخ وأيام الناس ، وشاعراً ينظم الشعر الجيد ، وقد أورد لنا صاحب روض القرطاس له مطارحة شعرية مع وزيره ابن عطية[3] ، وذكر صاحب الحلل الموشية ، أن عبد المؤمن حينما هنأه أبو عبد الله الجيانى يوم انتصاره على المرابطين بفحص مراكش بقصيدة أولها :

أضاءت لنا الأيام واتصل النجح ... وكانت وجوه الدهر مسودة كلح

أجابه عبد المؤمن بقوله :

هو الفتح لا يجـلو غرائبه الشرح ... أصاب بنى التجسيم من بأسه طرح
اتتنـا به البشرى على حين غفـلة ... بمهلك قوم كان وعدهم الصبح

وكان ممن وفد على عبد المؤمن من أدباء العصر وشعرائه ، أبوالعباس أحمد

---

(١) ابن القطان فى نظم الجمان (المخطوط لوحة ٥٢ ب) .
(٢) الحلل الموشية ص ١١٤ .
(٣) روض القرطاس ص ١٣٣ .

ابن عبد السلام الجراوى الشاعر ، وهو ينتمى إلى قبيلة جَراوة البربرية ، التى توجد منازلها على مقربة من مليلة ، وكان أديباً بارعاً وشاعراً جزلا فحظى لديه ، ثم لدى أولاده من بعده ، وغدا شاعر البلاط الموحدى الأثير ، وظهر بمدائحه للخلفاء المتعاقبين حتى عهد الناصر ، وألف للخليفة المنصور كتابه « صفوة الأدب » حسبما نذكر بعد .

ووجه أبو عبد الرحمن بن طاهر صاحب مرسية المخلوع إلى عبد المؤمن رسالته الشهيرة « الكافية » فى إثبات أمر المهدى بالدليل والبرهان فى صورة مناقشة بين النفس المطمئنة ، والنفس الأمارة بالسوء . وقد أورد لنا ابن القطان نص هذه الرسالة ، وسوف نعود إلى ذكرها .

وكان عبد المؤمن شديداً صارماً ، فى تطبيق أحكام الدين ، ولاسيما فى تأدية الصلاة فى أوقاتها ، وفى إيتاء الزكاة ، وتحريم الخمر ، وإقامة الحد على شاربها ، وكان يذهب فى صرامته إلى قتل تارك الصلاة أو شارب الخمر ، وكان فوق ذلك ورعاً ، كثير التلاوة والخشوع .

وكان متزمتاً صارماً فى سياسته نحو النصارى واليهود . ونحن نعرف أن الدولة الموحدية قامت على أسس دينية خالصة ، وكان من الطبيعى ، وهى تحارب خصومها من المسلمين الخارجين على عقيدة التوحيد ، أن تكون شديدة الوطأة على النصارى واليهود . ولما توطدت الدولة الموحدية بالمغرب ، وبسطت سيادتها على معظم قواعد الأندلس ، أصدر عبد المؤمن قراراً بوجوب خروج النصارى واليهود من أراضى الدولة الموحدية ، وحدد لهم فيه أجلا لمغادرة البلاد ، إلا من أسلم منهم ، فهؤلاء يصبحون رعايا ، لهم ما للمسلمين الخلص وعليهم ماعليهم ؛ ومن بقى من النصارى أو اليهود بعد الأجل المضروب ولم يعتنق الإسلام ، فقد حل دمه وماله . وكان من جراء هذا القرار أن غادر المغرب والأندلس كثير من النصارى واليهود المخفِّين أى الذين لا تثقلهم أعباء الأسرة والأعمال ، وبقى منهم من ثقلت أعباؤه ، وتظاهروا باعتناق الإسلام إنقاذاً لأنفسهم وأموالهم ، ومما يذكر أنه كان بين هؤلاء العلامة الفيلسوف والطبيب اليهودى الكبير موسى بن ميمون ، وكان من أهل قرطبة ، فتظاهر عند صدور القرار باعتناق الإسلام ، والقيام بأداء شعائره ، حتى مكنته الفرصة من مغادرة الأندلس مع أهله ، فقصد إلى مصر ،

وخدم فى بلاطها ، وعين طبيباً خاصاً للسلطان صلاح الدين ، وتوفى بالقاهرة سنة ٦٠٢ هـ (١٢٠٥ م)[١]

وكان عبد المؤمن بالرغم من نشأته وسمته الفقهية المتواضعة ، رئيساً وافر الهيبة والجلال ، وهو مايشير إليه المراكشى فى قوله : « كان عبد المؤمن فى نفسه سرى الهمة ، نزيه النفس ، شديد الملوكية ، وكأنه كان ورثها كابراً عن كابر ، لا يرضى إلا بمعالى الأمور »[٢] .

* * *

ولكن عبد المؤمن كان إلى جانب هذه الخلال البديعة كلها ، يتسم بالقسوة وسفك الدماء . وهذا ما ينوه به مؤرخ ناقد مثل ابن الأثير ، إذ يقول لنا : إن عبد المؤمن كان كثير السفك لدماء المسلمين على الذنب الصغير[٣] . وقد سبق أن أشرنا إلى هذه الصفة القاتمة من صفات عبد المؤمن ، وسردنا خلال استعراضنا لمراحل حياته ، كثيراً من الحوادث الدموية التى سالت فيها الدماء غزيرة على يديه ، وقد كان أروع ما وقع منها حادثة الاعتراف الشهيرة ، التى تم فيها تطهير القبائل ، وفقاً لجرائد أعدها عبد المؤمن بنفسه ، وتضمنت ألوفاً مؤلفة من الضحايا ، التى أعدمت تنفيذاً لأوامره (سنة ٥٥٤هـ) . وقد سبق أن علقنا على هذه الحادثة وأمثالها ، من الصفحات الدموية ، التى توالت فى عهد عبد المؤمن وعلى يديه . ونود أن نضيف هنا ، أن هذه الظاهرة الدموية ، كانت أصلا راسخاً من أصول الدعوة المهدية ، وأن المهدى ابن تومرت ، كان من أشد الدعاة دعوة إلى سفك دماء خصومه ، وقد أبدى فى تطبيقها قسوة تدنو إلى الوحشية . ومن وجهة أخرى فإنه يمكن القول بأن سفك الدماء وسيلة مأثورة من وسائل تدعيم الطغيان ، يلجأ إليها الطغاة فى كل عصر ، وكل قطر ، وقد كان عبد المؤمن طاغية من أعظم طغاة العصور الوسطى ، فليس بمستغرب أن يكون القتل الذريع وسيلة لتأييد سلطانه المطلق ، وإن يكن قد ذهب فى ذلك إلى حدود مثيرة مروعة .

* * *

---

(١) القفطى فى بأخبار العلماء بأخبار الحكماء فى ترجمة موسى بن ميمون (القاهرة ١٣٢٦ هـ) ص ٢٠٩ .

(٢) راجع المعجب ص ١١٢

(٣) ابن الأثير ج ١١ ص ١٠٩ .

وقد اعتمد عبد المؤمن فى تنظيم دولته ، وتسيير حكومته ، وقيادة عسكره ، على طائفة مختلطة من الكتاب والقادة من مختلف القبائل ،وأهل المغرب والأندلس . وقد كان من الواضح أن أصحاب المهدى وأشياخ الموحدين من المصامدة ، وغيرهم من القبائل البدائية الموالية ، وإن كان يمكن الاعتماد عليهم فى شئون الدعوة وفى بعض القيادات العسكرية ، فإنه لا يمكن أن يعتمد عليهم وحدهم فى بناء الدولة الموحدية ، وتوطيد قواعدها . ومن ثم فإن عبد المؤمن لم يتردد فى أن يستخدم فى حكومته وفى قيادته ، كثيراً من أولياء الدولة المرابطية السابقة من لمتونة ومسوّفة ، ومن أهل الأندلس ، مثل على بن عيسى بن ميمون قائد الأسطول المرابطى السابق ، وبرّاز بن محمد المسّوفى ، وقد كان من أبرز القادة المرابطين ، ومثل الكاتب أبى جعفر بن عطية وأخيه عقيل بن عطية ، وقد كانا من كتاب الدولة اللمتونية ، وميمون الهوارى . واستخدم عبد المؤمن من أهل الأندلس لكتابته أخيل بن إدريس الرُّندى صاحب رندة السابق ، وقد كان أيضاً من كتاب الدولة اللمتونية ، وأبا الحسن بن عياش القرطبى ، وأبا بكر بن ميمون القرطبى ، والخطيب أبا الحسن بن الإشبيلى ، وصاحبه الخطيب أبا محمد عبد الله بن جبل . وقد كان الاعتماد على معاونة الوزراء والكتاب الأندلسيين ، فى بلاط مراكش ، مبدأ مقرراً منذ أوائل الدولة المرابطية ، وذلك لما كانوا يمتازون به فى هذا الميدان من المواهب والصفات المصقولة ، ولما كان لأعمال الوزارة وشئون الكتابة بالأندلس من التقاليد الجليلة الراسخة ، والأساليب المشرقة العالية . وسوف نرى فيما بعد ، كيف يمثل أقطاب الكتاب والعلماء والمفكرين بالأندلس ، بقية القرن السادس الهجرى ، بين وزراء الدولة الموحدية وكتابها البارزين .

وقد وزر لعبد المؤمن الكاتب أبو جعفر بن عطية ، ثم أبو محمد عبد السلام ابن محمد الكومى ، ثم ولده السيد أبو حفص ، ومعاونه أبو العلا إدريس ابن ابراهيم بن جامع ، وهو الذى تولى الوزارة بعد وفاته ، لولده الخليفة الجديد أبى يعقوب يوسف .

وتولى القضاء فى عهده ، صهره أبو عمران موسى بن سليمان الضرير من أهل تينملل ومن أصحاب خمسين ، وأبو الحجاج يوسف بن عمر .

وعنى عبد المؤمن بالشئون المالية بنوع خاص ، ولقى فى تنظيمها صعاباً ومتاعب . وكانت مسألة الفروض أو « الجبايات » التى يتكون منها دخل الحكومة

الموحدية من المسائل الدقيقة ، التى واجهت عبد المؤمن . وقد كانت مسألة المكوس والمغارم التى تفرضها الدولة المرابطية على رعاياها ، من المسائل التى شهّر بها المهدى ابن تومرت ، وعددها بين مثالب المرابطين ، باعتبارها مغارم غير شرعية يحرمها الكتاب والسنة . وكانت الدولة الموحدية فى البداية تحرص على ألا تحيد عن تطبيق هذا المبدأ فى فرض الجبايات ، وتلغى سائر المغارم المحرمة ، وتكتفى بتحصيل الزكاة والأعشار ، وهذا ما يسجله الخليفة عبد المؤمن فى رسالته التى بعث بها عقب فتح بجاية سنة ٥٤٧ هـ ، إلى أهل قسنطينة ، يدعوهم إلى الطاعة ، ويذكرهم بما هو مفروض عليهم منذ أيام « أهل الاختلاق والابتداع » من « القبالات والمكوس والمغارم وسائر تلك الأنواع » ، وأن الله قد أراح الناس بالتوحيد ، من تلك المغارم ، وأنه سوف لايطلب إليهم إلا ما أوجب الله ، وما توجبه السنة من « الزكوات ، والأعشار »[1] . وقد كان ما استولى عليه الموحدون من ثروات الدولة المرابطية وذخائرها ، فى المغرب والأندلس ، وما كانوا يحصلونه من غنائم خصومهم المهزومين ، يكفى فى البداية لمواجهة نفقات الحرب والإدارة . بيد أنه لما اتسع نطاق الغزوات والفتوحات فى المغرب والأندلس ، وتضاعف عدد الجيوش الموحدية الغازية ، اضطر عبد المؤمن إلى التماس مصادر أخرى للنفقة ، فكان مما استحدثه ، مانقله إلينا صاحب روض القرطاس ، من أنه أمر بمسح بلاد إفريقية والمغرب من برقة ، إلى السوس الأقصى ، بالفراسخ ، والأميال ، طولا وعرضاً ، وأسقط من هذه المساحة مقدار الثلث مقابل الجبال والأنهار والطرقات وغيرها من التوالف ، ومابقى فرض عليه الخراج ، وألزمت كل قبيلة بأن تؤدى قسطها من الزرع والمال ، وهكذا تحررت السياسة المالية الموحدية ، من الجمود الذى فرضته عليها تعاليم المهدى ، ولتتطور مع مقتضيات ما تحتاج إليه الدولة من ضروب النفقة العسكرية والإدارية .

* * *

وترك عبد المؤمن من الولد ستة عشر من البنين ، وهم أبو يعقوب يوسف الخليفة من بعده ، وأبو حفص عمر ، وأبو عبدالله محمد المخلوع من ولاية العهد ، وأبو محمد عبد الله والى بجاية ، وأبو سعيد عثمان والى غرناطة وقرطبة ، وأبو على الحسن ، وأبو على الحسين ، وأبو الربيع سليمان ، وأبو زكريا يحيى ،

(١) مجموعة الرسائل الموحدية — الرسالة السادسة — ص ٢١ و ٢٢ .

وأبو إبراهيم اسماعيل ، وأبو إسحق إبراهيم ، وأبو يوسف يعقوب ، وأبو زيد عبد الرحمن ، وأبو سليمان داود ، وأبو موسى عيسى ، وأبو العباس أحمد ؛ وترك من البنات اثنتين هما صفية وعائشة[١] .

هذا ولدينا عن أوصاف شخص عبد المؤمن ، فقرتان ، نقل إلينا أولاهما ، ابن خلكان عن مؤلف فى سيرة عبد المؤمن ، وفيها أن عبد المؤمن ، « كان شيخاً معتدل القامة ، عظيم الهامة ، أشهل العينين ، كث اللحية ، شثن الكفين ، طويل القعدة ، واضح بياض الأسنان ، بخده الأيمن خال »[٢] .

ويقول فى الثانية صاحب روض القرطاس : « كان أبيض اللون مشرباً بحمرة ، أكحل العينين ، أجعد ، تام القد ، له وفرة تبلغ شحمة أذنه ، أزج الحاجبين ، ملاثم الأنف ، عريضه ، مستدير اللحية »[٣] .

---

(١) ابن صاحب الصلاة فى المن بالإمامة لوحة ٤٢ ب ، والبيان المغرب القسم الثالث ص ٥٦ .

(٢) ابن خلكان فى وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٩١ .

(٣) روض القرطاس ص ١٣٣ .

الكتاب الرابع

نظم الدّولة المرابطيّة
وخواصّ العهد المرابطيّ

الفصل الأول

طبيعة الحكم المرابطى

وأوضاعه العسكرية والإدارية والمالية

الطابع الدينى للدولة المرابطية . استئثار الفقهاء بالنفوذ . ما ترتب على ذلك من الفساد . ضعف الفقهاء وانصرافهم إلى علم الفروع . الطابع العسكرى للدولة المرابطية . نزعتها إلى الجهاد . تضاؤل منعتها العسكرية . الدولة المرابطية إمارة ملكية . طابعها الملك الوراثى . عمالات المغرب والأندلس فى عهد المرابطين . قرطبة مركز الحكم المرابطى . ولايات الأندلس لذوى القربى . تولى الأندلسيين لمناصب القضاء . القضاة زعماء الثورة فيما بعد . استئثارهم بمناصب الكتابة . لمتونة وشجاعتها فى القتال . الجيش عماد الدولة المرابطية . تنظيمه وتكوينه . النصارى المرتزقة . ترتيب المعركة عند المرابطين . القوات الأندلسية . النزعة الجهادية وتضاءلها . الجيش المرابطى بالأندلس . الأساطيل المرابطية . السياسة المالية ونظم الجباية . الضغط على اليهود . التوسع فى الجبايات والقبالات أيام على . الدولة المرابطية ووسائلها فى الحكم . حملة العلامة دوزى على المرابطين . ما يطبع هذه الحملة من تحامل . رأى العلامة كوديرا . أقوال المراكشى . قول فى مديح المرابطين وعهدهم . شرح لاسباب هذه الحملة ضد المرابطين . الفتح المرابطى الأندلسى وما تخلله من فظائع . قسوة أمير المسلمين نحو المعتمد . مطاردة كتب الدين والفلسفة . حملة المهدى ابن تومرت . فضل المرابطين فى الجهاد وإنقاذ الأندلس . تقاعسهم فى حرب الإسترداد . مسئوليتهم فى سقوط سرقسطة . حكم المرابطين للأندلس . طابعه العسكرى الخشن . وثائق رسمية تؤيد اهتمام على بن يوسف بشئون الأندلس والذود عنها . توصياته بشأن الحكم . اهتمامه بتجنب الاستبداد ، واتباع الرفق والعدل . اهتمامه بأمر القضاء . توصيته بحسن اختيار القضاة . حجر المرابطين على حرية الفكر . مطاردتهم لكتب الأصول وكتب الغزالى . إصرارهم على هذه المطاردة حتى أواخر عهدهم . مطاردتهم لكتب الكلام والفلسفة . عيث الجند والعبيد المرابطين . ملاحظات ابن عبدون على ذلك . اشتداد وطأة الحكم المرابطى وأسباب ذلك . الحكم على العصر المرابطى والمبالغة فى ذلك . تعليق الأستاذ كوديرا . أحوال الشعب فى ظل الحكم المرابطى . الأمة الأندلسية وتحريرها من مظالم الجباية . تمتعها بنوع من الاستقرار والرخاء . وحدة المغرب واستقراره . ما شمله من تعمير ورخاء . الاضطراب والفوضى منذ حركة المهدى .

كان مصرع الدولة المرابطية ، حادثاً من أهم الحوادث ، الحاسمة فى تاريخ المغرب والأندلس ، وكان نتيجة لعوامل عديدة ، عسكرية وسياسية واجتماعية .

وسوف نحاول فى هذا الفصل ، أن نستعرض هذه العوامل ، التى أدت إلى سقوط هذه الدولة العظيمة الشامخة ، التى شادتها عبقرية يوسف بن تاشفين ، وهى ما تزال فى عنفوان فتوتها ، ولما يمض على قيامها وتوطدها أكثر من نصف قرن ،

وأن نستعرض فى نفس الوقت ، طرفاً من المبادئ والنظم التى سار عليها بنو تاشفين فى حكم إمبراطوريتهم العظيمة بالمغرب والأندلس ، ومن الظروف والأحوال الحضارية التى عاشت فى ظلها .

قامت الدولة المرابطية ، حسبما رأينا على أساس من العقيدة الدينية ، وكان منشؤها الروحى فقيه متعصب ، هو عبد الله بن ياسين الجزولى . واحتفظت بهذا الطابع الدينى معظم حياتها ، وكان يتخذ منذ البداية صورته العملية ، فى سيطرة الفقهاء على شئون الدولة وتوجيهها ، وفى اتجاه الجيوش المرابطية ، فى المراحل الأولى من حياة الدولة إلى أعمال الجهاد ، سواء فى المغرب أو الأندلس . وكان نفوذ الفقهاء فى تسيير الدولة المرابطية ، يتخذ أيام يوسف بن تاشفين ، صورة الشورى ، فكان العاهل المغربى يستفتيهم فى الخطير من الأمور ، لا استفتاء المستسلم الخانع ، ولكن استفتاء الحذر المستنير ، الذى يحاول أن يطمئن على سلامة تصرفاته ، وأن يلتمس لها السند الشرعى . ولكن هذا النفوذ لم يلبث أن غدا فى عهد ولده على ، نوعاً من الدكتاتورية الدينية (ثيوقراطية) . ولم يكن لعلى بن يوسف ، بالرغم من ذكائه وجميل صفاته ، وبالرغم من ورعه وتقواه ، من العزم والحزم ، ما يكفى لمغالبة هذا النفوذ الجارف . وهذا مايصوره لنا المراكشى ، عند حديثه عن على بن يوسف ، فى تلك الفترة التى تبرز لنا روح الحكم المرابطى على حقيقتها :

« وكان (أى على بن يوسف) حسن السيرة ، جيد الطوية ، نزيه النفس ، بعيداً عن الظلم ، كان إلى أن يعد فى الزهاد والمتبتلين ، أقرب منه إلى أن يعد فى الملوك والمتغلبين . واشتد إيثاره لأهل الفقه والدين ، وكان لايقطع أمراً فى جميع مملكته دون مشاورة الفقهاء ، فكان إذا ولى أحداً من قضاته ، كان فيما يعهد إليه ألا يقطع أمراً ، ولايبت حكومة فى صغير من الأمور ولا كبير ، إلا بمحضر أربعة من الفقهاء ، فبلغ الفقهاء فى أيامه مبلغاً عظيما ، لم يبلغوا مثله فى الصدر الأول من فتح الأندلس . ولم يزل الفقهاء على ذلك ، وأمور المسلمين راجعة إليهم ، واحكامهم صغيرها وكبيرها ، موقوفة عليهم ، طول مدته . فعظم أمر الفقهاء كما ذكرنا ، وانصرفت وجوه الناس إليهم ، فكثرت لذلك أموالهم واتسعت مكاسبهم » .

وفى ذلك أيضاً يقول شاعر من شعراء العصر ، هو أبو جعفر أحمد بن محمد المعروف بابن البنى ، من أهل مدينة جيّان :

أهل الـ يـاء لبستموا ناموسكم ... كالذئب أولج فى الظلام العاتم
فملكتموا الدنيـا بمذهب مالك ... وقسمتموا الأموال بابن القـــاسم
وركبتموا شهب الدواب بأشهب ... وبأصبغ صبغت لكم فى العالم[1]

كانت هذه الثيوقراطية أو الدكتاتورية الدينية ، وما ترتب عليها من مثالب وأهواء لا مفر منها ، أهم عامل فى ضعف الحكم المرابطى وفساده ، وكان من جراء ذلك أن تحولت المزية الرئيسية ، لصفة الدولة المرابطية ، وهى الأساس الدينى المغرق ، إلى عنصر من عناصر الانحلال الخطر ، واستحالت فضائل التقى والزهد والورع ، لدى الأمير ، إلى نوع من الخضوع الأعمى ، لطائفة ، لا تُؤمن مطامعها وأهواؤها ، هى طائفة الفقهاء ، الذين غدوا يسيطرون على الأمير ، ويحكمون الدولة ، لامن وراء ستار فقط ، ولكن كذلك فى نوع من الجهر ، وفقاً لهذه المطامع والأهواء . أضف إلى ذلك أن هذه الطائفة كانت إلى جانب هذا الاستغلال لنفوذها الدينى ، تتسم خلال العهد المرابطى بالقصور وضيق الأفق ، ولم تكن على شىء من ذلك التعمق العلمى ، الذى كان يمتاز به جيل الفقهاء القدامى ، أيام الدولة الأموية ، فى دراسة الشريعة وأصول الدين ، وذلك حينما كان فقهاء أقطاب مثل عيسى بن دينار ، ويحي بن يحي ، وعبد الله ابن حبيب ، وبقى بن مخلد ، يتبوأون ذورة النفوذ العامى ، ولكن يقف نفوذهم عند حدود الفتيا والشورى ومزاولة القضاء . بل كان الفقهاء أيام الدولة المرابطية ، يقتصرون حسبما أشرنا من قبل على دراسة علم الفروع من العبادات والمعاملات والحدود والأقضية ، وعلى مذهب مالك دون غيره . وهذا ماينوه به المراكشى فى قوله : « لم يكن يقرب من أمير المسلمين ، ويحظى عنده ، إلا من علم علم الفروع أعنى فروع مذهب مالك ، فنفقت فى ذلك الزمان كتب المذهب ، وعمل بمقتضاه ، ونبذ ما سواها ، وكثر ذلك حتى نسى النظر فى كتاب الله وحديث رسول الله (ص) ، فلم يكن أحد من مشاهير أهل ذلك الزمان يعتنى بها كل الاعتناء ، ودان أهل ذلك الزمان بتكفير كل من ظهر منه الخوض فى شىء من علوم الكلام ، وقرر الفقهاء عند أمير المسلمين ، تقبيح علم الكلام ، وكراهة السلف له ، وهجرهم من ظهر عليه شىء منه ، وأنه بدعة فى الدين»[2] . وقد

(١) المراكشى فى المعجب ص ٩٥ .
(٢) المراكشى فى المعجب ص ٩٦ .

ترتب على ذلك ما عمدت إليه الدولة المرابطية بإيعاز فقهائها ، من مطاردة العلماء الذين يعنون بعلم الكلام والأصول ، ومطاردة الكتب المتعلقة بذلك ، وفى مقدمتها كتب الغزالى ، وجاء ابن تومرت فاتخذه أيضاً مادة لدعايته الدينية ضد الدولة المرابطية ، حسبما فصلنا من قبل فى موضعه .

إلى جانب هذا العامل الخطير فى تصدع أسس الدولة المرابطية ، كان ثمة عامل آخر ، يحدث أثره السيىء فى تحطيم قواها المادية والأدبية ، هو انهيار منعتها العسكرية . ذلك أن الدولة المرابطية نشأت فى مهاد التقشف والبداوة ، واستمدت من بداوتها ومن حماستها الدينية ، صلابتها الحربية ، وكانت هذه المنعة التى تمتاز بها جيوش لمتونة وزميلاتها من القبائل المختلفة ، تذكيها وتضاعفها ، نزعة الجهاد فى سبيل الله . وفى ظل هذه النزعة الجهادية استطاع المرابطون عند مطلع نهضتهم فى مشارف الصحراء الكبرى ، أن ينشروا بجهادهم وغزواتهم المستمرة تعاليم الإسلام ، فى غانة ومالى وموريتانيا . ولما عبرت الجيوش المرابطية إلى شبه الجزيرة لتنقذ الأندلس مما يتهددها من خطر الفناء ، على يد اسبانيا النصرانية ، كانت هذه النزعة إلى الجهاد ، أخص ما يميزها ، إلى جانب ما اشتهرت به من المنعة والبسالة . وحتى بعد أن تحولت الجيوش المرابطية ، من مهمتها فى إنجاد الأندلس ، إلى جيوش غازية ، وأصبحت الأندلس جزءاً من الدولة المرابطية الكبرى ، فإن هذه النزعة إلى الجهاد فى سبيل الله ، لبثت حيناً آخر شعار الجيوش المرابطية فى شبه الجزيرة ، فكانت موقعة أقليش ، وكانت موقعة إفراغة ، وكانت ثمة مواقع محلية أخرى ، ظهرت فيها الجيوش المرابطية ، ببسالتها ، وتفانيها فى الجهاد فى سبيل الله .

بيد أنه سرعان ماخبت هذه الروح ، وخصوصاً بعد أن اختفى من الميدان أقطاب القادة المرابطين ، الذين امتازوا بالجرأة والشجاعة والبراعة العسكرية ، أمثال سير بن أبى بكر اللمتونى ، وأبى محمد مزدلى ، ومحمد بن الحاج ، ومحمد ابن فاطمة ، وسرعان ما تأثر الأمراء والقادة المرابطون ، بما انغمسوا فيه من ثروات الأندلس ، ونعمائها ، وحياتها المرفهة ، وتأثر الجند المرابطون ، أبناء الصحراء والقفر ، بحياتهم الجديدة الرغدة ، فى هذه القواعد العظيمة ، والوديان النضرة ، والعيش الرخص ، وفت ذلك فى مقدرة الجيوش المرابطية ، ومنعتها القديمة ، فأضحت عاجزة عن أن تقوم بمهمتها الأساسية فى حماية الأندلس ، ورد عادية

النصارى عنها ، كما غدت فى نفس الوقت عاجزة عن أن تعمل على توطيد سلطان الدولة المرابطية وهيبتها ، بين شعب أضحى يتبرم بحكمها ، ويتمنى زوال نيرها ، بعد أن ثقلت وطأته ، وكثرت مثالبه . وقد كان هذا عاملا له خطره فى تحطيم هيبة الدولة المرابطية وسيادتها بالأندلس :

— ١ —

كانت الدولة المرابطية أو الدولة اللمتونية فى عهدها الأول ، حينما انتهى يوسف بن تاشفين من إنشائها ، وتوطيد قواعدها ، وتخطيط عاصمتها مراكش ، إمارة يتسمى منشؤها بالأمير . وعقب انتصار الزلاّقة ، تسمى يوسف « بأمير المسلمين وناصر الدين » وهو اللقب الذى أصبح من بعده لقباً للملوك لمتونة . وهذا إلى اعتراف العاهل المرابطى بطاعة الخليفة العباسى . وهو إجراء لم يتعد الحدود الشكلية ، من الدعوة للخليفة العباسى فى الخطبة مع الأمير ، وذكر اسمه فى السكّة .

ثم غدت الدولة المرابطية ، مملكة وراثية ، منذ اختار يوسف ولده علياً لولاية عهده فى سنة ٤٩٦ هـ (١١٠٢ م) ، وحذا حذوه فى ذلك على ، فاختار ولده تاشفين لولاية عهده فى سنة ٥٣٣ هـ (١١٣٨م) . واختار تاشفين ولده إبراهيم لولاية عهده فى سنة ٥٣٩ هـ (١١٤٥م) ، وهو فى وهران يخوض مع الموحدين آخر المعارك الحاسمة ، وقد شاء القدر أن يكون إبراهيم خاتمة ملوك الدولة المرابطية .

ولم يكن العاهل المرابطى ، يتقيد فى هذا الاختيار لولاية العهد ، بشروط وتقاليد معينة ، ولم يكن يؤثر به الابن البكر ، وإنما كان يجرى وفقاً لمشيئة الملك القائم ، فيختار من ولده من يراه أهلا لخلافته . وكانت ولاية الأندلس ، وقيادة الجيوش المرابطية بها ، تمنحان للابن البكر ، إذا نحى عن ولاية العهد ، وذلك حسبما حدث فى شأن الأمير أبى الطاهر تميم ولد يوسف الأكبر ، حينما انتخب أخوه الأصغر على لولاية العهد ، فقد لبث والياً للأندلس وقائداً عاما للجيوش المرابطية بها حتى وفاته فى سنة ٥٢٠هـ ، وخلفه فى منصبه الأمير تاشفين بن على ، فى الوقت الذى كان فيه أخوه الأكبر سير بن على يتشح بولاية العهد ، فلما توفى سير فى سنة ٥٣٣ هـ ، استدعى تاشفين من الأندلس ، ومنح ولاية العهد .

وكانت عمالات المغرب أو ولاياته ، وهى نحو ثمانية ، مراكش ويتبعها أغمات وبلاد السوس وسائر بلاد المصامدة ، وفاس ، وسجلماسة ودرعة ، ومكناسة ، وبلاد فازاز ، وتلمسان ، وطنجة ، وسبتة ، تخصص ، لأبناء الأمير وقرابته . وقد بدأ يوسف بن تاشفين فى ذلك بتقسيم عمالات المغرب على « بنيه وأمراء قومه وذويه »[١] . أما الأندلس فكانت تنقسم فى عهد الدولة المرابطية، إلى خمس ولايات ، هى إشبيلية وغرناطة وقرطبة وبلنسية ومرسية . وكانت سرقسطة قبل سقوطها فى أيدى النصارى فى سنة ٥١٢ هـ (١١١٨م) تعتبر ولاية سادسة . واتخذ المرابطون فى البداية قرطبة مركزاً لحكومتهم بالأندلس ، وفيها أصدر يوسف بن تاشفين عهده بولاية عهده لولده على . ولما تولى على الملك ، أمر بنقل قاعدة الحكم إلى غرناطة ، فلبثت كذلك حتى سنة ٥٢٦ هـ ، وفى هذا العام عين أمير المسلمين على بن يوسف ، ولده الأمير تاشفين والياً لقرطبة ، وأمره أن يجعل منها « داره وسكناه ومقر مثواه » . وهكذا غدت قرطبة مركز الحكم المرابطى مرة أخرى ، واستمرت كذلك حتى سنة ٥٣٩ هـ (١١٤٤ م) ، وهى السنة التى اضطرمت فيها قواعد الأندلس ، ومنها قرطبة ، بالثورة على المرابطين ، وكان والى الأندلس يومئذ الأمير أبو زكريا يحيى بن غانية ، آخر ولاتها المرابطين .

وكانت مناصب الولاية المحلية بالأندلس ، وقفاً على الأمراء والقادة المرابطين ولاسيما ذوى القربى منهم ، وقد ذكرنا فيما تقدم أسماء عدد عديد من هؤلاء الأمراء والقادة ، الذين تولوا حكم القواعد الأندلسية ، منذ الأعوام الأخيرة من حكم يوسف بن تاشفين ، حتى نهاية العهد المرابطى ، وكان فى مقدمة هؤلاء بعض أقطاب القادة المرابطين الأوائل ، مثل الأمير سير بن أبى بكر اللمتونى فاتح إشبيلية ثم واليها ، ومحمد بن الحاج والى بلنسية ، ثم سرقسطة ، ومن بعده يحيى بن غانية ، والأمير أبومحمد مزدلى والى، قرطبة وهو من أبناء عمومة يوسف ، وولداه محمد وعبد الله ، والامير محمد بن عائشة ولد يوسف ، ومحمد بن فاطمة والى إشبيلية، وعبد الله بن تينغمر والى قرطبة ، وهو ابن أخت على بن يوسف ، والأمير إبراهيم والى إشبيلية ، وهو أخو على بن يوسف ، وأبو بكر بن على بن يوسف ، وقد ولى أيضاً إشبيلية وغيرهم . أما مناصب

(١) روض القرطاس ص ٩١ ، وابن خلدون ج ٦ ص ١٨٥ .

القضاء فى القواعد الكبرى ، فقد تركها المرابطون للأندلسيين ، وذلك لسبب واضح ، هو أنه لم يكن بين العلماء المرابطين ، من يستطيع الاضطلاع بهذه المناصب ، فى بلد كالأندلس ، امتاز قضاته بغزير علمهم ، وقد كان أولئك القضاة الأندلسيون يتمتعون لدى العاهل المرابطى ، بكثير من النفوذ ، ولهم كلمة مسموعة فى كثير من الشئون الهامة ، وكانوا فى نفس الوقت رسله لتدعيم هيبته ونفوذه ، لدى الشعب الأندلسى ، وكان من أبرز نماذج أولئك القضاة رجال مثل أبى الوليد بن رشد ، وأبى القاسم بن حَمْدين ، وقد تولى كلاهما قضاء قرطبة . وقد رأينا فيما تقدم ، كيف أخذ بفتوى القاضى أبى القاسم ابن حمدين فى حرق كتاب الأحياء للإمام الغزالى (سنة ٥٠٣) ، وكيف استطاع القاضى ابن رشد ، أن يقنع أمير المسلمين على بن يوسف بتغريب النصارى المعاهدين (٥٢٠ هـ) . ثم كان أولئك القضاة فيما بعد ، حينما اضطربت شئون الدولة المرابطية ، هم قادة الثورة ضد المرابطين فى مختلف القواعد ، وهم الذين تولوا حكم المدن الثائرة ، حتى مقدم الموحدين .

ونود أن نلفت النظر هنا إلى تلك الظاهرة التى جعلت من قادة الثورة ضد المرابطين أما كتابا وشعراء ، أو قضاة . ففى الغرب كانت ثورة المريدين ، وزعماؤها قبل كل شىء ، رجال مثل ابن قسى ، وابن المنذر ، وأبو بكر بن المنخل ، يمتازون إلى جانب دعوتهم الثورية ، بمواهبهم الأدبية والشعرية . وفى أواسط الأندلس وفى شرقها ، كان زعماء الثورة كلهم تقريباً من القضاة . ففى قرطبة ، كان زعيم الثورة قاضيها أبو جعفر بن حمدين ، وفى غرناطة كان هو القاضى أبو الحسن على بن أضحى ، وفى مالقة كان قاضيها ابن حسون ، وفى بلنسية كان قاضيها مروان بن عبد العزيز ، وفى مرسية كان قاضيها أبو جعفر الخشنى ، وكان خلفه فى الرياسة بعد مصرعه ، قطب بن أقطاب الكتاب والشعر ، هو أبو جعفر عبدالرحمن ابن طاهر . وهذه ظاهرة تدعو إلى التأمل ، ويمكن أن نرجعها من بعض الوجوه ، إلى أن المرابطين استطاعوا خلال حكمهم بالأندلس ، أن يقضوا على معظم الزعامات الملوكية والعسكرية القديمة ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يقضوا على الزعامات الفكرية ، ولم يستطيعوا بالأخص ، أن يقضوا على نفوذ الفقهاء ، بالأندلس ، وكان نفوذهم المستمر ، حسبما تقدم من خواص الحكم المرابطى ذاته .

أما عن الكتابة ، فإن الدولة اللمتونية ، كانت منذ بدايتها تعتمد فى شئون

الكتابة على الكتاب الأندلسيين . فكان كاتب يوسف بن تاشفين ، حتى قبل أن يعبر إلى الأندلس ، أندلسى من أهل ألمرية هو عبد الرحمن بن أسباط . ولما توفى خلفه فى منصب الكتابة أبوبكر بن القصيرة ، وهو يومئذ من أئمة البلاغة بالأندلس ، ثم كتب بعد وفاة يوسف عن ولده علىّ . وكان بلاط مراكش عهد على بن يوسف ، يضم إلى جانب ابن القصيرة ، طائفة من أقدر الكتاب الأندلسين فى هذا العصر ، مثل أبى القاسم بن الجد ، وأبى بكر بن عبد العزيز البطليوسى المعروف بابن القبْطُرنة ، وابن عبدون وزير بنى الأفطس السابق ، وأبى عبد الله بن أبى الخصال ، وغيرهم . وقد كان من الطبيعى ، أن تعتمد الدولة اللمتونية ، التى نشأت فى مهاد البداوة والتقشف ، فى شئون الكتابة ، ولاسيما بعد افتتاح الأندلس ، على أقطاب البلاغة من الكتاب الأندلسيين ، وأن يكون أولئك الكتاب ألسنتها لدى الشعب الأندلسى ، الذى اعتاد على أساليب الكتابة العالية ، وقد شهد المرابطون كيف كان ملوك الطوائف ، يحشدون فى قصورهم ، أئمة البلاغة والترسل يومئذ ، سواء فى سلك الوزارة أوالكتابة ، فكانت لهم فى ذلك أسوة ، فاستخدموا معظمهم أولئك الكتاب فى بلاط مراكش .

وكان الجيش هو أهم أجهزة الدولة المرابطية ، ودعامتها الأولى ، وكانت الدولة المرابطية بالرغم من انضوائها تحت لواء الدعوة الدينية الإصلاحية ، التى نظمها عبد الله بن ياسين ، قبل كل شىء دولة عسكرية ، نشأت فى مهاد المعارك التى اضطرمت بين لمتونة وبين القبائل الخصيمة من وثنية وغيرها ، وخرجت منها لمتونة ظافرة ، واستطاعت أن تبسط سلطانها على أنحاء المغرب ، وأن تقيم الدولة المرابطية الكبرى ، وكان أولئك البربر الصحريون جنوداً يمتازون بوافر الجرأة والشجاعة . وقد نوه بشجاعة لمتونة فى القتال كاتب معاصر هو الجغرافى المؤرخ ، أبو عبيد البكرى ، فوصف لنا لمتونة وشجاعتها وطرائقها فى القتال فيما يأتى :

« وكان للمتونة ، فى قتالهم شدة وبأس ليست لغيرهم . وكان قتالهم على النجب أكثر من الخيل ، وكان معظم قتالهم مرتجلين ، يقفون على أقدامهم صفاً بعد صف ، يكون بأيدى الصف الأول منهم القنا الطوال ، وما يليه من الصفوف بأيديهم المزاريق ، يحمل الرجل الواحد منها عدة ، يزرقها فلا يكاد يخطئ ولا يشوى ، ولهم رجل قدموه أمام الصف بيده الراية ، فهم يقفون ما وقفت منصته ، وإن أمالها إلى الأرض جلسوا جميعاً ، فكانوا أثبت من الهضاب ، ومن فر أمامهم لم

يتبعوه ، وكانوا يختارون الموت على الانهزام ، ولا يحفظ لهم فرار من زحف»[1].

وقد تطورت أساليب لمتونة فى القتال فيما بعد ، ولكن هذه الصفة العسكرية لبثت تغلب على الدولة المرابطية ، حتى بعد أن استقرت وتوطدت ، وقامت بها نظم الحكم المدنية ، فكان الجيش هو قوام حياتها الأول ، وكان أمير المسلمين هو القائد الأعلى لهذا الجيش ، وكان معظم الولاة فى المغرب والأندلس ، من قادة الجيش البارزين . وكان منشىء الدولة المرابطية الكبرى يوسف بن تاشفين جندياً وقائداً من أعظم قواد عصره ، وقد بذل هذا البطل الشيخ فى تنظيم الجيش المرابطى ، وفى تزويده بالعتاد والسلاح ، جهوداً رائعة ، حتى غدا من أعظم جيوش العصر . وكانت قوته الرئيسية تتألف من الفرسان ، وقد بلغت فى عهد يوسف نحو مائة ألف فارس من مختلف القبائل[2] هذا غير المشاة من الرماة وغيرهم . وأنشأ يوسف فضلا عن ذلك حرسه الخاص الأسود ، من عبيد الصحراء من غانة ، من نحو ألفى مقاتل ، دربوا أعظم دربة ، وزودوا بأجود الأسلحة ، حتى غدوا قوة ضاربة لها خطرها[3] . وقد رأينا كيف أبلى هذا الحرس الأسود الخاص ليوسف ، فى معركة الزلاّقة عند تحرج الموقف ، أعظم البلاء ، وساعد ببسالته على تحول مصاير المعركة . وأنشأ يوسف قوة كبيرة خاصة من فرسان جزولة ولمطة وزناتة سميت بالحشم[4]. وأنشأ كذلك فرقة خاصة لحرسه من النصارى ، معظمهم من المعاهدين الذين اعتنقوا الإسلام ، وقد نمت هذه الفرقة فى عهد ولده على ، حتى غدت جناحاً كبيراً من الجيش المرابطى ، يتألف من النصارى المرتزقة ، ويقوده القائد القشتالى الذى تسميه الرواية العربية « بالربرتير » والذى تحدثنا عنه فيما تقدم ، وقد اشتركت هذه الفرقة الأجنبية التى تسميها الرواية العربية « بالجند الروم مع الجيش المرابطى ، فى معارك عديدة ، وكانت تمتاز دائماً ببسالتها ، وفائق دربتها .

وكان ترتيب المعركة عند المرابطين يقوم على نظام خماسى . فيتقدم الجيش ، الجند المشاة ووحدات الفرسان الخفيفة ، وحملة القسى ، والرماة ، ويُرتبون فى

---

(١) أبو عبيد البكرى فى كتاب « المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب » المشتق من كتاب « المسالك والممالك » (طبعة دى سلان) ص ١٦٦ ، ونقل بعضه الحلل الموشية ص ١٠ و ١١ .

(٢) روض القرطاس ص ٨٩ .

(٣) الحلل الموشية ص ١٣ .

(٤) الحلل الموشية ص ٢٠ .

الجناحين . ويتكون القلب من وحدات الفرسان الثقيلة ، وهى التى كان لها على الأغلب القول الفصل فى المعارك . وكانت قوات المؤخرة ، أو القوات الاحتياطية يقودها أمير المسلمين بنفسه ، إذا كان مصاحباً للجيش ، وتتألف من صفوة الجند ، وقوى الحرس المختلفة من العبيد والنصارى المرتزقة . وكان لكل قسم من القوات المقاتلة قائده الخاص ، ويجتمع القادة جميعاً فى مجلس الحرب الذى يعقد قبل المعركة ، وترتب فيه خطط الهجوم والدفاع ، وفقاً لأوامر القائد الأعلى . وكان الجند يحشدون وفقاً لمختلف القبائل والأقاليم . ويؤلف جند الأندلس فى الجيش المرابطى المخصص لشبه الجزيرة وحدات خاصة ، تحمل أعلام المدن التى تنتمى إليها ، مثل إشبيلية وقرطبة وغرناطة ومالقة وبلنسية ومرسية وغيرها . بيد أن القوات الأندلسية لم يكن لها فى الجيش المرابطى كبير شأن ، وكانت القيادة العليا بنوع خاص ، تركز فى أيدى القادة المرابطين . وكانت هذه سياسة مرسومة واضحة القصد والمرمى .

وكانت نزعة الجهاد ، تغلب فى البداية على الجيش المرابطى ، وكانت تحدوه هذه النزعة المضطرمة حينما عبر إلى شبه الجزيرة لأول مرة ، وانتصر فى موقعة الزلاّقة ، ضد الجيوش النصرانية المتحدة ، واستمر يجيش بهذه النزعة إلى الجهاد ، طوال عهد يوسف ، وفى أوائل عهد ولده على . ثم خبت هذه النزعة حينما اضطربت أحوال الدولة المرابطية ، منذ فورة المهدى ابن تومرت ، وأضحى الجيش المرابطى فى المغرب ، أداة دفاعية عن كيان الدولة التى أنشأته ، ولم يعد له فى الأندلس تلك الهيبة القديمة ، التى كانت تتوجها غزواته الجهادية ضد النصارى ، ولم يلبث أن اضطر غير بعيد أن يشغل بأمر الدفاع عن نفسه فى مختلف القواعد الأندلسية .

وكان الجيش المرابطى يستعمل البنود والطبول[1] . وقد لعبت طبوله فى الزلاقة دوراً كبيراً فى إزعاج الجند النصارى ، وبث الرعب فى قلوبهم . وكان الجيش المرابطى الدائم بالأندلس يتكون من سبعة عشر ألف فارس ، منها سبعة آلاف بإشبيلية وقواعد الغرب ، وبقرطبة ألف فارس ، وبغرناطة مثلها ، وأربعة آلاف بشرقى الأندلس ، والأربعة آلاف الباقية موزعة على مختلف القواعد والثغور الأخرى . وكان يعهد بالدفاع عن الحدود والقواعد المتاخمة

---

(١) روض القرطاس ص ٨٩ .

النصارى إلى الأندلسيين ، لما لهم فى مقاتلة النصارى ومدافعتهم من خبرة خاصة ؛ وكان الفارس المرابطى فى الأندلس يتقاضى خمسة دنانير فى الشهر ، غير نفقته الخاصة ، وعلف فرسه ، ومن ظهر منهم بشجاعته وتفوقه ، يُعهد إليه بولاية موضع ينتفع بفوائده[1] .

ولم ينس المرابطون أهمية الأساطيل ، ولاسيما منذ افتتحوا الأندلس ، وغدت الأندلس ولاية مغربية ، فكانت لهم فى سبتة وقادس والمرية أساطيل دائمة . وكانت قطائع النقل ، تجتمع بنوع خاص فى مياه سبتة وطنجة ، والجزيرة الخضراء وطريف ، لتنقل الجيوش المرابطية إلى شبه الجزيرة ، ومن شبه الجزيرة إلى المغرب ، وكانت الدولة المرابطية تمتلك فى أواخر أيامها أسطولا ضخماً من القطائع والسفن المقاتلة ، حتى أن الأمير تاشفين بن على ، كان وهو يجوز معركة وهران الفاصلة ضد الموحدين ، يعلق أمله فى النجاة على الأسطول ، وقد استدعاه فعلا إلى مياه بجاية . وقد اختصت أسرة بنى ميمون عصراً بقيادة الأساطيل المرابطية ، وانتقلت هذه الأساطيل على يدهم ، إلى خدمة الدولة الموحدية حينما دالت دولة المرابطين .

وأما فيما يتعلق بالنظم المالية فقد اتبعت الدولة المرابطية ، فى البداية ، نظراً لنشأتها الدينية ، حكم الشرع فى شئون الجباية ، فكان يوسف بن تاشفين يقتصر أولا على تحصيل ما تجيزه الشريعة من الفروض ، مثل الزكاة والأعشار وأخماس الغنائم وجزية أهل الذمة . بيد أنه لما ضخمت الدولة المرابطية ، وتضاعفت جيوشها ومسئولياتها ، ولاسيما بعد افتتاح الأندلس ، واتساع نطاق أعمال الجهاد ، فى شبه الجزيرة ، لم تعد هذه الموارد الشرعية المتواضعة تكفى لمواجهة مسئولياتها العظيمة ، واضطر يوسف بن تاشفين إلى فرض الإتاوات على أهل المغرب والأندلس ، للمساهمة فى أعمال الجهاد ، ولجأ أيضاً إلى تحصيل الأموال من اليهود ، ولاسيما يهود بلدة أليسانة[2] ، بمختلف الطرق والوسائل . وكان يوسف بن تاشفين يبغض اليهود ، ويرى إرغامهم على اعتناق الإسلام ، وشجعه على ذلك بالنسبة ليهود الأندلس ، فقيه قرطبى زعم أنه وقع فى أحد الكتب ، على حديث منسوب إلى النبى ، مفاده أن اليهود تعهدوا بأن يؤمنوا بالنبى العربى ، وأن يعتنقوا الإسلام ،

---

(١) الحلل الموشية ص ٥٧ و ٥٩ .

(٢) تقع بلدة أليسانة أو اللسانة **Lucena** ، شمال غربى لوشة بولاية غرناطة .

إذا حلت الخمسمائة عام من الهجرة ، ولم يظهر لهم النبي الرسول ، الذى بشر به موسى فى التوراة ، وبأنه سوف يكون منهم ، وأن نبيهم يكون عندئذ هو نفسه نبي المسلمين ، ويتحتم عليهم اعتناق الإسلام وكان يهود الأندلس يجتمعون بالأخص فى مدينة أليسّانة المتقدمة ، وهى مدينة يهودية خالصة ، بها ربض واحد يسكنه المسلمون ، ولا يختلطون بأحد منهم ، وأهلها أغنياء مياسير ، ومن أغنى يهود العالم . وكان أمير المسلمين حين مر بتلك المدينة ، يريد أن يرغم أهلها اليهود على اعتناق الإسلام وفقاً لما تقدم ، ولكن فقيهاً آخر ، أفتى بأنه يجوز تركهم على وجه الافتداء ، فدفع اليهود مبالغ طائلة لأمير المسلمين ليحتفظوا بدينهم[1]. ثم تمادت هذه السياسة فى عهد ولده على ، ولجأ علىّ فى نفس الوقت إلى فرض القبالات والإتاوات ، على مختلف الصنائع والسلع ، فكانت القبالات تفرض على الصابون والعطور والنحاس والمغازل ، كما تفرض على كل شىء يباع جل أو صغر ، كل شىء على قدر قيمته[2] ، كما لجأ على إلى استخدام النصارى والروم فى تحصيل الجبايات[3] . ولما اضطربت أحوال الدولة المرابطية ، على أثر قيام حركة المهدى ، اشتد نفوذ النصارى فى الجيش ، وفى شئون الجبايات ، لما كان يحبوهم به على بن يوسف من ثقة وحماية ، وأساءوا معاملة المسلمين ، واشتطوا فى تحصيل المغارم والفروض ، وغلبت الفوضى على شئون الدولة المالية ، كما غلبت على غيرها .

— ٢ —

وقد اختلفت الآراء حول طبيعة الدولة المرابطية ، وطبيعة وسائلها فى الحكم ، واشتد بعض المؤرخين فى الحكم عليها ، ورميها بأقصى النعوت والصفات ، وجنح البعض بالعكس إلى امتداحها ، وامتداح عهدها وحكمها .

وكانت تعليقات العلامة المستشرق دوزى ، وحملته على المرابطين ، والدولة المرابطية ، من أشد ماصدر من الأحكام فى هذا الموضوع . ومن الأسف أن هذه الحملة التى شهرها دوزى على المرابطين ، وعلى عهدهم بالأندلس ، قد تناقلها

(١) الحلل الموشية ص ٥٨ . وراجع فى وصف مدينة أليسانة « وصف المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس » المأخوذ من نزهة المشتاق للإدريسى (طبعة دوزى) ص ٢٠٥ .

(٢) الإدريسى فى المرجع السابق ص ٧٠

(٣) الحلل الموشية ص ٦١ .

معظم الكتاب والنقدة المحدثين ، واعتبروها حكماً مبرماً ، لا يقبل جدلا ولا نقصاً .

ومن ثم فإنه لابد لنا أن ننقل أولا ما تضمنته أقوال دوزى من وجوه الطعن والنقد ، ثم نعود بعد ذلك إلى تحليلها ومناقشتها .

يقول دوزى بادىء ذى بدء : « إن الشعب (الأندلسى) لم يكن له أن يهنئ نفسه بالانقلاب الذى وقع (يعنى تحول الأندلس إلى سلطان المرابطين) . ذلك أن الحكومة والقادة والجند ، جميعاً قد فسدوا بسرعة مذهلة .

إن قواد يوسف حينما قدموا إلى اسبانيا ، كانوا حقاً أميين ، ولكنهم كانوا أتقياء شجعاناً أمناء ، وقد اعتادوا على حياة الصحراء البسيطة المتقشفة . فلما أغنتهم كنوز الأمراء الأندلسيين التى أغدقها عليهم يوسف ، فقدوا فضائلهم بسرعة ، ولم يعودوا يفكرون إلا فى أن يتمتعوا فى سلام بهذه الثروات التى غنموها . ولقد كانت حضارة الأندلس بالنسبة لهم مشهداً جديداً ، ولما كانوا يخجلون من بربريتهم ، فقد أرادوا أن يندمجوا فيها ، واتخذوا لهم مثلا من الأمراء الذين خلعوهم . بيد أنهم كانوا لسوء الحظ من ذوى الجلد الخشن ، ولم يكن بوسعهم أن يتمشوا مع النعومة ، والكياسة ، والرقة الأندلسية ، وكان كل شىء لديهم يحمل طابع التقليد الخانع القاصر » .

ثم يقول : « ولم يكن الجند (أعى المرابطين) ، بالرغم من كونهم أكثر محافظة ، أفضل من رؤسائهم ، وقد كانوا يمتازون بالقحة نحو الأندلسيين ، وبالجبن إزاء العدو . والواقع أن جبنهم كان فادحاً ، حتى أن الأمير على ، اضطر أن يتغلب على بغضه للنصارى ، وأن يحشد فى جيشه أولئك الذين كان قائد أسطوله ابن ميمون يجىء بهم من شواطىء جليقية ، وقطلونية وإيطاليا ، وبلاد بيزنطية . وأما عن قحتهم ، فإنه لم يكن لها احد . فقد كانوا يعاملون الأندلس كبلد مفتوح ، ويأخذون منها كل ما راق لهم ، من نقد ومال ونساء . وكانت الحكومة تتركهم يفعلون ذلك ، ولاتستطيع ضدهم شيئا . وكان ضعفها فى ذلك يدعو إلى الرثاء . وقد اضطر الفقهاء إلى ترك السلطان للنساء ، أو على الأقل إلى أن يشاطروهن هذا السلطان . وكان الأمير على يترك لزوجته قمر كل شىء ، وثمة نسوة أخريات كن يحكمن وفقاً لأهوائهن كبار الأعيان ، ومادام فى وسعهم أن يحققوا جشعهن ، ففى وسعهم أن يفعلوا ما شاءوا . بل لقد كان فى وسع قطاع

الطريق أن يؤملوا النجاة، إذا استطاعوا أن يشتروا حماية أولئك السيدات»[1].

هذا ما يقوله دوزى فى « تاريخه » . وإليك مايقوله فى « بحوثه » :

« فى نحو أواخر القرن الحادى عشر ، حينما استبدلت الأندلس أمراءها الوطنيين ، بمملكة إفريقية ، جاءت كحليفة ، ثم انتهت بأن فرضت سيادتها ، حدثت فى هذا البلد ثورة سريعة محزنة . فقد حلت البربرية مكان التمدن ، وحل التخريف مكان الذكاء ، وحل التعصب مكان التسامح . وأضحت البلاد تئن تحت النير المرهق الذى يفرضه رجال الدين والجند ، فلم يعد يسمع مكان المناقشات العلمية الروحية فى المعاهد ، وأحاديث الفلاسفة العميقة ، وأناشيد الشعراء ، سوى صوت الفقهاء الرتيب ، وضجيج السيوف تجر على الإفريز »[2].

ونكتفى بنقل ما تقدم من أقوال دوزى وتعليقاته عن المرابطين بالأندلس . والواقع أنه يشهر مثل هذه الحملة ، فى مواطن كثيرة من تاريخه[3]. وهو بصفة عامة شديد الوطأة على المرابطين ، وعلى عاهلهم يوسف ، ينتقص منهم كأمة ، وكدولة وحكومة ، وهو قد يكون على حق فى بعض الأحيان ، وقد نجد سنداً لحملته فى بعض الوقائع . ولكن حملته تنم على الأغلب عن روح واضح من التحامل .

ولقد رمى من قبل ، دوزى بهذا التحامل العلامة المستشرق كوديرا ، فهو يقول معلقاً ، على تلك الأحكام التى أصدرها دوزى فى حق المرابطين :

« لقد صيغت أحكام قاطعة جداً ، مجحفة بالنسبة لحكم المرابطين . ولما كنا نعتقد أنه لامبرر لهذه الأحكام ، بالرغم من مكانة دوزى العظيمة ، الذى حذا حذوه معظم الكتاب المتأخرين ، فإنا نعتقد أنه يجب علينا أن نقول شيئاً من عندنا ، لأنه إذا كان يبدو أن العلامة الهولندى يستند فى أقواله إلى وقائع مأخوذة من الكتاب المسلمين والنصارى ، فإنى أشعر أنه يجيش بكثير من التحامل ، وهذا يرجع بالأخص إلى تعصبه ضد رجال الدين ، وإلى تطبيق هذا التعصب بالنسبة للأمة الإسلامية ، وإلى ميله الواضح إلى التعميم ، وإلى أن يستخرج النتائج بالاستناد إلى قليل من الوقائع »[4].

---

(١) Dozy : Histoire des Musulmans d' Espagne (1932) V. III. p.162 - 164

(٢) Dozy : Recherches (Ed. 1881) Vol. I. p. 348

(٣) انظر مثلا : تاريخه (ج ٣ ص ١٥٥ و١٥٧ و١٦٨)

(٤) F. Codera : Decad. y Desp. de los Almorávides p. 190 & 191

والواقع أن دوزى لايجد أقوال الرواية العربية كثيراً من الأسانيد المؤيدة لحملته ، ولايعتمد فى ذلك إلا على ملخص لفقرتين أوردهما المراكشى فى « المعجب » ، يقول فى أولاهما ما يأتى :

« واختلت حال أمير المسلمين رحمه الله (مشيراً إلى على بن يوسف) بعد الخمسمائة اختلالا شديداً ، فظهرت فى بلاده مناكر كثيرة ، وذلك لاستيلاء أكابر المرابطين على البلاد ، ودعواهم الاستبداد ، وانتهوا فى ذلك إلى التصريح ، فصار كل منهم يصرح ، بأنه خير من أمير المسلمين ، وأحق بالأمر منه ، واستولى النساء على الأحوال ، وأسندت إليهن الأمور ، وصارت كل امرأة من أكابر لمتونة ومسوّفة تشتمل على كل مفسد وشرير وقاطع طريق ، وصاحب خمر وماخور ، وأمير المسلمين فى ذلك كله يتزيد تغافله ، ويقوى ضعفه ، وقنع باسم إمرة المسلمين ، وبما يرفع إليه من الخراج ، وعكف على العبادة والتبتل ، فكان يقوم الليل ويصوم النهار ، مشتهراً عنه ذلك . وأهمل أمور الرعية غاية الإهمال ، فاختل لذلك عليه كثير من بلاد الأندلس ، وكادت تعود إلى حالها الأولى ، ولاسيما مذ قامت دعوة ابن تومرت بالسوس »[1].

ويقول فى الثانية : « وكان (أى على بن يوسف) رجلا صالحاً مجاب الدعوة ، يعد فى قوام الليل ، وصوام النهار ، إلا أنه كان ضعيفاً مستضعفا ، ظهرت فى آخر زمانه مناكر كثيرة ، وفواحش شنيعة ، من استيلاء النساء على الأحوال ، واستبدادهن بالأمور ، وكان كل شرير من لص أو قاطع طريق ، ينتسب إلى امرأة قد جعلها ملجأ له وزراً على ما تقدم »[2] .

هذا ما يقوله المراكشى . ولنلاحظ أولا أن المراكشى يجانب الدقة التاريخية فى أحيان كثيرة ، وهو ما يعترف به ويعتذر عنه فى مقدمته ، ثم هو بعد ذلك كاتب ومؤرخ موحدى من أولياء الدولة الموحدية وصنيعة بعض أمرائها ، ومن ثم فإنه يصعب علينا أن نتخذ من أقواله دائماً حجة قاطعة ، ومن جهة أخرى فإنه يوجد إلى جانب هذه الأقوال ، أقوال أخرى لمؤرخين وكتاب ، عاش بعضهم فى العهد المرابطى أو قريباً منه ، تشيد بحكم المرابطين وأيامهم ، فمن ذلك ما يقوله صاحب الحلل الموشية ، معلقاً على عهد يوسف بن تاشفين :

---

(١) المعجب ص ٩٨ و ٩٩ .

(٢) المعجب ص ١٠٣ .

« أقامت بلاد الأندلس فى مدته سعيدة حميدة ، فى رفاهية عيش ، وعلى أحسن حال ، لم تزل موفورة محفوظة إلى حين وفاته ، وقد كان الجهاد انقطع بها منذ تسع وسبعين سنة من مدة آل عامر إلى حين دخوله إليها . قدم أشياخ المرابطين فيها وكانوا أقواماً ربتهم الصحراء ، نيتهم صالحة لم تفسدها الحضارة، ولا مخالطة الأسافل »[1] .

وما ينقله إلينا عن القاضى أبى بكر بن العربى ، وهو ماجاء فى كتابه فى شرح الترمذى ، وهو قوله :

« المرابطون قاموا بدعوة الحق ، ونصرة الدين ، وهم حماة المسلمين ، الذابون والمجاهدون دونهم ، ولو لم يكن للمرابطين فضيلة ولاتقدم إلا وقيعة الزلاّقة التى أنسى ذكرها حروب الأوائل ، وحروب داحس والغبراء مع بنى وائل ، لكان ذلك من أعظم فخرهم ، وأربح تجرهم »[2] .

والقاضى ابن العربى من أعلام فقهاء الأندلس فى العصر المرابطى ، وقد توفى فى سنة ٥٤٢ھ ، على أثر عوده من لقاء عبد المؤمن، عقب افتتاحه لمراكش، وكان قد وفد إليه على رأس زعماء إشبيلية ، ليقدم إليه بيعة أهلها ، حسبما أشرنا إليه فى موضعه . هذا وينقل إلينا صاحب روض القرطاس عن ابن جنّون الفقرة الآتية :

«كانت لمتونة أهل ديانة ونية صادقة خالصة ، وصحة مذهب ، ملكوا بالأندلس من بلاد الفرنج إلى البحر الغربى المحيط ، ومن مدينة بجاية من بلاد العدوة ، إلى جبال الذهب من بلاد السودان . لم يجر فى عملهم طول أيامهم رسم مكروه ، معونة ولاخراج فى بادية ولا فى حاضرة ، وخطب لهم على أزيد من ألفى منبر . وكانت أيامهم دعة ورفاهية ورخاء متصل ، وعافية وأمن . . كان ذلك مصطحباً بطول أيامهم ، ولم يكن فى بلد من أعمالهم خراج ولامعونة ، ولاتقسيط ، ولا وظيف من الوظائف المخزنية ، حاشا الزكاة والعشر ، وكثرت الخيرات فى دولتهم ، وعمرت البلاد ، ووقعت الغبطة ، ولم يكن فى أيامهم نفاق ولاقطاع طريق ، ولامن يقوم عليهم ، وأحبهم الناس إلى أن خرج عليهم محمد بن تومرت مهدى الموحدين سنة خمس عشرة وخمسمائة »[3] .

---

(١) الحلل الموشية ص ٥٩ .

(٢) الحلل الموشية ص ١٠٥ .

(٣) راجع روض القرطاس ص ١٠٨ ، ونقله أيضاً السلاوى فى الإستقصاء ج ١ ص ١٢٨ .

ويبدو من كل ما تقدم أن الحكم على العهد المرابطى ، كالحكم على أى عهد آخر من عهود التاريخ ، يتردد بين القدح والمديح . ونحن لانود أن نقف اعتباطاً عند إحدى الوجهتين . بيد أنه يلوح لنا أنه إذا كان حكم المرابطين ، ولاسيما فى الأندلس ، قد ينطوى من بعض نواحيه على أخطاء ومثالب ، فإنه من الناحية الأخرى ، قد أغمط حقه وبولغ فى انتقاصه والحملة عليه .

ولنقف هنا لحظة لنحاول أن نستعرض بعض العوامل والأسباب التى هيأت ذلك الجو المجحف بسمعة المرابطين ، وأذكت ضدهم حملة الانتقاص والتشهير التى ما زال صداها يتردد حتى يومنا . ويلوح لنا أن هذه العوامل ترجع إلى ثلاثة أمور يمكن أن نلخصها فيما يلى :

الأول ، هو ما اقترن بالفتح المرابطى لممالك الطوائف الأندلسية من مظاهر القسوة البالغة ، ومن قتل عدد من أمراء الطوائف بصورة مثيرة ، مثل بعض أبناء المعتمد بن عباد ، والمتوكل بن الأفطس وولده وغيرهم من الأمراء والأكابر ، ونهب الأموال ، ومعاملة الجند المرابطين لقواعد الأندلس معاملة المدن المفتوحة ، والعيث فيها دون وازع . وقد كان المسئول الأول فى ذلك هو سير بن أبى بكر اللمتونى كبير القادة المرابطين وفاتح إشبيلية وبطليوس . وفى اعتقادنا أنه لوكان عاهل المرابطين يوسف بن تاشفين موجوداً فى شبه الجزيرة فى تلك الفترة ، لأمكن اجتناب كثير من هذه الحوادث الدموية ، وهذا العيث الفظيع . على أنه يمكن أن نقول من جهة أخرى أن قسوة أمير المسلمين فى معاملة المعتمد بن عباد وهلاكه فى سجنه بأغمات ، على النحو المؤسى الذى وقع ، كانت أيضاً مادة خصبة لتغذية هذه الحملة المرة على المرابطين . وقد كان لما صدر من المعتمد فى سجنه من النظم المبكى ، أعمق وقع وأبعد صدى فى تصوير هذا الأمير الشاعر ، بالرغم من كل ما أحاق بسيرته وسلوكه من أخطاء ومثالب ، فى صورة الشهيد الذى يستحق أبلغ عطف . ونحن نجد ذلك الصدى بالأخص ، فضلا عن الأدب والشعر الأندلسى ، ماثلا لدى الكتاب والمؤرخين المشارقة . وقد كان لحملاتهم العنيفة على أمير المسلمين وعلى المرابطين ، أكبر الأثر فى إذكاء هذه الحملة التى صدعت من هيبة المرابطين وهيبة عاهلهم حتى عصرنا .

والأمر الثانى ، هو ما وقع منذ بداية عهد على بن يوسف من مطاردة كتب الدين والفلسفة وغيرها ، ولاسيما كتب الأصول وفى مقدمتها كتب الغزالى . وقد

أشرنا فيما تقدم إلى ماكان من تأثير الفقهاء على أمير المسلمين على بن يوسف. ولم يك ثمة شك فى أن مطاردة الحركة الفكرية على هذا النحو يرجع قبل كل شىء إلى وحى الفقهاء وتدبيرهم . وقد كان لهذه السياسة ، أثر بالغ فى إذكاء عاطفة السخط ضد المرابطين بالأندلس ، ولاسيما فى البيئة الفكرية ، وفى توجيه الأقلام ضدهم أوعلى الأقل فى حرمانهم من عطف هذه الأقلام . ومما هو جدير بالذكر أنه فيما عدا أمثلة قليلة ، يندر أن نجد فى الأدب الأندلسى من نظم أو نثر خلال العهد المرابطى ، مدائح شعرية أو رسائل نثرية تشيد بالمرابطين أو أمرائهم .

والأمر الثالث ، هو الحملة العنيفة المضطرمة التى شهرها المهدى ابن تومرت ضد المرابطين ، ونحن نعتقد أن هذه الحملة كانت أخطر عامل فى القضاء على هيبة الدولة المرابطية ، وسمعتها الدينية ، وهى الدعامة التى قامت عليها . والواقع أن ابن تومرت قد لمس فى دعايته ضد المرابطين أشد النواحى حساسية وتأثيراً ، وذلك حينما صور المرابطين بأنهم كفار خوارج على شريعة الإسلام ، وأنهم قد ارتكبوا كثيراً من المناكر المثيرة ، من إباحة للمحرمات من ذيوع الخمر ، والقصف والفسق ، واغتصاب أموال الناس بالباطل ، وغير ذلك مما كانت مظاهر العاصمة المرابطية ، وأحوال الدولة المرابطية ، والمجتمع المرابطى ، تؤيده فى ذلك الوقت بصفة فعلية . وقد استمرت هذه الدعاية الملتهبة التى شهرها المهدى ضد المرابطين طول حياته ، واستمرت من بعده ، وحتى بعد أن سقطت الدولة المرابطية ومحيت آثارها ، وكان لها أبلغ الأثر فى القضاء على هيبة المرابطين وسمعتهم بصفة نهائية .

تلك هى العوامل التى اجتمعت لتصدع من هيبة الدولة المرابطية ، ولتسبغ على سيرتها ، وعلى ذكرياتها لدى الأجيال اللاحقة ، ذلك اللون القاتم ، الذى تأثل بمضى الزمن ، وبما جنحت إليه التواريخ والكتابات المتعاقبة ، من الأخذ به دون تمحيص أو تفنيد .

وما من شك فى أن الدولة المرابطية قد لبثت طوال عهد مؤسسها العظيم يوسف بن تاشفين ، وهو نصف حياتها ، دولة مجاهدة ، تحتفظ بكثير من فضائلها الأولى ، من التقشف والمنعة والعدالة والتمسك بأحكام الكتاب والسنة . وقد كان افتتاح المرابطين للأندلس على النحو الذى تقدم ، بعد عبورهم إليها إخوة منقذين ، أول سحابة قاتمة أسبلت على دولتهم ، وعلى سياستهم ومراميهم . وقد ناقشنا هذه المسألة فى موضعها من كتابنا « دول الطوائف » ، وأوضحنا مالها وما عليها ، على ضوء

الظروف التى أحاطت بها . بيد أنه مهما قيل فى هذه المسألة ، فإن الفتح المرابطى للأندلس ، فضلا عن كونه حدث يتفق مع روح العصر الذى وقع فيه ، لا يمكن أن يُمحى ما تقدمه ، وما أعقبه من فضل المرابطين فى الجهاد ، وسحقهم لجيوش اسبانيا النصرانية ، فى موقعة الزلاّقة العظيمة ، التى كانت أروع مثل لبطولتهم وجهادهم فى سبيل الله ، وإنقاذهم الأندلس بذلك من خطر الفناء الداهم . ولا يمكن أن يمحى فضلهم بعد ذلك فى الذود عن الأندلس ، وحمايتها من مطامع ألفونسو المحارب ملك أراجون ، وألفونسو ريموندیس ملك قشتالة . ويكفى أن نستعرض فى تلك الحقبة ، مراحل جهادهم وغزواتهم فى أراضى اسبانيا النصرانية ، منذ موقعة أقليش (٥٠١ هـ) حتى موقعة إفراغة (٥٢٨هـ) ، وهى تنطوى على صفحات مشرقة من الجهاد فى سبيل الله ، والذود عن الدين والوطن ، وفيها تبدو بسالة هذه الجمهرة الممتازة من القادة المرابطين ، الذين سبق أن ذكرناهم غير مرة فيما تقدم .

ومن المسلم به أن هذه الصفحات من جهاد المرابطين فى سبيل إنقاذ الأندلس والذود عنها ، هى أنصع ما فى تاريخهم من تلك الفترة التى حكموا فيها الأندلس .

على أنه يجب من جهة أخرى ألا نبالغ فى تقدير هذه النزعة الجهادية ، وهذه الصفحة من الجهاد المرابطى فى الأندلس ، فإنه يوجد ثمة مايغشى صفاءها ، وينتقص من عظمتها . ذلك أن المرابطين كانت لديهم بعد نصر الزلاقة الحاسم ، أكثر من فرصة لمهاجمة اسبانيا النصرانية وضربها فى الصميم ، وكان بوسعهم لو صدقوا العزم ، وضاعفوا الهمة ، أن يستردوا مدينة طليطلة العظيمة ، قبل أن تنتعش قوى اسبانيا النصرانية من ضربة الزلاقة . ولكنهم لم يبذلوا هذه المحاولة فى وقتها . وقد ناقشنا هذه المسألة فى موضعها عند الكلام على نتائج موقعة الزلاقة .

أجل إن المرابطين ، حاولوا فى بداية عهد على بن يوسف ، استرداد طليطلة ، وهاجموها وحاصروها مرتين ، الأولى فى سنة ٥٠٣ هـ (١١٠٩ م) ، والثانية فى سنة ٥٠٧ هـ (١١١٤ م) ، ولكنهم أخفقوا فى المرتين ، بالرغم بما بذلوه فى كل مرة من الجهود العنيفة . ذلك أن الفرصة كانت قد ولّت ، والوقت قد فات . ولما اضطربت شئون اسبانيا النصرانية بعد ذلك بقليل ، وشغلت بحروبها الأهلية ، لم يكن بوسع المرابطين أن يستغلوا هذه الفرصة ، لما دهمهم بالمغرب من ثورة المهدى ابن تومرت ، وعجزهم عن أن يبعثوا إلى شبه الجزيرة بقوات كبيرة .

وثمة سقطة أخرى تصدع من قيمة جهاد المرابطين بالأندلس ، هى موقفهم من الدفاع عن مدينة سرقسطة . فقد رأينا فيما تقدم ، كيف تخلى المرابطون ، وأميرهم أبو الطاهر تميم بن يوسف ، عن الاستجابة إلى صريخ المدينة المنكوبة ، ورفضوا بذل أية محاولة لإنقاذها ،وآثروا الانسحاب والسلامة ، مع أنهم كانوا يرابطون فى ظاهرها على مقربة من النصارى المحاصرين لها ، وترتب على ذلك أن اضطرت المدينة العظيمة المسلمة إلى التسليم (سنة ٥١٢ هـ) . وتنوه الرواية الإسلامية بما ينطوى عليه هذا الموقف من الجبن والخزى ، وهو موقف كان له أكبر الأثر فى النيل من هيبة المرابطين العسكرية .

أما حكم المرابطين للأندلس ، فإنه يبقى من الناحيتين الإدارية والاجتماعية ، عرضة لكثير من وجوه المؤاخذة والنقد . ومن الواضح أن المرابطين وضعوا الأندلس ، عقب افتتاحها ، تحت حكم عسكرى مطلق ، ونزعوا أبناءها كل سلطة فعلية فى حكم بلادهم ، واحتفظوا للمرابطين بسائر المناصب العليا من ولاية وقيادة ، وبالرغم من أن أولئك الولاة والقادة المرابطين ، كانوا على الأغلب رجالا ، من ذوى الحزم والبراعة العسكرية ، والصفات البدوية النقية ، فإنه كان ينقصهم المرونة والكياسة فى حكم أمة متمدنة كالأمة الأندلسية ، وكانت أساليبهم العنيفة الخشنة فى ذلك ، تجافى ماطبعت عليه الأمة الأندلسية من الأساليب الرفيقة المصقولة . ولم تظهر آثار هذا الحكم المطلق فى صورها البغيضة ، أيام يوسف بن تاشفين ، حيث كانت هيبة البطل المرابطى ، وحزمه وبعد نظره ، وميله إلى تحقيق العدالة ، ورفع المظالم ، تلطف كثيراً من وقع الحكم الحديد ، على الأمة التى كانت تشعر نحوه بشكر الصنيعة . واستطاع ولده علىّ فى أوائل حكمه ، أن يحتفظ بقسط من محبة أهل الأندلس وتقديرهم . وقد كان فى الواقع أميراً صالحاً ، محباً للخير ، يضمر أحسن النيات بالنسبة للأندلس ، والذود عنها ، وبالنسبة لطرائق حكمها ، وذلك حسبما تدل عليه عدة من الرسائل الرسمية ، التى صدرت عن ديوانه فى شئون الأندلس ، والتى وفق البحث أخيراً إلى نشرها ، لتلقى ضوءاً جديداً ، على كثير من النواحى السياسية والنظامية المتعلقة بتاريخ العهد المرابطى فى الأندلس[١] .

---

(١) عنى بتحقيق هذه الرسائل ونشرها الدكتور محمود على مكى فى صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ، وذلك عن مخطوط مغربى كان ضمن تركة المرحوم الأستاذ ليڤى بروڤنسال ، وحصل عليه معهد =

فنى إحدى هذه الرسائل ، وهى المؤرخة فى شوال سنة ٥٠٧ﻫ ، ينوه على ابن يوسف ، بالحركة التى يعدها للجهاد ، وبكونه قد بالغ فى الاحتشاد والاستعداد ، ويؤكد لمن وجهت إليهم الرسالة ، إخلاص نيته ، وصدق حميته « فى نصر دين الإسلام ، ومنع جانبه أن يضام ، أو يناله من عدوه اهتضام »[١].
وفى رسالة أخرى ، وهى التى يشير فيها إلى ما عرضه عليه القاضى أبو الوليد ابن رشد ، عن شئون الأندلس (والمرجح أنها وجهت أوائل سنة ٥٢٠ ﻫ) يبدى على عطفه وإشفاقه على الأندلس ، ويؤكد أنه لن يدخر وسعاً « فى الذود عن حوزة الملة »[٢] . وتوجد ثمة رسائل أخرى ، تنم عن يقظة الأمير واهتمامه بشئون الأندلس ، وتنبه لما يدبره أعداؤها ضدها[٣] . وإلى جانب ذلك توجد عدة رسائل تنم عن صفة الحكم المرابطى وطبيعته الدكتاتورية المطلقة . من ذلك ما ورد فى الرسالتين السادسة والسابعة ، من حث الأمير على طاعة الحاكم ، واعتباره فى كل ما يصدر عنه متحكم باسمه ، ومنفذ لرأيه[٤] ، ليس لأحد معه فى ذلك من يد ، ولا مصدر ولا مورد ، « قد فوضنا إليه ذلك كله ، وأفردناه النظر فى دقه وجله ، وكثره وقله ، وحكمناه فى جميعكم ، يثيب من استحق الثواب ، ويعاقب من استحق العقاب »[٥] ، وكذا فى الرسالة الثالثة عشرة ، وهى الصادرة فى شهر المحرم سنة ٥٠٠ ﻫ ، ولعلها أول رسالة وجهها على بن يوسف عقب توليه الملك ، وفيها يوصى بالطاعة والولاء للوالى أبى محمد ابن فاطمة « ما أمركم به أتيتموه ، وما نهاكم عنه تركتموه »[٦] .

بيد أنه توجد طائفة أخرى من هذه الرسائل ، تدل على أن الأمير كان يعنى فى نفس الوقت بالعمل على تجنب الاستبداد ، واتباع الشورى ، وعدم الاستئثار بالرأى . وهذا ما يوصى به ولده أبا بكر فى الرسالة التى يوجهها إليه بتاريخ

= الدراسات الإسلامية ، وقد نشرت بالمجلدين السابع والثامن فى الصحيفة المذكورة ، تحت عنوان « وثائق تاريخية جديدة عن عصر المرابطين » (ص ١٠٩ — ١٩٨) .

(١) صحيفة معهد الدراسات الإسلامية (المجلد المشار إليه ص ١٦٨) .

(٢) صحيفة معهد الدراسات الإسلامية (المجلد السالف) ص ١٦٧ .

(٣) راجع بالأخص الرسالة الثانية عشرة (ص ١٨٠ و١٨١) .

(٤) راجع الرسالة السادسة ص ١٧٥ .

(٥) راجع الرسالة السابعة ص ١٧٦ .

(٦) الرسالة الثالثة عشرة ص ١٨٢ .

صفر سنة ٥٢٠ هـ ، بمناسبة تعيينه قائداً عاما للجيوش المرابطية بالأندلس(١) . وثمة رسالة موجهة من الأمير إلى محمد بن فاطمة ، يحثه فيها على أن يستعمل من العمال ، من يتبع الرفق والعدل ، وأن يعزل منهم من ينحرف عن الأحكام ومن يأخذ أموال الرعية ظاماً ، وأن يعاقبه على ذلك ويلزمه برد ما أخذ(٢) .

هذا وتوجد ثمة رسالة هامة ، تدل على عناية علىّ بأمر القضاء ، وحسن تنظيمه ، وبإقامة العدل واستتبابه ، وهى رسالة موجهة منه إلى الوحيدى قاضى مالقة ، فى شهر ذى الحجة سنة ٥٢٣ هـ ، وذلك على أثر ما قام بعض المرافعين (المتقاضين) من السفر إلى مراكش ، والتظلم لدى الأمير ، وفيها يعرف موضوع القضاء بأنه « رفع المشكلات ، وتمييز الحقائق من المتشابهات والفصل بعد التبرم فى الدعاوى والمنازعات » ، ويطلب أن تنظر « شكاوى العامة فى النطيف والجليل » ، وأن يجرى التعرف على شئون الرعية ، وأن يجرى الحق فى كل ما رفع من أحوالها ، وما وقع فيه التظلم من عمالها ، وأن الأمر فى ذلك معلق على حسن اختيار النواب فى الأقطار ، وأنه يجب أن يتوفر فى هؤلاء « الثقة والديانة والصون والأمانة » ، فإذا وقع من أحدهم تعد أو جور ، كان له أن يطلب عزله إلى الحاكم الذى يتبعه ، فإن توانى فى ذلك ، فله أن يرفع الأمر إلى الأمير مباشرة . وفى الرسالة بعد ذلك حث على تحصيل الزكوات ، على تباين أنواعها ، وموجب فريضتها دون تحريف ولا تبديل(٣) .

هذا مجمل ما تدلى به هذه المجموعة من الرسائل المرابطية : فهى من جهة تدلى بما كانت تنطوى عليه نفس أمير المسلمين من نيات صادقة فى الأخذ بيد الأندلس ، والذود عنها ، وتدلى من جهة أخرى بما كانت تحرص عليه الحكومة المرابطية من جمع سائر السلطات بين يديها .

وكان الحجر على حرية الفكر من أسوأ صور الحكم المرابطى المطلق . ونحن نعرف ما عمد إليه أمير المسلمين على بن يوسف ، بتحريض فقهائه : من مطاردة كتب الأصول ، وفى مقدمتها كتب الإمام الغزالى ، ولاسيما كتاب « إحياء علوم الدين » (سنة ٥٠٧ هـ) . وقد لبثت هذه المطاردة طوال العهد المرابطى ،

---

(١) راجع الرسالة الثالثة ص ١٦٩ .

(٢) الرسالة الخامسة عشرة ص ١٨٣ و ١٨٤ .

(٣) تراجع هذه الرسالة الهامة وهى الرابعة من المجموعة فى ص ١٧٠ — ١٧٤ .

فنرى مثلا فى الرسالة التى وجهها أمير المسلمين تاشفين بن على بن يوسف ، إلى فقهاء بلنسية وأعيانها وأهلها ، فى جمادى الأولى سنة ٥٣٨هـ ، إلى جانب ما تحض عليه من وجوب الرفق بالرعية ، وإجراء العدل ، وتحقيق المساواة بين الناس ، والأخذ بمذهب مالك ، دون غيره ، فى الفتيا وسائر الأحكام ، حثاً على مطاردة كتب البدعة ، «وخاصة كتب أبى حامد الغزالى» ، وأنه يجب « أن يتتبع أثرها ، ويقطع بالحرق المتتابع خبرها ، ويبحث عليها ، وتغلظ الأيمان على من يتهم بكتمانها »(١).

ومن الواضح أن هذه المطاردة الفكرية لم تكن تقف عند كتب الأصول وكتب الغزالى ، ولكنها كانت تشمل سائر المصنفات الكلامية والفلسفية ، التى تنكرها التعاليم المرابطية ، وغيرها مما تصفه الرسالة « بكتب البدعة » . وكان من ضحايا هذه المطاردة ، عدة من المفكرين الأندلسيين ، ومنهم العلامة الصوفى أبو العباس أحمد بن محمد الصنهاجى الأندلسى المعروف بابن العريف ، حيث نفاه أمير المسلمين على بن يوسف من بلده ألمرية إلى مراكش(٢) .

ثم إنه يبدو من جهة أخرى أن الحكام المرابطين بالأندلس ، لم يبدو حزماً كافياً فى قمع طغيان الجند والعبيد التابعين لهم ، وأن هؤلاء كانوا يرتكبون ضد أبناء الشعب الآمنين ، ضروباً مثيرة من التعدى والأذى . وهذا ما يسجله لنا وزير وكاتب أندلسى كبير معاصر ، هو أبو محمد عبد المجيد بن عبدون ، المتوفى سنة ٥٢٠هـ ، (١١٢٦ م) وقد كان من كتاب الأندلس الذين خدموا فى بلاط على بن يوسف ، يسجله لنا فى رسالته التى وضعها عن القضاء والحسبة ، حيث يقول عند « ذكر المرابطين » :

« يجب ألا يُلثم إلاّ صنهاجى أو لمتونى أو لمطى ، فإن الحشم والعبيد ومن لا يجب أن يُلثم ، يلثمون على الناس ويهيبونهم ، ويأتون أبواباً من الفجور كثيرة ، بسبب اللثام ، وهمّاً ، ويُكلم فى ذلك مع السلطان ، فإنهم عتاة . ويمتاز بذلك من عسى أن يُكرم أو يُوقر ، أو تُقضى له حاجة من المرابطين ، لأن العبيد

---

(١) وردت هذه الرسالة فى المخطوط رقم ٥٣٨ الغزيرى بالإسكوريال وقام بنشرها الدكتور حسين مؤنس ضمن مجموع النصوص السياسية المرابطية ، وذلك فى مجلة المعهد المصرى بمدريد (العدد الثالث سنة ١٩٥٥) ص ١١٠ — ١١٣ . وقد نشرناها نحن فى باب الوثائق .

(٢) راجع فى ترجمة ابن العريف ابن خلكان ج ١ ص ٦٧ ، والصلة لابن بشكوال (القاهرة) الترجمة رقم ١٧٦ .

أو الحشم إذا تلثم وغيّر شكله ، حسبته رجلا مثيلا ، فتجرى إلى برّه وإكرامه ، وهو لايتأهل لذلك . يجب ألا يمشى أحد فى المدينة[1] بسلاح ، فإن ذلك داعية إلى الفساد ، ولاسيما البربر ، فإنهم قوم إذا غضبوا ، قتلوا أو جرحوا .

عبيد المرابطين إن تلثموا ، فتكون علامة يعرفون بها ، مثل أن يتلمثوا بخمار أو بمئزر وشبه ذلك . وكذلك الحشم والأتباع ، يكون شكلهم غير شكل المرابطين ، وهذا أحسن إن قُدر عليه ، وفيه منافع كثيرة . يجب أن يُحمل مكان السلاح التى يحبسونها ، إما أسواط لدوابهم ، وإما أقزال ، وهو الرمح الصغير »[2].

فهذه الأقوال ، تدل على أن طوائف الحشم والعبيد التابعة للحكام والسادة المرابطين ، كانت تعتدى على الناس ، وتعبث بالأمن ، تحت ستار اللثام الوهمى . كما تدل على أن الجند البربر كانوا يتسمون بالنزق وتوتر الأعصاب ، مما يدفعهم إلى القتل والجرح بسهولة ودون تحوط .

وكذلك ليس ثمة شك فى أن الحكم المرابطى بالأندلس ، أخذت تشتد وطأته شيئاً فشيئاً ، ولاسيما مذ بدأ اضطراب أحوال الدولة المرابطية بالمغرب ، على أثر ظهور المهدى ابن تومرت ، واشتداد حركته فى أواخر عهد على بن يوسف ، وعمد الحكام المرابطون عندئذ إلى تشديد قبضتهم فى مختلف القواعد ، واشتدوا فى معاملة الأندلسيين ، وكانت بوادر الخصومة والجفاء ، قد ظهرت قبل ذلك بين الفريقين ، وكان أخص مظاهرها ثورة قرطبة التى اضطرمت ضد المرابطين منذ سنة ٥١٤ هـ ، ودلت بعنفها على حالة الأندلسيين النفسية ، وما يضمرونه من بغض للحكم المرابطى ووسائله . وكان انشغال حكومة مراكش بحركة المهدى ، وتضاؤل رقابتها ، على شئون الأندلس ، عاملا له أثره فى ازدياد مثالب الحكم المرابطى بالأندلس ، وترك حبله على الغارب ، إلى الحكام المحليين ، وكان من أثر ذلك أن ازداد سخط الشعب الأندلسى وحفيظته ، وشعوره باقتراب الفرصة السانحة ، للتحرر من نير حكم أجنبى ، أضحى يرهقه ، وأضحى يتوق هو إلى تحطيمه .

ونحسب أننا بهذا الاستعراض الموجز لظروف الحكم المرابطى وأحواله

---

(١) وهو يقصد هنا مدينة إشبيلية ، حسبما يبدو من سياق ما سبق .

(٢) رسالة ابن عبدون فى القضاء والحسبة المنشورة بعناية الأستاذ ليڤى بروڤنسال ص ٢٨ .

بالأندلس ، قد أوضحنا ما ينطوى عليه هذا الحكم من مختلف نواحيه الحسنة والسيئة . وإذا كانت حسنات الحكم المرابطى تتلخص قبل كل شىء فى أعمال الجهاد التى اقترنت بحقبته الأولى ، فإن مثالبه تتلخص فى استئثار المرابطين بالسلطان ، وفرضهم على الأندلس حكم طغيان مطاق ، شديد الوطأة ، لم تألفه الأمة الأندلسية ، ويزيد من وطأته عدوان الجند والعبيد ، ثم حجرهم على العقائد والفكر . بيد أنه يبقى من المبالغة والتحامل ، أن يقال إنه بقيام الحكم المرابطى بالأندلس « قد حلت البربرية مكان التمدن ، وحل التخريف مكان الذكاء ، وحل التعصب مكان التسامح »[1]. ذلك أن مثل هذا الحكم الدامغ ، لايسوغ إصداره عن عصر كالعصر المرابطى ، تتراوح أحواله وظروفه بين مختلف الظواهر اللامعة والقاتمة . وإذا كان المرابطون ، ينتمون إلى القبائل البربرية البدوية ، فقد كانوا على بداوتهم وتقشفهم يتمتعون بكثير من الفضائل والخلال الحسنة ، من الشجاعة والفروسة والورع ، والتعلق بالجهاد فى سبيل الله ، وقد أتيح لهم بهذه الفضائل ، أن يشيدوا دولة من أعظم الدول التى قامت فى الغرب الإسلامى ، وإن لم يتح لهم أن يشيدوا مدنية خاصة . أجل لقد فقد المرابطون بتعصبهم الجنسى ، وتزمتهم الدينى ، حب الشعب الأندلسى ، ولكنهم لم يحاولوا تغيير أساليبه فى الحياة الخاصة ، ولم يحاولوا وقف تيار الحركة الفكرية والأدبية ، بل بالعكس حاولوا أن يوجهوها لمعاونتهم وخدمة قضيتهم ، فكان معظم وزراء الدولة المرابطية وكتابها ، منذ البداية ، من أكابر كتاب الأندلس وأدبائها ، وكان بلاط مراكش البربرى ، يصدر كتبه ومراسيمه لأهل الأندلس ، مدبجة بأقلام أقطاب البلاغة فى ذلك العصر ، مثل أبى بكر بن القصيرة ، وأبى القاسم بن الجد ، وأبى محمد عبد المجيد بن عبدون ، وأبى عبد الله بن أبى الخصال ، وغيرهم . وإذن فإنه يكون من التعسف المحض أن يقال إنه بقيام الحكم المرابطى بالأندلس « قد حلت البربرية مكان التمدن » .

ويقول الأستاذ كوديرا معلقاً على ذلك : « إن ذلك لم يحدث بأى حال . فإن حياة المسلمين الإسبان سارت كما كانت تسير حتى يومئذ . وإنه يمكن أن نتحدى أى شخص يقوم بدراسة سير الشخصيات التى تضمها معاجم التراجم ، وأن يجد فيها خلافاً فى طريقة تكوين الأدباء ، أو بعبارة أخرى ، فإن رجال

---

(١) راجع أقوال دوزى السالفة الذكر .

الأدب حتى عصر الطوائف ومن بعده ، كانوا يدرسون ما يشاءون ، ومع الأساتذة الذين يختارونهم ، إذ كان التعليم بين المسلمين حراً تماما ، إلا فى العصور الأخيرة .

« ففى تراجم الشخصيات الكثيرة التى تبدو فى ذلك العصر ، ومعظمهم من المسلمين الإسبان ، وقليل منهم من المرابطين ، لانجد شيئاً أو نجد قليلا مما يدل على حدوث تغيير . وإن أولئك الذين عرفوا حكومات الطوائف ، رأوا أنفسهم مرغمين أن يغيروا طريقة حياتهم ، ورأى رجال البطانة المداهنون والعاطلون ، أن التغيير سوف يسوءهم ، إذا لم يملقوا السادة الجدد ، بيد أن ذلك يحدث دائماً حينما يتغير أهل السلطان »(١).

— ٣ —

وإنه ليبدو من الصعب أن نقدم صورة واضحة عن حياة الشعبين المغربى والأندلسى ، فى العهد المرابطى . بيد أننا نستطيع على ضوء بعض الإشارات القليلة التى انتهت إلينا ، أن نعرف عن هذه الحياة بعض الشىء .

ومن المعروف أن العهد المرابطى لم يطل بالأندلس أكثر من أربعين عاما ، وهو قد بدأ بالمغرب قبل ذلك بنحو عشرين عاما ، فالدولة المرابطية لم تعش فى حالة انتظام واستقرار ، أكثر من جيلين ، هما عصر يوسف بن تاشفين ، وعصر ولده على ، وحتى فترة الاستقرار فى عهد على لم تطل ، ومذ ظهر محمد ابن تومرت ، فى سنة ٥١٥ هـ ، تضطرب أحوال الدولة المرابطية بالمغرب ، ثم تسوء شيئاً فشيئاً ، حتى تنتهى بالانهيار .

فى خلال تلك الفترة القصيرة — فترة الاستقرار — مذ أتم يوسف بن تاشفين فتوح المغرب ، والتغلب على سائر الإمارات والقبائل الخصيمة ، وتأسيس مدينة مراكش ، تجوز الأمة المغربية فترة سكينة ورخاء ، بعد أن هدأت فترة الحروب الأهلية ، وأقبل الناس على الأعمال السلمية . وتمتعت الأندلس ، منذ الزلاّقة ، ثم بعد ذلك مذ سقطت دول الطوائف ، بمثل هذه الفترة من السكينة والرخاء . وكانت الأمة الأندلسية ، أيام الطوائف ، تعانى من حكم أولئك الطغاة الأصاغر ، كثيراً من ضروب الظلم والإرهاق ، ولاتكاد تفيق من الحروب الأهلية التى يشهرها أولئك الأمراء كل على الآخر ، والغزوات المتوالية التى

---

(١) F. Codera . Decad. y Desp. de los Almoràvides p. 199 & 200

كان يشهرها النصارى ، والتى كانت تعصف بوديانها النضرة ، وتبث إليها الخراب والجدب . فلما قضى المرابطون على دول الطوائف ، ووضعوا حداً موقتاً لعدوان النصارى ، ولما شغلت اسبانيا النصرانية ، بحروبها الأهلية ، عقب وفاة ألفونسو السادس ، استطاعت الأمة الأندلسية ، أن تتنفس الصعداء ، وأن تستأنف نوعاً من حياة السلم والدعة . وهنالك مايدل أيضاً على أنها تحررت فى ظل العهد المرابطى ، أو على الأقل فى نصفه الأول ، من كثير من المكوس والمغارم الظالمة ، التى كانت تفرض عليها أيام الطوائف ، لتغذية قصور أولئك الطغاة الأصاغر ، بما كانت تنعم به من ضروب الإسراف والبذخ .

على ضوء هذه القرائن والظروف ، نستطيع أن نقول إن الأمة الأندلسية ، كانت فى أعوام يوسف بن تاشفين الأخيرة ، وفى أوائل عهد ولده على ، تتمتع بفترة من السكينة والرخاء ، لم تعرفها منذ أيام الدولة العامرية ، وقبل انهيار الخلافة الأندلسية . وإذا استثنينا ما فرضه المرابطون على الحياة العقلية ، وعلى الطبقة المفكرة ، من ضروب الحجر ، فإنه يبدو أن طبقات الشعب العادية ، كانت تشعر بتحسن مادى فى حياتها ، وكانت بعد أن خفت عنها وطأة الأعباء المالية والعسكرية ، بعد اضطلاع المرابطين بشئون الجهاد والدفاع ، تستطيع أن تنصرف إلى الأعمال السلمية ، وإلى تحصيل أرزاقها وأقواتها ، فى هدوء وسلام ، وأن تتمتع من جراء ذلك بشىء من الرخاء الذى كان ينقصها من قبل .

ومن ثم فإنه يسوغ لنا ، بالرغم مما يمكن أن ينسب إلى الحكم المرابطى من صفات العسف والطغيان ، أن نصف العهد المرابطى ، بأنه كان بالنسبة للأمة الأندلسية عهد استقرار نسبى ، تمتعت فيه بنوع من الدعة والرخاء . وهذا ما يؤيده قول المؤرخ معلقاً على حكم أمير المسلمين يوسف بن تاشفين : « أقامت بلاد الأندلس فى مدته سعيدة حميدة ، فى رفاهية عيش ، وعلى أحسن حال ، لم تزل موفورة محفوظة إلى حين وفاته »[1] .

ومن جهة أخرى ، فإنه ليس ثمة ريب فى أن المغرب ، كان يتمتع بمثل هذا الرخاء والدعة ، فى عهد يوسف بن تاشفين ، وأوائل عهد ولده على ، أعنى قبل أن تضطرب أحواله من جراء ثورة ابن تومرت . وإنه ليكفى أن نستعرض ما كان عليه المغرب ، فى أواسط القرن الخامس الهجرى قبل قيام

---

(١) الحلل الموشية ص ٥٩ .

الدولة المرابطية بقليل ، من ضروب التفكك والفوضى ، والحروب الأهلية المتوالية ، لندرك أن قيام الدولة المرابطية كان بالنسبة للمغرب نوعاً من الإنقاذ القومى ، وأن الأمة المغربية استطاعت أن تعيش فى ظل الحكم المرابطى ، عزيزة الجانب ، موحدة الكلمة ، وأن تتمتع بكثير من الأمن والرخاء ، وأن تتحرر من كثير من المظالم ، وضروب الفوضى ، التى كانت تعانيها من قبل . ولدينا ما يؤيد ذلك من النصوص الصريحة . فمن ذلك ما ينقله إلينا صاحب روض القرطاس عن ابن جنّون وهو ما سبق أن اقتبسنا بعضه :

« كانت لمتونة أهل ديانة ونية صادقة خالصة ، وصحة مذهب . وكانت أيامهم أيام دعة ورفاهية ورخاء متصل ، وعافية وأمن ، تناهى القمح فى أيامهم إلى أن يباع أربع أوسق بنصف مثقال ، والتامر ثمان وأسق بنصف مثقال ، والقطانى لاتباع ولا تشترى . كان ذلك مصطحباً بطول أيامهم ، ولم يكن فى بلد من أعمالهم خراج ، ولا معونة ، ولا تقسيط ، ولا وظيفة من الوظائف المخزنية حاشا الزكاة والعشر . وكثرت الخيرات فى دولتهم ، وعمرت البلاد ، ووقعت الغبطة . ولم يكن فى أيامهم نفاق ولا قطاع ، ولا من يقوم عليهم ، وأحبهم الناس ، إلى أن خرج عليهم مهدى الموحدين فى سنة خمس عشرة وخمس مائة »[١] .

ومن الواضح أن ذلك كله ينصرف إلى عهد يوسف بن تاشفين وأوائل عهد ولده على . فلما اضطربت الأمور عقب قيام حركة المهدى ابن تومرت تبدلت الأحوال ، وغلبت الفوضى ، وكثر الفساد ، وغاض الأمن والرخاء ، على نحو ما يحدثنا المراكشى فى قوله ، إنه فى آخر عهد على « ظهرت مناكر كثيرة ، وفواحش شنيعة ، من استيلاء النساء على الأحوال ، واستبدادهن بالأمور ، وكان كل شرير من لص أو قاطع طريق ، ينتسب إلى امرأة قد جعلها له ملجأ ووزراً على ما تقدم »[٢] . ومهما يكن من مبالغة فى هذا التصوير ، فإن الذى لاريب فيه هو أن حركة المهدى ابن تومرت كانت ضربة قاضية ، لكل ما حملته الدولة المرابطية إلى المغرب من أسباب الاستقرار والأمن والرخاء ، وأن المغرب لبث خلال المعركة التى اضطرمت بين المرابطين والموحدين ، يعانى كثيراً من أسباب الاضطراب والفوضى ، إلى أن تم الظفر للموحدين . وتوطدت دعائم الدولة الجديدة .

---

(١) روض القرطاس ص ١٠٨ .
(٢) المعجب ص ١٠٣ .

الفصل الثانى

الحركة الفكرية الأندلسية

خلال العهد المرابطى

القسم الأول

المرابطون والحركة الفكرية . إزدهار التفكير الأندلسى أيام الطوائف ، احتفاظه بنشاطه أيام المرابطين. رعاية الدولة المرابطية لكتاب الأندلس . استخدامهم فى البلاط المرابطى . أبو بكر بن القصيرة . بنو القبطرنة . ابن عبدون . ابن الجد الفهرى . أبو عبد الله بن أبى الخصال ، أدبه ونثره وشعره . أبو جعفر بن عطية . ابن خاقان . ابن الصيرفى . أخيل بن إدريس . على بن عبد العزيز الأنصارى . الحركة الفكرية فى ظل المرابطين امتداد لها منذ الطوائف . العلماء والأدباء والشعراء فى هذه الفترة . أبو عبد الرحمن بن طاهر . رسالة الكافية . مروان بن عبد العزيز وشعره . أبو جعفر الوقشى . تنويه ابن الأبار بمكانته . شىء من شعره . ابن الأزرق . على بن أحمد الشلطيشى . على بن مسعود الخولانى . الأدباء المؤرخون . ابن بسام الشنترينى وكتابه الذخيرة . الحجارى صاحب المسهب . أبو محمد عبد الله الرشاطى. أبو عامر الطرطوشى . أبو بكر الشلبى . أبو القاسم بن بشكوال . بعض الشعراء المتخصصين . أحمد بن عبد الملك بن سعيد. محمد بن عبد الرحمن العقيلى . ابن سيد اللص . أمير الزجل أبو بكر بن قزمان .

لم بطل عهد المرابطين بالأندلس أكثر من نصف قرن ، أنفق معظمه فى أعمال الجهاد ، ومدافعة النصارى . ولم تكن الدولة المرابطية ، سواء بالمغرب أو الأندلس ، سوى دولة دينية عسكرية قبل كل شىء ، ولم تكن بطبيعتها البدوية الخشنة ، تميل إلى الأخذ بأساليب التمدن الرفيعة ، أوتتجه إلى رعاية العلوم والآداب ، أو أن عهدها القصير لم يفسح لها مجالا للأخذ بمثل هذه الأساليب ، وبذل مثل هذه الرعاية ، ومن ثم فإنه يمكن القول ، بأن الحركة الفكرية ، بالأندلس ، لبثت خلال العهد المرابطى ، فى حالة ركود نسبى ، ولم تحظ باندفاع خاص ، أوبازدهار يلفت النظر ، بل يمكن أن يقال أيضاً ، إن ما عمدت إليه الحكومة المرابطية من مطاردة البحوث الكلامية والفلسفية ، كان له أثره فى صد الحركة الفكرية ، وفى تأخرها .

بيد أنه يجب ألا ننسى ، أن الحركة الفكرية بالأندلس ، كانت فى عهد دول الطوائف ، وقبل مقدم المرابطين ، تجوز حركة اندفاع قوى ، وأن العلوم

والآداب قد ازدهرت فى ظل قصور الطوائف ، ورعاية ملوكها ، ازدهاراً يدعوا إلى الإعجاب ، وإذاً فقد كان من الطبيعى . أن يستمر هذا الاندفاع وقتاً آخر قبل أن يخبو ، وأن تحتفظ الحركة الفكرية بقوتها مدى حين ، وذلك بالرغم مما فقدته فى ظل العهد الجديد — العهد المرابطى — من عوامل الرعاية والتشجيع ، التى كانت تغذيها أيام الطوائف .

وهذا ما يمكن أن نفسر به تلك الظاهرة ، وهى أن الحركة العلمية والأدبية بالأندلس ، لبثت خلال العهد المرابطى ، تحتفظ بكثير مما كان لها أيام الطوائف من قوة وحيوية ، وأن النصف الأول من القرن السادس الهجرى ، وهو الذى يستغرق عهد المرابطين ، يحفل بجمهرة كبيرة من رجال العلم والأدب ، ومنهم بعض الأقطاب البارزين .

ثم إنه يجب ألاّ ننسى إلى جانب ذلك ، أن الدولة المرابطية ، قد بذلت رعايتها لطائفة كبيرة من العلماء والأدباء الأندلسيين ، واستخدم بلاط مراكش ، والأمراء والحكام المرابطون بالأندلس ، كثيراً منهم فى مناصب الوزارة والكتابة ، أسوة بما كانت تجرى عليه قصور الطوائف من حشد أعلام التفكير والبلاغة بها ، ليزدان بهم بلاط الأمير ، وليكونوا لسانه البليغ فى تدبيج الأوامر والمراسيم ، وفى مخاطبة الكافة . بيد أنه مما تجب ملاحظته ، هو أن الدولة المرابطية ، إذا كانت فى حاجة لأن تستخدم كتاب الأندلس البلغاء ، للإعراب عن رغباتها ومخاطباتها ، فإنها لم تكن تعنى بأمر الشعر أو تقدره قدره ، ولم يستهوها رنينه وروعته ، اللهم إلا فى أواخر عهدها ، حيث بدأ الشعراء ينظمون مدائحهم لعلى بن يوسف وولده تاشفين ، ومما يذكر فى ذلك ما لاحظه الشقندى فى رسالته عن يوسف بن تاشفين من أنه « لولا توسط ابن عباد لشعراء الأندلس فى مدحه ، ما أجروا له ذكراً ، ولا رفعوا لملكه قدراً ، وأنه حينما أنشده الشعراء مدائحهم سأله المعتمد أيعلم أمير المسلمين ما قالوه ، قال لا أعلم ، ولكنهم يطلبون الخبز »[1] .

وسنحاول فى هذا الفصل ، أن نستعرض تلك الجمهرة من العلماء والأدباء الأندلسيين ، الذين ظهروا فى تلك الفترة القصيرة — فترة العصر المرابطى — ويأتى فى مقدمة هؤلاء تلك الصفوة من الكتاب والأدباء ، الذين ظهروا فى أواخر عهد

(١) راجع رسالة الشقندى فى فضائل الأندلس ، وقد نشرها المقرى فى نفح الطيب (القاهرة ، ج ٢ ص ١٤٠) .

الطوائف ، واستدعتهم الدولة المرابطية لخدماتها ، بعد أن زالت قصور الطوائف ، وأصبحت الأندلس جزءاً من الإمبراطورية المرابطية الكبرى .

— ١ —

بدأ استخدام البلاط المرابطي للكتاب الأندلسيين ، منذ عهد يوسف بن تاشفين ذاته ، فكان كاتبه قبل أن يعبر إلى شبه الجزيرة ، أديب أندلسي من أهل ألمرية ، هو عبد الرحمن بن أسباط ، حسبما أشرنا إلى ذلك في موضعه . فلما توفي سنة ٤٨٧ هـ ، وكان يوسف قد افتتح ممالك الطوائف يومئذ ، خلفه في منصب الكتابة ، كاتب من أعظم كتاب الأندلس يومئذ ، هو محمد بن سليمان الكلاعي الإشبيلي ، ويكنى أبا بكر ، ويعرف بابن القصيرة . فكان مثوله في البلاط المرابطي بداية لاحتشاد أعلام الكتابة الأندلسيين للخدمة فيه . وكان ابن القصيرة من وزراء بني عباد وكتابهم ، خدم المعتضد ثم ولده المعتمد ، وحظي لديه حتى غدا في أواخر عهده أعظم وزرائه نفوذاً وسلطانا . ولما تحرجت الأمور ، واشتد ألفونسو السادس ملك قشتالة في إرهاق الطوائف ، كان ابن القصيرة ضمن سفراء الأندلس ، الدين وفدوا إلى المغرب ، لطلب الإنجاد والغوث من يوسف بن تاشفين . ولما استولى يوسف على دول الطوائف ، اعتزل ابن القصيرة وقتاً حتى استدعاه يوسف لكتابته ، حسبما تقدم . وكان ابن القصيرة كاتباً بليغاً مبدعاً ، ويصفه ابن الصيرفي بقوله « الوزير الكاتب الناظم ، الناثر ، القائم بعمود الكتابة ، والحامل للواء البلاغة ، اجتمع له براعة النثر وجزالة النظم » . ويصفه ابن بشكوال في الصلة بأنه « كان من أهل الأدب البارع ، والتفنن في أنواع العلم » . وقد انتهت إلينا من آثار ابن القصيرة المنثورة ، قطع عديدة ، منها أولا نص المرسوم الصادر عن يوسف ابن تاشفين بإسناد ولاية العهد لولده ، علي ، وهو مدبج بقلمه ، وقد أوردناه من قبل في موضعه ، ورسائل مختلفة أوردها لنا صاحب القلائد ، وهي جميعاً تدل على قوة أسلوبه ، وروعة بيانه . وكان ابن القصيرة شاعراً جزلا في نفس الوقت ، وقد أورد لنا ابن الخطيب من شعره قصيدة في هجو ابن ذي النون ، ومدح ابن عباد حينما استولى على قرطبة . وتوفي ابن القصيرة في جمادى الآخرة سنة ٥٠٨ هـ (١١١٤ م)[١]

---

(١) راجع في ترجمة ابن القصيرة . الصلة لابن بشكوال (القاهرة) رقم ١٢٥٣ ، وقلائد العقيان ص ١٠٤ — ١٠٦ ، والإحاطة في مخطوط الإسكوريال السالف ذكره لوحة ٦٤ و ٦٥ .

واحتشد فى البلاط المرابطى إلى جانب ابن القصيرة ، عدة من أعلام الكتاب وأئمة البلاغة فى ذلك العصر ، منهم بنو القبطرنة وهم أبو بكر بن عبد العزيز البطليوسى ، وأخواه أبو الحسن وأبو محمد ، وقد كانوا من أهل بطليوس ، ومن كتاب دوله بنى الأفطس ، وقد كتب ثلاثتهم بعد ذهابها عن أمير السلمين على ابن يوسف ، وكانوا جميعاً من أكابر الكتاب والشعراء . وكان أبو بكر المتوفى سنة ٥٢٠ هـ (١١٢٦ م) فيما يبدو عميدهم فى النباهة والبلاغة ، أو حسبما يصفه ابن بسام « علم بردهم ، وواسطة عقدهم » . وقد ذكرهم صاحب القلائد ، وأورد لنا طرفاً من منظومهم ومنثورهم ، وكذا ابن الخطيب فى الإحاطة ، وابن سعيد فى المغرب[١] .

ومنهم وزير بنى الأفطس وكاتبهم وصاحب مرثيتهم الغراء ، أبو محمد عبد المجيد بن عبدون ، المتوفى سنة ٥٢٠ هـ (١١٢٦ م) ، وقد سبق أن أتينا على ترجمته فى « دول الطوائف »[٢] .

وأبو القاسم محمد بن عبد الله بن الجَدّ الفهرى ، وهو من أهل لبلة ، برع فى الفقه والأدب ، وسكن إشبيلية ، وخدم فى بداية أمره دولة بنى عباد . ولما ذهبت دولتهم ، تولى خطة الإفتاء بلبلة ، ثم استُدعى للكتابة فى بلاط على ابن يوسف ، واستمر فى منصبه حتى توفى فى سنة ٥١٥هـ . وقد أورد لنا صاحب القلائد طرفاً من نظمه ورسائله ، ومنها رسالة عن أمير المسلمين إلى أهل سبتة ، بولاية الأمير يحيى بن أبى بكر الصحراوى لفاس وسبتة ، ورسالة إلى أبى محمد عبد الله بن فاطمة والى إشبيلية ، يدعوه فيها إلى التزام الحق واتباع العدل ، والرفق بالرعية ، ورسالة إلى أهل إشبيلية يحثهم فيها على نبذ الشقاق والتطاحن[٣] .

وكان منهم أخيراً ، أبو عبد الله بن أبى الخصال ، وأخوه أبو مروان عبد الملك . وأبو عبد الله هو محمد بن مسعود بن خلصة ، ابن أبى الخصال الغافقى ، أصله من كورة جيان ، من أهل شقورة ، ولد فى سنة ٤٦٥ هـ ، وسكن قرطبة وغرناطة ، وبرع فى الحديث وعلوم اللغة والسير ، وبرع فى الكتابة والنظم ،

---

(١) راجع قلائد العقيان ص ١٤٨ — ١٥٥ ، والإحاطة (١٩٥٦) ج ١ ص ٥٢٨ — ٥٣١ ، والمغرب فى حلى المغرب ج ١ ص ٣٦٧ و ٣٦٨ .

(٢) راجع كتابنا دول الطوائف ص ٤١١ .

(٣) ترجم ابن بشكوال لابن الجد فى الصلة (القاهرة) رقم ١٢٦٧ ، وقلائد العقيان ص ١٠٩ — ١١٥ .

حتى نعت بإمام البلاغة ، ووصفه ابن بشكوال بأنه «كان مفخرة وقته ، وجمال جماعته» . وقال أبو القاسم الملاّحي لم يكن فى عصره مثله . اتصل برجال الدولة اللمتونية ، وتولى الوزارة والكتابة لعلى بن يوسف ، وحظى لديه ، حتى غدا أنبه كتابه ، وأعلاهم مكانة ، وآثرهم لديه ، وكان يعاونه فى ديوان الكتابة أخوه أبو مروان عبدالملك . وصدرت بقلم ابن أبى الخصال عن على بن يوسف رسائل كثيرة فى مختلف الأغراض ، وانتهى إلينا الكثير منها ، وهى تدل جميعاً على روعة أسلوبه وفيض بلاغته ، واستمر على مكانه فى البلاط المرابطى ، حتى صدرت عنه بأمر على بن يوسف رسالة موجهة الى الجند المرابطين ببلنسية ، يلومهم فيها على تخاذلهم أمام العدو ، فجاءت رسالة قاسية تفيض بالسباب المقذع ، والطعن المهين[1] ، فكانت سبباً فى الوحشة بينه وبين الأمير ، وترتب على ذلك أن استعفى أبوعبد الله من منصبه ، فأعفاه على بن يوسف ، وعاد إلى قرطبة ، ثم توفى بها بعد قليل فى شهر ذى الحجة سنة ٥٤٠ هـ (١١٤٦ م) ، وتوفى أخوه عبد الملك قبله بمراكش فى سنة ٥٣٩ هـ[2] .

وقد كتب أبو عبد الله بن أبى الخصال عدة مؤلفات قيمة منها كتاب « سراج الأدب » الذى صنفه على طريقة كتاب النوادر لأبى على القالى ، وزهر الآداب للحصرى ، وكتاب « ظل الغمامة وطوق الحمامة » ، وهو فى مناقب الصحابة . وقصيدته الموسومة « بمعراج المناقب ، ومنهاج الحسب الثاقب » فى نسب رسول الله . وجمعت رسائله فى غير مجموع . وله أيضاً آثار شعرية كثيرة . وقد سبق أن أوردنا شيئاً من نظمه فى مديح الأمير تاشفين[3] .

---

(١) وردت هذه الرسالة فى مجموعة الإسكوريال المخطوطة رقم ٥٣٨ الغزيرى ، ونشر المراكشى فى المعجب جزءاً منها (ص ٩٨) . ونشرها الدكتور حسين مؤنس كاملة فى مجلة المعهد المصرى بمدريد فى العدد الثالث سنة ١٩٥٥ ص ١١٦ — ١١٨ .

(٢) راجع فى ترجمة ابن أبى الخصال : الصلة لابن بشكوال (القاهرة) رقم ١٢٩٤ . والإحاطة مخطوط الإسكوريال السالف الذكر— لوحة ٣٩ ، والمعجب ص٩٦ ، ونفح الطيب ج ٢ص ١٣٧ ، وكذلك P. Boignes : Historiadores y Geograficcs Arabigo - Espanoles No 165

ونشر الدكتور محمود على مكى عدة من رسائل ابن أبى الخصال الصادرة عن على بن يوسف فى صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد (المجلدان السابع والثامن) ص ١٦٧ — ١٧٤ .

(٣) أورد لنا ابن دحية فى كتابه « المطرب من أشعار أهل المغرب » شيئاً من نظمه ص ١٨٧ - ١٨٩ .

ومن شعره :

وانى وقد عظمت على ذنـوبه	فى غيبـة قبحت بهـا آثاره
فمحى إسـاءته لنـا إحسانه	واستغفرت لذنـوبه أوتاره

وقوله يتشوق إلى قرطبة :

أسمت لهم بالغور والشمل جامع	بروقاً بأعلام العذيب لـوامع
فباحت بأسرار الضمـير المدامع	ورب غرام لم تنله المسـامع

ويجب ألا ننسى ، أنه كان يوجد إلى جانب هذه الصفوة من الكتاب الأندلسيين ، وزير وكاتب نابه من أصل أندلسى ، ومن أعلام البلاغة وأئمة البيان فى ذلك العصر ، هو الوزير الكاتب ، الناثر الشاعر ، أبو جعفر أحمد بن عطية ، الذى تتبعنا أخباره فيما تقدم ، مذ خدم الدولة اللمتونية حتى سقوطها ، ثم انتقل إلى خدمة الموحدين فى الظروف التى شرحناها ، حتى كانت نكبته على يد الخليفة عبد المؤمن بن على .

وكتب عن أمراء الدولة اللمتونية أيضاً ، كاتبان أندلسيان آخران هما أبو نصر الفتح بن خاقان ، وابن الصيرفى . فأما الفتح بن خاقان ، فهو إشبيلى من كتاب الطوائف الأعلام . وقد اشتهر بأسلوبه الأدبى البليغ المسجع ، وهو الذى اتبعه فى كتابيه « قلائد العقيان » و« مطمح الأنفس » . طاف فى أول أمره بقصور الطوائف ، واتصل بمعظم أمرائها . ثم خدم الأمير أبا إبراهيم إسحق بن يوسف بن تاشفين ، أخا أمير المسلمين على بن يوسف ، وكتب له كتابه « القلائد » مشتملا على تراجم أمراء الطوائف ، وأعيان العصر وفقهائه وكتابه . وانتقل فى أواخر حياته إلى مراكش وعاش بها ، وكان خليعاً مدمناً ، منحرف السلوك ، فانتهى بأن توفى قتيلا فى الفندق الذى يسكنه ، وقيل إن الذى أشار بقتله هو على بن يوسف[1].

وأما ابن الصيرفى ، فهو يحيى بن محمد بن يوسف الأنصارى ، يكنى أبا بكر ، ويعرف بابن الصيرفى . كان من أعلام العصر المرابطى فى البلاغة والأدب والتاريخ ، وكان من الكتاب المجيدين ، والشعراء المطبوعين ، كتب بغرناطة عن الأمير تاشفين بن على ، أيام أن كان والياً للأندلس ، وألف فى تاريخ الأندلس فى العصر المرابطى كتاباً سماه « الأنوار الجلية فى أخبار الدولة

---

(١) راجع ترجمة الفتح بن خاقان فى ابن خلكان (ج ١ ص ٥١٥) .
وكذلك : P. Boigues : ibid ; No 162

المرابطية » . وكتاباً آخر سماه « قصص الأنباء وسياسة الرؤساء » . وهما مؤلفان لم يصلا إلينا مع الأسف . ولم يصل إلينا من مؤلفه الأول سوى شذور نقلها المتأخرون ، مثل ابن الخطيب وغيره ، ومن ذلك روايته عن غزوة ألفونسو المحارب للأندلس ، وهى واقعة كان من معاصريها وشهودها ، وقد فصلنا حوادثها فى موضعها . وتوفى ابن الصيرفى بغرناطة فى سنة ٥٧٠ هـ (١١٧٤ م)[١] .

ومن الكتاب الذين اتصلوا بالدولة اللمتونية ، وكتبوا عنها أخيل بن إدريس الرُّندى ، الذى تتبعنا مصايره من قبل خلال حديثنا عن حوادث الثورة بالأندلس ، فقد كتب فى بداية حياته للمرابطين ، ولما قام القاضى ابن حمدين بقرطبة تولى الكتابة عنه ، ثم لحق ببلده رندة ، واستبد بحكمها حيناً ، فلما انتزعها منه ابن عزون صاحب شريش ، عبر البحر إلى مراكش واتصل بحكومة الموحدين ، ثم ولى بعد ذلك قضاء قرطبة ، فقضاء إشبيلية ، حيث توفى بها فى سنة ٥٦٠ هـ (١١٦٥ م) . وكان أخيل كاتباً بليغاً وشاعراً مطبوعاً . وقد ورد لنا ابن الأبار شيئاً من شعره[٢] .

وكان من هؤلاء الوزراء الكتاب أيضاً : على بن عبد العزيز بن الإمام الأنصارى ، وهو سرقسطى الأصل ، سكن غرناطة ، وكان من الكتاب المجيدين وأهل البلاغة والفصاحة . وزر للأمير أبى الطاهر تميم بن يوسف أيام ولايته لغرناطة ، ثم كتب من بعده لأخيه الأمير على بن يوسف[٣] .

كان اجتماع هذه الصفوة الممتازة من كتاب الأندلس فى البلاط المرابطى ، ظاهرة تدل بأن المرابطين لم تفتهم أهمية القيم العلمية والأدبية ، وأهمية الأساليب البليغة العالية ، فى عرض مراسيم الدولة ، وأوامرها ، والإفصاح عن رغباتها ، ووجهات نظرها ، بيد أنها كانت رعاية محدودة المدى ، مقصورة على المجال الرسمى ، ولم تكن تسيرها تلك النزعة المستنيرة ، التى تعتبر الحركة العلمية والأدبية ، من المقومات الحيوية ، لأمة عريقة متمدنة ، كالأمة الأندلسية .

— ٢ —

يمكننا أن نعتبر الحركة الفكرية والأدبية بالأندلس ، فى العصر المرابطى ،

---

(١) ترجمة ابن الصيرفى فى الإحاطة ، مخطوط الإسكوريال السالف الذكر لوحة ٤١٥ . وقد سبق أن نقلناها فى ص ١١٠ من هذا الكتاب (الحاشية) .

(٢) راجع ترجمة أخيل بن إدريس فى الحلة السيراء ص ٢٢٢ — ٢٢٤ .

(٣) ابن الخطيب فى الإحاطة (مخطوط الإسكوريال) لوحة ٣٣١ .

هي امتداد لها منذ أيام الطوائف . ومع ذلك فإن هذه الحركة لم تخل من بعض عناصر القوة ، التي نبتت وتأثلت فى العصر المرابطى ذاته . وقد يرجع ذلك إلى أن الضغط الذى عانته الحركة الفكرية من الحكم المرابطى ، لم يكن شاملا ، ولم يكن بالأخص طويل الأمد .

وبالرغم من أن الحركة الفكرية الأندلسية لم تصل خلال العصر المرابطى ، إلى ذلك المدى من الازدهار والضخامة والتنوع ، الذى بلغته فى ظل دول الطوائف ، فإنا نستطيع مع ذلك أن نستعرض إلى جانب هذه الجمهرة من أكابر الكتاب الذين خدموا فى البلاط المرابطى ، جمهرة كبيرة أخرى من العلماء والأدباء والشعراء الذين ظهروا فى تلك الفترة ، ومنهم بالفعل عبقريات فذة ، يمكن أن تزهو بها أية حركة عقلية .

ولنبدأ بذكر أعلام الأدباء من كتاب وشعراء ، ولدينا منهم ثبت حاشد . فمنهم أولا ، أميران من أمراء بلنسية ، هما أبو عبد الرحمن بن طاهر القيسى ، وأبو عبد الملك مروان بن عبد العزيز . وقد سبق أن أتينا على سيرة كل منهما فى الحكم ، وما تقلب فيه من أحداث السياسة . فأما أولهما أبو عبد الرحمن بن طاهر ، فقد كان صنو جده أبى عبد الرحمن بن طاهر أمير مرسية أيام الطوائف ، وأحد أمراء البيان المبرزين فى عصره ، كان صنوه فى العلم والأدب ، وفى سحر البيان وروعته ، وكان إلى جانب ذلك شاعراً مطبوعاً . عاش بعد خلعه من الإمارة على يد ابن عياض ، حيناً بمرسية ، فى عزلة مطبقة ، وهو يشهد تطور الحوادث فى شرق الأندلس . ولما توفى محمد بن سعد بن مردنيش زعيم الشرق ، وانهارت بوفاته جبهة الثورة ضد الموحدين ، دخل ابن طاهر فى الدعوة الموحدية ، ثم عبر البحر إلى المغرب ، واستقر بمراكش ، وتوفى بها فى سنة ٥٧٤ هـ[١] .

ومن آثاره النثرية ، رسالة يخاطب بها الخليفة عبد المؤمن ، ويحاول فيها أن يثبت أمر الإمام المهدى بالأدلة التاريخية والمنطقية . وقد وضعها على طريقة المساجلة بالدليل والبرهان ، بين النفس المطمئنة المؤمنة الراضية ، والنفس النزوعية الثائرة . وتحمل النفس المطمئنة خلال حديثها على عهد المرابطين ، وتصفه بعهد الضلال والفسق ، وتحاول أن تؤيد صدق قضية المهدى وشرعية إمامته ، وصحيح نسبته إلى آل البيت . وقد اقتنعت النفس النزوعية الأمارة بالسوء فى النهاية بصدق

---

(١) أورد لنا ابن الأبار فى الحلة السيراء ترجمة ضافية لابن طاهر (ص ٢١٦ — ٢٢٢) .

تدليل خصيمتها النفس المطمئنة . ويختم ابن طاهر رسالته ، وهى المسماة «بالكافية» بمديح الخليفة عبد المؤمن والدعاء له ، والإشادة بمآثره[1] .

ومن نظمه قوله :

هجرتِ من الدنيا لذيذ نعيمها لأنك لا ترضاه إلا مخلدا
وقضيتَ شهر الصوم بالنية التى رقيتَ بها فى رتبة القدس مصعدا
وودع عن شوق إليك مبرح فلو كان ذا جفن لبات مسهدا

وأما مروان بن عبد العزيز ، فقد كان فقيهاً عالماً وأديباً كبيراً ، وشاعراً جزلا ، وكان قبل توليه إمارة بلنسية ، يلى قضاءها . وقد تتبعنا فيما تقدم أطوار حياته السياسية ، ثم محنته بعد أن خُلع من الإمارة ، وألقى إلى ظلام السجن أعواماً طوالا . وذكر لنا ابن الأبار أنه نظم فى محنته قصيدة هذا مطلعها :

يا نفس دونك فاجزعى أو فاصبرى طاع الزمان بوجهه المتنمّر

ولما أطلق سراحه بواسطة الوزير أبى جعفر بن عطية ، وانتظم فى مجلس الخليفة عبد المؤمن ، نظم فى حق الوزير المحسن إليه ، وفى التحربض على نكبته ، تلك القصيدة التى أوردناها فيما تقدم والتى مطلعها :

قل للإمام أطال الله مدته قولا تبين لذى لب حقائقه

ومن شعره فى وصف بلنسية :

كأن بلنسية كاعب وملبسها السندس الأخضر
إذا جئتها سترت نفسها بأكمامها فهى لا تظهر

وتوفى ابن عبد العزيز بمراكش سنة ٥٧٨ هـ (١١٨٢ م) .

وكان من الوزراء الأدباء الشعراء ، أبو جعفر أحمد بن عبد الرحمن الوقشى[2] وزير ابن هَمُشك وكاتبه ونائبه بمدينة جيان . وكان ابن همشك حينما هزم فى موقعة السبيكة بأراضى غرناطة (سنة ٥٥٧ هـ) ، قد فر منسحباً إلى الشرق ، وطارده الموحدون ، وحاصروا مدينة جيّان ، وكان بها الوزير الوقّشى فامتنع بها ودافع

---

(١) تسمى هذه الرسالة باسمها الكامل « الكافية فى براهين الإمام المهدى رضى الله عنه تعالى عقلا ونقلا » ، وقد أورد لنا ابن القطان نصها الكامل فى «نظم الجمان » وهى تستغرق منه عدة صفحات (المخطوط لوحة ٢٠ ا إلى ٣٠ ب) .

(٢) راجع ترجمة مروان بن العزيز فى الحلة السيراء ص ٢١٢ — ٢١٦ ، والتكمله (القاهرة) رقم ١٧٥١ . وراجع أيضاً المغرب من أشعار أهل المغرب ص ٨٠ و١٠٨ .

عنها، حتى أقلع الموحدون عنها دون طائل . ولما وقع الشقاق بين ابن همشك، وبين حليفه وصهره محمد بن سعد بن مردنيش ، ودخل ابن همشك فى دعوة الموحدين (٥٦٢ هـ) ، بعث وزيره الوقشى إلى بلاط مراكش ليسعى فى إنجاده ضد صهره . وينوه ابن الأبار بمكانة الوقّشى الأدبية ، ويقول لنا إن له « تحقق بالإحسان ، وتصرف فى أفانين البيان » ويشير إلى أن الشاعر ابن غالب الرصافى ، قد مدحه فى ديوانه « وأعرب عن جلالة شأنه » ثم يقارنه بأبى جعفر بن عطية ، وقد كان كلاهما ، من مفاخر الأندلس « وكانا متعاصرين فى الكفاية متكافئين ، ولذاك فى النثر مزية هذا فى الشعر » . وقد أورد لنا ابن الأبار طائفة من شعر الوقّشى ، ومن ذلك قوله يصف الشقائق :

وشقائق لاحت على الأغصان ... مثل الخدود تزان بالخيلان
يهفو النسيم مع الأصائل والضحى ... فيهز منها معطف النشوان
فكأنها قضب الزمرد ألصقت ... بالمساك فيها أكؤس العقيان[1]

وذكر ابن عبد الملك فى التكملة ، أن الوَقّشى مدح الأمير أبا يعقوب يوسف ابن عبد المؤمن بقصيدة مطلعها :

أبت غير ماء النخيل ورودا ... وهاجت به عذب الحمام مرودا
وقالت لحادها أتم زيادة ... على العشر فى وردى له فأزيدا

ومنها فى الحث على الجهاد :

ألا ليت شعرى هل يُمد لى المدى ... فأبصر خيل المشركين طريدا
وهل بعد يقضى فى النصارى بنصرة ... تغادرهم للمرهفات حصيدا
ويغزو أبو يعقوب فى شنت ياقب ... يعيد عميد الكافرين عبيدا[2]

وتوفى الوقّشى بمالقة فى سنة ٥٧٤ هـ (١١٧٨ م) .

ومن أعلام الأدب الذين ظهروا فى العصر المرابطى ، أبو الحسن عبد الملك ابن عباس بن فرج بن عبد الملك المعروف بابن الأزرق ، وهو من أهل قرطبة ، وكان كاتباً بليغاً وشاعراً مقتدراً ، كتب عن قاضى الجماعة أبى القاسم بن حمدين فى أواخر عهد المرابطين ، ولما ثار أبو جعفر بن حمدين وانتزع الرياسة لنفسه ، خشى ابن الأزرق العاقبة ، وفر إلى إشبيلية ، وانقطع إلى العبادة ، فى بعض

---

(١) أورد لنا ابن الأبار فى الحلة السيراء ترجمة ضافية للوقشى (ص ٢٣٠ – ٢٣٦) .
(٢) الذيل والتكملة لابن عبد الملك المراكشى (الجزء الأول من مخطوط باريس لوحة ١٦) .

قرى إشبيلية . ثم استدعاه أبو إسحق برّاز بن محمد المسّوفى عامل إشبيلية الموحدى للكتابة ، فتولى منصبه على كره منه ، ثم كتب من بعده للأمير أبى حفص ابن عبد المؤمن ، ثم كتب عن عبد المؤمن نفسه ، بعد مقتل كاتبه ابن عطية ، ثم عن ولده أبى يعقوب يوسف ، وقت ولايته لإشبيلية ، وتوفى فى سنة ٥٦٨ هـ (١١٧٢)(١) .

ومنهم على بن أحمد بن محمد بن عثمان الكلبى الشلطيشى ، من أهل الغرب ، سكن قرطبة ، وكان فقيهاً متمكناً ، وكاتباً بليغاً ، وشاعراً مجيداً . ولما ثار أخوه أبو بكر محمد داعية المريدين بميرتلة ، سنة ٥٣٩ هـ ، خاف على نفسه ، واختفى أشهراً ، ثم غادر قرطبة وتجول حيناً فى مختلف القواعد الأندلسية ، ثم عبر البحر إلى المغرب ، ونزل بمراكش ، وأقام بها حتى توفى سنة ٥٦٦ هـ (١١٧١م)(٢)

ومنهم أبو الحسن على بن مسعود بن إسحق بن عصام الخولانى ، من أهل سرقسطة ، وكان فقيهاً بارعاً ، حافظاً للمدونة ، وله حظ وافر من الأدب ، ولى قضاء ميورقة . ولما دهم النصارى سرقسطة فى سنة ٥١٢ هـ ، وبعث قاضيها بصريخه إلى الأمير أبى الطاهر تميم المرابط بجيشه على مقربة منها ، كان أبو الحسن الخولانى ، وزميله الخطيب أبوزيد بن منتيال ، هما اللذان خرجا لمخاطبة الأمير تميم بالنيابة عن أهل سرقسطة ، وناشداه الغوث والإنجاد ، ولكنه لم يستجب إلى هذا الصريخ ، وانتهت سرقسطة إلى التسليم(٣) .

— ٣ —

ولمع فى العصر المرابطى عدة من الأدباء المؤرخين ، وأعلام الرواية المحققين ، الذين ما زالت آثارهم من أقيم مصادرنا فى تاريخ الأندلس ، وتاريخ الأدب الأندلسى .

وكان فى مقدمة هؤلاء قطبهم وعميدهم ، أبو الحسن على بن بسّام الشنترينى ، صاحب كتاب « الذخيرة » ، وهو من أقيم وأشهر كتب الأدب والتاريخ فى هذا العصر ، إن لم يكن أقيمها وأشهرها جميعاً . وابن بسام من أهل غربى الأندلس من مدينة شنترين البرتغالية ، ولكنه غادرها فى شبابه إلى إشبيلية حينما اضطربت

---

(١) الذيل والتكملة المخطوط سالف الذكر .

(٢) الذيل والتكملة المخطوط سالف الذكر .

(٣) الذيل والتكملة المخطوط سالف الذكر . وراجع ص ٩٦ من هذا الكتاب .

بها الأحوال ، واشتد خطر سقوطها فى أيدى النصارى . ودرس ابن بسام فى إشبيلية وقرطبة ، وكتب مؤلفه الضخم « الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة » بقرطبة ، وانتهى من كتابته فى سنة ٥٠٣ هـ . ويصارحنا ابن بسام فى مقدمته بالدافع النفسى ، الذى دفعه إلى تصنيف كتاب « الذخيرة » ، وهو أنه رأى انصراف أهل عصره وقطره ، إلى أدب المشرق ، والتزود منه والإعجاب به ، وإهمال آداب بلدهم ، فأراد بوضع الذخيرة ، وجميع ما تضمنته من رائق المنثور والمنظوم ، أن يبصّر أهل الأندلس بتفوق أدبائهم ، وروعة إنتاجهم ، وأن من حقهم أن يزهوا بأدبهم وأن يتذوقوه ، وأن الإحسان ليس مقصوراً على أهل المشرق[1] . وقد سبق أن أشرنا إلى أهمية الذخيرة كمصدر من أنفس مصادرنا التاريخية والأدبية والاجتماعية ، ولاسيما عن عهد الطوائف وأمرائه وأدبائه وشعرائه[2] . وإنه لمما يدعو إلى الغبطة أن البحث قد استطاع أخيراً ، أن يضع يده على النص الكامل لكتاب « الذخيرة » بأقسامه أومجلداته الأربعة ، بعد أن لبث مدة طويلة مفتقداً لبعض أجزائه . وكتب ابن بسام غير « الذخيرة » عدة مصنفات أخرى ، منها كتاب فى شعر المعتمد بن عباد ، وكتاب فى شعر ابن وهبون ، ورسالة عنوانها « سلك الجواهر فى ترسيل ابن طاهر » ومجموعة مختارة من شعر أبى بكر بن عمار . ويمتاز ابن بسام بأسلوبه المشرق ، الذى يغلب عليه السجع ، دون أن ينتقص من قوته وإشراقه ، كما يمتاز بملاحظاته النقدية القوية ، التاريخية والاجتماعية . ومما هو جدير بالذكر أنه لم يُعرف عن ابن بسام أنه خدم أحداً من أمراء عصره ، أو تطفل على موائدهم أسوة بمعظم زملائه ، كتاب العصر وأدبائه . وكانت وفاته بقرطبة سنة ٥٤٢ هـ (١١٤٧ م)[3] .

ومنهم أبو محمد عبد الله بن إبراهيم بن وزمر الحجارى ، صاحب كتاب « المسهب » الشهير .وأصله من وادى الحجارة حسبما يدل على ذلك اسمه . ولما سقطت وادى الحجارة فى أيدى النصارى ، غادرها مع أهله ، وطاف بعدة من بلاد الأندلس، ثم نزل مدينة غرناطة ، وسار منها الى قلعة بنى سعيد (أو قلعة يحصب) ، وهنالك استقبله صاحبها عبد الملك بن سعيد ، وهو من أقطاب علماء

---

(١) راجع مقدمة الذخيرة (المجلد الأول القسم الأول) طبعة جامعة القاهرة ص ٢ و ٣ .

(٢) كتاب دول الطوائف ص ٤١٨ .

(٣) راجع فى ترجمة ابن بسام ، مقدمة كتاب الذخيرة ، وكذلك **Pons Boigues :ibid ; No 171** والمراجع

عصره ، وأكرم وفادته ، وقدر علمه وأدبه . وكان الحجارى أديباً كبيراً وشاعراً مطبوعاً ، وكان يشتهر بنظمه فى كل بلد نزل فيه . ثم غادر قلعة يحصب ، وقصد إلى المستنصر بن هود بروطة ، ومدحه ، وسار معه فى بعض وقائعه مع البشكنس ، فوقع أسيراً ضمن الأسرى . ولما قيض له الخلاص من أسره ، عاد إلى قلعة يحصب ، وعاش فى كنف حاميه عبد الملك بن سعيد . وأشهر آثار الحجارى كتابه « المسهب فى فضائل (أوغرائب) المغرب » فى ستة أجزاء . وقد ألفه تحقيقاً لرغبة ابن سعيد ، وكان فيما بعد مستقى لأسرة بنى سعيد فى تأليف كتابها الشهير « المغرب فى حلى المغرب » ومن أخصب وأقيم مصادرها ، وفيه يتناول الحجارى تراجم رجال الأندلس وحوادثها منذ الفتح إلى سنة ٥٣٠ هـ . وقد نقل إلينا المتأخرون منه الكثير ولاسيما المقرى فى نفح الطيب ، حيث ينقل منه عشرات الشذور ، فى مختلف المواطن . وتوفى الحجارى فى سنة ٥٥٠ هـ (١١٥٥ م)[١] .

ومنهم أبو محمد عبد الله بن على بن عبد الله اللخمى المعروف بالرُّشاطى ، أصله من أهل أوريولة من شرقى الأندلس ، وبها ولد سنة ٤٦٦ هـ . ودرس على عدة من أعلام العصر ومنهم الحافظ أبو على الصدفى . ثم انتقل إلى ألمرية ، وعاش بها . ونبغ الرشاطى فى الحديث والرواية والتاريخ والأنساب . وكتب كتابه الشهير « اقتباس الأنوار ، والتماس الأزهار ، فى أنساب الصحابة ورواة الآثار » . وأخذ عنه كثير من علماء عصره . وتوفى بألمرية شهيداً حينما دخلها النصارى فى يوم ٢٠ جمادى الأولى سنة ٥٤٢ هـ (أكتوبر سنة ١١٤٧ م)[٢] .

ومنهم أبو عامر محمد بن أحمد بن عامر الطرطوشى السالمى ، من أهل طرطوشة من أعمال الثغر الأعلى ، وسكن مرسية ، وكان متقدماً فى فنون عديدة من الأدب والشعر والتاريخ وغيرها . وكتب عدة مؤلفات أشهرها كتابه « درر القلائد وغرر الفوائد » . وهو كتاب تاريخى جغرافى . وكتاب « السلك المنظوم والمسلك المختوم » . وتوفى فى سنة ٥٥٩ هـ (١١٦٣م)[٣] .

---

(١) راجع ترجمة الحجارى فى « المغرب فى حلى المغرب » ج ٢ص ٣٥ و٣٦ ، والمقرى ج ٢ ص ٤٠٦ ، وكذلك Pons Boigues : ibid : No 178

(٢) ترجمة الرشاطى فى ابن خلكان ج ١ ص ٣٣٧ ، والصلة رقم ٦٥١ ، وكذلك : P. Boigues : ibid ; No 169

(٣) ترجمته فى التكلمة لابن الأبار رقم ٧٢٥ . وكذلك فى P. Boigues : ibid ; No. 187

ومنهم أبو بكر محمد بن يوسف بن قاسم الشِّلبي ، وهو أديب ومؤرخ من أهل الغرب ، ومن مدينة شلب ، وكان تلميذاً للكاتب أبى بكر بن القصيرة . ألف كتاباً فى تاريخ المعتمد بن عباد لم يصل إلينا . وتوفى أوائل القرن السادس الهجرى[1].

ومن الرواة وعلماء الأخبار الذين ظهروا فى العصر المرابطى ، محمد بن عبد الله ابن سيّداله التجيبى من أهل شاطبة ، روى عن جمهرة من أعلام عصره . وكان عارفاً بالأخبار ، حافظاً لأسماء الرواة . وقد ألف مجموعاً فى رجال الأندلس ، وصل به كتاب الصلة لابن بشكوال ، وتوفى فى سنة ٥٥٨ هـ .

ونذكر أخيراً علماً من أعلام المؤرخين وأصحاب الأخبار المحققين ، فى العصر المرابطى ، هو العلامة المؤرخ أبو القاسم خلف بن عبد الملك بن مسعود بن بشكوال القرطبى ، ولد بقرطبة سنة ٤٩٤ هـ ، ودرس بها على أشهر أساتذة العصر ، وكان حافظاً ، شغوفاً بالأخبار والسير ، ولاسيما أخبار الأندلس ، محققاً واسع الرواية ، حجة فى تحقيقها ، كتب عدة مؤلفات ، أشهرها كتابه « الصلة » الذى جعله تتمة لكتاب ابن الفرضى فى « تاريخ العلماء والرواة بالأندلس » ، والذى يضم أكثر من ألف وخمسمائة ترجمة لعلماء الأندلس ورواتها ، ولاسيما علماء قرطبة ، وقد فرغ من تأليفه بقرطبة فى سنة ٥٣٤ هـ ، وجاء ابن الأبار بعده ، فوضع له ذيلا سماه التكملة فى مجلدين كبيرين . ثم جاء أبو جعفر بن الزبير فوضع له ذيلا آخر سماه « صلة الصلة » . ويعتبر كتاب « الصلة » إلى يومنا من أنفس وأوثق مصادر التاريخ الأندلسى . وكتب ابن بشكوال غير « الصلة » عدة مؤلفات أخرى ، منها « كتاب الغوامض والمبهمات » وكتاب « الفوائد المنتخبة والحكايات المستغربة » « وكتاب المحاسن والفضائل » « وكتاب المستغيثين بالله تعالى عن المهمات والحاجات » ، وغير ذلك من مصنفات بلغت نحو الخمسين مؤلفاً . وتوفى ابن بشكوال بقرطبة بعد حياة علمية حافلة ، فى رمضان سنة ٥٧٨ هـ (أواخر سنة ١١٨٢ م)[2] .

— ٤ —

ولقد تحدثنا فيما تقدم عن علماء وأدباء لم يكن الشعر خاصتهم الأولى ، وإن كانوا

---

(١) راجع ترجمته فى P. Biogues : ibid ; No. 137

(٢) راجع ترجمة ابن بشكوال فى التكملة لابن الأبار (القاهرة) رقم ٨٣١ ، وفى وفيات الأعيان ج ١ ص ٢١٥ .

مع ذلك قد لمعوا فى ميدان الشعر ، وكانت لهم فيه آثار طيبة . ونود الآن أن نذكر بعض الشعراء الذين نبغوا فى العصر المرابطى ، وكان الشعر خاصتهم الأولى .

فمن هؤلاء أبو جعفر أحمد بن عبد الملك بن سعيد بن خلف بن سعيد ، من بنى سعيد العنسى سادة قلعة بنى يحصب من أعمال غرناطة ، وهو بيت من بيوتات الأندلس المشهورة ، وينتمى إليه قواد ووزراء وقضاة وكتاب وشعراء ، ومنهم مؤلفو كتاب « المغرب فى حلى المغرب » . وشغف أبو جعفر بالأدب والشعر منذ حداثته ، وحفظ الكثير من أشعار القدماء ، وظهرت مواهبه الشعرية لأول مرة حينما وفد مع أبيه وأهله لمقابلة الخليفة عبد المؤمن ، وهو بجبل طارق فى سنة ٥٥٦ ﻫ ، وألقى بين يديه قصيدته التى مطلعها :

تكلم فقد أصغى إليـك الدهـر وما لسواك اليـوم نهى ولا أمر

وقد كانت هذه القصيدة التى نقلناها فيما تقدم ، فاتحة مجده الشعرى . ولما ولى غرناطة السيد أبو سعيد ولد عبد المؤمن ، استوزر أبا جعفر ، وحظى لديه . ثم فسد ما بينهما بسبب تنافسهما فى حب الشاعرة الحسناء حفصة بنت الحاج الرّكونى ، وأخذ السيد أبو سعيد يترقب الفرص لنكبته ، وأبو جعفر يتحفظ كل التحفظ ، وفى حالته تلك يقول :

من يشترى منى الحياة وطيبها ووزارتى وتأدبى وتهـذبى
بمحل راع فى ذرى ملمومة زويت عن الدنيـا بأقصى مرتب
فلقد سئمت من الحياة مع امرئ متغضـب متغلب مـترتب
الموت يلحظنى إذا لاحظتـه ويقوم فى فكرى أوان تجنبى

وانتهى الأمر بأبى جعفر إلى أن ائتمر مع أخيه وبعض أقاربه على الانضمام إلى ابن مردنيش ، ولحق أخوه وأقاربه بقلعتهم فى بنى يحصب . ولكنه جبن وتأخر ، ثم فر إلى مالقة ، ليركب منها البحر إلى بلنسية ، ولكن عمال السيد اكتشفوا أمره وقبضوا عليه ، فأمر بقتله صبراً ، وكان مصرعه فى جمادى الأولى سنة ٥٥٩ ﻫ (١١٦٤ م) .

ولأبى جعفر كثير من الشعر الرقيق الجيد . فمن ذلك قوله :

أتانى كتاب منك يحسده الدهر أما حبره ليل ، أما طرسه فجر
به جمـع الله الأمانى لناظرى وسمعى وفكرى فهو سحر ولا سحر

ولا غرو أن أبدى العجايب ربّه　　وفى ثوبه بر ، وفى كفه بحر[1]

ومنهم محمد بن عبد الرحمن العقيلى الجراوى من أهل وادى آش . سكن غرناطة ، وكان أديباً مشاركاً فى علوم جمة ، ولاسيما الطب ، كما كان شاعراً جزلا مطبوعاً . ومن قوله يمتدح أمير المسلمين على بن يوسف :

رحلوا الركايب موهنـا　　فأذاع عرفهم السـنا

والحلى قد أغرى بهم　　لما ترغم معلنـا

كم دب حول حماهم　　من كل خطّار القنـا[2]

ومنهم أحمد بن على بن محمد بن عبد الملك بن سليمان بن سيد الكنانى النحوى ، من أهل إشبيلية ، وقد عرف « باللص » لما نسب إليه فى صغره من إغارته على أشعار الآخرين . وكان أديباً ، متقناً للعربية ، شاعراً جزلا مجيداً . ولد سنة ٥٠٣ هـ ، وتوفى فى سنة ٥٧٧ هـ (١١٨١ م) . ومن نظمه قوله :

وقائلة والضـنا شـاملى　　على م سهرت ولم ترقـد

وقد ذاب جسمك فوق الفراش　　حتى خفيت عن العـوّد

فقلت وكيف أرى نائمـا　　وراعى المنية بالمرصـد[3]

ومنهم أبو بكر بن قزمان ، أمير الزجل الأندلسى ، وهو محمد بن عيسى ابن عبد الملك بن قزمان الزهرى من أهل قرطبة ، برع فى الشعر والأدب ، وبرع بنوع خاص فى نظم القصائد الهزلية بلغة عوام الأندلس أو بعبارة أخرى فى نظم الزجل . يقول ابن الخطيب « وهذه الطريقة بديعة يتحكم فيها ألقاب البديع ، وتنفسح لكثير مما يضيق سلوكه على الشاعر ، وبلغ فيها أبو بكر مبلغاً حجره الله عن سواه فهو آيتها المعجزة ، وحجتها البالغة ، وحارسها المعلم ، والمبتدى فيها والمتمم » . ويصفه ابن خلدون بأنه « إمام الزجالين على الإطلاق » . وخدم ابن قزمان فى شبابه المتوكل بن الإفطس صاحب بطليوس ونال لديه حظوة وجاها . فلما انتهت دولتهم ، عاد إلى قرطبة وتردد بينها وبين غرناطة . ولما قام ابن حَمْدين فى قرطبة ، تعرض ابن قزمان لمطاردته ونكاله ، وذلك بسبب « شكاسة

---

(١) راجع ترجمته فى الإحاطة (١٩٥٦) ج ١ ص ٢٢٢ — ٢٢٧ .

(٢) ابن الخطيب فى الإحاطة ، مخطوط الإسكوريال رقم (١٦٧٣ الغزيرى) لوحة ٥٦ .

(٣) ترجمته فى التكملة لابن الأبار ج ١ رقم ٢١٢ .

أخلاق كان موصوفاً بها ، وحدة شتّى بسببها » . وتوفى ابن قزمان بقرطبة فى رمضان سنة ٥٥٥ هـ (١١٦٠ م) .

وقد اشتهرت أزجال ابن قزمان فى الأندلس والمغرب ، وجمعت فى ديوان خاص متداول ، وترجم الكثير منها فيما بعد إلى القشتالية ، وكان لها أثر عميق فى صوغ الأناشيد الشعبية القشتالية ، ثم الأناشيد البروفنسية . وقد أبدى البحث الحديث ، أن كثيراً من الأغانى الشعبية فى إسبانيا وغيرها من الأمم النصرانية المجاورة ، اشتق من أزجال ابن قزمان .

ونحن نكتفى بأن نورد هذين النموذجين من أزجال ابن قزمان :

قدر الله وساق الخناس
إلى وادى على عيون الناس
ولعبنا طول النهار بالكاس
وجاء الليل وامتد مثل القتيل

وقوله يصف عريشاً أمامه تمثال أسد من رخام يصب الماء من فمه على صفائح مدرجة من الحجر :

وعريش قد قام على دكان — بحال رواق
وأسد قد ابتلع ثعبان — فى غلظ ساق
وفتح فمه بحال إنسان — فيه الفواق
وانطلق يجرى على الصفاح — ولقى الصباح[1]

---

(١) راجع فى ترجمة ابن قزمان : قلائد العقيان ص ١٨٧ ، والإحاطة فى مخطوط الإسكوريال السالف الذكر لوحة ٥٩ — ٦١ . وقد أورد لنا ابن الخطيب كثيراً من أزجاله ورسائله النثرية . وكذلك ابن خلدون فى المقدمة ص ٥٢٤ .

الفصل الثالث

الحركة الفكرية الأندلسية

خلال العهد المرابطى

القسم الثانى

أعلام المحدثين والفقهاء . الحافظ أبو على الصدفى . القاضى ابن العربى . أبو الوليد بن رشد الجد . ابن ورد التميمى . أبو العباس أحمد بن الصقر الأنصارى. أبو محمد بن عطيه المحاربى . مديحه للمرابطين . عبد الرحمن بن عبد الله المعافرى . عبد الله بن محمد المرسى . ابن الحلال . ابن أبى مروان . أبو جعفر البطروجى. ابن الدباغ . سفيان بن أحمد العاصى . أحمد بن عبدالعزيز الأزدى. على بن صالح بن عز الناس. عبد الله بن خلف القرشى . ابن الباذش. القاضى عياض السبتى ، حياته وتراثه. ابن بركة . ابن صاحب الصلاة . ابن اشكبندر . ابن صنعون . ابن هذيل . ابن سيد الجراوى . العلامة الصوفى أبو العباس ابن العريف. نموذج من شعره الروحى . دعوة المريدين وتطورها على يد ابن قسى . ابن المنذر .أبو بكر ابن المنخل. ابن سفيان المخزومى. ابن الإقليشى . علماء اللغة . ابن السيد البطليوسى. يونس بن مغيث . العلوم . ابن باجة . شىء من شعره . ابن يحيى الخزرجى . أبو القاسم خلف بن عباس . أمية بن أبى الصلت . حياته ومؤلفاته . بنو زهر . أبو العلاء بن زهر . ابنه عبد الملك . ولده أبو بكر . أبو عبد الله الطغنرى . تأملات .

— ١ —

ظهر فى شبه الجزيرة الأندلسية ، من أعلام المحدثين والفقهاء ، فى العصر المرابطى ، جمهرة كبيرة ، بلغ بعضهم فى ميدانه أرفع مكانة . وكان فى مقدمة هؤلاء اثنان لمع أحدهما فى شرقى الأندلس ، ولمع الثانى فى غربى الأندلس ، وكان لهما أكبر أثر فى ازدهار علوم السنة والفقه فى ذلك العصر .

أولهما العلامة الحافظ أبو على حسين بن محمد بن فيرُّه الصدفى . أصله من سرقسطة من أهل الثغر الأعلى ، وبها كان مولده ونشأته ، ودرس فى سرقسطة وبلنسية وألمرية ، وكان من أساتذته أبو اليد الباجى ، وأبو العباس العذرى ، وأبو عبد الله بن المرابط . ثم رحل إلى الشرق فى سنة ٤٨١ هـ ، وحج ودرس بمكة وبغداد ودمشق والقاهرة ، على أشهر علماء العصر . ثم عاد إلى الأندلس سنة ٤٩٠هـ ، واستوطن مرسية، وقد ذاع صيته العلمى ، واشتهر بالأخص بتبحره فى علوم السنة . وولى قضاء مرسية مدة ، ولكنه استعفى فأعفى ، وانقطع لنشر

العلم وتدريسه ، فهرع الناس لسماعه والأخذ عليه ، وكان أعظم حفاظ عصره . وكتب عدة كتب فى الحديث . وفى سنة ٥١٤هـ ذهب إلى شاطبة وأقام بها ، وكان دائب الحث على الجهاد . ولما سار الأمير إبراهيم بن يوسف بن تاشفين غازياً إلى الثغر الأعلى لإنقاذ دورقة وقلعة أيوب ، كان أبو على ضمن العلماء الذين ساروا فى ركبه ، وكان ممن استشهد فى موقعة كتندة ، التى نشبت على أثر ذلك بين المرابطين وبين الأرجونيين ، بقيادة ألفونسو المحارب ، فى ربيع الأول سنة ٥١٤ هـ (يونيه ١١٢٠ م) وذلك حسبما فصلناه من قبل فى موضعه[1].

والثانى هو القاضى أبوبكر محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن العربى المعافرى ، وهو من أعظم فقهاء العصر المرابطى وحفاظه . ولد بإشبيلية سنة ٤٦٨هـ وبرع فى الحديث والأدب ، ورحل إلى المشرق مع ابنه حينما أرسله يوسف بن تاشفين سفيراً عنه إلى الخليفة المستظهر والإمام الغزالى ، وذلك فى سنة ٤٨٥هـ ، ودرس بمكة والقاهرة وبغداد ودمشق . وقرأ فى بغداد على أبى بكر الشاشى ، وأبى حامد الغزالى ، وبدمشق على أبى بكر الطرطوشى ، ثم عاد إلى الأندلس سنة ٤٩٣ هـ ، يسبقه صيته العلمى . ويصفه تلميذه ابن بشكوال « بالإمام العالم الحافظ ، المستبحر ، ختام علماء الأندلس ، وآخر أئمتها وحفاظها » . وتولى ابن العربى قضاء بلده إشبيلية لأول مرة فى سنة ٥٠٨ هـ ، ولبث به مدة وعرف بحزمه ونزاهته ، وتحريه العدل والحق والتزام الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، حتى أوذى بسبب ذلك وانتهبت أمواله وكتبه . ثم صرف عن القضاء وانقطع للتدريس ونشر العلم . وكتب عدة مؤلفات منها « كتاب ترتيب الرحلة » ، وكتاب « العواصم والقواصم » ، وكتاب « أنوار الفجر » فى مدح الرسول ، وكتاب « قانون التأويل » ، وكتاب « التلخيص فى النحو » ، وكتاب « القبس فى شرح موطأ مالك » وبلغت مؤلفاته نحو الأربعين كتاباً . ولما اضطربت أمور الدولة المرابطية بالأندلس ، وغلب الموحدون على إشبيلية ، عبر القاضى ابن العربى البحر إلى المغرب ، على رأس وفد كبير من علماء إشبيلية وأعيانها ، ولقى الخليفة عبد المؤمن بمراكش فى أوائل سنة ٥٤٢ هـ ، وذلك عقب افتتاحها ، وقدم إليه بيعة أهل إشبيلية ، ولما غادر الوفد مراكش عائداً إلى الأندلس ، توفى القاضى ابن العربى خلال الطريق ، ودفن بفاس وذلك فى جمادى الآخرة من نفس السنة (١١٤٧م) . ومما تجدر ملاحظته

---

(١) راجع الصلة لابن بشكوال الترجمة رقم ٣٣٠ . وكذلك : Pons Boigues : ibid; No 143

أن ابن العربى بالرغم من تحوله إلى جانب الموحدين حينما قامت دولتهم ، لم يضن بمديحه للمرابطين وعهدهم ، حسبما أشرنا إلى ذلك من قبل[١] .

وكان من أعلام الفقهاء فى العصر المرابطى ، أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد الجد ، قاضى الجماعة بقرطبة ، وقد برع بالأخص فى الفقه المالكى ، وألف فيه عدة مصنفات جليلة ، منها «كتاب البيان والتحصيل لما فى المستخرجة من التوجيه والتعليل » و«كتاب المقدمات لأوائل كتاب المدونة » ، واختصار كتاب المبسوطة ، واختصار مشتمل الآثار لأبى جعفر الطحاوى . وكان ابن رشد بجلال بيته ، ورفيع خلاله ، ورياسته العلمية ، من الرؤساء ذوى المكانة والنفوذ ، لدى البلاط المرابطى ، وقد رأينا فيما تقدم خطورة الدور الذى اضطلع به ، فى إقناع أمير المسلمين على بن يوسف بتغريب النصارى المعاهدين . ولد بقرطبة سنة ٤٥٠ ه ، وتوفى بها فى شهر ذى القعدة سنة ٥٢٠ ه (أواخر ١١٢٦ م)[٢] .

ومن أشهر الفقهاء المحدثين والحفاظ ، فى ذلك العصر ، أبو القاسم أحمد بن عمر بن يوسف بن ورد التميمى من أهل ألمرية . وكان متمكناً أيضاً من الأدب والنحو والتاريخ ، ومتقناً لعلم الأصول والتفسير . انتهت إليه ، وإلى زميله القاضى ابن العربى رياسة الفقه المالكى فى عصرهما ، ولى قضاء غرناطة ، فظهر فيه بكفايته وعدله وحسن سيرته ؛ وتوفى بألمرية فى رمضان سنة ٥٤٠ ه (١١٤٦م)[٣] .

ومن أعلام المحدثين والفقهاء أيضاً ، أبو العباس أحمد بن عبد الرحمن بن محمد ابن الصقر الأنصارى الخزرجى ، أصله سرقسطة ، ومولده بألمرية سنة ٥٠٢ ه ، وكان محدثاً بارعاً ، وفقيهاً متمكناً متقدماً فى علم الكلام ، وكاتباً بليغاً وشاعراً محسناً ، استدعاه أبو عبد الله بن حسون قاضى مراكش المرابطى إلى كتابته ، فلما صرف عن القضاء ، تولى أبو العباس خطة الإمامة ، واستمر بها ، حتى سقطت مراكش وآل الأمر إلى الموحدين . ولما وقعت النكبة ، واستباح الموحدون دماء أهل المدينة ، اختفى أبو العباس حيناً ، وكتب له النجاة ، حتى نودى بالعفو ، ثم استنقذ من الرق ، واتصل بالسادة الجدد ، أعنى الموحدين .

---

(١) راجع الصلة الترجمة رقم ١٢٩٧، ونفح الطيب ج ١ ص ٣٣٥ — ٣٣٧ ، وكذلك :
Pons Boigues: ibid ; No 172

(٢) ترجمته فى الصلة رقم ١٢٧٠

(٣) ترجمته فى الإحاطة (القاهرة ١٩٥٦) ج ١ ص ١٧٥ — ١٧٧

فنظمه عبد المؤمن بين طابة العلم، وأضفى عليه رعايته، ثم ولاه قضاء غرناطة، ثم قضاء إشبيلية . وهنالك توثقت صلاته بجاره وصديقه العلامة أبى بكر بن طفيل . ولما تولى أبو يعقوب يوسف الخلافة، عينه للنظر على الخزانة (المكتبة) وهى عندهم من الخطط الجليلة، لايتولاها إلا أكابر العلماء . وكتب أبو العباس عدة مصنفات منها « شرح الشهاب » وكتاب « أنوار الأفكار فيمن دخل جزيرة الأندلس من الزهاد والأبرار » . وله شعر جيد معظمه فى الإلهيات والزهد . فمن ذلك قوله :

إلهى لك الملك العظيم حقيقة ... وما للورى مهما منعت نقير
تجافى بنو الدنيا مكانى فسرنى ... وما قدر مخلوق جداه حقير
وقالوا فقير وهم عندى جلالة ... نعم صدقوا إنى إليك فقير

وتوفى أبو العباس بمراكش فى جمادى الأولى سنة ٥٥٩ هـ (١١٦٤م) ؛ ورثاه صديقه العلامة ابن طفيل بقصيدة بعث بها إلى ولده بمراكش مطلعها :

لأمر ما تغيرت الدهور ... وأظلمت الكواكب والبدور
وطال على العيون الليل حتى ... كأن النجم فيه لا يغور[١]

ومنهم الفقيه الحافظ أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن عطية المحاربى، من أهل غرناطة، برع فى علوم القرآن والسنة وكان فقيهاً متبحراً، وأديباً واسع المعرفة، متقدماً فى فنون عديدة، وتولى القضاء بغرناطة والمرية، وألف فى التفسير كتاباً ضخماً لخص فيه كل ما تقدمه من كتب التفسير، واشتهر بالمغرب والأندلس، وألف كتاباً فى « الأنساب »، وانتهى إلينا من مؤلفاته « معجم شيوخه » وهو محفوظ بمكتبة الإسكوريال .

ولد سنة ٤١٨هـ، وتوفى بلورقة سنة ٥٤٢ هـ (١١٤٧ م)[٢]. وكان فوق ذلك أديباً ينظم الشعر، ومن قوله فى مدح المرابطين :

إذا لثموا بالريط خلت وجوههم ... أزاهر تبدو من فتوق كمائم
وإن لثموا بالسابرية أظهروا ... عيون الأفاعى من جلود الأراقم[٣]

---

(١) أورد لنا ابن الخطيب فى الإحاطة ترجمة ضافية لأبى العباس ج ١ ص ١٨٩ — ١٩٣ ، وكذا ابن عبد الملك فى الذيل والتكملة . ويقول ابن عبد الملك إن مولد أبى العباس كان بالمرية سنة ٤٩٢ هـ ووفاته سنة ٥٦٩هـ ، وبذلك يختلف معه ابن الخطيب فى التاريخين . وراجع التكملة لابن الأبار رقم ٢٠١ .

(٢) راجع بغية الملتمس للضبى (المكتبة الأندلسية) ترجمة رقم ١١٠٣ .

(٣) راجع الصلة الترجمة رقم ٨٢٩ ، وكذلك **P. Boigues; ibid; No 109** ، والمطرب من أشعار أهل المغرب لابن دحية ص ٩١ .

وهذا المديح للمرابطين من الأمور النادرة فى الشعر الأندلسى . وقد نجد شاعراً يمتدح أميراً منهم لصلة خاصة . ولكن يندر أن نجد شعراً فى مدح المرابطين بصفة عامة .

ومنهم عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله المعافرى ، وكان من الفقهاء الوزراء . كان متمكناً من الفقه والحديث ، بارعاً فى الأدب ، محسناً للنظم ، كاتباً بليغاً ، ولى أيام الأمير على بن يوسف مستخلص غرناطة وإشبيلية (الأملاك السلطانية) فقام على إدارتها بحزم وكفاية ، ثم ندبه الأمير إلى طرطوشة ليشرف على أهلها وتجديد مبانيها، فأدى مهمته خير أداء ، وكان جواداً كثير البذل ، وتوفى فى سنة ٥١٨ هـ (١١٢٤ م)[١] .

ومنهم عبد الله بن محمد عبد الله النفزى المعروف بالمرسى ، ولد بمرسية سنة ٤٥٣ هـ ، ودرس بها ثم انتقل إلى سبتة ، وتولى الخطابة بجامعها مدة ، وكان متفوقاً فى علم الحديث ، وأخذ الناس عنه ، ومنهم صاحب الصلة، وكتب عدة مؤلفات ، وتوفى بقرطبة سنة ٥٣٨ هـ (١١٤٣ م)[٢].

ومنهم قاضى قضاة الشرق أبو العباس أحمد بن محمد بن زيادة الله الثقفى المعروف بابن الحلال . درس الفقه والحديث والأدب ، وولى خطة الشورى ، ثم ولى قضاء أوريولة ، ثم نقل إلى مرسية حيث تولى بها قضاء الجماعة ، وعلت مكانته لدى محمد بن سعد أمير الشرق ، ولكنه كان سيئ التصرف ، كثير الرعونة ، ووشى به إلى الأمير ، فقبض عليه واستصفى أمواله ، واعتقله ببلدة أندة على مقربة من بلنسية ، ثم أمر به فقتل ، وكان مقتله فى سنة ٥٥٤ هـ(١١٥٩ م)[٣] .

ومنهم أحمد بن عبد الملك بن محمد بن إبراهيم الأنصارى ، ويعرف بابن أبى مروان ، من أهل إشبيلية ، كان حافظاً متقناً ، فقيهاً ظاهرى المذهب على طريقة ابن حزم القرطبي ، وله مؤلف فى الحديث عنوانه « المنتخب المنتقى » جمع فيه ما افترق فى أمهات المسندات من نوازل الشرع . توفى قتيلا بلبلة خلال ثورة أهلها وتغلب الموحدين عليهم ، وذلك فى شعبان سنة ٥٤٩ هـ (١١٥٤م)[٤] .

---

(١) الإحاطة (مخطوط الإسكوريال) لوحة ٢٥٦ .

(٢) ترجمته فى الصلة رقم ٦٤٩ ، وكذلك فى **P. Boigues: ibid; No 164**

(٣) ترجمته فى التكملة لابن الأبار ج ١ رقم ١٧٤ .

(٤) ترجمته فى التكملة لابن الأبار ج ١ رقم ١٦٢ .

وأبو جعفر أحمد بن عبد الرحمن البطروجي ، وقد نبغ فى الفقه والحديث ، وكتابة السير ، وكان من أشهر حفاظ عصره ، وتوفى بقرطبة سنة ٥٤٢ هـ (١١٤٧ م)[١] .

ويوسف بن عبد العزيز بن يوسف بن فيرُّه الليثى ، ويعرف بابن الدباغ ، أصله من أهل أندة ، وسكن مرسية ، ودرس على أبى على الصدفى ، وكان من أنبه تلاميذه . ونبغ فى الحديث والرواية ، وكتب عدة مصنفات منها « كتاب طبقات المحدثين » و « طبقات أئمة الفقهاء » ، ورسالته فى الحفاظ ، وغيرها . وتوفى سنة ٥٤٦ هـ (١١٥١ م)[٢] .

وأبو بحر سفيان بن أحمد العاصى الأسدى ، أصله من شرقى الأندلس من مدينة مربيطر من أعمال بلنسية ، برع فى الحديث والأدب والرواية ، وكان حسبما يصفه ابن بشكوال من جلة العلماء ، وكبار الأدباء ، سمع منه وحدث عنه كثير من أهل عصره . وكان من شيوخ ابن بشكوال . وتوفى بقرطبة سنة ٥٤٢ هـ (١١٤٧ م)[٣] .

ومنهم أحمد بن عبد العزيز بن محمد الأزدى ، وهو شقورى الأصل ، نشأ ودرس بمرسية . وكان فقيهاً متمكناً ، حافظاً ، بصيراً بالفتوى . ولى قضاء شاطبة مدة ، أيام الأمير محمد بن سعد بن مردنيش ، ثم ولى إلى جانبه قضاء أوريولة ، ولما نكب قاضى الجماعة أبو العباس بن الحلال ، نكب معه ، واعتقل شهوراً ، ثم أطلق سراحه ، وأعيد إلى قضاء أوريولة ، ومنصب الشورى بها ، إلى أن توفى فى سنة ٥٦٤ هـ (١١٦٩ م)[٤] .

وعلى بن صالح بن أبى الليث الأسعد بن الفرج ، أبو الحسن بن عز الناس ، أصله من طرطوشة ، ونشأ بميورقة ، وتجول فى بلاد الأندلس يدرس أينما حل ، ويتلقى العلم عن أقطاب عصره ، وكان من أساتذته أبو بكر بن العربى ، وأبو القاسم بن ورد ، وأبو الوليد بن رشد ، وبرع فى الفقه والأصول والحديث ، وكان فى نفس الوقت أديباً شاعراً ، خدم الأمير أبى زكريا بن غانية ، أيام إمارته

---

(١) ترجمة فى الصلة رقم ١٧٩ ، وكذلك فى P. Boigues : ibid;No 168

(٢) ترجمة فى الصلة رقم ١٥١٠ وكذلك فى P. Boignes : ibid;No 176

(٣) ترجمة فى الصلة رقم ٥٢٦ ، وكذلك فى P. Biogues : ibid;No 147

(٤) التكملة لابن عبد الملك — مخطوط خزانة الرباط المصور ، السفر الأول لوحة ٤٤ ، والتكملة لابن الأبار رقم ١٨٩ .

لبلنسية ، ثم صحبه إلى قرطبة ، ولازمه إلى أن توفى بغرناطة فى سنة ٥٤٣ هـ ، فانتقل إلى شرقى الأندلس ، واستقر بدانية ، ومن مؤلفاته كتاب « العزلة » ، « وشرح معانى التحية » . ولد بطرطوشة سنة ٥٠٨ هـ ؛ وقتل بدانية بأمر محمد ابن سعد فى رمضان سنة ٥٦٦ هـ (١١٧٠ م)(١).

وعبد الله بن خلف بن محمد القرشى ، من أهل مورور ، وسكن إشبيلية ودرس بها وبقرطبة على أقطاب عصره ، ومنهم ابن حمدين ، وأبو محمد بن عتاب ، وأبو الوليد بن رشد ، وكان فقيهاً حافظاً متقناً لفروع المذهب المالكى ، ماهراً فى استنباط الأحكام ، بصيراً بالفتوى ، تولى قضاء بلده مورور حيناً ، ولد فى سنة ٤٩٣ هـ ، وتوفى سنة ٥٧٦ هـ (١١٨٠ م)(٢).

ومنهم محمد بن خلف بن صاعد الغسانى ، من أهل شلب ، يكنى أبا الحسين ويعرف باللبلى لأن أصله من لبلة ، درس على أقطاب عصره مثل أبى الوليد ابن رشد ، وأبى محمد بن عتاب ، وأبى عبد الله بن الحاج ، وبرع فى الفقه ، ورحل إلى المشرق ودرس هنالك على طائفة من أعلامه ، ثم عاد إلى الأندلس ، فعنى بتدريس الفقه والحديث وعقد الشروط ، ثم ولى قضاء شلب ، وتوفى فى سنة ٥٤٧ هـ (١١٥٢ م)(٣).

وكان من أشهر أئمة القراءات فى ذلك العصر ، أحمد بن على بن أحمد بن خلف الأنصارى المعروف بابن الباذش ، وأصله من جيان ، وكان إلى جانب ذلك أديباً متقناً للنحو ، بصيراً بالأسانيد ، ومن مؤلفاته « كتاب الإقناع » وهو من أجل كتب القراءات ، وكتاب « الطرق المتداولة » وهو فى القراءات أيضاً ، وكانت وفاته فى سنة ٥٤٠ هـ (١١٤٥ م)(٤) .

ونستطيع أخيراً أن نذكر من أكابر الفقهاء والحفاظ ، القاضى الأجل ، والعلامة الفقيه الحافظ ، عياض بن موسى اليحصبى السبتى ، وهو إن كان أكثر نسبة إلى المغرب ، إلا أنه درس بالأندلس ، وشارك فى الحياة العقلية الأندلسية مشاركة قوية .

ولد بثغر سبتة فى منتصف شعبان سنة ٤٧٦ هـ ، وتلقى العلم حدثاً عن أشياخ

(١) التكملة لابن عبد الملك – مخطوط المتحف البريطانى – السفر الرابع لوحة ٤٨ ا .
(٢) التكملة لابن عبد الملك – مخطوط الإسكوريال (١٦٨٢ الغزيرى) .
(٣) ترجمته فى التكملة لابن الأبار رقم ٦٧١ .
(٤) ترجمته فى الإحاطة (١٩٥٦) ج ١ ص ٢٠١ – ٢٠٣ .

بلده ، ثم عبر البحر إلى الأندلس فى أوائل سنة ٥٠٧ هـ ، ودرس أولا بقرطبة ، وأخذ فيها عن ابن عتاب وابن حمدين وابن الحاج وغيرهم . وقصد بعد ذلك إلى مرسية ، وسمع بها على حافظها أبى على الصدفى ولازمه حيناً . ثم عاد إلى سبتة بعد أن قضى بالأندلس نحو عام ونصف ، وجلس للدرس والمناظرة ثم الشورى . وفى سنة ٥١٥ هـ ، ولى القضاء ، وكان ما يزال شاباً فى الثلاثين من عمره ، فسلك فيه طريقة مشكورة ، وأبدى حزماً فى تطبيق الأحكام والحدود ، واشتهر بغزير علمه وحفظه ، وصدق طريقته ، ودقة فتياه . ثم ولى قضاء غرناطة فى سنة ٥٣١ هـ ، فقام به خير قيام ، وأعرض عن الشفاعات والمؤثرات ، وصد أهل السلطان عن الباطل ، وتسبب فى تشريدهم عن الأعمال ، فاستاء الأمير تاشفين بن على لمسلكه ، وضاق به ذرعا ، وسعى فى صرفه عن قضاء غرناطة . فصرف عنه فى رمضان سنة ٥٣٢ هـ ، وعاد إلى سبتة ، ولبث بها مدة وهو عاكف على التدريس والفتيا . ثم ولى قضاء سبتة للمرة الثانية فى سنة ٥٣٩ هـ . ولما ظهر أمر الموحدين ، بادر بالدخول فى طاعتهم ، فأقره عبد المؤمن على ما كان عليه ، وصرف إليه شئون سبتة ، وحظى لديه بالتنويه والتقدير ، ثم رحل إليه ولقيه فى سلا ، وهو يتأهب للسير لحصار مراكش (سنة ٥٤٠ هـ) ، فأجزل الخليفة صلته وعاد إلى سبتة ، وهنا وقع الاضطراب بسبتة وخلع أهلها طاعة الموحدين ، وقتلوا عاملها الموحدى ، ونسب التحريض فى ذلك إلى القاضى عياض . وكان القاضى قد اتصل بيحيي بن غانية ، وانقلب على الموحدين ، فلما قدم الموحدون إلى سبتة ، وشددوا فى حصارها ، عاد القاضى فسعى فى الاعتذار إليهم ، واستدرار عطفهم ، فصفحوا عنه ، وعن أهل سبتة ، وسار القاضى بعد ذلك إلى مراكش (سنة ٥٤٣ هـ) ليستعطف الخليفة ويلتمس صفحه ، فعفى عنه عبد المؤمن ، وأكرم وفادته ، وعينه بمجلسه ، ثم مرض عياض بعد ذلك وتوفى بمراكش ، فى الليلة التاسعة من جمادى الآخرة سنة ٥٤٤ هـ (١١٤٩ م) ، وذلك كله حسبما سبق أن فصلناه فى موضعه .

وكان القاضى عياض من أكابر الحفاظ ، ومن أعظم أئمة عصره فى الحديث ، وفى فهم غريبه ومشكله ومختلفه ، بارعاً فى علم الأصول والكلام ، حافظاً للمختصر والمدونة ، متمكناً من الشروط والأحكام ، أبرع أهل زمانه فى الفتيا ، متقنا للنحو واللغة ، أديباً كبيراً ، وشاعراً مجيداً ، حسن التصرف فى النظم ،

كاتباً بليغاً ، وخطيباً مفوها ، عالماً بالسير والأخبار ، ولاسيما سير العرب وأيامها وحروبها ، وأخبار الصالحين والصوفية ، مشاركاً فى علوم كثيرة أخرى ، وكان حسن المجلس ، ممتع المحاضرة ، فصيح اللسان ، حلو المداعبة ، بساماً مشرقاً ، جم التواضع ، يمقت الإطراء والملق ، معتزاً بنفسه ومكانته ، محباً لأهل العلم ، معاوناً لهم على طلبه ، جواداً ، سمحاً ، من أكرم أهل زمانه ، كثير الصدقة ، والمواساة(١) .

وللقاضى عياض ثبت حافل من المؤلفات الجليلة منها كتاب « الشفاء بتعريف حقوق المصطفى » وهو أشهر كتبه . و « مشارق الأنوار » ، فى تفسير غريب الحديث . وكتاب « التنبيهات » . وكتاب « ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة المالكية » وكتاب « الإكمال » وكتاب « العيون الستة فى أخبار سبتة » وغيرها ، من كتب الدين واللغة والأنساب والتاريخ . ويعتبر القاضى عياض أعظم حفاظ المغرب وعلمائها فى عصره ، وقد خصه حافظ المغرب ومؤرخ الأندلس الكبير شهاب الدين المقرى بكتابه الضخم « أزهار الرياض فى أخبار القاضى عياض »(٢) .

وهناك جمهرة من الفقهاء والمحدثين ، الذين ظهروا فى العصر المرابطى ، وتجاوزوه الى العصر الموحدى ، نذكر بعضهم فيما يلى :

كان من هؤلاء ، محمد بن سليمان بن خلف النفزى من أهل شاطبة ويعرف بابن بركة ، كان فقيهاً متمكناً ، حافظاً للمسائل ، بصيراً بالفتوى ، خبيراً بعقد الشروط ، حافظاً لمتون الأحاديث ، مستظهراً لمقدمات ابن رشد ، ولى خطة الشورى(٣) بشاطبة ، واشتهر بكفايته وورعه ، وزهده ، وتوفى فى جمادى الأولى سنة ٥٥٣ هـ(٤) .

وأحمد بن يوسف بن اسماعيل بن صاحب الصلاة من أهل باجة ، وكان

---

(١) من ترجمة للقاضى عياض بمخطوط المكتبة الكتانية المحفوظ بخزانة الرباط ، برقم 553 ، وعنوانه «كتاب فى التعريف بعياض» (لوحة ٧ — ١٤) .

(٢) ترجمة القاضى عياض فى الصلة ، رقم ٩٧٥ ، ووفيات الأعيان ج ١ ص ٤٦٩ ، وقلائد العقيان من ٢٢٢ — ٢٢٦ ، وابن الخطيب فى الإحاطة — مخطوط الإسكوريال السالف الذكر ، لوحة ٣٥٠ .

(٣) سوف نتحدث عن خطة الشورى فيما بعد عند الكلام على نظم الحكم الموحدى .

(٤) ترجمته فى التكلة (القاهرة) رقم ١٣٤٣ .

من رواة الحديث ، وأهل العناية به ، وقد توفى شهيداً ، حينما دهم النصارى مدينة باجة فى ليلة السبت ٢٢ من ذى الحجة سنة ٥٥٧ هـ(١).

وأبو جعفر أحمد بن مسعود بن إبراهيم بن يحيى القيسى المعروف بابن اشكبندر ، أصله من سرقسطة بالثغر الأعلى ، وولد بشاطبة ، ودرس بها ، ونبغ فى الحديث والرواية ، وكان من أكثر حفاظ عصره علما بأسماء الرجال ، ومواليدهم ووفياتهم ، حتى شبه فى ذلك بالقاضى عياض ، تولى خطة الشورى بشاطبة ، وحدث وأخذ عنه بعض علماء عصره ، وكان ورعاً منقبضاً زاهداً ، وتوفى بالمهدية وهو فى طريقه إلى الحج فى رمضان سنة ٥٥٨ هـ(٢).

ومحمد بن أحمد بن محمد بن أبى العافية ، من أهل مرسية ، ويعرف بالقسطلى لأن أصله من قسطلونة ، درس الفقه ، وبرع فى الفقه المالكى ، وقام بتدريسه ، وتولى الشورى ببلده ، وكان موصوفاً بالحفظ ، والعدالة والنزاهة وتوفى فى شهر ذى الحجة سنة ٥٥٨ هـ(٣).

ومحمد بن عبد الله بن أحمد بن مسعود بن صنعون بن شعبان ، وهومن أهل شلب ، ويعرف بالقنطرى ، نسبة إلى قنطرة السيف من أعمال الغرب ، وهى دار سلفه . درس بإشبيلية وقرطبة وألمرية على جماعة من أقطاب العصر مثل أبى بكر بن العربى ، وابن مغيث ، وابن أبى الخصال ، وغيرهم ، وبرع فى الحديث واشتهر بالحفظ والضبط ، وبرع كذلك فى الفقه ، وتولى خطة الشورى ، وكتب ذيلا لكتاب « الصلة » لابن بشكوال ، نقلها ابن الأبار كلها ، وتوفى بمراكش فى شهر ذى الحجة سنة ٥٦١ هـ(٤).

وأحمد بن عبد الرحمن بن عيسى بن إدريس التجيبى من أهل مرسية . درس على أبيه وعلى أبى على الصدفى وغيره من شيوخ العصر ، وبرز فى الفقه ، وعلوم القرآن ، مع مشاركة فى الأدب ، وتقلد خطة الشورى وأحكام القضاء بمرسية مدة طويلة ، ثم ولى قضاء شاطبة ، وعرف بالكفاية والنزاهة ، وتوفى بمرسية ثانى عيد الأضحى سنة ٥٦٣ هـ(٥).

---

(١) ترجمته فى التكملة رقم ١٧٦ .

(٢) ترجمته فى التكملة رقم ١٧٧ .

(٣) ترجمته فى التكملة رقم ١٣٦٣ .

(٤) ترجمته فى التكملة رقم ١٣٧٧ .

(٥) ترجمته فى التكملة رقم ١٨٨ .

ومن الفقهاء الذين جمعوا بين الفقه والأدب ، أحمد بن محمد بن هذيل الأنصارى من أهل بلنسية . درس بها وبقرطبة ، وبرع فى الفقه ، وتولى خطة الشورى ببلنسية ، ثم تولى قضاء بعض مدن ولاية قرطبة مثل إستجه وباغة . وكان فوق ذلك شغوفاً بالأدب ، بارعاً فى الكتابة ، محسناً للنظم ، وولى فى أواخر حياته خطة المواريث ببلنسية فى إمارة محمد بن سعد ، ثم اضطهد ، ونفى إلى جزيرة شُقر ، وهنالك توفى فى سنة ٥٥٨ هـ[١] .

ومنهم أحمد بن حسن بن سيد الحراوى من أهل مالقة ، ويعرف بابن سيد . درس الحديث واللغة والأدب على أقطاب عصره ، وكان بارعاً فى اللغة ، وفى النحو ، وله حظ من قرض الشعر الجيد ، وقد أورد لنا صاحب التكملة ، من شعره هذين البيتين :

وبين ضلوعى للصبابة لوعـــة بحكم الهوى تقضى على ولا أقضى
جنى ناظرى منها على القلب ما جنى فيا من رأى بعضاً يُعين على بعض

وتوفى ابن سيد فى نحو سنة ٥٦٠ هـ[٢].

وظهرت بالأندلس فى العصر المرابطى ، حركة دينية خاصة ، اتخذت طابع التصوف ، وهى التى أسفرت عن قيام طائفة المريدين فى غربى الأندلس . وكان إمام هذه المدرسة العلامة الصوفى أبو العباس أحمد بن محمد بن موسى بن عطاء الله الصنهاجى المعروف بابن العريف . وهو من أهل ألمرية ، وبها ولد سنة ٤٨١هـ . ودرس علوم القرآن والسير ، وغلب عليه الزهد والورع ، ومال إلى طرق الصوفية ، حتى غدا من أقطاب نحلتهم . وألف عدة تصانيف منها «كتاب المجالس»، وكتب رسالة يحمل فيها على الفيلسوف ابن حزم ، وكانت بينه وبين القاضى عياض السبتى ، مراسلات ومجادلات فقهية . والظاهر أنه قد أثار بكتاباته وتعاليمه سخط الفقهاء المرابطين ، فسعوا به إلى على بن يوسف ، فاستدعاه إلى مراكش وبقى بها بحالة اعتقال حتى توفى ، وذلك فى صفر سنة ٥٣٦هـ (١١٤١م)، واحتفل الناس بجنازته ، وندم أمير المسلمين على ما كان منه فى حقه[٣] .

---

(١) ترجمته فى التكملة رقم ١٧٩ .

(٢) ترجمته فى التكملة رقم ١٨٢ .

(٣) راجع ترجمة ابن العريف فى وفيات الأعيان (ج ١ ص ٦٧) . وكذلك فى الصلة لابن بشكوال ترجمة رقم ١٧٦ .

وكان ابن العريف ينظم الشعر الروحى الجيد ومن ذلك قوله :

سلوا عن الشوق من أهوى فإنهم ... أدنى إلى النفس من وهمى ومن نفسى
ما زلت مذ سكنوا قلبى أصون لهم ... لحظى وسمعى ونطقى إذ هُمُوا أنسى
وفى الحشا نزلوا والوهم يجرحهم ... فكيف قروا على أذكى من القبس
حلّوا الفؤاد ، فما أندى ولو وطئوا ... صخراً لجاد بماء فيه منبجس
لا تنهض إلى حشرى بجمهم ... لا بارك الله فيمن خانهم فنسى

وقد ذكرنا فيما تقدم أن أحمد بن قسىّ زعيم الثورة فى غربى الأندلس . كان من تلاميذ ابن العريف ، وأنه أخذ عليه بألمرية تعاليمه وطريقته ، وهى التى عرفت بطريقة « المريدين » ، واتخذها ابن قسى وأصحابه شعاراً لثورتهم فى الغرب . والظاهر أن ابن قسى ، هو المسئول عن تطور الدعوة ، إلى هذا الاتجاه الذى اتخذته فى الغرب ، والذى أسبغ عليها هذا الطابع الثورى الخاص ، وأن ابن العريف لم يكن له فى صوغها سوى العنصر الروحى . وعلى أى حال فإنه لا توجد لدينا عن دعوة « المريدين » معلومات كافية . تفصح عن مبادئها الحقيقية ، وكل ما يقدمه إلينا ابن الأبار فى ذلك أنها كانت دعوة شعارها « التهليل والتكبير »[1] . وقد كتب عبد الملك بن صاحب الصلاة ، مؤرخ الموحدين عن « ثورة المريدين » كتاباً يشير إليه فى مواضع كثيرة من تاريخه المسمى « المن بالإمامة » ، ولكن هذا الكتاب لم يصل إلينا . وما نود أن نشير إليه هنا ، هو أن ابن قسى كان جانب إلى جانب زعامته الثورية ، من علماء الدين والكلام ، وكان أديباً وشاعراً من شعراء العصر . وقد أوردنا فيما تقدم شيئاً من نظمه .

وكان من زملاء ابن قسىّ فى حمل لواء دعوة المريدين ، محمد بن عمر ابن المنذر الذى تتبعنا أخباره فيما تقدم . وكان فقيهاً متمكناً ، وأديباً بارعاً ، وشاعراً مقتدراً ، وقد أوردنا كذلك فيما تقدم شيئاً من نظمه .

وكان من أدباء المريدين وشعرائهم ، أبو بكر بن المنخّل الشلبى ، وزير ابن المنذر المتقدم وكاتبه . وكان شاعراً جزلا ، وقد انضم بعد انهيار الثورة فى الغرب . إلى الدعوة الموحدية ، وكان ممن مدح الخليفة عبد المؤمن خلال وجوده فى جبل طارق . وقد أورد لنا ابن الأبار طائفة من نظمه ، ومن ذلك قوله مخاطباً ابن المنذر :

---

(١) ابن الأبار فى الحلة السيراء ص ١٩٩ .

تجاف عن الدنيا وعن برد ظلها   فإن برودا لا يدوم حرور
فديتك لا تأسف لدنيا تقلصت   وأوحش يوماً منبر وسرير
وإن عريت جرد المذاكى وذُللت   أسودٌ فلم يسمع لهن زئير
وغودرت الرايات تهفو كأنها   جوانح من ذعر عليك تطير
وكانت ولم تذعر عليك كأنها   إذا رفرفت يوم الهياج نسور
طلبت وفاء والوفاء سجية   ولكنها أم الوفاء نزور
رأيتك تبغى مثل نفسك فى العلا   طلابٌ لعمرى ما أردتَ عسير (١)

وظهر من علماء المتصوفة فى شرقى الأندلس ، أحمد بن محمد بن سفيان المخزومى ، أصله من جزيرة شقر من أعمال بلنسية ، ودرس الأدب ، ونظم الشعر ، ثم مال إلى التصوف والزهد ، وكان يعرف بالعابد . وكان ثرياً ، ينفق على الفقراء والمعوذين أموالا جليلة . وأدركته وحشة من أمير الشرق ، محمد بن سعد بن مردنيش ، فخلع طاعته ، ودعا للموحدين ، وامتنع بالجزيرة ، وذلك فى أواخر سنة ٥٦٦ هـ فأدى ذلك إلى محاصرته حيناً ، ولم ينفس عن أهله إلا وفاة ابن سعد بعد ذلك بنحو عام ، فى رجب سنة ٥٦٧ هـ .

ولابن سفيان شعر يقتصر على الزهد . ومن ذلك قوله من قصيدة :

كل عطاء فإلى علّة   لاشك يقضى ولوجه السقم
إلا الذى منك بلا علة   يا خالق العرش ومجرى القلم
كل الورى لابس ثوب الدجا   لولا سنى منك يجلّى الظلم (٢)

ومن أقطاب المحدثين والمتصوفة بالشرق أيضاً أبو العباس أحمد بن معد ابن عيسى بن وكيل التجيبى المتزهد ، ويعرف بابن الأقليشى ، أصلهم من أقليش ، ونزحوا إلى دانية ، وبها ولد أبو العباس ونشأ . ودرس ببلنسية ، وإشبيلية ، والمرية ، وبرع فى الحديث واللغة والأدب ، وكان من أساتذته أبو محمد البطليوسى ، وأبو بكر بن العربى ، وأبو القاسم بن ورد ، وغيرهم من أقطاب العصر . ورحل إلى المشرق فى سنة ٥٣٢ هـ ، فحج وجاور بمكة . وحدث

---

(١) راجع الحلة السيراء ص ٢٠٦ و٢٠٧ .

(٢) ترجمته فى التكملة لابن الأبار ج ١ رقم ٢٠٠ ، وفى الذيل والتكملة لابن عبد الملك ، المخطوط السالف الذكر .

بالأندلس والمشرق ، وكان متصوفاً زاهداً ، أديباً شاعراً ، وله عدة تصانيف منها كتاب « الكواكب » وكتاب « النجم من كلام سيد العرب والعجم » وكتاب « الغرر من كلام سيد البشر » وكتاب « ضياء الأولياء » . وغيرها ومن نظمه فى الزهد قوله :

أسير الخطايا عند بابك واقف ... له عن طريق الحق قلب مخالف
قديماً عصى عمداً وجهلا وغرّة ... ولم ينهه قلب من الله خائف
ثلاثون عاما قد تولت كأنها ... حلوم تقضت أو بروق خواطف
وجاء المشيب المنذر المرء أنه ... إذا رحلت عنه الشبيبة تالف
فجد بالدموع الحمر حزناً وحسرة ... فدمعك يبنى أن قلبك آسف

وتوفى أبو العباس عند عوده من المشرق بمدينة قوص من صعيد مصر فى سنة ٥٥١ هـ (١١٥٦ م)[١] .

ومنهم محمد بن يوسف بن سعادة ، من أهل مرسية ، وسكن شاطبة . برع فى الفقة والحديث ، وأخذ عن جمهرة من أعلام عصره ، منهم أبو على الصدفى ، وأبو محمد بن عتاب ، وأبو بكر بن العربى وغيرهم . ثم رحل إلى المشرق ، وسمع بالإسكندرية ومكة ، وعاد إلى مرسية ، وكان فوق براعته فى علوم القرآن والتفسير ، والحديث ، بصيرا باللغة ، شغوفا بالتصوف مؤثرا له . ولى القضاء بمرسية ، ثم شاطبة ، وعرف بمقدرته ونزاهته ، وكان حافظا متقنا ، ثقة ؛ وتوفى مصروفا عن القضاء فى آخر سنة ٥٦٥ هـ[٢] .

ونبغ فى العصر المرابطى ، من أئمة اللغة ، أبو محمد عبد الله بن محمد بن السيد البطليوسى . وأصله من بطليوس ، من غربى الأندلس ، كما يدل على ذلك اسمه . ولد بها سنة ٤٤٤ هـ ، وسكن بلنسية ، ودرس بها ، وكان فضلا عن أدبه البارع ، أمام عصره فى النحو وعلوم اللغة ، يجتمع إليه الناس من كل فج ، ليقرأوا عليه ، وليقتبسوا من غزير علمه ، وكان حجة ثقة ضابطاً . وله عدة مؤلفات قيمة ، اشتهر منها بالأخص شرحه لكتاب « سقط الزند »[٣] لأبى العلاء المعرى ، وهو شرح يصفه ابن خلكان بأنه أجود من شرح أبى العلاء صاحب

---

(١) ترجمته فى التكملة لابن الأبار ج ١ رقم ١٦٧ .

(٢) ترجمته فى التكملة رقم ١٣٩٠ .

(٣) نشر هذا الشرح بالقاهرة بعناية « لجنة إحياء تراث أبى العلاء المعرى » وأصدرته وزارة المعارف المصرية (سنة ١٩٤٥) .

الديوان الذى سماه « ضوء السقط » . ومنها كتاب « الإقتضاب فى شرح أدب الكتاب » وكتاب فى الحروف الخمسة « السين والصاد والضاد والطاء والدال » ، وكتاب «الحلل فى شرح أبيات الجمل » و « الحلل فى أغاليط الجمل » ، وكتاب « شرح الموطأ » . وله أيضاً « كتاب التنبيه على الأسباب الموجبة لاختلاف الأمة » .
وكان ابن السيد فوق ذلك شاعراً مقتدراً ، وله نظم حسن ، فمن ذلك قوله :

أخو العلم حى خالد بعد موته ... وأوصاله تحت التراب رميم
ذو الجهل ميت وهو ماش على الثرى ... يُظن من الأحياء وهو عديم

وله من قصيدة يمدح فيها المستعين بن هود :

سقى عهدهم بالخيف عهد غمائم ... ينازعها مزن من الدمع هتان
أأحبابنا هل ذلك العهد راجع ... وهل لى عنكم آخر الدهر سلوان
ولى مقلة عبرى وبين جوانحى ... فؤاد إلى لقياكم الدهر حنان
تنكرت الدنيا لنا بعد بعدكم ... وحلت بنا من معضل الخطب ألوان
وحلنا سوام الحمد عنها لغيرها ... فلا ماؤها صدا ولا النبت سعدان
إلى ملك حاباه بالحسن يوسف ... وشاء له البيت الرفيع سليمان
من النفر الشم الذين أكفهم ... غيوث ولكن الخواطر نيران

وتوفى ابن السيد بمدينة بلنسية فى منتصف رجب سنة ٥٢١ هـ (يونيه ١١٢٧ م)(١)

وكان من أعلام اللغويين أيضاً يونس بن محمد بن مغيث . وقد ولد بقرطبة سنة ٤٤٧ هـ ، ودرس بها وبرع فى علوم اللغة ، وكذلك فى الرواية وعلم الأنساب ، وفى الأدب ، وكان من أساتذة ابن بشكوال حسبما يحدثنا فى « الصلة » . وتوفى بقرطبة سنة ٥٣٢ (١١٣٧ م)(٢) .

ومنهم أحمد بن عبد الجليل بن عبد الله ، ويعرف بالتدميرى لأن أصله منه كورة تدمير ، ونشأ بالمرية ، وبرع فى الآداب العربية واللغات ؛ وكان له حظ من قرض الشعر ، وسكن بجاية وقتا فى ظل بنى حماد . وله عدة مؤلفات قيمة منها كتاب التوطئة فى العربية ، وشرح على كتاب الفصيح لثعلب ، وشرح

---

(١) راجع ترجمة البطليوسى فى وفيات الأعيان (ج ١ ص ٢٣٢ و ٢٣٣) ، وفى الصلة لابن بشكوال الترجمة رقم ٦٤٣ .

(٢) ترجمته فى الصلة رقم ١٥٥٨ ، وكذلك فى Pons Boigues : ibid; No 161

لأبيات جمل الزجاجي ، وكتاب الفوائد والفرائد وغيرها . وتوفى بفاس سنة ٥٥٥ هـ[١] .

ومنهم عبد الله بن الحسن بن عبد الله بن يزيد السعدى ، من أهل قلعة يحصب ، أبو محمد ، درس على أبى جعفر البطروجى ، وأبى الحسن بن الباذش ، وكان متمكناً من الفقه ومن علم القراءات ، بارعاً فى اللغة والأدب ، متبحراً فى النحو ، مستظهراً لكتاب سيبويه ، مشاركاً فى عدة فنون أخرى . غادر موطنه الأصلى إلى بلدة القبذاق[٢] من أعمال جيان ، فاستوطنها ، وتوفى بها فى سنة ٥٥٩ هـ ، (١١٦٤ م)[٣] .

— ٢ —

وأما عن العلوم ، فنستطيع أن نقول إنها حظيت فى العهد المرابطى بنهضة زاهرة ، وإن لم تكن هذه النهضة فى الواقع سوى امتداد للنهضة الفكرية فى عصر الطوائف . وظهر فى العهد المرابطى عدد من الشخصيات اللامعة التى تعتبر من أقطاب العلم الأندلسى ، بل من أقطاب العلم فى سائر العصور والأمم .

أولهم الفيلسوف أبو بكر محمد بن يحيى بن الصائغ التجيبى المشهور بابن باجّة ، وهو سرقسطى ، نشأ فى أواخر دولة بنى هود ، ونبغ فى الرياضة والفلك والطبيعة والفلسفة ، فى ظل تلك المدرسة الرياضية ، التى ازدهرت فى ظل المقتدر ابن هود وولده المؤتمن . ولما ولى الأمير أبو بكر بن إبراهيم المسّوفى ، وهو ابن عم أمير المسلمين على بن يوسف وصهره ، حُكم سرقسطة فى سنة ٥٠٨ هـ ، استوزر أبا بكر ، واختص به ، وأغدق عليه ثقته ورعايته ، بالرغم مما كان ينسب إليه من الآراء الإلحادية . وقد حمل عليه معاصره الفتح بن خاقان فى كتابه المطمح ، ورماه بالإلحاد والانحلال العقيدة ، وقال فى حقه : « نظر فى تلك التعاليم ، وفكر فى أجرام الأفلاك وحدود الأقاليم ، ورفض كتاب الله الحكيم » . ولما سقطت سرقسطة فى أيدى الإسبان فى سنة ٥١٢ هـ (١١١٨ م) ، غادرها ابن باجّة إلى إشبيلية ، ثم إلى شاطبة ، ثم نزح إلى المغرب ، وتوفى بفاس سنة ٥٣٣ هـ (١١٣٨م) . ويعتبر ابن باجة من أعظم فلاسفة الأندلس ومفكريها . وقد كتب

---

(١) ترجمة فى التكملة رقم ١٧٥ .

(٢) القبذاق هى بلدة **Alcaudete** الحديثة ، وهى تقع على مقربة من جنوب غربى جيان .

(٣) التكملة لابن عبد الملك ، مخطوط الإسكوريال (رقم ١٦٨٢ الغزيرى) .

نحو خمسة وعشرين كتابا لم يصلنا منها سوى القليل ، وكان ابن باجة فضلا عن ذلك أديباً شاعراً ، وله طائفة من الشعر الرصين الجيد ، فمن ذلك قوله فى رثاء حاميه الأمير أبى بكر :

سلام وإلمام ووسمى مزنـــة ... على الجدث الثانى الذى لا أزوره
أحق أبو بكر تقضى فلاترى ... ترد جمـــاهير الوفود ستوره
لئن أنست تلك اللحود بلحده ... لقد أوحشت أقصـــاره وقصوره

وقوله :

ضربوا القباب على أقاصى روضة ... خطر النسيم بها ففاح عبيرا
وتركت قلبى سار بين حمولهم ... داعى الكلوم سيوف تلك العيرا
لا وافد جعـل الغصون معاطفا ... لهم وصاغ الأقحوان ثغــورا
ما مر بى ريح الصبا من بعدهم ... إلا سهرت له فعاد سعيرا[1]

ومنهم على بن عبد الرحمن بن يوسف بن مروان بن يحيى الخزرجي الطبيب ، أصله من طليطلة ، ونشأ بها ودرس ، وبرع إلى جانب تمكنه من الفقه ، فى علم الطب ، درسه على أبى المطرف بن وافد ، وهو يومئذ من أشهر أطباء الأندلس وعلمائها . واشتهر بمهارته ، فى طرق العلاج . ولما استولى القشتاليون على طليطلة فى سنة ٤٧٨ هـ (١٠٨٥ م) غادرها ، وتجول فى مختلف ربوع الأندلس ، ونزل بطليوس ثم إشبيلية ، ثم قرطبة ، وبها توفى سنة ٤٩٩ هـ (١١٠٥ م)[2] .

ومنهم العلامة الطبيب والفلكى أمية بن عبد العزيز بن أبى الصلت . وقد ولد بثغر دانية سنة ٤٦٠ هـ ، ودرس على أقطاب عصره ، ولاسيما أبى الوليد الوقّشى قاضى دانية . وبرع فى الأدب والفلسفة والطب والفلك . غادر وطنه دانية ، وقد اضطربت بها الأمور ، ونزح إلى مصر فى سنة ٤٨٩ هـ ، فى خلافة المستعلى الفاطمى ولد المستنصر ، ووزيره الأفضل شاهنشاه ، تحدوه آمال كبيرة فى الظفر بحياة أكثر استقرارا ، وأوفر رزقاً ورغداً ، ونزل بثغر الإسكندرية ، وعاش به حيناً ، ثم قدم إلى القاهرة ، واتصل بالأفضل بواسطة بعض حاشيته ، فلم يفز بشىء مما كان يؤمل ، وأدركته خيبة أمل يعبر عنها فى شعره :

---

(١) راجع الإحاطة (١٩٥٦) ج ١ ص ٤١٢ – ٤١٦ . وقد سبق أن تحدثنا عن ابن باجة فى تاريخ مملكة سرقسطة فى كتابنا « دول الطوائف » . ويعرف ابن باجة فى البحث الغربى باسمه اللاتينى **Avempace**

(٢) ترجمته فى الذيل والتكملة لابن عبد الملك – مخطوط المتحف البريطانى – السفر الرابع .

وكم تمنيت أن ألقى بها أحـداً ... يسلى من الهم أو يعدى على النوب
فما وجدت سوى قوم إذا صدقوا ... كانت مواعيدهم كالآل فى الكذب

وفى قوله : « ولم تطل مدة اللبث حتى تبينت بما شاهدته أنى فيها مبخوس البضاعة ، موكوس الصناعة ، مخصوص بالإهانة والاضاعة » . وأكثر من ذلك أن الأفضل أمر باعتقاله ، لأسباب لم توضحها لنا الرواية توضيحاً كافياً . وأمضى فى هذا الاعتقال بضعة أعوام ، وكتب فى معتقله عدة من مؤلفاته ، منها رسالة فى العمل بالاصطرلاب ، وكتاب الوجيز فى علم الهيئة ، وكتاب الأدوية المفردة ، وكتاب تقويم الذهن ، وهو فى المنطق . وفى سنة ٥٠٥ هـ ، أفرج عنه ، وأمر الأفضل بنفيه من مصر ، فسار إلى الإسكندرية ومنها إلى إفريقية ، حيث نزل بالمهدية ضيفاً على أميرها أبى الطاهر يحيى بن تميم الصنهاجى ، فأكرم وفادته ، وعلت لديه منزله ، وكتب له عن مصر رسالة الموسومة « بالرسالة المصرية » ، وفيها يصف « ما عاينه من أرض مصر ، وما عاناه » ، ويصف جغرافية مصر ، ونيلها ، وسكانها ، وآثارها ، ويحمل على سكان مصر ، وينعتهم « باتباع الشهوات ، والانهماك اللذات ، والاشتغال بالترهات ، والتصديق بالمحالات ، وضعف المرائر والعزمات » ، ويحمل على علمائها المعاصرين ، وينعتهم بأنهم « رعاع وغثاء ، وجهلة ودهماء »[1] . ولما توفى الأمير يحيى بن تميم ، استمرت حظوته ومكانته لدى ولده على بن يحيى . وكتب له كتاب الحديقة أو « حديقة شعراء الأندلس » على نمط كتاب « يتيمة الدهر » للثعالبى . وكان أمية ابن أبى الصلت ، فوق علمه الغزير ، أديباً ممتازاً وشاعراً جزلا . وله ديوان شعر أشار إليه ابن خلكان ، وأورد لنا طرفاً من نظمه ، ومنها تلك الأبيات التى قالها قبيل وفاته ، وأوصى بأن تكتب على قبره :

سكنتك يا دار الفنـاء مصدقا ... بأنى إلى دار البقـاء أصير
وأعظم مافى الأمر أنى صائر ... إلى عادل فى الحكم ليس يجور
فياليت شعرى كيف ألقاه عندها ... وزادى قليـل والذنوب كثير
فإن أك مجزياً بذنبى فإننى ... بشر عقاب المذنبين جـدير
وإن يك عفـو عنى ورحمـة ... فثم نعيم دائم وسـرور

---

(١) راجع الرسالة المصرية ، وقد نشرت بعناية الأستاذ عبد السلام هارون ، ص ٢٤و٣٠ .

وتوفى ابن أبى الصلت سنة ٥٢٩ هـ (١١٣٥ م) أو فى سنة ٥٤٦ هـ (١١٥١م) وفق رواية أخرى[1] .

ومنهم بنو زهر ، وهى الأسرة الشهيرة التى لمعت فى ميدان الطب والعلوم الطبيعية والكيمائية . وأصلهم من إشبيلية ، ولكن عميدهم الأكبر ، وهو عبد الملك ابن محمد بن مروان بن زهر الأيادى ، نزح من إشبيلية إلى دانية . وكان فقيهاً حافظاً ، روى بالأندلس عن طائفة من أهلها ، ثم رحل إلى المشرق ، وحج ، ودرس بمصر والقيروان ، ثم عاد إلى الأندلس ، واستوطن دانية . وكان متفننا فى علوم كثيرة ، ولا سيما الطب ، الذى عنى بدراسته فى المشرق على يد أقطابه ، حتى نبغ فيه ؛ وكان ذلك بداية هذه البراعة الطبية الفائقة ، التى شملت أسرته الشهيرة ، وامتدت إلى أبنائه واحفاده . وتوفى عبد الملك بدانية ، وجاء من بعده ولده أبو العلاء زهر بن عبد الملك ، فكان صنو أبيه فى دراسة الطب ، والنبوغ فيه ، وبدأ حياته بدراسة الحديث فى قرطبة ، ثم مال إلى علم الطب ، فتلقاه عن أبيه ، وبرع فيه براعة غلبت لديه على كل صفة أخرى ، حتى غدا عمدة عصره فى الطب والعلوم الطبيعية ؛ ومن مؤلفاته «كتاب الطرر» ، الذى كُتب عنه ، و«كتاب فى الأدوية» . وكان مع براعته فى الطب أديباً ، وشاعراً مقتدراً ، ومن نظمه قوله :

يا راشقى بسهام ما لهـــا غرض	إلا الفؤاد وما منه لها عوض
وممرضى بجفون كلها غنج	صحت وفى طبعها التمريض والمرض
جُدْ لى ولو بخيال منك يطرقنى	فقد يسُد مسدّ الجوهر العرض

وتوفى زهر بن عبد الملك ، منكوباً على قول ابن الأبار ، بقرطبة فى سنة ٥٢٥ هـ (١١٣١ م) ، ثم احتمل رفاته ودفن فى إشبيلية .

وجاء من بعده ولده أبو مروان عبد الملك بن زهر ، وهو المعروف فى الغرب باسم Avenzoar . وقد برع عبد الملك فى الطب براعة أبيه وجده ، وذاع صيته فى الأندلس والمغرب . ويعتبر عبد الملك بن زهر أعظم طبيب فى العصور الوسطى بعد أبى بكر الرازى ، ويعتبره تلميذه ابن رشد أعظم طبيب بعد جالينوس . وقد عاش ابن زهر فى إشبيلية ، واتصل بالمرابطين وصنف

---

(١) ترجمته فى ابن خلكان ج ١ ص ٩٩ ، والقفطى فى أخبار العلماء ص ٥٧ ، وكذلك فى P. Boigues : ibid. ; No 159

للأمير أبي إسحاق بن يوسف بن تاشفين كتابه المسمى « الاقتصار فى صلاح الأجساد . على أن أعظم مؤلفات ابن زهر هو كتابه « التيسير » وهو من أعظم مراجع الطب فى العصور الوسطى ،وقد ترجم إلى اللاتينية فى عصر مبكر . ووُشى به إلى أمير المسلمين على بن يوسف ، فاستدعى إلى مراكش وسجن بها مدة ثم أفرج عنه ، وعاد إلى بلده إشبيلية وتوفى بها سنة ٥٥٧ هـ (١١٦٢ م) . وخلفه فى مهنته ولده الطبيب الأشهر أبو بكر بن زهر ، وحظى لدى حكومة الموحدين وهو أكثر انتساباً إلى عصر الموحدين ،ومن ثم فسوف نعود إلى ذكره فى موضعه المناسب[1].

ومنهم العلامة الزراعى أبو عبد الله محمد بن مالك التغنرى ، أصله من قرية تغنر من أعمال غرناطة . عاش فى أوائل القرن السادس الهجرى ، وسكن إشبيلية ، ودرس العلوم الزراعية على ابن بصّال الطليطلى ، وبرع فيها ، وكتب عنها كتابه المسمى « زهر البستان ونزهة الأذهان » وهو يسمى أحياناً باسم الحاج الغرناطى ، وابن حمدون الإشبيلى .

إن هذا الثبت الحافل من المفكرين والعلماء الأندلسيين ، الذين ازدهروا فى العصر المرابطى ، فى مختلف ميادين العلوم والآداب ، ومنهم عبقريات بارزة يزدان بها تاريخ الحركة العقلية الأندلسية ، يحمل على كثير من التأمل . وإنه ليغدو من الصعب علينا إذا ما استعرضناه فى شيء من الروية ، أن نقول إن الحكم المرابطى ، قد جنى بأساليبه الرجعية على سير الحركة الفكرية الأندلسية ، وعاقها عن التقدم والازدهار . وكل ما يمكن أن يقال فى ذلك هو أن ما اتخذه المرابطون من إجراءات للحجر على الدراسات الكلامية والشرعية والفلسفية ، وتوجيهها إلى وجهاتهم الخاصة ، ومطاردة كتب الأصول ، قد يكون له أثره فى سير هذه الدراسات ، وإن كان لا يحق لنا أن نبالغ فى تقدير هذا الأثر . أولا لأن هذه الدراسات كانت كغيرها من الدراسات العلمية والأدبية ، قد تأثلت جذورها منذ بعيد ، وثانيا لأن العهد المرابطى لم يطل أمده بالأندلس ، ولم يلبث أن زالت بزواله السريع ، كل ضروب الحجر والمطاردة التى اتخذت ، ثم جاءت ثورة الأندلس ضد الحكم المرابطى ، فكانت عاملا له أثره فى إذكاء الحركة العقلية ، ومدها بعناصر جديدة من القوة والاندفاع .

---

(١) وردت فى الذيل والتكملة ترجمة حسنة لابن زهر وجده عبد الملك — مخطوط المتحف البريطانى السفر الرابع . ووردت فى التكملة لابن الأبار ترجمة لزهر بن عبد الملك رقم ٩٠٧ . وراجع عن بنى زهر أيضاً « المطرب من أشعار أهل المغرب » لابن دحية ص ٢٠٣ ، وفى نفح الطيب ج ١ ص ٤٣٧–٤٣٩ .

الكتاب الخامس

الممالك الإسبانيّة النصرانية خلال العصر المرابطي وأوائل العصر الموحّدي

الفصل الأول

ألفونسو المحارب وأورّاكا ملكة قشتالة

وبداية عهد ألفونسو ريموندیس

الممالك الإسبانية النصرانية عند مقدم المرابطين . ألفونسو السادس بعد الزلاقة . إفتتاحه لشنترين . موقعة أقليتس ومصرع الإنفانت سانشو . موت ألفونسو السادس . الكونت ريمون البرجونى وأخوه الكونت هنرى . زواج الأول من أوراكا ابنة ألفونسو الشرعية . زواج الثانى من تريسا ابنته غير الشرعية . وصية ألفونسو السادس عن وراثة العرش وما يقترن بذلك من الشروط . موافقة الكورتيس عليها . أوراكا ملكة قشتالة ، زواج ألفونسو المحارب من أوراكا . التنافس والشقاق بين الزوجين . أوراكا وصفاتها وموقفها. ألفونسو وأهبته . محاصرته لأوراكا. هنرى البرجونى وموقفه. الأمير الطفل ألفونسو ريموندیس . الدسائس من حوله . فرار أوراكا وتصرفاتها . الحرب بين الفريقين وهزيمة قوات قشتالة . ألفونسو ريموندیس ملك جليقية . الحرب بين أهل جليقية وألفونسو . فرار الأسقف خلمريث بالأمير الطفل . حشده لقوات جليقية ، وانضمام الكونت هنرى إليه . انسحاب ملك أراجون . الأسقف خلمريث وصفاته وأطماعه . انقسام اسبانيا النصرانية . تفاقم الخلاف بين أوراكا وألفونسو. محاولة الصلح ومعارضة الأسقف خلمريث . إعلان بطلان الزواج . معارضة ألفونسو فى ذلك . استهتار الملكة أوراكا . الأسقف يؤيد ألفونسو ريموندیس فى جليقية . استياء أوراكا من مسلكه وسيرها لمحاربته . تدخل الملكة تريسا . ثورة أهل شنت ياقب ضد الأسقف . التجاؤه إلى حماية أوراكا . الصلح بين الأم وولدها . مسير أوراكا إلى شنت ياقب ومقاومتها . عودها إلى مهاجمة المدينة بقوات مجتمعة . تغلبها على المدينة وإخضاعها . عودة الأسقف وارتقاؤه إلى المطرانية . الحرب بين أوراكا وتريسا . الصلح بينهما . أوراكا تقبض على المطران ديجو وإخوته . غضب الشعب والبابا . أوراكا تطلق سراحه . الحرب بين المطران وبين الملكة . الصلح بين الملكة وابنها والمطران . سعى البابا إلى تحقيقه . وفاة أوراكا . صفاتها واختلاف المؤرخين فى الحكم عليها . ألفونسو ريموندیس ملك قشتالة وليون . الصراع بينه وبين ألفونسو المحارب . اهتمامه بالقضاء على سلطان الأشراف . أسرة لارا ومطاردتها . مسيره لمحاربة الملكة تريسا . خضوع البرتغال . زواج ألفونسو ريموندیس من ابنة رامون برنجير . اهتمامه بمحاربة الأندلس . الغزوات المتبادلة بين المسلمين والنصارى .

تتبعنا فيما تقدم ، فى كتابنا « دول الطوائف » ، تاريخ الممالك الإسبانية النصرانية خلال القرن الحادى عشر الميلادى ، حتى وفاة ألفونسو السادس ملك قشتالة ، عقب موقعة أقليش فى يونيه سنة ١١٠٨ (شوال سنة ٥٠١ هـ) . ونود الآن أن نستأنف تاريخ هذه الممالك النصرانية ، خلال العصر المرابطى ، وحتى مقدم الموحدين إلى شبه الجزيرة .

حينما قدم المرابطون إلى شبه الجزيرة لإنجاد دول الطوائف ، ورد عدوان اسبانيا النصرانية عنها ، كانت الممالك الإسبانية النصرانية ثلاث ، هى مملكة قشتالة ، وهى أكبرها رقعة ، وأوفرها قوة وموارد ، ومملكة أراجون ، وإمارة برشلونة أوقطلونية ، وهى أصغرها . وكانت مملكة ناڤارا القديمة (نبرّة) ، قد اختفت يومئذ ، مذ تآمر على اقتسامها سانشو راميريس ملك أراجون ، وألفونسوالسادس ملك قشتالة ، واستولى الأول على نصفها الشرقى مما يلى جبال البرنيه واستولى الثانى على نصفها الغربى مما يلى نهر إيبرو ، وذلك فى سنة ١٠٧٦ م ، ولم تظفر باسترداد استقلالها ، والعود إلى استئناف دورها فىشبه الجزيرة كمملكة مستقلة إلا بعد ذلك بنحو نصف قرن ، وذلكعقبوفاة ألفونسو المحارب ملك أراجون فى سنة ١١٣٤م .

وكان ألفونسو السادس ، عميد الممالك الإسبانية النصرانية وقطبها ، حين قدم المرابطون إلى شبه الجزيرة ، وحين اشتبك معهم فى موقعة الزلاّقة العظيمة ، على رأس الجيوش النصرانية المتحدة ، ولقى فيها هزيمته الساحقة (٤٧٩ هـ — ١٠٨٦ م) ، بيد أنه نهض من غمار الهزيمة ، وعاد يقود الجيوش القشتالية مرة أخرى ، لمقاتلة المسلمين وغزو أراضيهم . ولبثت قواته فى حصن لييط حيناً تعيث فى أحواز مرسيه ولورقة ، إلى أن حاصره المرابطون وقوات الطوائف ، ولم تستطع اقتحامه ، حتى عاد ألفونسو لإنجاد فلول حاميته ، ثم أخلاه (١٠٨٩م) . ثم غزا شنترين من قواعد ولاية الغرب واستولى عليها سنة ١٠٩٣ . واشترك بعد ذلك فى حوادث بلنسية ، عقب وفاة السيد الكمبيادور ، وعاث فى أنحائها ، ثم غادرها حينما شعر بتفوق القوات المرابطية المتأهبة لاستردادها (١١٠٢م) . ولما توفى يوسف بن تاشفين ، وخلفه ولده على ، عبر إلى شبه الجزيرة ، معتزماً أن يستأنف عهد الجهاد ، وعبرت معه قوات مرابطية ضخمة ، ونفذت الجيوش المرابطية مرة أخرى إلى أراضى قشتالة ، يقودها الأمير أبو الطاهر تميم ابن يوسف ، والتقت فى ظاهر أقليش بقوات قشتالة ، وكان الملك الشيخ — ألفونسو — قد تخلف عن قيادتها لضعفه ، وبعث معها ولده الطفل سانشو ليبث فيها روح الإقدام والحماسة . وشاء القدر أن تكون موقعة أقليش « زلاقة » أخرى سحقت فيها الجيوش القشتالية ، وقتل فيها الإنفانت الصبى سانشو ، وحيد ألفونسو وولى عهده ، وعدة من قادة قشتالة وأكابرها (٢٩ مايو سنة ١١٠٨م) وذلك كله حسبما فصلناه فى مواضعه . ولم يعش ألفونسو بعد هذه الضربة طويلا ،

وتوفى فى ٢٩ يونيه من العام التالى ، وقد أشرف على الثمانين من عمره ، بعد حكم دام أربعة وأربعين عاما ، ودفن بدير ساهاجون .

وقد تحدثنا من قبل عن أعمال ألفونسو السادس وإصلاحاته الداخلية ، وعن تكوين المجتمع القشتالى فى عصره ، وعن سير التشريع ، وما تميز به عهده من ظهور نفوذ البابوية ، وبدأ مزاولة رياستها الروحية على الملوكية الإسبانية[1] ، فلا محل لأن نعود هنا إلى ذكر هذه الموضوعات. بيد أن الذى يهمنا هنا هو ما انتهى إليه أمر وراثة العرش . ذلك أن ألفونسو السادس توفى دون وارث للعرش ، بعد مقتل ولده الوحيد سانشو فى معركة أقليش . وكان مما تميز به عهد ألفونسو ، مقدم كثير من الفرسان الفرنسيين الذين تحدوهم الروح الصليبية إلى اسبانيا ، ليشتركوا مع القوات القشتالية فى محاربة المسلمين . وكان من بين هؤلاء إثنان من الأشراف من أقارب الملكة كونستانس زوجة ألفونسو الأولى ، هما الكونت ريمون البرجونى ، وابن عمه الكونت هنرى ، وقد اشترك كلاهما ، إلى جانب ألفونسو ، فى كثير من المعارك التى خاضها ضد المسلمين ، وظهر فيها بإقدامه وبسالته ، فرأى ألفونسو إثابة لهما أن يزوجهما من ابنتيه أوراّكا وتريسا (سنة ١٠٩٢ م) ، فتزوج الكونت ريمون بأوراّكا ، وهى ابنة الملك الشرعية من زوجته الملكة كونستانس ، وتزوج الكونت هنرى بتريسا ، وهى ابنة غير شرعية لألفونسو من خليلته خمينا نونيس ، ومنح ألفونسو أوراّكا وريمون إمارة ولاية جليقية ، ومنح تريسا وهنرى إمارة الأراضى التى انتزعها من المسلمين فى ولاية لوزيتانيا (شمالى البرتغال) ، وهى التى غدت فيما بعد مهداً لقيام مملكة البرتغال الحديدة فى شبه الحزيرة . وهكذا بدأ النفوذ الفرنسى يتسرب إلى شئون قشتالة السياسية ، بعد أن تسرب إلى شئونها الدينية على يد الرهبان الدومنيكانيين ، وعميدهم المطران برنار ، مطران طليطلة ورئيس الكنيسة الإسبانية .

وقد ذكرنا فيما تقدم أن المُلْك فى قشتالة كان وراثياً . وقد واجهت ألفونسو بعد مصرع ولده الوحيد سانشو فى موقعة أقليش مشكلة صعبة ، هى مشكلة وراثة العرش . ومن ثم فقد عنى بحلها فى وصيته التى وضعها قبيل وفاته . وكان الكونت ريمون البرجونى ، قد توفى منذ سنة ١١٠٧ م ، بعد أن أنجب

---

[1] (١) راجع كتاب دول الطوائف ص ٣٨٧ — ٣٩٠ .

من زوجه أوراكا ولدين : هما ألفونسو وسانشا . وقد نصت وصية ألفونسو أن تتولى عرش قشتالة بعد وفاته إبنته أوراكا ، أرملة الكونت ، ورأى فى الوقت نفسه تقوية لجانب العرش وسعياً إلى توحيد اسبانيا النصرانية ، أن تتزوج أوراكا من ألفونسو الأول المحارب ملك أراجون ونافارا . وعلى أثر وفاة الملك الشيخ اجتمع نواب المملكة (الكورتيس) من الأشراف والأساقفة ورجال الدين وحكام الولايات والفرسان فى مدينة ليون ، وأقروا وصية الملك الراحل : وكان أشراف قشتالة ، بالرغم من تخوفهم من جرأة ملك أراجون ، يخشون ألاّ تقوى أوراكا وحدها على تحمل أعباء الملك ، والدفاع عن المملكة ، وأنه لابد أن يكون إلى جانبها أمير قوى يستطيع أن يرد هجمات المسلمين ، ومن ثم فقد وافقوا على هذا الزواج . ووافقت أوراكا رغم ارادتها تنفيذاً لوصية أبيها ، وتقرر أن تحل مسألة العرش على النحو الآتى : أن تكون أوراكا ملكة قشتالة وليون وأشتوريش وأن يمنح ولدها الطفل ألفونسو ريمونديس (أى ابن ريمون) مملكة جليقية مع بقائها تحت سلطان قشتالة ، وأن يمنح الكونت هنرى زوج أختها تريسا إمارة البرتغال كتابع لعرش قشتالة . فإذا لم تعقب أوراكا من زواجها بألفونسو ملك أراجون ، فإن المملكة كلها تؤول بعد وفاتها ، إلى ولدها ألفونسو ريموندیس ، أعنى إلى حفيد ألفونسو السادس .

وتم زواج ألفونسو الأول وأوراكا فى حصن منيون فى أكتوبر سنة ١١٠٩م . وفى العام التالى (١١١٠ م) ، سارت الملكة فى قوات قشتالة مع زوجها الملك ، إلى أراضى ناجرة وسرقسطة الإسلامية . وكان المرابطون قد احتلوا عندئذ سرقسطة ، فعاث ألفونسو فى تلك المنطقة ولكنه لم ينل مأرباً . وسرعان ما دب الشقاق بينه وبين زوجه أوراكا ، وظهر الخلاف واضحاً بين الزوجين فى كل شىء . وكان التنافس بين الزوجين على السلطان مصدر الخلاف الرئيسى . وكانت أوراكا امرأة وافرة الكبرياء والطموح ، فحاولت أن تستأثر بجميع السلطات فى قشتالة والأراضى التابعة لها ، وعمدت إلى إبعاد سائر الرجال الذين يشك فى ولائهم المطلق لها ، ورفعت من اصطفتهم إلى أرفع مناصب الدولة . فثار ألفونسو غضباً لذلك ، وصمم على ألا يتنازل عن حق من حقوقه الملكية . يقول المؤرخ لافونتى : «لقد اقترنا دون حنان ، وكان الأمير الأرجونى موهوباً يتمتع بصفات الجندى الخشنة ، أكثر منه بالخلال التى تجعل منه زوجاً رقيقاً . وكانت الملكة من جانبها لاتراعى

العناية والحزم فى بعض أعمالها الخارجية ، فانتهى الأمر ، بأن نبذ الملك كل اعتبار لزوجته ، وأخذ يسيئ معاملتها ، لا بالكلم فقط ، ولكن بالفعل أيضاً ، فكان يصفعها ويركلها برجليه . ورأى الأساقفة الذين لم يرقهم هذا الزواج منذ البداية ، أن أفضل مخرج من هذا الموقف المزرى هو الطلاق ، وأصغت الملكة إلى هذا الاقتراح ، لأنها كانت فضلا عما تلقاه من سوء المعاملة ، تشك فى صحة هذا الزواج . وكانت من جهة أخرى ترنو إلى الزواج من الكونت جومث دى كاند سبينا ، وكان أيام حياة أبيها يتطلع إلى ذلك ، وكانت بينه وبينها علائق مريبة »(١) .

— ١ —

وهنا تبدأ تلك الحرب الأهلية الشهيرة ، التى لبثت أعواماً طوالا ، تمزق اسبانيا النصرانية ، والتى كان بطلاها الرئيسيان ، ألفونسو ملك أراجون ، وأوراكا ملكة قشتالة .

أدرك ألفونسو منذ البداية ما تنطوى عليه زوجه من رياء وخديعة ، ومايشين سمعتها الأخلاقية من شائعات مريبة ، فاعتزم أمره واتخذ من حجة الدفاع عن طليطلة ذريعة ، ووضع فى معظم قلاع قشتالة ومدنها الرئيسية حاميات أرجونية . ولم يحجم عن محاصرة الملكة ذاتها فى قلعة كاستلار (سنة ١١١١ م) بحجة أنها تحاول بث الثورة ، وأنها بسوء سلوكها تصدع من هيبة العرش .

وكانت عناصر أخرى تتأهب لدخول المعركة . ذلك أن الأمير هنرى البرجونى أمير البرتغال ، وزوج تريسا أخت أوراكا ، كان يطمح إلى عرش قشتالة ، ويأتمر بها ، ومن أجل ذلك عبر إلى فرنسا ليبحث عمن يساعده فى محاربته لأوراكا ، ثم عاد إلى اسبانيا بطريق أراجون ، واتفق مع ألفونسو على أن يعمل معه لاتحاد أراضى ليون وقشتالة ثم يقتسمانها فيما بعد .

وكانت المؤامرات تحاك فى نفس الوقت حول الأمير الطفل ألفونسو ريمونديس ، وكان يعيش فى ضيعة صغيرة فى جليقية تحت رعاية وصيه الكونت بيدور دى تراڤا . فلما تزوجت أمه أوراكا بملك أراجون ، أراد الوصى أن يعلن الأمير الصغير ملكاً على جليقية وفقاً لوصية جده . وكان هنرى أمير البرتغال يؤيد هذا المشروع . ولكن أوراكا حينما سجنت فى قلعة كاستيلار ، بادرت فأرسلت رسلها إلى جليقية يطالبون إعلانها ملكة لها . ولكن أشراف جليقية خشوا من انتقام ملك أراجون .

(١) M. Lafuente : Historia General de Espana, T. III, p. 217

وكثرت الأهواء والدسائس ، وحاول بعض أشراف جليقية الثوار أن يختطفوا الملك الطفل من مقامه فى قلعة «سانتاماريا» ، حيث كانت الكونتة دى تراڤا تسهر على حمايته . ولكن الكونتة دافعت عنه ببسالة ، وعاونها فى ذلك ديجو خلمريث أسقف شنت ياقب ، وفشلت المحاولة . وفى تلك الأثناء نجحت أوراكا فى الفرار من معتقلها بقلعة كاستلار ، فالتف حولها معظم أشراف قشتالة ، وقد ساءهم عنف ملك أراجون وتحديه . وأطلقت أوراكا العنان لأهوائها ، وحبت باصطفائها اثنين من الأشراف هما جومث جونثالث . وپيدرو جونثالث دى لارا ، وكان كلاهما من عشاقها ، وكلاهما يؤمل الوصول إلى العرش متى تم طلاقها . وكان ملك أراجون يضطرم سخطاً لهذا الاصطفاء المريب ، ويبث عيونه على الملكة الخئون فى كل خطواتها . وهكذا أضحى من المتعذر التوفيق بين زوجين يمقت كل منهما صاحبه ، ولم يلبث أن تحول النزاع المستمر بينهما إلى حرب علنية .

وكان هنرى أمير البرتغال ، يؤازر ملك أراجون فى هذا النزاع ، تحقيقاً لأطماعه . وكان ألفونسو قد استولى خلال ذلك على طليطلة ، وحاكمها يومئذ ألبار هانيس . وهكذا دوت صيحة الحرب الأهلية ، وتحركت قوات ليون وقشتالة لمؤازرة أوراكا ، وتحركت قوات أراجون والبرتغال ، والتقى الفريقان فى « كامبودى سبينا » بالقرب من سيبولفيدا من أعمال ولاية شقوبية . وكان يقود قوات قشتالة الكونت پيدرو دى لارا ، ولكنه ما لبث إزاء عنف هجوم الأرجونيين أن تخلى عن المعركة ، وفر إلى برغش ، وخلفه فى القيادة زميله الكونت جومث . وأسفرت المعركة فى النهاية عن فوز قوات أراجون ، وكان الكونت وكثير من أشراف قشتالة بين القتلى (نوفمبر سنة ١١١١ م) .

وعلى أثر ذلك اخترق الجيش الأرجونى قشتالة ، وهو يعيث فى أراضيها نهباً وتخريباً ، وعزل الأساقفة من أنصار الملكة ، واعتدى الجند على الكنائس . وعندئذ خشى أشراف جليقية العاقبة ، فانضموا إلى الملكة ، وأعلنوا الأمير الطفل ألفونسو ريمونديس ملكاً على جليقية ، وقرروا أن ينقلوه لدى أمه فى قشتالة ، صحبة وصيه الكونت دى تراڤا والأسقف خلمريث ، ومعهم فرقة قوية من الجند . وعلم ملك أراجون بذلك ، فخرج لصدهم ، ونشبت بين الفريقين على مقربة من أسترقة معركة حامية ، وكل يحاول أن ينتزع الملك الطفل . وهزم الجلالقة ، ولكن الأسقف خلمريث استطاع خلال المعركة أن يحمل الطفل وأن يفر به ناجياً

إلى حصن « أوسيون » حيث كانت أمه ، ثم حمله الإثنان خلال الجبال إلى شنت ياقب .

وغدا الأسقف خلمريت عندئذ روح كل مقاومة ضد ملك أراجون ، وأصدر نداء إلى أهل جليقية المخلصين ، واستطاع أن يضم إليه المنشقين منهم في جبهة واحدة ، ولم يمض سوى قليل حتى استطاع هو والملكة أن يجمعا قوة كبيرة ، ونجح الأسقف أيضاً في أن يستميل إلى جانبه هنرى أمير البرتغال ، وكان قد بدأ يخشى سطوة ملك أراجون . وسارت القوات المشتركة إلى أسترقة لإنقاذ الجلالقة المحصورين بها . فلما شعر ملك أراجون بتفوق خصومه ، غادر أسترقة ، وارتد في قواته صوب بلد الوليد ، وهنالك حاول القشتاليون والجلالقة والبرتغاليون محاصرته ، ولكنه استطاع أن يقضى على محاولتهم ، وأن يرتد ظافراً إلى بلاده (أبريل سنة ١١١٢ م) .

ولابد لنا أن نذكر كلمة عن هذا الأسقف المغامر المحارب ، ديجو خلمريث ، فقد كان أسقفاً لشنت ياقب منذ سنة ١١٠١ م ، وكانت سيادته لهذه الأسقفية الهامة المتمدنة ، واحتكامه على ما بها من ثروات وموارد طائلة وأتباع عديدين ، تجعل منه عاملا هاماً في ذلك الصراع السياسى الذى تجوزه قشتالة . وكان الأسقف فوق ذلك رجلا رفيع المواهب ، شديد الحزم ، كثير الأطماع ، متحفزاً ، شغوفاً بتوسيع سلطانه وحقوق كنيسته ، قليل الاكتراث بالوسيلة ، وهو ما كان يتفق مع ضعف الخلق السياسى في هذا العصر ، الذى كان ينتقل فيه الناس بسهولة ودون حرج من حزب إلى حزب ، ويحنثون في كل وقت بالعهد أو بالصداقة المعقودة . وهكذا كان دون ديجو ممثلا بارزاً لأهل عصره ، وللطبقة السائدة التى كانت تضم الأشراف ورجال الدين ، وهكذا ، سوف نراه صديقاً للملكة أوراكا ثم عدوا لها ، وصديقاً لتريسا ملكة البرتغال ثم عدواً لها ، وصديقاً للملك الصبى ألفونسو ، ثم خصما له . وسوف نراه يحارب إلى جانبهم ثم يحارب ضدهم طوراً بعد طور[1] .

وتعاقبت الحوادث والقلاقل في الأعوام التالية ، وانقسمت اسبانيا النصرانية إلى ثلاثة أحزاب ، كان أولها وأقواها من حيث البلاد والموارد حزب ملك أراجون ،

---

(١) R. Altamira : Historia de Espana y de la Civlización Espanola ، Barcelona (1900) V. I. p. 357 & 858

وثانيها حزب قشتالة الذى ينضوى تحت لواء الملكة أوراكا ، ويؤازره رجال الدين فى قشتاله وليون وجليقية ومن ورائهم الشعب ، وثالثها حزب الأشراف ، وهو يعارض حكم الملكة وحكم ملك أراجون ، ويعقد آماله على الملك الطفل ألفونسو ريموندیس ملك جليقية ، ويؤازره معظم الفرسان فى سائر أنحاء المملكة .

وكان من الواضح أن الخلاف بين الملكة وزوجها قد وصل إلى حدود لم تعد تنجح معها أية محاولة للتوفيق ، وقد بذلت مثل هذه المحاولة بالفعل على يد كبراء قشتالة ، وعقد صلح اتفق فيه على توزيع البلاد والحصون على الملكين . ولكن ألفونسو ما لبث أن استولى على كثير من الحصون التى أعطيت للملكة . وعندئذ غضب القشتاليون لذلك ، وأعلنوا أن أورّاكا هى ملكة قشتالة الشرعية . ونهضت الملكة ، وسارت فى قواتها وقوات جليقية لمحاربة ألفونسو . وبعث ألفونسو سفراءه فى طلب الصلح من جديد . ومال الأشراف إلى ذلك حقنا للدماء . ولكن الأسقف دیجو خلمريث ، عارض فى عقد الصلح أشد معارضة ، وأعلن بطلان الزواج المعقود بين الملك والملكة ، وخصوصاً بعد أن أعلن البابا أنه « عشرة محارم » وذلك بسبب القرابة الشديدة بين الزوجين . ولم تمض أشهر قلائل حتى أعلن رسول البابا فى مجلس عقد فى بالنسيا بطلان الزواج بصفة رسمية ، واغتبطت الملكة لذلك القرار . ولكن ملك أراجون أعلن بطلان القرار البابوى ، ثم قرنه بإعلان الحرب على قشتالة ، والاستيلاء على ولاية ريوخا .

وفى خلال ذلك ، كانت الفتن والقلاقل تتعاقب ، أحياناً فى صف أورركا ، وأحيانا ضدها . وكانت أورّاكا ماضية فى مسلكها المشين لاتنى على شىء ، وقد فاق استهتارها كل حد ، وتركت لخليلها الكونت بيدرو دى لارا كل الشئون ، وأضحت علائقها الغرامية فضيحة عامة ، يجرى ذكرها على كل لسان . وكان الأسقف ديجو من جهة أخرى يعمل بكل ماوسع لتوطيد مركز ألفونسو ريموندیس فى جليقية ، وذلك بالتعاون مع الكونت دى تراڤا مؤدب الملك وزملائه الثوار من أشراف جليقية . فثارت الملكة لمسلكه ، وسارت فى بعض قواتها إلى شنت ياقب التى غدت عندئذ مركزاً لهذه المحاولات ، فاضطر الأسقف إلى إعلان توبته وطاعته . ولكن حدث عندئذ ، أن سار الكونت دى تراڤا ، وتريسا ملكة البرتغال فى قواتهما إلى شنت ياقب ، وحاصرا الملكة أوراكا . وكانت تريسا ، قد كسبت بانضمامها إلى الثوار ، دفع حدودها إلى أراضى مدينتى

توى ، وأورنسى . ولم تستطع أوراكا مغادرة شنت ياقب إلا بصعوبة ، فسارت منها إلى مدينة ليون . وبقيت تريسا فى جليقية حيناً ، حتى علمت بأن المسلمين يزحفون على أراضيها الجنوبية فعادت إلى البرتغال لتعنى بمدافعتهم .

وفى تلك الأثناء ثار أهل شنت ياقب بالأسقف دېجو ، ففر إلى قشتالة ، والتجأ إلى حماية الملكة ، فاستقبلته بعطف ، وعهدت إليه بأن يقوم بالسعى فى عقد الصلح بينها وبين ولدها ومن يؤيدونه من أشراف جليقية ، فدعا الأسقف إلى اجتماع عقد فى ساهاجون يمثل مختلف الأطراف المتنازعة (كورتيس) ، ووضع اتفاق بين الأم والإبن ، وقعه ثلاثون شريفاً من كل من الفريقين ، يقضى بأن تتولى الأم وولدها الحكم معاً فى جليقية وليون وأشتوريش ، وأن تنفرد الأم بالحكم حال حياتها فى قشتالة ، على أن يخلفها ولدها وفقاً لوصية ألفونسو السادس (سنة ١١١٧ م) .

ولما تم توقيع الصلح على هذا النحو سارت الملكة إلى جليقية لزيارة ولدها ، ثم سارت إلى شنت ياقب لتعاقب أهلها على مناوأتهم للأسقف دېجو . فقاومها أهل المدينة بشدة ، وهاجموها ومن معها بعنف ، حتى اضطرت أن تلتجئ مع حاشيتها إلى الكنيسة الكبرى ، فأضرم الثوار فيها النار غير مكترثين بصفتها المقدسة ، ولما هرعت الملكة إلى الخارج طلباً للنجاة ، تطاول عليها الثوار وأهانوها ، ولم تستطع النجاة إلا بعد أن تعهدت لهم بأن تعين لهم أسقفاً آخر يوافق الملك على تعيينه ، وأن تحكم البلدة وفقاً لرغبات أهلها . أما الأسقف دېجو ، فاستطاع أن يفر متنكراً ، ولكن أتباعه هلكوا فى الكنيسة حرقاً .

وما كادت الملكة تغادر شنت ياقب حتى زحفت على المدينة قوات جليقية ، وقوات الملكة وأصحاب الأسقف ، واعتزمت الملكة عندئذ أن تعاقب أهلها على جرأتهم عقاباً رادعاً . فارتاع أهل المدينة ، وخرج كبراؤها من قساوسة ومدنيين ، وتضرعوا إلى الملكة وإلى الأسقف بأن تصفح عنهم ، وأن يُرفع عنهم النفى الكنسى الذى أعلنه الأسقف . وانتهى الأمر بأن اشترطت الملكة ، أن يُنزع سلاح الجماعة الثائرة المسماة « جماعة الإخوة » ، وأن يقسم الكبراء يمين الطاعة للملكة والأسقف ، وأن يقدموا خمسين فتى من أبنائهم وأقاربهم رهينة ، وقررت الملكة نزع أملاك خمسين من الثوار ، وفرضت على المدينة غرامة فادحة . ثم دخلت إلى المدينة يصحبها الأسقف ، وأعيد الأسقف إلى منصبه ، وردت

التحف المنهوبة ، وأصلحت الكنيسة والقصر الأسقفى المجاور لها على نفقة الثوار. واستطاع الأسقف دِجو فوق ذلك أن ينال من البابا كالستوس الثانى رتبة المطرانية (الكردينال) ، والبابا كالستوس هو أخو الكونت ريمون والد الملك الصبى ألفونسو ، وكان منح الأسقف هذا اللقب ثمناً لمؤازرته للملك ، واشتُرط فى منحه أن يستمر الأسقف فى مؤازرته .

خرجت الملكة أورّاكا بعد ذلك فى قواتها ، ومعها قوات شنت ياقب تحت تحت قيادة المطران دِجو ، لمحاربة أختها تريسا ملكة البرتغال واسترداد أراضى توى وأورنسى منها ، ونفذت إلى أراضى البرتغال ، وحاصرت تريسا فى حصن لا نيوسو ، ولكن تريسا استطاعت الفرار بمعاونة بعض الأشراف الجلالقة ، وربما أيضاً بمعاونة المطران الماكر ، وقد أبدى رغبته فجأة فى أن يعود بقواته إلى شنت ياقب ، وهو ما حمل أوراكا على الشك فى ولائه . وانتهت المفاوضات التى تلت بين الأختين عن نتيجة لم تكن متوقعة ، هى أن تتنازل أوراكا لأختها عن أراضٍ من أحواز سمورة وطورو وشلمنقة ، فى نظير أن تتعهد تريسا بمعاونتها ضد جميع خصومها ، مسلمين كانوا أو نصارى ، وألا تعاون أحداً من الأشراف الثائرين ضدها . وعلى أثر ذلك عادت أوراكا على رأس حملتها الغازية إلى جليقية . ولكنها دبرت أن تعبر قوات شنت ياقب النهر أولا ، وما كاد يتم عبورها ، حتى أمرت بالقبض على المطران دِجو ، وزجه إلى أحد الحصون ، وقُبض كذلك على إخوته الثلاثة ، وعلى صديقيه مطران براجا وأسقف أورنسى ، وكانوا جميعاً مع الجيش.

وكان لهذه الإجراءات العنيفة أعمق وقع فى شنت ياقب وفى رومة . ففى شنت ياقب ثار الشعب سخطاً ، وبدا غضبه بأجلى مظاهره حينما قدمت الملكة إلى المدينة المقدسة لتشهد الاحتفال بعيد القديس ياقب . وأما عن موقف رومة ، فقد أرسل البابا كالستوس إلى سائر مطارنة اسبانيا ، بأن يعقدوا مجلساً دينيا ، وأن يصدروا قراراً بنفى الملكة من الكنيسة ، إذا لم تفرج عن المطران خلمريث ، وترد إلى الكنيسة أملاكها المغصوبة . ومن جهة أخرى فقد ثار شعب شنت ياقب ، وهدد الملكة بالويل إذا لم تفرج عن المطران ، وزاد فى حماستهم وثورتهم مقدم الملك الفتى ألفونسو ريمونديس على رأس قواته . وعندئذ اضطرت أوراكا ، أن تطلق سراح المطران وزملائه المعتقلين . ولكنها لم تقم برد أملاك الكنيسة ، وأملاك المطران المنزوعة .

وهنا نهض المطران لمحاربة الملكة ، ومن الغريب أن أهل شنت ياقب الذين خرجوا من قبل على المطران وكادوا يفتكون به ، انضموا عندئذ إليه . وانضمت إليه كذلك قوات ألفونسو ريموند يس الجليقية . وسارت الملكة فى قواتها لمقاتلة المطران الثائر وحلفائه ، والتقى الفريقان فى مكان يسمى « مونسا كرو » ووقعت بينهما بعض المصادمات الدموية ، وصدر فى تلك الأثناء قرار المطارنة بنفى الملكة من الكنيسة تحقيقاً لرغبة البابا ، وعندئذ لم تر الملكة مناصاً من الإذعان . وفى رواية أخرى أنه لم يقع قتال بين الفريقين ، وأن المطران ديجو اقترح على الملكة أن تجرى مفاوضات لعقد الصلح بينها وبين ابنها حقناً للدماء . وانتهت هذه المفاوضات إلى معاهدة صلح ، قدمت الملكة لضمان تنفيذها ستين من فرسانها رهينة ، وتعهدت بأن ترد سائر أملاك الكنيسة ، وأن ترد إلى المطران سائر أملاكه ورواتبه .

وحاول البابا كالستوس الثانى أن يضع بتدخله حداً لتلك الحرب الأهلية التى طال أمدها ، فأوفد إلى شبه الجزيرة سفيراً بعد سفير ، وعقدت بدعوته عدة اجتماعات كنسية ونيابية للعمل على رد السكينة والنظام ، والتوفيق بين الأحزاب المتنازعة . وانتهى الاجتماع الذى عقد فى بلد الوليد فى سنة ١١٢٤م ، بعقد الصلح بين الملكة وولدها على أن يحكما سوياً كل الأراضى التى ورثتها أوراكا عن أبيها . ولكن النزاع بين الأشراف استمر على حاله ، ولم تثمر فى حسمه أية وسيلة ، إذ كانت أهواء الملكة الشخصية تحول دون كل توفيق ، وتذكى عوامل الخصومة والبغضاء فى مختلف النفوس . وكان ولدها الملك الفتى ، قد سار قبل ذلك ببضعة أعوام إلى قشتالة فى فرقة قوية من فرسانه واستطاع أن يقبض على الكونت بيدرو دى لارا عشيق أمه ، وأن يلقى به إلى السجن . ولكن الكونت فر من معتقله ، والتجأ إلى حماية أمير برشلونة ، ورفع هذا الحادث من سمعة الملكة وهيبتها مدى حين ، وهدأت ثورة أشراف قشتالة ، الذين كانوا ينقمون على أوراكا اصطفاءها الشائن لخليلها . ومع ذلك فإن هذه الملكة الماجنة استمرت على سلوكها الوضيع ، وعلائقها الغرامية المشينة ، حتى نهاية حياتها .

وقد جاءت النهاية أخيراً لتضع حداً لحياة ذميمة ، فياضة بالفجور والفضائح والأهواء الجامحة ، والخصومات المضطرمة ، وتوفيت أوراكا ملكة قشتالة فى سنة ١١٢٦ م . فتنفس الجميع الصعداء فى سائر أنحاء اسبانيا النصرانية ، ملوكا ، وأحباراً وأشرافاً ، وفرسانا ، وشعوباً ، واختفت من حياة قشتالة العامة ، شخصية

بغيضة لم تحظ خلال حياتها ، بشيء من الولاء الحقيقي ، أوالعطف الصادق أو التوقير والاحترام .

لبثت أوراكا مدى عشرين عاما ملكة لقشتالة ، وخلفت على العرش أباها العظيم ألفونسو السادس ، فكان التباين فى الوسائل والخلال من أبشع ما يمكن تصوره، وتحول الحكم القوى الحازم، إلى معترك من الشهوات والأهواء الخطرة . وبدلا من أن يغدو زواجها بألفونسو المحارب دعامة لتوطيد العرش ، وتسيير دفة الحكم ، أضحى مصدراً خطراً للتنافس والشقاق المستمر ، وعاملا فى ضعف المملكة ، واستنزاف مواردها التى كانت تدخرها لغزو الأندلس ، وتخريب ربوعها فى حروب أهلية منهكة . وكان وجود امرأة على رأس الحكم فى مملكة قشتالة العريقة ، فى ذاته مظهراً جديداً لم يألفه الشعب القشتالى ، الذى اعتاد أن يرى حكامه من الملوك الأقوياء ، وأذكى من وقع هذا المظهر فى نفوس الأشراف ونفوس الشعب ، مسلك أوراكا المشين كملكة وامرأة معا ، لاتحرص على صون هيبة الملك ، ولا كرامة المرأة المصون .

ومع ذلك فإن المؤرخين الإسبان يختلفون فى الحكم على أوراكا ، وعلى حقيقة تبعاتها التاريخية . ففريق يحكم عليها ، ويدمغها بأقسى النعوت . ومن هؤلاء الأسقف ساندوڤال . إذ يحمل عليها فى تاريخه[1] بشدة ، ويقول : « يجب علينا أن نسقط مثل هذه العصور من سلسلة تاريخنا القومى » . ويضع لوقا التوى ، وأسقف طليطلة ، وماريانا ، مسئولية سائر المحن والخلافات التى حدثت على رأس ملكة قشتالة ، ويصفونها بأنها « امرأة متهورة وشجاعة » ويتحدثون عن « خدعاتها المشينة المشبعة بالخيانة » . هذا بينما يرفض الأب فلورس[2] وغيره ، كل ما نسب إلى أوراكا من « أعمال الطيش التى نسبت إليها » ويرجعون المسئولية فى كل ما حدث من الشقاق والاضطرابات إلى الملك ألفونسو المحارب ، وينسبون إليه أخبث النيات ، وأشنع الأعمال اللادينية ، ويصفونه بأنه زوج همجى ومسيء لزوجته ، ومضطهد ومستبد للأساقفة ورجال الدين ، وملوث ومخرب للمعابد ، وناهب للأموال والآنية المقدسة ، وبأنه لم يتورع عن محاولة اغتيال الأمير الصبى[3] .

---

(١) Sandoval : Historia de los Reyes de Castilla y de León

(٢) فى تاريخه Flórez : Historia de la Reinas Catôlicas

(٣) M. Lafuente : Historia General de Espana, T. III, p. 215

— ٢ —

لما توفيت الملكة أوراكا ، أعلن ولدها ألفونسو ريموندس ملكاً لقشتالة وليون وسائر الأراضى التى حكمها جده ألفونسو السادس ، باسم ألفونسو السابع ، وكان ألفونسو منذ وفاة جده ، وفى حياة أمه ملكاً لجليقية حسبما تقدم . وكان هذا الملك الفتى الذى لم يجاوز الحادية والعشرين من عمره ، قد نشأ وترعرع فى غمار الخطوب والمحن التى توالت على المملكة أيام حكم والدته ، وكان يشعر بكل ما يواجه من تبعات خطيرة ، وما يستلزمه ذلك من يقظة وحزم . وكان أشراف قشتالة وليون يشعرون ويشعر الشعب القشتالى نفسه ، بأن تولى ألفونسو ريموندس الملك يبشر بإنهاء عهد الاضطراب والفوضى ، وقيام عهد جديد من السلام والرخاء . على أنه كان واجباً قبل أن يتحقق هذا الأمل ، فى عود السكينة والسلام ، أن يتحقق أمران ، الأول أن تُسوى المسائل المعلقة بين قشتالة وأراجون ، والثانى أن يتم إخضاع الأشراف والخوارج فى بعض أنحاء المملكة بصورة نهائية .

فأما عن الأمر الأول ، فإن ألفونسو ملك أراجون ، كان ما يزال يتمسك ببقية من دعاويه القديمة ، وكانت جنوده ، ما تزال تحتل عدداً من الحصون داخل أراضى قشتالة . فلما توفيت أوراكا زوجه القديمة ، وقام ولدها فى الملك ، أخذ يتطلع إلى مهاجمة قشتالة والمحافظة على ما بيده من حصونها ، وأخذ ألفونسو ريموندس من جانبه يتطلع إلى القضاء على دعاوى ملك أراجون ، وتحرير أرض قشتالة من هذا الاحتلال ، وأخذ كل من الملكين يتأهب لمقاومة خصيمه . وكان ملك أراجون هو البادئ بالعدوان ، فنفذ بقواته إلى أراضى قشتالة حتى صار على مقربة من بالنسيا ، وهنالك التقى بقوات قشتالة وكان يقودها الكونت دى لارا . ولكن لم يقع بين الفريقين التحام ولاقتال . وسرعان ما تدخل بينهما الأساقفة ، وعقدت الهدنة ، وتعهد ملك أراجون بأن يسلم الحصون التى تحتلها قواته فى مهلة معينة ، ثم عاد إلى أراضيه (١١٢٧ م) .

ولكن ملك أراجون لم ينفذ ما وعد به ، ولم يمض عامان آخران حتى عاد إلى غزو قشتالة . وسار ألفونسو ريموندس فى قواته إلى لقائه . والتقى الجيشان على مقربة من « ألماسان » . وهنا تدخل الأساقفة مرة أخرى ، وتكرر السعى القديم فى عقد الهدنة ، وكان التعهد هذه المرة من جانب ملك قشتالة ، فى أن يرد إلى المحارب الحصون التى كانت له فى قشتالة .

على أن هذه المحاولة لم تنجح أيضاً ، ولم يمض سوى قليل ، حتى عاد النزاع ، وعاد لقاء الفريقين فى ميدان الحرب ، واستولى ملك قشتالة فى تلك الحملة على قلعة كاسترو شريش ، وهى أهم القلاع التى كان يحتلها أنصار ملك أراجون ، واستمر هذا الصدام وقتا ، وكلما هم الفريقان بالاشتباك ، هرع الأساقفة بالتدخل ودعوا إلى حقن دماء النصارى ، وتحويل تيار الحرب إلى وجهة أخرى هى محاربة المسلمين . وأخيراً وفق الأحبار فى جهودهم ، وعقدت بين الملكين هدنة ، نزل بمقتضاها ملك أراجون عن سائر الحصون التى كانت له فى قشتالة ، ونزل ألفونسو ريموندیس نظير ذلك عن ولاية « ريوخا » التى كانت من قبل من أراضى نافارا ؛ وانتزعها منها ألفونسو السادس (سنة ١١٣٠م) .

وشغل ألفونسو المحارب من ذلك الحين أولا بحرب صغيرة نشبت فيما وراء البرنيه بين بعض الأمراء الفرنسيين . والظاهر أن ألفونسو تدخل فى هذه الحرب ليحمى بعض الكونتات من أتباعه فى ولايتى بيارن وبجور ، من بعض خصومهم من أمراء الشمال ، ومن ثم فقد حاصر ألفونسو مدينة بيونة واستولى عليها (سنة ١١٣١) . ثم شغل بعد ذلك بمحاربة الأمراء المسلمين فى طرطوشة ومكناسة وإفراغة ، وفى موقعة إفراغة كانت هزيمته الساحقة ، ثم مصرعه فى يوليه سنة ١١٣٤ م ، وذلك حسبما فصلناه من قبل فى موضعه .

وأما الأمر الثانى الذى شغل به ألفونسو ريموندیس فى مستهل حكمه ، فهو القضاء على سلطان الأشراف الخوارج وثوراتهم التى توالت منذ عهد أمه أوراكا . وكان أشد الخوارج بأساً فى قشتالة أسرة لارا ، التى كانت تناهض العرش أحياناً ، وأحياناً تعضده بقواتها وثرائها ، ونفوذها البالغ . وكان عميدها پيدرو جونثالث دى لارا عشيق الملكة أوراكا أو زوجها السرى ، وأخوه ردريجو ، وكان ألفونسو ريموندیس قد استطاع من قبل أن يقبض على عشيق أمه ، وأن يعتقله ، ولكنه فر إلى قطلونية ، ثم عاد إلى قشتالة عقب موت أوراكا ، واستطاع أن يستولى على بالنسيا بمعاونة ملك أراجون ، فبادر ألفونسو بالسير إلى بالنسيا ، واستولى عليها ، وقبض على الأشراف الثائرين ، وفى مقدمتهم الكونت پيدرو دى لارا ، ولكن أخاه ردريجو تمكن من الفرار إلى منطقة الأستورياس (أشتوريش) . وأفرج ألفونسو بعد ذلك عن الكونت پيدرو ، فغادر قشتالة مرة أخرى إلى أراجون ، شاعراً بأنه فقد كل مكانته ونفوذه السابق ، واشترك مع ملك أراجون

فى حملته إلى بيونة ، وقتل أمام أسوارها . أما أخوه الكونت ردريجو ، فقد طارده ألفونسو ، وضيق عليه ، حتى أدعن إلى طلب الأمان والعفو ، وأقسم أنه سوف يلتزم منتهى الولاء والإخلاص ، فعفا عنه ألفونسو وعينه حاكما لطليطلة ، وأبدى الكونت غيرة فى خدمة العرش . وتتبع ألفونسو فى نفس الوقت باقى الأشراف الثائرين فأخضعهم ، واحتل حصونهم تباعاً ، وأبدى فى معاملتهم إغضاء ورفقاً . وبذلك استطاع أن يحقق السكينة والسلام فى ربوع قشتالة .

ولم يبق أمام ألفونسو لاستكمال سلطانه ، سوى استرداد الأراضى والحصون التى انتزعتها خالته دونيا تريسا ملكة البرتغال ، وكانت ما تزال متمسكة بما اقتطعته من أراضى جليقية وحصونها ، بل كانت تحاول الاستيلاء على أرض أخرى ، وكانت عندئذ قد وثقت علاقتها الغرامية بالكونت فرناندو پيرث ولد الكونت دى تراڤا مؤدب ألفونسو السابق ، وأضحت هذه العلائق فضيحة ملكية على نحو ما كانت علائق الملكة أوراكا بخليلها الكونت دى لارا ، وكان لها أسوأ الأثر . فسار ألفونسو ريموندیس فى قواته ومعه خلمريث مطران شنت ياقب ، ونفذ إلى أراضى جليقية والبرتغال ، وقضى على كل مقاومة ومعارضة ، سواء من جانب أشراف جليقيه أو من جانب قوات تريسا . وكان البرتغاليون ينقمون على ملكتهم تهورها واستهتارها ، وتركها أمور المملكة لخليلها الكونت پيريث ، ويطالبون بتقديم ولدها الأمير الصبى ألفونسو هنريكز . ولما آنس القواد البرتغاليون ضعفهم ، وحرج مركزهم أمام ضغط ملك قشتالة ، أعلنوا باسم ألفونسو هنريكيز ، أنهم يعتبرون البرتغال مستظلة بحماية ليون ، ومليكها ألفونسو ريموندیس ، وهكذا عاد ألفونسو ريموندیس ظافراً ، بعد أن قضى على مشاريع خالته تريسا العدوانية .

وكان ألفونسو ريموندیس قد تزوج أثناء ذلك من دونيا برنجيلا ، ابنة رامون برنجير الثالث أمير برشلونة (سنة ١١٢٨م) ، وكان هذا الزواج عاملا فى توثيق علائق المودة والتحالف بين قشتالة وإمارة برشلونة ، واستطاعت هذه الأميرة الحسناء الموهوبة ، أن تحرز برقتها وذكائها فى بلاط قشتالة ، أعظم نفوذ ، وأن تغدو لزوجها الملك الشاب مستشاره الأول ، يصغى إلى نصحها فى سائر شئون المملكة والحكم ، معتمداً فى ذلك على ذكائها وحسن إدراكها للأمور(١) .

وفى سنة ١١٣٣ م ، قام ألفونسو بإخضاع بعض ثورات محلية فى منطقة

---

(١) Lafuente: ibid; T. III. p. 247

الأستوياس ، وفى خلال هذه الحملة ، علق بحب فتاة حسناء تدعى كونترودا هى ابنة الكونت پيدرو دياث ، وأعقب منها فيما بعد ابنة سميت أوراكا ، عهد بتربيتها إلى أخته دونيا سانشا . وهكذا غدت هذه المغامرات الغرامية الملوكية تقليداً راسخاً فى بلاط قشتالة فى هذا العصر .

وفى خلال ذلك لم ينس ألفونسو ريمونديس مهمته الأولى، كملك لقشتالة أولا ، وعميد لملوك اسبانيا النصرانية ثانيا ، وهى متابعة الحرب ضد اسبانيا المسلمة . وكانت هذه المهمة التى يحيطها ملوك قشتالة ، بنوع من التقديس ، قد تراخت نوعاً أيام والدته أوراكا ، بسبب ما شغل قشتالة عندئذ من منازعات وحروب أهلية متوالية . وشغلت الجيوش المرابطية من جانبها بمدافعة ألفونسو المحارب ملك أراجون ، والاشتباك معه فى معارك متوالية فى شرقى الأندلس ، وفى جنوبها ، وفى الثغر الأعلى ، وكان ملك أراجون ، بعد وفاة ملك قشتالة القوى ألفونسو السادس ، هو الذى يضطلع يومئذ بمهمة الصراع الذى تشهره اسبانيا النصرانية على اسبانيا المسلمة .

على أن ملك قشتالة الفتى ألفونسو ريموندیس ، ماكاد يسوى نزاعه مع ملك أراجون ، وماكاد يطمئن إلى استقرار السكينة والسلام فى مملكته ، حتى استدعى مجلساً فى بالنسيا (كورتيس) لكى يبحث خطط الحرب ضد المسلمين (سنة ١١٣٠ م) . وكانت الغزوات المرابطية ، قد أخذت قبل ذلك بقليل تتوالى فى أراضى قشتالة ، ولاسيما مذ ولى الأمير تاشفين بن على بن يوسف شئون الأندلس فى سنة ٥٢٢ هـ (١١٢٨ م). وقد فصلنا نحن من قبل تفاصيل الغزوات التى قام بها المرابطون يومئذ فى أراضى قشتالة ، والغزوات التى قام بها القشتاليون فى أراضى الأندلس ، فلا حاجة بنا إلى أن نعود إلى ذكرها هنا . بيد أنه مما تجب ملاحظته أن هذه الفترة التى توالت فيها غزوات القشتاليين لأراضى الأندلس الوسطى ، هى نفس الفترة التى اشتدت فيها وطأة ألفونسو المحارب ملك أراجون على شرقى الأندلس والثغر الأعلى . وقد سبق أن فصلنا كيف أحرز ألفونسو نصره على المرابطين فى موقعة القلاعة جنوبى بلنسية فى سنة ٥٢٣ هـ (١١٢٩ م) وكيف غزا ألفونسو بعد ذلك أراضى بلنسية ، وعاث فيها ، ثم عاد فهاجم مكناسة من قواعد الثغر الأعلى ، واستولى عليها فى سنة ٥٢٧ هـ (١١٣٣م) ثم كان حصاره لإفراغة ونكبته تحت أسوارها ، وموته على أثر تلك النكبة ، وذلك فى شهر يوليه سنة ١١٣٤ م (رمضان سنة ٥٢٨ هـ)

الفصل الثاني

الممالك الإسبانية النصرانية

فى عصر القيصر ألفونسو ريمونديس

وقيام مملكة أراجون الكبرى

ألفونسو المحارب. أعماله وخلاله . وصيته . رفض الشعبين الأرجونى والناڤارى لها . انفصال ناڤارا واستقلالها . اختيار أراجون الراهب راميرو ملكاً لها . غزو ملك قشتالة لناڤارا. احتلاله لسرقسطة . اعتراف راميرو بطاعته . ألفونسو ريمونديس يتخذ لقب الإمبراطور . قرارات مجلس ليون . ما يحققه اللقب الإمبراطورى لملك قشتالة . محالفة راميرو لملك قشتالة . ألفونسو ريمونديس يغزو ناڤارا . ارتداده لمحاربة البرتغاليين . زواج الكونت رامون أمير برشلونة من إبنة راميرو . تنازل راميرو عن العرش . الكونت رامون أمير أراجون . الكونت رامون برنجير الثالث وجهوده فى سبيل التعاون مع أراجون . رامون برنجير الرابع وإتمام الوحدة بين أراجون وقطلونية . مسير ألفونسو ريموديس لمحاربة البرتغال . الصلح المفاجىء بين الملكين . مسير ألفونسو لغزو الأندلس . فتك المرابطين بإحدى فرقه . مسيره لافتتاح حصن أوريخا . إسراع المرابطين إلى نجدته . تسليم الحصن بالأمان . تحالف ألفونسو ريموديس ورامون برنجير على غزو ناڤارا. مدافعة غرسية راميريس ملكها للغزاة. سعيه إلى طلب الصلح . اعترافه بسيادة الإمبراطور . استمرار الحرب بين أراجون وناڤارا . عقد الصلح بينهما . غزو ألفونسو ريموديس للأندلس . استيلاؤه على قورية . غزوة قشتالة للأندلس . موقعه بين المسلمين والنصارى هزيمة النصارى ومصرع قائدهم . ملك قشتالة يغزو الأندلس مرة أخرى . معاونته للثوار ضد المرابطين . احتلاله قرطبة . استيلاء النصارى على ألمرية . سقوط القواعد الإسلامية بالثغر الأعلى . غزو ناڤارا لأراجون ومراميه . المؤتمر الكهنوتى . وفاة الملكة برنجيلا . وفاة غرسية راميريس ملك ناڤارا . تجديد التحالف ضد ناڤارا بين أراجون وقشتالة . تطور الحوادث . الزيجات الملكية . الحرب بين ناڤارا وأراجون . تجدد الاتفاق بين أراجون وقشتالة على تقسيم ناڤارا . عود ملك قشتالة إلى غزو الأندلس . استيلاؤه على حصنى أندوجر والبطروج . استردادهما على يد الموحدين . استرداد الموحدين لألمرية ، وفشل القيصر فى إنجادها . وفاة ألفونسو ريموديس . خلاله وأعماله . برنامجه فى مهاجمة الإسلام . مواظبته على غزو الأندلس . الكونت رامون برنجير وأعماله الأخيرة . وفاته وخلاله . تقسيم قشتالة بين ولدى القيصر سانشو وفرناندو . الحرب بين الأخوين . هزيمة فرناندو واعترافه بسيادة أخيه . أطماع سانشو ووفاته . ولده الطفل ألفونسو . الوصى جوتيرو دى كاسترو . سخط آل لارا . تسليم الأمير للكونت غرسية دى آينا . الكونت يسلمه لآل لارا . مطالبة آل كاسترو بإعادة الطفل . التجاؤهم إلى فرناندو ملك ليون . غزو فرناندو لقشتالة . إعلانه لوصايته على ابن أخيه . تسليم آل لارا للملك الطفل . اصطفاء فرناندو لآل كاسترو . الحرب بين الأسرتين . هزيمة آل لارا . اختطافهم للملك الطفل . تذرعهم بحماية قشتالة من أطماع فرناندو . استمرار الحرب الأهلية بين الفريقين . مقتل عميد آل لارا . تحول أهل قشتالة إلى مخاصمة فرناندو . استيلاء آل لارا على طليطلة . إعلانهم

لولاية الملك الطفل ألفونسو . تأييد قشتالة ورجال الدين لتلك الحركة . انسحاب فرناندو من قشتالة . قيام جماعات الفرسان الدينية فى إسبانيا . جمعية فرسان المعبد . استقرارها فى أراجون وقطلونية . قيام جمعية فرسان قلعة رباح . جماعة القديس ياقب .

١ — وفاه ألفونسو المحارب وولاية أخيه الراهب راميرو

كان مصرع ألفونسو المحارب على ذلك النحو المفاجئ الذى حدث عقب موقعة إفراغة ، نذيراً بوقوع تطورات هامة فى مصاير اسبانيا النصرانية ، على نحو ما كانت وفاة ألفونسو السادس ملك قشتالة قبل ذلك بخمسة وعشرين عاما . فقد توفى كلاهما دون وارث للعرش . وقد رأينا كيف تولت أوراكا عرش قشتالة تنفيذاً لوصية أبيها ، وما ترتب على ذلك من الحوادث والخطوب ، وكذلك فقد كانت وفاة ألفونسو المحارب دون عقب ، مثارا لأحداث وتطورات جديدة حول عرش أراجون .

وكان ألفونسو المحارب من أعظم ملوك اسبانيا النصرانية فى العصور الوسطى ، وقد استطاع خلال الأعوام الثلاثين التى حكمها منذ وفاة أخيه الملك پيدرو فى سنة ١١٠٥ م ، أن يجعل من أراجون أعظم ممالك اسبانيا النصرانية وأقواها ، وإن لم تكن أضخمها رقعة ، وغدا بزواجه من أوراكا ملكة قشتالة ، أعظم عاهل لإسبانيا النصرانية كلها . وانفق ألفونسو معظم جهوده الحربية فى محاربة المسلمين ، وانتزع قواعد مملكة سرقسطة الباقية من بنى هود ، ثم انتزع سرقسطة ذاتها من أيدى المرابطين ، وقام بغزوته الشهيرة فى قلب الأندلس ، واخترقها من أقصاها إلى أقصاها ، وأطل بقواته على شاطئها الجنوبى (٥٢٠ هـ — ١١٢٧م) . وقد أظهرت هذه الغزوة الجريئة التى فصلنا حوادثها فيما تقدم ، ضعف وسائل الدفاع عن الأندلس . وحقق المحارب بافتتاحه سرقسطة ، والقضاء عليها كحاجز دفاعى للمسلمين فى الثغر الأعلى ، ما حققه ألفونسو السادس بافتتاح طليطلة ، من فتح طريق التاجُه ، فأصبحت الأندلس معرضة للغزو النصرانى من الشمال الشرقى ، ومن الوسط ، وسارت سياسة الإسترداد النصرانية **La Reconquista** من ذلك الحين فى الاتجاهين دون عائق قوى ، وتنوه الرواية الإسلامية ذاتها بشجاعة ألفونسو المحارب ، وشديد بأسه . فيقول لنا ابن الأثير فى وصفه : « وكان من أشد ملوك الفرنج بأساً وأكثرهم تجرداً لحرب المسلمين ،

وأعظمهم صبراً ، وكان ينام على طارقته بغير وطاء »[١] . وأما عن خلال ألفونسو الشخصية ، فتختلف الرواية النصرانية ، فنراه يوصف فى التواريخ الأرجونية بالإيمان والتقوى ، والفروسية ، ورعاية الكنائس والأحبار ، ولكن التواريخ القشتالية تصفه بالعكس بالجبروت والغدر والإلحاد ، وشغف العدوان على حرمة الكنائس والأديار ، وعلى محتوياتها المقدسة ، وأنه فى حروبه مع النصارى لم يكن يفر الأحبار ولا النساء من عدوانه ، ولم يكن يكبح جماح جنده عن ارتكاب مختلف ضروب الإثم والمنكر[٢] .

وكان ألفونسو المحارب ، قبيل وفاته بثلاثة أعوام قد كتب وصيته حول مصير مملكته ، وكانت أغرب وصية يمكن تصورها . ذلك أنه أوصى فيها بأن تقسم مملكته الكبيرة إلى ثلاثة أقسام ، الأول يخصص لسلام روح والده ووالدته ، وللتكفير عن زلاته ، ولكى يظفر بمكان فى جنة الله ، وللقبر المقدس وسدنته وخدمه ، والثانى يخصص للفقراء وفرسان الأسبتارية ببيت المقدس ، والثالث يخصص لفرسان المعبد (الداوية) باعتبارهم حماة النصرانية فى معبد المسيح[٣] . وقد ظهر فرسان الداوية قبل ذلك بأعوام قلائل فى إمارة برشلونة ، وكان أميرها رامون برنجير الثالث ، أول من شجعهم على القيام فى إمارته، وحاول ألفونسو المحارب قبل وفاته بقليل أن ينشئ جمعية فرسان دينية على غرار جماعة بيت المقدس ، فلم ينجح لمعارضة الأشراف ، ولكنه لبث يحتضن مشروعه حتى توفى حسبما بدا ذلك فى وصيته .

---

(١) ابن الأثير ج ١١ ص ٢٣ .

(٢) تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين لأشباخ .(الترجمة العربية ، الطبعة الثانية ص ١٦٦ و ١٦٧) .

(١) كان فرسان المعبد **Templares** ، وفرسان الأسبتارية **Hospitallers** من أشهر جماعات الفرسان الدينية التى قامت فى العصور الوسطى فى بداية الحروب الصليبية . والجماعة الأولى هى التى تعرف فى الرواية الإسلامية بجماعة « الداوية » وقد أنشئت سنة ١١١٩ م فى بيت المقدس عقب سقوطها فى يد الفرنج الصليبيين وذلك لحماية الحاج إلى قبر المسيح ، وأفرد لهم ملك بيت المقدس جناحاً فى قصره ، ثم سلم إليهم المعبد المجاور له ، ومنه اشتقوا اسمهم « فرسان المعبد » . ونمت هذه الجماعة بسرعة ، واشتد ساعدها بمن انضم إليها من النصارى من سائر الأمم ، ولعبت دوراً هاما فى حوادث الحروب الصليبية ، واستمرت قائمة عصوراً . والأسبتارية هم أيضاً جماعة دينية من الفرسان ، أنشئت عقب الجماعة الأولى ، وخاضت أيضاً حوادث الحروب الصليبية ، ولكنها كانت أضعف شأناً من جماعة « الداوية » .

على أن الشعبين الأرجونى والناڤارى أبى كلاهما ، أن يحترم وصية ترمى إلى التصرف فى مصايرهم ، ومصاير بلادهم ، على هذا النحو الغريب . وقد انتهز الناڤاريون بالأخص هذه الفرصة ليعملوا على استرداد استقلالهم القومى ، الذى فقدوه منذ استولى سانشو راميريس ملك أراجوان ، ووالد ألفونسو المحارب على بلادهم فى سنة ١٠٧٦ م أعنى منذ ستين عاما ، وكان من المتفق عليه منذ البداية بين الأرجونيين والناڤاريين أن يرفضوا أية دعوى لملك قشتالة فى السيادة على بلادهم ، وقد كان بوسع ألفونسو ريمونديس أن يشهر مثل هذه الدعوى باعتباره سليل سانشو الكبير من ناحية أمه . ومن ثم فإن الأرجونيين والناڤاريين بعد أن أعلنوا رفضهم لوصية الملك المتوفى ، قرروا أن يجتمع ممثلو الشعبين من الطبقات الثلاث ، أعنى رجال الدين والأشراف ونواب الشعب ، لاختيار الملك الجديد . واجتمع النواب فى بلدة چاقة فى مؤتمر وطنى ، وقر رأى الأرجونيين على أن يختاروا للعرش أخا الملك المتوفى دون راميرو الراهب ، وكان قد انتظم فى سلك الكهنوت قبل ذلك بمدة طويلة ، وأقام فى دير منعزل على مقربة من ثغر أربونة ، ولكن الناڤاريين لم يوافقوا على هذا الاختيار ، فانفصلوا عن الأرجونيين ، وأعلنوا فى بنبلونة عاصمتهم القديمة ، استقلالهم ، واختاروا لهم ملكاً ، هو غرسية راميريس حفيد ملكهم سانشو ، الذى قتل غيلة فى سنة ١٠٧٦ ، وبذا انفصلت ناڤارا عن أراجون ، وعادت تشغل مركزها القديم ، كدولة مستقلة من دول اسبانيا النصرانية .

واجتمع ممثلو أراجون من جهة أخرى ، فى مونتسون ، فى مجلس نيابى (كورتيس) وقرروا الموافقة على اختيار الراهب راميرو ملكاً لأراجون ، وقبل راميرو هذا العرض ، وحصل على إذن بتحريره من عهد الرهبنة ، وتولى العرش ، وتزوج بموافقة البابا من الأميرة إنيس ابنة كونت بواتييه وأخت دوق أكوتين . وهكذا استحالت مملكة أراجون ، بعد أن كانت فى عهد ألفونسو المحارب مملكة مترامية الأطراف ، إلى مملكة صغيرة محدودة الموارد والقوى ، وزادت الممالك الإسبانية النصرانية مملكة جديدة هى مملكة ناڤارا المستقلة .

وكان ملك قشتالة يرقب هذه التطورات الجديدة بمنتهى الاهتمام ، ويدبر خططه ليخرج منها بأوفر غنم . فما كاد الوضع الجديد يستقر فى أراجون وناڤارا ، حتى خرج من قشتالة ، فى جيش ضخم ، واتجه نحو ضفاف الإيبرو ، واستولى على ناجرة وقلهرة ، ثم سار إلى سرقسطة بحجة حمايتها من المرابطين ، ولم يجرؤ

ملكا ناقارا وأراجون على المقاومة لما آنساه من عزم ملك قشتالة، وضخامة قواته . ودخل ألفونسو ريموندیس سرقسطة دون مقاومة ، وكان بها الملك الراهب رامیرو . فسلمه المدينة وكل أراضى أراجون الواقعة على ضفة الأيبرو اليمنى، وأعلن اعترافه بأنه يحكم أراجون فى ظل قشتالة ، ثم انسحب إلى وشقة ، مكتفياً بلقب ملك أراجون وسوبرابى وريباجورسا . واجتمع بألفونسو ريموندیس فى سرقسطة صهره رامون برنجير الرابع أمير برشلونة ، وكونت أورقلة ، وعدة من كونتات ولايات البرنيه الفرنسية ، وعقد الجميع معه عهود الصداقة والتحالف ، ثم غادر ألفونسو ريموندیس سرقسطة بعد أن ترك بها حامية ، وعاد إلى ليون، وهناك وفد عليه غرسية رامیریس ملك ناقارا، ينشد عونه ومحالفته ، ويعترف بحمايته(١) .

وأضحى ملك قشتالة ، بعد أن بسط سيادته أو حمايته السياسية على بقية الممالك النصرانية المتاخمة لقشتالة ، سيد إسبانيا النصرانية كلها ، على نحو ما كان عليه جده ألفونسو السادس ، ومن ثم فقد اتخذ مثله لقب الإمبراطور ، ومنح هذا اللقب بصفة رسمية فى مجلس قومى (كورتيس) عقد فى ليون فى ربيع سنة ١١٣٥ م ، ثم توج بالتاج الإمبراطورى فى الكنيسة الكبرى ، وأضحى ألفونسو ريموندیس من ذلك الحين يلقب بالإمبراطور ، أو القيصر ألفونسو ريموندیس أو ألفونسو السابع . وصدرت فى مجلس ليون هذا ، عدة قرارات هامة ، منها موافقة الإمبراطور على تأييد سائر الحقوق والامتيازات التى منحت للكنيسة على يد الملوك السابقين ، وتمت هذه الموافقة بمسعى المطران ريمون الذى حل محل المطران برنار فى رياسته للكنيسة ، ومنها قرار يقضى بتطبيق القوانين والحقوق البلدية Buenos Fuaros فى جميع أنحاء قشتالة والولايات التابعة لها ، وهى القوانين والحقوق التى كانت فى عصر ألفونسو السادس ، وترتب على هذا القرار إلغاء كثير من التصرفات السابقة ، وإلغاء بعض الإمتيازات التى انتزعها الأشراف لأنفسهم دون حق ، كذلك صدر قرار بإنشاء نوع من الجند الاحتياطى من بين سكان الحدود ، يحشد فيه كل رجل قادر على حمل السلاح ، وذلك لرد غارات المسلمين ، وقرار آخر يقضى بعقاب كل مجرم مهما كان شخصه ومقامه ؛ بيد أنه لم يكن من الميسور أن تطبق مثل هذه القرارات العادلة ، فى عصر كان

(١) راجع تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين لأشياخ (الطبعة الثانية) ص ١٧٦ ، وكذلك: Lafuente : ibid; T. III. p. 251; R. Altamira : ibid ; Vol. I. p. 361 & 362

يسود فيه حكم القوة ، ويعتبر الأشراف أنفسهم سلطة خاصة ، تقرر ما تشاء وفق أهوائها ، متى كان لها سند من القوة والإرغام ، ولم يكن فى مقدور العرش دائماً ، أن ينفذ من جانبه بالقوة سائر القوانين والقرارات التى يصدرها .

ويعلق الأستاذ ألتاميرا على اتخاذ ألفونسو السابع للقب الإمبراطور بقوله ، إنه كان يرمى بالاتشاح بهذا اللقب إلى مثل ما كان يرمى إليه امبراطرة الدولة الرومانية المقدسة منذ كارل الأكبر (شارلمان) والإمبراطور أوتو الألمانى ، من بسط سيادته على باقى ملوك شبه الجزيرة ، كما كان أولئك الأمبراطرة يدّعون بسط سيادتهم على باقى ملوك القارة الأوروبية . والواقع أن ألفونسو السابع ، استطاع بواسطة انتصاراته فى ناڤارا (نبرّة) وأراجون أن يبسط سيادته على ملوك هاتين الدولتين ، وقد اعترف له بالتبعية إلى جانبهم كونتات برشلونة وتولوشه وغيرهما ، وكانت هذه الصفة الإمبراطورية تختلف عن مثيلتها الأوربية ، بانحصارها فى شبه الجزيرة الإسبانية[1] .

وهكذا حققت قشتالة بارتفاع ملكها إلى مرتبة القيصر ، سيادتها الأدبية ، والفعلية ، فى معنى من المعانى ، على ممالك اسبانيا النصرانية . بيد أن الخلاف لبث على أشده بين مملكتى أراجون وناڤارا ، ولاسيما على الحدود والألقاب الملوكية ، وكاد الأمر بينهما يصل إلى الحرب . وفكر ملك أراجون الراهب بأن يعوض ضعفه بالاستعانة بملك قشتالة ضد ناڤارا ، ونزل له عن قلعة أيوب ومواضع أخرى من التى كان ألفونسو المحارب قد افتتحها من المسلمين ، واقترح أن يقدم ابنته الطفلة ، بترونيلا ، عروساً لسانشو ولى عهد قشتالة . وكانت سياسة راميرو هذه تلقى أشد معارضة من أشراف أراجون ، إذ كانوا يرون فيها خطراً على استقلال بلادهم . وقيل إن راميرو استدعى نفراً من هؤلاء المعارضين ذات يوم إلى قصره ، ودبر مصرعهم بطريقة غادرة ، وهى رواية يشك فى صحتها . وكان ملك ناڤارا ، من جهة أخرى ينظر إلى مشاريع راميرو بعين التوجس والغضب ، إذ كان يطمح أن يؤول إليه عرش أراجون ، وكان ملك قشتالة من جانبه يخشى أن يشتد ساعد ناڤارا ، وأن تغدو عاملا يهدد سيادته . ومن ثم فقد اعتزم ألفونسو ريمونديس أن يشهر الحرب على ناڤارا ، وزحف عليها بالفعل فى جيش ضخم ، وذلك فى سنة ١١٣٦م . وانتهز ملك البرتغال الفتى ألفونسو هنريكيز هذه الفرصة ،

(١) R. Altamira : ibid ; Vol. I. p. 361 & 362

فزحف فى قواته على جلّيقية ، ونشبت الحرب فى الناحية الأخرى من مملكة قشتالة . وبالرغم مما أحرزه ألفونسو ريموندیس من انتصارات محلية على النافاريين ، فإنه رأى نفسه مرغما على الانسحاب والارتداد إلى الناحية الأخرى ، ليرد القوات البرتغالية عن جليقية . هذا إلى أن المسلمين كانوا فى نفس الوقت يهددون حدود قشتالة الجنوبية . وهكذا قيض لنافارا أن تنجو من الخطر المحدق بها وأن تحافظ على استقلالها .

وفى تلك الأثناء كانت الأمور فى أراجون تسير إلى وجهة جديدة . ذلك أن الملك راميرو برم بمتاعب الملك واعتزم أن يرتد إلى حياة العزلة والدير ، لاسيما وقد أصبح لعرش أراجون وريث هى ابنته الطفلة بترونيلا ، ومن الممكن أن يكون لها زوج يضطلع دونه بأعباء الملك ومشاقه . ومن ثم فقد دعا كبراء المملكة إلى اجتماع عقد فى بربشتر (فى أغسطس سنة ١١٣٧) وتقرر فيه أن تزوج بترونيلا من الكونت رامون برنجير الرابع أمير برشلونة . وكان معظم أشراف أراجون يحبذون هذا الاختيار ، أولا لتجاور الشعبين الأرجونى والقطلونى وتقاربهما فى العوايد والتقاليد ، وثانيا لما يتصف به الكونت رامون من الخلال الملوكية الرفيعة ، وثالثاً لأن هذا الاختيار لايمكن أن يلقى معارضة من قشتالة نظراً لما يربط الكونت بمليكها من رباط المصاهرة . ورحب الكونت رامون بهذا العرض الذى يتيح له الفرصة لاعتلاء عرش أراجون ، وعُقد القران الملكى فى بربشتر بالرغم من أن الأميرة لم تكن تجاوز العامين من عمرها ، وأعطى الكونت بمقتضى هذا القران حق السيادة على مملكة أراجون ، وتلقب رامون برنجير الرابع بكونت برشلونة وأمير أراجون ، وأقسم كبراء المملكة يمين الطاعة للملك الجديد .

وأعلن راميرو تنازله عن الملك بمدينة سرقسطة أمام كبراء المملكة . ووافق ملك قشتالة ألفونسو ريموندیس على هذه التصرفات كلها . وقدم دليلا على تأييده ورضاه بإخلاء مدينة سرقسطة وسائر الحصون التى كان يحتلها على ضفة الإيبرو لملك أراجون الجديد . وأقسم الكونت رامون من جانبه يمين الطاعة لألفونسو . وارتد الملك الراهب راميرو إلى عزلة الدير مرة أخرى ، وأقام بدير سان پيدرو بوشقة حتى توفى فى سنة ١١٥٤ م .

وهكذا اختتمت مملكة أراجون الكبرى حياتها القصيرة ، بعد أن لمعت حيناً

فى عهد ألفونسو المحارب ، وغدت كبرى الممالك النصرانية الإسبانية ، واختتم بوفاة المحارب عهد الملوك الأقوياء الذين قضوا على سلطان المسلمين فى الثغر الأعلى ، وانتزعوا قواعد مملكة سرقسطة . ولكن شاء القدر أن تعود مملكة أراجون فتنهض من عثارها الذى أصابها على يد الراهب راميرو ، وتغدو باندماجها مع إمارة قطلونية ، مملكة قوية كبرى .

٢ — اتحاد أراجون وقطلونية

والواقع أن إمارة برشلونة أوقطلونية الصغيرة ، بموقعها على البحر ، وثغرها العظيم ، كانت تبدو من الناحية الجغرافية بالنسبة لأراجون ، عضدا طبيعياً ، وشطراً مكملا ، أبلغ خطراً وأهمية من مملكة ناڤارا . وكان سير الحوادث فى قطلونية وأراجون بالنسبة للكفاح ضد المسلمين يتخذ وجهة مماثلة ، ويرمى إلى هدف واحد ، هو القضاء على مملكة سرقسطة الإسلامية . وقد اضطلعت قطلونية فى هذا الكفاح بنصيب بارز ، ولاسيما منذ عهد أميرها رامون برنجير الثالث المعروف « بالكبير » وهو الذى ولى الحكم منذ سنة ١٠٩٢ م . ورأى الكونت رامون أن يقوى نفسه ضد المرابطين بالتحالف مع كونت أرقلة ، وكونت باليارش ، وكونت أربونة وغيرهم من الأمراء المجاورين . ولما غزا ابن الحاج والى سرقسطة المرابطى أراضى قطلونية فى سنة ٥٠٨ هـ (١١١٤ م) فاجأته قوات الكونت رامون وحلفائه فى جبال قطلونية ، واشتبكت معه فى معركة دامية قتل فيها ابن الحاج ومعظم جنده[١] . فعندئذ بعث أمير المسلمين على بن يوسف صهره الأمير أبا بكر بن إبراهيم والى مرسية فى جيش كبير ، لغزو برشلونة والانتقام لمصرع ابن الحاج ، فاخترق أبو بكر أراضى قطلونية وهو يثخن فيها ، وحاصر ثغر برشلونة ، فخرج إليه أميرها الكونت رامون وحلفاؤه الفرنج ، ونشبت بين الفريقين معارك شديدة ، قتل فيها كثير من الفريقين ، وارتد المرابطون دون أن يحققوا نتائج حاسمة .

وفى سنة ١١١٢ م تزوج الكونت رامون ، عقب وفاة زوجه الأولى ،

---

(١) سبق أن أشرنا إلى رواية ابن عذارى التى تقول إن ابن الحاج لم يقتل فى هذه الموقعة وإنما قتل بعد ذلك بعام فى موقعة نشبت بين المرابطين والقشتاليين على مقربة من قرطبة فى سنة ٥٠٩ هـ (راجع ص ٧٢ و ٧٥ من هذا الكتاب) .

من دونيا دولثيا وارثة ولاية بروڤانص الفرنسية ، وكان لانضمام هذه الولاية الفرنجية القديمة المتمدنة ، إلى إمارة قطلونية ، أثر كبير فى حضارتها ، وفى تقدمها الفكرى . وكذلك ضمت إلى قطلونة بضعة إمارات صغيرة أخرى فيما وراء البرنيه ، سواء بموت أصحابها أو باتفاقات سابقة ، وكان منها أتونة ، وقرقشونة ، وبذلك اتسعت رقعة مملكة قطلونية اتساعاً كبيراً .

واشترك الكونت رامون برنجير الثالث فى حملة الغزو الكبرى إلى الجزائر الشرقية (١١١٤ م) ، وهى التى جهزتها جمهوريتا بيزة وجنوة ، وتم استيلاء النصارى على ميورقة فى العام التالى . ولكن أمير المسلمين على بن يوسف بعث لاسترداد الجزائر أسطولا ضخماً ، فاضطر النصارى إلى مغادرتها ، واحتلها المرابطون وذلك فى أواخر سنة ٥٠٩ ﻫ (١١١٦ م) ، وعادت الجزائر الشرقية إلى حظيرة الإسلام ، وذلك كله حسبما فصلناه فى موضعه .

واستمر الكونت حيناً فى صراعه ضد المرابطين ، وقام بمعاونة البيزيين والجنويين بمحاولات فاشلة لافتتاح ثغر طرطوشة ، ومدينة لاردة . ولما شغل ألفونسو المحارب بغزواته الكبرى للأندلس ، وصراعه المتصل بعد ذلك مع المرابطين ، اشتد ضغط المرابطين على إمارة برشلونة ، ولقى الكونت فى مدافعتهم متاعب شديدة . وتتحدث الرواية عن هزيمة شنيعة لحقت بالقطلان على أيدى المرابطين أمام حصن « كورتيس » على مقربة من لاردة . ثم تفاقمت الأمور على الكونت برنجير بقيام أمير تولوشة بمهاجمة مقاطعة « بروڤانص » التى كانت من أقاليم قطلونية فيما وراء البرنيه ، واضطر الكونت أن ينزل عن سيادة نصف الولاية ، وأن يؤول سيادة النصف الآخر إذا مات أحد الشريكين دون وارث ، إلى الشريك الذى بقى على الحياة .

كان الكونت برنجير يرى دائماً أن يوحد جهوده مع ملك أراجون القوى ، كلما سنحت الفرص . وكان ألفونسو المحارب يؤمن من جانبه بفائدة هذا التعاون . وقد التقى الإثنان بالفعل ، واتفقا على أن يعقدا نوعاً من التحالف يكون خطوة تمهيدية لعمل اتحاد فعلى أتم وأوثق بين المملكتين . وكان لكل من المملكتين فائدة محققة من عقد مثل هذا الاتحاد . فقد كانت مملكة أراجون بالأخص مملكة برية ، تعتمد فى قوتها على الجيوش البرية ، ومن ثم فقد كان فى وسعها أن تتفرغ لمقاومة ملك قشتالة القوى ألفونسو ريموندیس ، وكبح جماح أطماعه . وكانت قطلونية

تعتمد بالأخص على قواتها البحرية ، وكان بوسع الكونت برنجير ، اعتماداً على هذه القوات ، أن يؤمن مركز بلاده فى البحر ، وأن يقاوم فى بعض الأحيان مطامع جمهورية جنوة . وفى سنة ١١٢٧ م عقد الكونت تحالفاً مع الدوق روجر (رجار) ملك صقلية تعهد فيه بأن يمد الدوق بخمسين سفينة من أسطوله ، وهو ما يدل على ما كانت تتمتع به إمارة قطلونية يومئذ ، من قوى بحرية لها خطرها فى تلك المياه .

ثم تطورت الحوادث ، وتغير موقف قطلونية فجأة من مملكتى أراجون وقشتالة ، وذلك بزواج ملك قشتالة ألفونسو ريمونديس من الأميرة برنجيلا إبنة الكونت رامون برنجير الثالث (سنة ١١٢٨ م) . وقد كان لذلك أثره فى تقوية مركز قطلونية من جهة ، وفى علائقها بمملكة قشتالة من جهة أخرى . وكان الكونت رامون قد شاخ يومئذ ، ولحقته أوصاب الشيخوخة ، فجنح إلى الزهد والورع ، واعتنق مبادئ فرسان المعبد (الداوية) . وكان بعض أقطاب الداوية قد وفدوا قبل ذلك بقليل من المشرق إلى برشلونة ليسعوا فى إنشاء فرع للجماعة فى قطلونية ، فرحب الكونت بمقدمهم ، ومنحهم حصن « جرانينا » على مقربة من لاردة ، وذلك ليعاون الفرسان فى افتتاح هذه المدينة من أيدى المسلمين . ثم توفى الكونت بعد ذلك بقليل فى يوليه سنة ١١٣١ ، بعد أن حكم مملكة قطلونية زهاء أربعين عاما .

وكان الكونت رامون برنجير الثالث ، أعظم أمراء تلك الأسرة التى حكمت قطلونية دهراً ، مذ بدأت إمارة صغيرة تضم برشلونة ، وأحوازها ، وفى عهده نمت قوة قطلونية البحرية نمواً عظيما ، وازدهرت تجارتها ، وعم بها اليسر ، والرخاء ، وازدهرت بها فى نفس الوقت حركة تمدنية وفكرية ملحوظة ، وكانت مملكة قطلونية تضم عند وفاته ، ولايات برشلونة ، وڤيش ، ومزيسه ، وجيرندة (جيرونه) وسردانية ، وقرقشونة ، وبروڤانص ، وكانت حدودها الغربية تمتد حتى ريباجورسا .

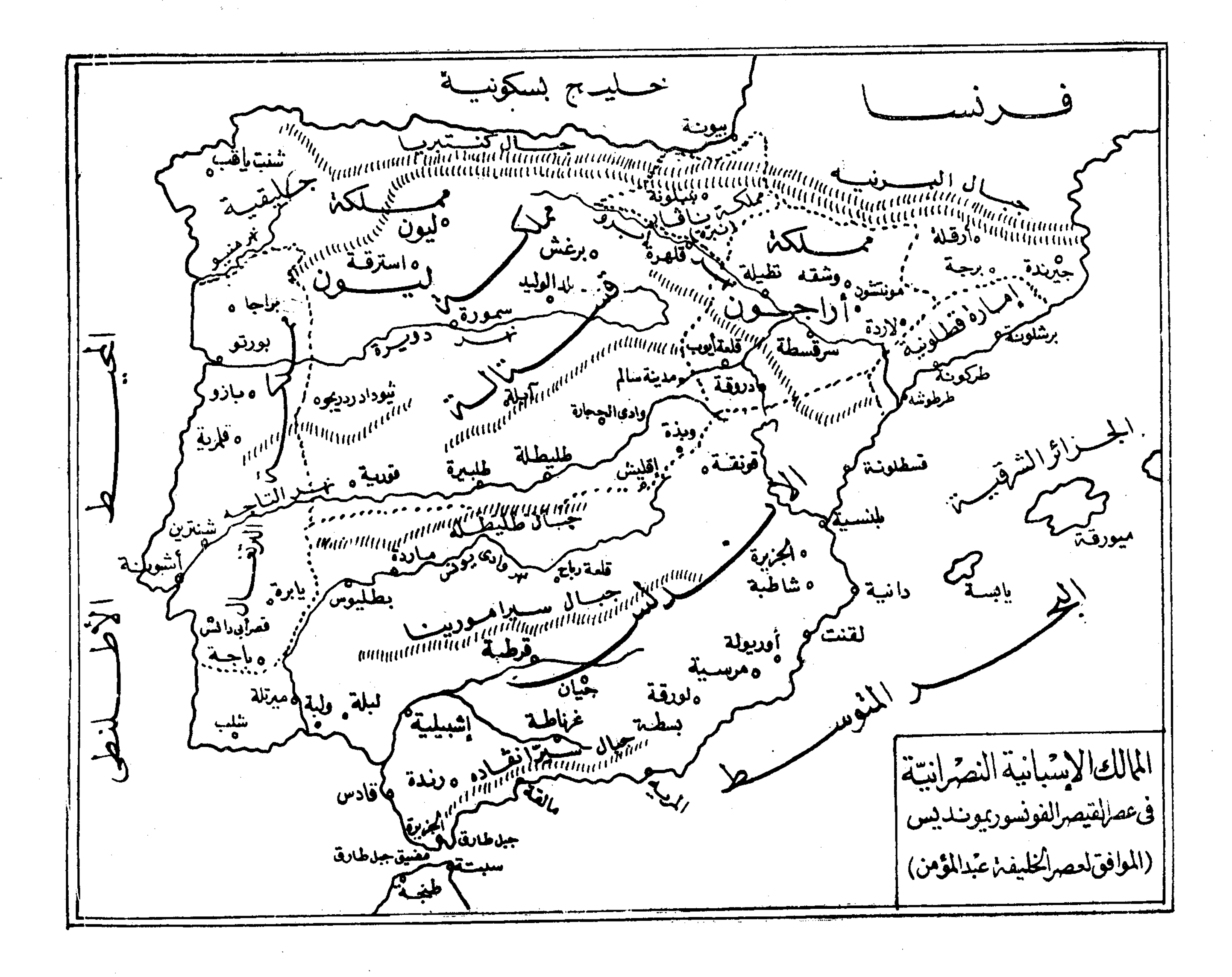
وخلفه فى إمارة قطلونية وسائر ممتلكاتها ، ولده الأمير رامون برنجير الرابع ، ما عدا ولاية بروڤانص فقد منحت لولده الثانى برنجير رامون . وكان الأمير الجديد قرين أبيه كفاية وعزماً ، فسار فى نفس الطريق الذى رسمه أبوه ، وبدأ بأن عمل على تحقيق فكرته فى إقامة جمعية فرسان المعبد (الداوية) بقطلونية ، وتقرر

ذلك بصفة رسمية فى مجلس دينى عقد برياسة المطران أولاجير ، وأعطى الفرسان حصن بربيره ، فى جبال براديس المشرفة على لاردة وطرطوشة (سنة ١١٣٣م) . وسنعود فيما بعد إلى التحدث عن قيام هذه الجماعات الحربية الدينية فى إسبانيا .

وفى العام التالى ، أى فى سنة ١١٣٤ م (٥٢٨ هـ) نشبت موقعة إفراغة بين المرابطين وألفونسو المحارب ، تحت أسوار إفراغة ، وشاء القدر أن يسحق فيها النصارى ، وأن يموت المحارب بعد وقوعها بأيام قلائل ، وترتب على ذلك ما سبق أن فصلناه من انقسام مملكة أراجون الكبرى ، عقب ارتقاء الراهب راميرو عرش أراجون ، وعودة ناڤارا ، إلى استقلالها القديم ، ثم ماحدث بعد ذلك من زواج برنجير الرابع أمير قطلونية من الأميرة الطفلة بترونيلا إبنة راميرو ، وانضمام مملكة أراجون إلى قطلونية ، بعد أن تنازل عن عرشها راميرو ، وارتد إلى عزلة الدير ، وقيام مملكة قطلونية وأراجون المتحدة بموافقة ملك قشتالة وتأييدها وماكان يحدو ذلك المشروع من عوامل الانسجام والنجاح ، وذلك كله فى سنة ١١٣٧م .

٣ ـ غزوات القيصر ألفونسو ريموندیس وحروبه

أخذت مملكة قشتالة فى عهد ملكها الفتى ألفونسو ريموندیس أو ألفونسو السابع ، تجوز عهداً من القوة والسلطان ، كذلك الذى عرفته فى عهد جده ألفونسو السادس . وكان ملك قشتالة ، مذ صفا له الجو ، ووضع على رأسه تاج الإمبراطور ، يتطلع إلى إخماد كل نزعة إلى الخروج على سلطانه ، وكان هذا موقف ناڤارا والبرتغال ، حيث كانت كلتاهما تحرص على استقلالها ، وتعرض عن كل اعتراف بسلطانه . وكانت البرتغال بالأخص ، وهى المملكة التى نشأت إمارة متواضعة ، فى ظل قشتالة ، وتحت حمايتها ، ثم أخذت بمساعى خالته تريسا ، فى تحدى قشتالة ، والإغارة على أراضيها ، وتوسيع رقعتها شيئاً فشيئاً . وكان ألفونسو هنريكيز ملك البرتغال وهو ابن تريسا ، كأمه فى تحدى سلطان قشتالة ، وفى الحرص على استقلال مملكته . وكان مما يشغل ألفونسو ريموندیس ، اتصال ملك البرتغال بالثوار الحلالقة ، واعتداؤه بمعاونتهم على بعض أراضى جليقية . وقد وقع بالفعل حادث من هذا النوع فى أوائل سنة ١١٣٧ م ، حينما ثار اثنان من أشراف جليقية ، هما جومث نونيو ، وردريجو بيريث فيوزو ، وكانا يحكمان « توى » فسلماها إلى ملك البرتغال ، وتمكن ملك البرتغال فضلا عن ذلك من



الممالك الإسبانية النصرانية
في عصر القيصر الفونسو ريموندس
(الموافق لعصر الخليفة عبد المؤمن)

السيطرة على مناطق جليقية الجنوبية ، فعندئذ تأهب ألفونسو ريموندیس لغزو البرتغال ووضع حد لعدوان ملكها ، ولكن حدث فى نفس الوقت الذى تمت فيه أهبة الغزو ، واجتمع القادة والزعماء ومنهم المطران خلمريث حول ملك قشتالة ، أن وقعت مفاوضات سريعة بين الملكين ، انتهت فجأة بعقد الصلح بينهما ، وتعهد ألفونسو هنريكيز فى هذا الصلح أن يكون صديقاً مخلصاً للقيصر ، وأن يحترم أراضى الإمبراطورية ، وأن يعاون القيصر فى غزواته سواء ضد المسلمين أو النصارى ، وأبرم هذا الاتفاق فى مدينة توى فى يوليه سنة ١١٣٧م ، وكان واضحاً من نصوصه أن البرتغال أضحت تحت حماية قشتالة . ويمكننا أن نفسر خضوع ملك البرتغال على هذا النحو الفجائى ، بما كان يعانيه يومئذ من اشتداد ضغط المسلمين على أراضيه ، وتوالى غزواتهم المخربة فيها . بيد أن ألفونسو هنريكيز لم يكن ينظر إلى ذلك الصلح ، إلا على اعتبار أنه ضرورة موقتة ، أملتها الظروف القاهرة ، وأنه سوف ينقضه عاجلا أو آجلا .

وعندئذ اتجه ألفونسو ريموندیس إلى غزو الأندلس ، فسار فى قواته إلى منطقة جيان وبياسة وأبدة وأندوجر ، وهو يعيث فيها تخريباً وقتلا وسبياً ونهباً . ولم يلق النصارى من المرابطين مقاومة شديدة فى البداية ، ولكن حدث أن فرقة من النصارى عبرت نهر الوادى الكبير لتتابع النهب والسبى ، ولكنها لم تستطع العود إلى اقتحام النهر لهطل الأمطار الغزيرة ، وفيضان الماء ، ففتك بها الجند المرابطون وأبادوها جميعاً أمام أعين الإمبراطور وجنده (سنة ١١٣٨ م) ، فارتد القيصر إلى طليطلة وهو يضطرم سخطاً . وحاول بعد ذلك بقليل أن ينتقم لهذا الحادث بمحاصرة قورية ، فدافع عنها المسلمون أشد دفاع ، وكان فشلا آخر حز فى نفس الإمبراطور[1] .

وفى العام التالى ، خرج ألفونسو لغزو حصن أورليا أو أوريخا Oreja وهو الذى تسميه الرواية العربية بحصن « أرنبة » على مقربة من طليطلة ، وكان أمنع الحصون الإسلامية فى منطقة الحدود . فهرعت القوات المرابطية من قرطبة ومن مرسية وإشبيلية لإنجاده بقيادة الأمير يحيى بن غانية ، وكان ألفونسو ريموندیس يرابط بقواته إزاء الحصن المحصور ، فى انتظار القوات الإسلامية ، وكانت زوجه الملكة برنجيلا تشرف فى غيابه على الحامية الموكلة بالدفاع عن طليطلة .

(١) Lafuente: ibid ; T. III. p. 287

فحدث ، حسبما تقص علينا الرواية النصرانية ، أن الجنود المرابطية حينما وصلت فى طريقها إلى ظاهر طليطلة ، أن أطلت عليها الملكة برنجيلا ووصيفاتها من شرفة القصر ، وبعثت إلى ابن غانية رسولا ، يؤنبه بلسانها على أنه يحاول أن يهاجم مكاناً تدافع عنه امرأة ، فى حين أن القوات القشتالية تنتظره بقيادة الإمبراطور عند حصن أوريخا ، فارتد القواد المسلمون أمام هذا التأنيب ، ولم يقوموا بأية محاولة لإزعاج القشتاليين ، وسقط حصن أوريخا فى يد الإمبراطور بالأمان ، وذلك كله حسبما فصلناه من قبل فى موضعه . ولم تشر الرواية الإسلامية إلى هذا الحادث الذى يتسم بالفروسية ، بيد أنها تضع حصار حصن أوريخا وسقوطه فى سنة ٥٢٥ هـ (١١٣٠ م) ، بينما تصنعه الرواية النصرانية ، فى سنة ١١٣٧م ، أو سنة ١١٣٩ م[1] .

وكانت الخطوة التالية تفاهم ألفونسو ريمونديس وصهره رامون برنجير الرابع أمير قطلونية وأراجون ، على الإيقاع بمملكة ناڤارا . وعقد الملكان اتفاقا بهذا الشأن فى كريون ، يقضى بتحالفهما على محاربة غرسية راميريس ، واقتسام أراضى ناڤارا ، وأن يختص ملك قشتالة بولاية ريوخا وكل الأراضى الواقعة شرقى نهر إيبرو ، وهى التى كان يملكها جده ألفونسو السادس ، وأن يستولى أمير قطلونية على سائر أراضى أراجون ، التى كان يملكها سانشو وپيدرو ملكا أراجون من قبل . أما منطقة بنبلونة فإن القيصر يستولى على ثلثها ، ويستولى رامون برنجير على باقيها مع اعترافه بسيادة قشتالة على هذا الجزء ، على نحو ما كان عليه الشأن أيام ألفونسو السادس . وتنفيذاً لهذا الاتفاق زحف الكونت رامون بقواته على ناڤارا من ناحيتها الجنوبية ، وزحف عليها القيصر فى قواته من ناحية الشمال الغربى ، ولكن غرسية راميريس ملك ناڤارا استطاع فى كثير من الشجاعة والبراعة ، أن يرد القوات الأرجونية ، أما القوات القشتالية فقد استطاعت أن تخترق ناڤارا ، وأن تطوق عاصمتها بنبلونة ، واكتفى غرسية راميريس بأن يلتزم خطة الدفاع ، حتى يطيل أمد المعركة وينهك قوى خصومه . وكان غرسية راميريس أعقل من أن يغامر بالدخول فى معارك حاسمة مع القوات القشتالية ، فلجأ إلى رجال الدين فى طلب الإنجاد بالمفاوضة وعقد الصلح ، وعاون فى اتخاذ

---

(١) Lafuente : ibid; T. III. p. 228 - Ibars: Valencia Arabe p. 482 - 484
وراجع ما سبق أن أوردناه عن هذا الحادث (ص ١٥١ من هذا الكتاب)

هذه الخطوة الكونت چوردان أمير تولوشه ، الذى جاء حاجاً إلى شنت ياقب . وعقدت معاهدة الصلح بين غرسية راميريس والإمبراطور فى قلهُرّة فى أكتوبر سنة ١١٤٠ م ، وهى تقضى بأن يعترف ملك ناڤارا بسيادة الإمبراطور ، وأن تتزوج الأميرة بلانكا إبنة غرسية من الأمير سانشو ولد الإمبراطور الكبير ، وأن تُسلم نظراً لصغرها إلى الإمبراطور ، حتى تربى وتكبر فى بلاط قشتالة . وهكذا أنقذت ناڤارا إلى حين .

غير أن هذا التصرف لم يرق الكونت رامون ، وسخط الشعب الأرجونى على الإمبراطور لأنه لم يحسب حسابا لاتفاق كريون . ومن ثم فقد عول الكونت أن يعمل لحساب نفسه ، وأن يشهر الحرب وحده على ناڤارا بقوات أراجون وقطلونية . واضطرمت الحرب ضد ناڤارا من جديد . ولكن غرسية هزم الأرجونيين ، وتوغل فى أراضى أراجون ، واستولى على عدة من البلاد والحصون ، وأخذ يفكر فى خلع طاعته للإمبراطور . وعندئذ خشى ألفونسو ريمونديس عاقبة هذا الظفر الذى أحرزه غرسية ، وسار فى قواته لإنجاد الكونت رامون ، وزحفت القوات المشتركة على ناڤارا كرة أخرى (سنة ١١٤٣ م) . وهنا تذرع غرسية بالحكمة ، وبادر بالإذعان والتسليم ، وأخلى سائر الأماكن التى انتزعها من أراجون ، وعقد الصلح بين الفريقين من جديد ، واتفق أن يتزوج غرسية ، الذى توفيت زوجته منذ أعوام ، بالأميرة أوراكا ابنة القيصر غير الشرعية ، وعقد هذا الزواج الملكى بالفعل فى مدينة ليون فى يونيه سنة ١١٤٤ م فى حفلات باذخة ، اشتهرت بين أحداث هذا العصر ، ووضع بذلك حد للنزاع بين ناڤارا وجارتيها أراجون وقشتالة .

وفى خلال ذلك كانت قشتالة تتابع كفاحها ضد المسلمين ، وذلك سواء بالعمل على صد غزواتهم ، والقيام فى أراضيهم بغزوات مماثلة ، أو محاولة انتزاع ما يمكن انتزاعه من قواعد الحدود . وكان المرابطون قد استولوا على قلعة « مورة » المنيعة الواقعة جنوبى طليطلة ، وذلك فى سنة ١١٤٠ م ، واتخذوها قاعدة للإغارة على أراضى قشتالة المجاورة ، فحشد ألفونسو ريموندیس جيشاً ضخماً ، وبعث حاكم طليطلة ردريجو فرنانديث على رأس بعض قواته إلى منطقة وادى يانة « فعاثت فى أحواز قرطبة وإشبيلية . وسار الإمبراطور بنفسه فى حملة أخرى إلى قلعة قورية ، وحاصرها مدى شهرين حتى سقطت فى يده فى يونيه سنة

١١٤٢م (٥٣٦ هـ) وذلك بعد أن يئست حاميتها المسلمة من تلقى أية نجدة .

وتقص علينا الرواية النصرانية ، قصة غزوة قام بها القشتاليون بقيادة نونيو ألفونسو حاكم مورة السابق ، فى الأراضى الإسلامية ، وأسفرت المعركة التى نشبت بين القشتاليين وبين قوات إشبيلية وقرطبة ، عن هزيمة المسلمين هزيمة ساحقة ، ومصرع والى إشبيلية وقرطبة ، ورُفع رأساهما فى طليطلة على رمحين ، واستولى القشتاليون على كثير من الغنائم والأسرى ، وذلك فى أواخر سنة ١١٤٢م (٥٣٧هـ) . ولم نجد فى المراجع الإسلامية أى ذكر لمثل هذه الموقعة . وكذلك لم نجد بها أى ذكر لما تقصه الرواية النصرانية بعد ذلك من أن القيصر أرسل فى العام التالى أعنى فى سنة ١١٤٣ (٥٢٨ هـ) حملة جديدة بقيادة مارتن فرنانديث ونونيو ألفونسو ، لتحول دون قيام المسلمين بتحصين قلعة مورة ، فخرج والى قلعة رباح فى قواته — وتسميه الرواية النصرانيةفرج — واشتبك مع القشتاليين فى معركة هزم فيها القشتاليون ، وفر مارتن فرنانديث جريحاً ، وقتل نونيو فوق تل قريب يسمى « صخرة الوعل » مدافعاً عن نفسه ، فاحتز رأسه ، وقطعت ذراعه اليمنى ، ورجله اليمنى ، وأرسلتا إلى قرطبة وإشبيلية ، لتعرضا على أرملتى الواليين القتيلين تعزية لهما ، ثم أرسلت بعد ذلك إلى أمير المسلمين تاشفين بن على بمراكش[1] .

فأثارت هذه الهزيمة فى نفس الإمبراطور أيما ألم وسخط ، وأقسم بالانتقام لمصرع قائده ، فخرج فى العام التالى (١١٤٤ م) فى قواته إلى أراضى الأندلس ؛ وأثخن فى أحواز قرطبة وإشبيلية ، وانتسف الزروع وأحرق القرى ، ووصل فى سيره المخرب حتى أراضى غرناطة ، وألمرية ، ثم عاد إلى بلاده ، مثقلا بالغنائم والأسرى .

ثم كانت ثورة القواعد الأندلسية على المرابطين ، وكان من الواضح أن هذه الغزوات النصرانية المخربة ، وما يقترن بها من القتل والسبى والنهب ، وعجز المرابطين عن ردها ، كانت من العوامل التى أذكت سخط الأمة الأندلسية على المرابطين ، ورغبتها فى التخلص من نيرهم ، وقد رأينا كيف استغل القيصر ألفونسو ريموندیس هذه الفرصة السانحة ، فى بسط عونه لمن لجأ إليه من الثوار الأندلسيين

---

(١) تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين لأشباخ ص ١٨٣ و ١٨٤ وكذلك :
Lafuente : ibid, T. III. p. 291

أمثال ابن حمدين ، وابن هود ، ثم قدم عونه لزعيم المرابطين ابن غانية ، حينا علم بعبور الموحدين إلى الأندلس ، وعاونه على الاحتفاظ بسلطانه على قرطبة ، ووصل الأمر بعد ذلك إلى أن احتل القيصر عاصمة الخلافة القديمة لأمد قصير ، وذلك كله حسبما فصلناه من قبل فى موضعه .

وكانت أعظم ضربة نزلت بالأندلس يومئذ ، واشترك فيها القيصر ألفونسو ريموندیس ، افتتاح ثغر ألمرية العظيم، على يد الحملة الصليبية البرية والبحرية التى اشتركت فى تجهيزها ممالك اسبانيا النصرانية ، قشتالة وناڤارا وأراجون ومعها چنوة وبيزة ، ونجحت خلال الاضطراب العام الذى أصاب الأندلس يومئذ ، فى الاستيلاء على ألمرية ، وذلك فى شهر أكتوبر سنة ١١٤٧ م (٥٤٢ هـ) ، وقد بقى الثغر الإسلامى فى أيدى النصارى عشرة أعوام كاملة ، وكانت للقيصر وحاميته القشتالية فيه اليد العليا ، حتى افتتحه الموحدون فى أواخر سنة ١١٥٧ م .

ونكبت الأندلس فى نفس الوقت بفقد قواعدها الباقية فى الثغر الأعلى . واستولت عليها كذلك حملة صليبية من جنود قطلونية وأراجون وبيزة وچنوة بقيادة الكونت رامون برنجير الرابع أمير برشلونة ، فاستولت أولا على ثغر طرطوشة، وذلك فى آخر سنة ١١٤٨م (شعبان ٥٤٣هـ) ، ثم استولت على مدينة لاردة فى أكتوبر من العام التالى (٥٤٤ هـ) ، واستولت كذلك ، على إفراغة ، ومكناسة وبذلك انتهت سيادة المسلمين فى الثغر الأعلى ، وقد سبق أن تناولنا هذه الحوادث كلها تفصيلا .

وانتهز غرسية رامیریس ملك ناڤارا فرصة انشغال خصمه القديم الكونت رامون بافتتاح قواعد الثغر الأعلى ، فغزا ولايات أراجون المجاورة . وتفسر لنا الرواية النصرانية سر هذا العدوان بقولها إن غرسية كان يرمى إلى إرغام الكونت على أن يتزوج من ابنته بلانكا ، وأن يجعل ذلك شرطاً لعقد السلام بين أراجون وناڤارا ، وذلك بالرغم من أن دونيا بلانكا كان قد تقرر زواجها من سانشو ولى عهد قشتالة ، وأن الكونت رامون كان قد عقد زواجه التمهيدى بالأميرة الطفلة بترونيلا ابنة الملك الراهب راميرو ، وقد اضطر الكونت رامون أن يشترى سلام بلاده بالخضوع لهذه الرغبة ، وأن يتعهد فى معاهدة الصلح التى عقدت بأن يتزوج من إبنة ملك ناڤارا (يوليه سنة ١١٤٩) . بيد أنه ما كاد يشعر بانقشاع الخطر عن أراجون ، حتى هرع إلى الكنيسة يجثو أمام هيكلها مع عروسه

بترونيلا ، يجدد العهد بارتباطه معها برباط الزواج المقدس . وتصف الرواية القطلونية هذا التصرف بأنه عمل فريد من الختل والخديعة يذكر فى حياة الكونت.

وشغل القيصر ألفونسو ريموندِيس ، أو ألفونسو السابع ، فى ذلك الوقت بحادثين داخليين ، أولهما عقد المؤتمر الكهنوتى فى بالنسيا فى سنة ١١٤٨ م ، ليعنى ببحث المسائل الدينية والكنسية ، وثانيهما وفاة زوجه الملكة برنجيلا ، فى سنة ١١٤٩ م . وكانت وفاة هذه الملكة الموهوبة الحازمة ضربة أليمة للقيصر أثارت فى نفسه أيما حزن وشجن . وكان القيصر منذ حين قد فوض لولديه سانشو الذى خصه بلقب ملك قشتالة ، وفرناندو الذى خصه بلقب ملك ليون ، توقيع الأوامر والمراسيم العامة ، متشبهاً فى ذلك بجديه ألفونسو السادس ، وسانشو الكبير ، فى تقسيم كل منهما المملكة بين أولاده ، حال حياته ، ثم بعد مماته ، وهى السياسة التى كانت تنتهى دائماً باضطرام الحرب الأهلية بين الممالك النصرانية .

وفى سنة ١١٥٠ م توفى غرسية راميريس ملك ناڤارا ، وخلفه ولده سانشو الملقب بالعالم ، فرأى القيصر فى ذلك فرصة جديدة للإيقاع بناڤارا ، وفى الحال اجتمع بحليفه القديم الكونت رامون برنجير فى تطيلة ، وجددت بينهما معاهدة التقسيم التى عقدت من قبل فى كريون ، ولم يكتف الملكان بالاتفاق على تقسيم ناڤارا ، ولكنهما اتفقا فى نفس الوقت على تقسيم القواعد والأراضى الإسلامية التى لم تفتح بعد ، فاختص منها ملك أراجون بكل أراضى بلنسية ، ومرسية ، وتعهد دون سانشو ولد القيصر ، أن يعاون الكونت فى افتتاح ناڤارا ، وتعهد الكونت من جانبه بأنه فى حالة موت القيصر ، يعترف بكل ما يحكمه سانشو ، وإذا توفى الأب والابن ، فإنه يعترف لأخيه فرناندو بسيادته على أراضى المملكة .

بيد أن تطور الحوادث قضى بنجاة ناڤارا من هذه المؤامرة إلى حين . ذلك أنه قد تم زواج دونيا بلانكا أخت ملك ناڤارا بالدون سانشو ملك قشتالة فى العام التالى (١١٥١ م) ، واحتفل بعقده بمدينة قلهرّة بحضور الملوك الثلاثة ، ملوك قشتالة وأراجون وناڤارا . وفى نفس العام عقد زواج القيصر الأرمل ألفونسو ريموندِيس من الأميرة ريكا إبنة لادسلاو ملك بولونيا ، وقدمت إلى قشتالة فى العام التالى ، واستقبلها زوجها القيصر فى بلد الوليد فى مظاهر واحتفالات باذخة .

وتم زواج سانشو ملك ناڤارا من دونيا سانشا ابنة القيصر من زوجه الملكة برنجيلا (سنة ١١٥٣) . وفى العام التالى تزوجت ابنة القيصر الثانية ، دونيا

كونستنزا من لويس السابع ملك فرنسا ، وكان قد طلق زوجه الأولى إليونور دى جيان . وحدث بعد عقد هذا الزواج أن ثارت بعض الريب حول أرومة الملكة كنستنزا ، وقيل بأنها ليست ابنة شرعية للقيصر من زوجه الملكة برنجيلا ، وأنها بالعكس ابنة غير شرعية من خليلته كوندرادا . ورأى الملك لويس أن يتحقق بنفسه من الأمر ، فسافر إلى اسبانيا محتجاً بزيارة قبر القديس ياقب فى شنت ياقب (سنة ١١٥٥ م) . ولم يكن القيصر يجهل السبب الحقيقى لمقدم صهره ، فرتب لاستقباله فى برغش ، ثم فى طليطلة حفلات باذخة ، ظهر فيها البلاط القشتالى فى أفخم مظاهره وأروعها ، وحضرها ملك ناقارا ، والكونت رامون برنجير ملك أراجون ، وأثار القيصر أمام الملوك مسألة ابنته كونستنزا ، وخاطب لويس بقوله : لقد زوجتك ابنتى كونستنزا إبنة الملكة برنجيلا أخت هذا الأمير الكونت رامون . والتفت رامون إلى لويس قائلا : أجل إن زوجتك هى ابنة أختى ، فعاملها بالاحترام والتكريم ، والا فانتظر مقدمى فى باريس مع القيصر كعدوين . وعندئذ اقتنع لويس بأصل زوجته الملكى الرفيع ، وعاد إلى بلاده مغتبطاً راضياً[1] .

وكان الكونت رامون برنجير ، قد عقد فى نفس الوقت زواجه الفعلى بالأميرة بترونيلا الأرجونية ، وكانت قد بلغت عندئذ الثامنة عشرة من عمرها ، ولما شعرت هذه الأميرة باقتراب وضعها الأول ، عملت وصية مفادها ، أنه إذا كان المولود ذكراً ، فإنه يرث مملكة أراجون على نحو ماكانت عليه فى عهد ألفونسو المحارب ، وأن يكون لزوجها الكونت رامون إدارة المملكة خلال حياته ، وإذا مات الولد ، وبقى الكونت حيا ، فإنه يغدو الملك المطلق للمملكة كلها . أما إذا كان المولود أنثى ، فكل ما ترغبه بشأنها هو أن يعنى والدها بأن يزوجها وأن يمهرها بسخاء . وبعد ذلك وضعت الأميرة ولداً سمى رامون طول حياة والده ، ثم غير اسمه بعد وفاته ، إلى ألفونسو ، فكان هو وارث المملكتين قطلونية وأراجون .

ولم يمض قليل على ذلك حتى شهر سانشو ملك ناقارا الحديد الحرب على أراجون يبغى تحقيق أطماع والده غرسية راميريس ، واضطر الكونت رامون ،

---

(١) تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين لأشباخ ص ٢٣٣ و ٢٣٤ وكذلك :
Lafuente : ibid; T. III. p. 278

أن يعود مسرعاً من غزوة كان يقوم بها فى بيارن ، فيما وراء البرنيه ، وعندئذ سار القيصر ألفونسو ريمونديس إلى لاردة ، وذلك ليقوم بالتدخل بين الملكين المتحاربين فى الظاهر ، ولكنه اجتمع بالكونت رامون ، وجدد معه الاتفاق القديم على تقسيم نافارا ، ولم تمنعه وشائج المصاهرة الوثيقة بينه وبين ملك نافارا زوج ابنته ، وأخ زوجة ولده سانشو ، من الائتمار به على هذا النحو ، وتم الاتفاق فى الوقت نفسه بين القيصر والكونت على تزويج دون رامون الصغير ولد الكونت ، وكان فى الرابعة من عمره ، من دونيا سانشا ابنة القيصر من زوجه الجديدة الملكة ريكا ، وكانت فى الثانية من عمرها .

٤ — أعوام القيصر الأخيرة ووفاته

وفاة رامون برنجير الرابع

ومما هو جدير بالذكر ، أن هذه الفترة من الحفلات والزيجات الملوكية المتوالية ، قد عاقت عاهل قشتالة فترة قصيرة ، عن متابعة غزواته لأراضى الأندلس ، فهو مذ قام فى سنة ١١٥١ م (٥٤٦ ﻫ) بغزوته لمدينة جيان ونهبها ، وقد كانت يومئذ بأيدى الموحدين ، لم يعد إلى مهاجمة الأندلس إلا فى سنة ١١٥٥م (٥٥٠ ﻫ) ، وذلك حينما نجح فى الاستيلاء على أندوجر وحصن البطروج ، واحتلتهما القوات القشتالية لفترة يسيرة ، ثم عاد الموحدون بقيادة ابن يكيت والى قرطبة ، فاستردوهما ، واستولوا على بعض الحصون النصرانية المجاورة ، وذلك حسبما أشرنا إلى ذلك من قبل فى موضعه .

وكانت آخر المعارك الخطيرة التى خاضها القيصر مع الموحدين ، هى معركة ألمرية . وكان الموحدون بعد استيلائهم على قرطبة وغرناطة ، قد وضعوا خطتهم لاسترداد ألمرية ، التى افتتحها النصارى منذ سنة ١١٤٧م ، (٥٤٢ ﻫ) . وقد سبق أن فصلنا حوادث افتتاح النصارى لهذا الثغر الإسلامى العظيم ، ثم حوادث استرداده على أيدى الموحدين . وكان القيصر ألفونسو ريمونديس قد سار لإنجاد حاميته النصرانية فى جيش كثيف ، وسار معه حليفه محمد بن سعد بن مردنيش أمير شرقى الأندلس فى قواته ، ولكن جهود القيصر وحليفه المسلم ذهبت عبثاً ، واضطر النصارى إلى تسليم ألمرية إلى الموحدين ، بعد حصار دام سبعة أشهر ، وذلك فى أواخر سنة ١١٥٧ م (أواخر سنة ٥٥٢ ﻫ) . وارتد القيصر فى قواته

إلى بلاده ، وقد حطم هذا الفشل الأخير قواه المعنوية . وفى طريق العودة أصابته حمى شديدة ، فاضطر إلى التوقف فى مكان بالقرب من بلدة مورتلة (موردال) ، وهنالك تلقى القداس ، وأسلم الروح ، وذلك فى ٢١ أغسطس سنة ١١٥٧ م ، وهو فى سن الحادية والخمسين .

وكان القيصر ألفونسو ريمونديس ، أو ألفونسو السابع ، أو ألفونسو الثامن إذا اعتبرنا أن ألفونسو المحارب ملك أراجون، كان أيضاً وقت زواجه بالملكة أوراكا ملكاً لقشتالة ، من أعظم ملوك اسبانيا النصرانية ، وكان هو أول ذلك الثبت الحافل من ملوك قشتالة ، الذين ينتمون إلى الأسرة البرجونية الملوكية ، والذين حكموا قشتالة حتى القرن الخامس عشر. وكان يتسم بكثير من الحزم والقوة ، وقد أمدته التجارب القاسية التى شهدها خلال صباه ، أيام الخصومات والحروب الأهلية التى اضطرمت بين أمه أوراكا وزوجها ألفونسو المحارب من جهة ، وبين أمه وبين الأشراف الخوارج من جهة أخرى ، بكثير من الخبرة والمقدرة على معالجة شئون الملك ، والذود عن العرش ، ومن ثم فقد استطاع أن يقمع ثورات الأشراف الخارجين ، وأن يحد من سلطانهم ونزعاتهم الثورية ، واستطاع منذ وفاة ألفونسو المحارب أن يحتل مركز السيادة والصدارة بين ملوك اسبانيا النصرانية . وقد رأينا كيف كان ألفونسو ريمونديس يعلق ، على صفة الإمبراطورية نتائج ضخمة ، وبالرغم من أن هذه الصفة لم يكن لها بالنسبة لباقى ممالك اسبانيا النصرانية سوى طابع أدبى ، فإنه كان يحرص على سلطانه كإمبراطور ، وكان (وفقاً لقول النقد الإسبانى) « يحلم بإمبراطورية حقيقية ، تشتمل على كل إمكانيات التوسع الإسبانى ، وكل العوامل التاريخية للوطن الإسبانى ، وتمتد جذورها إلى تراث العالم الرومانى ، وإلى وحدة العرش القوطى ، وكان منذ اتشح بالثوب الإمبراطورى فى سنة ١١٣٥م ، يسير وفق برنامج مدروس راسخ ، وكان هذا البرنامج يقوم على شقين ، الأول الإصلاح الداخلى فى الناحيتين الإدارية والقضائية ، والثانى ، وهو ناحية السياسة الخارجية يقوم على المحافظة على سمعة الإمبراطورية ، بكافة الوسائل السلمية والعسكرية » .

« وغاية هذا البرنامج النهائية ، هو الهجوم العام على الإسلام ، وكان الاندفاع نحو فتوح الاسترداد Reconquista يستمد قوته من مصادر كثيرة ، من نفس النظرية الإمبراطورية ، ومن توحيد مختلف الأراضى والجهود ،

والخلاف القائم بين المسلمين فى شبه الجزيرة ، وضرورة حماية هيبة الإمبراطورية ومكانتها إزاء البابوية والعالم الخارجى ، كل ذلك كان يخلق اندفاعاً قوياً ومستمراً ، يضع الإسلام فى شبه الجزيرة فى موقف من أدق مواقفه . وقد أكد ألفونسو السابع نيته فى متابعة هذه الحرب المستمرة على الإسلام ، عقب التتويج الإمبراطورى مباشرة ، فى إخطاره لأهل مملكته ولسكان الحدود ، بأن يشهروا الحرب على المسلمين فى كل سنة ، وأن يزعجوهم بلا هوادة، وألا يفروا بلادهم أوحصونهم ،وأن ينتزعوا منهم كل شىء فى سبيل الله، ومن أجل الدين المسيحى»[1].

وتشيد الرواية النصرانية بخلال ألفونسو ريموندیس ، وتقول لنا إنه من القلائل من ملوك اسبانيا النصرانية ، الذين يستحقون صفة القيصر بجدارة ، وتشيد كذلك بفروسته وشجاعته وعدله وتقواه ، ورعايته للكنائس والأديار . بيد أنه ليس من ريب فى أن ألفونسو ريموندیس كان ملكاً جشعاً ، وافر الأطماع ، وكان لا يفرق فى تحقيق أطماعه بين الوسائل المشروعة، وغير المشروعة ، وقد رأينا موقفه من مملكة ناڤارا الصغيرة الشجاعة الأبية ، وكيف أن وشائج القربى والمصاهرة لم تمنعه من الائتمار باستقلالها غير مرة . أما سياسة ألفونسو ريموندیس نحو الأندلس المسلمة ، وهى السياسة التى صورها لنا النقد الإسبانى فيما تقدم، فلم تكن تختلف فى شىء عن سياسة أسلافه : سياسة التربص والغدر والعدوان المستمر ، وسياسة الضرب والتفريق بين المتوثبين والمتخاذلين من زعمائها ، وانتهاز الفرص للإيقاع بها ، وانتزاع أراضيها بكل الوسائل . والواقع أن الجيوش القشتالية أيام ألفونسو ريموندیس لم تترك للمسلمين فى شبه الجزيرة أية هدنة . ففى سنة ١١٣٣م ، قام ألفونسو بغزوته الكبرى خلال الأندلس ، ووصل فى زحفه إلى شريش وأرض الفرنتيرة ، ولم تستطع الجيوش المرابطية أن تقف فى سبيله . وهو مذ تقلد التاج الإمبراطورى فى سنة ١١٣٥ ، دائب الغزو لأراضى الأندلس ، فإذا لم تكن ثمة غزوة كبيرة ، فقد كانت ثمة غارات مخربة على الحدود . وفى سنة ١١٣٩ افتتح حصن أوريخا (أرنبة) . وفى سنة ١١٤٢، افتتح قورية . وفى سنة ١١٤٦ ، دخل قرطبة استجابة لدعوة ابن حمدين ،

---

(١) وردت هذه الملاحظات ، ضمن تصوير لعهد ألفونسو السابع ، قدم به الأستاذ العميد S. Montero Diaz لمحاضرته **La Orden de Calatrava y su perspectiva universal** المنشورة فى كتاب : **La Orden de Caltarava (Cuidad Real 1959) p. 8**

ثم ندب لحكمها ابن غانية . وفى سنة ١١٤٧ استولى على قلعة رباح ، واشترك مع الجيوش النصرانية الأخرى فى الاستيلاء على ألمرية ، وهكذا استمر الصراع على أشده بين الجيوش القشتالية الغازية والجيوش المسلمة ، مرابطية أوغيرها ، طوال أيام ألفونسو السابع .

ويعرف ألفونسو ريمونديس فى الرواية الإسلامية بألفنش بن رمند أى ألفونسو بن ريموند وهو اسم أبيه الكونت ريموند البرجونى ، ويعرف كذلك بالسليطين أى الملك الصغير لأنه حكم منذ طفولته .

وحكم الكونت رامون برنجير الرابع بضعة أعوام أخرى ، وشغل فى الأعوام الأخيرة من حكمه بمنازعات ومعارك مختلفة فيما وراء البرنيه ، فى ولاية بروڤانص ، وهى التى كان يحكمها أخوه الكونت برنجير رامون ، حتى نازعه فيها بعض الأمراء المحليين ، وقتل مدافعاً عن ولايته . وقد نجح الكونت يومئذ فى إرغام أشراف بروڤانص على الاعتراف بطاعته وتلقب بلقب كونت دى بروڤانص مضافاً إلى ألقابه . ولكن بعض الأمراء المحليين عادوا فأثاروا الاضطراب فى بروڤانص ، منضوين تحت حماية القيصر فردريك الأول امبراطور ألمانيا . وأخيراً تحول القيصر إلى مناصرة الكونت رامون ، ومنحه عهد الجزية على بروڤانص وعلى عاصمتها آرل ، كما كان الأمر من قبل . ثم سافر الكونت رامون وابن أخيه برنجير إلى تورينو حيث كان يقيم القيصر ، ليتلقيا منه عهد الجزية ، فمرض الكونت وتوفى خلال الطريق ، وذلك فى السادس من أغسطس سنة ١١٦٢ م .

وكان رامون برنجير الرابع ، من أعظم أمراء اسبانيا النصرانية فى ذلك العصر ، الذى تعددت فيه الممالك الإسبانية ، ومن أوفرهم ذكاء وعزماً ومقدرة . وفى وسعنا أن نعتبره مؤسس عظمة مملكة أراجون الحقيقى . وكان سبيله إلى ذلك إدماج قطلونية وأراجون فى مملكة قوية موحدة ، وكان حكمه يتسم بالقوة والحكمة والعدل ، وقد استطاع بسياسته المستنيرة أن يتقى كثيراً من الحروب والمنازعات ، وأن يحافظ على سلام مملكته ورخائها . بيد أنه كان كسائر أقرانه ملوك اسبانيا النصرانية يضطرم تعصبا ضد المسلمين ، ولايدخر جهدا فى محاربتهم ، وقد استطاع أن ينتزع آخر القواعد الإسلامية فى الثغر الأعلى ، وأن يقضى بذلك نهائياً على سلطان المسلمين ، فى هذا الركن من اسبانيا .

٥ — قشتالة بعد وفاة ألفونسو ريمونديس
والحرب الأهلية بين أسرتى كاسترو ولارا

لما توفى القيصر ألفونسو ريمونديس فى أغسطس سنة ١١٥٧ م ، قسمت مملكته بين ولديه ، وذلك وفقاً للنظام الذى وضعه فى أواخر حياته ، فاختص ولده سانشو الثالث بعرش قشتالة والأراضى التابعة لها فى أعالى التاجُه ، وعاصمتها طليطلة ، مع حق الجزية على مملكتى ناڤارا وأراجون . واختص ولده الصغير فرناندو بمملكة ليون وجليقية وأشتوريش ، مع حق السيادة على مملكة البرتغال ، وبهذا التقسيم الجديد لمملكة قشتالة الكبرى ، أصبحت الممالك الإسبانية النصرانية خمساً هى مملكة أراجون وقطلونية المتحدة ، وناڤارا ، وقشتالة ، وليون والبرتغال .

وكان هذا الوضع الجديد للممالك الإسبانية النصرانية نذيراً بتطور الحوادث ، وبانهيار سيادة قشتالة ، التى استطاع القيصر ألفونسو ريمونديس ، أن يفرضها على باقى الممالك الإسبانية ، وبدأت الأمور كالعادة بنشوب الحرب الأهلية بين الأخوين ، ملكى قشتالة وليون . وذلك أن فرناندو ملك ليون بدأ حكمه ، باضطهاد سائر الكبراء والأشراف المخلصين لقشتالة ، فجردهم من مناصبهم وأملاكهم ، وأخرجهم من مملكته اتقاء لمؤامراتهم ودسائسهم ، فالتجأ هؤلاء إلى أخيه سانشو ملك قشتالة ، فسار سانشو فى قواته ومعه الأشراف المبعدون ، وغزا ليون ، وأرغم أخاه على أن يرد المبعدين ، إلى مناصبهم ، وأن يرد إليهم أملاكهم ومكانتهم ، وأرغمه فوق ذلك على أن يعترف بسيادته وأن يؤدى له الجزية .

وفى خلال ذلك حاول سانشو ملك ناڤارا ، أن يرفع نير قشتالة عن مملكته ، وأن يسترد ولاية ريوخا القديمة ، ولكن سانشو الثالث بادر بإرسال حملة قوية إلى ناڤارا ، فخشى ملكها العاقبة ، وآثر أن يعقد الصلح على أن تبقى الأوضاع القديمة على حالها .

وكان سانشو الثالث يجيش بأطماع كثيرة ، وكان يطمح بالأخص إلى أن ينظم مع باقى الممالك الإسبانية حلفاً مشتركاً لمحاربة الموحدين ، الذين سيطروا على غرب الأندلس وأواسطها ، وأضحوا يهددون أرض قشتالة ، ولكن هذه

الآمال تحطمت كلها ، إذ توفى سانشو فجأة فى آخر أغسطس سنة ١١٥٨ ، بعد أن حكم عاما فقط ، ولم يترك لوراثة عرشه سوى طفل فى الثالثة من عمره ، هو ألفونسو الذى لقب فيما بعد بالنبيل ، واختار فى وصيته للولاية على ولده والقيام بمهام الحكم ، مؤدبه الكونت جوتيرو فرنانديث سليل أسرة كاسترو القوية ، وكان لهذا الاختيار أثره فى مجتمع الأشراف ، وفى اضطرام المنافسة بين أسرة كاسترو ، وخصيماتها من الأسر الشريفة ، وعلى رأسها أسرة لارا ، وقد كانت تضارع آل كاسترو ، قوة وعصبية ومحتداً .

سخطت أسرة لارا لما خصت به أسرة كاسترو من الوصاية على الملك الطفل ، وخشى الكونت جويترو عاقبة سخطها ووعيدها ، فعهد بتربية الملك الطفل إلى الكونت غرسية دى آنيا قريب آل لارا ، والمتصل بهم بأوثق الصلات ، وذلك كوسيلة لتجنب الخصام والمحافظة على السلم ، ولكن غرسية مالبث أن برم بهذه التبعة الثقيلة ، فسلم الطفل إلى الكونت ألمانريش كبير آل لارا ، فثار الكونت جوتيرو لهذا التصرف ، وأصر أن يعاد إليه الطفل ، وهدد بالحرب ، ولكنه لم يلبث أن توفى ، فتابع أبناء أخيه المطالبة ، وأصروا على استعادة الملك الطفل استناداً إلى الوصية الملكية ، فلما أصر آل لارا على موقفهم ، لجأ آل كاسترو إلى فرناندو ملك ليون ، عم الملك الطفل ، لكى يحمى ابن أخيه ، فسار ملك ليون فى الحال إلى قشتالة فى جيش ضخم ، واحتل معظم قواعدها ، وأعلن أنه يتولى الحكم والوصاية على ابن أخيه ، واعترف بطاعته معظم الشعب القشتالى (سنة ١١٥٩م) . واشتد فرناندو فى مطاردة آل لارا ، حتى أرغموا أخيراً على تسليم الملك الطفل . وعمد فرناندو بعد ذلك إلى اصطفاء آل كاسترو ، وتجريد آل لارا من أملاكهم ومناصبهم وألقابهم ، وترتب على ذلك أن ثارت بين الفريقين حرب دموية ، خربت فيها الضياع ، وأحرقت القرى ، وقاتل ملك ليون إلى جانب آل كاسترو ، حتى أرغمت أسرة لارا أخيراً على التسليم ، وأعلنوا أنهم يعودون إلى الطاعة ، وأنهم يقسمون بالتزامها إذا أعيد إليهم الطفل الملكى قبل ذلك . واتفق الفريقان على أن يجتمع لذلك الغرض مجلس فى بلدة « سُرية » يشهده آل لارا والملك فرناندو ، ومعه ابن أخيه الطفل . ولكن حدث خلال انعقاد هذا المجلس ، أن اختطف الطفل فارس جرىء من رجال آل لارا ، وسرعان ماعمد زعماء آل لارا وفى مقدمتهم الكونت ألمانريش إلى الفرار من

المجلس دون أن يقسموا يمين الطاعة ، وأدرك فرناندو ، بعد فوات الوقت، ما دبره خصومه من غدر وخديعة .

ووضع آل لارا الطفل الملكى فى قلعة إستبان دى جورمت المنيعة، وأذاعوا فى طول البلاد ، وعرضها أنهم يعملون على حماية الملك الطفل ، وحماية استقلال قشتالة من مطامع الملك فرناندو ، وانضم إليهم فريق كبير من أهل قشتالة . ومع ذلك فقد بقى التفوق إلى جانب فرناندو وأنصاره آل كاسترو ، وكان يؤيده بالأخص رجال الدين ، وعلى رأسهم مطران طليطلة . واستمرت هذه الحرب الأهلية بين الفريقين أعواماً ، وبذل فيها آل لارا جهوداً عنيفة ، وقتل زعيمهم الكونت ألمانريش فى إحدى المعارك . وكان وجود الملك الطفل فى أيديهم ، يساعدهم على حشد الأنصار والموارد . وأخيراً رجحت كفتهم على قوات ليون، واضطر الملك فرناندو ، إلى أن يطلب العون من خصميه القديمين ، ملك ناڤارا، وملك البرتغال . وكانت الأحوال خلال ذلك تتطور فى قشتالة ، وأخذ الشعب يتحول عن آل كاسترو وعن قضيتهم ، ويرى فى بقاء ملك ليون وجنوده خطراً على استقلال البلاد . ومن جهة أخرى ، فإن ملك ليون لم يحظ بالعون المنشود من محالفة البرتغال وناڤارا ، وزاد فى متاعبه أن قامت ثورة محلية فى أراضى استرامادوره ، وثارت مدينتا آبلة وشلمنقة على سلطانه ، وأخذ آل كاسترو فى نفس الوقت يفقدون هيبتهم ونفوذهم ، لما ارتكبوه من عسف ومظالم . وانتهزت أسرة لارا فرصة هذا التحول ، فسارت فى أنصارها إلى طليطلة عاصمة قشتالة ، واستولت عليها عنوة ، ونادت بقيام حكم الملك الطفل ألفونسو ، وكان قد بلغ عندئذ الحادية عشرة من عمره، ودعت جميع القشتاليين إلى الالتفاف حول الملك الشرعى ، ومقاومة الليونيين وآل كاسترو . وكان ذلك فى سنة ١١٦٦ م .

واتجهت قشتالة كلها عندئذ إلى تأييد ملكها الصبى ، الذى لقب بألفونسو النبيل ، واستأثر آل لارا بجميع السلطات ، وتحول رجال الدين أخيراً عن ملك ليون ، ليؤيدوا الملك الشرعى ، وعقدت قشتالة الهدنة مع ناڤارا ، وعقدت حلفا مع أراجون . وأيقن فرناندو ملك ليون أخيراً أنه لا أمل فى مثل هذا الموقف وآثر أن ينسحب من أراضى قشتالة ، وأن يترك حلفاءه آل كاسترو لمصيرهم ، واضطر آل كاسترو وعندئذ إلى مغادرة قشتالة ،والالتجاء إلى أراضى المسلمين، وهنالك أخذوا يرقبون الفرص للعودة والانتقام ، وأسدل الستار بذلك مدى

حين على صراع هاتين الأسرتين القشتاليتين الكبيرتين[١] .

٦ – قيام جماعات الفرسان الدينية

وقد امتاز هذا العصر – النصف الأول من القرن الثانى عشر – وهو عصر ألفونسو المحارب ، وألفونسو ريمونديس ، بظهور قوة جديدة فى ميدان الصراع بين اسبانيا النصرانية واسبانيا المسلمة ، هى جماعات الفرسان الدينية . وكانت هذه الجماعات قد ظهرت فى المشرق على أثر اضطرام الحروب الصليبية ، وسقوط بيت المقدس فى أيدى الفرنج الصليبيين ، وظهرت طلائعها فى اسبانيا ، فى عصر ألفونسو المحارب . وكانت أول جماعة قامت فى أراجون من هذا النوع هى جمعية الفرسان الدينية التى أنشأها ألفونسو المحارب فى سنة ١١٢٠م ، على أثر موقعة كتندة ، فى قلعة « مونريال » على مقربة من دروقة ، وظهر فرسان الداوية أوفرسان المعبد بعد ذلك فى إمارة برشلونة ، وشجعهم أميرها الكونت رامون برنجير الثالث على القيام فى مملكته ، ومنحهم حصن « جرانيينا » على مقربة من لاردة ، ليكون مقراً لهم ، ثم انتظم فى سلكهم قبيل وفاته فى سنة ١١٣١ م .

ولما توفى ألفونسو المحارب ، خص فرسان المعبد فى وصيته بثلث مملكته ، باعتبارهم حماة النصرانية فى بيت المقدس ، كما خص فرسان الأسبتارية ، كذلك بنصيب آخر من مملكته . وقد رأينا فيما تقدم كيف رفض الشعب الأرجونى أن ينفذ هذه الوصية حرصاً على سلامة الوطن الأرجونى . وقد رأى الفرسان أنفسهم استحالة تنفيذ مثل هذه الوصية ، لأنها مسألة لاتحل إلا بقوة السلاح ، ومن ثم فقد نبذوا باختيارهم هذه الحقوق ، واكتفوا بالمطالبة ، بأن يعوضوا عنها بما يعاونهم على الاستقرار ، وتأدية مهمتهم فى حماية الدين . ومن ثم فقد رأى أمير أراجون فيما بعد الكونت رامون برنجير الرابع ، تعويضاً لفرسان المعبد (الداوية) أن يمنحهم عدة حصون فى أراجون ومنتشون وكلامير وغيرها مع ما يلزم لها من المرافق والغلات التى تساعدهم على العيش ، وكذلك حصل الفرسان على حق الإعفاء من الخضوع لقضاء الملك ، وعلى أن يعطوا نصيباً معيناً فى المدن التى انتزعت من المسلمين مثل وشقة وبربشتر وسرقسطة ، وقلعة أيوب وغيرها ، وفى مقابل ذلك يتعهد الفرسان بأن يكرسوا حياتهم لحماية النصرانية فى تلك

---

(١) M. Lafuente: ibid; Vol. III. p. 321 - 324

الأنحاء ، وتم هذا الاتفاق فى اجتماع عقد فى مدينة جيرنده[1] فى سنة ١١٤٣ م ، وشهده مندوب عن البابا ، وكثير من الأساقفة وأشراف أراجون وقطلونية .

وهكذا تم لجمعية فرسان المعبد الشهيرة أن تستقر فى أراجون وقطلونية . وسرعان ما نمت واشتد ساعدها ، وظهرت أهمية العون الذى يبذله أعضاؤها فى محاربة المسلمين ، ولاسيما فى الدفاع عن القواعد والحصون الواقعة على الحدود. وألفى هذا المثل صداه فى قشتالة ، عقب وفاة القيصر ألفونسو ريمونديس ، وقيام ولده سانشو . وكانت قلعة رباح ، فى مقدمة هذه المعاقل الأمامية التى تحمى مداخل قشتالة ، وكانت فضلا عن أهميتها الدفاعية ، تسيطر على مقاطعة جيان الأندلسية ، وكان ألفونسو السابع قد عهد بالدفاع عنها إلى فرسان الداوية ، وكانت القوات الموحدية تزحف على هذه القلعة من آن لآخر وترهقها بهجماتها العنيفة . ولما استولى الموحدون على ألمرية ، جددوا هجومهم فى سنة ١١٥٨م على قلعة رباح ، ولم يستطع فرسان الداوية إنقاذها من السقوط الا بشق الأنفس ، فلما أيقنوا بعجزهم عن القيام بمهمتهم الفادحة ، غادروا القلعة وسلموها إلى سانشو ملك قشتالة ، ليعنى هو بأمر الدفاع عنها . وألفى سانشو نفسه فى مأزق حرج . وكان ثمة فى طليطلة راهب ورع هو ريموندو أو رامون رئيس دير ڤتيرو ، ومعه راهب ورع من أسرة نبيلة يدعى ديجو بلاسكيث ، وكان فارساً مقداما ظهر فى ميدان الحرب ، فتقدم الراهبان إلى الملك سانشو ، بأن يعهد إليهما بمهمة الدفاع عن قلعة رباح ، فأجابهما الملك إلى ما طلبا . وأيد مشروعهما يوحنا مطران طليطلة ، وألقى عظات وعد فيها بالغفران لكل من يتقدم للدفاع عن القلعة ، فلم يمض سوى قليل حتى استطاع الراهب ريموندو أن يجمع حوله فى قلعة رباح عشرين ألف مقاتل ، وأمده كثيرون ممن لم يشتركوا فى الدفاع بالخيل والدواب والمال . وكان لهذه الحركة القوية أثرها فى رد الموحدين عن مهاجمة القلعة . وفى الحال رأى الراهب رامون أن يؤلف من أولئك الذين يرغبون أن يكرسوا حياتهم للدفاع عن النصرانية جمعية من الإخوة . وهكذا قامت جمعية « فرسان قلعة رباح » (سنة ١١٦١م) . وانتخب الراهب ريموندو أول رئيس لها ، وصادق البابا على قيامها ، وطبقت عليها النظم الحربية ، وأخذت تنمو باضطراد ، وتؤدى مهمتها فى مدافعة المسلمين بهمة وحماسة. ولما توفى أستاذ الجمعية الأول ، ريموندو دى ڤتيرو فى سنة ١١٦٣م

---

[1] (٢) هى بالإسبانية Gerona ، وهى تقع شمال شرقى برشلونة على مقربة من البرنيه .

خلفه فى رياستها الراهب غرسية الناثارى ، ووضع للجمعية نظاماً جديداً ، أقره البابا اسكندر الثالث . ثم وضع البابا إنوصان الثالث بعد ذلك الجمعية تحت حمايته ، وذلك فى سنة ١١٩٩ م[1] .

وقامت فى جليقية ، بعد قيام جمعية قلعة رباح بثلاثة أعوام جمعية محاربة جديدة باسم « جماعة القديس ياقب » وشعارها محاربة أعداء الدين ، والدفاع عن الحاج الذين يقصدون زيارة قبر القديس ياقب ، ونظمت على منهج القديس أوغسطين ، واتخذت طابعاً حربياً ، وأبيح الزواج لأعضائها ، خلافاً لفرسان قلعة رباح ، وتوالت عليها الهبات ، وسرعان ما نمت واشتد ساعدها .

وسوف تضطلع هذه الجمعيات الدينية المحاربة منذ الآن فصاعدا بدور بارز فى الصراع بين إسبانيا النصرانية وإسبانيا المسلمة .

---

(١) تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين لأشباخ (الترجمة العربية ص ٢٦٨) والاستاذ **S. Montero** فى مجموعة **La Orden de Calatrava, p. 16 & 17**

الفصل الثالث

قيام مملكة البرتغال

وبداية عصر ملكها ألفونسو هنريكيز

ولاية لوزيتانيا أصل مملكة البرتغال . تداولها بين الفاتحين ، وضعها عند افتتاح الأندلس . ولاية الغرب الأندلسية . شمال لوزيتانيا وسقوطه فى يد النصارى . ولاية البرتغال . البرتغاليون أهل هذه الولاية . أصل الملوكية البرتغالية . الكونت ريمون البرجونى وابن عمه الكونت هنرى . زواج الكونت ريمون بأوراكا إبنة ألفونسو السادس . اختياره لحكم إمارة البرتغال . وفاته وخلافة الكونت هنرى له . ولاية البرتغال ومدنها عندئذ . الكونت هنرى أمير وراثى للبرتغال . موقفه من الحرب الأهلية فى قشتالة . وفاته . ولده الطفل ألفونسو وأمه تريسا الوصية عليه . تقلبها فى محالفة الفريقين المتحاربين فى قشتالة . غزو المرابطين لأراضيها وانسحابهم . سخط الشعب على حكمها . مؤامرة الأشراف عليها واعتقالها . تولى ولدها الفتى ألفونسو هنريكيز الحكم . إعلانه لاستقلال البرتغال . سخط القيصر ألفونسو ريمونديس لذلك . الحرب بين قشتالة والبرتغال . التحالف بين ناڤارا والبرتغال . غزو البرتغال لجليقية . الحرب بين البرتغال والقيصر . توسط مطران براجا وعقد الهدنة بينهما . غزوة برتغالية لأراضى المسلمين . مجلس لاميجو واتخاذ ألفونسو هنريكيز لقب الملك . قانون وراثة العرش . القوانين الجديدة . تنظيم القضاء . قيام مملكة البرتغال . جماعات الفرسان الدينية . ألفونسو هنريكيز فى الرواية العربية .

نقف الآن قليلا فى تتبع أخبار الممالك النصرانية الإسبانية ، لنلم بأخبار مملكة نصرانية أخرى ، من ممالك شبه الجزيرة الإسبانية ، لم يكن لها قبل أوائل القرن الحادى عشر ذكر بين هذه الممالك ، ونعنى بذلك مملكة البرتغال الناشئة، التى بدأت تحتل مكانتها إلى جانب باقى الممالك النصرانية ، وتأخذ معها بنصيب بارز فى الكفاح بينها وبين إسبانيا المسلمة .

إن مملكة البرتغال ترجع من حيث رقعتها الإقليمية، أومن حيث أرومتها الملوكية، إلى أصول متواضعة . فأما من حيث الرقعة الإقليمية ، فإنه يجب أن نعلم أن القسم الغربى من شبه الجزيرة الإسبانية ، كان منذ العصر القديم ، يتميز بسكانه وخواصه الجغرافية ، وكان سكانه يعرفون بأهل لوزيتانيا ، وهم جنس يتميز بخصائصه من الإسبان الذين كانوا يحتلون شرقى الجزيرة وأواسطها ، وكانت

ولاية لوزيتانيا فى العصر القديم تشمل الرقعة الغربية الواقعة جنوبى جليقية المحاذية للشاطىء فيما بين مصب نهر دويرة ومصب نهر وادى يانة . وكانت لوزيتانيا أيام الرومان تكون مع ولاية بتيكا (باطقة) أوالأندلس ، القسم الجنوبى الغربى من اسبانيا الرومانية ، وتسمى بإسبانيا السفلى . ولما غزت القبائل الجرمانية شبه الجزيرة الإسبانية فى أوائل القرن الخامس الميلادى ، نزل الوندال والشوابيون فى ولاية لوزيتانيا . ولما عبر الوندال إلى إفريقية ، احتل الشوابيون لوزيتانيا كلها ، واستمروا بها زهاء نصف قرن حتى أجلاهم القوط عنها ، فارتدوا شمالا إلى جليقية ، واحتل القوط لوزيتانيا ، وعاصمتها يومئذ مدينة ماردة ، وذلك فى أوائل النصف الثانى من القرن الخامس الميلادى ، ثم استولى القوط بعد ذلك على اسبانيا كلها ، ماعدا قسمها الشمالى الذى استمر عصراً آخر بيد الشوابيين ، حتى افتتحه القوط فى أواخر القرن السادس . وكانت لوزيتانيا تكون عندئذ إقليما من الأقاليم الستة التى قسمت إليها المملكة القوطية . ولما افتتح المسلمون اسبانيا ، بقيت لوزيتانيا على وضعها القديم ، وعاصمتها ماردة ، ومن مدنها قلمرية وأشبونة وشنترة وشنترين . وكانت ماردة أيام الدولة الأموية ، بالأخص منزل المولدين ، وكانت مثل طليطلة ، من المدن المتمردة الثائرة ، تضطرم بها الثورة على حكومة قرطبة من آن لآخر ، وكانت أيام الفتنة الكبرى فى مقدمة القواعد الخارجة ، وقد ثار بها بنو الجليقى ، واستقلوا بحكمها عصراً .

وكان القسم الجنوبى من ولاية لوزيتانيا وهو الذى بقى بأيدى المسلمين ، يعرف بولاية الغرب الأندلسية ، أوغربى الأندلس . ولما قامت دول الطوائف تغلب على هذه المنطقة بنو الأفطس ، واتخذوا من بطليوس قاعدة لإمارتهم . وكان حكمهم يمتد من منتصف وادى نهر وادى يانة حتى المحيط ، ويشتمل على قسم من وادى نهر التاجُه ، يمتد شمالا حتى مدينة قلمرية[1] ، ويشتمل على ثغر أشبونة ، وشنترين ويابرة . أما القسم الشمالى من ولاية لوزيتانيا ، وهو الذى يمتد بين مدينة براجا شمالا ، وقلمرية جنوباً ، فكان النصارى قد تغلبوا عليه شيئاً فشيئاً ، وافتتح فرناندو الأول ملك قشتالة معظم قواعده من المسلمين ، وآخرها مدينة قلمرية ، وقد افتتحها فى سنة ١٠٦٤ م (٤٥٦ هـ) ، وجعل فرناندو من من هذه المنطقة ولاية مستقلة باسم « البرتغال » بالاشتقاق من اسم « بورتو كالى »

---

(١) قلمرية وتسمى أيضاً قلنبرية هى بالافرنجية **Columbria ‘Cömbra**

Porto Calle ، وهى الثغر الواقع عند مصب نهر دويرة ، وجعل قاعدتها قلمرية ، وانتدب لحكمها وزيره المستعرب الكونت سسنندوداڤيدس الذى تعرفه الرواية العربية باسم « ششنند » . ثم ضمت هذه الولاية الجديدة قبيل وفاة فرناندو بقليل إلى مملكة جليقية ، التى تركها فرناندو إلى أصغر أولاده الثلاثة غرسية .

وقد ذكرنا من قبل أن سكان اوزيتانيا ، وهى التى اقتطعت ولاية البرتغال الجديدة من قسمها الشمالى ، كانوا عنصراً خاصاً يفترق بممیزاته عن الإسبان . وكان اللوزيتانيون أو البرتغاليون أهل الولاية الجديدة ، يتوقون إلى الاستقلال عن مملكة جليقية ، ومن ثم فقد ثاروا منذ البداية ضد حكم الملك غرسية بقيادة زعيمهم الكونت نونيو مننندس ، ولكنهم هزموا أمام جيش جليقية ، وقتل زعيمهم نونيو (سنة ١٠٧١ م) . واستسلمت الولاية الثائرة إلى مصيرها ، وتعاقب فى حكمها الأمراء والحكام من قبل ملك قشتالة .

هذا عن أصول البرتغال الجغرافية والتاريخية . وأما عن أصول الملوكية البرتغالية ، فإنه لما عبر المرابطون إلى اسبانيا عقب افتتاح ألفونسو السادس ملك قشتالة لطليطلة ، ولقيت الجيوش الإسبانية المتحدة هزيمتها الساحقة فى موقعة الزلاّقة (٤٧٩ هـ — ١٠٨٦م) عبر إلى شبه الجزيرة استجابة لصريخ ألفونسو السادس ، كثير من الفرسان والأشراف الفرنسيين ، لينجدوا إخوانهم فى الدين إزاء الخطر الإسلامى الجديد — خطر السيل المرابطى ، وكان من بين أولئك المجاهدين الوافدين اثنان من أشراف برجونية ، هما الكونت ريمون البرجونى ، والكونت هنرى دى لورين ؛ وكلاهما ينتمى إلى فرع من فروع آل كابيه ملوك فرنسا . وقد أبدى الرجلان فى خدمة ألفونسو السادس ومعاونته همة تذكر ، ومن ثم فقد رأى أن يثيبهما عن إخلاصهما وغيرتهما ، فزوج الكونت ريمون بإبنته أورّاكا ، ولما كان الكونت قد ظهر بالأخص فى محاربة المسلمين فى البرتغال وانتزع منهم شنترين وأشبونة وشنترة (١٠٩٣ م) فقد عينه ألفونسو حاكماً لهذه الولاية . وزوج الكونت هنرى ، وهو ابن عمومة الكونت ريمون ، بابنته غير الشرعية تريسا التى رزق بها من خليلته خمينا نونيز .

ولما توفى الكونت ريمون بعد ذلك بقليل فى سنة ١٠٩٤ م ، بعد أن أعقب من زوجه أوراكا ولدا هو ألفونسو ، وهو الذى غدا فيما بعد القيصر ألفونسو ريمونديس ، خلفه فى حكم ولاية البرتغال قريبة الكونت هنرى ، وكانت

ولاية البرتغال تشمل يومئذ المنطقة الواقعة بين نهر منيو (نهر منديجو) ، ونهر التاجُه حتى أسفل مصبه ، وبها عدة مدن هامة هى براجا وبورتو وقلمرية وبازو ولاميجو (مليقة) وعدة بلاد وضياع أخرى ، ومنح الكونت هنرى الذى لقب عندئذ بالدوق ، حكم هذه الولاية لا باعتبارها إمارة مستقلة ، ولكن على قاعدة الإقطاع باعتبارها تابعة لمملكة قشتالة ، تؤدى الجزية إليها وتشاركها فى حروبها ضد المسلمين بفرقة من ثلاثمائة فارس ويتوارثها عقبه[1] . بيد أن تريسا زوجة هنرى كانت تلقب بالملكة لأرومتها الملكية . وجعلت مدينة قلمرية حاضرة الإمارة الجديدة ، ومن ثم فإن الرواية العربية قد جرت على تسمية أمير البرتغال ، أو ملكها فيما بعد « بصاحب قلمرية » . وبالرغم مما بذله الكونت هنرى للمحافظة على حدود ولايته ، فإن المسلمين استطاعوا غير بعيد أن يستردوا أشبونة وشنترين . ولما توفى ألفونسو السادس فى سنة ١١٠٩ م ، جاءت وصيته الخاصة بوراثة العرش مؤيدة ، لحقوق هنرى الوراثية فى حكم ولاية البرتغال ، ولكن فى ظل قشتالة . بيد أنه كان فى الواقع يحكم ولايته مستقلا ، وكانت تبعيته لقشتالة مسألة اسمية فقط .

ولما نشبت الحرب الأهلية بين الملك ألفونسو المحارب وزوجه الملكة أوراكا ، وقف الكونت هنرى فى البداية إلى جانب ملك أراجون فى موقعة كامبودى سبنيا ، إذ كان يخشى على استقلاله من الملكة أوراكا ، بيد أنه لما تطورت الحوادث وهزمت أوراكا وحوصرت فى أسترقة ، تحول هنرى إلى مهادنتها ، ثم حارب إلى جانبها وعبر إلى فرنسا ، ليستقدم الحشود لمعاونتها ، وذلك مقابل حصول البرتغال على مدينة توى والأراضى الواقعة على ضفة منيو اليمنى . ثم توفى الكونت هنرى عقب ذلك فى مايو سنة ١١١٢ م ، ولم يترك سوى طفل فى الثالثة من عمره يدعى ألفونسو ، فتولت أمه الملكة تريسا الحكم ، بطريق الوصاية عليه .

وكانت دونيا تريسا ، فضلا عن جمالها ، امرأة وافرة الذكاء والعزم والإقدام ، وكانت تجيش بأطماع كثيرة فى سبيل تدعيم سلطانها واستقلالها ، وتوسيع رقعة إمارتها . وقد رأينا فيما تقدم كيف عملت خلال الحرب الأهلية فى قشتالة على انتهاز الفرص ، وتحالفت مع الكونت دى ترافا والثوار الجليقيين غير مرة ، ضد أختها أوراكا ، ثم حاربت إلى جانب أوراكا والأسقف خلمريث ، وكيف استطاعت

(١) R. Altamira : Historia de Espana y de la Civilización Espanola V.I. p. 357

فى النهاية أن تحافظ على ماكسبه زوجها من أراضى جليقية ، وان تكسب من أختها أراضى جديدة فى أحواز سمورة وطورو ثمناً لتخليها عن تحالفها مع الثوار (سنة ١١١٩) ، ورأينا كيف احتذت حذو أختها أوراكا فى التورط فى مسلكها الأخلاقى المشين ، وتوثيق علائقها الغرامية بالكونت فرناندو بيرث ، وتركه يتصرف فى شئون الإمارة بصورة سخط لها الشعب البرتغالى ، وأخيراً كيف انتهى ألفونسو ريمونديس إلى إخضاعها ، وإلى أرغام البرتغال أن تعترف باسم أميرها الصبى ألفونسو هنريكيز أنها مستظلة بحمايته .

وفى خلال ذلك استطاعت تريسا أيضاً أن تصمد لغزوات المسلمين لأراضيها. وكانت أهم غزوة واجهتها من المرابطين ، هى زحف أمير المسلمين على بن يوسف على قلمرية عاصمة الإمارة ومحاصرته لها ، ودخوله أياها ، وذلك فى يونيه سنة ١١١٧ م (سنة ٥١١هـ) . بيد أن المرابطين لم يحتفظوا بها بل غادروها على الأثر ، وقفلوا إلى إشبيلية ، وذلك حسبما فصلناه من قبل فى موضعه .

ولم تمض على ذلك أعوام قلائل حتى سئم الشعب حكم هذه الأميرة المستهترة ، وأخذ يتطلع إلى أميره الفتى ألفونسو هنريكيز ، وكان الأمير قد بلغ الرابعةعشرة من عمره (سنة ١١٢٤ م) ، واتشح بثوب الفروسة وفقاً لتقاليد العصر ،وأجازه لذلك الملك ألفونسو ريمونديس . وكان الشعب يحبو أميره الفتى بحبه ، لما كان يتصف به من الخلال الحميدة ، من الفروسة والتقوى ، ورقة الشمائل ، وتوقير رجال الدين ، ويرى أن الوقت قد حان لتقديمه وتوليه شئون الحكم . وأخيراً دبر الأشراف والأحبار مؤامرة لتحقيق هذه الأمنية ، والتف حول الأمير جمع كبير من الأنصار ، وشهر الحرب ضد أمه المستبدة ، فلقيته فى أنصارها فى سنت مايميّى على مقربة من جويمرانس ، فهزمت الأم ، وأسرت وألقيت إلى السجن لتكفر عن زلاتها ، وماضيها الأثيم ، ونفى خليلها أوزوجها الكونت فرناندو بيرث من المملكة ونفى معه كثير من أنصاره . وتولى الأمير الفتى ألفونسو هنريكيز حكم إمارة البرتغال ، وكان ذلك فى سنة ١١٢٨ م ، وقد بلغ الأمير الثامنة عشرة من عمره .

وأعلن ألفونسو هنريكيز أنه يتولى حكم إمارته مستقلا دون تبعية لأحد . فثار لذلك ألفونسو ريمونديس ملك قشتالة ، إذ كان يعتبر البرتغال إقليما من أقاليم مملكته مشمولا بحمايته . وزحف بقواته على البرتغال بحجة العمل على إنقاذ

خالته تريسا ، وإرغام الأمير الخارج عليه ، على التزام الطاعة ، ونشبت بين البرتغال وقشتالة حرب طويلة الأمد ، وكان مسرحها بالأخص جنوبى جيلقية ، ولم يكن فى وسع ملك قشتالة أن يتابع هذه الحرب بنفسه ، لما كان يشغله من غارات المسلمين ومدافعة ملك أراجون . ولما توج ألفونسو ريمونديس قيصراً لإسبانيا فى سنة ١١٣٥م ، رفضت البرتغال أن تسلم بهذا الادعاء، وشاطرها فى ذلك غرسيه راميريس ملك ناڤارا ، ووقع عندئذ نوع من التحالف بين ناڤارا ، والبرتغال . وبينما سار القيصر لمحاربة ناڤارا ، زحف البرتغاليون على جليقية ، واستولوا على مدينة توى وعدة مواضع أخرى ، فنهض أشراف جليقية لمقاومة البرتغاليين ، ونشبت بين الفريقين معركة شديدة ، وكان الظفر فيها لألفونسو هنريكيز ، ولكنه اضطر أن يترك الميدان وقتاً لكى يرد غزوة قام بها المرابطون على مقربة من قلمرية ، ولكن المرابطين كانوا قد انسحبوا خلال ذلك عائدين إلى أراضيهم ، فلما عاد ألفونسو هنريكيز ثانية لاستئناف القتال فى جليقية ، كان خصومه قد جمعوا فلولهم ، واستكملوا أهبتهم ، فلما اشتبك الفريقان كرة أخرى ، دارت الدائرة فى هذه المرة على البرتغاليين ، فهزموا هزيمة شديدة وجرح أميرهم . ولم يمض سوى قليل على ذلك حتى فرغ القيصر ألفونسو ريموندس من حرب ناڤارا ، وعاد بنفسه لمحاربة البرتغال ، وتوالى الاشتباك بين الفريقين. وكان ألفونسو هنريكيز يحرص على ألا يلتقى مع القشتاليين فى معركة حاسمة ، ثم رأى فى النهاية نزولا على نصح قادته أن يتقدم بطلب الصلح إلى القيصر ، وتوسط مطران براجا فى الأمر ، وانتهت المفاوضة إلى عقد هدنة بين الفريقين ، واتفق على تبادل الأسرى من الجانبين ، وإعادة الحدود بين البلدين ، كما كانت فى آخر عام من حكم الملكة تريسا ، ولم يتفق على شىء بالنسبة للمسألة الجوهرية التى كانت سبب الحرب ، وهى مسألة تبعية البرتغال لمملكة قشتالة . وعلى أى حال فقد عقد السلم بين الفريقين ، واجتمع القيصر وألفونسو هنريكيز فى خيمة واحدة ، وتصافحا ، وتصافيا ، ثم عاد كل منهما إلى أراضيه (سنة ١١٣٨ م).

تحدثنا الرواية النصرانية بعد ذلك عن غزوة عظيمة قام بها ألفونسو هنريكيز فى الأراضى الإسلامية فى العام التالى ، أعنى فى سنة ١١٣٩ م (٥٣٣ هـ) ، وأحرز فيها نصراً باهراً على الجيش الإسلامى الضخم الذى حشده ولاة بطليوس ويابرة وباجة وإشبيلية ، وذلك فى مكان يسمى « أوريك » على ضفة نهر التاجُه ،

وهو حادث لم نجد له ذكراً فى الروايات العربية . ثم تقول لنا إن ألفونسو هنريكيز اعتزم عقب هذا النصر أن يتلقب بألقاب الملوكية ، وأن القيصر ألفونسو ريموندس بعث إلى البابا يحتج على اتخاذ أمير البرتغال لمثل هذه الخطوة . على أن ألفونسو هنريكيز لم يعبأ باعتراض القيصر ، أو تدخل البابوية ، فى الأمر ، واعتزم أن يجعل من لقبه الملوكى مسألة قومية بينه وبين شعبه ، فاستدعى فى مدينة لاميجو[1] مجلساً قومياً (كورتيس) مثل فيه رجال الدين والأشراف ونواب المدن (سنة ١١٤٣ م) ووافق هذا المجلس على أن يتخذ ألفونسو هنريكيز لقب الملك ، وأن يكون الملك متوارثاً فى أعقابه الذكور ، وعلى أثر ذلك وضع أسقف براجا على رأس ألفونسو تاجا من الذهب المرصع بالجوهر . وصادق الملك الجديد فى هذا المجلس على القوانين التى قدمها إليه ممثلو الطبقات ، وفى مقدمتها قانون وراثة العرش ، وهو يبين أحكام هذه الوراثة وتسلسلها بين الأبناء والإخوة ، وحالة ما إذا توفى الملك دون عقب ، وترك إبنة ، فإنها تتولى الملك من بعده . وقانون الأشراف ، وهو ينص على من يمكن نظمهم فى طبقة الأشراف ، ممن يجرى فى عروقهم الدم الملكى ، وكل من وفق إلى إنقاذ الملك أو أحد أقاربه ، أو إنقاذ العلم الوطنى فى ميدان الحرب ، وكل من استطاع أن يقتل فى الحرب أميراً من الأعداء ، أو يغتنم علما من أعلامهم .

والمسألة الثالثة هى مسألة تنظيم العدل ، وقد نص القانون الذى وضع لذلك على أن يدين جميع البرتغاليين بالطاعة للملك ، باعتباره أكبر قاض فى البلاد . وأن يعاقب على السرقة الأولى والثانية بالتعزير ، ويعاقب على السرقات الكبرى بالكى بالنار أو الموت . وتعاقب المرأة المتزوجة إذا زنت هى وعشيقها بالحرق ، ويعاقب القاتل بالإعدام مهما كان شخصه ، وكذلك يعاقب بالإعدام كل من اغتصب بكراً شريفة ، فإذا لم تكن المجنى عليها من الأشراف ، وجب على المعتدى أن يتزوج بضحيته .

ويترك للقاضى تقدير العقوبة على جرائم الضرب والجرح . وكل من اعتدى على أحد من رجال القضاء بالسب أو الضرب ، عوقب بالكى بالنار أو بغرامة قدرها خمسون قطعة من الذهب ، ويلزم بالتعويض المناسب .

---

(١) تقع لاميجو **Lamigo** فى شمال البرتغال جنوبى نهر دويره ، وتعرف فى الرواية العربية « بمليقة » .

وهكذا وضعت فى مجلس لاميجو أسس مملكة البرتغال الجديدة ، التى تحولت من كونتية أو إمارة صغيرة قامت فى ظروف متواضعة لتكون ولاية تابعة إلى مملكة قوية ، تأخذ منذ الآن مكانها فى تاريخ اسبانيا النصرانية ، وتقوم منذ الآن فصاعداً بنصيب بارز من النضال المرير المستمر بين إسبانيا النصرانية وإسبانيا المسلمة ، وتدفع رقعتها تباعاً على حساب القواعد والأراضى الإسلامية فى ولاية الغرب الأندلسية .

وعنى الملك ألفونسو هنريكيز كذلك بأمر جماعات الفرسان الدينية ، إذ شعر بأهميتها ، وخطرها فى محاربة المسلمين ، وكانت طلائع فرسان الداوية ، وفرسان القديس يوحنا قد ظهرت قبل ذلك ، واشتركت فى كثير من المعارك التى تنشب بين البرتغاليين والمسلمين . وفى سنة ١١٥٨ م ، أنشأ ألفونسو هنريكيز جماعة دينية جديدة سميت بالجماعة المحاربة الجديدة Nova Militia ، ووضعت لها نظم كنظم فرسان قلعة رباح ، وشعارها الجهاد من أجل الدين المسيحى ، وألا يدخروا وسعاً فى مقاتلة المسلمين ، وألا يتزوجوا ، وعين دون بيدرو أخو الملك ، أول أستاذ أعظم للجماعة . ولما نجحت هذه الجماعة فى سنة ١١٦٦ ، فى الاستيلاء على يا بُرة من أيدى المسلمين بقيادة الفارس المغامر جيرالدو الباسل (سمبافور) ، سموا « بفرسان يابرة » . ثم سموا فيما بعد « بفرسان آڤيس » وذلك حينما منحهم الملك ألفونسو الثانى القلعة المسماة بهذا الاسم فى سنة ١٢١١ م .

ويعرف الملك ألفونسو هنريكيز ، منشئ مملكة البرتغال ، فى الرواية العربية بصاحب قلمرية أو قلنبرية[١] ، إذ كانت قلمرية فى البداية عاصمة البرتغال ، ويعرف كذلك بابن الرنق وابن الرنك أو ابن الريق[٢] أعنى ابن هنرى أو إنريكى (وهنريكيز معناها ابن هنرى ، وهو هنرى البرجونى والد ألفونسو) .

---

(١) ابن الأبار فى الحلة السيراء ص ٢٠٠ .

(٢) تختلف الروايات العربية فى تسمية الفونسو هنريكيز . ويجمع معظمها على تسميته بابن الرنك (راجع كتاب أخبار المهدى بن تومرت ص ١٢٧ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٣٩ ، والبيان المغرب « القسم الثالث » ص ٧٨) ويسميه ابن صاحب الصلاة كذلك بابن الرنك أو أدفونش الرنك (مخطوط المن بالإمامة لوحة ١١٧ ا) وتسميه بعض الروايات الأخرى « بابن الريق » (راجع الحلة السيراء ص ٢٠٠ ، ورسائل موحدية – الرسالة الرابعة والثلاثون – ص ٢٢٣ و ٢٢٥ و ٢٢٧) .

وثائق مرابطية وموحدية

١

رسالة الإمام الغزالى

إلى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين

(منقولة عن المخطوط رقم ١٢٧٥ ك (الكتانية) المحفوظ بخزانة الرباط وعنوانه « مجموع أوله كتاب الأنساب » لوحة ١٣٠ – ١٣٣) .

الأمير جامع كلمة المسلمين ، وناصر الدين ، أمير المؤمنين أبو يعقوب يوسف بن تاشفين ، الداعى لأيامه بالخير ، محمد بن محمد بن محمد الغزالى ، بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة على سيد المرسلين وساير النبيين وعلى آله وأصحابه أجمعين . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ليومٌ من سلطان عادل ، خير من عبادة سبعين سنة . وقال صلى الله عليه وسلم ، ما من والى عشرة إلا ويؤتى به يوم القيامة مغلولة يده إلى عنقه ، أوبقه جوره أو طلقه عدله . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، سبعة يظلهم الله يوم لاظل إلا ظله ، وعدل الإمام العادل أولهم ، ونحن نرجو أن يكون الأمير جامع كلمة الإسلام ، وناصر الدين ، ظهير أمير المؤمنين ، من المستظلين بظل عرشه ، يوم لا ظل إلا ظله ، فإنه منصب لا ينال إلا بالعدل فى السلطنة ، وقد آتاه الله السلطان ، وزينه بالعدل والإحسان . ولقد استطارت فى الآفاق محامد سيره ، ومحاسن أخلاقه على الإجمال ، حتى ورد الشيخ الفقيه الوجيه أبو محمد عبد الله بن عمر بن العربى الأندلسى ، حرس الله توفيقه ، فأورد من شرح ذلك وتفصيله ، ما عطر به أرجاء العراق ، فإنه لما وصل إلى مدينة السلام ، وحضرة الخلافة ، لم يزل يطنب فى ذكر ما كان عليه المسلمون فى جزيرة الأندلس من الذل والصغار ، والحرب والاستصغار ، بسبب استيلاء أهل الشرك ، وامتداد أيديهم إلى أهل الإسلام بالسبى والقتل والنهب ، وتطرقهم إلى اهتضام أهل الإسلام ، بما حدث بينهم من تفرق الكلمة ، واختلاف آراء الثوار المحاولين للاستبداد بالإمارة ، وتقاتلهم على ذلك ، حتى اختطف من بينهم حماة الرجال ، بطول القتال والمحاربة والمنافسة ، وإفضاء الأمر بهم إلى الاستنجاد بالنصارى حرصاً على الانتقام ، إلى أن أوطئوهم

بيضة الإسلام ، وكشفوا إليهم الأسرار ، حتى أشرفوا على التهايم والأغوار ، فرتبوا عليهم الجزا ، وجزوهم بشر الجزا . ، ولما استنفدوا من عندهم الأموال ، أخذوا فى نهب المناهل ، وتحصيل المعاقل ، واستصرخ المسلمون عند ذلك بالأمير ناصر الدين ، وجامع كلمة المسلمين ، ظهير أمير المؤمنين ، ابن عم سيد المرسلين ، صلوات الله عليه وعليهم أجمعين ، واستصرخه معهم بعض الثوار المذكورين ... عن مداراة المشركين ، فلبا دعوتهم ، وأسرع نصرتهم ، وأجاز البحر بنفسه ورجاله وماله ، وجاهد بالله حق جهاده ، ومنحه الله تعالى استيصال شأفة المشركين ، والإفراج عن حوزة المسلمين ، جزاه الله تعالى أفضل جزاء المحسنين ، وأمده بالنصر والتمكين ، وذكر متابعته العدوة إلى جهة أخرى بعد ثلاثة أعوام من هذه الغزوة المشهورة ، وقتل كل من ظهر من النصارى بالجزيرة المذكورة ، من الخارجين لإمداد ملوكها على عادتهم ، أو من سراياهم فى أى جهة يمموا من جهات المسلمين ، وقذف الله الرعب فى قلوب المشركين ، حتى أغناه ذلك عن جر العساكر والجنود ، وعقد الألوية والبنود ، وذكر أن أولايك الثوار ، لما أيقنوا قوة الأمير ناصر الدين ، وغلبته لحزب المشركين ، وسألهم رفع المظالم عن المسلمين ، التى كانت مرتبة عليهم ، بجزية المشركين ، وإمدادهم بها لهم ، مدارات لبقاء إمرتهم ، عادوا إلى ممالأت المشركين ، وألقوا إليهم القول فى جهة الأمير ، وجرءوهم على لقايه ، وصح ذلك عنده وعند المسلمين . فسأله المسلمون عند ذلك إنزال هؤلاء الثوار عن البلاد ، وتداركها ومن فيها من المسلمين قبل أن يسرى الفساد ، ففعل ذلك . ولما تملكها ، رفع المظالم ، وأظهر فيها من الدين المعالم ، وبدد المفسدين ، واستبدل بهم الصالحين ، ورتب الجهاد ، وقطع مراد الفساد ، ثم أضاف إلى ذكر ذلك ، ماشاهده من تلك السجية الكريمة فى إكرام أهل العلم ، وتوقيره لهم ، وتنزيهه باسمهم ، واتباعه لما يفتون إليه من أحكام الله تعالى وأوامره ونواهيه ، وحمله عماله على السمع والطاعة لهم ، وتزيين منابر المملكة الجديدة والقديمة بالخطبة لأمير المؤمنين ، أعز الله أنصاره ، وإلزامه للمسلمين البيعة ، وكانوا من قبل منكفين عن البيعة ، والندا بشعار الخليفة ، إلى غير ذلك مما شرحه من عجايب سيرته ، ومحاسن أحواله ، ومكارم أخلاقه . وكان منصبه فى غزارة العلم ، ورصانة العقل ، ومتانة الدين ، يقتضى التصديق له فى روايته ، والقبول لكل ما يورده من صدق كلمته ،

وأن ما أفاضه من هذه الفضايل إلى حضرة الخلافة ، أعز الله أنصارها ، فوقع ذلك موقع الاحماد ، ثم ذكر مع ذلك توقف طايفة من الثوار الباقين فى شرق الأندلس ، عن مشايعة الأمير ناصر الدين ، ومتابعته ، وأنهم حالفوا النصارى ، واستنجدوا بهم فأعلن المسلمون بالدعاء عليهم ، والتبرى منهم ، ليتوب عليهم أو ليقطع شأفتهم . وكتب هذا الشيخ سؤالا على سبيل الاستفتاء ، وافيته فيه بما اقتضاه الحق ، وأوجبه الدين ، وأعجلنى المسير إلى سفر الحجاز ، وتركته مشمراً عن ساق الحد ، فى طلب خطاب شريف من حضرة الخلافة يتضمن شكر صنيع الأمير ناصر الدين فى حمايته لثغور المسلمين ، ويشتمل على تسليم جميع بلاد المغرب إليه ، ليكون رئيسهم ، ورؤسهم تحت طاعة ، وأن من خالف أمره ، فقد خالف أمر أمير المؤمنين ، ابن سيد المرسلين ، ويتعين جهاده على كافة المسلمين. ولم يبالغ أحد فى بث مناقب قوم ، مبالغة الشيخ الفقيه أبى محمد فى بث مناقب الأمير وأشياعه المرابطين. ولقد شاع دعاؤه فى المشاهد الكريمة بمكة حرسها الله ، لحضرة الأمير وجماعة المرابطين ، ولم يقنعه ما فعله بنفسه إلى أن كلف جميع من رجا بركة دعابهم ، الدعاء لهم فى تلك المشاهد الكريمة والمناسك العظيمة ، وأعلن بالدعاء لأمير بلده ، الأمير الأجل أبى محمد سير بن أبى بكر ، وفقه الله تعالى ، وذكر من فضله ، وحسن سيرته ، وتلطفه بالمسلمين ، ورفع جميع النوايب عنهم ، ما جهد به إلى النفوس . ولقد دُعى الشيخ الفقيه إلى المقام ببغداد على البر والكرامة ، والاتصال بأسباب ، يتشرف بها من خضرة الخلافة ، فأبا إلا الرجوع إلى ذلك الثغر يلازمه للجهاد مع الأمراء وفقهم الله تعالى ، ولو أقام لفاز بالحظ الأوفى من التوقير والإكرام ، وما أجدر مثله بأن يوفى حظه من الاحترام ، وولده الشيخ الإمام أبو بكر قد أحرز من العلم فى وقت تردده إلى ما لم يحرزه غيره مع طول الأمد وذلك لما خص به من ... الذهن، وذكاء الحس ، واتقاد القريحة ، وما يخرج من العراق ، إلا وهو مستقل بنصيبه ، حايز قصب السبق بين أقرانه . ومثل هذا الوالد والولد خص بالإكرام فى الوطن، وقد تميزا بمزيد التوفيق من الأعيان فى الغربة ، والله يحفظ من حفظهما ، ويرعا من رعاهما ، فرعاية أمثالها ، من آداب الدين المعينة على أمير المسلمين ، وقد قال المحسنون، فليستوص بمن ظفر بهم منهم خيراً ، وكم دخل قبلهما العراق ، ويدخل بعد هما من تلك البلاد [النائية] (١)

---

(١) المخطوط « الثانية » .

وما يذكر محاسنها ، ولا يرفع مساويها . وقد انتهى الشيخ الفقيه من ذلك إلى ما لا يمكن أن يلحق فيه ثناؤه ، فضلا عن أن يزاد عليه ، والله تعالى يعمر بهما أوطانهما ، ويصلح شأنهما ، ويوفق الأمير ناصر المسلمين ، ليتوسل إلى الله تعالى فى القيامة بإكرام أهل العلم ، فهى أعظم وسيلة عند رب العالمين ، ونسأل الله أن يخلد ملك الأمير ويؤيده ، تخليداً لا ينقطع ، أبد الدهر ، ولعل القلوب تنفر عن هذا الدعاء ، وتستنكر لملك العباد التأييد والبقاء . وليس كذلك . فإن ملك الدنيا ، إذا تزين بالعدل ، فهو شبكة الآخرة ، فإن السلطان العادل إذا انتقل من الدنيا ، انتقل من سرير إلى سرير أعظم منه ، ومن ملك إلى ملك أجل وأرفع منه . وإذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكاً كبيراً . ومهمى وفى العدل فى الرعية ، والنصفة فى القضية ، فقد خلد ملكه ، وأيد سلطانه ، وقد وفق له بحمد الله ومنه ، والحمد لله رب العالمين ، وصلواته على سيدنا محمد خاتم النبيين وآله أجمعين .

٢

رســـــالة

كتب بها الوزير الكاتب ابن شرف عن بعض رؤساء الغرب إلى أمير المسلمين رحمه الله فى فتح أقليش أعادها الله بقدرته

(منقولة عن المخطوط رقم ٤٨٨ الغزيرى المحفوظ بمكتبة الإسكوريال لوحة ٥٤ ا — ٥٨ ب)

أطال الله بقاء أمير المسلمين وناصر الدين ، عماد الأنام وعتاد الإسلام ، السعيد الأيام ، الحميد المقام ، كبيرى بالقدر ، وظهيرى على الدهر ، الذى أجله بحقه ، وأقر له بسبقه ، وأدام خلوده مؤيد الإرادة ، مؤيد السعادة ، مجدد النمو والزيادة . والحمد لله الجبار القهار ، الذى شد الأزر ، وأمد النصر ، وأعطى الفلج عن قسر ، ففلق عنه يد الماطل ، وفرق بين الحق والباطل ، والحمد لله الذى أسعد بدولة أمير المسلمين الأيام ، ونصر بسيفه الإسلام ، وغاظ به الكفار ، وجعل عليهم الكرة فولوا الأدبار . والله تعالى يشفع سعوده ، ويضمن مزيده ، وينصر جنوده بمنه .

ولما أن وضعنى أمير المسلمين ، أدام الله نصره ، حيث شاء من آلة التشريف والعز المنيف ، وألحقنى من النعماء سربالها وأسحبنى أذيالها ، وصرف

إلى من عدده وبلده ما أولانى نعمه ، ووالانى كرمه ، حفظت تلك الحرمة ، وشكرت لأستزيد من تلك النعمة ، وأخذت فى الاجتهاد فى الجهاد عالقاً بسببه ، آخذاً بمذهبه ، وهيأت من ماله عندى جيشه الموضوع بيدى ، وأجبت داعى الله الله بأعظم نية على أكرم طية ، لعزمة بيمناه رأسها ، وعلى تقواه أساسها وأصلها . وسرت عن حاضرة أغرناطة حرسها الله فى العشر الأواخر من شهر رمضان المعظم بجيش تصم صواهله ، وتطم كواهله ، راياته خافقة ، وعزماته صادقة ،ونبراته على ألسنة السعد ناطقة . ومررنا من طاعة أمير المسلمين وناصر الدين ، على جهات سمعت منادينا ، وتبعت هادينا ، وانقادت وراءنا أعداد وأمداد ، بروزاً من كمون ، وتحركوا عن سكون ، وانخنا بثغر بيّاسة ، وقد توافد الجمع ، وملىء البصر والسمع . وأخذت فى الرأى أخمره ، والعزم أضمره ، والذيل أشمره ، وجددت الاستخارة لله تعالى والاستجارة به ، وابتهلت إليه داعياً ضارعاً ، وعولت فى جميع أمورى على حكمه خاضعاً متواضعاً . ولحقنا بطرف بلاد العدو أعادها الله ، فوطئناها من هنالك ، وقد بان عنوان الأهبة ، والتأم بنيان الرتبة ، وسرنا بجيش يفيض فيضا ، على أرض تغيض غيضاً ، ولسيول الخيل إغراق ، ولبروق البواتر إشراق ، وقد نطقت ألسنة الأعنة بقدّام قدّام ، وأشرقت كواكب الأسنة فى غمام القتام ، وسدت الهموات كل نهج وسبيل ، واستقلت الرايات عن قبيل فقبيل ، وأفضت بنا الخبرة إلى المدينة الحصينة « أقليش » قاعدة القطر وواسطة الصدر ، ذات العدد العديد ، والسور المشيد ، فبدر السابق وشفع اللاحق . وغدونا يوم الأربعاء لأربع عشرة ليلة خلت من شوال ، فدرنا بها دور الحلقة بنقطها ، واكتنفناها اكتناف السبحة بسبطتها ، وبهت القوم ، واتسع البحر عن العوم ، وحاروا وحاموا ، حين راموا ، وجئنا بكل ضرب من الحرب ، نخسف عاليها ، وننسف هاويها ، ونلزها بالرماح ، ونهزها هز الغصن فى أيدى الرياح ، حتى فض الختام ، وعض منهم الإبهام ، وعجل الله بالنصر وفتحها بالقسر ، ونفخ فى صورهم ، ودارت دائرة السوء بدورهم ، ومحقتهم السيوف محق الربا ، وأذرتهم ريح النصر فصاروا هبا ، وبطحوا بطح زرع الحصيد ، وبسطوا بسط كلب الوصيد ، وأخذتهم فجأتنا أخذة ، ونبذت بهم سطوتنا نبذة ، فخروا إلى الأذقان ، وسيقوا إلى الموت والإذعان ، فما كدنا ننزل حتى كدنا ذلك المنزل ، وما أنخنا حتى رضخنا ،

ولاوصلنا إليه حتى حصلنا عليه ، فوردنا ما أردنا .

ولما استحر فيهم القتل ، واجتث منهم الأصل ، وضاق بهم المزدحم ، وغص ذلك الملتحم ، قصر الوقت المبغت ، وشغل الأخيذ عن المفلت ، وألهى الكثير عن من قل ، ونام الجم الغفير عن الفل ، وعادت بقاياهم بقصبة المدينة فولجوها ، كما يلج العصفور ، ويقوم العثور ، قد غلقوا الأبواب ، وأسدلوا الحجاب ، ونحن نصل الحد ، ونوحر لأفل غرب ، ولاملت حرب ، نجتث الجراثم ، ونحتز الغلاصم ، ونخرب الديار وبنيانها ، ونهدم البيع وصلبانها ، ونتتاحفوا بهدايا السبايا ، ونتكاشفوا عن بقايا الخبايا ، ونصرحوا بنيانا صدعته الحتوف ، وغلبته السيوف فلأطلاله هدم وعلى رسومه ردم ، حتى علا على الشرك الإيمان ، وبدل الناقوس بالأذان ، وزحزحت الهياكل عن مرضعها ، وطرحت النواقيس عن بيعها ، ولاذ بنا من هنالك من المسلمين عائذين بنا مستسلمين لنا ، فناشدونا بالملة وحرمتها ، وكشفوا لنا عن الخلة وسدتها ، وفروا من الحملة إلى الحملة ، فأوينا شاردهم ، وأقمنا قاعدهم ، فانجابت كربتهم ، وعادت بعد البوار ومجاوبة الكفار بشر دار ملتهم ، وأنار لهم الإسلام على منار الإيمان المجدد ، واشتهر فيهم التوحيد اشتهار الحسام المجرد ، وكشف الدين عن مضمره ، وخطب الحق المبين على منبره ، وأقمنا بقية يومنا على ذلك إلى أن خام النهار ، وحان من الشمس الاصفرار ، فعند ذلك أرحنا البواتر ، وغيضت تلك الدماء الهوامر ، وغداً الخميس فى الخميس ، مبنياً على ذلك التأسيس ، يجر أذيال الظفر فى العدد الأوفر ، يشفع الأوالى بالتوالى ، ويشترى العوالى بالعوالى ، فأصبحنا فى عز وأنس ، وأصبحوا لاترى إلامساكنهم كأن لم يغنوا بالأمس ، وتضامت تلك العصبة إلى تلك القصبة ، والقوم فى السجن والحصر ، والحصن كالواحد فى العالم ، والأصبع فى الخاتم ، والمحصور مأسور ، وصاحب الحائط مقهور ، ولم نزل نوسعهم قتالا ، ونوسعهم ضراً ونكالا مسافة اليوم ، إلى أن جزر النهار مده ، وبت الليل جنده ، فعدنا إلى محلتنا ، وقد أمل الكال أينه ، وغلبت الساهر عينه ، وكنت لم آل احتراسا للمحلة بطلائع تحرس جهاتها ، وتدرأ آفاتها ، وفى القدر ما يسبق النذر ، ويفوت الحذر ، لاكن كفاية الله خير من توقينا . وكان الطاغية زاده الله ذلا ، قد حشد أقطاره وحشر أنصاره ، وأبعد فى الاستصراخ مضماره ، وعبأ جيشاً قد أسرا إلى ذمر ، وانطوى على

غمر ، فأقدم وصمَّم ، وبئس ما تيم ، فاستسلمت جماعتهم على ابن الطاغية أذفونش ، وشيخهم وزعيم فرسانهم غرسية أرذونش ، وصاحب شوكتهم ألبرهانس ، والقمط بقبدره وقواد بلاد طليطلة وصاحب «قلعة النسور» و« قلعة عبد السلام » ، وكل قاص ودان ، وعاجل ووان ، أخزى الله جميعهم ، وطلّ نجيعهم ، ولا أقام صريعهم .

وهذا دعاء لو سكتُّ كفيته لأنى سألت الله ربى وقد فعل

وطرقوا من طرف مجتمعهم يريدون الغرة ، ويظهرون صلفاً تحت الغرة ، وتقدموا فتندموا ، ودنوا فهووا ، ووصلوا فحصلوا ، وأرسل الله تعالى من جنده فتى كانوا قد سبوه صغيراً واقتنوه أسيراً ، ولله تعالى فيه خبأة أعدها من عنده ، وبعثها من جنده ، ونزع الفتى إلينا من معسكرهم منبئاً بهم دالا عليهم ، وكاشفاً بهم على النبأ العظيم ، ومطلعاً منهم على المقعد المقيم ، فعند ذلك ثارت ثائرتنا ، ودارت على مركز التوفيق دائرتنا ، وقام القاعد ، وأشار البنان والساعد ، وتضام القريب والمتباعد ، والليل قد هدأ ، والصبح قد بدأ ، والدياجير ممدودة السرادق ، مجموعة الفيالق ، ولا جار إلا الغاسق ، ولا مار إلا السها والطارق ، وكنت قد استدنيت القائدين المجربين ، ذوى النصيحة والآراء الصحيحة ، أبا عبدالله محمد بن عائشة ، وأبا محمد عبد الله بن فاطمة وليىّ أعزهما الله ، فجالا فى مضمار وساع واضطلاع ، بذرع وذراع ، فاجتمعنا على كلمة الله متعاقدين ، وخضعنا إلى حكمه مستسلمين ، فعند ذلك حل يده المحتبى ، وقيل يا خيل الله اركبى ، فعادت الآراء بالرايات ، وحكمت النهى فى النهايات ، والأسنة تجول فى آمادها ، والنصول تصول فى أغمادها . وثرنا كما ثار الشهم بفرصته ، وطار السهم لفوضته ، وأمرت رجالا بلزوم المحلة ، فسدوا فرج أبوابها ، ولاذوا بأوتادها وأسبابها ، فداروا بها دور السوار ، وانتظموها انتظام الأسوار ، قد شرعوا الأسنة من أطرافها ، وأجالوا البواتر فى أكنافها ، وأضاقوا الأفنية ، وقاربوا بين الأخبية . وعبأنا الجيش يمناه ويسراه ، وصدره ولهاه ، وساقته وأولاه ، ونهضنا بجملتنا من محلتنا ، والصبر يفرغ علينا لامه ، والنصر يبلغ إلينا سلامه ، وتوجهنا إلى الله نقتفى سبيله ، ونبتغى دليله ، فما رفع الفجر من مُجابه ، ولا كشر الصبح عن نابه ، حتى ارتفعت ألوية الدين سامية الأعلام ، واتسعت أقضية المسلمين ماضية الأحكام ، وقيض الليل خمسه ، وفضح الصبح نفسه ، ولسن السنان لمعان ،

ولشباب العراك ريعان ، ولأنفاق الإعلام ضراب أو طعان . وعند ذلك نجم « العجم » فى سواد الليل وإزباد السيل ، يهبطون إلى داعيهم ، ويهرعون إلى ناعيهم ، فى دروع كالبوارى ، ورماح كالصوارى ، كأنما شجروا باللديد ، وسجنوا فى الحديد ، يزحفون والحين يعجلهم ، ويركبون والحتف يزحلهم ، يتلمظون تلمظ الحيات ، قد تحالفوا أن لايتخالفوا ، وتبايعوا أن يتشايعوا ، ووصلوا إلى مقدمتنا ، وكان هناك القائد « أبو عبد الله محمد بن أبى زنغى » مع جماعة ، فصدمهم العدو بصدور غيرة وقلوب أشرة ، فأنحوا بكلكل ورموا بجندل ، وشدوا فما ردوا ، وصادروا فما صدوا ، وتقهقر القائد « أبوعبد الله » غير مول ، وتراجع غير مخل إلىأن اشتد منا بطود ، وزحم من جيشنا بعود . فتراءى الجمعان ، وتدانا العسكران ، وأمسكنا ولا نجبن ، ووقفنا والأناة يمن ، فعند ذلك ثار النصر فمد يمناه ، وأناط الصبر فأشرق محياه ، ونزلت السكينة ، وأخلصت القلوب المستكينة ، واهتزت الفيالق مائجة ، وهدرت الشقائق هائجة ، وجحظت العيون غضباً ، وطلبت البواتر سبباً ، وأذن الحديد بالجلاد ، وبرزت السيوف عن الأغماد ، وتصاهلت الخيول ، وتصاولت القيول ، فعند ذلك تواقف القوم كوقفة العير ، بين الورد والصدر ، فبرز فارس من العرب ، فطعن فارساً منهم فأذراه من مركبه ، ورماه بين يدى موكبه ، فانتهج ، ما أرتج ، وانفتح المبهم ، وأفصح المعجم ، فعند ذلك اختلطت الخيل ، بل سال السيل ، وأظلم الليل ، واعتنقت الفرسان ، واندقت الخرصان ، ودجا ليل القتام ، وضاق مجال الجيش اللهام ، واختلط الحسام بالأجسام ، والأرماح بالأشباح ، ودارت رحى الحرب تغر بنكالها ، وثارت ثائرة الطعن والضرب تفتك بأبطالها ، فلثغر الصدور ابتراد ، ولحزم القلوب انتهاد ، فما وضح النهار ، ولا مسخ الغبار ، حتى خضعت منهم الرقاب ، وقبلت رؤوسهم التراب ، واتصل الهلك بالشرك ، وعادت الضالة إلى الملك ، وقلم ظافر الكفر ، وطالت إيمان الإيمان ، وفر الصليب سليباً ، وعجم عود الإسلام فكان طيباً ، وغمرهم الحيف فهمدوا ، واطفأهم الحين فخمدوا ، ومات جلهم بل كلهم ، وما نجا إلا أقلهم ، وحانوا فبانوا ، وقيل كانوا ، وكشفت الهبوات ، وأنجلت تلك الهنات ، عن رسوم جسوم قدقصفتها البواتر ، ووطئتها الحوافر ، خاضعة الخدود ، عاثرة الجدود ، وأخذت ساقتنا فى الطلب ، وضم السلب إلى السلب . وملئت الأيدى بنيل وافى الكيل ،

خيلا وبغالا وسلاحاً ومالا ، ودروعاً ، أكلّهم حملها ، وأثقلهم جملها ، فساءت ملبسا وصارت محبساً ، فطرحوها كأنهم منحوها ، وألقوها كأنهم أعطوها ، احتزناها نهباً ، وأخذناها كأن لم تكن غصباً ، لقطة ولانكر ، وعطية ولغيرهم شكر ، ثم أمرت بجمع الرؤوس ، فاحتزت الدانية وزهد فى جمع النائية ، فكان مبلغها نيفاً على ثلاثة آلاف منهم غرسية أرذونش والقومط وقواد بلاد طليطلة ، وأكابر منهم لم يكمل الآن البحث عنهم ، فكانت كالهضب الجسيم ، بل الطود العظيم ، وأذن عليها المؤذنون ، يوحدون الله ويكبرون ، فلما جاء نصر الله ، ووهب لنا فتح الله ، شكرنا مولى النعم ومُسديها ، ومُعيد المنن ومُهديها ، وصدرت غانماً ، وأبت سالماً ، وبقى القائدان محاصرين لحصن أقليش آخذين بمخنّقهم ، مستولين على رمقهم .

فخاطبت أمير المسلمين أدام الله سروره ، ووصل حبوره ، معلما بالأمر ، مهنياً بالنصر ، لنحمد الله عز وجل ، على ما وهب ، ونشكره على ما سنى وسبب ، والله يتكفل بالمزيد ويشفع القديم بالجديد ، ويمن بالظفر والتأييد ، فهو ولى الامتنان ، والملي الفضل والإحسان ، لارب غيره ولا معبود سواه .

٣

رســـالة

كتب بها قاضى سرقسطة والجمهور فيها
إلى الأمير أبى الطاهر تميم بن يوسف بن تاشفين
حين حاصرها ابن رذمير واستغلبها أعادها الله

(منقولة عن المخطوط رقم ٤٨٨ الغزيرى المحفوظ بمكتبة الإسكوريال لوحة ٥٥ ا – ٦١ ب) .

من ملتزمى طاعة سلطانه ، ومستنجديه على أعداء الله ، ثابت بن عبد الله ، وجماعة سرقسطة من الجملة فيها من عباد الله .

أطال الله بقاء الأمير الأجل ، الرفيع القدر والمحل ، لحرم الإسلام يمنعه ، ومن كرب عظيم على المسلمين ، يزيحه عنهم ويدفعه .

كتابنا أيدك الله بتقواه ، ووفقك لاشترا دارحسناه ، بمجاهدة عداه ، يوم الثلاثاء السابع عشر من الشهر المبارك شعبان ، عن حال قد عظم بلاؤها ، وادلهمت ضراؤها ، فنحن فى كرب عظيم ، وجهد أليم ، قد حل العزا والخطب ،

وأظلنا الهلاك والعطب ، فياغوثاه ، ثم ياغوثاه إلى الله ، دعوة من دعاه ، وأمله لدفع الضرر ورجاه ، سبحانه المرجو عند الشدائد ، الجميل الكرم والعوايد ، ويالله ، ويالإسلام ، لقد انهك حماه ، وفضت عراه ، وبلغ المأمول من بيضته عداه ، ويا حسرتا على حضرة قد أشفت على شفى الهلاك ، طال ما عمرت بالإيمان ، وازدهت بإقامة الصلوات وتلاوة القرآن ، ترجع مراتع للصلبان ، ومشاهد ذميمة لعبدة الأوثان ، ويا ويلاه على مسجد جامعها المكرم ، وقد كان مأنوساً بتلاوة القرآن المعظم ، تطؤه الكفرة الفساق بذميم أقدامها ، ويؤملون أن يدنسوه بقبيح آثامها ، ويعمروه بعبادة أصنامها ، ويتخذوه معاطن لخنازيرها ، ومواطن لحماراتها ومواخيرها ، ثم يا حسرتاه على نسوة مكنونات عذارى ، يعدن فى أوثاق الأسارى ، وعلى رجال أضحوا حيارى ، بل هم سكارى ، وماهم بسكارى ، ولاكن الكرب الذى دههم شديد ، والضر الذى مسهم عظيم جهيد ، من حذرهم على بنيات قد كن من الستر نجيان الوجوه ، أن يروا فيهن السوء والمكروه ، وقد كن لايبدون للنظار ، فالآن حان أن يبرزن إلى الكفار ، وعلى صبية أطفال قد كانوا نشئوا فى حجور الإيمان ، يصيرون فى عبيد الأوثان ، أهل الكفر وأصحاب الشيطان ، فما ظنك أيها الأمير بمن يلوذ به بعد الله الجمهور ، بأمة هى وقايد هذه العظام الفادحة ، والنوائب الكالحة ، هو المطالب بدمائها ، إذا أسلمها فى آخر ذمائها ، وتركها أغراضاً لإعدائها ، حين أحجم عن لقائها ، فالى الله بك المشتكا ، ثم إلى رسوله المصطفى ، ثم إلى ولى عهده أمير المسلمين المرتضى ، حين ابتعثك بأجناده ، وأمدك بالجم الغفر من أعداده ، نادباً لك ، إلى مقارعة العدو المحاصر لها وجهاده ، والذب عن أوليائه المعتصمين بحبل طاعته ، والمتحملين السبعة الأشهر الشدايد الهايلة فى جنب موالاته ومشايعته ، من أمة قد نهكهم ألم الجوع ، وبلغ المدى بهم من الضر الوجيع ، قد برح بهم الحصار ، وقعدت عن نصرتهم الأنصار ، فترى الأطفال بل الرجال جوعاً يجرون ، يلوذون برحمة الله ويستغيثون ، ويتمنون مقدمك بل يتضرعون ، حتى كأنك قلت أخسئوا فيها ولاتكلمون . وماكان إلا أن وصلت وصل الله برك بتقواه ، على مقربة من هذه الحضرة ، ونحن نأمل منك بحول الله أسباب النصرة ، بتلك العساكر التى أقر العيون بهاؤها ، وسر النفوس زهاؤها ، فسرعان ما انثنيت وما انهيت ، وارعويت ، وما أدنيت ، خايباً عن اللقاء ، ناكصاً على عقبيك عن الأعداء .

فما أوليتنا غناء، بل زدتنا بلاء وعلى الداء داء، بل أدواء، وتناهت بنا الحال جهداً والتواء ، بل أذللت الإسلام والمسلمين ، واجترأت فضيحة الدنيا والدين ، فيالله ويا للإسلام ، لقد اهتضم حرمه وحماه أشد الاهتضام ، إذ أحجمت أنصاره عن إعزازه أقبح الإحجام ، ونكصت عن لقاء عدوه وهو فى فئة قليلة ، وملة رذيلة ، وطايفة كليلة ، يستنصر بالصلبان ، والأصنام ، وأنتم تستنصرون بشعار الإسلام ، وكلمة الله هى العليا ويده الطولا ، وكلمة الذين كفروا السفلى ، وإن من وهن الإيمان ، وأشد الضعف ، الفرار عن الضِّعف ، فكيف عن أقل من النصف ، فيا قبح من رضى بالصغار وسما خطة الخسف ، فما هذا الجبن والفزع ، وما هذا الهلع والجزع ، بل ما هذا العار والضيع ، أتحسبون يا معشر المرابطين ، وإخواننا فى ذات الله المؤمنين ، إن سبق على سرقسطة القدر ، بما يتوقع منه المكروه والحذر ، أنكم تبلغون بعدها ريقاً ، وتجدون فى ساير بلاد الأندلس عصمها الله ، مسلكاً من النجاة أوطريقاً ، كلا والله ليسومنكم الكفار عنها جلاء وفراراً ، وليخرجنّكم منها داراً فداراً ، فسرقسطة حرسها الله ، هى السد الذى إن فتق ، فتقت بعده أسداد ، والبلد الذى إن استبيح لأعداء الله ، استبيحت له أقطار وبلاد ، فالآن أيها الأمير الأجل ، هذه أبواب الجنة قد فتحت ، وأعلام الفتح قد طلعت ، فالمنية ولا الدنية ، والنار ولا العار ، فأين النفوس الأبية ، وأين الأنفة والحمية ، وأين الهمم المرابطية ، فلتقدح عن زنادها بانتضاء حدها ، وامتضاء جدها واجتهادها ، وملاقاة أعداء الله وجهادها ، فإن حزب الله هم الغالبون ، وقد ضمن تعالى لمن يجاهد فى سبيله أن ينصره ، ولمن حامى عن دينه أن يؤيده ويظهره ، فما هذا أيها الأمير الأجل ، ألا ترغب فى رضوانه ، واشترا جنانه ، بمقارعة حزب شيطانه ، والدفاع عن أهل إيمانه ، فاستعن بالله على عدوه وحربه ، واعمد ببصيرة فى ذات الله إلى إخوان الشيطان وحزبه ، فإنهم أغراض للمنايا والحتوف ، ونهر للرماح والسيوف ، ولاترض بخطة العار ، وسوء الذكر والصيت فى جميع الأمصار . ولاتك كمن قيل فيه :

يجمع الجيش ذا الألوف ويغزوا ولايرزأ من العدو فتيلا

ولن يسعك عند الله، ولاعند مؤمن، عذر فى التأخر والارعوا، عن مناجزة الكفار والأعداء . وكتابنا هذأ أيها الأمير الأجل ، اعتذار تقوم لنا به الحجة فى جميع البلاد ، وعند ساير العباد ، فى إسلامكم إيانا ، إلى أهل الكفر والإلحاد،

ونحن مؤمنون ، بل موقنون إجابتك إلى نصرتنا ، وإعدادك إلى الدفاع عن حضرتنا، وأنك لا تتأخر عن تلبية ندائنا، ودعاينا إلى استنقاذنا من أيدى أعدائنا، فدفاعك إنما هو فى ذات الله ، وعن كَلِمه ، ومحاماة عن الإسلام وحزبه ، فذلك الفخر الأنبل لك فى الأخرى والدنيا ، وموّرثٌ لك عند الله المنزلة العليا ، فكم تحيي من أمم ، وتجلى من كروب وغمم ، وإن تكون منك الأخرى ، وهى الأبعد عن متانة دينك ، وصحة يقينك ، فاقبل بعسكرك على مقربة من سرقسطة ، عصمها الله ، ليخرج الجميع عنها ، ويبرأ إلى العدو وقمه الله منها ، ولاتتأخر كيفما كان طرفة عين ، فالأمر أضيق ، والحال أزهق ، فعد بنا عن المطل والتسويف ، قبل وقوع المكروه والمخوف ، والا فأنتم المطالبون عند الله بدمائنا وأموالنا ، والمسئولون عن صبيتنا وأطفالنا ، لإحجامكم عن أعدائنا ، وتثبطكم عن إجابة ندائنا ، وهذه حال نعيذك أيها الأمير عنها ، فإنها تحملك من العار مالم تحمله أحداً ، وتورثك وجميع المرابطين الخزى أبدا ، فالله الله أتقوه ، وأيدوا دينه وانصروه ، فقد تعين عليكم جهاد الكفار ، والذب عن الحرم والديار ، قال الله ، يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار ، وليجدوا فيكم غلظة الآية ، ومهمى تأخرتم عن نصرتنا، فالله ولى الثار لنا منكم ، ورب الانتقام ، وقد بريتم بإسلامنا للأعداء ، من نصر الإسلام ، وعند الله لنا لطف خفى ، ومن رحمته ينزل الصنع الخفى، ويغنينا الله عنكم ، وهو الحميد الغنى . ومن متحملى كتابنا هذا، وهم ثقاتنا تقف من كنه حالنا على ما لم يتضمنه الخطاب ، ولااستوعبه الإطناب بمنه ، وله أتم الطول فى الاصغاء إليهم واقتضاء مالديهم ، ان شاء الله تعالى ، والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته .

٤

رســــالة

كتب بها أمير المسلمين إلى الأمير الأجل

أبى محمد بن أبى بكر بهزيمة « القلعة » رحمهما الله

(منقولة عن المخطوط ٤٨٨ إسكوريال السابق ذكره لوحة ٧١ ب — ٧٢ ا) .

كتابنا وفق الله رأيك وحسن هديك ، ولا أمال عن الهدى والرشد سعيك . من حضرة مراكش حرسها الله فى السابع من شعبان المكرم سنة ثلث وعشرين

وخمس مائة . وقبله وافى كتابك تذكر فيه المثلة التى كانت للعدو — دمره الله — عليك فى اليوم الذى واجهتموه فيه ، بعد ان كان لكم صدره ، وأتيح لكم نصره ، فأواخر الأمور أبدا أوكد وأهم ، والعواقب هى التى تحمد أوتذم ، وإذا حسنت خواتم الأعمال فالصنع أبْهَا وأتم ، وإن لسان العذر لتلك الحال لقصير ، وإن الله على ذلك المشهد المضيع لمطلع بصير : توافقتم مع عدوكم ، وأنتم أوفر منه عدة وأكثر جمعاً ، وأحرى أن تكونوا أشد عن حريمكم منعاً ، وأقوى دونه دفعاً ، فثبت وزللتم ، وجدّ ونكلتم ، وشد عقد عزيمته وحللتم ، وكنتم فى تلك الوقعة قرة عين الحاسد ، وشماتة العدو الراصد ، وقد كانت نصبة توليكم بين يديه بشيعة هائلة ، ودعامتكم لولا انثناؤه عنكم مائلة ، فشغله عنكم من غررتموه من الرّجل الذى أسلمتموه للقتل ، وفررتم ، ونصبتموهم دريئة للرمح ثم طرتم ، ولولا مكان من أوردتموه من المسلمين ولم تصدروه ، وخذلتموه من المجاهدين ولم تنصروه ، لا نكشف دون ذلك الرماح جنتكم ووقاؤكم ، وأصيبت بها ظهوركم وأقفاؤكم ، عاقبكم الله بما أنتم أهله ، فأنتم أشجع الناس أقفاء وظهوراً ، وأجبنهم وجوها ونحوراً ، ليس منكم من تدفع به كريهة ، ولاعندكم فى الرشد روية ولابديهية ، فمتى وأى وقت تفلحون ، ولأى شىء بعد ذلك تصلحون ؟ ونحمد الله عز وجهه كثيراً ، فقد دفع بفضله الأهم الأكبر ، وأجرى بأكثر السلامة القدر . فاكشفوا بعد أغطية أبصاركم ، وقصروا حبل اغترارِكم ، وألبسوا منه جنة حذاركم ، واعلموا أن وراء مجازاتنا إياكم جزاء توفونه ، ويوماً عصيباً تلقونه ، فكونوا بعد هذه الهناة لداعى الرشد بين مطيع وسامع ، ومن كلمة الاتفاق والتآلف على أمر جامع ، فانكم لو خلصت غيوبكم ، وحسنت سريرتكم ، واطمأنت على التقوى قلوبكم ، لظهر أمركم وعلا جدكم ، ولما ذهب ريحكم ولا فل حدكم ، فتوخوا فى سبيل الله وطاعته أخلص النيات ، وأصدق العزمات ، واثبتوا أحسن الثبات ، وكونوا من الحذر والتقوى على مثل ليلة البيات . وقد ذُكر أن للعدو دمره الله مدداً يأتيه من خلفه ، والله يقطع به ، فلتضعوا على مسالكه عيوناً تكلأ ، ولتكن آذانكم مصيخة لما يطرأ ، فإن كان له مدد كما ذكر ، قطعتم به السبيل دون لحاقه ، وأقمتم الحزم على ساقه ، والله تعالى يفتح لكم فيهم الأبواب ، ويأخذ بأزمتكم إلى الصواب ، أنه الحميد المجيد ، لا إله غيره .

٥
رســــالة

وله (أى لأمير المسلمين) إلى الفقيه القاضى وسائر الفقهاء والوزراء والأعيان والكافة ببلنسية عند نزول ابن رذمير عليها

(منقوله عن المخطوط رقم ٤٨٨ إسكوريال السابق ذكره لوحة ٧٢ – ٧٣أ) .

كتابنا أبقاكم الله ، وأمدكم بتقواه ، ووفقكم لما يرضاه ، ولا أخلاكم من لطايف رضاه ، وعوارف نعماه ، من حضرة مراكش حرسها الله ، لسبع خلون من شعبان المكرم سنة ثلث وعشرين وخمس مائة . وقد وصل إلينا كتاب الفقيه الخطيب القاضى أبى الحسن منكم أعزه الله بتقواه ، مضمنا من ذكر ما بلغه الوجل من نفوسكم ، مالانزال نتوخا بحسبه ان شاء الله ما يفى بترفيهكم وتأنيسكم ، فلايذهبن بكم الجزع لما كان من انكشاف المسلمين هناك عن مراكزهم ، وتصيرهم ما صيروه من محلتهم ، فرصة لمناهزتهم ، وانهزامهم بغير سبب سوى تخاذلهم المعتاد ، مع ماكانوا عليه من تكاثر الأعداد ، وتظاهر الأجناد ، فحسبناهم جميعاً وقلوبهم شتى ، ولشد ما وعظناهم فى ذلك وذكرناهم ، فما نجعت فيهم الموعظة ، ولانفعتهم الذكرى . وبعد فإنا لاندعكم بحول الله لضياع ، ولانألوكم إلا اهتبالا يذهب بمشيئة الله ما نالكم من توقع وارتياع ، فطيبوا أنفساً ، واطمئنوا قلوبا ، والله يجعل من دون ما توقعتموه فتحاً قريباً ، إنه هو الفتاح العليم المنان الكريم ، لا رب غيره . واعلموا أنه قد نفذت الآن كتبنا ثانية ، إلى ولاة أعمالنا كلأهم الله وإياها ، نأمرهم بتسريب الأقوات ، وتعجيل إنفادها نحوكم من كل الجهات ، وسيرد عليكم منها الكثير الموفور لأقرب الأوقات ، ثم لاتزالون من بالنا بأحق مكان من المراعاة والمحاماة ، ان شاء الله تعالى ، وهو سبحانه يوفقنا لصالح نتوخاه من لم شعثكم ، وسد خللكم ، وإذهاب مكترثكم ، وحسم عللكم ، ويقضى بما يضم نشرهم ، ويشد أزرهم ، ويصلح أمرهم ، ويسد ثغرهم ، ويحفظ الألفة عليهم ، ويربى النعمة لديهم برحمته ، وتبلغوا أبقاكم الله سلاماً كثيراً أثيراً خطيراً موفوراً .

٦
رســـالة

وله (أى لأمير المسلمين) إلى المذكورين مجاوباً لهم بهزيمة ابن رذمير إياهم فى « القلاعة »

(منقولة عن المخطوط رقم ٤٨٨ إسكوريال السابق ذكره لوحة ٧٣ ب)

كتابنا أبقاكم الله وأكرمكم بتقواه ، وكنفكم بعصمته وجعلكم فى حماه ، وأسبغ عليكم عوارفه ونعماه ، من حضرة مراكش حرسها الله فى الحادى عشر من شعبان المكرم من سنة ثلث وعشرين وخمسمائة ، غب ماوافانا كتابكم الأثير مضمناً وصف اليوم الذى جرت به خزيه المقادير ، فاستعرضناه وتقرر لدينا جميع ماحواه ، وفى علمه سبحانه موقع ذلك لدينا وعزازة شأنه علينا ، لكن لا مخرج عن القضاء وحكمه ، ولا محيد عن القدر وحتمه ، ولن يرد حول محتال ما سبق فى علمه ، وما ألونا ، وهو عز وجهه أعدل الشاهدين ، جدا وعزماً وكدحا لإعلاء كلمة الإسلام ، وحزماً ببذل الأموال وتخير الرجال ، واعتيام الأسلحة والأفراس ، والجمع بين الإيحاش والإيناس ، فى الوعد والوعيد والتخصيص والتأكيد ، وعرض الآراء المتخيل فيها السداد ، وبلوغ مدة جهاد فى كل نحو والاجتهاد ، لوكان العون موجوداً ، ولم يكن التعذير ... حاضراً عتيداً ، والله يخزى كل خاين ماين بأسخاطه تعالى داين جزاه ، ويرد به برد مضمره ورداه ، ويوشك مقارضته وإرداه بحوله وطوله ، وبالله القسم الأعظم لو أمكننا ان نكون لديكم حاضرين ، لأسرعنا بذلك مبادرين ، ولما ثنانا عن حمايتكم بأنفسنا ثان ، ولاقعد بنا عن معالجة نصركم تراخ ولا توان . وقد جددنا الآن أحث نظر ، ونحن نردفه بما يكون عليكم ألم وارد ، وأسرع منتظر ، فلتهدأ ضلوعكم ويسكن مروعكم ، فمالنا والله يشهد هم سوى الذياد عنكم والدفاع ، والانفراد لذلك والاستجماع ، والاجتهاد ، والتوفر عليه بأتم الاضطلاع ، والله عز وجل المعين المنجد ، فلم يزل يعضد على ما يرضيه ويؤيد ، لا إله إلا هو .

٧

رســـــالة

وجهها أمير المسلمين على بن يوسف بتقريع قادته وجنده عقب هزيمتهم أمام ابن رذمير (ألفونسو المحارب) فى أراضى بلنسية

(منقولة عن المخطوط رقم ٥٣٨ الغزيرى المحفوظ بمكتبة الإسكوريال لوحة ١١٣ا–١١٣ب).

« من أمير المسلمين وناصر الدين ، أما بعد ،

يا فرقة خَبُثتْ سرايرها ، وانتكثت مرايرها ، وطايفة انتفخ سحرها ، وغاض على حين مرَّة بحرها ، فقد آن للنِّعم أن تفارقكم ، وللأقدام أن تطأ مفارقكم ، حين ركبتموها جلواء عارية ، وأصبحتم فى ادِّراع عارها أمثالا سواسية ، واختلط المرعى منكم بالهمل ، فما يتبين الأنقص من الأكمل ، فطأطأتم لها رءوس عشايركم ، وقضيتم بالفسولة على سايركم . لاجرم أن قد صرتم سمر الندى ، والأحاديث المُلعِنة بالغداة والعشى ، بما خامركم من الجبن والخور ، واستهواكم من لقاء عدوكم بالجانب الأزور ، لاتواجهونهم طرفة عين ، ولاتعاطونهم حُمَة حين ، بل تعطونهم الظهر هنياً مريا ، وتتخذونهم وراءكم ظهريا ، والرماح نحوكم لم تشرع ، والخيل لم تسرع ، والنفوس فى حياض المنية لم تُكرع ، فإنكم ثلة ذيابهم وفريسة أنيابهم ، قد نعموا فى بوسكم ، وناهضوكم بلبوسكم ، وحاربوكم عاما على إثرعام ، حتى ألزقُوكم ، وتركوكم أسلح من حُبارى ، وأشرد من نعام .

فالآن حين ملأتم أيديهم متاعا ، ووادِيهم سلاحاً وكراعا ، قد غزوكم فى عقركم ، وأذاقوكم وبال أمركم ، فلذتم بالجدران ، وبؤتم بالندامة والخسران . يابغايا بنى الأصفر ، وسجايا ذوات الدَّل والخفر ، أكرهتم زَحافهم ، وكنتم — علم الله — أضعافهم ؟ أنى لكم بالمعذرة ، وأين ؟ وقد فرض الله الواحد منكم بالإثنين ، فقال : « إن تكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين » . هذا ، وكلمتكم العليى ، وحلوبتكم الحياة الدينى ، ماشئتم من صارم ، وطرف ونحض وركايب وسوام ، ونضايد وخيام .

فيا أسفا للحق يدمغه الباطل ، والحالى يبهره العاطل . لا بالحنيفية تحرّزتم ، ولا إلى الحفيظة والإنابة تحيزتم . ليت شعرى بماذا تقلدتموها هندية واعتقلتموها سمهرية خطية ، وركبتموها جردا سوابق ، وملكتموها مغارب ومشارق ؟

ثاوين فى غير عدادكم، منتزين على أضدادكم، يؤدون الإتاوة إليكم حين أشرقنموهم بالهوان ، وأنتم فيهم غرباء الوجه واليد واللسان ، وصيروكم عبيد العصى ، ولستم بالأكثرين منهم حصى ، بل شرذمة قليل نفعها ، كثير نجعها . فيا عجبا لذهولكم ، شبانكم وكهولكم ، تأكلون تمرها ، ولا تصْلون جمرها ، وتذهبون بحلوائها ، ولاتصبرون على لأوائها ؟ أى بنى اللئيمة ، وأعيار الهزيمة ، إلى م يريعكم الناقد ، ويردكم الفارس الواحد :

إلى م يريعكم الناقد ويردكم الفارس الواحد
ألا هل أتاها على نأيها بما فضحت قومها غامد
تمنيتم مائتى فارس فردكم فارس واحد
فليت لكم بارتباط الخيول ضئاناً لها حالب قاعد

ومن لرعاة الإبل بالحد المقبل ؟ لقدماً ما أذهبتم التالد والطارف ، وعجباً عجيباً من جذامى المطارف ، وأنتم قد قدحتم فى ملكنا ، وأذنتم بانتثار سلكنا ، فلولا من لدينا من ذويكم ، وضراعتهم إلينا فيكم ، لألحقناكم عجلا بصحرايكم ، وطهرنا الجزيرة من رُحَضايكم ، بعد أن نوسعكم عقابا ، ونخدُّ أن لاتلوا على وجه نقابا . فاللؤم تحت عمايمكم ، والوهن والفشل ، طى عزايمكم ، لاكن ما جبلنا عليه من الأناة ، وتوخيناه قدما من إيقاظ ذوى الملكات ، يكفنا عن استيصالكم ، ويحملنا على شحذ نصالكم .

فاستنسروا يابغاث الهيجا ، واستيئسوا ، بعد الرجا ، واحذروا حلما أغضبتموه ، ووادياً من الصبر أنضبتموه ، وتوقوا صدراً أحرجتموه ، وليثاً من أجمته أخرجتموه ، وأيم الله نقسم إنذارا بكم ، وإعذارا لكم ، لنوردنّ الفار منكم من الزحف ، ماعافه من موارد الحتف ، ولنتجاوزنّ السوط إلى السيف ، ولنبدلن المعدلة فيكم بالحيف ، فليعلم المقدم المحجم منكم عن الإقدام ، أنه سلم من الحمام إلى الحمام ، وتخطى مصرع الأسد الباسل إلى جذع مائل ، وشهادة الأبرار إلى مشهد الذل والصغار ، كما أن من أصيب منكم فى حرب ، أو أبلى بطعن أو ضرب ، خلفناه فى الأهل والولد ، وبعناه الأثرة والكرامة يدا بيد ، فاختاروا لأنفسكم وأعقابكم ، وانضوا ثوب الخزى عن رقابكم ، والسلام على من حمى الإسلام .

كمل ماكتب به الفقيه الأديب ، الكاتب البليغ الأريب ذو الوزارتين أبو عبد الله بن أبى الخصال عن أمير المسلمين » .

٨
رســـالة

لأبى عبد الله بن أبى الخصال عن بعض المرابطين
إلى أمير المسلمين على بن يوسف
تتعلق بشئون حصن أرلبة (أوريخا)

(منقولة عن المخطوط رقم ٥١٩ الغزيرى بمكتبة الإسكوريال لوحة ١٠٤ ب و ١٠٥ أ) .

« أطال الله بقاء أمير المسلمين وناصر الدين ، موئيدا بجنوده ، معاناً بتوفيقه وتسديده ، ولا زال عدله ينعش الأمم ، وسعده ينهض الهمم . كتبت أدام الله تأييده ، من قرطبة حرسها الله ، لست بقين من جمادى الآخرة ، وقبل بثلاث وافيتها من الوجهة التى صحبنى ومن معى فيها يمن أمره ، واكتنفتنا عزة نصره ، بعد أن أودعنا حصن أرلبة حماه الله ، قوتاً موفوراً ، ومرفقاً كثيراً ، وحطت عندهم الأسعار وعم الاستبشار ، وتسلم أبو الخيار مسعود الدليل ، سلمه الله ، الحصن ، واحتوى عليه ، وصار أمره إليه ، ووافينا فلاناً أبقاه الله ، قد استاق غنيمة ظاهرة ، وجملة من البقر وافرة ، وقتل من العدو ، قصمه الله عدداً ، وقضى وطراً ، وشفى وجداً ، فتيمن الناس هناك ، بولاية الأمير أبى يحيى أعزه الله ، وبقيادة هذا القائد ، الذى اقترن الفتح بمأتاه ، وكانت [عند] مقدمنا هذا الحصن خيل طليطلة بددها الله ، مجتمعة ، فوقذهم الرغب وشملهم الصغار ، والرغم ، وتحققنا هناك أن مواشى تلك الجبال ، قد أخذت فى الإ . . . نبساط والإسهال ، والدنو من الوادى فى طلب الخصب ، وتحوله من البرد إلى الدفء ، والله يجعلها للمسلمين طعمة ، ويزيدهم بها قوة بعزته ، وأنباء العدو ، قصمه الله ، الآن خامدة ، وعزائمهم هامدة ، وأيديهم جامدة ، استأصل الله ، بجد أمير المسلمين نعمتهم ، وقطف قممهم ، وأداخ بلادهم ، وانتسف طارفهم وتلادهم ، وألفيت الحضرة حرسها الله ، وقد أخذ السرور من أهلها كل مأخذ ، وسرى فيهم كل مسرى ومنفذ ، بولاية الأمير أبى يحيى أعزه الله ، وكثر الدعاء لأمير المسلمين أيده الله ، بما جدد لديهم من حسن نظر ، وخلع عليهم من جمال سيرة ، ولقيته فلقيت كل ما أبهج ، وكان وفقاً لما انتشر ، ومشاكلا لما استذاع وظهر ، تمم الله النعمة ، وظاهر عليه الكفاية والعصمة ، ووافتنى كتبه الكرام بما بلغ الأمل ، وحسم العلل ، وأنا ممتثل فى كل معنى ما يحره مجتهد ، فيما يقيم ذلك الثغر ويسده ، إن شاء الله عز وجل » .

٩
رســـالة

موجهة من أمير المسلمين تاشفين بن على بن يوسف
إلى الفقهاء والوزراء والأخيار والكافة ببلنسية

(منقولة عن المخطوط رقم ٥٣٨ إسكوريال السابق ذكره لوحة ١١ ا – ١٢ب) .

« بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على محمد وآله وسلم تسليما . من أمير المسلمين وناصر الدين تاشفين بن على بن يوسف بن تاشفين .

إلى وليه فى الله تعالى ، الأعز الأكرم الأحظى فى ذات الله لديه ، أبى زكريا يحيى بن على ، والفقيه القاضى أبى محمد بن جحاف ، وساير الفقهاء والوزراء والأخيار والصلحاء ، والكافة ببلنسية ، حرسها الله ، وأدام كرامتهم بتقواه .

سلام مبرور كريم ، مردد عميم على جميعكم ؛ ورحمت الله وبركاته ، وبعد : فإن كتابنا إليكم ، كتبكم الله ممن آثر الحق واتبع سننه ، وادّرع الحزم ولبس جننه ، وسمع القول واتبع أحسنه ، وحافظ على كتاب الله الذى يسره للذكرى وبينه ، وجعلنا وإياكم ممن جمّله بتقواه وزينه ، من مناخنا بكرنطة ، فى العشر الأول من جمادى الأولى سنة ثمان وثلاثين وخمس مائة ، وبحمد الله من صحيفتنا هذه صدرها الأكرم ، وكل قول فبعده يترتب وينتظم . وقد جاء فى الآثار : كل كلام لايبدأ فيه بذكر الله فهو أجذم .

وبعد أن نستوفى واجب الحمد والشكر ، ونذكر نعمه السابغة ، علينا أجمل الذكر ، فنسأل الله توفيقاً قايداً إلى الرشد ، وقوة على طاعته نحمل بها من تلزمنا رعايته ، على المنهج الأفضل والسنن الأحمد ، ونستعيذه من قلب لايخشع ودعاء لايسمع ، وموعظة لاتنفع ، وسجية لاتطاع ، وهواً يتبع ، ونصلى على محمد نبيه ورسوله الذى طهره تطهيراً ، وأرسله رحمة للعالمين بشيراً ونذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ، فبلغ رسالة ربه وهداه ، وصبر على مشقة البلاغ وأذاه ، ولم يخش أحداً إلا الله الذى رجاه ، إلى أن بلغ الكتاب أجله والدين مداه ، وانتهى ملك أمته إلى ما كان الله له زَواه ، صلى الله عليه وعلى صحبه الذين ذبوا عن هذا الدين وحموا حماه ، ووالوا من والاه ، وعادوا من عاداه .

ولما كان ، أعزكم الله ، الدين ينعت بالنصيحة لله ولرسوله وللمسلمين ، والذكرى تنفع المؤمنين ، وجب أن نتخذ لكم من الموعظة به أنفسها الذى مُرُّها فى العاقبة حلو ، وأخفض مراتبها فى الله علو ، فاعلموا ، أعلمكم الله ، ولا أقامكم مقاما يرديكم ، أن أقرب الناس إلى الله أحناهم على عباده ، وأمحضهم للنصيحة لهم بمبلغ جده واجتهاده ، وأن أولى الناس بنا من طاب خبره ، وكرم أثره ، وحسن مورده فى الأمور ومصدره ، وكذلك « العامل » منكم و« القاضى » وفقهما الله ، إنما أقعدا بذلك المكان لخير يتوليانه وشر يردعانه ، وعدل يقضيانه ، فليقدما أولا تسديد أمرهما ، ولينظرا فى إصلاح أنفسهما ، قبل إصلاح غيرهما ، فمن لا يصلح أمر نفسه لا يصلح سواه ، ومن لا سدد أموره لايسدد أمر من تولاه . وعليكم أجمعين بتقوى الله فى السر والإعلان ، والتمسك بعصم الإيمان ، والاستعانة على حوايجكم بالكتمان ، والتنزه عن فلتات اليد واللسان . ولم تخل أمة من جاهل وعليم ، ومعوج وقويم ، فليردع الجاهلَ العليم ، ولينبه المعوجَ القويم ، ولن يزال الناس بخير مالم يتساووا ، فإذا تساووا هلكوا .

وأهم أموركم الصلاة ، التى هى سبيل النجاة لسالكها ، ولاحظ فى الإسلام لتاركها ، فالزموها فى جماعاتها ، ولاتخلوا بشىء من مسنوناتها ، ومفروضاتها ، وأخلصوا فيها لله العلى الأكبر ، واعلموا أنها كما قال سبحانه « إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » .

وعليكم وفقكم الله بإصلاح ذات البين ، وإعتماد الحق المخلص فى الدارين ، وتخير الرفقا وانتخاب الجلسا ، فإن مثل الجليس كمثل القين ، والصاحب الصالح قوة فى الدين ، وقرة فى العين .

وانتدبوا واندبوا من قبلكم للجهاد ، الذى هو من قواعد الإيمان والرشاد ، أمر الرحمن ، وفرض على الكفاية والأعيان ، واتصال الهدو بفضل الله وللأمان . وقد جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « مثل المجاهد فى سبيل الله كمثل القايم الصايم الذى لايفتر عن صلاة ولاصيام » .

والذى نأخذ به عهد الله على العامل منكم الرفق بالرعية ، والحكم بالتسوية ، وإجراء أمورها على السبيل الحميدة المرضية ، فهى العنصر الذى منه الاستمداد ، والأصل

الذى بثبوته تعمر البلاد، وتتوفر الأجناد، ويتمكن الرباط فى سبيل الله والجهاد، وليعلم أن العدل يقسطها، والجور يسخطها، وقلة المساواة تشتتها وتقنطها. ولاسبيل أن يستعمل عليها إلا من يستَنْشَق جانبه وتحسن الأحدوثة عنه. وأن ظهر أحد منهم بنظر جميل فيه، وكان فى نفسه ما يخفيه، فالبدار البدار إلى عزله وعقابه والتشديد فيما نأمر به.

واعلموا، رحمكم الله، أن مدار الفتيا ومجرى الأحكام والشورى، فى الحضر والبُدا، على ما اتفق عليه السلف الصالح، رحمهم الله، من الاقتصار على مذهب إمام دار الهجرة أبى عبد الله مالك بن أنس، رضى الله عنه، فلاعدول لقاض ولامُفتٍ عن مذهبه، ولايأخذ فى تحليل ولاتحريم إلا به، ومن حاد عن رأيه بفتواه، ومال من الأئمة إلى سواه، فقد ركب رأسه واتبع هواه، ومتى عثرتم على كتاب بدعة، أوصاحب بدعة فإياكم وإياه، وخاصة وفقكم الله، كتب أبى حامد الغزالى، فليتتبع أثرها، وليقطع بالحرق المتتابع خبرها، ويبحث عليها، وتغلظ الإيمان من يتهم بكتمانها.

والخمر، نزهكم الله عن خبايث الأمور، التى هى جماع الإثم والفجور، والباب المفضى إلى سواكن الفسق والشرور، فاجتهدوا فى شأنها، وأوعزوا فى جميع جهاتكم بإراقة دنانها، فقد جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «لعن الله الخمر وعاصرها وحاملها والمحمولة إليه».

وكذلك نوكد العهد فيما نوصى به دايبا، مما أوجبه الله تعالى فى حقوق المسلمين من الأعشار والزكوات، والأموال المفروضة للأرزاق المسماة، فليؤخذ مافرض الله منها فى نصابها المعلوم، وعلى سنة نبيه عليه أفضل الصلاة والتسليم.

وكذلك نوكد عليكم أتم تأكيد أمر أهل الذمة ألا يتصرف أحد منهم فى أمور المسلمين، لأنه من فساد الدين.

والسلام الأبر الأكرم الأخطر على جميعكم، ورحمة الله وبركاته، وعلى من هناك من المسلمين».

(تمت الرسائل المرابطية)

١

صـــيغة التوحيد

التى وضعها المهدى ابن تومرت لأتباعه

توحيد البارى سبحانه

(منقولة عن كتاب « أعز ما يطلب » ص ٢٤٠ و ٢٤١)

لاإله إلا الذى دلت عليه الموجودات ، وشهدت عليه المخلوقات ، بأنه جل وعلا ، وجب عليه الوجود على الإطلاق ، من غير تقييد ولا تخصيص ، بزمان ولامكان ، ولاجهة ولا حد ، ولا جنس ولاصورة ولا شكل ، ولامقدار ولاهيئة ولاحال ، أول لايتقيد بالقبلية ، آخر لايتقيد بالبعدية ، أحد لايتقيد بالأينية ، صمد لايتقيد بالكيفية ، عزيز لايتقيد بالمثلية ، لاتحده الأذهان ، ولاتصوره الأوهام ، ولاتلحقه الأفكار ، ولاتكيفه العقول ، لايتصف بالتحيز والانتقال ، ولايتصف بالتغير والزوال ، ولايتصف بالجهل والاضطرار ، ولايتصف بالعجز والافتقار ، له العظمة والجلال ، وله العزة والكمال ، وله العلم والاختيار ، وله الملك والاقتدار ، وله الحياة والبقاء ، وله الأسماء الحسنى ، واحد فى أزليته ، ليس معه شيء غيره ولا وجود سواه ، لا أرض ولا سماء ولاماء ولاهواء ، ولا خلاء ولا ملاء ، ولانور ولاظلام ، ولاليل ولانهار ، ولا أنيس ولاحسيس ، ولا رز ولاهميس ، إلا الواحد القهار ، انفرد فى الأزل بالوحدانية ، والملك والألوهية ، ليس معه مدبر فى الخلق ، ولاشريك فى الملك ، له الحكم والقضاء ، وله الحمد والثناء ، ولا دافع لما قضى ، ولامانع لما أعطى ، يفعل فى ملكه ما يريد ، ويحكم فى خلقه ما يشاء ، لايرجو ثواباً ، ولايخاف عقاباً ، ليس فوقه آمر قاهر ، ولامانع زاجر ، ليس عليه حق ، ولاعليه حكم ، فكل منة منه فضل ، وكل نقمة منه عدل ، ولايسأل عما يفعل ، وهم يسألون .

٢

رسالة الخليفـــــة عبد المؤمن بن على

(منقولة عن مخطوط كتاب نظم الجمان لابن القطان لوحة ٥٦ ب — ٦٥ ا)

« أمره رضى الله تعالى عنه ، بالأمر بالمعروف ، ونهيه عن المنكر وعدله ونهجه مناهج الحق وفضله »

(له رسالة جامعة لأنواع من الأوامر ، خلدت فى مآثره السنية ، ووصاياه الحكيمة. وهى من إنشاء الكاتب أبى جعفر بن عطية، وهى بعد البسملة والصلاة) .

من أمير المؤمنين أيده الله تعالى بنصره ، وأمده بمعونته ، إلى جميع الطلبة الذين بالأندلس ، ومن صحبهم من المشيخة ، والأعيان والكافة ، وفقهم الله تعالى ، واستعملهم بما يرضاه .

سلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته .

أما بعد ، فالحمد لله ، وهو اللطيف الكريم ، الرؤوف الرحيم ، الذى بعدله قامت السموات والأرض وبه تقوم ، وعلى محمد نبيه المصطفى الصلاة المباركة والتسليم ، ولأمته المخلصة فى عليين كتابها المرقوم ، والرضا عن الإمام المعصوم ، المهدى المعلوم ، الذى بعثه رحمة للمؤمنين ، ينيلهم به الروح والنعيم ، ويريهم رحيقها المختوم .

وكتابنا هذا — كتب الله تعالى لكم كل رأفة ورحمة ، وسوغكم من اليمن والأمن أنعم نعمة ، وجعلنا وإياكم فيمن قدم لدارقراره ونعمه — من الحضرة العلية بتينملّل حرسها الله تعالى فى سادس عشر من شهر ربيع الأول سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة، وقد وصلناها — والحمد لله — وجناح الرحمة منضوض، وطرف المكاره مغضوض ، وفيض العدل والبذل منتشر مستفيض ، وشأن الظلم — بإذن الله تعالى — مكفوف مقبوض ، والحق أبلج لاكناية ولاتعريض .

وكان مقصودنا من هذه الوجهة المباركة زيارة قبر المكرم المهدى، رضى الله تعالى عنه ، لتجديد عهد به تقادم ، وشفاء شوق إليه لزم ولازم ، والنظر فى بناء مسجده المكرم تمتعاً ببركاته ، ورجاء فى تضاعف الأمر بكل لبنة من لبناته ، وحرصاً على أن يتوافر به ، حظ التوفيق وقسمه ، ويعلو فى الملأ الأعلى ذكره

ورسمه ، ورغبة فى رفع بيت من أفضل البيوت ، التى أمر الله عز وجل أن ترفع ؛ ويذكر فيها اسمه ، ولتنعم الجوارح ، بمشاهدة هذه المشاهد المنعمة ، والمواسم المعظمة ، وتتزود بالتطوف على معاهد ما عهدته من العوارف المتممة ، كل ذلك غرضاً فى ذات الله تعالى غرضه ، وأمر يستحب المرء إليه طلب ذلك الخير ويستنهضه .

وقد تم — بحمد الله تعالى — هذا الوطر ، واقتضى الإياب إلى النظر فى المصالح ، والرأى الجميل النظر ، وتفجرت — بحمد الله تعالى — منابع الخير وفاضت ، وعادت روابض الأمر إلى أشرف حالاته وآضت ، وانبعثت موارد البركات بعد ما غارت فى غير هذا الزمن المذكور وفاضت ، ونسأل الله تعالى عوناً على شكر هذه النعم التى عمت ملابسها ، ووعت الأفئدة نفائسها ، وخاب عن رحماها خاسر الكامة وبائسها .

وان الله تعالى ، قد قضى بأن يكون شرف صاحبه به وامتساكه ، وبين العدل والجور حياة العالم وهلاكه ، فالسعيد من لقى ربه مبرأً من اتباع الهوى سليما ، والشقى من أتى مليا ، باكتساب الكبائر ملوماً ، « ومن يكسب إثما فإنما يكسبه على نفسه ، وكان الله عليما حكيما » ، والله سبحانه يهب الرحمة للمسترحمين ، ويحب الرفق ويحل به كنفه الأمين ، وفى الحض على ذلك يقول وهو أصدق القائلين « واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين » وبرحمته سبحانه بسط لعباده النعماء ، وبرأفته كشف عنهم العماء ، قال النبى صلى الله عليه وسلم : إنما يرحم الله من عباده الرحماء .

وقد اتصل بنا — وفقكم الله تعالى — أن من لايتقى الله ولايخشاه ، ولا يراقبه فى كبيرة يغشاها وتغشاه ، ولايؤمن بيوم الحساب فيما أذاعه من المنكر وأفشاه ، يتسلطون بأهوائهم على الأموال والأبشار ، وينتشرون بالقتل بأعراض الدنيا أقبح الانتشار ، يستحلون حرمات المسلمين من غير حلها ، ويسارعون إلى نقض عقد الشرع وحلها ، ويصفون الشدة والغلظة بطراً ورياءً فى غير محلها ، ويبتدعون من وجوه المظالم ما تضعف شواهق الجبال عن حملها ، ويستنبطون من فواحش الآثام ما تذهب نفوس المؤمنين لأجلها ، ويتسببون إلى قتل المسلمين ، فضلا عن استباحة أموالهم وأعراضهم بتلبسات يسيئونها ، ومزورات يضيفونها إليهم ، ينسبونها ، وينظرون إلى اهتضام حق الله تعالى فيهم بأباطيل

يعدونها ظلما ويحسبونها ، ويسعون فى استئصال نفوسهم بكل قاطعة موجعة ، ويعيثون فيهم بكل غاضبة للقلوب منتزعة ، والنبى ، صلى الله تعالى وملائكته الكرام عليه وسلم يقول : « من قتل عصفوراً بغير حق عبثاً ، جاء يوم القيامة وله صراخ عند العرش يقول : يا رب سل هذا فيم قتلنى عبثاً من غير منفعة » ولا يلتفتون إلى عاقبته ولا ينظرون ، ولا يحرون بآذانهم ما يفعل الله بأمثالهم ولا يخطرون « يخادعون الله والذين آمنوا ، وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون » . هيهات هيهات ، إنهم ساء ماكانوا يعملون ، تالله ليأتينهم من العقاب الأليم فى أقرب أمد ما يهدهم هداً ، ويجعل بينهم وبين النجاة من اشتداد الهلكة سداً ، ويتأصلهم بصواعق الانتقام فقد جاءوا شيئاً إداً . أما علموا أن الله تعالى يطلع على نجواهم ، ويوقعهم فى مهاوى بلواهم ، ويلبسهم أردية سرائرهم فيما استهواهم الشيطان به واستغواهم . أما علموا أن أمر المهدى رضى الله تعالى عنه تساوى فى الحق به أضعف المسلمين وأقواهم ، ألم يقل رسول الله صلى الله تعالى وملائكته الكرام عليه وسلم : « المسلمون تتكفى دماؤهم ويسعى لذمتهم أدناهم ، وهم يد على من سواهم » . لقد أمنوا مكر الله جرأة عليه وإقداماً ، وأعمت الشهوات بصائرهم إذهابا لنور الحق من نفوسهم وإعداماً ، وتالله لو تعين لنا فاعل ذلك وتشخص ، لما خرج من حياله مكروه ولا تخاص ، ولسارع إليه من أسرع عقابنا ما يمحو رسمه محو الفنا ، ويكتب يديه بما قدمتا من الخنا . ولقد ذكر لنا من تلك المظالم المستغرقة لأنواع المآثم ، الموبقة لأهاليها حين يقرع سن الندم النادم ، أن أولياءك الخائضين فى غمرات أبحرها ، المثبرين لأسباب منكرها ، الصارمين لعلق الشريعة ، القاطعين لأبهرها ، يمدون أيديهم إلى ضرب الناس بالسياط ، إبلاغاً فى الانتهاء بكثرتها وإمجاشا ، ويتسببون بذلك إلى أخذ أموال الناس إيغالا للصدور وإيحاشاً ، وذلك أمر معاذ الله أن يرضى به مؤمن بالله ، أو يتجه إليه حق بنوع من الاتجاه ، ما أبعد العدل — أصلحكم الله تعالى — عن هذه الأمثال والأشباه .

وقد علمتم أن عادتنا فيما يستوجب الضرب أو يستحقه ، ممن يظلم الأمر الشرعى أو يعقه بحدود معلومة ، دون إفحاش ولا انتهاك ، ومواقف مرسومة تقابل كلا بمقتضى جرمه من أثيم أو أفاك .

ولقد ذكر لنا فى أمر المغارم والمكوس والقبالات ، وتحجير المراسى وغيرها

ما رأينا أنه أعظم الكبائر جرماً وإفكاً ، وأدناها إلى من تولاها دماراً وهلكاً ، وأكثرها فى نفس الديانة عبثاً وفتكاً ، فإنا لله وإنا إليه راجعون . هل قام هذا الأمر العالى ، إلا لقطع أسباب الظلم وعلقه ، وسد سبيل الحق وطرقه ، وإجراء العدل إلى غاية شأوه وطلقه . اللهم إنا نشهدك أن سبيلنا سبيلك ، وإنا نستعيذك مما استعاذك منه محمد رسولك . روى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أعوذ بالله من المغرم والمأثم » تنبيهاً على ما فى أغرام الناس من الظلم المظلم . ولئن نقل إلينا — والله الشاهد — أن نوعاً من هذه الأنواع المحرمة أو صنفاً من تلك الأصناف المظلمة ، يتولاه أحد هنالك من البشر أو يأمر بشىء من ذلك الفعل المستنكر ، لنعاقبه بمحو أثره عقاباً يبقى [عظة] لمن اتعظ ، وعبرة لمن تنبه لزاجر الحق واستيقظ .

وإن من ذلك الرأى الذميم والسعى المنقوم ، ماذكر لنا فى أمر المسافرين ، الذين يريدون الرجوع إلى أوطانهم وعمارتها ، والطوائف المارة على البلاد لمعنى تجارتها ، يتسبب إليه قوم من هؤلاء الظلمة الدخلاء ، الذين يضعون الغش طى ما يوهمون به من النصيحة ، ويستنبطون المكر فى تصرفاتهم القبيحة ، فيقولون للرجل منهم عندك من حقوق الله كيت وكيت ، وإن للمخزن جميع ما به أتيت ، ويقرنون بهذا من الوعيد والإغلاظ الشديد ، ما يرضى له المذكور بالخروج عن جملة ماله ، ويعتقد السلامة من ذلك الظالم الغاصب أعظم منالة ، وإنها لداهية عاقرة ، قاصمة للظهر فاقرة ، ويا عجبا لكم معشر الطلبة والشيوخ وكافة الموحدين ، فإنكم بذلك مطلوبون ، وما حجتكم وما أنتم على حق ، كيف تتكيف هذه الكبائر وأنتم للأمور هنالك رصد ، أم كيف تجرى هذه الظلمات وقد قام للحق أود ، أم كيف تكون الدماء على هذه الصورة تسفك والحرمات تنتهك ، ولا يمتعض لذلك منكم أحد ، كلا ليعاقبن كل من جنى ، وليظهرن ما قصد القاصد وما عنى ، وإن من وراء قولنا لتتبعا يبحث عن ذلك ويمحص ، ونظراً يفرق بين المشكل منه ويخلص .

ولاشك — والله أعلم — فى أن أسباب تلك المنكرات ، ودواعى تغير تلك الأحوال المتغيرات ، قوم يتوسطون بينكم وبين الناس ، ويقولون ما لايفعلون ذهاباً إلى التدليس عليكم والإلباس ، ويجعلون النفير بالظلم والعدوان بدلا من العقل والقول الجميل والإيناس ، وذلك لغيب المباشرة ومباينتها ، وبعدكم عن

مشاهدة الأمور ومعاينتهما ، والتحجب عن مطالعة الأمور داعية كبرى لفسادها واختلالها ، وسبب قوى فى انتقاضها وانحلالها ، وفرصة لوسائط السوء بانهماكها فى البواطل واسترسالها ، فلا تكلوا النظر فيها إلى أحد سواكم ، ولاتبعدوا بغلظ الحجاب عما قصدكم من الخير ونواكم ، وباشروا الأحكام هنالك مباشرة المتعهدالمتفقد ، وعليكم بالتواضع لأمر الله تعالى وترك الاستعلاء المنتقد ، وتحفظوا فى جانب المسلمين من كل خفيف المقال ، كثير الاضطراب فى الباطل والانتقال ، فقد نهى رسول الله صلى اللهعليه وسلم عن القيل والقال ، وتثبتوا وفقكم الله تعالى فى الأحكام ، التى لابد لكم من النظر فيها تثبت الحث[البحث] عن حقائق الأمور والاستقصاء ، وتعهدوا الناس بالتحذير من اللدد فى الخصام وبالغوا فى الإيصاء .

ولاتظنوا أن الاجتهاد فى الأمور يؤدى إلى الهجوم عليها والاقتحام ،ويخرج النظر عن التثبت فى القضايا والأحكام ، فاذهبوا فيها مذهباً وسطاً ، واقصدوا الاعتدال مقصداً مقسطاً ، ولاتجتهدوا فى شىء لاتعلمون فيه حكماً ، وشاورونا فيما يخفى عنكم وجهه ، لنرسم لكم فيه رسما ، فليس كل مجتهد مصيباً برأيه ، ولا كل هاجم على رأى منجحاً فىسعيه ، وبين طرفى الأحوال واسطة جميلة فيها معقد السياسة ومناطها ، وخير الأمور — قال عليه الصلاة والسلام — أوساطها .

وعليكم أن تبحثوا بغاية جدكم عن أولئك المسببين لتلك القبائح ، الساعين فى صد ما يرضاه الله تعالى من المصالح ، وتعرفونا بهم بعد تثقيفهم ، لنشرد بهم من خلفهم ، ونكف بعقابهم نوعهم الظالم وصنفهم ، وقد استخرنا الله ، فى سد تلك الذريعة ، وصد تلك الأفعال الشنيعة ، فرأينا أن ترفعوا إلينا أحكام المذنبين للكبائر ، وتعلمونا بنبأكل منترون أنهيستوجبالقتل بفعله الخاسر ، دون أن تقيموا الحد عليه ، أو تبادروا بالعقاب إليه ، ولاسبيل لكم إلى قتل أحد من كل من هو فى بلاد الموحدين وأنظارهم ، ومن هو منهم وداخل فى مضمارهم ، وكل من ترون أنه يستوجب القتل ، ممن يريد المكر فى أمر الله تعالى والختل ، فعرفونا بجلية أمره وتصحيحه ، وخاطبونا بميز أمره ومشروحه ، لينفذ فيه من قبلنا مايوجه الحق ويقتضيه ، ونمضى فى عقابه ما ينفذه الشرع ويمضيه ، فإياكممن مخالفة أمرنا هذا فى قتل أحد ممن ذكرنا كائناً من كان ، كبر ذنبه عندكم أو هان ، ولتبادروا

إلى أعلامنا بذنبه بعد سجنه وتثقيفه ، لنقابله بما نراه ، ونجرى الحق فى مجراه .

وأنه أعلمنا بأن من يرضى بتلك الفواحش بما يرضاه ويستبيحه ، ولايبالى أحسن الفعل فيه أم قبيحه ، يبتاع المرأة ويبيعها دون استبراء ، ويعبث فى ذلك بكل إقدام على الله تعالى واجتراء ، ولايتحفظ من مواقعة الزنا المحض ، ومخالفة الواجب مع الفرض ، وأن فى ذلك من اطراح ما أمر الله تعالى به من اتباع الشرع ، وإفساد الأصل من السنة والفرع ، ما لايحل سماعه ، ولايستقر بنفس مؤمنة استطلاعه ، فلا سبيل لأحد ممن هنالك أن يبتاع شيئاً منهن أو يبيع ، حتى يستأذن الحاكم لأمره منكم والشيوخ ، لئلا يذهب الحق فى ذلك ويضيع ، ولتقدموا للنظر فى أسواقهن من ترضون دينه وأمانته ، وتتحققون ثقته وصيانته ، فمن أبيح له البيع والابتياع ، أحضره الأمين المذكور ليرتفع بشهادته الشك والنزاع ، وتجرى السنة مجراها ويمتثل الأمر المطاع . وكذلك فليتوقفوا عن بيع النساء فى جميع من تغنموه منهن فى تلك الأرجاء ، حتى تخاطبونا بأصل أمرهن وكيفيته ، وتعلمونا من ذلك بجليته ، لنرسم لكم فيه ما يكون عليه اعتمادكم ، ويجرى إليه اقتضاؤكم.

والله الله فى البحث على الخمور ، وتقديم النظر فى أمرها ، فهو من أهم الأمور ، فإنها مفتاح الشرور ، ورأس الكبائر والفجور ، وهى رابطة أهل الجرم ، وجامعة أشتات الظلم . قال النبى صلى الله تعالى وملائكته الكرام عليه وسلم : « الخمر جماع الإثم » فجدوا فى طلبها فى المواطن المهتمة بشأنها ، واجتهدوا فى إراقتها وكسر دنانها ، واعمدوا إلى السبب الذى يؤدى إلى التمكن منها ، فارعوه ، والحظوه ، واطرحوا الإغفال لذلك والفظوه ، وقدموا أمناء متخيرين للتطوف على مواضع الترتيب ، يكون بالمحافظة على ذلك محل المكالىء الرقيب ، ولا يكن منهم إلا من يفرق بين الحلال ويميز ، ويعرف ما يجوز شربه ، وما لا يجوز ، ومروهم بالتعهد لمواضع بيع الرُّب واعتصاره ، وخذوهم بتوقف جدهم على ذلك واقتصاره ، فما حل منه أباحوه ، وما كان غير ذلك قطعوه أصلا وفرعاً وأراقوه ، (الحلال بيّن والحرام بين) ولقضايا الشرع نظام . قال رسول الله صلى الله تعالى وملائكته الكرام عليه وسلم : « ما أسكر كثيره فالجرعة منه حرام » .

وإن من يسعى فى نوع من أنواع الفساد ، ويستصحب الأضرار بالمسلمين فى الإصدار والإيراد ، هؤلاء الراقصين الذين يردون بالكتب ويصدرون ، ويمشون فيما بيننا وبينكم وينفرون ، فإنه ذكر لنا أنهم يأخذون الناس بالنظر فى كلفهم ،

ويلزمونهم فى زادهم من كل موضع وعلفهم ، وهذا فعل كل فرقة منهم فى سيرها ، وسوء رأيهم بذلك فى المخازن وغيرها ، وأن من جملة ما حكى عنهم أنهم يتألفون فى الطرق جموعاً ، ويحلون بأفنية الناس حلولا شنيعاً ، يكلفونهم مؤناتهم تكليف المجرم ، ويتحكمون عليهم بحكم المغرم ، حتى أنهم لايرضون فى ضيافاتهم إلا بأسمن الجزر ، وناهيكم بهذا الاجتراء العظيم الضرر ، فسارعوا وفقكم الله تعالى ، إلى حسم هذه العلة من أصلها ، وبادروا إلى قطع تلك العادة الذميمة وفصلها ، وتخيروا لرسائلكم إرسالا ، وانتقوا من أهل المقدرة على ذلك والثقة رجالا ، وادفعوا إليهم زاداً يقوم بهم فى المجىء والانصراف ، ويقطع شأنهم من التكليف والإلحاف ، وارسموا لهم أياماً معروفة العدد ، معلومة الأمد ، لينتهوا بها ، إلى مواقف رسائلهم ، ويوزعوها على مسافات مراحلهم ، وحذروهم من تكليف أحد من الناس ولو مثقال ذرة ، وأوعدوا من تسبب منهم إلى مسلم بمساءة أومضرة ، والله تعالى المستعان على دفع أسباب الجور ، ونستعيذ به سبحانه من الحور .

وكذلك ذكر لنا — وفقكم الله تعالى — من التحكم فى الأموال ، وقلة المبالاة بالتفريق بين الحرام منها والحلال ، أن أولئك الذين ذكرت خدعهم ، ووصفت غرضهم الذميم ومنزعهم ، يفعلون فى أموال الناس ما تقدم ذكره ، وشرح فكره ، وتمتد أيديهم إلى المخازن هناك ، فيعيثون فيها ، ويتحكمون ، ويجرؤون فى التعدى عليها ملء شأوهم وأنفسهم يظلمون ، فاتقوا الله تعالى فيها ، فإنها أمواله المخزونة فى أرضه ، وبادروا إلى كف كل معتد وقبضه ، ولاسبيل لكم أن تنفذوا منها قليلا ولاكثيراً ، إلا بعد استئذاننا وتعريفنا بالدقيق والجليل مما هنالك ، وهذا أمر منا لكم ، ولكل من وقف على كتابنا هذا من الطلبة والشيوخ والموحدين كافة أمراً دائماً لازماً ، سنته بالاستمرار مستظلة ، وصحته بفضل الله لاتدخلها تعله .

وقد خاطبنا بمثل ما خاطبناكم به ، جميع الطلبة الموحدين ، وكافة البلاد التى هى بالدعوة المهدية معمورة ، وبكلمة الإيمان مشرقة منيرة ، فأمرنا بجميع فصول كتابنا هذا إليكم ولسواكم شامل ، وفى كافة أقطار الموحدين نافذ عامل ، فمن خالفه بوجه من وجوه الخلاف ، فقد تبين عناده وساء فى العاجل والآجل مآله ومعاده ، ومن لم يمتثله ، بواجب الامتثال ، ويكف يده عما رسمناه فى كافة الأحوال ، فقد تعرض لأشد العقاب وأوحاه ، واستقبل من ارتكاب النهى ما يصده الانتقام به عن سواه منحاه ، فاستصحبوا حدنا هذا استصحابا مؤيداً ،

واتخذوه فى كافة أحوالكم مستنداً ومعتمداً ، وعلى كل من إلى نظركم من أهل تلك البلاد المنتظمة فى سلك التوحيد ، الآخذة بالمذهب الرشيد ، عون الأمير — أيده الله تعالى — على بسط العدل وإفاضته على الكل ، ورفع العبد المثقل ، وكل أن يسلكوا فى جميع تصرفاتهم سبيل الاستقامة ، ويستمروا على استعمال الحقائق والمواصلة لذلك والاستدامة ، ويتجافوا عن مواقع الظلم ، فالظلم ظلمات يوم القيامة ، وينقادوا للواجبات بداراً إليها وإسراعاً ، ويكونوا فى التساعد على الصلاح كالنفس الواحدة تألفاً واجتماعاً .

ولما كان هذا الأمر عندنا — وفقكم الله تعالى — أهم أمر وأوجبه ، وأحق ما أدناه الحق وقربه ، وكان اهتمامنا به ، قد جعله على كل حالة مقدماً ، وأنفذه بأمر الله تعالى إنفاذاً ملتزماً ، رأينا أن نجعل فى كتابنا هذا علامة بخط يدنا ، وها هى قد رفعت الإشكال رفعاً بيناً ، وأرتكم فرط اهتبالنا حقاً مبيناً ، فبادروا إلى تلقيها بالامتثال والمسارعة ، وصلوا ابتدار شأنها بالمواصلة والمتابعة ، وأحضروا للاجتماع على هذا الكتاب جميع من فى تلكم البلاد من الطلبة والعمال وكافة المقدمين للأعمال ، ولاتقدموا أمراً من الأمور على إنفاذ جميع ما تضمنه ، والاعتمال بكل ما شرحه وبينه ، ولاتشتغلوا بشغل قبل الاشتغال بمعانيه ، وبما أمركم به على قواعده ومبانيه ، ومخاطبتنا بما يكون منكم فى تلقيه ، واتباع ما ينهيه إليكم ويلقيه ، واقرأوه على الكافة أعالى المنابر ، واستحضروا له وفود القبائل من البوادى والحواضر . وأسمعوا به افصاحاً وإعلاناً ، وأشربوه قلوب الناس جماعات ووحدانا ، وأحسنوا إيصال أغراضه إليهم ، فإن الله تعالى يجزى الإحسان إحساناً .

فإذا تفرغتم من قراءته على الجماهير وبلغتم صحته بواجب التبليغ والتقرير ، فاكتبوا منه نسخاً إلى كل قبيلة من قبائل ذلك النظر ، وكل كورة من تلك الكور ، وأكدوا عليهم فيما أكدنا عليكم فيه من تقديم العمل فيه على كل الوجوه ، وامتثال مغنمه ، عل ما يحبه الله تعالى ويرتضيه ، وحذروهم من التعرض لمخالفته ، فلاعذر لمن لايقصده على الفور ويأتيه ، ونحن بمرصد التطلع والتسمع لما يكون منكم ومنهم ، لنقابل بالواجب ما يصدر عنكم وعنهم .

وقد علم الله تعالى أن غرضنا بجميع المسلمين إشفاق وحنان ، وجانبنا لهم دعة مستمرة وأمان ، ولدينا من التراوئف بهم والرفق بجانبهم ، شأن لايفارقه من فضل الله تعالى شأن ، وقد علمتم ذلك منا واختبرتموه ، وجربتموه على مر الزمان

وصبرتموه ، فلتتلقوا كل من استرعاكم الله تعالى أمره بكل طلاقة ويسر ، ولتنشروا عليهم جناح الرحمة أكمل نشر ، ولتعلموا — رعاكم الله — ان من شملته كلمة التوحيد ، فى العهد القريب أو البعيد ، فى مضمار واحد من العدل محمولون، وأنكم عن كل من هنالك مسئولون، ولفظ الموحدين بيننا وبينهم جميعاً ، والحق يسلك بينهم من التناصف مسلكاً مشروعاً ، وقد ألفت الكلمة العلية بينهم ، فبعضهم لبعض فى الخير أسوة ، وقد قال الله تعالى « إنما المؤمنون إخوة » فاعتقدوا فيهم هذا الاعتقاد الجميل ، قصداً إلى مرضاة الله تعـالى وإيقانا ، وكونو عباد الله إخواناً ، وحسنوا بهم — رعاكم الله — ظناً ، وعودوهم الخير لفظاً ومعنى ، وتخلقوا معهم بمحاسن الأخلاق ، وقولوا للناس حسناً ، واستألفوا الناس بالتى هى أحسن، وابذلوا لهم من المساعدة فى ذات الله تعالى غاية ما يتمكن ، وانهجوا لهم من المبرات منهجاً يبدو به مضمركم الجميل ويتبين ، وسروا بصالح عملكم وبشروا ويسروا — كما قال عليه الصلاة والسـلام — ولاتعسروا وسكّنوا ، ولا تُنفّروا .

واعلموا أن السعى فى هذا الغرض واجب ، والاعتمال فى رفع ذلك المـانع الحاجب ، لايتأتى لكم جملة واحدة ، حتى تكون نفوسكم متآلفة عليه متساعدة ، وتعاونوا على مرضاة الله تعالى تعاوناً يجمع فى الصلاح آراؤكم ، ويضمن التجمع التام لكم ولمن وراءكم ، فعليكم بالمظافرة، والمناصرة والموازرة ، فهى سواعد السعد وقواعد الود ، وشيم الكرام المحافظين للعهد ، وبها يعمر محل الرضا ونديه ، وبه أوصى الله تعالى ورسوله ومهديه .

وقد نصحنا لكم فاقبلوها نصيحة ، قصدت فى ذات الله تعالى قصدها ، وذكرنا لكم بهذه التذكرة ، فاستقبلوها رشدها ، ونبهناكم تنبيهاً بالغاً وللحال ما بعدها ، جعلنا الله وإياكم ممن امتثل أمره المطاع بخالص نيته ، وأفرغ الرحمة على قالب سجيته ، وحفظ ما استرعاه الله تعالى ، فكل راع مسئول عن رعيته .

وكان مما بعثنا — وفقكم الله تعالى— على تنبيهكم وإذكاركم ، وإيقاظكم للنظر فى تلك المصالح وإشعاركم ، ما ألفيناه بحضرة مراكش— حرسها الله تعالى— من بعض تلك الأنواع ، مما أحدثه فيها بعض أهل الابتداع ، كنوع القبالة ، وما يجرى مجراها فى وجوب الإزالة ، والإحالة ، فإنا كنا لانبحث عن ذلك ، لتخيلنا أنه لايجوز أحد أن يسلك فى هذا الأمر الذى أظهره الله تعالى تلك المسالك ، فلما كان الحث

عما يجب ، وأزال عن وجه المشاهدة ماكان يحتجب ، طلعنا على ذلك فأنكرنا ماكان نكيراً ، وأزلنا بعون الله تعالى ماكان محذوراً بالشرع محظوراً ، حتى تطهر ثوب الأمن من دنسه ، وتجلى الوجه الخالص عن ملتبسه ، واقتبس نور الحق من مقتبسه ، وجرت الأمور على ما عهدناها عليه من الاعتدال والقوام ، بحكم ما أحكمه الإمام المهدى رضى الله تعالى عنه فى القضايا والأحكام ، وإذا كان الافتيات فى شيء من هذا ونحن على اقتراب ، فكيف الأمر فيمن هو فى حكم بعد عنا واغتراب.

فانظروا هذا — وفقكم الله تعالى — نظرة أولى الألباب ، ولتسعوا جهدكم فى رفع ذلك العمـل المستراب ، ولتذهبوا إلى إظهار أمر الله سبحانه ، على موجب الكتاب .

والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته .

فهرست الموضـــــوعات

صفحة

الكتاب الثالث

ثورة القوى الوطنية بالأندلس

وتغلب الموحدين على شبه الجزيرة

الكتاب الرابع

نظم الدولة المرابطية وخواص العهد المرابطى

الكتاب الخامس

الممالك الإسبانية النصرانية

خلال العصر المرابطى وأوائل العصر الموحدى

صفحة

وثائق مرابطية وموحدية

فهرست الشـــعر والشعرا

فهرست الخرائط والصـــور